تاريخ العلامة

ابن خلدون

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر
في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم
من ذوي السلطان الأكبر
وهو تاريخ وحيد عصره

العلامة عبد الرحمن
ابن خلدون المغربي

المجلد التاسع

دار الكتاب اللبناني
بيروت

دار الكتاب المصري
القاهرة

I.S.B.N. 977 - 239 - 036 - 6



دار الكتاب المصري
٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج. م. ع.
تلفون: ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٢٤٣٠١ - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
ص.ب: ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقياً: كتامصر
FAX: (202) 3924657
ATT.: MR. HASSAN EL - ZEIN

دار الكتاب اللبناني
شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
تلفون: ٧٣٥٧٣١ - ٧٣٥٧٣٢ - فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
برقياً: داكلبان - ص.ب: ١١/٨٣٣٠ - بيروت - لبنان
FAX: (9611) 351433
ATT.: MR. HASSAN EL- ZEIN

طبعة مزيدة ومنقحة

١٤٢٠ هـ   ١٩٩٩ م
H. 1420   A.D. 1999

بسم الله الرّحمن الرّحيم

المجلد الخامس

القسم الأوّل

من تاريخ العلامة ابن خلدون

الخبر عن آل دولة السلجوقية من الترك المستولين على ممالك الإسلام ودوله بالمشرق كلها الى حدود مصر مستبدين على الخليفة ببغداد من خلافة القائم الى هذا الزمان وما كان لهم من الملك والسلطان في أقطار العالم وكيف فعلوا بالعلماء وحجروهم وما تفرع عن دولتهم من الدول

قد تقدّم لنا ذكر أنساب الأمم، والكلام في أنساب الترك، وأنهم من ولدِ كومر بن يافث أحد السبعة المذكورين من بني يافث في التوراة وهم: ماواق وماذاي وماغوغ وقطوبال وماشخ

وطيراش[١]. وعدّ ابن اسحق منهم ستة ولم يذكر ماذاي. وفي التوراة أيضاً أنّ ولد كُوْمر ثلاثة: توغرما واشكان وريعات. ووقع في الاسرائيليات أنّ الافرنج من ريعات، والصقالبة من اشكان، والخَزَر من توغرما. والصحيح عند نسّابة الاسرائيلين أنّ الخَزَر هم التُرْكمان. وشعوب الترك كلهم من ولدِ كومر، ولم يذكر من أيّ ولده الثلاثة، والظاهر أنهم من توغرما. وزعم بعض النسّابة أنهم من طيراش بن يافث. ونسبهم ابن سعيد الى ترك بن غامور بن سويل، والظاهر أنه غلط. وأنّ غامور تصحيف كما مرّ. وأمّا سويل فلم يذكر احد أنه من بني يافث وقد مرّ ذكر ذلك كله.

والترك أجناس كثيرة وشعوب، فنهم الروس والاعلان، ويقال إبلان، والخفشاخ، وهم القُفْجُق والهياطِلَة والخلج والغزْ الذين منهم السَلجوقيّة، والخطا وكانوا بأرض طُمْغَاج. ويمك والقور وتزكس واركس والطَطَرْ ويقال الطغرغر وأنكر، وهم مجاورون للروم. واعلم أنّ هؤلاء الترك أعظم أمم العالم، وليس في أجناس البشر أكثر منهم ومن العرب في جنوب المعمور، وهؤلاء في شماله قد ملكوا عامّة الأقاليم الثلاثة من الخامس والسادس والسابع، في نصف طوله مما يلي المشرق. فأوّل مواطنهم من

---

(١) قوله وهم ما واق الخ كذا في النسخ التي بأيدينا ووقع في أول الجزء الثاني ما يخالفه ا هـ. مصححه. وقد ذكرنا أسماءهم هناك، في أول الجزء الثاني، كما هي مذكورة في التوراة.

الشرق على البحر بلاد الصين وما فوقها جنوباً الى الهُنك ، وما تحتها شمالاً الى سدّ يأجوج ومأجوج. وقد قيل انهم من شعوب الترك، وآخر مواطنهم من جهة الغرب بلاد الصقالبـة المجاورين للافرنج مما يلي رومة الى خليج القُسْطَنْطينيَّة. وأوّل مواطنهم من جهة الجنوب بلاد القور المجاورة للنهر، ثم خُراسان وأذْرَبَيْجان وخليج القُسْطَنْطِينيَّة ، وآخرها من الشمال بلاد فِرْغَانة والشاش وما وراءها من البلاد الشمالية المجهولة لبعدها .

وما بين هذه الحدود من بلاد غَزْنَة ونهر جَيحون، وما يحفافيه من البلاد، وخَوارِزم ومفاوز الصين. وبـلاد القُفْجُق والروس حفافي خليج القُسْطَنْطِينيَّة من جهة الشمال الغربي ، قد اغتمر لهذه البسائط . منهم أمم لا يحصيهم إلّا خالقهم ، رحّالة متنقلون فيها مستنجعين مساقط الغيث في نواحيه ، يسـكنون الخيام المتخذة من اللبود لشدّة البرد في بلادهم فقروا عليها .

ومرّ بديار بـكر[1] وخرج اليه صاحبها نصر بن مروان، وحمل مائة الف دينار لنفقته ، فلما سمع أنه قبضها من الرعايا ردّها عليه ثم مرّ بناهرو وأمنها وأطاف على السور ، وجعل يمسحه بيده ويمرّ بها على خدوده تبركـاً بثغر المسلمين . ثم مرّ بالرُّها وحاصرها فامتنعت عليه. ثم سار الى حلب فبعث اليه صاحبها محمود رينول

---

(١) قوله ومر بديار بكر الخ غير ملتئم مع ما قبله، فلعل المصنف ترك هنا بياضاً، ولم يلتفت إليه الناسخ كما يظهر لمن تأمل هذا محصل ما كتبه الشيخ العطار ا هـ مصححه.

القائد الذي عنده يخبر بطاعته وخطبته، ويستعفيه من الخروج اليه منكراً منه الاذى، ويحيّ على خير العمل فقال : لا بدّ من خروجه. واشتدّ الحصار فخرج محمود ليلاً مع أمّه بنت وثاي المهنى متطارحاً على السلطان فأكرم مقدمها، وخلع عليه وأعاده الى بلده.

غزاة السلطان البارسلان الى خلاط وأسر ملك الروم

كان ملك الروم بالقسطنطينية لهذا العهد اسمه أرمانوس، وكان كثيراً ما يُخيف ثغور المسلمين. وتوجه في سنة اثنتين وستين في عساكر كثيرة إلى الشام، ونزل على مدينة مَنبِج واستباحها. وجمع له محمود بن صالح بن مرداس الكلابي وابن حسان الطائي قومهما، ومن اليهم من العرب فهزمتهم الروم. ثم رجع ارمانوس الى القسطنطينية، واحتشد الروم والفرنج والروس والكرج ومن يليهم من العرب والطوائف، وخرج الى بلاد كرد من أعمال خلاط. وكان السلطان ألبارسلان[1] بمدينة حوف من أذرَبيجان، منقلباً من حلب فبعث بأهله وأثقاله إلى هَمَذان مع وزيره نظام الملك، وسار هو في خمسة عشر ألف مقاتل، وتوجّه نحوهم متهيأ. ولقيت مقدّمته الروس فهزموهم، وجاؤوا بملكهم

(١) كذا، وهو: ألب أرسلان.

أسيراً إلى السلطان فجدعه، وبعث اسلابهم إلى نظام الملك. ثم توجه الى سَمَرْقَنْد ففارقها ألتكير، وأرسل في الصلح، ويعتذر عن تومق فصالحه ملك شاه، وأقطع بَلْخ وطَخارِسْتان لاخيه شهاب الدين مكين، الى خُراسان ثم إلى الريّ.

فتنة قاروت بك صاحب كرمان ومقتله

كان بكَرْمان قاروت[1] بك اخو السلطان ألب أرسلان أميراً عليها، فلما بلغه وفاة أخيه سار الى الريّ لطلب الملك فسبقه اليها السلطان ملك شاه، ونظام الملك، ومعها مُسْلِم بن قُرَيْش ومنصور ابن دبيس، وأمراء الاكراد. والتقوا على نهرمان، فانهزم قاروت بك وجيء به الى أمام سعد الدولة كوهراس[2] فقتله خنقاً. وأمر كرمان بسير بنيه، وبعث اليهم بالخلع، وأقطع العرب والأكراد مجازاةً لما ابلوا في الحرب. وقد كان السلطان ألب أرسلان شافعاً فيه على الخليفة فلقيهم خبر وفاة ألب أرسلان في طريقهم، فرّوا الى ملك شاه، وسبق اليه مسلم بطاعته. واما بهاء الدولة منصور ابن دَبيس فانّ أباه أرسله بالمال الى ملك شاه، فلقيه سائراً للحرب فشهدها معه.

---

(١) كذا، واسمه في الكامل: قاورت بك. ج ٨ ص ١١٤.

(٢) كذا، وهو: كوهرايين، كما في نسخة أخرى، أو كوهرائين كما في الكامل لابن الأثير.

ثم توفي أياز أخو السلطان ملك شاه ببلخ سنة خمس وستين فكفله ابنه ملك شاه الى سنة سبع وستين. وتوفي القائم منتصف شعبان منها لخمس وأربعين سنة من خلافته، ولم يكن له يومئذ ولد، وانما كان له حافد، وهو المقتدي عبدالله بن محمد. وكان أبوه محمد بن القائم ولي عهده، وكان يلقب ذخيرة الدين، ويكنى ابا العباس. وتوفي سنة [1] وعهد القائم لحافده، فلما توفي اجتمع اهل الدولة، وحضر مؤيد الملك بن نظام الملك، والوزير فخر الدولة بن جهير، وابنه عميد الدولة، والشيخ ابو اسحق الشيرازي ونقيب النقباء طراد، وقاضي القضاة الدامغاني فبايعوه بالخلافة لعهد جدّه اليه بذلك. وأقرّ فخر الدولة بن جُهَير على الوزارة، وبعث ابنه عميد الدولة الى السلطان ملك شاه لاخذ بيعته، والله الموفق للصواب.

استيلاء السلجوقية على دمشق وحصارها مصر ثم استيلاء تتش بن السلطان البارسلان على دمشق

قد تقدّم لنا ملك اقسز[2] الرملة وبيت المقدس وحصاره دمشق سنة احدى وستين، ثم عاد عنها وجعل يتعاهد نواحيها بالعيث والافساد كل سنة. ثم سار اليها في رمضان سنة سبع وستين

(١) كذا بياض بالأصل، ولم نعثر في المراجع التي لدينا على سنة وفاته.
(٢) كذا، واسمه في الكامل: أتسز، ج ٨ ص ١١٠.

وحاصرها، ثم عاد عنها، وهرب منها أميرها من قبل المستنصر العلوي صاحب مصر المعلى بن حيدرة، لانه كثر عسفه بالجند والرعية وظلمه، فثاروا به فهرب الى بانياس، ثم الى صور، ثم الى مصر فحبس ومات بها محبوساً. واجتمعت المصامدة بدمشق، وولي عليهم أنصار بن يحيى المصّمودي، ويلقب نصير الدولة. وغلت الاقوات عندهم، واضطربوا فعاد اليها أُتسُزُ في شعبان سنة ثمان وستين فاستأمنوا اليه، وعوض انتصاراً منها بقلعة بانياس ومدينة يافا من الساحل، ودخلها في ذي القعدة، وخطب بها للمقتدي، ومنع من النداء بحيّ على خير العمل، وتغلب على كثير من مدن الشام. ثم سار سنة تسع وستين الى مصر وحاصرها وضيق عليها. واستنجد المستنصر بالبوادي من نواحيها فوعدوه بالنصر. وخرج بدر الجمالي في العساكر التي كانت بالقاهرة وجاء أهل البلاد لميعادهم فانهزم اتسز وعساكره، ونجا الى بيت المقدس فوجدهم قد [1] بخلفه فتحصنوا منه بالمعاقل فافتتحها عليهم عنوة واستباحها، حتى قتلهم في المسجد. وقد تقدّم ضبط هذا الاسم وأنه عند أهل الشام انسيس، والصحيح اتسز، وهو اسم تركي. ثم ان السلطان ملك شاه اقطع اخاه تُتُش بن ألب أرسلان بلاد الشام، وما يفتحه من تلك النواحي سنة سبعين وأربعمائة، فقصد حلب أوّلا وحاصرها،

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ١٢٣: وأتى البيت المقدس فرأى أهله قد قبحوا على أصحابه ومخلفيه وحصروهم في محراب داود عليهم السلام.

ومعه جموع من التركمان. وكان بدر الجمالي المستولي على مصر قد بعث العساكر لحصار دمشق، وبها اتسز، فبعث الى تُتُش وهو على حلب يستنجده فسار اليه، وأخرت عساكر مصر عنه منهزمين. ولما وصل الى دمشق قعد اتسز على لقائه، وانتظر قدومه فلقيه عند السور، وعاتبه على ذلك فتساهل في العذر فقتله لوقته، وملك البلد، واستولى على الشام أجمع كما سيأتي، وكان يلقب تاج الدولة.

ثم سار في سنة اثنتين وسبعين الى حلب فحاصرها أياماً، وأفرج عنها، وملك مراغة والبيرة، وعاد الى دمشق. وخالفه مسلم ابن قريش الى حلب فملكها كما تقدم في أخباره وضمنها للسلطان ملك شاه فولاه إياها. وسار مسلم بن قريش فحاصرها آخر سنة أربع وسبعين. ثم أفرج عنها فخرج تُتُش وقصد طرسوس من الساحل فافتتحها ورجع. ثم حاصرها مسلم ثانية سنة تسع وسبعين. وبلغه ان تاج الدولة تُتُش سار الى بلاد الروم غازياً فخالفه الى دمشق، وحاصرها معه العرب والأكراد. وبعث اليه العلوي صاحب مصر بعده بالمدد. وبلغ الخبر الى تُتُش فكر راجعاً، وسبقه الى دمشق فحاصرها أياماً. ثم خرج اليه تُتُش في جموعه فهزمه واضطرب أمره، ووصله الخبر بانتقاض أهل حرّان فرحل من مرج الصُفَّر راجعاً الى بلاده.

ثم سار أمير الجيوش من مصر في العساكر الى دمشق سنة

ثمان وسبعين، وحاصرها فامتنعت عليه، ورجع[1]. فلحقوا بأخيه تُكُش في [2] فقوي به وأظهر العصيان، واستولى على مرو الرُّوذ ومرو الساهجان وغيرهما، وسار الى نيسابور طامعاً في ملك خُراسان. وبلغ الخبر الى السلطان فسبقه الى نيسابور، فرجع تُتُش وتحصن بتِرْمُذ. وحاصره السلطان حتى سأل الصلح، وأطلق من كان في أسره من عسكر السلطان، ونزل عن تِرْمُذ وخرج اليه فأكرمه. ثم عاود العصيان سنة سبع وسبعين[3]، وملك مرو الرُّوذ، ووصل قريباً من سرخس وحاصر قلعة هناك لمسعود ابن الامير فاخر. وتحيّل أبو الفتوح الطوسي صاحب نظام، وهو بنيسابور على ملطفة وضعوها على شبه خط نظام الملك، يخاطب فيها صاحب القلعة بأنه واصل في ركاب السلطان ملك شاه، وأنه مصالح للقلعة. وتعرّض حاملها لأهل المعسكر حتى أخذوا كتابه بعد الضرب والعرض على القتل. وحدّثهم بمثل ما في الصحيفة وانّ السلطان وعساكره في الريّ فأجفلوا لوقتهم الى قلعة رَبَح. وخرج أهل الحصن فأخذوا ما في العسكر وجاء السلطان بعد ثلاثة أشهر فحاصره في قلعته

---

(١) كذا بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ١٣٩: في هذه السنة (٤٧٨) في ربيع الأول وصل أمير الجيوش في عساكر مصر إلى الشام فحصر دمشق وبها صاحبها تاج الدولة تتش فضيق عليه، وقاتله فلم يظفر منها بشيء، فرحل عنها عائداً إلى مصر.

(٢) كذا بياض بالأصل، ولم نعثر في المراجع التي لدينا على اسم الموقع الذي التقوا فيه.

(٣) كذا بالأصل، ويظهر أن تنسيق العبارات والحوادث غير مطرد. وأن خطأ وقع أثناء النسخ. لأن عصيان تكش على أخيه السلطان ملكشاه كان سنة ٤٧٧ ومسير أمير الجيوش من مصر إلى دمشق وقع سنة ٤٧٨.

حتى افتتحها ، وحدّه ودفعه الى ابنه أحمد فتسلمه وحبسه ، فخرجا من بيته معه .

سفارة الشيخ أبي اسحق الشيرازي عن الخليفة

كان الخليفة المقتدي وكان عميد العراق أبو الفتح بن أبي الليث يُسيء معاملة الخليفة ، فبعث المقتدي الشيخ أبا اسحق الشيرازي الى السلطان ملك شاه ، ووزيره نظام الملك باصفهان شاكياً من العميد . فسار الشيخ لذلك ، ومعه الامام أبو بكر الشاشي وغيره من الاعيان . ورأى الناس عجباً في البلاد التي يمرّ بها من اقبال الخلق عليه ، وازدحامهم على محفته يتمسحون بها ، ويلثمون أذيالها ، وينشرون موجودهم عليها من الدراهم والدنانير لاهلها ، والمصنوعات لاهل الصنائع ، والبضائع للتجار ، والشيخ في ذلك يبكي وينتحب . ولما حضر عند السلطان أظهر المحرمة ، وأجابه الى جميع ما طلبه . ورفعت يد العميد عن كل ما يتعلق بالخليفة . وحضر الشيخ مجلس نظام الملك فجرت بينه وبين إمام الحرمين مناظرة خبرها معروف .

اتصال بني جهير بالسلطان ملك شاه ومسير فخر الدولة لفتح ديار بكر

كان فخر الدولة أبو نصر بن جُهَيْر وزير المقتدي قد عزل سنة احدى وسبعين على يد نظام الملك ، ولحق به ابنه عميد الدولة

واسترضاه فرضي نظام الملك ، وشفع الى الخليفة فاعتمد عميد الدولة دون أبيه كما تقدّم في أخبار الخلفاء. ثمّ أرسل المقتدي سنة أربع وسبعين فخر الدولة الى ملك شاه يخطب له ابنته ، فسار الى اصفهان وعقد له نكاحها على خمسين ألف دينار معجّلة ، وعاد الى بغداد. ثم عزل المقتدي ابنه عميد الدولة عن الوزارة سنة ست وسبعين ، وكانوا قد علقوا بخطة من نظام الملك فبعث عن نفسه وعن ملك شاه يطلب حضور بني جهير عندهم ، فساروا بأهليهم فعظمت حظوظهم عند السلطان. وعقد لفخر الدولة على ديار بكر ، وبعث معه العساكر لفتحها من يد بني مروان ، وأذن له اتخاذ الآلة وأن يخطب لنفسه ، ويكتب اسمه على السِّكّة فسار في العساكر السلطانيّة

استيلاء ابن جهير على الموصل

ولما سار فخر الدولة ابن جُهير لفتح ديار بكر ، استنجد ابن مروان مسلم بن قريش ، وشرط له أمراً وتحالفا على ذلك ، واجتمعا لحرب ابن جُهير. وبعث السلطان الامير أرتُق بن أكْسُك في العساكر مدداً لابن جُهير ، فجنح ابن جُهير الى الصلح ، وبادر أرْتُق الى القتال فهزم العرب والاكراد ، وغنم معسكرهم. ونجا مسلم بن قريش الى آمد ، وأحاطت به العسكر ، فلما اشتدّ مخنقه راسل الامير أرْتُقْ في الخروج على مال بذله له فقبله ، وكانت له

حراسة الطريق فخرج الى الرقّة. وسار ابن جُهير الى ميافارقين، وفارقه منصور بن مَزْيد وابنه صَدَقة فعاد منها الى خلاط. ولما بلغ السلطان انحصار مسلم في آمد بعث عميد الدولة في جيش كثيف الى الموصل، ومعه آقسنقر قسيم الدولة الذي أقطعه بعد ذلك حلب. وساروا الى الموصل فلقيهم أُرْتُق، ورجع معهم. ولما نزلوا على الموصل بعث عميد الدولة الى أهلها بالترغيب والترهيب فأذعنوا واستولى عليها، وجاء السلطان في عساكره الى بلاد مسلم بن قريش، وقد خلص من الحصار، وهو مقيم قبالة الرحبة فبعث اليه مؤيد الكتاب، ولاطف السلطان واسترضاه، ووفد اليه بالقوارح، ورجع السلطان الى اعماله وعاد لحرب أخيه تُتُش الذي ذكرناه آنفاً.

فتح سليمان بن قطلمش انطاكية والخبر عن مقتله ومقتل مسلم بن قريش واستيلاء تتش على حلب

كان سليمان بن قُطلمش بن اسرائيل بن سلجوق قد ملك قونية، واقصرا وأعمالها، من بلاد الروم الى الشام. وكانت انطاكية بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلثمائة. وكان ملكها لعهده الفردروس فأساء السيرة الى جنده ورعاياه، وتنكّر لابنه وحبسه فداخل الشحنة في تمكين سليمان من البلد، فاستدعوه سنة سبع وسبعين فركب اليها البحر، وخرج الى البرّ في اقرب

السواحل اليها في ثلثمائة ألف فارس ورجل كثير. وسار في جبال وأوعار فلما انتهى الى السور، وأمكنه الشحنة من تسنم السور دخل البلد، وقاتل أهلها فهزمهم، وقتل كثيراً منهم. ثم عفا عنهم وملك القلعة، وغنم من أموالهم ما لا يحصى. وأحسن الى أهلها وأمر لهم بعمارة ما خرب، وأرسل الى السلطان ملك شاه بالفتح. ثم بعث اليه مسلم بن قريش يطلب منه ما كان يحمل اليه الفردروس ملك انطاكية من المال، ويخوّفه معصية السلطان فأجابه بتقرير الطاعة للسلطان، وبأن الجزية لا يعطيها مسلم، فسار مسلم ونهب نواحي أنطاكية، فنهب سليمان نواحي حلب.

ثم جمع سليمان العرب والتركمان، وسار لنواحي انطاكية ومعه جماهير التركمان. وجمع سليمان كذلك، والتقيا آخر صفر سنة ثمان وسبعين، وانحاز جُقّ الى سليمان فانهزمت العرب، وقتل مسلم وسار سليمان بن قُطلمش الى حلب وحاصرها فامتنعت عليه، وارسل اليه ابن الحُتَيْتي العبّاسي كبير حلب بالأموال، وطالبه أن يمهل حتى يكاتب السلطان ملك شاه ودس الى تاج الدولة تُتش صاحب دمشق يستدعيه لملكها فجاء لذلك، ومعه أرسوس أُكْسُكْ، وكان خائفاً على نفسه من السلطان ملك شاه لفعلته في امر فاستجار بتُتُش، وأقطعه المورس، وسار معه لهذه الحرب. وبادر سليمان بن قُطلُمُشْ الى اعتراضهم وهمْ على تعبية. وابلى أُرْتُقْ في هذه الحروب، وانهزم سليمان، وطعن نفسه بخنجر

فمات، وغنم تُتُشُ معسكره، وبعث الى ابن الخُتَيْشي العباسيّ فيما استدعاه اليه فاستمهله الى مشورة السلطان ملك شاه، واغلظ في القول فغضب تُتُشُ، وداخله بعض اهل البلد فتسوّرها وملكها. واستجار ابن الخُتَيْشي بالامير أُرْتُقَ فأجاره وسمع له.

استيلاء ابن جهير على ديار بكر

ثم بعث ابن جهير سنة ثمان وسبعين ابنه زعيم الرؤساء أبا القاسم الى حصار آمد، ومعه جناح الدولة أَسلار فحاصرها واقتلع شجرها، وضيق عليها حتى جهدهم الجوع. وغدر بعض العامّة في ناحية من سورها، ونادى بشعار السلطان، واجتمع اليه العامّة لما كانوا يلقون من عسف العمال النصارى فبادر زعيم الرؤساء الى البلد، وملكها، وذلك في المحرّم. وكان أبوه فخر الدولة محاصراً لميافارقين، ووصل اليه سعد الدولة كوهراين شِحْنَة بغداد بعدد العساكر فاشتدّ الحصار، وسقطت من السور ثلمة في سادس جمادى فنادوا بشعار السلطان، ومنعوا ابن جُهير من البلد. واستولى على أموال بني مروان، وبعثها مع ابنه زعيم الرؤساء الى السلطان، فسار مع كوهرائين الى بغداد. ثم فارقه الى السلطان باصفهان. ولما انقضى أمر ميافارقين بعث فخر الدولة جيشاً الى جزيرة ابن عمر فحاصرها، وقام بعض أهلها بدعوة السلطان، وفتحوا مما يليهم باباً قريباً دخل منه العسكر فملكوا البلد. وانقرضت دولة بني

مروان من ديار بكر، والبقاء لله. ثم أخذ السلطان ديار بكر من فخر الدولة بن جُهير، وسار الى الموصل فأقام بها الى أن توفي سنة ثلاث وثمانين.

استيلاء السلطان ملك شاه على حلب وولاية أقسنقر عليها

لما ملك تاج الدولة تُتُش مدينة حلب، وكان بها سالم بن ملك ابن مروان ابن عم مسلم بن قريش، وامتنع بالقلعة وحاصره تُتُش سبعة عشر يوماً، حتى وصل الخبر بمقدم أخيه السلطان ملك شاه، وقد كان ابن الحُتيتي كتب اليه يستدعيه لما خاف من تُتُشَ فسار من أصفهان منتصف تسع وسبعين، وفي مقدمته بُرْشُقُ وبدران وغيرهما من الامراء. ومرّ بالموصل في رجب. ثم سار الى حُرّاة وبها ابن الشاطىء فملكها وأقطعها لمحمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش، وأقطعه معها مدينة الرَحْبَة وأعمالها وحَرّان وسَروج والرقّة وخابور، وزوّجه أخته زليخا خاتون. ثم سار الى الرُّها وافتتحها من الروم، وكانوا اشتروها من ابن عَطِيّة كما مرّ. وسار الى قلعة جعفر فملكها وقتل من كان بها من بني قُشَير، وكان صاحبها جعفر أعمى، وكان يخيف السابلة هو وولده فأزال ضررهم. ثم ملك مِنْبِج، وعبر الفرات الى حلب فأجفل تُتُشُ عن المدينة ودخل (١) ومعه الامير أرْتُقُ. ورجع الى دمشق فلما

(١) كذا، بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ١٤٠: وسار عنها يسلك البرية ومعه الأمير أرتق.

وصل السلطان الى حلب ملكها ، ثم الى القلعة فملكها من سالم بن ملك على أن يعطيه قلعة جعفر ، فلم تزل بيد عَقِبِه الى أن ملكها منهم نور الدين الشهيد .

ثم بعث اليه نصر بن علي بن مُنقذ الكناني بالطاعة فأقرّه على شيزر ، وتسلم منه اللّاذقية وبعرطاف وافاميه ورجع . ثم رجع السلطان بعد أن ولى على حلب قسيم الدولة أُقْسُنْقُر . ورغب اليه أهل حلب أن يعفيهم من ابن الْحُتيتي فأخرجه عنهم الى ديار بكر وتوفي بها . ثم رجع السلطان الى بغداد فدخلها في ذي الحجة من سنّته ، ونزل بدار المملكة ، وأهدى للخليفة هدايا كثيرة . واجتمع بالخليفة ليلًا . ثم دخل اليه في مجلسه نهاراً وأفيضت عليه الخلع . وسلم أمراء السُلجوقيّة على الخليفة ، ونظام الملك قائم يقرّبهم واحداً واحداً ، ويعرّف بهم . ثم صرّح المقتدي للسلطان ملك شاه بالتفويض ، وأوصاه بالعدل فقبل يده ووضعها على عينيه ، وخلع الخليفة على نظام الملك ، وجاء الى مدرسته التي فيها الحديث وأملى .

خبر الزفاف

قد قدّمنا أنّ السلطان ملك شاه زوّج ابنته من الخليفة المقتدي سنة أربع وسبعين ، بخطبة الوزير بن جُهير ، فلما كان سنة ثمانين في المحرّم نقل جهازها للزفاف الى دار الخلافة على مائة وثلاثين

جملا مجللة بالديباج الرومي ، أكثرها ذهب وفضة ، ومعه ثلاث عماريات ، ومعها أربع وسبعون بغلا مجللة بأنواع الديباج المكي ، وقلائدها الذهب ، وعلى ستة منها اثنا عشر صندوقاً من فضة مملوءة بالحُليّ والجواهر ، ومهد عظيم من ذهب . وسار بين يدي الجهاز سعد الدولة كوهرائين والامير أُرْتُقْ وغيرهما من الامراء ، والناس ينثرون عليهم الدنانير والثياب . وبعث الخليفة وزيره أبا شجاع الى زوجة السلطان تركان خاتون ، ومعه خادمه ، ظفر بمحفة لم ير مثلها ، ومعهم ثلثمائة من الشمع الموكب ، ومثلها مشاعل . وأوقدت الشموع في دكاكين الحريم الخلافيّ . وقال الوزير لخاتون : سيدنا أمير المؤمنين يقول : أنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الامانات الى أهلها ، وقد أذن في نقل الوديعة الى داره فقالت : سمعاً وطاعة . ومشى بين يديها أعيان الدولة مع كل واحد الشمع والمشاعل ، يحملها الفرسان . ثم جاءت المأمون من بعدهم في مِحَفّة مجللة عليها من الذهب والجواهر ما لا يحدّ ، ويحيط بالمحفة مائتا جارية من الاتراك على مراكب رائعة . وأولم الخليفة وليمةً لم يسمع بمثلها . ثم أطلع للناس من الغد سماط مائدة عليها أربعون ألفاً من السكر ، وخلع على أعيان العسكر ، وعلى جميع الحواشي .

استيلاء السلطان ملك شاه على ما وراء النهر

كان صاحب سَمَرْقَند لهذا العهد من الخانية أحمد خان بن خضر

خان أخي شمس الملك الذي كان أميراً عليها ، وعمته خاتون زوجة ملك شاه . وكان رديء السيرة فبعثوا الى السلطان يسألونه الرجوع الى ايالته . وجاء بذلك مفتي سَمْرْقَنْد أبو طاهر الشافعي قدم حاجاً وأسرّ ذلك الى السلطان فسار من اصفهان سنة اثنتين وثمانين ، ومعه رسول الروم بالخراج المقدر عليهم فاستمجم وأحضر للفتح . ولما انتهى الى خُراسان جمع العساكر وعبر النهر بجيوش لا تحصى ، وأخذ ما في طريقه من البلاد . ثم انتهى الى بُخارى فملكها وما جاورها . ثم سار الى سَمْرْقَنْدَ فحاصرها ، وأخذ بهجتها ثم رماها بالمنجنيق ، وثلم سورها ودخل من الثلمة ، وملك البلد واختفى أحمد خان ، ثم جيء به أسيراً فأطلقه ، وبعث به الى أصفهان وولّى على سَمْرْقَنْدَ أبا طاهر عميد خَوارِزم ، وسار الى كاشغر فبلغ الى نور ، وكن وبعث الى كاشغر بالخطبة ، وضرب السكة فأطاع وحضر عند السلطان فأكرمه وخلع عليه ، وأعاده الى بلده . ورجع السلطان الى خُراسان . وكان بسَمْرْقَنْدَ عساكر يعرفون بالُحكْلِيّة فأرادوا الوثوب بالعميد نائب السلطان ، فلاطفهم ولحق ببلده خَوارزم .

عصيان سمرقند وفتحها ثانيا

كان مقدّم الُحكْلية بسَمْرْقَنْدَ اسمه عين الدولة ، وخاف السلطان لهذه الحادثة فكاتب يعقوب تكين أخا ملك كاشغر ،

وكانت مملكته تعرف بارياسي فاستحضره وملكه. ثم شكر له يعقوب، وحمل أعداءه من الرعية على طلب الثأر منه، وقتله بفتاوي الفقهاء، واستبدّ بسَمَرْقَنْد وسار السلطان ملك شاه اليها سنة اثنتين وثمانين. فلمّا انتهى الى بُخارى هرب يعقوب الى فَرْغانة ولحق بولايته. وجاء بعسكره مستأمنين الى السلطان فلقوه بالطواويس من قرى بُخارى، ووصل السلطان الى سمرقند وولى عليها الامير انز[1] وأرسل العساكر في طلب يعقوب وأرسل الى ملك كاشغر بالجدّ في طلبه. وشغب على يعقوب عساكره ونهبوا خزائنه، ودخل على أخيه كاشغر مستجيراً به. وبعث السلطان في طلبه منه فتردّد بين المخافة والانفة. ثم غلب عليه الخوف فقبض على أخيه يعقوب وبعثه مع ابنه وأصحابه الى السلطان، وأمرهم أن يسملوه في طريقه فان قنع السلطان بذلك والا أسلموه اليه، فلما قربوا على السلطان وعزموا على سمله بلغهم الخبر بأنّ طغرل بن نيال أسرى من ثمانين فرسخاً بعساكر لا تحصى، فكبس ملك كاشغر وأسره فأطلقوا يعقوب. ثم خشي السلطان شأن طغرل ابن نيال وكثرة عساكره فرجع على البلد، ودسّ تاج الملك في استصلاح يعقوب فشفع له، وردّه الى كاشغر، وردّ الطغرل ورجع هو الى خُراسان. ثم قدم الى بغداد سنة أربع وثمانين العزمة

(١) كذا، وفي كتاب العلاقات الاجتماعية، للدكتور زكي النقاش ص ٤٠ اسمه: آنز.

الثانية، ووجد عليه أخوه تاج الدولة تُتُش صاحب الشام، وقسيم الدولة اقْسُنقُر صاحب حلب، وبوران صاحب الرُّها عمّال الاطراف وأقام صنيع الميلاد ببغداد، وتأنق بما لم يعهد مثله، وأمر وزيره نظام الملك وأمراءه ببناء الدور ببغداد لنزلهم، ورجع الى اصفهان.

استيلاء تتش على حمص وغيرها من سواحل الشام

لما قدم السلطان سنة أربع وثمانين، وفد عليه أمراء الشام كما قدّمنا، فلما انصرفوا من عنده أمر أخاه تاج الدولة تُتُشَ أن يذهب دولة العلويين من ساحل الشام ويفتح بلادهم. وأمر أقسنقر وبوران أن يسيرا لانجاده. فلما رجعوا الى دمشق سار الى حمصَ وبها صاحبها ابن مُلاعِب، وقد عظم ضرره وضرر ولده على الناس فحاصرها وملكها. ثم سار الى قلعة عَرَقَة فملكها عَنوَةً، ثم الى قلعة أفاميَة فاستأمن اليه خادم كان بها، فأرسل الى أمراء تُتُشَ في اصلاح حاله فسدّوا عليه المذاهب، فأرسل الى وزير أقْسُنقُرَ يسعى له عند صاحبه، وعمل له على ثلاثين ألف دينار، ومثلها عروضاً فجنح الى مصالحته، واختلف مع تُتُشَ على ذلك، وأغلظ كل منهما لصاحبه في القول فرحل اقسنقر مغاضباً، واضطرّ الباقون الى الرحيل وانتقض أمرهم.

ملك اليمن

كان فيمن حضر عند السلطان ببغداد كما قدّمناه عثمان جُق أمير التركمان صاحب قرمسيس وغيرها ، فأمره السلطان أن يسير في جموع التركمان للحجاز واليمن فيظهر أمرهم هناك . وفوّض الى سعد الدولة كوهرائين شِحْنَة بغداد فولى عليهم أميراً اسمه تُرْشُكُ وسار الى الحجاز فاستولى عليه ، وأساء السيرة فيه ، حتى جاء أمير الحجاز محمد بن هاشم مستغيثاً منهم . ثم ساروا سنة خمس وثمانين الى اليمن ، وعاثوا في نواحيه ، وملكوا عَدَن ، وأساؤا السيرة في أهلها ، وأهلكوا تُرشُك سابع دخولها ، وأعاده أصحابه الى بغداد فدفنوه بها .

مقتل الوزير نظام الملك

ثم ارتحل السلطان ملك شاه الى بغداد سنة خمس وثمانين فانتهى الى أصفهان في رمضان ، وخرج نظام الملك من بيته بعد الإفطار عامداً الى خيمته فاعترضه بعض الباطنيّة في صورة متظلم فلمّا استدناه لسماع شكواه ، طعنه بخنجر فأشواه . وعثر الباطني في أطناب الخيام ، ودخل نظام الملك الخيمة فمات لثلاثين سنة من وزارته . واهتاج عسكره فركب اليه السلطان وسكن الناس ويقال أنّ السلطان ملك شاه وضع الباطني على قتله لما وقع منه

ومن بنيه من الدالة والتحكم في الدولة. وقد كان السلطان دسّ على ابنه جمال الدين من قتله سنة خمس وسبعين. كان بعض حواشي السلطان سعى به فسطا به جمال الدين وقتله فأحقد السلطان بذلك، وأخذ عميد خُراسان فقتله خنقاً فدسّ لخادم من خدم جمال الدين بذلك، وأنهم اذا تولوا قتله بأنفسهم كان أحفظ لنعمتهم فسقاه الخادم سُمّاً ومات.

وجاء السلطان الى نظام الملك وأغراه به. وما زال بطانة السلطان يغضون منه، ويحاولون السعاية فيه الى أن ولي حافده عثمان بن جمال الملك على مرو، وبعث السلطان اليها كُزْدَنْ من أكابر المماليك والامراء شِحْنَةً. ووقعت بينه وبين عثمان منازعة في بعض الايام فأهانه وحبسه، ثم أطلقه. وجاء الى السلطان شاكياً فاستشاط غضباً، وبعث فخر الملك ألب أرسلان الى نظام الملك وأغراه به وما زال يقول: ان كنت تابعاً فقف عند حدّك، وان كنت شريكي في سلطاني فافعل ما بدا لك. وقرّر عليه فعل حافده وسائر بنيه في ولايتهم، وأرسل معه نكبرذ من خواصه ثقة على ما يؤديه من القول، ويجيبه الآخر فانبسط لسان نظام الملك يعدّد الوسائل منه، والمدافعة عن السلطان، وجمع الكلمة، وفتح الامصار في كلام طويل حملته عليه الدالة. وقال في آخره انْ شاء فله مؤيد مرواتي، ومتى أطمت هذه زالت تلك فليأخذ حذره.

ثم زاد في انبساطه وقال: قولوا عني ما أردتم فانّ توبيخكم نتأ في عضدي. ومضى نكَبَرْد فصدّق السلطان الخبر، وجاء الآخرون، وحاولوا الكتمان فلم يسعهم لما وشى نكبرد بجليّة القول فصدّقوه كما صدّقه. ومات نظام الملك بعدها بقليل، ومات السلطان بعده بنحو شهر. وكان أصل نظام الملك من طوس من أبناء الدهاقين اسمه أبو علي الحسن بن علي بن اسحق ذهبت نعمة آبائه، وماتوا فنشأ يتيماً. ثم تعلّم وحذق في العلوم والصنائع، وعلق بالخدم السلطانيّة في بلاد خُراسان وغُزْنة وبَلَخ. ثم لازم خدمة أبي علي بن شاذان وزير ألب أرسلان. ومات ابن شاذان فأوصى به السلطان ألب أرسلان. وعرّفه كفايته فاستخدمه فقام بالامور أحسن قيام فاستوزره.

ثم هلك السلطان ألب أرسلان وهو في وزارته. ثم استوزره ملك شاه بعد أبيه، وكان عالماً جواداً صفوحاً مُكْرِماً للعلماء وأهل الدين ملازماً لهم في مجلسه. شيّد المدارس، وأجرى فيها الجرايات الكثيرة. وكان يملي الحديث، وكان ملازماً للصلوات محافظاً على أوقاتها. وأسقط في أيامه كثيراً من المكوس والضرائب، وأزال لعن الأشعرية من المنابر بعد أن فعله الكُنْدُري من قبله وحمل عليه السلطان طغرلبك، وأجراهم مجرى الرافضة وفارق امام الحرمين، وأبو القاسم القشيري البلاد من أجل ذلك، فلما ولي ألب أرسلان حمله نظام الملك على ازالة ذلك، ورجع العلماء الى

أوطانهم. ومناقبه كثيرة، وحسبك من عكوف العلماء على مجلسه، وتدوينهم الدواوين باسمه ، فعل ذلك امام الحرمين وأشباهه. وأما مدارسه فقد بنى النظامية ببغداد، وناهيك بها، ورتّب الشيخ أبا اسحق الشيرازي للتدريس بها. وتوفي سنة ست وسبعين فرتب ابنه مؤيد الملك مكانه أبا سعيد المتولي فلم يرضه نظام الملك؛ وولى فيها الامام أبا نصر الصباغ صاحب الشامل ومات أبو نصر في شعبان من تلك السنة فولي أبو سعيد من سنة ثمان وسبعين ، ومات فدرّس بعده الشريف العلوي أبو القاسم الدبُوسي ، وتوفي سنة اثنتين وثمانين وولي تدريسه بعدها أبو عبد الله الطبري ، والقاضي عبد الوهاب الشيرازي بالنوبة يوماً بيوم. ثم ولي تدريسها الامام أبو حامد الغزالي سنة أربع وثمانين ، واتصل حكمها على ذلك. وفي أيامه عكف الناس على العلم واعتنوا به، لما كان من حسن أثره في ذلك والله أعلم.

وفاة السلطان ملكشاه وولاية ابنه محمود

ثم لما سار السلطان بعد مقتل نظام الملك الى بغداد ، ودخلها آخر رمضان ، وكان معه في الدولة أبو الفضل المروستاني وزير زوجته الخاتون الجلالية من الملوك الخانية فيما وراء النهر ، وكان من أشدّ الناس سعاية في نظام الملك، وعزم السلطان أن يستوزره لاوّل دخوله بغداد فعاقت المنية عن ذلك ، وطرقه المرض ثالث

الفطر، وهلك منتصف شوّال سنة خمس وثمانين . وكانت زوجته تركمان خاتون الجلاليّة عنده في بغداد، وابنها محمود غائباً في اصفهان فكتمت موته، وسارت بشلوه الى اصفهان، وتاج الملك في خدمتها. وقدمت بين يديها قوام الدين كربوقا الذي ولي الموصل من بعد، وأرسلته بخاتم السلطان الى مستحفظ القلعة فملكها ، وجاءت على اثره ، وقد أفاضت الاموال في الامراء والعساكر ودعتهم الى بيعة ولدها محمود، وهو ابن أربع سنين فأجابوا الى ذلك وبايعوه. وأرسلت الى المقتدر في الخطبة له فأجابها على أن يكون الامير أنُز قائماً بتدبير الملك ، ومجد الملك مشيراً وله النظر في الاعمال والجباية فنكرت ذلك أمه خاتون ، وكان السفير أبا حامد الغزالي فقال لها ان الشراع لا يجيز ولاية ابنك فقبلت الشرط، وخطب له آخر شوّال سنة خمس وثلاثين، وأرسلت تركمان خاتون الى اصفهان في القبض على بركيارق فحبس باصفهان . وكان السلطان ملك شاه من أعظم ملوك السُلجوقيّة؛ ملك من الصين الى الشام، ومن أقصى الشام الى اليمن ، وحمل اليه ملوك الروم الجزية ومناقبه عظيمة مشهورة.

منازعة بركيارق لأخيه محمود وانتظام سلطانه

كان بركيارق أكبر أولاد السلطان ملك شاه ، وكانت أمه زُبَيْدَة بنت ياقوتي بن داود، وياقوتي عم ملك شاه . ولما حبس

بركيارق وخافت عليه أمه زبيدة دسّت لمماليك نظام الملك فتعصبوا له، وكانت خاتون غائبة ببغداد مع ابنها محمود لفقد سلطانه فوثب المماليك النظاميّة على سلاح لنظام الملك باصفهان. وأخرجوا بركيارق من محبسه، وخطبوا له، وبلغ الخبر الى خاتون فسارت من بغداد . وطلب العسكر تاج الملك في عطائهم فهرب الى قلعة بوجين لينزل منها الاموال، وامتنع فيها، ونهب العسكر خزائنه، وساروا الى اصفهان وقد سار بركيارق والنظاميّة الى الري فأطاعه أُزْغُشُ النظامي في عساكره، وفتحوا قلعة طغرل عنوة، وبعثت خاتون العساكر لقتال بركيارق فنزع اليه سَبْكَرْد وكُمُشْتَكِنْ الجاندار وغيرهما من امراء عساكره، ولقيهم بركيارق فهزمهم وسار في اثرهم الى أصفهان فحاصرهم بها . وكان عز الملك باصفهان، وكان والياً على خوارزمَ فحضر عند السلطان قبل مقتل أبيه، وبقي هنالك بعد وفاة السلطان فخرج الى بركيارق، ومعه جماعة من اخوانه فاستوزره بركيارق، وفوض اليه الامور كما كان أبوه.

مقتل تاج الملك

وهو أبو الغنائم المرزبان بن خسرو فيروز، كان وزيراً لخاتون وابنها. ولما هرب إلى قلعة بوجين خوفاً من العسكر كما قدّمنا، وملكت خاتون اصفهان عاد اليها واعتذر بأنّ صاحب القلعة حبسه فقبلت عذره، وبعثته مع العساكر لقتال بركيارق. فلما انهزموا

حمل أسيراً عنده، وكان يعرف كفاءته فأراد أن يستوزره، وكان النظامية ينافرونه ويتهمونه بقتل نظام الملك، وبذل فيهم أموالًا فلم يغنه، ووشوا به فقتلوه في المحرّم سنة ست وثمانين. وكان كثير الفضائل جمّ المناقب، وانما غطّى على محاسنه ممالأته على قتل نظام الملك. وهو الذي بنى تربه الشيخ أبي اسحق الشيرازي والمدرسة بازائها، ورتّب بها أبا بكر الشاشي مدرّساً.

مهلك محمود

ثم هلك السلطان محمود وهو محاصر باصفهان لسنة من ولايته، واستقل بركيارق بالملك.

منازعة تتش بن الب ارسلان وأخباره الى حين انهزامه

كان تاج الدولة تُتُش أخو السلطان ملك شاه صاحب الشام، وسار الى لقاء أخيه ملك شاه ببغداد قبيل موته فلقيه خبر موته بهيت فاستولى عليها، وعاد الى دمشق فجمع العساكر وبذل الأموال، وأخذ في طلب الملك فبدأ بحلب، ورأى صاحبها قسيم الدولة أقسُنقُر اختلاف ولد ملك شاه وحفرهم فأطاع تاج الدولة تتش، وتبعه في طاعته. وبعث الى باغي يسار صاحب انطاكية، والى مران صاحب الرُّها وحرّان يشير عليهما بمثل ذلك فأجاباه وخطبوا لتاج الدولة تتش في بلادهم، وساروا معه الى الرحبة

فلكها ، ثم الى نصيبين فلكها واستباحها وسلمها لمحمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش. وساروا الى الموصل وقدم عليه الكافي بن فخر الدولة بن جهير من جزيرة ابن عمر فاستوزره، وكانت الموصل قد ملكها علي بن شرف الدولة مسلم بن قريش، وأمه صفيّة عمة ملك شاه، وأطلقت تركان خاتون عمه ابراهيم فجاء، وملك الموصل من يده كما تقدم في أخبار بني المقلّد، فبعث اليه تتش في الخطبة وان يجيء له الطريق الى بغداد فامتنع ، وزحف لحربه فانهزم العرب ، وسيق ابراهيم أسيراً الى تتش في جماعة من امراء العرب فقتلوا صبراً، ونهبت أموالهم، واستولى تتش على الموصل وغيرها. واستناب عليها علي بن مسلم وهو ابن صفيّة عمة أبيه. وبعث الى بغداد في الخطبة ، ووافقه كوهرائن الشحنة ، وحرر الجواب بانتظار الرسل من العسكر فسار تُتُش الى ديار بكر فلكها . ثم سار الى أذرَبيجان ، وزحف بركيارق يحتذر من سعيه مع تتش فعزله بركيارق بسعاية كُمُشتَكِن الجاندار بقسيم الدولة، وأقام عوضه شحنة ببغداد الامير مكرد، وأعطاه أقطاعه، وسار الى بغداد. ثم ردّه من دقوقا الكلام بلغه عنه وقتله وولى على شحنة بغداد فتكين حب .

مقتل اسماعيل بن ياقوتي

كان اسمعيل بن ياقوتي بن داود بن عم ملك شاه وخال

بركيارق أميراً على أذَرْبَيْجانَ فبعثت تركمان خاتون اليه فأطمعته في الملك وأنها تتزوج به فجمع جموعاً من التركمان وغيرهم، وسار لحرب بركيارق فلقيه عند كرخ ونزع عنه مكرد الى بركيارق فانهزم اسمعيل الى اصفهان فخطبت له خاتون، وضربت اسمه على الدنانير بعد ابنها محمود وأرادت العقد معه فمنعها الأمير أنز مدبر الدولة، وصاحب العسكر وخوفهم وفارقهم. ثم أرسل أخته زُبيدة أم بركيارق فأصلحت حاله مع ابنها، وقدم عليه فأكرمه. واجتمع به رجال الدولة كمستكين الجاندار وأُقْسُنْقُرَ وبوران، وكشفوا سرّه في طلب الملك. ثم قتلوه وأعلموا بركيارق فأهدر دمه.

مهلك توران شاه بن قاروت بك

كان توران شاه بن قاروت بك صاحب فارس، وأرسلت خاتون الجلاليّة الامير انز لفتح فارس سنة سبع وثمانين فهزمه أوّلا. ثم أساء السيرة مع الجند فلحقوا بتوران شاه، وزحف الى انز فهزمه واسترد البلد من يده، وأصاب توران شاه في المعركة بسهم هلك منه بعد شهرين.

وفاة المقتدي وخلافة المستظهر وخطبته لبركيارق

ثم توفي المقتدي منتصف محرّم سنة سبع وثمانين، وكان بركيارق قد قدم بغداد بعد هزيمة عمه تُتُش فخطب له وحملت اليه

الخلع فلبسها، وعرض التقليد على المقتدي فقرأه وتدبره وعلم فيه، وتوفي فجأة وبويع لابنه المستظهر بالخلافة فأرسل الخلع والتقليد إلى بركيارق، وأخذت عليه البيعة للمستظهر.

استيلاء تتش على البلاد بعد مقتل أقسنقر ثم هزيمة بركيارق

لما عاد تتش منهزماً من أذْرَبِيْجان جمع العساكر واحتشد الأمم وسار من دمشق الى حلب سنة سبع وثمانين، واجتمع قسيم الدولة اقسنقر وبوران[1]، وجاء كربوقا مدداً من عند بركيارق، وساروا لحرب تتش ولقوه على ستة فراسخ من حلب فهزمهم، وأخذ أقسنقر أسيراً فقتله، ولحق كربوقا وبوران بحلب، واتبعهما تتش فحاصرها، وملك حلب وأخذهما أسيرين وبعث الى حران والرُّها في الطاعة فامتنعوا فبعث اليهم برأس بوران، وملك البلدين، وبعث بكربوقا الى حمص فحبسه بها. وسار الى الجزيرة فملكها، ثم الى ديار بكر وخلاط فملكها، ثم الى أذربيجان. ثم سار الى هَمَذَان، ووجد بها فخر الدولة بن نظام الملك، جاء من خُراسان الى بركيارق فلقيه الامير قماج من عسكر محمود باصفهان فنهب ماله، ونجا الى هَمَذان فصادف بها تتش فأراد قتله، وشفع فيه باغي يسار، وأشار بوزارته لميل الناس الى بيته، واستوزره. وكان بركيارق قد سار الى أقسيس فخالفه تتش الى أذربيجان وهمذان فسار بركيارق من

(١) كذا، واسمه في الكامل ج ٨ ص ١٧١ : بوزان.

نصيبين، وعبر دجلة من فوق الموصل الى اربل. فلما تقارب العسكران أشرف الامير يعقوب بن انق من عسكر تتش فكبس بركيارق، وهزمه ونهب سواده، ولم يبق معه الا برسق وكُمُشتَكِن الجاندار والبارق من أكابر الامراء فلجأوا الى اصفهان ، وكانت خاتون أم محمود قد ماتت فمنعه محمود وأصحابه من الدخول. ثم خرج اليه محمود وأدخله الى اصفهان واحتاطوا عليه ، وأرادوا أن يسلموه فمرض محمود فأبقوه.

مقتل تتش واستقلال بركيارق بالسلطان

ثم مات محمود منسلخ شوّال سنة سبع وثمانين ، واستولى بركيارق على اصفهان. وجاء مؤيد الملك بن نظام الملك فاستوزره عوض أخيه عز الملك ، وكان قد توفي بنصيبين فكاتب مؤيد الملك الامراء ، واستمالهم فرجعوا الى بركيارق ، وكشف جمعه . وبعث تاج الملك تُتُشُ بعد هزيمة بركيارق يوسف بن انق التركماني شحنةً الى بغداد في جمع من التركمان فمنع من دخول بغداد . وزحف اليه صَدَقَة بن مَزيَد صاحب الحِلّة فقاتله في يعقوب، وانهزم صَدَقَةُ الى الحلة ، ودخل يوسف بن انق بغداد وأقام بها. وكان تتش لما هزم بركيارق سار الى هَمَذان ، وقد تحصّن بها بعض الامراء فاستأمن اليه، واستولى على هَمَذان وسار في نواحي أصفهان، والى مرو. وراسل الامراء باصفهان يستميلهم فأجابوه بالمقاربة والوعد،

وبركيارق مريض . فلما أفاق من مرضه خرج الى جرباذقان ، واجتمع اليه من العسكر ثلاثون ألفاً، ولقيه تُتُش فهزمه بركيارق، وقتله بعض أصحاب اقسنقر بثأر صاحبه. وكان فخر الملك بن نظام الملك أسيراً عنده فانطلق عند هزيمته، واستقامت أمور بركيارق وبلغ الخبر الى يوسف.

استيلاء كربوقا على الموصل

قد كنا قدّمنا أنّ تاج الدولة تُتُشَ أسر قوام الدولة أبا سعيد كربوقا ، وحبسه بعد ما قتل أُقْسُنْقُرُ بوزان فأقام محبوساً بحلب الى أن قتل تُتُشُ ، واستولى رضوان ابنه على حلب فأمره السلطان بركيارق باطلاقه لانه كان من جهة الامير أنز[1] فأطلقه رضوان، وأطلق أخاه التوسطاش[2] فاجتمعت عليها العساكر. وكان بالموصل عليّ بن شرف الدولة مسلم منذ ولّاه عليها تُتُشُ بعد وقعة المضيع . وكان بنصيبين أخوه محمد بن مسلم ، ومعه مروان ابن وهب[3] وأبو الهيجاء الكردي ، وهو يريد الزحف الى الموصل فكاتب كربوقا واستدعاه للنصرة ، ولقيه على مرحلتين من نصيبين فقبض عليه كربوقا ، وسار الى نصيبين وحاصرها أربعين يوماً

(١) كذا في الأصل وكذا في الكامل لابن الأثير، واسمه في الكتب الحديثة أنر. انظر العلاقات الاجتماعية للدكتور زكي النقاش طبع دار الكتاب اللبناني - بيروت ص (٤٢).

(٢) اسمه في الكامل ج ٨ ص ١٨٠ : التونتاش.

(٣) اسمه في الكامل: ثروان بن وهيب.

وملكها. ثم سار الى الموصل فامتنعت عليه فتحوّل عنها الى بَلَد[1] وقتل بها محمد بن شرف الدولة تغريقاً، وعاد الى حصار الموصل ونزل منها على فرسخ، واستنجد عليّ بن مسلم بالامير مكرس[2] صاحب جزيرة ابن عمر فجاء لانجاده، واعترضه التوسطاش فهزمه. ثم سار الى طاعة كربوقا، وأعانه على حصار الموصل. ولما اشتدّ بصاحبه عليّ بن مسلم الحصار بعد تسعة أشهر هرب عنها، ولحق بصدَقة بن مَزْيد. ودخل كربوقا الى الموصل وعاث التوسطاش في أهل البلد ومصادرتهم، واستطال على كربوقا فأمر بقتله ثالثة دخوله سنة تسع وثمانين. وسار كربوقا الى الرَحَبة فلكها، وعاد فأحسن السيرة في أهل الموصل، ورضوا عنه. واستقامت اموره.

استيلاء ارسلان أرغون أخي السلطان ملك شاه على خراسان ومقتله

كان ارسلان أرغون مقيماً عند أخيه السلطان ملك شاه ببغداد، فلمّا مات وبويع ابنه محمود سار الي خُراسان في سبعة من مواليه، واجتمعت عليه جماعة، وقصد نيسابور فامتنعت عليه فعاد الى مرو، وكان بها شحنة الامير قودر[3] من موالي

(١) اسم بلدة في العراق.
(٢) كذا، وهو جكرمش.
(٣) كذا، واسمه في الكامل: قودن.

السلطان ملك شاه ، وكان أحد الساعين في قتل نظام الملك فمال الى طاعة أرغون ، وملّكه البلد . وسار الى بَلَخَ ، وكان بها فخر الدين بن نظام الملك ففرّ عنها ، ووصل الى هَمَذان ووزر لتاج الدولة تُتُش َكما مرّ . وملك ارسلان أرغون بَلَخَ وتُرمُذ ونيسابور وسائر خُراسان ، وأرسل الى السلطان بركيارق وزيره مؤيد الملك في تقرير خُراسان عليه بالضمان كما كانت لجدّه داود ما عدا نيسابور فاعرض عنه بركيارق لاشتغاله بأخيه محمود وعمه تُتُش . ثم عزل بركيارق مؤيد الملك عن الوزارة بأخيه فخر الملك .

واستولى فخر الملك ألبْ أرْسَلان على الأُمور فقطع أرسلان مراسلة بركيارق ، فبعث حينئذ عمه بورسوس[1] في العساكر لقتاله فانهزم ارسلان الى بَلَخ ، وأقام بورسوس بِهُرَاة ، وسار أرسلان الى مرو وفتحها عنوة وخرّبها واستباحها . وسار اليه بورسوس من هُراة سنة ثمان وثمانين ، وكان معه مسعود بن تاخر[2] الذي كان أبو مقدّم عساكر داود ، ومعه ملك شاه من أعاظم الامراء فبعث اليه ارسلان واستماله فمال اليه ، ووثب لمسعود بن تاخر وابنه فقتلها في خيمته فضعف أمر بورسوس وانفض الناس عنه ، وجيء به أسيراً الى أخيه أرسلان أرغون فحبسه بتُرْمُذ .

---

(١) كذا، واسمه في الكامل ج ٨ ص ١٨٢ : بوربس.
(٢) كذا، وفي الكامل: مسعود بن تاجر.

ثم قتله في محبسه بعد سنة. وقتل أكابر خراسان ، وخرب أسوارها : مثل سودان ومرو الشاهجان وقلعة سرخس ونهاوند ونيسابور ، وصادر وزيره عماد الملك بن نظام الملك على ثلثمائة ألف دينار . ثم قتله واستبدّ بخراسان ، وكان مرهف الحدّ كثير العقوبة لمواليه ، وأنكر على بعضهم يوماً بعض فعلاته وهو في خلوة ، وضربه فطعنه الغلام بخنجر معه فقتله ، وذلك في المحرّم من سنة تسعين .

ولاية سنجر على خراسان

ولما قتل ارسلان أرغون ملّك أصحابه من بعده صبياً صغيراً من ولده ، وكان السلطان بركيارق قد جهز العساكر لخُراسان للقتال ومعه الأتابك قاج ، ووزيره علي بن الحسن الطغرائي . وانتهى اليه مقتل أرسلان بالدامغان فأقاموا حتى لحقهم السلطان بركيارق ، وساروا الى نيسابور فملكها في جمادى سنة تسعين وأربعمائة ، وملك سائر خُراسان ، وسار الى بَلْخ . وكان أصحاب ارسلان قد هربوا بابنه الذي نصبوه للملك الى جبل طخارستان ، وبعثوا يستأمنون له ولهم فأمنهم السلطان ، وجاؤا بالصبيّ في آلاف من العساكر فأكرمه السلطان ، وأقطعه ما كان لابيه أيام ملك شاه ، وانفضّ عنه العسكر الذين كانوا معه ، وافترقوا على أمراء السلطان ، وأفردوه فضمته أم السلطان اليها ، وأقامت من يتولى

رتبته ، وسار السلطان الى ترمذ فملكها ، وخطب له بسمرقند ، ودانت له البلاد ، وأقام على بلخ سبعة أشهر . ثم رجع وترك أخاه سنجر نائباً بخراسان .

ظهور المخالفين بخراسان

لما كان السلطان بخراسان خالف عليه محمود بن سليمان من قرابته ، ويعرف بأمير أميران . وسار الى بَلَخ واستمدّ صاحب غَزنة من بني سَبُكتَكين فأمدّه بالعساكر والفيول ، على أن يخطب له فيما يفتحه من خُراسان فقويت شوكته ، فسار اليه الملك سنجر ، وكبسه فانهزم وجيء به أسيراً فسمله . ولما انصرف السلطان عن خُراسان سار نائب خَوارِزم واسمه اكنجي في اتباعه ، وسبق الى مرو فتشاغل بلذّاته ، وكان بهـا الامير تورد قد تشاغل عن السطان ، واعتذر بالمرض فداخل بارقطاش من الامراء في قتل اكنجي صاحب خوارزم فكبسه في طائفة من أصحابه ، وقتلوه وساروا الى خوارزم فملكوها مظهرين أن السلطان ولّاهما عليها . وبلغ الخبر الى السلطان ، وكان قد بلغه في طريقه خروج الامير انز بفارس عن طاعته فمضى الى العراق ، وأعاد داود الحبشيّ بن التونطاق في العساكر لقتالهما فسار الى العراق من هُراة ، وأقام في انتظار العسكر فعاجلاه فهرب أمامهما . وهرب جيحون ، وتقدّم بارقطاش قبل تودن وقاتله فهزمه داود وأسره ، وبلغ الخبر الى

تودن فثار به عسكره ونهبوا أثقاله ، ولحق بسنجار فقبض عليه صاحبها . ثم أطلقه فلحق بالملك سنجر ببلخ فقتله سنجر ، وأفرغ هو طاعته في نظمه ، وجمع العساكر على طاعته . ثم مات قريباً وبقي بارقطاش أسيراً عند داود الى أن قتل .

دولة بني خوارزم شاه

بداية دولة بني خوارزم شاه

كان أبو شكين مملوكاً لبعض أمراء السلجوقية ، واشتراه من بعض أهل غرشقان فدعي أبا شكين غرشه[1] ، ونشأ على حال مَرْضِيَّةٍ ، وكان مقدّماً . وولد له ابنه محمد فأحسن تأديبه ، وتقدّم هو بنفسه . ولما سار الامير داود الحبشي الى خُراسان كما مرّ سار محمد في جملته فلما مهد خُراسان ، وأزال الخوارج نظر فيمن يولّيه خَوَارِزم ، وكان نائبها اكنجي قد قتله كما مرّ ، فوقع اختياره على محمد بن أبي شكين فولاه ، ولقبه خوارزم شاه فحسنت سيرته ، وارتفع محله . وأقرّه السلطان سنجر وزاده عناية بقدر كفايته واضطلاعه . وغاب في بعض الأيام عن خوارِزم فقصدها بعض ملوك الأتراك . وكان طغرلتكين محمد الذي كان أبوه

(١) كذا، واسمه في الكامل: «أنوشتكين غرشحه» ج ٥ ص ١٨٤ .

اكنجي نائباً بخوارِزمَ ، وبادر محمد بن أبي شكين الى خوارِزمَ بعد أن استمدّ السلطان سَنْجَر ، وسار بالعساكر مدداً له. وتقدم محمد ابن أبي شكين فتأخر الاتراك الى منقشلاع . ورحل طغرلتكين الى جَرْجان ، وازداد محمد بذلك عناية عند سنجر . ولما توفي ولي ابنه بعده أقسز ، وأحسن السيرة . وكان قد قاد الجيوش أيام أبيه ، وباشر الحروب فملك مدينة منقشلاع . ولما توفي اختصه السلطان سنجر ، وكان يصاحبه في أسفاره وحروبه. واتصل الملك في بني محمد بن أبي شكين خوارِزم ، وكانت لهم الدولة . وتمت دولة بني ملك شاه ، وعليها كان ظهور الطَطَر [1] بعد المائة السادسة ومنهم أخذوا الملك كما سيأتي في أخبارهم .

استيلاء الافرنج على انطاكية وغيرها من سواحل الشام

كان الافرنج قد ظهر أمرهم في هذه السنين ، وتغلبوا على صِقِلّيَة ، واعتزموا على قصد الشام ، وملك بيت المقدس . وأرادوا المسير اليها في البرّ فراسلوا ملك الروم . بالقُسْطَنْطِينِيَّة أن يسهّل لهم الطريق الى الشام فاجابهم على أن يعطوه انطاكية ، فعبروا خليج القُسْطَنْطِينيَّة سنة تسعين وأربعمائة . وسار أرسلان بن سليمان ابن قَطَلْمِش صاحب مَرْقِيَّة وبلاد الروم لمدافعتهم فهزموه . ثم مرّوا ببلاد ابن ليون الارمني ووصلوا الى انطاكية فحاصروها تسعة

(١) كذا، وهي التتر أو التتار، كما في كتب التاريخ.

أشهر وصاحبها يومئذ باغي سياه فأحسن الدفاع عنها. ثم تبوّؤا البلد بمداخلة بعض الحامية، أصعدهم السور بعد أن رغبوه بالاموال والاقطاع. وجاؤا الى السور فدلّهم على بعض المخادع ودخلوا منه، ونفخوا البوق فخرج باغي سياه هارباً، حتى اذا كان على أربعة فراسخ راجع نفسه، وندم فسقط مغشياً عليه. ومرّ به ارمني فحمل رأسه الى انطاكية، وذلك سنة احدى وتسعين وأربعمائة.

واجتمعت عساكر المسلمين، وزحفوا الى انطاكية من كل ناحية ليرتجعوها من الافرنج وجاء قوام الدين كربوقا الى الشام، واجتمعت عليه العساكر بمرج دابق فكان معه: دِقاق بن تُتُش وطُغرُلتكين أتا بك، وجناح الدولة صاحب حمص، وأرسلان تاش صاحب سِنجار، وسُقمان بن أُرتُقَ وغيرهم. وساروا الى انطاكية فنازلوها واستوحش الامراء من كربوقا، وأنفوا من ترفعه عليهم. وضاق الحصار بالافرنج لعدم الاقوات، لانّ المسلمين عاجلوهم عن الاستعداد فاستأمنوا كربوقا فنعهم الامان، وكان معهم من الملوك بردويل، وصنجيل وكمدري والقمص صاحب الرُّها، وسمند[1] صاحب انطاكية، وهو مقدّم العساكر فخرجوا مستأمنين وضربوا مصياف، وتخاذل الناس لما كان في قلوبهم من الاضغان لكربوقا فتمت الهزيمة عليهم. وآخر من انهزم سقمان بن

(١) كذا بالأصل وفي الكامل ج ٨ ص ١٨٧: وكان معهم من الملوك بردويل وصنجيل وكندفري والقمص صاحب الرها وبيمنت صاحب إنطاكية، وهو المقدّم عليهم.

أرتق ، واستشهد منهم العرب ، وغنم العدوّ سوادهم بما فيه . وساروا الى معرة النعمان فملكوها وأفحشوا في استباحتها. ثم ساروا الى غزة فحاصروها أربعة أشهر وامتنعت عليهم. وصالحهم ابن منقذ على بلدة شيزر ، وحاصروا حمص فصالحهم صاحبها جناح الدولة. ثم ساروا الى عكا فامتنعت عليهم وكان هذا بداية الافرنج بسواحل الشام. ويقال إنّ المصريين استنابوا رجلًا يعرف بافتخار الدولة ، من خلفاء العميد بن نصر ، لما خشوا من السلجوقية عند استيلائهم على الشام الى غزة ، وزحف الاقسيس من أمرائهم الى مصر وحاصرها وراسلوا الافرنج ، واستدعوهم لملك الشام لينشلوهم عن أنفسهم ، ويحولوا بينهم وبين مصر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

انتقاض الامير انز وقتله

سار السلطان بركيارق الى خُراسان ولّى على بلاد فارس انز ، وكانت قد تغلبت الشُوانكار ، واستظهروا بايران شاه وارونت بك صاحب كرمان. فلما سار اليهم انز قاتلوه فهزموه ، ورجع الى اصفهان فاستأذن السلطان فأمره بالمقام هناك ، وولاه امارة العراق . وكانت العساكر في جواره بطاعته ، وجاء مؤيد الملك بن نظام الملك من بغداد على الحِلّة ، فأغراه بالخلاف وخوّفه غائلة بركيارق ، وأشار عليه بمكاتبة محمد بن ملك شاه وهو في

كنجه. وشاع عنه ذلك فازداد خوفه، وجمع العساكر، وسار من اصفهان الى الريّ. وجاهر السلطان بالخلاف، وطلب منه أن يسلم اليه فخر الملك ألبأرسلان. وبينما هو في ذلك اذ هجم عليه ثلاثة نفر من الاتراك المولّدين بخوارِزم من جنده فطعنوه فقتلوه، واهتاج عسكره فنهبوا خزائنه، وحمل شلوه الى اصفهان فدفن بها. واشتهر خبر قتله وحمل الى السلطان في أحواز الريّ وهو سائر لقتاله فسر بذلك هو وفخر الملك البأرسلان، وذلك في سنة اثنتين وتسعين. وكان محمود المذاهب، كبير المناقب. ولما قتل هرب اصهزصبار[1] الى دمشق فأقام بها مدّة. ثم قدم على السلطان محمد سنة أحدى وخمسمائة فأكرمه وأقطعه رحبة مالك بن طوق.

استيلاءُ الفرنْجِ عَلى بَيْتِ المقدِسْ

كان بيت المقدس لتاج الدولة تُتُش، وأقطعه الامير سُقْمان بن أُرْتُق التُرْكُمانيّ، وكان تُتُش ملكه من يد العَلَويّين أهل مِصْرَ. فلما وهن الاتراك بواقعة أنطاكِيَة طمع المصريون في ارتجاعه. وسار صاحب دولتهم الأَفضل بن بدر الجماليّ، وحاصر الامير سُقمان وأخاه ابلغازي وابن أخيهما ياقوتي وابن عمهما سونج، ونصب المجانيق

(١) كذا، واسمه في الكامل ج ٨ ص ٢٥١ : الأصبهبذ صباوو.

فثلموا سوره ، ثم ملكوه بالامان لاربعين يوماً من حصاره في شعبان سنة تسع وثمانين وأحسن الأفضل إلى سُقمان وابلغازي ومن معهما ، وأطلقهم فأقام سُقمان ببلد الرُّها . وسار ابلغازي الى العراق وولّى الأفضل على بيت المقدس افتخار الدولة من أمرائهم ، ورجع الى مصر فلما رجع الافرنج من عكا وجاؤا الى بيت المقدس فحاصروه أربعين يوماً واقتحموه من جهة الشمال آخر شعبان من سنة اثنتين وتسعين ، وعاثوا في أهله . واعتصم فلُّهم بمحراب داود عليه السلام ثلاثاً حتى استأمنوا ، وخرجوا ليلًا الى عسقلان.

وقتل بالمسجد سبعون ألفاً أو يزيدون من المجاورين : فيهم العلماء والزهاد والعبّاد ، وأخذوا نيفاً وأربعين قنديلًا من الفضة ، زنة كل واحد ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، ومائة وخمسين قنديلًا من الصفّار ، وتنوراً من الفِضَّة زنته أربعون رطلًا بالشامي ، وغير ذلك مما لا يحصى ووصل الصريخ الى بغداد مستغيثين فأمر المقتدي أن يسير الى السلطان بركيارق أبو محمد الدامغاني ، وأبو بكر الشاشي وأبو القاسم الزنجاني ، وأبو الوفاء بن عقيد ، وأبو سعد الُحلواني ، وأبو الحسين بن السمّاك. فساروا الى بركيارق يستصرخونه للمسلمين فانتهوا الى حُلوان ، وبلغهم مقتل مجد الملك البَلأَرسلان ، وفتنة بركيارق مع أخيه محمد فرجعوا ، وتمكن الافرنج من البلاد . ونحن عازمون على افراد أخبارهم بالشام ، وما كان لهم فيه من الدولة على حكم أخبار الدول في كتابنا .

ظهور السلطان محمد بن ملك شاه والخطبة له ببغداد وحروبه مع أخيه بركيارق

كان محمد وسنجر شقيقين، وكان بركيارق استعمل سنجر على خراسان. ثم لحق به محمد باصفهان وهو يحاصرها سنة ثمان وثمانين فأقطعه كنجة وأعمالها، وأنزل معه الامير قطلغ تكين أتابك، وكانت كنجة من اعمال أرّان وكانت لفضلون فانتزعها ملك شاه، واقطعه استراباذ. وولّى على ارّان: سرهناسا، وتكين الخادم. ثم ضمن فضلون بلاده وأعيد اليها. فلما قوي رجع الى العصيان فسرّح اليه ملك شاه الامير بوزان فغلبه على البلاد وأسره، ومات ببغداد سنة أربع وثمانين. وأقطع ملك شاه بلاد ارّان لاصحاب باغي سياه صاحب انطاكية. ولما مات باغي سياه رجع ابنه الى ولاية أبيه. ثم أقطع السلطان بركيارق كنجة وأعمالها لمحمد كما قلناه سنة ست وثمانين. ولما اشتدوا واستفحل قتل اتابك قطلغ تكين، واستولى على بلاد ارّان كلها ولحق مؤيد الملك عبدالله بن نظام الملك بعد مقتل صاحبه انز فاستخلصه وقرّبه، وأشار عليه مؤيد الملك فطلب الامر لنفسه فخطب له بأعماله واستوزر مؤيد الملك. وقارن ذلك مقتل مجد الملك البارسلاني المتغلب في دولة بركيارق فاستوحش أصحابه لذلك، ونزعوا الى محمد وساروا جميعاً الى الريّ، وكان بركيارق قد سبقهم اليها. واجتمع اليه الامير نيال بن أبي شكين الحامي من أكابر الامراء،

وعز الملك بن نظام الملك. ولما بلغه مسير أخيه محمد اليه رجع الى اصفهان فمنعوه من الدخول فسار الى خوزستان، وملك محمد الريّ في ذي القعدة سنة اثنتين وتسعين، ووجد بها زُبَيْدَة أم بركيارق قد تخلفت عن ابنها فحبسها مؤيد الملك وصادرها. ثم قتلها خنقاً بعد ان تنصح له أصحابه في شأنها فلم يقبل. وكان سعد الدولة كوهرائين شحنة بغداد قد استوحش من بركيارق، فاتفق هو وكربوقا صاحب الموصل وجكرمش صاحب جزيرة ابن عمر، وسرخاب بن بدر صاحب كنكسون، وساروا الى السلطان محمد بقم فخلع عليهم وردّ كوهرائين الى بغداد في شأن الخطبة فخطب له بالخليفة، ولقبه حياة الدين والدنيا وسار كربوقا وجكرمش مع السلطان محمد الى اصفهان والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل البارسلاني

كان أبو الفضل سعد البارسلاني ويلقب مجد الملك متحكماً عند السلطان بركيارق، ومتحكماً في دولته. ولما فشا القتل في امرائه من الباطنيّة استوحشوا، ونسبوا ذلك للبارسلاني وكان من اعظم من قتل منهم الامير برسق فاتهم ابنه زنكي وأقبورني البارسلاني في قتله، ونزعوا عن بركيارق الى السلطان محمد فاجتمع الامراء، ومقدّمهم أمير الحيرة لكابك وطغايرك من الروز، وبعثوا الى بني برسق يستدعونهم للطلب بثار أبيهم، فجاؤا واجتمعوا

قريباً من هَمَذان، ووافقهم العسكر جميعاً على ذلك ، وبعثوا الى بركيارق يطلبون البارسلاني فامتنع، وأشار عليه البارسلاني باجابتهم لئلا يفعلوا ذلك بغير رأي السلطان فيكون وهناً على الدولة، فاستحلفهم السلطان فدفعه اليهم فقتله الغلمان قبل أن يتصل بهم ، وسكنت الفتنة ، وحمل رأسه الى مؤيد الملك. واستوحش الامراء لذلك من بركيارق وأشاروا عليه بالعودة الى الريّ، ويكفونه قتال أخيه محمد فعاد متشاغلاً، ونهبوا سرادقه وساروا الى أخيه محمد ، ولحق باصفهان. ثم لحق رستاق كما تقدّم .

اعادة الخطبة ببغداد لبركيارق

ولما سار بركيارق الى خَوزِسْتَان ومعه نيال بن أبي شكين الحسامي مع عسكره، سار من هنالك الى واسط ، ولقيه صَدَقَة ابن مَزْيَد صاحب الحِلّة . ثم سار الي بغداد ، وكان سعد الدولة كوهرائين الشحنة على طاعة محمد ، فخرج عن بغداد ، ومعه أبو الغازي بن أُرْتُق وغيره، وخطب لبركيارق ببغداد منتصف صفر سنة ثلاث وتسعين، بعد ان فارقها كوهرائين وأصحابه. وبعثوا الى السلطان محمد ومؤيد الملك يستحثونهما فأرسلا اليهم كربوقا صاحب الموصل ، وجكرمش صاحب جزيرة ابن عمر يستكثرون بهم في المدافعة. وطلب جكرمش من كوهرائين السير لبلده خشية عليها فأذن له . ثم يئس كوهرائين واصحابه من محمد فبعثوا الى

بركيارق بطاعتهم فخرج اليهم واسترضاهم ، ورجع الى بغداد وقبض على عميد الدولة بن جهير وزير الخليفة، وطالبه بما أخذ هو وأبوه من الموصل وديار بكر أيام ولايتهم عليها ، فصادرهم على مائة وستين ألف دينار . وأستوزر الاغرّ أبا المحاسن عبد الجليل ابن علي بن محمد الدهستاني ، وخلع الخليفة على بركيارق .

المصاف الأول بين بركيارق ومحمد ومقتل كوهرائين وهزيمة بركيارق والخطبة لمحمد

ثم سار بركيارق من بغداد لحرب أخيه محمد، ومر بشهرزور فاجتمع اليه عسكر كثير من التركمان ، وكاتب رئيس هَمَذان يستحثه فركب وسار للقاء أخيه على فراسخ من هَمَذان في أوّل رجب من سنة ثلاث وتسعين، وفي ميمنته كوهرائين وعز الدولة ابن صَدَقَة بن مَزْيَد وسرخاب بن بدو ، وفي ميسرته كربوقا . وفي ميمنة محمد بن اضر وابنه ايار[1] وفي ميسرته مؤيد الملك والنظامية. ومعه في القلب أمير سرخو شحنة اصفهان . فحمل كوهرائين من الميمنة على مؤيد الملك والنظاميّة فهزمهم ، وانتهى الى خيامهم فنهبها . وحملت ميمنة محمد على ميسرة بركيارق فانهزموا . وحمل محمد على بركيارق فهزمه، ووقف محمد مكانه، وعاد كوهرائين من

---

(١) كذا، وفي الكامل ج ٨ ص ١٩٣ : وكان محمد في القلب ومعه الأمير سرمز وعلى ميمنته أمير آخر وابنه أياز.

طلب المنهزمين فكبا به فرسه فقتل . وجيء بالأغرّ أبي المحاسن يوسف وزير بركيارُق أسيراً فأكرمه مؤيد الملك، ونصب له خيمة، وبعثه الى بغداد في الخطبة لمحمد فخطب لـه منتصف رجب من السنة . وكانت أوّلية سعد الدولة كوهرائين انه كان خادماً للملك ابي كاليجار بن بُويه ، وجعله في خدمة ابنه أبي نصر . ولما حبسه طغرلبك مضى معه الى قلعة طُغرل ، فلما مات انتقل الى خدمة السلطان ألب أرْسلان ، وترقّى عنده ، وأقطعه واسِط وجعله شِحْنَة بغداد ، وحضر يوم قتله فوقاه بنفسه . ثم أرسله ملك شاه الى بغداد في الخطبة ، وجاء بالخلع والتقليد ، وحصل له من نفوذ الامر واتباع الناس مـا لم يحصل لغيره ، إلى أنْ قُتل في هذه المعركة وولي شحنة بغداد بعده أَيْلغازي بن أُرتق .

مسير بركيارق الى خراسان وانهزامه من أخيه سنجر ومقتل الامير داود حبشي امير خراسان

لما انهزم بركيارق من أخيه محمد خلص في الفلّ الى الريّ ، واجتمع له جموع من شيعته فسار الى خُراسان ، وانتهى الى اسفراين . وكتب الامير داود[1] حبشي الى التونطاق يستدعيه من الدامغان ، وكان أميراً على معظم خُراسان ، وعلى طَبَرِسْتان وجِرْجان فأشار عليه بالمقام بنيسابور فقصدها . وقبض على عميدها

(١) كذا، واسمه في الكامل ج ٨ ص ١٩٤ : الأمير داذ حبشي.

أبي محمد وأبي القاسم بن امام الحرمين. ومات أبو القاسم في محبسه مسموماً. ثم زحف سِنجر الى الامير داود فبعث الى بركيارق يستدعيه لنجدته، فسار اليه والتقى الفريقان بظاهر بوشَنج وفي ميمنة سنجر الامير بُزْغُش وفي ميسرتـه الامير كوكر[1]. ومعه في القلب الأمير رُسْتُم فحمل بركيارق على رُسْتُم فقتله، وانفضّ الناس على سِنجر، وكاد ينهزم. وأخذ بركيارق أمّ سِنجرَ أسيرة، وشغل أصحاب بركيارق بالنهب فحمل عليهم برغش وكوكر فانهزموا، واستمرّت الهزيمة على بَركيارُق، وهرب الامير داود فجيء به الى بُرغُش أسيراً فقتـله. وسار بركيارق الى جِرجان، ثم الى الدامغان، ودخل البريّة. ثم استدعاه أهل اصفهان، وجاءه جماعة من الامراء منهم جاول صبّاوو، وسبقه محمد الى اصفهان فعدل عنها الى عَسكَر مُكَرَّم.

المصاف الثاني بين بركيارق ومحمد وهزيمة محمد وقتل وزيره مؤيد الملك والخطبة لبركيارق

لما انهزم بركيارُق أمام سِنجر سنة ثلاث وتسعين، وسار الى اصفهان فوجد أخاه محمداً قد سبقه اليها فعدل عنها الى خَوزِسْتان، ونزل الى عسكَر مُكرَّم. وقدم عليه هناك الاميران زنكي والبكي ابنا بُرْسق سنة أربع وتسعين، وساروا معه الى هَمَذان.

(١) كذا، واسمه في الكامل: كندكز.

وهرب اليه الامير أياز في خمسة آلاف من عسكر محمد، لانّ أميراً آخراً مات في تلك الايام، وظنوا أن مؤيد الملك دسّ عليه وزيره فسمه. وكان أياز في جملة أمير أضر[1] فقتل الوزير المتهم، ولحق ببركيارق. ثم وصل اليه سِرخاب بن كِنجر وصاحباه فاجتمع له نحو من خمسين ألف فارس. ولقيه محمد في خمسة عشر ألفاً، واستأمن أكثرهم الى بركيارق يوم المصاف أوّل جمادى الاخيرة سنة أربع وتسعين. واستولت الهزيمة على محمد، وجيء بمؤيد الملك أسيراً فوبخه ثم قتله بيده، لانه كان سيء السيرة مع الامراء كثير الحيل في تدبير الملك. ثم بعث الاغرّ أبو المحاسن وزير بركيارق أبا ابراهيم الاسترابـاذي لإستقصاء أموال مؤيد الملك وذخائره ببغداد، فحمل منها ما لا يسعه الوصف. يقال إنّه وجد في ذخائره ببلاد العجم قطعة بلخش زنتها أربعون مثقالاً. واستوزر محمد بعده خطيب الملك أبا منصور محمد بن الحسين.

ثم سار السلطان بركيارق الى الريّ، ووفد عليه هنالك كربوقا[2] صاحب الموصل ودَبيسُ بن صَدَقَة، وأبوه يومئذ صاحب الحِلّة. وسار السلطان قافلاً الى جرجان، وبعث الى أخيه سِنجَرَ يستجديه فبعث اليه ما أقامه. ثم طلبه في المدد فسار اليه سِنجرْ

(١) كذا، وفي الكامل: أمير آخر.

(٢) كذا، وفي الكتب الحديثة اسمه: كربوغا. العلاقات الاجتماعية، نقاش. ص ٢١.

من خُراسان، ثم سارا جميعاً الى الدامغان فخرّباها ، وسار الى الري، واجتمعت عليه النظاميّة وغيرهم فكثرت جموعهم. وكان بركيارق بعد الظفر قد فرق عساكره لضيق الميرة ، ورجع دَبيس بن صَدَقَة الى أبيه. وخرج باذَرْبَيْجَان داود بن اسمعيل بن ياقوتي فبعث لقتاله قوام الدولة كربوقا في عشرة آلاف ، واستأذنه اياز في المسير الى ولايته بهَمَذان ، ويعود بعد الفطر فبقي في قلّة من العساكر. فلما بلغه قرب أخيه محمد وسنجر اضطرب حاله ، وسار الى هَمَذان ليجتمع مع أياز فبلغه انه قد راسل أخاه محمداً وأطاعه فعاد الى خوزِستان.

ولمّا انتهى الى تُستَر استدعى ابن بُرْسق ، وكان من جملة اياز فلم يحضر ، وتأخر فأمّنه فسار نحو العراق ، فلمّا بلغ حُلوان لحق به أياز ، وكان راسل محمداً فلم يقبله. وبعث عساكره الى هَمَذان، فلحق بهمذان أياز. وأخذ محمد محلة[1] أياز بهَمَذان وكانت كثيراً من كل صنف وصودر أصحابه [2] بهَمَذان بمائة ألف دينار.

وسار بركيارق واياز الى بغداد فدخلها منتصف ذي القعدة من سنة أربع وتسعين ، وطلب من الخليفة المال للنفقة فبعث اليه بعد المراجعة بخمسين ألف دينار. وعاث أصحاب بركيارق في

(١) كذا، بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ١٩٧ : وأخذ عسكر محمد ما تخلف للأمير أياز بهمدان.

(٢) كذا بياض بالأصل وفي الكامل: ونهبوا داره وصادروا جماعة من أصحابه وصودر رئيس همذان بمائة ألف دينار.

أموال الناس وضجروا منه ووفد عليه أبو محمد عبدالله بن منصور المعروف بابن المصلحيّة[1] قاضي جَبلَة من سواحل الشام منهزماً من الافرنج باموال جليلة المقدار فأخذها بركيارق منه. وقد تقدّم خبر ابن المصلحيّة في دولة العباسيين. ثم بعث وزير بركيارق الأغرّ بالمحاسن[2] الى صَدَقَة بن مَزْيَد صاحب الحِلّة في ألف ألف دينار، يزعم أنها تخلّفت عنده من ضمان البلاد، وتهدّده عليها فخرج عن طاعة بركيارق، وخطب لمحمد أخيه. وبعث اليه بركيارق في الحضور والتجاوز عن ذلك. وضمن له أياز جميع مطالبه فأبى الا ان يدفع الوزير، واستمرّ على عصيانه، وطرد عامل بركيارق عن الكوفة واستضافها اليه.

مسير بركيارق عن بغداد ودخول محمد وسنجر اليها

ولما استولى السلطان محمد، وأخوه سِنجر على همذان، سار في اتباع بركيارُق الى حُلوان فقدم عليه هنالك ابو الغازي ابن أُرتُقَ في عساكره وخدمه، وكثرت جموعه فسار الى بغداد، وبركيارق عليل بها فاضطرب أصحابه، وعبروا به الى الجانب الغربي. ووصل محمد الى بغداد آخر سنة أربع وتسعين، وتراءى الجمعان بشاطىء دجلة، وجرت بينهم المراماة والنشّاب، وكان

(١) كذا، واسمه في الكامل ابن صليحة.

(٢) كذا، وهو الأغر أبو المحاسن الدهستاني.

عسكر محمد ينادون عسكر بَركيارُق يا باطنيّة. ثم سار بركيارق الى واسط ونهب عسكره جميع ما مرّوا عليه، ودخل محمد الى دار المملكة ببغداد، وجاءه توقيع المستظهر بالاستبشار بقدومه وخطب له. ونزل الملك سِنجر بدار كوهرائين، ووفد على السلطان محمد ببغداد صَدَقَةُ صاحب الحِلّة في محرّم سنة خمس وسبعين[1].

مقتل بركيارق الباطنية

كان هؤلاء الباطِنيّة قد ظهروا بالعراق وفارِس وخُراسان، وهم القرامِطَة، والدعوة بعينها دعوتهم، إلّا أنهم سمّوا في هذه الأجيال بالباطنيّة والاسماعيلِيّة والمُلاحِدَة والفِداوِيّة. وكل اسم منها باعتبار: فالباطنيّة لانهم يُبْطِنون دعوتهم، والاسماعيليّة لانتساب دعوتهم في أصلها لاسمعيل بن الامام جعفر الصادق. والمُلاحدة لانّ بدعتهم كلها إلحاد. والفداويّة لانهم يفادون أنفسهم بالمال على قتل من يسلطون. والقَرامِطَة نسبة الى قُرْمُط منشئ دعوتهم. وكان أصلهم من البحرين في المائة الثالثة وما بعدها. ثم نشأ هؤلاء بالمشرق أيام ملك شاه، فأوّل ما ظهروا باصفهان. واشتدّ في حصار بركيارق وأخيه محمود وأمه خاتون فيها. ثم

(١) كذا، وقد ذكرت هذه الحادثة في الكامل ج ٨ ص ١٩٨: في حوادث سنة أربع وتسعين وأربعمائة.

ثارت عامة اصفهان بهم باشارة القضاة وأهل الفتيا فقتلوهم في كل جهة ، وحرقوهم بالنار .

ثم انتشروا واستولوا على القلاع ببلاد العجم كما تقدّم في أخبارهم . ثم أخذ بمذهبهم نيران شاه بن بدران شاه بن قاروت بك[1] صاحب كِرمان ، حمله عليه كاتب من أهل خَوزِستان يسمّى أبا زُرعة . وكان بكِرْمانَ فقيه من الحَنفِيَّة يسمى أحمد بن الحسين البَلْخِي ، مطاعاً في الناس ، فخشي من نكيره فقتله فهرب عنه صاحب جيشه ، وكان شِحنة البلد ، ولحق بالسلطان محمد ومؤيد الملك باصفهان . وثار الجند بعده بنيران شاه فسار الى مدينة كِرْمان فمنعه أهلها ونهبوه فقصد قلعة سُهْدُم[2] واستجار بصاحبها محمد بهستون . وبعث أرسلان شاه عساكر لحصارها فطرده بهستون ، وبعث مقدّم العساكر في طلبه فجيء به أسيراً وبأبي زُرْعَة الكاتب معه فقتلهما أرسلان شاه ، واستولى على بلاد كِرمان .

وكان بَرْكيارُق كثيراً ما يسلطهم على من يريد قتله من الامراء ، مثل أنز شِحنة اصفهان ، وأرغش وغيرهم فأمنوا جانبه ، وانتشروا في عسكره ، واغروا الناس ببدعتهم وتجاوزوا الى التهديد عليها ، حتى خافهم اعيان العسكر . وصار بركيارق يصرفهم

---

(١) كذا ، وفي الكامل ج ٨ ص ٢٠٣ : تيرانشاه بن تورانشاه بن قاورت بك . ونرجح تورانشاه بدل نيرانشاه .

(٢) كذا ، وفي الكامل : قلعة سميرم .

على أعدائه، والناس يتهمونه بالميل اليهم فاجتمع أهل الدولة، وعذلوا بَركيارق في ذلك فقبل نصيحتهم، وأمر بقتل الباطنيَّة حيث كانوا فقتلوا وشرّدوا كل مشرد. وبعث الى بغداد بقتل ابي ابراهيم الاسترابادي الذي بعثه ابو الأغر لاستقصاء اموال مؤيد الملك، وكان يتهم بمذهبهم، فقتل. وقتل بالعسكر الامير محمد من ولد علاء الدين بن كاكويه، وهو صاحب مدينة تَيرَد، وكان يتهم بمذهبهم. وسعى بالكيا الهراسي مدرّس النظاميَّة انه باطني فأمر السلطان محمد بالقبض عليه، حتى شهد المُستَظهِرُ ببراءته وعُلوّ درجته في العلم فاطلقه، وحسمت عِلّة الباطنيَّة بين الجمهور. وبقي امرهم في القلاع التي ملكوها إلى ان انقرضوا كما تقدّم في اخبارهم مستوفى.

المصاف الثالث بين بركيارق ومحمد والصلح بينهما

ولما رحل برْكيارق عن بغداد الى واسِط، ودخل اليها السلطان محمد اقام بها الى منتصف المحرم من سنة خمس وتسعين. ثم رحل الى هَمَذان، وصحبه السلطان سِنجر لقصد خُراسان موضع امارته، وجاءت الاخبار الى المستظهر باعتزام بركيارق على المسير الى بغداد، ونقل له عنه قبائح من أقواله وأفعاله فاستدعى السلطان محمداً من هَمَذان وقال: أنا أسير معك لقتاله فقال محمد أنا أكفيكه يا أمير المؤمنين، ورجع ورتب ببغداد أبا المعالي شِحْنَةً وكان

بركيارق لما سار من بغداد الى واسط ، هرب أهلها منه الى الزُّبَيْدِيَّة ، ونزل هو بواسط عليلًا فلما أفاق أراد العبور الى الجانب الشرقي فلم يجد سفناً ولا نواتية . وجاءه القاضي أبو علي الفارسي الى العسكر واجتمع بالامير أياز والوزير فاستعطفهما لاهل واسط، وطلب إقامة الشحنة بينهم فبعثاه وطلبا من القاضي من يعبر فأحضر لهم رجالًا عبروا بهم. فلما صاروا في الجانب الشرقي نهب العسكر البلد فجاء القاضي واستعطفهم فمنعوا النهب. واستأمن اليهم عسكر واسط فأمنوهم .

وسار بركيارق الى بلاد نجم بُرْسق في الاهواز، وساروا معه ثم بلغه مسير أخيه محمد عن بغداد فسار في اتباعه الى نهاوند الى أن أدركه، وتصافوا ولم يقتتلوا لشدّة البرد. ثم عاودوا في اليوم الثاني كذلك . وكان الرجل يخرج لقريبه من الصف الآخر فيتصافحان ويتساءلان ويفترقان. ثم جاء الامير بكراج وعبر من عسكر محمد الى الامير اياز والوزير الاغر فاجتمعوا، وعقدوا الصلح بين الفريقين على ان السلطان بركيارق لا يعترض أخاه محمداً في الطبل ، وتكون المكاتبة بينهما من الوزيرين ، ولا يُعارَض أحد من العسكر في قصد أيهما شاء . والملك محمد ، يضرب له ثلاث نوب ، ويكون له من البلاد حَرّة وأعمالها وأذْرَبيجان وديار بكر والجزيرة والموصل ، ويمده بركيارق بالعساكر على من يمتنع عليه منها . وتحالفا على ذلك وافترقا . وكان العقد في ربيع الاوّل

سنة خمس وتسعين. وسار بركيارق الى ساوة ومحمد الى استراباذ، وكل أمير على اقطاعه. والله سبحانه وتعالى أعلم.

انتقاض الصلح والمصاف الرابع بين السلطانين وحصار محمد باصفهان

لما انصرف السلطان محمد الى استراباذ، وكان اتهم الامراء الذين سعوا في الصلح بالخديعة فسار الى قُزوين، ودسّ الى رئيسها لان يصنع صنيعاً ويدعوه اليه مع الامراء ففعل وجاء السلطان الى الدعوة. وقد تقدّم الى اصحابه بحمل السلاح، ومعه يشمك وافتكين من أمرائه فقبض عليهما، وقتل يشمك وسمل افتكين. وورد عليه الامير نيال بن أنشوكس الحسامي نازعاً عن أخيه بَركيارُق.

ولما التقى الفريقان حمل سرخاب بن كيخسرو[1] الديلمي صاحب ساوة على نيال الحسامي فهزمه، واتبعه عامّة العسكر، واستولت الهزيمة على عسكر محمد. ومضى بعضهم الى طَبَرِسْتان، وبعضهم الى قُزوين وذلك في جمادى من سنة خمس وتسعين لاربعة أشهر من المصاف قبله. ولحق محمد في الفلّ باصفهان، ومعه نيال الحسامي، واصفَهان في حكمه فحصّنها وسدّ ما ثلم من سورها، وأعمق الخندق، وفرّق الامراء في الاسوار وعلى الابواب، ونصب المجانيق. وجاء بَركيارُق في خمسة عشر ألف مقاتل فأقام محاصراً للبلد حتى

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٢٠٧: وحضر الدعوة ومعه الأمير أيتكين وبسمل فقتل الأمير بسمل، وهو من أكابر الأمراء، وكحل الأمير ايتكين. وكان الأمير ينال بن أنوشتكين الحسامي قد فارق بركيارق، وأقام مجاهداً للباطنية الذين في القلاع والجبال فقصد الآن السلطان محمد وسار معه إلى الري يضرب النوب الخمس.

اشتدّ الحصار وعدمت الاقوات . واستقرض محمد المال للجند من اعيان البلدة مرّة بعد اخرى ، فلما جهده الحصار خرج من البلد ومعه الامير نيال ، وترك باقي الامراء .

وبعث بَركيارُق الامير اياز في عسكر لطلبه فلم يدركه ، وقيل بل أدركه ، وذكره العهد فرجع عنه بعد ان اخذ رايته وجشره[1] وثلاثة أحمال من المال . ولما خرج محمد عن اصفهان طمع المفسدون والسواديّة في نهبها فاجتمع منهم ما يزيد على مائة ألف ، وزحفوا بالسلالم والدبابات ، وطمّوا الخندق وصعدوا في السلالم باشارة اهل البلد، وجدّوا في دفاعهم، وعادوا خائبين .

ورحل بركيارق آخر ذي القعدة من سنة خمس وتسعين ، واستخلف على البلاد القديم الذي يقال له شهرستان مرشد الهراس في ألف فارس ، مع ابنه ملك شاه ، وسار الى هَمَذان . وفي هذا الحصار قتل وزير بركيارق الاغرّ أبو المحاسن عبد الجليل الدهستاني، عرض له يوماً بعض الباطنيّة عندما ركب من خيمته لباب السلطان، طعنه طعنات وتركه بآخر رمق، وقتل غلام من غلمان بعض المكوس للوزير ، ثار فيه بمولاه. وكان كريماً واسع الصدر ، وولي الوزارة على حين فساد القوانين وقلة الجباية فكان يضطرّ لاخذ اموال الناس بالاخافة فنفرت الصفوة منه. ولما مات استوزر بركيارق بعده الخطير أبا منصور المَيْبَذي كان وزيراً لمحمد ، وقد

(١) كذا، وفي الكامل: وأخذ علمه والجنز.

وكله في الحصار ببعض الابواب فبعث اليه محمد نيال بن أبي شكين يطالبه بالاموال لاقامة العسكر فخرج من الباب ليلاً ولحق ببلده ، وامتنع بقلعتها فارسل السلطان بركيارق اليها عساكر ، وحاصروها حتى استأمن وجاء عند قتل وزيره الاغر فاستوزره بركيارق مكانه والله تعالى أعلم بغيبه .

مسير صاحب البصرة الى واسط

كان صاحب البصرة لهذا العهد اسمعيل بن ارسلان حين كان السلطان ملك شاه شِحْنَةَ بالريّ، وولّاه عليها عندما اضطر أهلها ، وعجز الولاة عنهم فحسنت كفايته، وأثخن فيهم وأصلح أمورها. ثم عزل عنها، وأقطع السلطان بركيارق البصرة للامير قماج، وكان ممن لا يفارقه فاختار اسمعيل لولاية البصرة . ثم نزع قماج عن بركيارق وانتقل الى خُراسان فحدّثت اسمعيل نفسه بالاستبداد بالبصرة ، وانتقض وزحف اليه مهذّب الدولة بن أبي الخير من البُطَيْحَة ومعقل بن صَدَقَة بن منصور بن الحُسَيْن الأَسَدِي من الجزيرة في العساكر والسفن فقاتلوه في مطاري . وقتل معقل بسهم أصابه فعاد ابن أبي الخير الى البطيحة فأخذ اسمعيل السفن ، وذلك سنة احدى وتسعين . أسرهما واستفحل أمره بالبصرة . وبنى قلعةً بالأُبُلّة وقلعة الشاطئ قبالة مطاري. وأسقط كثيراً من المكوس، واتّسعت إمارته لشغل السلاطين بالفتنة. وملك المسبار وأضافها الى ما بيده،

ولما كان سنة خمس وتسعين طمع في واسط وداخل بعض أهلها، وركب اليها السفن الى نعما جار، وخيّم عليها بالجانب الشرقي أياماً، ودافعوه فارتحل راجعاً حتى ظنّ خلاء البلد من الحامية فدسّ اليها من يُضْرِم النار بها ليرجعوا فرجع عنهم. فلما دخل اصحابه البلد فتك اهل البلد فيهم ، وعاد الى البصرة منهزماً فوجد الامير أبا سعيد محمد بن نصر بن محمود صاحب الاعمال لعُمان وجنابا وشيراز وجزيرة بني نفيس محاصراً للبصرة. وكان أبو سعيد قد استبدّ بهذه الاعمال منذ سنين. وطمع اسمعيل في الاستيلاء على أعماله وبعث اليها السفن في البحر فرجعوا خائبين فبعث أبو سعيد خمسين من سفنه في البحر فظفروا بأصحاب اسمعيل واتفقوا معهم على الصلح، ولم يقع منه وفاء به فسار ابو سعيد بنفسه في مائة سفينة. وأرسى بفوهة نهر الابلة، ووافق دخول اسمعيل من واسط فتزاحفوا براً وبحراً. فلما رأى اسمعيل عجزه عن المقاومة كتب الى ديوان الخليفة بضمان البلد. ثم تصالحا، ووقعت بينهما المهادنة، وأقام اسمعيل مستبداً بالبصرة الى أن ملكها من يده صَدَقَة بن مَزْيَد في المائة الخامسة كما مرّ في أخباره وهلك برامهُرمُز .

وفاة كربوقا صاحب الموصل واستيلاء جكرمش عليها واستيلاء سقمان بن أرتق على حصن كيفا

كان السلطان بركيارق أرسل كربوقا الى أذَرْبَيجان لقتال مودود بن اسمعيل بن ياقوتي الخارج بها سنة أربع وتسعين ،

فاستولى على أكثر أذرَبيجان من يده . ثم توفي منتصف ذي القعدة سنة خمس وتسعين ، وكان معه أصبهيذ صباوو بن خمارتكين ، وسُنقرجه من بعده . وأوصى الترك بطاعته فسار سُنقُرْجه الى الموصل ، واستولى عليها . وكان أهل الموصل لما بلغهم وفاة كربوقا قد استدعوا موسى التركماني من موضع نيابته عن كربوقا بحصن كيفا للولاية عليهم ، فبادر اليهم ، وخرج سُنقرْجَه للقائه فظنّ انه جاء اليه ، وجرت بينهما محاورات . وردّ سُنقرُجه الامر الى السلطان فآل الامر بينهما الى المطاعنة . وكان مع موسى منصور بن مروان ، بقية أمراء ديار بكر . وضرب سُنقرْجَه فأبان رأسه ، وملك موسى البلد . ثم زحف جَكَرمِش صاحب جزيرة ابن عمر الى نصيبين فملكها ، وخالفه موسى الى الجزيرة فبادر اليه جكرمش وهزمه . واتبعه الى الموصل فحاصره بها فبعث موسى الى سُقمان بن أرْتُق بديار بكر يستنجده على أن يعطيه حصنَ كيفا فسار سُقْمان اليه . وأفرج عنه جكرمش .

وخرج موسى للقاء سُقمان فقتله مواليه ، ورجع سُقمان الى كيفا . وجاء جكرمش الى الموصل فحاصرها وملكها صلحاً ، واستلحم قتلة موسى . ثم استولى بعد ذلك على الخابور ، وأطاعه العرب والاكراد . وأمّا سُقمان بن أرتُق فسار بعد مقتل موسى الى حصن كيفا ، واستمرّ بيده .

قال ابن الاثير : وصاحبها الآن في سنة خمس وعشرين وستمائة

محمود بن محمد بن الفراء . وكان صاحبها سنة عشرين وستمائة غازي ابن قرا ارسلان بن داود بن سُقمان بن أرتق والله تعالى أعلم .

أخبار نيال بالعراق

كان نيال بن أبي شتكين الحسامي مع السلطان محمد باصفهان لما حاصرها بَركيارُق بعد المصاف الرابع سنة خمس وتسعين ، فلما خرج محمد من الحصار الى أذْرَبَيْجان ، ومعه نيال ، استأذنه في قصد الريّ ليقيم بها دعوتهم ، وسار هو وأخوه عليّ ، وعسف بأهل الريّ وصادرهم . وبعث السلطان بركيارق الامير برسق بن بُرسُق في ربيع من سنة ست وتسعين فقاتله وهزمه ، واستولى بُرسُق على الريّ ، وأعاده على ولاية بقُزوين ، وسلك نيال على الجبال ، وهلك كثير من أصحابه ، وخلص الى بغداد فأكرمه المستظهر ، وأظهر طاعة السلطان محمد . وتحالف هو وأبو الغازي وسُقمان بن أرْتُق على مناصحة السلطان محمد ، وساروا الى صَدَقَة ابن مَزْيَد بالحِلّة فاستحلفوه على ذلك .

ثم أنّ نيال بن أبي شتكين عسف بأهل بغداد ، وتسلّط عليهم وصادر العمال فاجتمع الناس الى أبي الغازي بن ارتق . وكان نيال صهره على أخته التي كانت زوجاً لتُتُش ، وطلبوا منه أن يشفع لهم عنده . وبعث المستظهر اليه قاضي القضاة أبا الحسن الدامغاني بالنهي عمّا يرتكبه فأجاب وحلف . ثم نكث فأرسل المستظهر

الى صَدَقَة بن مَزيَد يستدعيه فوصل في شوّال من السنة، واتفق مع نيال على الرحيل من بغداد. ورجع الى حلّته، وترك ولده دبيساً يزعج نيال للخروج فسار نيال الى أوان، وعاث في السابلة وأقطع القرى لاصحابه. وبعث الى صَدَقَة فأرسل اليه العساكر، وخرج فيها أبو الغازي بن أرتق، وأصحاب المستظهر فسارَ نيال الى اذربيجان ورجعوا عنه.

ولاية كمستكين النصيري شحنة بغداد وفتنته مع أبي الغازي وهربه

كال أبو الغازي بن أرتُق شِحْنَة بغداد، ولّاه عليها السلطان محمد عند مقتل كوهرائين. ولما ظهر الآن بُركيارُق على محمد، وحاصره باصفهان. ونزل بركيارق هَمَذان، وأرسل الى بغداد كمستكين النُصَيري في ربيع سنة ست وتسعين. وسمع ابو الغازي بقدمه فاستدعى أخاه سُقمان بن أُرْتُق من حصن كيفا يستنجده وسار الى صَدَقة بن مزيَد فخالفه على النصرة والمدافعة. ورجع الى بغـداد، ووصل اليه أخوه سقمان بعد ان نهب في طريقه. ووصل كمستكين الى قرقيسيا ولقيه شيعة بركيارق، وخرج ابو الغازي وسُقمان عن بغداد، ونهب قرى دُجَيـل واتبعتهما العساكر. ثم رفعت عنهما وأرسل كمستكين الى صَدقة صاحب الحِلّة فامتنع عن طاعة برقيارق، وسار من الحِلّـة الى صَرْصَر؛ وقطع خطبة بركيارق، وعبر بغداد واقتصر على الدعاء للخليفة.

وبعث صَدَقَة الى أبي الغازي وسُقمان يعرفهما بوصوله ، وهما بالحرنى[1] وجاء الى دجيل . ونهب القرى واشتدّ فسادهم . وأضر ذلك بحال بغداد في غلاء الاسعار . وجاء أبو الغازي وسُقمان ومعهما دَبيس بن صَدَقَة فخيموا بالرملة ، وقاتلهم العامّة ففتكوا فيهم .

وبعث المستظهر قاضي القضاة أبا الحسن الدامغاني ، وتاج الرؤساء بن الرحلات الى صَدَقَة بن مَزْيَد بمراجعة الطاعة فشرط خروج كمستكين عن بغداد ، فأخرجه المستظهر الى النَهْرَوان . وعاد صَدَقَة الى الحِلّة وأعيدت خطبة السلطان محمد ببغداد . ثم سار كمستكين النّصيري الى واسط ، وخطب فيها لبركيارق ، ونهب عسكره سوادها فسار صَدَقَة وأبو الغازي اليه ، وأخرجاه من واسط . وتحصّن بدجلة فقصده صَدَقَة فانفَضّ عنه أصحابه ، ورجع الى صَدَقَة بالامان فأكرمه ، وعاد الى بركيارق . وأعيدت خطبة السلطان محمد بواسط ، وبعده لصَدَقَة وأبي الغازي ، وولّى كل واحد فيها ولده . وعاد أبو الغازي الى بغداد ، وعاد صَدَقَة الى الحِلّة ، وبعث ابنه منصوراً مع أبي الغازي يطلب الرضا من المستظهر لانه كان سخطه من أجل هذه الحادثة .

---

(١) كذا ، وفي الكامل ج ٨ ص ٢١٥ : وكان بحربي يعرفهما أنه أتى لنصرتهما .

المصاف الخامس بين بركيارق ومحمد

كان السلطان محمد لما سار عن كنجة وبلاد أران استخلف بها الامير غزغلي ، وأقام بها في طائفة من عسكره مقيماً خطبة السلطان محمد في جميع أعماله الي زنجان من آخر أَذْرَبِيْجان. فلما انحصر محمد بأصفهان سار غزغلي لانجاده ، ومعه منصور بن نظام الملك ، ومحمد بن أخيه مؤيد الملك فانتهوا الى الريّ ، وملكوها آخر خمس وتسعين ، ولقوا السلطان محمداً بِهَمَذَان ، عندما خرج من أصفهان ، ومعه نيال بن أبي شتكين وأخوه علي ، وأقاموا معه بِهَمَذَان . ثم جاء الخبر بمسير بركيارق اليهم فتوجه السلطان محمد قاصداً شروان ، وانتهى الى أَذْرَبِيْجان فبعث اليه مودود بن اسمعيل بن ياقوتي ، الذي كان بركيارق قتل أباه اسمعيل ، وكانت أخت مودود هذا تحت محمد ، وكان له طائفة من أعمال أَذْرَبِيْجان ، فاستدعى محمداً ليظاهره على بركيارق فسار اليه ، وانتهى الى سُقمان . وتوفي مودود في ربيع سنة ست وتسعين ، واجتمع عساكره على السلطان محمد وفيهم سُقمان القطبي[1] ومحمد بن ياغي سياه ، الذي كان أبوه صاحب انطاكية . ونزل ارسلان بن السبع الأحمر فسار اليهم بركيارق ، وقاتلهم على خُراسان . وسار أياز من عسكر بركيارق ، وجاء من خلف السلطان محمد فانهزم محمد

(١) كذا، وفي الكامل ج ٨ ص ٢١٧ سكمان القطبي .

وأصحابه ، ولحق بارقيش من أعمال خلاط . ولقيه الأمـير علي صـاحب ارزن الروم فمضى الى اصفهان ، وصاحبها منوجهر أخو فضلون الروادي ، ثم سار الى هرمز . وأمّا محمد بن مؤيد الملك ابن نظام الملك فنجا من الوقعة الى ديار بكر ، ثم الى جزيرة ابن عمر ، ثم الى بغداد . وكان أيام أبيه مقيماً ببغداد في جوار المدرسة النظاميّة فشكى الى أبيه ، وخـاطب كوهرائين بالقبض عليه فاستجار بدار الخلافة ، ولحق سنة اثنتين وتسعين بمجد الملك البارسلاني ، وابوه بكنجة عند السلطان محمد ، فلمّا خطب السلطان محمد لنفسه ، واستوزر أباه مؤيد الملك ، ولحق محمد هذا بأبيه ، ثم قتل أبوه وبقي في جملة السلطان محمد .

استيلاء ملك بن بهرام على مدينة عانة

كان ملـك بن بهرام بن ارتق بن أخي أبي الغاري بن ارتق مالكاً مدينة سروج فملكها الفرنج من يده ، فسار عنها الى عانة ، وغلب عليها بني العيش بن عيسى من خلاط ، وكانت لهم ، فقصدوا صَدَقَة بن مَزْيَد مستنجدين به فأنجدهم ، وجاء معهم فرحل ملك ابن بهرام والتركمان عنها ، ودخلها بنو العيش ، وأخذ صَدَقَة رهائنهم ، وعاد الى الحِلّة فرجع ملـك اليها في ألفي رجل من التركمان ، وحاربها قليلاً . ثم عبر المخاضة ، وملكها واستباح أهلها ، ومضى الى هيت ورجع عنها .

الصلح بين السلطانين بركيارق ومحمد

ثم استقرّ الأمر آخراً بالسلطان بركيارق في الريّ ، وكان له الجبال وطبرستان وخَوزِسْتَان وفارس وديار بكر والجزيرة والحرمين ، ولمحمد أذرَبيجان وبلاد أران وارمينية وأصفهان والعراق جميعاً ، غير تكريت والبطائح بعضها ، وبعضها والبصرة لهما جميعاً ، وخراسان لسنجر من جرجان الى ما وراء النهر يخطب فيها لاخيه محمد . وله من بعده والعساكر كلهم يتحكمون عليهم بسبب الفتنة بينهما . وقد تطاول الفساد وعمّ الضرر ، واختلفت قواعد الملك فأرسل بركيارق الى أخيه محمد في الصلح مع فقيهين من أماثل الناس ، ورغباه في ذلك ، واعاد معهما رسلاً آخرين . وتقرّر الامر بينهما أن يستقرّ محمد على ما بيده سلطاناً ، ولا يعارضه بركيارق في الطبل ، ولا يذكر اسمه في أعمال محمد ، وأنّ المكاتبة تكون بين الوزيرين والعساكر بالخيار في خدمة من شاؤا منهما . ويكون للسلطان محمد من النهر المعروف بأَسْتَراباذ الى باب الابواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام والعراق بلاد صَدَقة بن مَزْيَد ، وبقية الممالك الاسلامية لبركيارق .

وتحالفا على ذلك ، وانتظم الامر ، وأرسل السلطان محمد الى اصحابه باصفهان بالخروج عنها لاخيه بركيارق ، واستدعاهم اليه فأبوا وجنحوا الى خدمة بركيارق . وساروا اليه بحريم السلطان

محمد الذي كانوا معهم فأكرمهم بركيارق ، ودلّهم الى صاحبهم . وحضر أبو الغازي بالديوان ببغداد . وسار المستظهر في الخطبة لبركيارق فخطب له سنة سبع وتسعين ، وكذلك بواسط . وكان أبو الغازي قبل ذلك في طاعة محمد فأرسل صَدَقة الى المستظهر يعذله في شأنه ، ويخبره بالمسير لاخراجه من بغداد . ثم سار صَدَقة ونزل عند الفجاج . وخرج أبو الغازي الى عقرقوبا . وبعث لصَدَقة بأنه انما عدل عن طاعة محمد للصلح الواقع بينه وبين أخيه ، وأنهما تراضيا على ان بغداد لبركيارق ، وأنا شحنة بها ، واقطاعي حُلوان فلا يمكنني التحوُّل عن طاعة بركيارق فقبل منه ورجع الى الحِلّة. وبعث المستظهر في ذي القعدة سنة سبع وتسعين بالخلع للسلطان بركيارق والامير اياز والوزير الخطير واستحلفهم جميعاً ، وعاد الى بغداد ، والله سبحانه وليّ التوفيق .

حرب سقمان وجكرمش الافرنج

قد تقدّم لنا استيلاء الافرنج على معظم بلاد الشام وشغل الناس عنهم بالفتنة ، وكانت حرّان لقراجا من مماليك ملك شاه. وكان غشوماً فخرج منها لبعض مذاهبه ، وولّى عليها الأصفهاني من أصحابه فعصى فيها ، وطرد أصحاب قراجا منها ما عدا غلاماً تركياً اسمه جاولي جعله مقدّم العسكر ، وأنس به فقرّره وتركه ، وملك حرّان . وسار الافرنج اليها وحاصروها . وكان بين

جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر وسُقمان صاحب كيفا حروب، وسُقمان يطالبه بقتل ابن أخيه فانتدبا لنصر المسلمين واجتمعا على الخابور وتحالفا. وسار سُقمان في سبعة آلاف من التركمان، وجكرمش في ثلاثة آلاف من الترك والعرب والاكراد، والتقوا بالافرنج على نهر بلخ فاستطرد لهم المسلمون نحو فرسخين، ثم كرّوا عليهم فغنموا فيهم، وقتلوا سوادهم.

وأخذ القمص بردويل صاحب الرها، أسره تركماني من أصحاب سقمان في نهر بلخ. وكان بيمند صاحب انطاكية من الافرنج وطنكرى صاحب الساحل منهم قد كمنا وراء الجبل ليأتيا المسلمين من ورائهم عند المعركة. فلما عاينوا الهزيمة كمنوا بقية يومهم، ثم هربوا فاتبعهم المسلمون واستلحموهم وأسروا منهم كثيراً، وفلت بيمند وطنكري بدماء أنفسهم. ولما حصل الظفر للمسلمين عصى أصحاب جكرمش باختصاص سُقمان وشق ذلك عليه وأراد أصحابه (١) فأبى حذراً من افتراق المسلمين ورحل، وفتح في طريقه عدّة حصون. وسار جكرمش الى حَرّان ففتحها. ثم سار الى الرُّها فحاصرها خمس عشرة ليلة، وعاد الى الموصل. وقاد من القُمُص بخمسة وثلاثين ألف ديناراً، ومائة وستين أسيراً من المسلمين.

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ح ٨ ص ٢٢٣: فلما عاد سقمان شق عليه الأمر، وركب أصحابه للقتال فردهم وقال لهم: لا يقوم فرح المسلمين في هذه الغزاة بغمهم باختلافنا.

وفاة بركيارق وولاية ابنه ملك شاه

ثم توفي السلطان بركيارق بن ملك شاه بنزدجرد[١] في أوائل ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين لاثنتي عشرة سنة ونصف من ملكه ، جاء اليها عليلاً من اصفهان ، واشتدّ مرضه ببروجرد ، فولّى عهده لابنه ملك شاه ، وعمره نحو من خمس سنين . وخلع عليه ، وجعل الامير أياز كافله ، وأوصى أهل الدولة بالطاعة والمساعدة . وبعثهم الى بغداد فأدركهم خبر وفاته بالطريق. ورجع أياز حتى دفنه باصفهان، وجمع السُرادقات والخيام والجتر والشمسية لابنه ملك شاه . وكان بركيارق قد لقي في ملكه من الرخاء والشدّة والحرب والسلم ما لم يلقه أحد . فلما استقرّ [٢] واستقامت سعادته أدركته المنية . ولما توفي خطب لابنه ملك شاه ببغداد ، وكان أبو الغازي قد سار من بغداد اليه ، وهو باصفهان يستحثه الى بغداد . وجاء معه ، فلما مات سار مع ابنه ملك شاه والامير اياز الى بغداد ، وركب الوزير أبو القاسم عليّ بن جُهَيْر فلقيهم به [٣] مالي . وحضر أبو الغازي والامير

---

(١) كذا، وفي الكامل: بروجرد. وهو الصحيح.

(٢) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٢٢٤ : ولما قوي أمره في هذا الوقت وأطاعه المخالفون وانقادوا له أدركته منيته.

(٣) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل: فلقيهم من ديالي وكانوا خمسة آلاف فارس، وحضر إيلغازي والأمير طغا يدك بالديوان.

طغايرك بالديوان، وطلبا الخطبة لملك شاه فخطب له، ولقب بألقاب جدّه ملك شاه.

حصار السلطان محمد الموصل

لما انعقد الصلح بين بركيارق ومحمد، واختص كل منهما اعماله، وكانت أذَرْبيجان في قسمة محمد، رجع محمد الى أذَرْبيجان، ولحق به سعد الملك أبو المحاسن الذي كان نائباً باصفهان بعد أن أبلى في المدافعة عنها. ثم سلمها بعد الصلح الى نواب بركيارق، واستوزره فأقام محمد الى صفر من سنة ثمان وتسعين. ثم سار يريد الموصل على طريق مَرَاغة، ورحل وبلغ الخبر الي جكرمش فاستعدّ للحصار، وأدخل أهل الضاحية الى البلد وحاصره محمد. ثم بعث له يذكره ما استقرّ عليه بينه وبين أخيه وأنّ الموصل والجزيرة له، وعرض عليه خط بركيارق بذلك وبايمانه عليه، ووعده أن يقرّها في عمالته فقال له جكرمش: انّ السلطان كتب اليّ بعد الصلح بخلاف ذلك فاشتدّ في حصاره، وأشتدّ أهل البلد في المدافعة ونفس الله عنهم برخص الاسعار. وكان عسكر جكرمش مجتمعين قريباً من الموصل، وكانوا يغزون على أطراف العسكر، ويمنعون عنهم الميرة. ثم وصل الخبر عاشر جمادى الاولى بوفاة السلطان بركيارق فاستشار جكرمش أهل البلد فردّوا النظر اليه، واستشار الجند فأشاروا بطاعة السلطان محمد فأرسل اليه

بذلك ، واستدعى وزيره سعد الملك فدخل عليه ، وأشار عليه بلقاء السلطان فخرج اليه على كره من أهل البلد فتلقاه السلطان بالكرامة ، وأعاده سريعاً الى البلد ليطمئن الناس .

استيلاء السلطان محمد علي على بغداد وخلع ملك شاه ابن اخيه ومقتل اياز

قد كنا قدّمنا صلح بركيارق وأخيه محمد من أنه يستقل بركيارق بالسلطنة ، وينفرد محمد بالاعمال التي ذكرنا ، وموت بركيارق اثر ذلك ، وتقديم ابنه ملك شاه ببغداد . فوصل الخبر بذلك الى محمد، وهو يحاصر الموصل فاطاعه جكرمش وسار محمد الى بغداد ، ومعه جكرمش وسقمان القطبي مولى قطب الدولة اسمعيل ابن ياقوتي عمّ ملك شاه ومحمد وغيرهما من الامراء وجمع صدَقَة صاحب الحِلّة العساكر ، وبعث ابنه بدران ودبيساً الى محمد يستحثانه ، وجاء السلطان محمد الى بغداد فاعتزم الامير اياز أتابك ملك شاه على دفاعه ، وخيم خارج بغداد ، وأشار عليه بذلك أصحابه ، وخالفهم وزيره أبو المحاسن الضبعي ، وأبلغ في النصيحة له بطاعة السلطان فأقام متردّداً ، ونزل محمد بالجانب الغربي، وخطب له هنالك منفرداً ، ولهما معاً في بعض الجوامع . واقتصر على سلطان العالم في بعضها .

ورجع أياز الى استحلاف الامراء ثانياً فوقف بعضهم وقال : لا فائدة في اعادة اليمين . وارتاب اياز عندها ، وبعث وزيره

الضبعي أبا المحاسن لعقد الصلح مع السلطان واستحلافه ، فقرأ على وزيره سعد الملك أبي المحاسن سعد بن محمد فدخل معه الى السلطان ، وأجابه الى ما طلب . وجاء معه من الغد قاضي القضاة والمفتيان ، واستحلفاه لاياز وللامراء فحلف إلا ان ينال الحسامي و [1] وقال : أمّا ملك شاه فهو ابني وأنا أبوه . وجاء اياز من الغد ، وقارن وصول صَدَقَة بن مَزْيَد فانزلهما واحتفى بهما ، وذلك آخر جمادى الاولى من سنة ثمان وتسعين .

ثم احتفل أياز بعدها في عمل صنيع للسلطان في بيته ، وهي دار كوهرائين ، وأهدى اليه تحفاً من جملتها حبل البلخش الذي أخذه من تركة نظام الملك بن مؤيد الملك . واتفق ان اياز تقدم لمواليه بلبس السلاح ليعرضهم على السلطان ، وكان عندهم مصفعان فألبسوه درعاً تحت ثيابه ، وتناولوه بالنخس فهرب عنهم ، ودخل في حاشية السلطان مذعوراً فلمسوه فاذا الدرع تحت ثيابه فارتابوا . ونهض السلطان الى داره ثم دعا الامراء بعد ذلك بأيام [2] فاستشارهم في بعث يبعثهم الى ديار بكر [2] انّ ارسلان

(١) كذا بياض الأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٢٢٥ فلما سمع الأمير أياز بمسيره إليه خرج هو والعسكر الذين معه من الدور ونصبوا الخيام بالزاهر خارج بغداد، وجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعله فبذلوا له الطاعة واليمين على قتاله وحربه ومنعه عن السلطنة والاتفاق معه عن طاعة ملكشاه بن برقيارق وكان أشدهم في ذلك نيال وصباوو فإنهم بالغوا في الأطماع بالسلطان محمد والمنع له من السلطنة.

(٢) كذا بياضان بالأصل وفي الكامل ج ٨ ص ٢٢٦ : استدعى السلطان الأمير صدقة وأياز وجكرمش وغيرهم من الأمراء، فلما حضروا أرسل إليهم أنه بلغنا أن قلج إرسلان بن سليمان بن قتلمش قصد ديار بكر ليتملكها ويسير منها إلى الجزيرة.

ابن سليمان بن قُطُلْمُش قصدهـا فاتفقوا على الاشارة بمسير اياز ، وطلب هو أن يكون معه صَدَقَة بن مَزْيَد فأسعفه السلطان بذلك ، واستدعاهما لانفاذ ذلك . وقد أرصد في بعض المخادع بطريقهم جماعة لقتل أياز فلما مرّ بهم تعاورته سيوفهم ، وقطع رأسه وهرب صَدَقَة ، وأغمي على الوزير . وهرب عسكر أياز فنهبوا داره . وأرسل السلطان من دفعهم عنها . وسار السلطان من بغداد الى اصبهان وهذا اياز من موالي السلطان ملك شاه . ثم سار في جملة ملك آخرفساء . وأمّا الضبعي وزير أياز فاختفى أشهراً . ثم حمل الى الوزير سعد الملك في رمضان فلما وصل كان ذلك سبب رياسته بهمذان .

استيلاء سقمان بن أرتق على ماردين وموته

كان هذا الحصن في ديار بكر أقطعه السلطان بركيارق لمغن كان عنده ، وكان حواليها خلق كثير من الاكراد يغيرون عليها ويخيفون سابلتها . واتفق انّ كربوقا خرج من الموصل لحصار آمد ، وكانت لبعض التركمان فاستنجد بسُقمان فسار لانجاده . ولقيه كربوقا ومعه زنكي بن أقْسُنْقُر وأصحابه ، وأبلوا ذلك اليوم بلاءً شديداً فانهزم ، وأسر ابن أخيه ياقوتي بن أرْتُق فحبسه بقلعة ماردين عند المغني ، فبقيَ مدّة محبوساً . وكثر خروج الاكراد بنواحي ماردين فبعث ياقوتي الى المغني يسأله أن يطلقه ، ويقيم

عنده بالريف لدفاع الاكراد ففعل ، وصار يغير عليهم في سائر النواحي الى خلاط . وصار بعض أجناد القلعة يخرجون للاغارة فلا يهيجهم . ثم حدّثته نفسه بالتوثّب على القلعة فقبض عليهم بعض الايام بعد مرجعه من الاغارة ، ودنا من القلعة وعرّضهم للقتل ان لم يفتحها أهلوهم ففتحوها وملكها . وجمع الجموع وسار الى نصيبين وإلى جزيرة ابن عمر وهي لجركش فكبسه جكرمش وأصحابه ، وأصابه في الحرب سهم فقتله . وبكاه جكرمش وكانت تحت ياقوتي بنت عمه سُقمان فمضت الى أبيها . وجمعت التركمان وجاء (١) بهم الى نصيبين لطلب الثار فبعث اليه جكرمش ما أرضاه من المال في ديته فرجع . وأقام بماردين بعد ياقوتي أخوه على طاعة جكرمش ، وخرج منها لبعض المذاهب ، وكتب نائبه بها الى عمه سُقمان بأنه تملك ماردين على جكرمش فبادر إليها سقمان واستولى عليها ، وعوّض عنها ابن أخيه بجبل جور ، وأقامت ماردين في حكمه مع حصن كيفا ، واستضاف اليها نصيبين . ثم بعث اليها فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس يستنجده على الافرنج ، وكان استبدّ بها على الخلفاء العُبَيْدِيّين أهل مصر . وثار له الافرنج عندما ملكوا سواحل الشام فبعث بالصريخ الى سُقمان بن ارتق

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٢٢٨ : وجمعت التركمان وطلبت بثأر ابن ابنها وحصر سقمان نصيبين، وهي لجكرمش. فسير جكرمش إلى سقمان مالاً كثيراً سراً فأخذه ورضي وقيل: إنه قتل في الحرب ولا يعرف قاتله.

سنة ثمان وتسعين فأجابه. وبينما هو يتجهز للمسير ، وافاه كتاب طغتكين صاحب دمشق المستبدّ بها من موالي بني تُتُش يستدعيه لحضور وفاته خوفاً على دمشق من الفرنج ، فأسرع السير معتزما على قصد طرابلس ، وبعدها فانتهى الى القريتين وندم طغتكين على استدعائه ، وجعل يدبّر الرأي مع أصحابه في صرفه. ومات هو بالقريتين فكفاهم الله تعالى أمره. وقد كان أصحابه عندما أيقن بالموت أشاروا عليه بالعودة الى كيفا فامتنع ، وقال : هذا جهاد ، وان مت كان لي ثواب شهيد .

خروج منكبرس على السلطان محمد ونكبته

كان منكبرس بن يورس[1] بن ألب أرسلان مقيماً باصفهان ، وانقطعت عنه المواد من السلطان فخرج الى نهاوند ، ودعا لنفسه ، وكاتب الامراء بني برسق بخوزِستان ، وبعثوا به الى طاعته . وكان أخوهم زنكي عند السلطان محمد فقبض عليه ، وكاتب اخوته في التدبير على منكبرس فأرسلوا اليه بالطاعة حتى جاءهم فقبضوا عليه بخوزِستان ، وبعثوا به الى اصبهان فاعتقل مع ابن تُتُش ، وأطلق زنكي بن برسق ، وأعيد الى مرتبته . وكانت اقطاع بني برسق الاسير وسابور وخوزِستان وغيرها ما بين الاهواز

(١) كذا، وفي الكامل: بوربرس، وفي كتب التاريخ الحديثة: بربروس.

وهَمَذان فعوضهم عنها بالدينور ، وأخرجهم من تلك الناحية والله تعالى أعلم .

مقتل فخر الملك بن نظام الملك

قد ذكرنا قبل انّ فخر الملك بن نظام الملك كان وزيراً لتُتُش ، ثم حبسه . ولما هزمه بركيارق وجده في محبسه اطلقه ، وكان أخوه مؤيد الملك وزيراً له فمال اليه فخر الدولة بسعاية مجد الملك البارسلاني ، واستوزره سنة ثمان وثمانين . ثم فارق وزارته ولحق بسنجر بن ملك شاه بخُراسان فاستوزره . فلما كان في آخر المائة الخامسة ، جاء باطني يتظلّم الى باب داره فأدخله يسمع شكواه ، فطعنه بخنجر فقتله ، وأمر السلطان سنجر بضربه فأقرّ على جماعة من الناس وقتل .

ولاية جاولي سكاوو على الموصل وموت جكرمش

كان جاولي سكاوو قد استولى على ما بين خَوزِسْتان وفارس فعمّر قلاعها ، وحصنها وأساء السيرة في أهلها . فلمّا استقلّ السلطان محمد بالملك خافه جاولي ، وأرسل السلطان اليه الامير مَوْدُود بن أنوتكين فتحصّن منه جاولي ، وحاصره مودود ثمانية أشهر . ودسّ جاولي الى السلطان بطلب غيره فأرسل اليه خاتمه مع أمير آخر ، فسار اليه باصفهان ، وجهّزه في العساكر لجهاد الافرنج بالشام ،

واسترجاع البلاد منهم. وكان جَكَرْمش صاحب الموصل قد قطع الحمل فأقطع السلطان الموصل وديار بكر والجزيرة لجاولي فسار الى الموصل، وجعل طريقه على البواريح[1] فأستباحها أياماً. ثم سار الى اربل وكان صاحبها أبو الهيجاء بن برشك الكردي الهرباني[2] الى جكرمش يستحثه، فسار في عسكر الموصل والتقوا قريباً من اربل فانهزم أصحاب جَكُرْمُش. وكان يحمل في المحفة (٣) فقاتل عنده غلمانه، وأحمد بن قاروت بك فخرج وانهزم الى الموصل ومات. وجيء بجكرمش فحبسه، ووصل من الغد الى الموصل فولوا ازنكين بن جكرمش.

وأقام بالجزيرة، وقام بأمره غزغلي مولى مولى أبيه. وفرّق الاموال والخيول، وكتب الى قُلَيْجْ ارسلان صاحب بلاد الروم، وكان قد شيّد الموصل وبنى أسوارها وحصّنها بالخندق. وبينما هو كذلك سار اليه قُلَيْجْ أرسلان من بلاد الروم باستدعاء غزغلي كما تقدّم. وانتهى الى نصيبين فرحل جاولي عن الموصل. ثم جاء البُرسقي شحنة بغداد، ونزل عن الموصل وخاطبهم فلم يجيبوه فرجع من يومه. وسار قليج أرسلان من نصيبين الى الموصل،

(١) كذا، وفي الكامل: البوازيج. والأصوب: البواريخ.

(٢) كذا، وفي الكامل: فأتاه كتاب أبي الهيجاء بن موسك الكردي الهذباني صاحب أربل يذكر استيلاء جاولي على البوازيج.

(٣) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ح ٨ ص ٢٢٩: وأرسل إليه أبو الهيجاء عسكره مع أولاده، فاجتمعوا بقرية باكلبا من أعمال اربل.

وتأخر عنها جاولي الي سنجار واجتمع ابو الغازي أرْتُقْ وجماعة من عسكر جَكَرْمُش. وجاء صريخ رضوان بن تُتُش من الشام على الافرنج[1] فسار الى الرحبة، وبعث أهل الموصل وعسكر جكرمش الى قليج أرسلان بنصيبين واستحلفوا فحلف، وجاء الى الموصل فملكها في منتصف ختام المائة الخامسة. وخلع على ابن جَكَرْمُش، وخطب لنفسه بعد الخليفة. وقطع خطبة السلطان محمد، وأحسن الى العسكر. وأخذ القلعة من غزغلي فولّى جَكَرْمُش. وأقرّ القاضي أبا محمد، عبد الله بن القاسم الشهرزوري على القضاء. وجعل الرئاسة لأبي البركات محمد بن خميس. وكان في جملة قلّهم أرسلان ابراهيم بن نيال التركماني صاحب آمد، ومحمد بن حموا صاحب خرتبرت. كان ابراهيم بن نيال ولاه تُتُش على آمد فبقيت بيده. وكان ابن حموا مَلَكَ خَرْتَبَرْت من يد القلادروس ترجمان الروم. كانت له الرُّها وانطاكية فملك سليمان قُطُلْمُش انطاكية، وبقيت له الرها وخَرْتَبَرْت وأسلم القلادروس الرها. فلما ولي فخر الدولة بن جهير ديار بكر ضعف القلادوس عن الرُّها على يد ملك شاه وأمره عليها. ولما سار جاولي الى الرَّحَبَة قاصداً صريخرضوان ابن تُتُش نزل عليها آخر رمضان من السنة، وحاصرها وبها محمد ابن السبّاق من بني شيبان، ولاّه عليها دقاق فاستبدّ بها وخطب

(١) كذا، وفي الكامل ج ٨ ص ٢٤٠ : فأتاه كتاب الملك رضوان يستدعيه إلى الشام ويقول له: إن الفرنج قد عجز من بالشام عن منعهم.

لقليج أرسلان ، فحاصره جاولي ، وكتب الى رضوان يستدعيه ويعده بالمسير معه للدفاع ، فجاء رضوان ، وحاصر معه الرحبة . ثم دسّ الى جاولي جماعة من حامية الاسوار فوثبوا بها ، ودخلوا . وملك البلد ، وأبقى على محمد الشيباني ، وسار معه . ثم انّ قليج أرسلان لما فرغ من أمر الموصل ولّى عليها ابنه ملك شاه في عسكر ومعه أمير يدبره ، وسار الى قتال جاولي ، ورجع عنه ابراهيم بن نيال الى بلده آمد من الخابور فبعث الى بلده في الحشد ، فعاجله جاولي بالحرب ، والتقوا في آخر ذي القعـدة من السنة ، وانهزم أصحاب قليج أرسـلان على دفاعه . وأعاد الخطبة للسلطان ، واستصفى أصحاب جَكَرْمُش . ثم سار الى الجزيرة وبها حَبيس بن جَكَرْمُش ، ومعه غزغلي من موالي أبيه فحاصره مدّة ، ثم صالحه على ستة آلاف دينار ، ورجع الى الموصل ، وأرسل ملك شاه من قليج أرسلان الي السلطان محمد ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

مقتل صدقة بن مزيد

ولما استوحش صَدَقَة بن مَزْيَد صاحب الحِلّة من السلطان محمد سار اليه السلطان ، وملك أعماله ، ولقيه صَدَقَة فهزمه السلطان ، وقتل في المعركة كما ذكرنا ذلك في أخبـار صَدَقَة في دولة ملوك الحلّة والله سبحانه وتعالى أعلم .

قدوم ابن عمار صاحب طرابلس على السلطان محمد

كان فخر الدولة أبو علي بن عمّار صاحب طرابلس استبدّ بها على العبيديين ، فلما ملك الافرنج سواحل الشام ردّدوا عليها الحصار فضاقت أحوالها . فلما انتظم الأمر للسلطان محمد ، واستقام ملكه قصده فخر الملك بن عمّار صريخاً للمسلمين بعد أن استخلف على طرابلس ابن عمه ذا المناقب ، وفرق في الجند عطاءهم لستة أشهر ، ورتّب الجامكية في مقاعدهم للقتال ، وسار الى دمشق فلقيه طغتكين أتابك ، وخيم بظاهرها أياماً ، ورحل الى بغداد فأركب السلطان الامراء لتلقيه ، ولم يدخر عنه براً ولا كرامة ، وكذلك الخليفة . وأتحف السلطان بهدايا وذخائر نفيسة ، وطلب النجدة ، وضمن النفقة على العسكر فوعده بالنصر وأقام . ثم لقي الامير حسين بن أتابك طغتكين ليسير بالعساكر الى الموصل مع الامير مودود لقتال صَدَقَة جاولي ، ثم يسير حسين معه الى الشام. ثم رحل السلطان عن بغداد سنة احدى وخمسمائة لقتال صَدَقَة ، واستدعى ابن عمّار وهو بالنهروان فودعه . وسار معه الامير حسين الى دمشق ، وكان ابن عمّار لما سار عن طرابلس استخلف عليها ابن عمه ذا المناقب فانتقض ، واجتمع مع أهل طرابلس على إعادة الدولة العَلَوِيّة ، وبعثوا الى الأفضل بن أمير الجيوش المستبدّ على الدولة بمصر بطاعتهم ، ويسألون الميرة فبعث اليهم شرف الدولة

ابن أبي الطَّيِّب والياً ومعه الزاد من الاقوات والسلام ، فدخل البلد ، وقبض على أهل ابن عمّار وأصحابه ، واستصفى ذخائرهم وحمل الجميع الى مصر في البحر .

استيلاء مودود بن أبي شتكين على الموصل من يد جاولي

قد تقدّم لنا استيلاء جاولي على الموصل من يد قليج بن أرسلان وابن جَكَرْمُش ، وهلاكهما على يده . واستفحل ملكه بالموصل ، وجعل السلطان محمد بن أَلِبَّة ولاية ما يفتحه من البلاد له فقطع الحمل عن السلطان ، واستنفره لحرب صَدَقَة فلم ينفر معه . وداخل صَدَقَة بأنه معه فلما فرغ السلطان من أمر صَدَقَة ، بعث مودود بن أبي شتكين في العساكر ، وولاه الموصل ، وبعث معه الامراء ابن بُرْسُق ، وسُقمان القُطْبي ، وأَقْسُنْقُر البُرْسُقي وَنَصْر بن مُهَلهِل بن أبي الشوك الكردي ، وأبو الهيجاء صاحب إربل مدداً فوصلوا الموصل ، وخيّموا عليها فوجدوا جاولي قد استعدّ للحصار ، وحبس الاعيان ، وخرج عن البلد ، وترك بها زوجته هي وابنه برسق في ألف وخمسمائة مقاتل ، فأحسن في مصادرة الناس . واشتدّ عليهم الحصار فلما كان المحرّم سنة اثنتين ، خرج بعض الحامية من فُرْجَةٍ من السور وأدخلوا منها مودود والعساكر ، وأقامت زوجة جاولي بالقلعة ثمانية أيام . ثم استأمنت وخرجت الى

اخيها يوسف بن برسق بأموالها ، واستولى مودود عـلى الموصل وأعمالها .

وأمّا جاولي فلما سار عن الموصل وحمل معه القُمْص الذي كان أسره بنُعْمان ، وأخـذه منه جَكَرْمُش ، وسار به الى نصيبين . وسأل من صاحبها ابو الغازي بن أُرْتُق المظاهرة على السلطان فلم يجبه الى ذلك ، ورحل عن نصيبين الى ماردين بعد ان ترك ابنه مقيماً مع الحامية فتبعه جاولي ، ودخل عليه وحده بالقلعة متطارحاً عليه فأجابه ، وسار معه الى نصيبين ، ثم الى سنجار وحاصراهـا فامتنعت عليهما. ثم هرب ابو الغازي ليلاً الى نصيبين وتركه فسار جاولي الى الرَحَبَـة وأطلق القُمْص بردويل لخمس سنين من الصرة على مال قرّره عليه ، وأسرى من المسلمين يطلقهم ، وعلى النصرة مهما طلبه . وأرسله الى سالم بن مالـك بقلعة جعفر ، حتى جاء ابن خالته جوسكر صاحب تل باشر من زعماء الفرنج ، وكان أسر مع القمص فافتدى بعشرين ألف دينار ، وأقام جوسكر رهينة. وسار القُمْص الى انطاكية .

ثم أطلق جاولي جوسكر وأخذ رهناً عنه صهره وصهر القُمْص ، وبعثه في اتمام ما ضمن . ولما وصل الى انطاكية أعطاه شكري صاحبها ثلاثين ألف دينار وخيلاً وسلاحاً وغير ذلك . وكانت الرُّها وسَروج بيد القُمْص . ولما أسر ملك جَكَرْمُش الرُها من أصحابه طلبها منه الآن فلم يجبه ، فخرج القُمْص مغاضباً له ، ولحق بتل

باشر ، وقدم عليه جوسكر عندما أطلقه جاولي . ثم سار اليهما شكري يعاجلهما قبل اجتماع أمرهما فحاصرهما أياماً ، ورجع القُمُصُ وجوسكر على حصون انطاكية ، واستمدّ أبو سيل الارمني صاحب رعيان وكيسوم والقلاع شمالي حلب فأنجدهم بألف فارس . وسار اليهم شكري ، وحضر البترك ، وشهد جماعة من القسيسين والبطارقة أنّ أسمند خال شكري قال له عند ما ركب البحر الى بلاده : أعد الرُّهـا الى القُمُص اذا خلص من الاسر فحكم البترك باعادتها فأعادها تاسع صفر من السنة ، وعبر القُمُص الفرات ليرفع الى جاولي المال والاسرى كما شرط له .

وكان جاولي لما أطلق القُمُص سار الى الرحبة ولقيه أبو النجم بدران وأبو كامل منصور ، وكانا مقيمين بعد قتل أبيهما عند سالم ابن مالك فاستنجداه ، ووعداه أن يسير معهما الى الحِلّة ، واتفقوا على تقديم ابي الغازي تكين . ثم قدم عليهم اصبهبذ صباوو ، وقد اقطعه السلطان الرحبة فأشار على جاولي بقصد الشام لخلوها عن العساكر ، والتجنب عن العراق وطريق السلطان فقبل اشارته ، وأحصر على الرحبة . ثم وفد عليه صريخ سالم بن مالك صاحب جعفر يستغيث به من بني نمير ، وكان حيوش البصري قد نزل على ابن سالم بالرَّقة وملكها ، وسار اليه رضوان من حلب فصالحه بنو نُمَير بالمال . ورجع عليهم فاستنجد سالم الآن جاولي فجاء

وحاصر بني نمير بالرقة سبعين يوماً . فأعطوه مالاً وخيلًا ، ورحل عنهم واعتذر لسالم .

ثم وصل جاولي الى الامير حسين بن أتابك قطلغ تكين؛ كان أبوه أتابك السلطان محمد بكنجة فقتله ، وتقدّم ولده هذا عند السلطان ، وبعثه مع ابن عمّار ليصلح أمر جاولي ، وتسير العساكر كلها الى الجهاد مع ابن عمّار فأجاب جاولي لذلك ، وقال لحسين سر الى الموصل ، ورحِل العساكر عنها وأنا أعطيك ولدي رهينة ، وتكون الجباية لوالٍ من قبل السلطان فجاء حسين الى العساكر قبل أن يفتحوها فكلهم أجاب إلّا الأمير مودود فانه امتنع من الرحيل إلّا باذن من السلطان . وأقام محاصراً لها حتى افتتحها ، وعاد ابن قطلغ الى السلطان فأحسن الاعتذار عن جاولي . وسار جاولي الى بالس فملكها من أصحاب رضوان بن تُتُش ، وقتل جماعة من أهلها فيهم القاضي محمد بن عبد العزيز بن الياس ، وكان فقيهاً صالحاً .

ثم سار رضوان بن دقاق لحرب جاولي ، واستمدّ شكري صاحب انطاكية فأمدّه بنفسه ، وبعث الى القُمص بالرُّها يستمدّه، وترك له مال المفاداة فجاء اليه بنفسه ، ولحقه بمنبج . وجاء الخبر الى جاولي باستيلاء مودود وعساكر السلطان على الموصل وعلى خزائنه فاضطرب أمره ، وانفض عنه كثير من أصحابه : منهم زنكي بن أقسنقر وبكتاش . وبقي معه أصبهبذ صباوو وبدران ابن صدَقّة وابن جكَرْمش ، وانضمّ اليه كثير من المتطوّعة ، ونزل

تل باشر وأتى عسكر رضوان وشكري ، وكاد أن يهزمهم لولا أنّ أصحابه ساروا عنه ، وسار في اتباعهم فأبوا عليه فمضى منهزماً. وقصد اصبهبذ الشام وبدران بن صَدَقَة قلعة جعفر وابن جَكَرْمُش جزيرة ابن عمر ، وقتل من المسلمين خلق ، ونهب صاحب انطاكية سوادهم . وهرب القُمْص وجوسكر إلى تل باشر . وكان المنهزمون من المسلمين يمرون بهم فيكرمونهم ويجيزونهم الى بلادهم . ولحق جاولي بالرحبة فلقي بها سرايا مودود صاحب الموصل وخفي عنهم فارتاب في أمره ، ولم ير الخير له من قصد السلطان محمد ثقةً بما القى اليه حسين بن قطلغ تكين في شأنه فأوغر في السير ، ولحق بالسلطان قريباً من أصفهان . ونزل حسين بن قطلغ فدخل به الى السلطان فأكرمه ، وطلب منه بكتاش بن عمه تُتُش واعتقله باصفهان .

مقتل مودود بن أنوتكين صاحب الموصل في حرب الافرنج وولاية البرسقي مكانه

كان السلطان محمد قد أمر مودوداً صاحب الموصل سنة خمس وخمسمائة بالمسير لقتال الافرنج ، وأمدّه بسُقْمان القطبي صاحب ديار بكر وأرمينية ، وأياكي وزنكي ابني برسق أمراء هَمَذَان وما جاورها ، والامير أحمد بك أمير مَراغة ، وأبو الهيجاء صاحب اربل والامير أبو الغازي صاحب ماردين وبعث اليه أياز مكانه فسار الى سنجار ، وفتحوا حصوناً للافرنج وحاصروا مدينة الرُّها

فامتنعت عليهم وأقام الافرنج على الفرات بعد ان طرقوا أعمـال حلب فعاثوا فيها. ثم حاصر العساكر الاسلاميّة قلعة باشر فامتنعت ودخلوا الي حلب فامتنع رضوان من لقائهم فعادوا، ومات سقمان القطبي في دلاس فحمله أصحابه في تابوت الى بـلاده. واعترضهم أبو الغازي بن أرتق ليأخذهم فهزموه.

ثم افترقت العساكر بمرض ابن برسق ومسير أحمد بن صاحب مَراغة الى السلطان لطلب بـلاد سقمان القطبي واجتمع قطلغتكين صاحب دمشق بمودود، ونزل معه على نهر القاضي. وسمع الافرنج بافتراق العساكر فساروا الى ماميا. وجاء السلطـان ابن منقذ صاحب شيزر الي مودود وقطلغتكين، وحصرهما على الجهاد. ونزلوا جميعاً على شيزر ونزل الفرنج قبالتهم. ثم رأوا قوّة المسلمين فعادوا الى أفامية. ثم سار مودود سنة ست الى الرُّهـا وسروج فعاث في نواحيها فكبسه جوسكر صاحب تل باشر في الافرنج، ونال منه.

ثم اجتمع المسلمون سنة سبع للجهـاد باستنجاد قطلغتكين صاحب دمشق لمودود فاجتمع معه بمتزل صاحب سنْجار وأياز بن ابي الغازي، وعبروا الفرات الى قطلغتكين، وقصدوا القـدس فسار اليهم صاحبها بغُدوين، ومعه جوسكر، ومعه تل باشر، على جيشه. ونزلوا الاردن واقتتلوا قريبـاً من طَبَرِيّة فانهزم الافرنج، وقتل كثير منهم، وغرق كثير في بحيرة طبرية ونهر

الاردن ، وغنم المسلمون سوادهم . ثم لقيهم عسكر طرابلس وانطاكية من الفرنج فاستعانوا بهم ، وعاودوا الحرب ونزلوا في جبل طبرية فحاصرهم فيه المسلمون ثم ساروا فعاثوا في بلاد الافرنج ما بين عكا الى القدس .

ثم نزلوا دمشق ، وفرق مودود عساكره ووعدهم العود من قابل للجهاد . ودخل دمشق ليستريح عند قطلغتكين فصلى الجمعة في الجامع فطعنه باطِنيّ فأثواه ، وهلك لآخر يومه . واتهم قطلغتكين به ، وقتل الباطني من يومه . ولما بلغ الخبر السلطان بقتل مودود ولّى على الموصل وأعمالها اقسنقر البرسُقي سنة ثمان وخمسمائة ، وبعث معه ابنه الملك مسعود في جيش كثيف ، وأمره بجهاد الافرنج ، وكتب الى الامراء بطاعته فوصل الى الموصل ، واجتمعت اليه عساكر النواحي : فيهم عماد الدين زنكي بن اقسنقر ونُمَير صاحب سنجار . وسار البرسقي الى جزيرة ابن عمر فأطاعه نائب مودود بها . ثم سار الى ماردين فأطاعه أبو الغازي صاحبها ، وبعث ابنه اياز فسار الى الرُّها فحاصرها شهرين ، ثم ضاقت الميرة على عسكره .

ثم رحل الى سُمَيْساط بعد ان خرب نواحي الرُّها وسروج وسُمَيْساط وكانت مَرْعَشْ للافرنج هي وكيسوم ورعيان ؛ وكان صاحبها كُرايسك . واتفقت وفاته، وملكت زوجته بعده فراسلت البُرْسُقي بالطاعة ، وبعث اليها رسوله فأكرمته ورجعته الى البُرْسُقي

بالهدايا والطاعة . وفرّ عنها كثير من الافرنج الى انطاكية . ثم قبض البُرْسُقي على أياز بن أبي الغازي لاتهامه اياه في الطاعة فسار اليه أبو الغازي في العساكر ، وهزمه واستنقذ ابنه اياز من أسره كما ترى في اخبار دولة أبي الغازي وبنيه . وبعث السلطان يهدده فوصل يده بقطلغتكين صاحب دمشق والفرنج ، وتحالفوا على التظاهر . ورجع أبو الغازي الى ديار بكر فسار اليه قرجان بن مراجا صاحب حمص ، وقد تفرّق عنه أصحابه فظفر به وأسره . وجاء قطلغتكين في عساكره ، وبعث الى قرجان في اطلاقه فامتنع وهمّ بقتله فعاد عنه قطلغتكين الى دمشق . وكان قرجان قد بعث الى السلطان بخبره وانتظر من يصل في قتله فأبطأ عليه ، فأطلق أبا الغازي بعد أن توثق منه بالحلف ، واعطاه ابنه اياز رهينة . ولما خرج سار الى حلب ، وجمع التركمان وحاصر قرجان في طلب ابنه الى ان جاءت عساكر السلطان .

مسير العساكر لقتال أبي الغازي وقطلغتكين والجهاد بعدهما

ولما كان ما ذكرناه من عصيان أبي الغازي وقطلغتكين على السلطان محمد ، وقوّة الفرنج على المسلمين جهز السلطان جيشاً كثيراً مقدّمهم الامير برسق صاحب هَمَذَان ، ومعه الامير حيُوس بك ، والامير كشغرة ، وعساكر الموصل والجزيرة ، وأمرهم بقتال أبي الغازي وقطلغتكين . فاذا فرغوا منهما ساروا الى الفرنج

فارتجعوا البلاد من أيديهم ، فساروا لذلك في رمضان من سنة ثمان ، وعبروا الفرات عند الرَّقّة . وجاؤا الى حلب وطلبوا من صاحبها لؤلؤ الخادم ، ومن مقدّم العسكر المعروف بشمس الخواص تسليم حلب بكتاب السلطان في ذلك فتعلل عليهم ، وبعث الى أبي الغازي وقطلغتكين بالخبر ، واستنجدهما فسار اليه في ألفين وامتنعت حلب على عساكر السلطان فسار برسق بالعساكر الى حماة ، وهي لقطلغتكين فملكها عنوة ، وسلمها الى قرْجان صاحب حمص بعهد السلطان له بذلك في كل ما يفتحونه من البلاد فثقل ذلك على الامراء ، وتخاذلوا وتسلم قرْجان حماة من برسق ، وأعطاه ابن أبي الغازي ابنه رهينة عنده .

ثم سار أبو الغازي وقطلغتكين وشمس الخواص الى انطاكية مستنجدين بصاحبها بردويل ، وجاءهم بعد ذلك بغدوين صاحب القدس وصاحب طرابلس وغيرهما من الافرنج ، واتفقوا على تأخير الحرب الى انصرام الشتاء . واجتمعوا بقلعة أفامية ، وأقاموا شهرين ، وانصرم الشتاء ، والمسلمون مقيمون فوهنت عزائم الافرنج ، وعادوا الى بلادهم . وعاد أبو الغازي الى ماردين وقطلغتكين الى دمشق ، وسار المسلمون الى كفرطاب من بلاد الافرنج فحاصروه ، وملكوه عنوة وأسروا صاحبه ، واستلحموا من فيه . ثم ساروا الى قلعة أفامية فامتنعت عليهم فعادوا الى المعرة . وفارقهم حيُوس بك الى مَراغة فملكه .

وسارت العساكر من المَعَرّة الى حلب ، وقدموا أثقالهم وخيامهم فصادفهم بردويل صاحب انطاكية في خمسمائة فارس وألفي راجل صريخاً لاهل كفرطاب . وصادف مخيم العسكر ففتك فيهم، وفعل الافاعيل ، وهم متلاحقون . وجاء الامير برسق ، وعاين مصارعهم ، وأشار عليه اخوته بالنجاء بنفسه فنجا بنفسه . واتبعهم الافرنج ، ورجعوا عنهم على فرسخ وعاثوا في المسلمين في كل ناحية . وقتل اياز بن أبي الغازي قتله الموكلون به . وجاء أهل حلب وغيرها من بلاد المسلمين ما لم يحتسبوه ، ويئسوا من النصرة ورجعت العساكر منهزمة الى بلادها وتوفي برسق زنكي سنة عشر بعدها .

ولاية جيوس بك ومسعود بن السلطان محمد على الموصل

ثم أقطع السلطان الموصل ، وما كان بيد أقسُنقُر البُرسُقي للأمير جيُوس بك ، وبعث معه ابنه مسعوداً ، وأقام البرسقي بالرَحَبَة وهي اقطاعه الى أن توفي السلطان محمد .

ولاية جاولي سكاو على فارس وأخباره فيها ووفاته

كان جاولي سكاو لما رجع الى السلطان محمد ورضي عنه ولّاه فارس وأعمالها ، وبعث معه ابنه جعفري بك طفلاً كما فصل من الرضاع . وعهد اليه باصلاحها فسار اليها ومرّ بالامير بلداجي في

بلاده كليل وسرماة وقلعة اصطخر ، وكان من مماليك السلطان ملك شاه فاستدعاه للقاء جعفري بك . وتقدّم اليه بأن يأمر بالقبض عليه فقبض عليه ، ونهبت أمواله ، وكان أهله وذخائره في قلعة اصطخر ، وقد استناب فيها وزيره الجيمي ، ولم يمكنه إلّا من بعض أهله فلما وصل جاولي الى فارس ملكها منه ، وجعل فيها ذخائره . ثم أرسل الى خسرو ، وهو الحسين بن مبارز صاحب نسا وأمير الشوامكار من الاكراد فاستدعاه للقاء جعفري بك من السلطان ، خشية مما وقع لبلداجي فاعرض عنه ، وأظهر الرجوع الى السلطان . ومضى رسول بخبره فبشر بانصرافه عن فارس فما ادّى اليه الخبر إلّا وجاولي قد خالطهم ، رجع من طريقه وأوغر في السير اليهم .

ثم هرب خسرو الى عمدالج ، وفتك جاولي في أصحابه وماله . ثم سار جاولي الى مدينة نسا فملكها ، ونهب جهرم وغيرها ، وسار الى خسرو فامتنع عليه بحصنه فرجع الى شيراز وأقام بها . ثم سار الى كازرون فملكها ، وحاصر أبا سعيد بن محمد في قلعته مدّة عامين وراسله في الصلح فقتل الرسول مرّتين . ثم أشتدّ عليه الحصار ، واستأمن فأمّنه وملك الحصن . ثم استوحش من جاولي فهرب وقبض على ولده ، وجيء به أسيراً فقتل . ثم سار جاولي الى دارابجرد فهرب صاحبها الى كِرمان ، وصاحبها ارسلان شاه ابن كرمان شاه بن ارسلان بك بن قاروت بك ، فسار جاولي

الى حصار داراتجرد فامتنعت عليه فخرج الى البرية . ثم جاءهم من طريق كرمان كأنه مدد لهم من صاحب كرمان فأدخلوه فملك البلد ، واستلحم أهله .

ثم سار الى كرمان ، وبعث الى خسرو مقدّم الشوذكان يستدعيه للمسير معه فلم يجد بدّاً من موافقته . وجاء وصاحبه الى كرمان ، وبعث الى ملك كرمان باعادة الشواذكان الذين عنده فبعث بالشفاعة فيهم ، فاستخلص السلطان الرسول بالاحسان وحثه على صاحبه ، ووعده بأن يردّ العساكر عن وجهه ويخذلهم عنه ما استطاع . وانقلب عنه الى صاحبها في عساكر كرمان مع وزيره بالسيرجان فتراءى لهم أنّ جاولي عازم على مواصلتهم ، وانه مستوحش من اجتماع العساكر بالسيرجان . وأشار عليه بالرجوع فرجعوا وسار جاولي في أثر الرسول ، وحاصر حِصْناً بطرف كرمان فارتاب ملك كرمان بخبر الرسول . ثم اطلع عليه من غير جامعة فقتله ، ونهب أمواله ، وبعث العساكر لقتاله . واجتمع معهم صاحب الحصن المحاصر ، وسلك بهم غير الجادّة . وسمع جاولي بخبرهم فأرسل بعض الامراء ليأتيه بالخبر فلم يجد بالجادة أحداً فرجع ، وأخبره أن عسكر كرمان قد رجع فأطمأنّ ، ولم يكن إلّا قليل حتى بيتته عساكر كرمان في شوّال سنة ثمان وخمسمائة فانهزم وفتكوا فيه قتلاً وأسراً ، وأدركه خسرو بن أبي سعد الذي كان قتل أباه فلما رآها خاف منها فآنساه ، وأبلغاه الى

مأمنه بمدينة نسا ، ولحقه عساكره ، وأطلق ملك كرمان الاسرى ، وجهزهم اليه . وبينما هو يجهز العساكر لكرمان لاخذ ثاره توفي جعفري بك ابن السلطان في ذي الحجة من تسع لخمس سنين من عمره فقطعه ذلك عن معاداة كرمان . ثم بعث ملك كرمان الى السلطان ببغداد في منع جاولي عنه فقال : لا بدّ أن تسلّم الحصن الى حاصره جاولي في حدّ كرمان ، وانهزم عليه ، وهو حصن فرج . ثم توفي جاولي في ربيع سنة عشر فأمنوا اعادته والله سبحانه وتعالى أعلم .

وفاة السلطان محمد وملك ابنه محمود

ثم توفي السلطان محمد بن ملك شاه آخر ذي الحجة سنة اثنتي عشرة من ملكه ، بعد ان أجلس ولده محموداً على الكرسي قبل وفاته بعشر ليال . وفوّض إليه أمور الملك فلما توفي نفذت وصيته لابنه محمود فأمره فيها بالعدل والاحسان ، وخطب له ببغداد ، وكان مناهز الحلم . وكان السلطان محمد شجاعاً عادلاً حسن السيرة ، وله آثار جميلة في قتال الباطنيّة ، وقد مرّ ذكرها في أخبارهم ولما ولي قام بتدبير دولته الوزير أبو منصور ، وأرسل الى المستظهر في طلب الخطبة ببغداد له في منتصف المحرم من سنة اثنتي عشرة . وأقرّ طهرون شحنة على بغداد ، وقد كان السلطان محمد ولّاه عليها سنه اثنتين وخمسمائة . ثم عاد البرسقي وقاتله ، وانهزم الى عسكر

السلطان محمود على الحِلّة دَبيس بن صَدَقة . وقد كان عند السلطان محمد منذ قتل أبوه صدقة ، وأحسن اليه وأقطعه . وولّى على الحِلّة سعيد بن حميد العُمَري صاحب جيش صَدَقة . فلما توفي رغب من ابنه السلطان محمود بالعودة الى الحِلّة فأعاده ، واجتمع عليه العرب والأكراد .

وفاة المستظهر وخلافة ابنه المسترشد

ثم توفي المستظهر بن المقتدي سنة اثنتي عشرة وخمسمائة منتصف ربيع الآخر ، ونصب للخلافة ابنه المسترشد ، واسمه الفضل وقد تقدّم ذلك في أخبار الخلفاء .

خروج مسعود بن السلطان محمد على أخيه محمود

تقدّم لنا أنّ السلطان ولّى على الموصل ابنه مسعوداً ، ومعه حيُوس بك وأن السلطان محموداً ودَبيس بن صَدَقَة سارا الى الحِلّة . فلما توفي السلطان محمد ، وولي ابنه محمود ، سار مسعود من الموصل مع اتابك حيُوس بك ووزيره فخر الملك عليّ بن عمّار ، وقسيم الدولة ، وزنكي بن اقسنقر صاحب سنجار ، وأبي الهيجاء صاحب أربل ، وكرباوي بن خراسان صاحب البوازيج وقصدوا الحِلّة فدافعهم دَبيس فرجعوا الى بغداد . وسار البرسقي الى قتالهم فبعث اليه حيُوس بك بأنهم انما جاؤا لطلب الصريخ على دَبيس صاحب

الحِلّة ، فاتفقوا وتعاهدوا ، ونزل مسعود بدار الملك ببغداد . وجاء الخبر بوصول عماد الدين منكبرس الشحنة . وقد كان البرسقي هزم ابنه حسيناً كما مر فسار بالعساكر الى البرسقي ، فلما علم بدخول مسعود الى بغداد عبر دجلة من النُّعْمانِيَّة الى دَبِيس بن صَدَقة فاستنجده. وخرج مسعود وجُيُوس بك والبُرسُقي ومن معهم للقائهم، وانتهوا الى المدائن فأتتهم الاخبار بكثرة جموع منكبرس ودَبِيس فرجعوا ، وأجازوا نهر صرصر ، ونهبوا السواد من كل ناحية .

وبعث المسترشد الى مسعود والبرسقي [١] والحث على الموادعة والصلح وجاءهم الخبر بأنّ منكبرس ودَبِيس بعثا مع منصور أخي دبيس وحسين بن ارز[٢] وبنى منكبرس عسكراً لحماية بغداد فرجع البرسقي الى بغداد ليلاً، ومعه زنكي بن أقسنقر ، وترك ابنه عز الدين مسعوداً على العسكر بصرصر فالتقى [٣] ومنع عسكر منكبرس من العبور، وأقام يومين. ثم وافاه كتاب ابنه بأنّ الصلح تمّ بين الفريقين بعده ففشل وعبر الى الجانب الغربي ، ومنصور وحسين في أثره ونزلا عند جامع السلطان ، وخيم البرسقي عند القنطرة القبلية ، وخيم مسعود وجُيُوس بك عند المارستان ،

---

(١) كذا بياض بالأصل: وفي الكامل ج ٨ ص ٢٨٣ : فأرسل المسترشد بالله إلى الملك مسعود والبرسقي ينكر هذه الحال ويأمرهم بحقن الدماء وترك الفساد.

(٢) كذا بالأصل وفي الكامل: الأمير حسين بن أزبك ربيب منكبرس.

(٣) كذا بياض بالأصل وفي الكامل: واستصحب معه عماد الدين زنكي بن أقسنقر فوصل إلى ديالي، ومنع عسكر منكبرس من العبور.

ودبيس ومنكبرس تحت الرقة وعز الدين مسعود بن البرسقي عند منكبرس منفرداً عن أبيه .

وكان سبب انعقاد الصلح ان حيوس بك أرسل الى السلطان محمود يطلب الزيادة له وللملك مسعود فأقطعهما أذربيجان . ثم وصل الخبر بمسيرهما الى بغداد فاستمر منهما العصيان ، وجهز العساكر الى الموصل فكتب اليه رسوله وبذلك، ووقع الكتاب بيد منكبرس الشحنة فبعث اليه ، وضمن له اصلاح الحال له وللسلطان مسعود. وكان منكبرس متزوجاً بأم السلطان مسعود ، واسمها سرجهان فكان يؤثر مصلحته فاستقر الصلح ، واتفقوا على اخراج البرسقي من بغداد الى الملك ، وأقام عنده، واستقر منكبرس شحنة بغداد ، وساء أثره في الرعية ، وتعرض لاموال الناس وحرمهم ، وبلغ الخبر الى السلطان محمود فاستدعاه اليه فبقي يدافع . ثم سار خوفاً من عامة بغداد ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

خروج الملك طغرل على أخيه السلطان محمود

كان الملك طغرل بن السلطان محمد عند وفاة أبيه مقيماً بقلعة سرجهان ، وكان أبوه أقطعه سنة أربع ساوة وآوة وزنجان ، وجعل اتابكه الامير شيركير الذي حاصر قلاع الاسماعيلية كما مرّ في اخبارهم ، وكان عمره يومئذ عشراً فأرسل السلطان محمد الامير

كسمدي أتابكاً له وأعجله اليه ، وكان كسمدي[1] حاقداً عليه فحمل طغرل على العصيان ، ومنعه من المجيء الى أخيه وانتهى ذلك الى محمود فأرسل الى أخيه بتحف وخلع ، وثلاثين ألف دينار ومواعد جميلة فلم يصيخوا اليها ، وأجابه كسمدي اننا في الطاعة ، ومعترضون لمراسم الملك فسار اليهم السلطان مغذاً ليكبسهم ، وجعل طريقه على قلعة شهران ، التي فيها ذخائر طغرل وامواله . ونمي الخبر الى طغرل وكسمدي فخرجا من العسكر في خفية قاصدين شهران وأخلى الطريق عنهما لما سبق من اللطف ، فوقعا على قلعة سرجهان . وجاء السلطان الى العسكر فأخذ خزائن أخيه طغرك وفيها ثلثمائة ألف دينار . ثم أقام بزنجان أياماً ولحق منها بالريّ ، ولحق طغرك وكسمدي بكنجة ، واجتمع اليه أصحابه، وتمكنت الوحشة بينه وبين أخيه .

فتنة السلطان محمود مع عمه سنجر

ولما توفي السلطان محمود ، وبلغ الخبر الى أخيه سنجر بخراسان أظهر من الجزع والحزن ما لم يسمع بمثله حتى جلس للعزاء على الرماد ، وأغلق بابه سبعاً . ثم سمع بولاية ابنه محمود فنكر ذلك ، وعزم على قصد بلاد الجبل والعراق ، وطلب السلطنة لنفسه مكان أخيه . وكان قد سار الى غُزْنَة سنة ثمان وخمسين ،

(١) كذا، وفي الكامل ج ٨ ص ٢٨٥ : كنتغدي .

وفتحها وتنكر لوزيره أبي جعفر محمد بن فخر الملك أبي المظفر ابن نظام الملك ، لما بلغه أنه أخذ عليه الرشوة من صاحب غُزْنَة ليثنيه عن قصده اليه ، وفعل مثل ذلك بما وراء النهر ، وأمتحن أهل غُزْنَة بعد فتحها ، وأخذ منها أموالاً عظيمة ، وشكا اليه الامراء اهانته إياهم فلما عاد الى بلخ قبض عليه وقتله ، واستصفى أمواله ، وكانت لا يعبر عنها : كان فيها من العين وحده ألف ألف دينار مرتين ، واستوزر بعده شهاب الاسلام عبد الرزاق بن أخي نظام الملك ، وكان يعرف بابن الفقير ، فلماً مات أخوه السلطان محمد عزم على طلب الامر لنفسه ، وعاوده الندم على قتل وزيره أبي جعفر لما يعلم من اضطجاعه بمثلها .

ثم انّ السلطان محموداً بعث اليه يصطنعه بالهدايا والتحف ، وضمن له ما يزيد عن مائتي ألف دينار كل سنة ، وبعث في ذلك شرف الدين أنو شروان بن خالد وفخر الدين طغرل فقال لهما سنجر ان ابن أخي صغير ، وقد تحكم عليه وزيره وعلى ابن عمر الحاجب فلا بدّ من المسير ، وبعث في مقدّمته الامير انز . وسار السلطان محمود ، وبعث في مقدّمته الحاجب علي بن محمد ، وكان حاجب أبيه قبله ، فلما تقاربت المقدّمتان بعث الحاجب علي بن عمر الى الامير انز ، وهو بجرجان بالعتاب ونوع من الوعيد فتأخر عن جرجان فلحقته بعض العساكر ، ونالوا منه . ورجع الحاجب الى السلطان محمود بالري فشكر له فعله ، وأقاموا بالري . ثم ساروا

الى كرمان ، وجاءته الامداد من العراق مع منكبرس ومنصور ابن صَدَقَـة أخي دَبيس وأمراء فسار الى هَمَذَان ، وتوفي وزيره الربيب فأستوزر ابا طالب الشهيري .

ثم سار السلطان في عشرين ألفاً وثمانية عشر فيلاً ، ومعه ابن الامير أبي الفضل صاحب سِجِستان وخوارزم شاه محمد ، والامير انز والامير قاج ، وكرشاسف بن ضِرَام بن كاكويه صاحب يُزْدٍ ، وهو صهره على أخته ، وكان خصيصاً بالسلطان محمد فاستدعاه بعد موته سنجر ، وتأخر عنه ، وأقطع بلده لقراجا الساقي فبادر اليه ، وتراجعوا بقرب ساوة في جمادى ثالث عشر فسبقت عساكر السلطان محمود الى الماء من أجل المسافة التي بين ساوَة وخُراسان . وكانت عساكر السلطان ثلاثين الفاً ومعه الحاجب علي بن عمر ومَنْكَبَرِس وأتابك غزغلي ، وبنو برسق وأقْسُنْقُر البخاري وقراجا الساقي ، ومعه سبعمائة حمل من السلاح . فعندما اصطفوا الى الحرب انهزم عساكر السلطان سنجر ميمنـة وميسرة ، وثبت هو في القلب ، والسلطان محمود قبالته .

وحمل السلطان سنجر في الفيلة فأنهزمت عساكر السلطان محمود ، وأسر أتابك غزغلي ، وكان يكاتب السلطـان سنجر بأنه يحمل اليه ابن أخيه فعاتبه على ذلك ، ثم قتله . ونزل سنجر في خيام محمود ، واجتمع اليه أصحابه ، ونجا محمود من الواقعة ، وأرسل دبيس بن صَدَقَة للمسترشد في الخطبـة لسنجر فخطب له

أواخر جمادى الاولى من السنة ، وقطعت خطبة محمود . ثم انّ السلطان سنجر رأى قلة اصحابه وكثرة أصحاب محمود فراسله في الصلح، وكانت تحضه على ذلك والدته، فامتنع ولحق البرسقي بسنجر، وكان عند الملك مسعود بأذربيجان من يوم خروجه من بغداد فسار سنجر من هَمَذَان الى الكرخ ، وأعاد مراسلة السلطان محمود في الصلح ، ووعده بولاية عهده فأجاب وتحالفا على ذلك .

وسار محمود الى عمه سنجر في شعبان بهدية حافلة ، ونزل على جدّته فتقبل منه سنجر ، وقدّم له خمسة افراس عربية . وكتب لعماله بالخطبة لمحمود بعده في جميع ولايته ، والى بغداد بمثل ذلك. وأعاد عليه جميع ما أخذه من بلاده سوى الريّ ، وصار محمود في طاعة عمه سنجر . ثم سار منكبرس عن السلطان محمود الى بغداد، وبعث دِبَيس بن صَدَقَة من منعه من دخولها فعاد ووجه الصلح بين الملكين قد أسفر فقصد السلطان سنجر مستجيراً به من الاستبداد عليه ، ومسيره لشحنة بغداد من غير أذنه . ثم انّ الحاجب علي بن عمر ارتفعت منزلته في دولته وكثرت سعاية الامراء فيه ، فأضمر السلطان نكبته فاستوحش وهرب الى قلعة له كان ينزل بها أهله وأمواله ، وسار منها الى خَوْزِسْتَان . وكانت بنو برسق : اسوری وابن أخويه ارغوى ابن ملتكي وهدد بن زنكي[1]

---

(١) كذا بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٢٨٩ : وكانت بيد أقبوري بن برسق وابني أخويه أرغلي بن يلبكي وهندو بن زنكي .

بعثوا عسكراً يصدّونه عن بلادهم ، ولقوه قريباً من تستر فهزموه ، وجاؤا به أسيراً. وكاتبوا السلطان محموداً بأمره فأمرهم بقتله ، وحمل رأسه اليه. ثم أمر السلطان سنجر باعادة مجاهد الدّين تهدّدوا الى شحنة بغداد فعاد اليها وعزل نائب دِبَيس بن صَدَقَة[1]

استبداد علي بن سكمان بالبصرة

كان السلطان محمد قد أقطع البصرة للامير أقْسُنْقُر البُخاري ، واستخلف عليها سنقر الشامي فأحسن السيرة . فلما توفي السلطان محمد ، وثب عليه غزغلي مقدّم الاتراك الاسماعيليّة ــ وكان يحج بالناس منذ سنين ــ وسنقر ألبا ، وملكا البصرة من يده وحبساه ، وذلك سنة احدى عشرة .

وهم سنقر ألبا بقتله فعارضه غزغلي فلم يرجع وقتله . فقتله غزغلي به ، وسكن الناس . وكان بالبلد أمير اسمه علي بن سكمان حج بالناس ، وغاب عن هذه الواقعة فغصّ به غزغلي لتمام الحج على يده ، وخشي أن يثار منهم بسنقر ألبا لتقدّمه عليهم فأوغر الى عرب البريّة فنهب الحاج[2] وانثنى علي بن سكمان في الدفاع عنهم الى أن قارب البصرة ، والعرب يقاتلونه فبعث اليه غزغلي

---

(١) كذا، وفي الكامل: أمر السلطان سنجر بإعادة مجاهد الدين بهروز إلى شحنكية العراق، وكان بها نائب دبيس بن صدقة فعزل عنها.

(٢) توصل لغرض فاسد بلحوق ضرر لحجاج بيت الله فلم يتمّ له ذلك الغرض وحالت المنية دون الأمنية ـ من خط الشيخ العطار.

بالمنع من البصرة فقصد القرى أسفل دجلة ، وصدق الحملة على العرب فهزمهم . ثم سار اليه غزغلي وقاتله فأصابه سهم فمات وسار علي بن سكمان الى البصرة وملكها ، وكاتبه اقسنقر البخاري وصاحب عُمان بالطاعة وأقرّ نوابه على أعماله ، وكان عند السُلطان ، وطلبه أن يوليه البصرة فأبى وبقي ابن سكمان مستبداً بالبصرة الى أن بعث السلطان اقسنقر البخاري الى البصرة سنة أربع عشرة فملكها من علي بن سكمان .

الكُـرْج

استيلاء الكرج على تفليس

كان الكرج قديماً يغيرون على أذرَبيجان ، وبلاد أرّان . قال ابن الاثير : والكُرْجُ هم الُخزرُ وقد بينا الصحيح من ذلك عند ذكر الانساب . وانَّ الُخزَرَ هم التركمان[1] الا أن يكون الكرج من بعض شعوبهم فيمكن . ولما استفحل ملك السُلجوقيّة امسكوا عن الإغارة على البلاد المجاورة لهم . فلما توفي السلطان محمد رجعوا الى الغارة فكانت سراياهم وسرايا القَفْجاق

(١) الصحيح أنّ الكرج من الأرمن، وأما الخزر فهم يعدّون من الأتراك، والآن قد اختلطوا بالروم لقرب الديار والتغلب عليهم ـ من خطه أيضاً.

تغير على البلاد . ثم اجتمعوا وكانت بلد الملك طغرك ، وهي أرّان ونقجوان الى أوس مجاورة لهم فكانوا يغيرون عليها الى العراق للملك بغداد . ونزل على دَبيس ابن صَدقَة فسار هو وأتابك كبغري ودَبيس بن صَدقَة وأبي الغازي بن ارتق . وسار في ثلاثين ألفاً الى الكرج والقفجاق فاضطرب المسلمون وانهزموا ، وقتل منهم خلق ، وتبعهم الكفار عشرة فراسخ . وعادوا عنهم وحاصروا مدينة تفليس ، وأقاموا عليها سنة وملكوها عنوة سنة خمس عشرة[1] ووصل صريخهم سنة ست عشرة الى السلطان محمود بهَمَذان فسار لصريخهم ، وأقام بمدينة تبريز ، وانفذ عساكره الى الكرج فكان من أمرها ما يذكر ان شاء الله تعالى .

الحرب بين السلطان محمود وأخيه مسعود

قد تقدّم لنا مسير مسعود الى العراق وموت أبيه السلطان محمد ، وما تقرّر بينهما من الصلح ورجوعه الى الموصل بلده ، وان السلطان محموداً زاده أذرَبيجان ، ولحق به قسيم الدولة البرسقي عندما طرده عن شحنة بغداد فأقطعه مسعود مَراغة مضافة الى الرَحبَة . وكاتب دَبيس حيُوس بك أتابك مسعود يحرضه على على نكبة البرسقي ، وانه يباطن السلطان محموداً ووعده على ذلك

(١) قد كانت تفليس داخلة في الفتح الإسلامي، واستمرت بيد المسلمين إلى هذا الحدّ. وبعد أخذها بقيت بيد الكرج واتخذوها مقرّ ملكهم وتحت أيديهم إلى الآن ـ من خطه.

بالاموال ، وحرضهم على طلب الامر لمسعود ليقع الاختلاف فيحصل له علو الكلمة كما حصل لابيه في فتنة بركيارق ومحمد . وشعر البرسقي بسعاية دَبيس فخشي على نفسه ولحق بالسلطان محمود فقبله وأعلى محله .

ثم اتصل بالملك مسعود الاستاذ أبو اسمعيل الحسين بن علي الأصفهاني الطُغرائي[1] وكان ابنه أبو الوليد محمد بن أبي اسمعيل يكتب الطغراء للملك مسعود ، فلما وصل أبوه استوزره مسعود ، وعزل أبا عليّ بن عمّار صاحب طرابلس سنة ثلاث عشرة فأغرى مسعوداً بالخلاف على أخيه السلطان محمود فكتب اليهم السلطان بالترغيب والترهيب فاظهروا أمرهم ، وخاطبوا الملك مسعوداً بالسلطان وضربوا له النوب الخمس ، وأغذّوا اليه السير وهو في خف من العسكر فسار اليهم في خمسة عشر ألفاً ، وفي مقدّمته البرسقي . ولقيهم بعقبة أستراباذ منتصف ربيع الاوّل سنة أربع عشرة فانهزم الملك مسعود وأصحابه ، وأسر جماعة من أعيانهم : منهم الاستاذ أبو اسماعيل الطغرائي وزير الملك مسعود فأمر السلطان محمود بقتله وقال : ثبت عندي فساد عقيدته ، وكان قتله لسنة من وزارته . وكان كاتباً شاعراً يميل الى صناعة الكيمياء ، وله فيها تصانيف معدودة .

(١) وهو صاحب اللامية المشهورة بلامية العجم، وهي من فرائد الشعر مملوءة حكماً وأمثالاً. يقال إن الطغرائي كان من الواصلين في علم الكيمياء ـ من خط الشيخ العطار.

ولما انهزم الملك مسعود لحق ببعض الجبال على اثني عشر فرسخاً من المعركة فاختفى فيه مع غلمان صغار ، وبعث يستأمن الى أخيه فأرسل اليه اقسنقر البرسقي يؤمنه ويجيء به اليه ، وخالفه اليه بعض الامراء ، فحرّضه على اللحاق بالموصل وأذرَبيجان ومكاتبة دَبيس ومعاودة الحرب فسار معه لذلك . وجاء البرسقي الى مكانه الاوّل فلم يجده ، فاتبعه الى أن أدركه على ثلاثين فرسخاً ، وأعلمه حال أخيه من الرضا عنه وأعاده فرجع ، ولقيه العساكر بأمر السلطان محمود وأنزله عند أمه . ثم أحضره وهش له وبكى وخلطه بنفسه ، وذلك لثمانية وعشرين يوماً من الخطبة باذرَبيجان وأما حيُوس بك الأتابك فافترق عن السلطان من المعركة ، وسار الى الموصل ، وجمع الغلال من سوادها . واجتمعت اليه العساكر ، وبلغه فعل السلطان مع أخيه فسار الى الزاب موريا بالصيد . ثم أجدّ السير الى السلطان بهَمَذان فأمنه ، وأحسن اليه ، وبلغ الخبر بالهزيمة الى دَبيس وهو بالعراق فنهب البلاد وأخربها ، وبعث اليه السلطان فلم يصغ الى كتابه .

ولاية أقسنقر البرسقي على الموصل ثم على واسط وشحنة العراق

ولما وصل حيُوس بك الى السلطان محمود بعثه الى أخيه طغرل وأتابك كيغري فسار الى كنجة وبقي أهل الموصل فوضى من غير وال ، وكان أقسنقر البرسقي قد أبلى في خدمة السلطان محمود

وردّ اليه أخاه مسعودا يوم الهزيمة فعرف له حق نصحه وحسن أثره فأقطعه الموصل وأعمالها ، وما يضاف اليها كسنجار والجزيرة فسار اليها سنة خمس عشرة ، وتقدّم الى سائر الامراء بطاعته. وأمره بمجاهدة الافرنج واسترجاع البلاد منهم فوصل الى الموصل، وقام بتدبيرها واصلاح أحوالها . ثم أقطعه سنة ست عشرة بعدها مدينة واسط وأعمالها مضافة الى الموصل ، وجعله شحنة بالعراق فاستخلف عماد الدين زنكي بن اقسنقر وبعثه اليها فسار اليها في شعبان من السنة .

مقتل جيوس بك والوزير الشهيرمي

ثم انّ السلطان بعد وصول جيوس بك بعثه لحرب أخيه طغرلك كما قلناه ، وأقطعه اذربيجان فتنكر له الامراء وأغروا به السلطان فقتله على باب هرمز في رمضان سنة عشر وأصله تركي من موالي السلطان محمد ، وكان عادلاً حسن السيرة . ولما ولي الموصل والجزيرة ، وكان الاكراد بتلك الاعمال انتشروا وكثرت قلاعهم وعظم فسادهم فقصدهم ، وفتح كثيراً من قلاعهم كبلد الهكارية وبلد الزوزن وبلد النكوسة وبلد التخشيبة ، وهربوا منه في الجبال والشعاب والمضايق ، وصلحت السابلة وأمن الناس . وأما الوزير لكمال أبو طالب الشهيرمي فانه برز مع السلطان دبيس الى همذان ، وخرج في موكبه ، وضاق الطريق فتقدم الموكب بين

يديه فوثب عليه باطني وطعنه بسكين فأنفذه ، واتبعه الغلمان فوثب عليه آخر فجذبه عن سرجه وطعنه طعنات . وشردهم الناس عنه فوثب آخر فجذبه ، وذلك لاربع سنين من وزارته . وكان سيء السيرة ظلوماً غشوماً كثير المصادرات . ولما قتل رفع السلطان ما كان أحدث من المكوس .

رجوع طغرل الى طاعة أخيه السلطان محمود

قد ذكرنا عصيان طغرل على أخيه السلطان محمود بالريّ سنة ثلاث عشرة ، وأنّ السلطان محمود سار اليه وكبسه فلحق بوجهان . ثم لحق منها بكنجه وبلاد أرّان ، ومعه أتابك كبغري[1] فاشتدّت شوكته ، وقصد التغلب على بلاد اذرَبيجان ، وهلك كبغري في شوّال سنة خمس عشرة ، ولحق باقسنقر الارمني صاحب مَراغة ليقيم له الاتابكية، وحرّضه على قتال السلطان محمود فسار معه الى مَراغة ، ومروا بارديل فامتنعت عليهم فساروا الى هرمز . وجاءهم الخبر هنالك بأن السلطان محمود بعث الامير جيُوس بك الى أذرَبيجان وأقطعه البلاد ، وأنه وصل الى مَراغة في عسكر كثيف فساروا عن هرمز الى خونَج ، وانتقض عليهم وراسلوا الامير شيركير الذي كان أتابك طغرل أيام أبيه يستنجد به . وكان كبغري الاتابك قبض عليه بعد السلطان محمد ، ثم أطلقه السلطان

(١) كذا، واسمه في الكامل ج ٨ ص ٢٠٦ : كنتغدي .

سنجر ، وعاد الى أبهر وزنجان ، وكانت أقطاعه فأجاب داعيهم ، وسار أمامهم الى أبهر ، ولم يتم أمرهم فراسلوا السلطان في الطاعة، وعاد طغرل الى أخيه وأنتظم أمرهم .

مقتل وزير السلطان محمود

وكان وزير السلطان محمود شمس الملك بن نظام الملك ، وكان حظياً عنده فكثرت سعاية أصحابه فيه . وكان ابن عمه الشهاب أبو المحاسن وزير السلطان سنجر فتوفي ، واستوزر سنجر بعده أبا طاهر القمّي ، عدواً لبني نظام الملك فأغرى السلطان سنجر حتى أمر السلطان محمود بنكبته فقبض عليه ، ودفعه الى طغرل فحبسه بقلعة جلجلال[1] . ثم قتله بعد ذلك ، وكان أخوه نظام الدين أحمد قد استوزره المسترشد ، وعزل به جلال الدين أبا علي بن صَدَقَة فلما بلغه نكبة شمس الملك ومقتله ، عزل أخاه نظام الدين وأعاد ابن صَدَقَة الى وزارته والله سبحانه وتعالى أعلم .

ظفر السلطان بالكرج

ثم وفد سنة سبع عشرة على السلطان محمود جماعة من أهل دنباوند وشروان يستصرخونه على الكرج ، ويشكون ما يلقون منهم فسار لصريخهم . ولما تقارب الفئتان همّ السلطان بالرجوع ،

(١) كذا بالأصل ، وفي الكامل ج ٨ ص ٢١٣ : فبعثه إلى بلدة خلخال فحبسه فيها.

وأشار به وزيره شمس ، وتطارح عليه أهـل شروان فأقام وباتوا على وجل . ثم وقع الاختلاف بين الكرج وقفجاق واقتتلوا ليلتهم ورحلوا منهزمين وعاد السلطان الى همذان والله تعالى اعلم .

عزل البرسقي عن شحنة العراق وولاية برتقش الزكوي

كان الخليفة المسترشد قد وقعت بينه وبين دَبيس بن صَدَقَـة حروب شديدة بنواحي المباركة من اطراف عانة ، وكان البرسقي معه وانهزم دَبيس فيها هزيمة شنيعة كما مرّ في أخباره وقصد غُزْيَة صريخاً فلم يصرخوه فقصد المنتفق ، وسار بهم الى البصرة فدخلوها واستباحوها ، وقتلوا سلمان نائبها فأرسل الخليفة الى البرْسقي بالنكير على اهمال أمر دَبيس ، حتى فتك في البصرة فسار البُرْسقي اليه ، وهرب دَبيس فلحق بالافرنج وجاء معهم لحصار حلب فامتنعت فلحق بطغرل بن السلطان محمد يستحثه بقصد العراق كما مرّ ذلك في أخبار دَبيس . وبقيت في نفس المسترشد عليه . ولحق بها أمثالها فتنكر له ، وبعث الى السلطان محمود في عزله فعزله ، وأمره بالعود الى الموصل لجهاد الافرنج ، ووصل نائب بُرْتُقُش الى بغداد وأقام بها الشحنة ، وبعث السلطان ابناً له صغيراً ليكون معه على الموصل ، وسار البُرْسقي به ، ووصل الموصل وقام بولايتها .

بداية أمر بني أقسنقر وولاية عماد الدين زنكي على البصرة

كان عماد الدين زنكي في جملة البُرْسُقي ، ولما أقطعه السلطان واسط بعث عليها زنكي فأقام فيها أياماً . ثم كان مسير البُرْسُقي الى البصرة في أتباع دَبيس . فلما هرب دَبيس عنها بعث البُرْسُقي اليها عماد الدين زنكي فأقام بحمايتها ، ودفع العرب عنها . ثم استدعاه البُرْسُقي عندما سار الى الموصل فضجر من تلون الاحوال عليه ، واختار اللحاق باصفهان فقدم عليه باصفهان فاكرمه السلطان، وأقطعه البصرة ، وعاد اليها سنة ثمان عشرة والله تعالى أعلم .

استيلاء البرسقي على حلب

لما سار دَبيس الى الافرنج حرّضه على حلب، وان ينوب فيها عنهم، ووجدهم قد ملكوا مدينة صور، وطمعوا في بلاد المسلمين . وساروا مع دَبيس الى حلب فحاصروها حتى جهد أهلها الحصار ، وبها يومئذ تاس بن [1] ابن أُرْتُق فاستنجد بالبرسقي صاحب الموصل ، وشرط عليهم ان يمكنوه من القلمة، ويسلموها الى نوابه . وسار الى انجادهم فاجفل عنهم الافرنج ، ودخل الى حلب فأصلح أمورها . ثم سار الى كفرطاب فملكها من الافرنج .

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٣١٥: حسام الدين تمرتاش بن أبلغـازي بن أرتق.

ثم سار الى قلعة إعزاز من أعمال حلب ، وصاحبها جوسكين فحاصرها وساوت اليه عساكر الافرنج فانهزم ، وعاد الى حلب فخلف فيها ابنه مسعوداً ، وعبر الفرات الى الموصل .

مسير طغرل ودبيس الى العراق

ولما ارتحل الافرنج عن حلب فارقهم دَبيس ، ولحق بالملك طغرل فتلقاه بالكرامة والمبرة ، وأغراه بالعراق ، وضمن له ملكه فساروا لذلك سنة تسع عشرة ، وانتهوا الى دقوقا فكتب مجاهد الدين بهروز من تكْريت الى المسترشد بخبرهم فتجهز للقائهم وأمر برتقش الزكوي ان يتجهز معه [1] خامس صفر وانتهى الى الخالص ، وعدل طغرل ودَبيس الى طريق خُراسان ، ثم نزلوا رباط جلولاء . ونزل الخليفة بالدسكرة ، في مقدّمته الوزير جلال الدين ابن صَدَقة . وسار دَبيس الى جسر النهروان لحفظ المقابر ، وقد كان رأيه مع طغرل أن يسير طغرل الى بغداد فيملكها ، وتقدّم دَبيس في انتظاره فقعد به المرض عن لحاقه وغشيتهم أمطار أثقلتهم عن الحركات . وجاء دَبيس الى النهروان طريحاً من التعب والبرد والجوع .

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٣١٧: وأمر برتقش الزكوي شحنة العراق أن يكون مستعداً للحرب. وجمع العساكر والأمراء البكجية وغيرهم فبلغت عدة العساكر اثني عشر ألفاً سوى الرجالة وأهل بغداد، وفرق السلاح وبرز خامس صفر.

واعترضوا ثلاثين حملًا للخليفة جاءت من بغداد بالملبوس والمأكول فطعموا وأكلوا وناموا في دفء الشمس، وإذا بالمسترشد قد طلع عليهم في عساكره، بلغه الخبر بأنّ دَبيساً وطغرل خالفوه الى بغداد فاضطرب عسكره، وأجفلوا راجعين الى بغداد فلقوا في طريقهم دَبيساً كما ذكرنا على ديالي غرب النهروان، وقف الخليفة عليه فقبّل دَبيس الارض، واستعطف حتى همّ الخليفة بالعفو عنه، ثم وصل الوزير ابن صَدَقة فثناه عن رأيه، ووقف دَبيس مع بُرْنُقْشَ الزكوي يحادثه. ثم شغل الوزير بمدّ الجسر للعبور فتسلل دَبيس، ولحق بطغرل. وعاد المسترشد الي بغداد، ولحق طغرل ودَبيس بهَمَذَان فعاثوا في أعمالها، وصادروا أهلها. وخرج اليهم السلطان محمود فانهزموا بين يديه، ولحقوا بالسلطان سنجر بخُراسان شاكين من المسترشد وبُرْنُقْش الشحنة والله أعلم بغيبه وأحكم.

مقتل البرسقي وولاية ابنه عز الدين على الموصل

ثم أن المسترشد تنكر للشحنة بُرْنُقْش وتهدّده فلحق بالسلطان محمود في رجب سنة عشرين فأغراه بالمسترشد، وخوّفه غائلته، وانه تعوّد الحروب، وركب العيث ويوشك أن يمتنع عنك ويستصعب عليك فاعتزم السلطان على قصد العراق، وبعث اليه الخليفة يلاطفه في الرد لغلاء البلاد وخرابها، ويؤخره الى حين

صلاحها فصدق عنده حديث الزكوي، وسار مجداً فعبر المسترشد بأهله وولده، وأولاد الخلفاء الى الجانب الغربي في ذي القعدة راحلًا عن بغداد، والناس باكون لفراقه. وبلغ ذلك الى السلطان فشق عليه، وأرسل يستعطفه في العودة الى داره فشرط عليه الرجوع عن العراق في القوت كما شرط أوّلا فغضب السلطان، وسار نحو بغداد، والخليفة بالجانب الغربي. ثم أرسل خادمه عفيفا الى واسط يمنع عنها نواب السلطان فسار اليه عماد الدين زنكي من البصرة، وهزمه وفتك في عسكره قتلًا وأسراً. وجمع المسترشد السفن اليه وسد أبواب قصره، ووكل حاجب الباب ابن الصاحب بدار الخلافة.

ووصل السلطان الى بغداد في العاشر من ذي الحجة، ونزل باب الشماسية. وأرسل المسترشد في العود والصلح، وهو يمتنع. وجرت بين العسكرين مناوشة. ودخل جماعة من عسكر السلطان الى دار الخلفة، ونهبوا التاج أوّل المحرّم سنة احدى وعشرين وخمسمائة فضج العامة لذلك، ونادوا بالجهاد، وخرج المسترشد من سرادقه ينادي بأعلى صوته. وضربت الطبول ونفخت البوقات، ونصب الجسر وعبر الناس دفعة، وعسكر السلطان مشتغلون بالنهب في دور الخلافة والامراء، وكان في دار الخلافة ألف رجل كامنون في السرداب فخرجوا عند ذلك، ونالوا من عسكر

السلطان وأسروا جماعة من أمرائه. ونهب العامة دور وزير السلطان وأمرائه وحاشيته، وقُتِلَ منهم خلق.

وعبر المسترشد الى الجانب الشرقي في ثلاثين ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد. ودفع السلطان وعسكره عن بغداد، وحفر عليها الخنادق، واعتزموا على كبس السلطان فأخافهم أبو الهيجاء الكردي صاحب اربل ركب للقتال فلحق بالسلطان، ووصل عماد الدين زنكي من البصرة في جيش عظيم في البرّ والبحر أذهل الناس برؤيته فخام المسترشد عن اللقاء. وتردّد الرسل بينهما فأجاب الى الصلح، وعفا السلطان عن أهل بغداد، وأقام بها الى عاشر ربيع الآخر. وأهدى اليه المسترشد سلاحاً وخيلاً وأموالاً، ورحل الى هَمَذان. وولّى زنكي بن اقسنقر شحنة بغداد ثقة بكفايته، واستقامت أحواله مع الخليفة. وأشار به أصحابه ورأوا أنه يرفع الخرق، ويصلح الامر فولاه على ذلك مضافاً الى ما بيده من البصرة وواسط، وسار الى همذان، وقبض في طريقه على وزيره أبي القاسم علي بن الناصر الشادي أتهمه بمالأة المسترشد لكثرة سعيه في الصلح فقبض عليه، واستدعى شرف الدولة أنوشروان بن خالد من بغداد فلحقه بأصفهان في شعبان، واستوزره عشرة أشهر، ثم عزله ورجع الى بغداد، وبقي أبو القاسم محبوساً الى أن جاء السلطان سنجر الى الريّ فأطلقه وأعاده الى وزارة السلطان محمود آخر اثنتين وعشرين.

وفاة عز الدين بن البرسقي وولاية عماد الدين زنكي على الموصل وأعمالها ثم استيلاؤه على حلب

ولما استولى عز الدين على الموصل وأعمالها، واستفحل أمره طمحت همته الى الشام فاستأذن السلطان في المسير اليه. وسار الى دمشق ومرّ بالرَحَبَة فحاصرها وملكها. ثم مات إثر ذلك وهو عليها، وافترقت عساكره وشغلوا عن دفنه. ثم دفن بعد ذلك ورجعت العساكر الى الموصل، وقام بالامر مملكوكه جاولي. ونصب أخاه الأصغر، وأرسل الى السلطان يطلب تقرير الولاية له. وكان الرسول في ذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي الشهرزوري، وصلاح الدين محمد الباغسياني أمير حاجب البُرْسُقي، واجتمعا بنصير الدين جعفر مولى عماد الدين زنكي، وكان بينه وبين صلاح الدين سر فخوفهما جعفر بن جاولي، وحملهما على طلب عماد الدين زنكي، وضمن لهما عنه الولايات والاقطاع فأجابوه، وجاء بهما الى الوزير شرف الدين أنوشروان ابن خالد فقالا له أنّ الجزيرة والشام قد تمكن منهما الافرنج، من حدود ماردين الى عريش مصر.

وكان البُرسُقي يكفهم وقد قتل وولده صغير، ولا بد للبلد ممن يضطلع بأمرها ويدفع عنها، وقد خرجنا عن النصيحة اليكم فبلغ الوزير مقالتهما الى السلطان فأحضرهما واستشارهما فذكرا

جماعة: منهم عماد الدين زنكي، وبذلا عنه مقرباً الى خزانة السلطان مالاً جزيلاً فولّاه السلطان لما يعلم من كفايته، وولّى مكانه شِحنة العراق مجاهد الدين بهروز صاحب تَكْرِيت، وسار عماد الدين زنكي فبدأ بالبواريج وملكها، ثم سار الى الموصل وتلقاه جاولي مطيعاً وعاد الى الموصل في خدمته فدخلها في رمضان، وأقطع جاولي الرَحَبَة وبعثه اليها، وولّى نصير الدين جعفراً قلعة الموصل وسائر القلاع، وجعل صلاح الدين محمد الباغسياني أمير صاحب، وولى بهاء الدين الشهرزوري قضاء بلاده جميعاً، وزاده أملاكاً وأقطاعاً وشركه في رأيه.

ثم سار الى جزيرة ابن عمر، وقد امتنع بها مماليك البُرْسُقي فجدّ في قتالهم، وكانت دِجْلَة تحول بينه وبين البلد فعبر بعسكره الماء سبحاً، واستولى على المسافة التي بين دجلة والبلد، وهزم من كان فيها من الحامية حتى أحجزهم بالبلد وضيّق حصارهم فاستأمنوا وأمنهم. ثم سار الى نصيبَين وهي لحسام الدين تمُرْتاش ابن أبي الغازي صاحب ماردين فحاصرها واستنجد حسام الدين بن عمه ركن الدولة داود بن سِكمان ابن أُرْتُق صاحب كيفا فأنجده بنفسه، وأخذ في جمع العساكر. وبعث تَمُرتَاش ماردين الى نَصِيبَين يعرّف العساكر بالخبر، وأنّ العساكر واصلة اليهم عن خمسة أيام، وكتبه في رقعة وعلقها في جناح طائر فاعترضه عسكر زنجي وصادره، وقرأ زنكي الرقعة، وعوّض الخمسة أيام

بعشرين يوماً ، وأطلق الطائر بها الى البلد فقرأوا الكتاب وأسقط في أيديهم ، واستطالوا العشرين ، واستأمنوا لعماد الدين زنكي فأمنهم وملك نَصِيبَين ، وسار عنها الى سِنْجار فلكها صلحاً ، وبعث العساكر الى الخابور فلكها .

ثم سار الى حَرّان وخرج اليه أهل البلد بطاعتهم ، وكانت الرُّها وسروج والميرة ونواحيها للافرنج ، وعليها جُرْسَكين صاحب الرُها فكاتب زُنْكي وهادنه ليتفرّغ للجهاد بعد . ثم عبر الفرات الي حلب في المحرّم سنة اثنتين وعشرين ، وقد كان عز الدين مسعود بن أقْسُنْقُر البُرسقي لما سار عنها الى الموصل بعد قتل أبيه استخلف عليها قرمان من أمرائه . ثم عزله بآخر اسمه قُطْلُغ أبه وكتب له الى قُرْمَان فنعه الا أن يرى العلامة التي بينه وبين عز الدين ابن البُرْسُقي فعاد قطلغ الى مسعود ليجيء بالعلامة فوجده قد مات بالرَحَبَة ، فعاد الى حلب وأطاعه رئيسها فضائل بن بديع والمقدّمون بها ، واستنزلوا قُرْمَان من القلعة على ألف دينار أعطوه اياها ، وملك قُطْلُغ القلعة منتصف احدى وعشرين . ثم ساءت سيرته ، وظهر ظلمه وجوره .

وكان بالمدينة بدر الدولة سليمان بن عبد الجبّار بن أرْتُق ، وكان ملكها قبل ، وخلع عنها فدعاه الناس الى البيعة وثاروا بقُطْلُغ فامتنع بالقلعة فحاصروه . وجاء مهيار صاحب مِنْبج وحسن صاحب مَراغة لاصلاح أمرهم فلم يتفق ، وطمع الافرنج في

ملكها. وتقدّم جوسكين بعسكره اليها فدافعوه بالمال. ثم وصل صاحب انطاكية فحاصرهم الى آخر السنة، وهم محاصرون القلعة فلما ملك عماد الدين زنكي الموصل والجزيرة والشام فأطاعوا، وسار عبد الجبار وقُطْلُغ الى عماد الدين بالموصل وأقام أحد الاميرين بحلب حتى بعث عماد الدين زُنْكي صاحبه صلاح الدين محمد الباغِسياني في عسكر فملك القلعة، ورتّب الامور، وولّي عليها. وجاء عماد الدين بعساكره في أثَره، وملك في طريقه مِنْبِج ومَراغَة. ثم دخل حلب، وأقطع أعمالها الاجناد والامراء، وقبض على قُطْلُغ ابه، وسلّمه لابن بديع فكحله فمات. واستوحش ابن بديع فهرب الى قلعة جعفر، وأقام عماد الدين مكانه في رئاسة حلب أبا الحسن علي بن عبد الرزاق.

قدوم السلطان سنجر الى الري ثم قدوم السلطان محمود الى بغداد

الموصل طُغرُل ودَبيس الى السلطان سِنْجر بخُراسان. حرّضه دَبيس على العراق والسلطان محمود قد اتفقا على الامتناع منه[1]

---

(١) كذا بالأصل، عبارات غير مستقيمة ولا منسجمة. وفي الكامل ج ٨ ص ٣٢٧: في هذه السنة (٥٢٢) خرج السلطان سنجر من خراسان إلى الري في جيش كثير. وكان سبب ذلك أن دبيس بن صدقة لما وصل إليه هو والملك طغرك على ما ذكرناه لم يزل يطمعه في العراق ويسهل عليه قصده، ويلقي في نفسه أن المسترشد بالله والسلطان محموداً متفقان على الامتناع منه، ولم يزل به حتى أجابه إلى السير إلى العراق. فلما ساروا وصل إلى الريّ وكان السلطان محمود بهمذان فأرسل إليه السلطان سنجر يستدعيه إليه لينظر هل هو على طاعته أم قد تغير على ما زعم دبيس.

فسار سِنجر وأخبر السلطان محمود باستدعائه فوافاه لاقرب وقت، وأمر العساكر بتلقيه وأجلسه معه على التخت. وأقام السلطان محمود عنده الى آخر اثنتين وعشرين. ثم رجع سِنجر الى خُراسان، بعد أن أوصى محمود بدَبيس، وأعاده الى بلده، ورجع محمود الى هَمذان. ثم سار الى العراق، وخرج الوزير للقائه، ودخل بغداد في تاسوعاء سنة ثلاث وعشرين. ثم لحقه دَبيس بمائة ألف دينار في ولاية الموصل، وسمع بذلك زُنكي، وجاء الى السلطان وحمل المائة ألف مع هدايا جليلة فخلع عليه، وأعاده وسار منتصف السنة عن بغداد الى هَمَذان، بعد أن ولّى الحِلّة مجاهد الدين بهروز شِحنة بغداد.

وفاة السلطان محمود وملك ابنه داود

ثم توفي السلطان محمود بهَمَذان في شوّال سنة خمس وعشرين، لثلاث عشرة سِنة من ملكه، بعد أن كان قبض على جماعة من امرائه وأعيان دولته. منهم عزيز الدولة أبو نَصر أحمد بن حامد المستوفي، وأبو شتكين المعروف بشِيرَكِين بن حاجب، وابنه عمر، خافهم الوزير أبو القاسم الشابادي فاغرى بهم السلطان فنكبهم وقتلهم. ولما توفي اجتمع الوزير أبو القاسم والأتابك أُقسُنقُر الأحمد يلي وبايعوا لابنه داود، وخطبوا له في جميع بلاد الجبل

وأذربيجان . ووقعت الفتنة بهمذان وسائر بلاد الجبل . ثم سكنت وهرب الوزير الى الريّ مستجيراً بالسلطان فأمّر بها .

منازعة السلطان مسعود لداود ابن أخيه واستيلاؤه على السلطان بهمذان

لما هلك السلطان محمود سار أخوه مسعود من جرجان الى تبريز فملكها ، فسار داود من همذان في ذي القعدة سنة خمس وعشرين ، وحاصره بتبريز في محرّم سنة ست وعشرين. ثم اصطلحوا وتأخرّ داود عن الامر لعمّه مسعود فسار مسعود من تبريز الى همذان ، وكاتب عماد الدين زنكي صاحب الموصل يستنجده فوعده بالنصر ، وأرسل الى المسترشد في طلب الخطبة ببغداد . وكان داود قد أرسل في ذلك قبله ، وردّ المسترشد الأمر في الخطبة الى السلطان سنجر . ودسّ اليه أن لا يأذن لواحد منهما ، وأن تكون الخطبة له فقط . وحسن موقع ذلك عنده ، وسار السلطان مسعود الى بغداد ، وسبقه اليها أخوه سُلجوق شاه مع أتابك قراجا الساقي صاحب فارس وخوزستان ، ونزل في دار السلطان ، واستخلفه الخليفة لنفسه .

ولما سار السلطان مسعود أوعز الى عماد الدين زنكي أن يسير الى بغداد فسار من الموصل اليها ، وانتهى السلطان مسعود الى عبّاسة الخالص ، وبرزت اليه عساكر المسترشد وسُلجوق شاه . وسار قراجا الساقي الى مدافعة زنكي فدافعه على المعشوق

فهزمه ، وأسر كثيراً من أصحابه ، ومرّ منهزماً الى تَكْرِيتَ ، وبها يومئذ نجم الدين أيوب أبو الاملاك الأيوبيّة فهيّأ له المعابر، وعبر دِجلَةَ الى بلاده. وسار السلطان مسعود من العبّاسَة ، وقاتلت طلائعه طلائع أخيه سُلجوق ، وبعث سُلْجُوق يستحث قراجا بعد انهزام زَنْكي فعاد سريعاً . وتأخّر السلطان مسعود بعد هزيمة زَنْكي ، وأرسل الى المُسْتَرْشِد بأنّ عمه سِنْجِر وصل الى الريّ عازماً على بغداد ، ويشير بمدافعته عن العراق ، وتكون العراق لوكيل الخليفة. ثم تراسل القوم واتفقوا على ذلك ، وتحالفوا عليه ، وان يكون مسعود السلطان وليّ العهد ، ودخلوا الى بغداد فنزل مسعود دار السلطان وسُلْجوق دار الشِحْنة ، والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق .

هزيمة السلطان محمود وملك طغرل أخيه

لما توفي السلطان محمود سار السلطان سِنْجِر من خُراسان الى بلاد الجبال ، ومعه طُغرُل ابن أخيه محمد ، وانتهى الى الريّ . ثم سار الى هَمَذان فسار مسعود لقتاله، ومعه قراجا الساقي وسُلْجوق شاه . وقد كان الخليفة عزم أن لا يتجهّز معهم فأبطأ فبعثوا اليه قراجا فسار الى خانقين وأقام ، وقطعت خطبة سِنْجِر من العراق. وخالفهم الى بغداد دَبيس وزُنكي ، وقد سمّى اقطاعَه لسِنْجِر الحِلّة ، وزُنكي ولّاه شِحْنَةَ بغداد فرجع المسترشد الى بغـداد

لموافقتهما . وسار السلطان وأخوه سُلجوق شاه للقاء سِنْجِر . ثم سمعا بكثرة عساكره فتأخرا فسار في طلبهم يوماً وليلةً . ثم تراجعوا عند الدينَوَر . وكان مسعود يماطل باللقاء انتظاراً للمسترشد فلم يجد بدّاً من اللقاء فالتقوا على النُقَيْبَة[1] ، وحمل قراجا عليهم وتورّط في المعركة وأصيب بجراحات . ثم التفّوا عليه وأسروه ، وانهزم من أصحاب مسعود قُزُل وقد كان واطأهم على الهزيمة فانهزم السلطان مسعود عند ذلك منتصف ستة وعشرين ، وقتل كثير من أكابر الأمراء . ونزل سِنْجِر في خيامهم ، وأحضر قراجا فقتله ، وجيء اليه بالسلطان مسعود فأكرمه وأعاده الى كَنْجَة ، وخطب للملك طُغرُل ابن أخيه في السلطنة ، وخطب له في جميع البلاد . واستوزر له أبا القاسم الساباذي وزير السلطان محمود ، وعاد الى نيسَابور آخر رمضان سنة ست وعشرين وخمسمائة .

هزيمة السلطان داود واستيلاء طغرل بن محمد على الملك

لما ولي طُغرُل هَمَذان وولّى عنه السلطان سِنْجِر الى خُراسان ، وبلغه أن صاحب ما وراء النهر المرّخان قد انتقض عليه فسَار لإصلاحه ، وشغل بذلك فقام الملك داود بأذْرَبيجان وبلاد كَنْجَة ،

---

(١) كذا، ولم يذكرها صاحب معجم البلدان ولعلها قرية صغيرة في العراق وورد في معجم البلدان: النقيب، قال: وهو تصغير نقب، موضع في بلاد الشام بين تبوك ومعان على طريق حاج الشام. وورد أيضاً: نقيب بالفتح: شعب من أجاء.

وطلب الامر لنفسه . وجمع العساكر ، وسار الى همذان ومعه بُرْتُقش الزكوي وأتابك أقسنقر الأحمديلي ، ومعه طغرل بن برسق ، ونزل وقد استقرّ . ثم اضطرب عسكر داود وأحسوا من برتقش الزكوي بالفشل فنهب التركمان خيامه ، وهرب أقسنقر أتابك ، وانهزم في رمضان سنة ست وعشرين . ثم قدم بغداد في ذي القعدة ومعه أتابك أقسنقر فأكرمه الخليفة وأنزله بدار السلطان .

عود السلطان مسعود الى الملك وهزيمة طغرل

قد تقدّم لنا هزيمة السلطان مسعود من عمه سنجر ، وعوده الى كنجة ، وولاية طغرل السلطان ، ثم محاربة داود ابن أخيه له وانهزام داود ، ثم رجوع داود الى بغداد . فلما بلغ الخبر الى مسعود جاء الى بغداد ، ولقيه داود قريباً منها ، وترجّل له عن فرسه ، ودخلا بغداد في صفر سنة سبع وعشرين . ونزل مسعود بدار السلطان ، وخطب له ولداود بعده ، وطلبا من السلطان عسكراً ليسير معهما الى أذربيجان فبعث معهما العساكر الى أذربيجان ، ولقيهم أقسنقر الأحمديلي في مراغة بالاقامة والاموال وملك مسعود بلاد أذربيجان ، وهرب بين يديه من كان بها من الامراء ، وامتنعوا بمدينة أذربيجان فحاصرهم بها ، وملكها عليهم ، وقتل منهم جماعة وهرب الباقون .

ثم سار الى هَمَذان لمحاربة أخيه طغرل فهزمه ، وملك هَمَذان في شعبان من السنة ، ولحق طُغرُل بالريّ وعاد الى أصفهان . ثم قتل أقْسُنْقُر الأحمديلي بهَمَذان غيلةً ، ويقال إنّ السلطان مسعوداً دسّ عليه من قتله . ثم سار الى حصار طغرل بأصفهان ففارقها طغرل الى فارس، وملكها مسعود، وسار في أثر طغرل الى البيضاء فاستأمن اليه بعض أمراء طغرل فأمنه. وخشي طغرل أن يستأمنوا اليه فقصد الريّ ، وقتل في طريقه وزيره أبا القاسم السَاباذي في شوّال من السَنة ، ومثل به غلمان الامير شِيرَكِين الذي سعى في قتله كما مرّ . ثم سار الامير مسعود يتبعه الي أن تراجعا ودارت بينهما حرب شديدة ، وانهزم طغرل وأسر من أمرائه الحاجب تُنكِي ، وأتى بقرا ، وأطلقهما السلطان مسعود وعاد الى هَمَذان والله تعالى أعلم .

عود الملك طغرل الى الجبل وهزيمة السلطان مسعود

ولما عاد مسْعود من حرب أخيه طغرل بلغه انتقاض داود ابن أخيه محمود بأذْرَبَيْجان فسَار اليه ، وحاصره بقلعة (١) فحصر جمع طغرل العسَاكر ، وتغلب علـى بلاده وسار اليه ، واستعمل بعض قوّاده فسَار مسْعود للقائه ، ولقيه عند قُزوين . وفـارق

(١) كـذا بياض بـالأصـل، وفي الكـامـل ج ٨ ص ٢٤٣ : فسـار إليـه وحصره بقلعـة «رونزروكان» فتحصن بها واشتغل بحصره.

مسعود الامراء الذين استمالهم طغرل ، ولحقوا به فانهزم مسعود في رمضان سنة ثمان وعشرين وبعث الى المسترشد يستأذنه في دخول بغداد فأذن له . وكان أخوه سُلجوق بأَصْفَهَان مع نائبه فيها البقش السِلاحي . فلما سمع بانهزامه سبقه الى بغداد ، وأنزله المسترشد بدار السلطان، وأحسن اليه بالأموال . ووصل مسعود، وأكثر أصحابه رَجلًا فوسع عليه الخليفة بالانفاق والمراكب والظهر واللباس والآلة ، ودخل دار السلطان منتصف شوّال وأقام طغرل بهَمَذان .

وفاة طغرل واستيلاء مسعود على الملك

ولما وصل مسعود الى بغداد حمل اليه المسترشد ما يحتاج اليه، وأمره بالمسير الى هَمَذان لمدافعة طغرل ووعده بالمسير معه بنفسه فتبطأ مسعود عن المسير ، واتصل جماعة من أمرائه بخدمة الخليفة. ثم أطلع على مداخلة بعضهم لطغرل فقبض عليه، ونهب ماله وارتاب الآخرون فهربوا عن السطان مسعود . وبعث المسترشد في اعادتهم اليه فدافعه ووقعت لذلك بينهما وحشة فقعد المسترشد عن نصره بنفسه . وبينما هم في ذلك وصل الخبر بوفاة أخيه طغرل في المحرّم سنة تسع وعشرين فسار مسعود الى هَمَذان ، واستوزر شرف الدين أنوشروان بن خالد حمله من بغداد ، وأقبلت اليه العساكر فاستولى على هَمَذان وبلاد الجبل .

فتنة المسترشد مع السلطان مسعود ومقتله وخلافة ابنه الراشد

قد تقدّم لنا انّ الوحشة وقعت عندما كان ببغداد بسبب أمرائه الذين اتصلوا بخدمة المسترشد ، ثم هربوا عنه الى السلطان مسعود فلما سار السلطان مسعود الى هَمَذان بعد أخيه طغرل ، وملكها استوحش منه جماعة من أعيان أمرائه : منهم بُرْنُقْش وقزل وقرا سُنْقُر الخمار تكين والي هَمَذان وعبد الرحمن بن طغرلبك ودَبيس بن صَدَقة . وساروا الى خوزِسْتان ووافقهم صاحبها بُرْسُقُ بن بُرْسُقَ ، واستأمنوا الى الخليفة فارتاب من دَبيس ، وبعث الى الآخرين بالامان مع سديد الدولة بن الانباري . وارتاب دَبيس منهم أن يقبضوا عليه فرجع الى السلطان مسعود ، وسار الآخرون الى بغداد فاستحثوا المسترشد للمسير الى قتال مسعود فأجابهم ، وبالغ في تكرمتهم .

وبرز آخر رجب من سنة تسع وعشرين وهرب صاحب البصرة اليها وبعث اليه بالامان فأبى فتكاسل عن المسير فاستحثوه ، وسهلوا له الامر فسار في شعبان . ولحق به بُرْسُقُ بن بُرْسُقَ ، وبلغ عدّة عسكره سبعة آلاف ، وتخلف بالعراق مع خادمه اقبال ثلاثة آلاف . وكاتبه أصحاب الاطراف بالطاعة ، وأبطأ في مسيره فاستعجلهم مسعود ، وزحفوا اليه فكان عسكره خمسة عشر الفاً . وتسلل عن المسترشد جماعة من عسكره ، وأرسل اليه داود بن محمود

من أذْرَبِيْجَان يشير بقصد الدينور والمقـام بهـا حتى يصل في عسكره فأبى واستمرّ في مسيره .

وبعث زُنْكي من الموصل عسكراً فلم يصل حتى تواقعوا . وسار السلطان محمود اليهم مجداً فوافـاهم عاشر رمضان ، ومالت ميسرة المسترشد اليه ، وانهزمت ميمنته وهو ثابت لم يتحرّك حتى أخذ أسيراً ، ومعه الوزير والقاضي وصاحب المخزن وابن الانباري والخطباء والفقهاء والشهود فأنزل في خيمة ، ونهب مخيمه ، وحمل الجماعة أصحابه الى قلعة تَرْجَمَان . ورجع بقية الناس الى بغداد . ورجع السلطان الى هَمَذان ، وبعث الامير بك أبه الى بغداد شِحْنَةً فوصلها سلخ رمضان ومعه عميد ، وقبضوا أملاك المسترشد وغلاتها وكانت بينهم وبين العامّة فتنة قتل فيها خلق من العامّة . وسار السلطان في شوال الى مَرَاغة ، وقد تردّدت الرسل بينهما في الصلح على مال يؤدّيه المسترشد ، وأن لا يجمع العساكر ، ولا يخرج من داره لحرب ماعاش ، وأجابه السلطان وأذن له في الركوب . وحمل الغـاشية ، وفـارق المسترشد بعض الموكلين به فهجم عليه جماعة من الباطِنيّة فألحوه جراحاً وقتلوه ، ومثلوا به جدعاً وصلباً ، وتركوه سليباً في نفر من أصحابه قتلوهم معه ، وتبع الباطِنيّة فقتلوا ، وكان ذلك منتصف ذي القعدة سنة ستة وعشرين لثمان عشرة سنة من خلافته . وكان كاتباً بليغاً شجاعاً قرماً . ولما قتل بمَراغة كتب السلطان مسعود الى بك أبه شحنة بغداد بأن يبايع

لابنه فبويع ابنه الراشد أبو جعفر منصور بعهده إليه لثمانية أيام من مقتله، وحضر بيعته جماعة من أولاد الخلفاء وأبو النجيب الواعظ. وأمّا اقبال خادم المسترشد فلما بلغه خبر الواقعة، وكان مقيماً ببغداد كما قدّمناه عبر الى الجانب الغربيّ، ولحق بتكريت ونزل على مجاهد الدين بَهْرُوز.

فتنة الراشد مع السلطان مسعود

لمّا بويع الراشد بعث اليه السلطان مسعود بُرْتُقش الزكوي يطالبه بما استقرّ عليه الصلح مع أبيه المسترشد، وهو أربعمائة ألف دينار فأنكر الراشد أن يكون له مال، وانما مال الخلافة كان مع المسترشد فنهب. ثم جمع الراشد العساكر وقُدِم عليهم كجراية وشرع في عمارة السور. واتفق بُرْتُقش مع بك أبه على هجوم دار الخلافة، وركبوا لذلك في العساكر فقاتلهم عساكر الراشد والعامّة، وأخرجوهم عن البلد الى طريق خُراسان. وسار بك أبه[1] الى واسط، وبُرْتُقش الى سَرْخَس. ولما علم داود بن محمود فتنة عمه مسعود مع الراشد سار من أَذْرَبيجان الى بغداد في صفر سنة ثلاثين، ونزل بدار السلطان. ووصل بعده عماد الدين زنكي من الموصل، وصَدَقَة بن دَبيس من الحِلّة، ومعه عش بن أبي

(١) كذا، وفي الكامل: بك أبه.

العسكر يدبر أمره ويديره ، وكان أبوه دَبِيس قد قتل بعد مقتل المسترشد بأذَرْبَيجان ، وملك هو الحِلّة .

ثم وصل جماعة من أمراء مسعود منهم بُرْتُقُش بازدار صاحب فروق ، والبقش الكبير صاحب أصفَهَـان ، وابن بُرْسُق وابن الاحمديلي . وخرج للقائهم كجراية والطرنطاي ، وكان اقبال خادم المسترشد قد قدم من تَكرِيت فقبض عليه الراشد ، وعلى ناصر الدولة أبي عبدالله الحسن بن جُهَيْر فاستوحش أهل الدولة ، وركب الوزير جلال الدين بن صَدَقَة الى لقاء عماد الدين زُنكي فأقام عنده مستجيراً حتى أصلح حاله مع الراشد . واستجار به قاضي القضاة الزينبي ، ولم يزل معه الى الموصل . وشفع في اقبال فأطلق وسار اليه . ثم جدّ الراشد في عمارة السور وسار الملك داود لقتال مسعود استخلفه الراشد ، واستخلفه عماد الدين زُنكي ، وقطعت خطبة مسعود من بغداد ، وولّى داود شِحنة بغداد بُرْتُقُش بازدار .

ثم وصل الخبر بأنّ سلجوق شاه أخا الامير مسعود ملك واسط ، وقبض على الامير بك أبه فسار الامير زنكي لدفاعه فصالحه ، ورجع وعبر الى طريق خُراسان للحاق داود واحتشد العساكر . ثم سار السلطان مسعود لقتالهم ، وفارق زنكي داود ليسير الى مَرَاغة ، ويخالف السلطان مسعود الى هَمَذان . وبرز الراشد من بغداد أوّل رمضان ، وسار الى طريق خُراسان ، وعاد بعد ثلاث . وعزم على الحصار ببغداد واستدعى داود الامراء

ليكونوا معه عنده فجاؤا لذلك ، ووصلت رسل السلطان مسعود بطاعة الراشد ، والتعريض بالوعيد للامراء المجتمعين عنده فلم يقبل طاعة من أجلهم . والله سبحانه وتعالى أعلم .

حصار بغداد ومسير الراشد الى الموصل وخلعه وخلافة المقتفي

ثم إنّ السلطان مسعود أجمع المسير الى بغداد ، وانتهى الى الملكية فسار زين الدين علي من أصحاب زنكي حتى شارف معسكره ، وقاتلهم ورجع . ونزل السلطان على بغداد . والعيّارون أفسدوا سائر المحال ببغداد ، وانطلقت أيديهم وأيدي العساكر في النهب ، ودام الحصار نيفاً وخمسين يوماً . تأخر السلطان مسعود الى النهروان عازماً على العود الى أصفهان فوصله طرنطاي صاحب واسط في سفن كثيرة فركب الى غربيّ بغداد فاضطرب الامراء ، وافترقوا وعادوا الى أذربيجان . وكان زنكي بالجانب الغربي فعبر اليه الراشد ، وسار معه الى الموصل ، ودخل السلطان مسعود بغداد منتصف ذي القعدة فسكن الناس ، وجمع القضاة والفقهاء وأوقفهم على يمين الراشد التي كتبها بخطه . اني متى جمعت أو خرجت أو لقيت أحداً من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من الامر فأفتوا بخلعه . واتفق أرباب الدولة ممن كان ببغداد ومن أسر مع المسترشد ، وبقي من عند السلطان مسعود كلهم على ذمّه وعدم أهليته على ما مرّ في أخباره بين أخبار الخلفاء .

وبويع محمد بن المستظهر ولقب المقتفي ، وقد قدّمت هذه الاخبار بأوسع من ذلك . ثم بعث السلطان العساكر مع قراسنقر لطلب داود فأدركته عند مَرَاغة ، وقاتله فهزمه ، وملك أذْرَبيجان ومضى داود الى خَوْزِستان ، واجتمع عليه عساكر من التركمان وغيرهم فحاصر تُسْتَر ، وكان عمه سلجوق بواسط فسار اليه بعد أن أمره أخوه مسعود بالعساكر ، ولقي داود على تُستَر فهزمه داود ثم عزل السلطان وزيره شرف الدين أنوشروان بن خالد ، واستوزر كمال الدين أبا البركات بن سلامة من أهل خُراسان . ثم بلغه أنّ الراشد قد فارق الموصل فـأذن للعساكر التي عنده ببغداد في العودة الى بلادهم ، وصرف فيهم صَدَقَة بن دَبِيس صاحب الحِلّة بعد أن أصهر اليه في ابنته ، وقدم عليه جماعة من الامراء الذين كانوا مع داود منهم البقش السلامي وبُرْسُقُ بن بُرْسُقَ وصاحب تُستَر وسُنقُر الخمارتكين شحنة هَمَذان فرضي عنهم ، وآمنهم وعاد الى هَمَذان سنة احدى وثلاثين .

الفتنة بين السلطان مسعود وبين داود والراشد وهزيمة مسعود ومقتل الراشد

كان الامير بُوزابة صاحب خَوْزِستان ، والامير عبد الرحمن طُغرُلبك صاحب خَلْخال ، والملك داود ابن السلطان محمود خائفين من السلطان فاجتمعوا عند الامير مَنْكبرس صاحب فارس . وبلغهم مسير الراشد من الموصل الى مَرَاغة فراسلوه في أن

يجتمعوا عليه، ويردّوه الى خلافته فأجابهم. وبلغ الخبر الى السلطان مسعود فسار اليهم في شعبان سنة اثنتين وثلاثين، وأوقع بهم. وأخذ مَنكبرس أسيراً فقتله، وافترقت عساكره للنهب فانفرد بوزابة وطغرلبك، وصدقا الحملة عليه فانهزم. وقبض على جماعة من الامراء مثل صَدَقة بن دَبيس صاحب الحِلّة، وكافله نمبترين أبي العساكر، وابن أتابك قراسُنقُر صاحب أذرَبيجان. وحبسهم بوزابة حتى تحقق قتل منكبرس.

ولحق السلطان مسعود بأذرَبيجان منهزماً، وسار داود الى همَذان فملكها، ووصل اليه الراشد هنالك. وأشار بوزابة وكان كبير القوم بالمسير الى فارس فساروا معه، واستولى عليها وملكها ولما علم سُلجوق شاه وهو بواسط أنّ أخاه السلطان مسعود أمضى الى أذرَبيجان سار هو الى بغداد ليملكها، ودافعه البقش النحت، ونظم الخادم أمير الحاج. وثار العيّارون بالبلدان وأفحشوا في النهب فلما رجع الشِحنة استأصل شأفتهم، وأخذ المستورين بجنايتهم فجلا الناس عن بغداد الى الموصل وغيرها. ولما قتل صَدَقة بن دَبيس أقرّ السلطان مسعود أخاه محمداً على الحِلّة ومعه مُهلهِل بن أبي العساكر أخو عش المقتول كما مرّ في أخباره.

ثم لما ملك بوزابة فارس رجع مع الراشد والملك داود، ومعهما خوارزم شاه الى خوزِستان وخرّبوا الجزيرة فسار اليهم مسعود ليمنعهم عن العراق فعاد الملك داود الى فارس وخوارزم

شاه الى بلده، وسار الراشد الى أصفهان فثار به نفر من الخُرسانيّة كانوا في خدمته فقتلوه عند القـائلة في خامس عشر رمضان من السنة، ودفن بظاهر أَصْفَهان . ثم قبض السلطان آخر السنة على وزيره أبي البركات بن سلامـة الدركريني، واستوزر بعده كمال الدين محمد بن الخازن، وكان نبيهاً حسن السيرة فرفع المظالم وأزال المكوس، وأقام وظائف السلطان، وجمع له الاموال وضرب على أيدي العمال، وكشف خيانتهم فثقـل عليهم وأوقعوا بينه وبين الامراء فبالغوا في السعاية فيه عند السلطان . وتولى كبرها قَرَاسَنْقَر صاحب أَذْرَبِيجان فانه بعث الى السلطان يتهدّده بالخروج عن طاعته، فأشار على السلطان خواصه بقتله خشية الفتنة فقتله على كره، وبعث برأسه الى قراسنقر فرضي .

وكان قتله سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة لسبعة أشهر من وزارته، واستوزر بعده أبا العز طـاهر بن محمد اليَزْدُجِردي وزير قراسنقر، ولقب عزّ الملك، وضاقت الامور على السلطان وأقطع البلاد للامراء . ثم قتل السلطان البقش السِلاحِيّ الشِحْنَة بما ظهر منه من الظلم والعسف فقبض عليه وحبسه بتكريت عند مجاهد الدين بهروز . ثم أمر بقتله فلما قرب للقتل ألقى نفسه في دِجْلَة فمات، وبعث برأسه الى السلطان فقدّم مجاهد الدين بهروز شِحنَةَ بغداد فحسن أثره . ثم عزله السلطان سنة ست وثلاثين، وولى

فيها قرلي أميراً آخراً من موالي السلطان محمود، وكانت له يزدجرد والبصرة فأضيف له اليهما والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه .

فتنة السلطان سنجر مع خوارزم شاه

وهو أوّل بداية بني خوارزم قد تقدّم لنا ذكر أوّليّة محمد خوارزم شاه، وهو محمد بن أبي شَتَكين، وانّ خوارزم شاه لقب له، وانّ الامير داود حبشي لما ولّاه بركيارق خُراسان وقتله إكنجي ولي محمد بن أبي شَتَكين، وولي بعده ابنه أتْسُز فظهرت كفاءته، وقرّ به السلطان سِنْجر واستخلصه واستظهر به في حروبه فزاده ذلك تقدماً ورفعة، واستفحل ملكه في خَوَارِزم. ونمي للسلطان سِنْجر انه يريد الاستبداد فسار اليه سنة ثلاث وثلاثين، وبرز أتسز ولقيه في التعبئة فلم يثبت وانهزم، وقتل من عسكره خلق، وقتل له ابن فحزن عليه حزناً شديداً. وملك سِنْجر خَوَارِزم وأقطعها غياث الدين سليمان شاه ابن أخيه محمد، ورتّب له وزيراً وأتابك وحاجباً، وعاد الى مرو منتصف السنة فخالفه أتسز إلى خوارزم، وهرب سليمان شاه ومن معه الى سِنْجر، واستولى أتسز على خوارِزم وكان من أمره ما يذكر بعد ان شاء الله تعالى.

استيلاء قراسنقر صاحب أذربيجان على بلاد فارس

ثم جمع أتابك قراسُنقر صاحب أذْرَبِيجان، وبرز طالباً ثأر أبيه الذي

قتله بوزابة في المصاف كما مرّ. وأرسل السلطان مسعود في قتل وزيره الكمال فقتله كما مرّ فانصرف عنه الى بلاد فارس، وتحصن عنه بوزابة في القلعة البيضاء ووطيء قراسُنقُر البلاد وملكها، ولم يمكنه مقام فسلمه لسلجوق شاه ابن السلطان محمود وهو أخو السلطان مسعود، وعاد الى أذْرَبيجان فنزل بوزابة من القلعة سنة أربع وثلاثين، وهزم سلجوق شاه وأسره وحبسه ببعض قلاعه واستولى على البلاد. ثم هلك قراسُنقُر صاحب أذْرَبيجان وأرّان بمدينة أرْدَبيل، وكان من مماليك طُغرُل، وولي مكانه جاولي الطُغْرُلي، والله سبحانه وليّ التوفيق.

مسير جهان دانكي الى فارس

ثم أمر السلطان سنة خمس وثلاثين الامير اسمعيل جهان دانكي فسار اليها، ومنعها مجاهد الدين َبهروز من الوصول، واستعدّ لذلك بخسف المعابر وتغريقها فقصد الحلّة فمنعها أيضاً فقصد واسط، فقاتله طرنطاي وانهزم، ودخل واسط ونهبها، ونهب النُعْمانِيّة وما إليها، واتبعهم طَرَنْطاي الى البَطيحَةِ، ثم فارقه عسكره الى طرنطاي فلحق بِتُسْتَر وكتب اسمعيل الى السلطان فعفى عنه.

هزيمة السلطان سنجر أمام الخطا واستيلاؤهم على ما وراء النهر

وتلخيص هذا الخبر من كتاب ابن الاثير: أنّ أتْسُز بن محمد

مَلَكَ خوارِزْم واستقرّ بها فبعث الى الخطَا، وهم أعظم الترك فيما وراء النهر، وأغراهم بمملكة السلطان سِنجِر، واستحثّهم لها فساروا في ثلثمائة ألف فارس. وسار سِنجِر في جميع عساكره وعبر اليهم النهر، ولقيهم سنة ست وثلاثين واقتتلوا أشدّ قتال. ثم انهزم سِنجِر وعساكره وقتل منهم مائة ألف فيهم أربعة آلاف امرأة، وأسرت زوجة السلطان سِنجِر ولحق سِنجِر بترْمِذ، وسار منها الى بلخ. وقصد أتْسُز مدينة مرو فدخلها مُراغِماً للسلطان وفتك فيها، وقبض على جماعة من الفقهاء والاعيان. وبعث السلطان سِنجِر الى السلطان مسعود يأذن له في النصر وفي الريّ ليدعوه ان احتاج اليه فجاء عباس صاحب الريّ بذلك الى بغداد. وسار السلطان مسعود الى الريّ امتثالا لأمر عمه سِنجِر.

قال ابن الاثير: وقيل انّ بلاد تركستان وهي كاشَغر وبلاد سامسون وجُبّى [1] وطراز وغيرها مما وراء النهر، كانت بيد الخانيّة وهم مسلمون من نسل مُرَاسيان ملك الترك المعروف خبره مع ملوك الكينيّة، وأسلم جدّهم الاوّل سبق قراخان، لأنه رأى في منامه ان رجلاً نزل من السماء وقال له بالتركيّة ما معناه: أسلم تسلم في الدنيا والآخرة، وأسلم في منامه، ثم أسلم في يقظته.

---

(١) جبى بضم الجيم وتشديد الباء الموحدة وفي الآخر ياء آخر الحروف، مدينة كثيرة النخل وقصب السكر. ومنها أبو علي الجبائي المعتزلي. قال في المشترك جبى كورة وبلد من نواحي خوزستان. قال وجبى أيضاً قرية من نواحي النهروان ا هـ. تقويم البلدان لأبي الفداء.

ولما مات ملك مكانه موسى بن سبق، ولم يزل الملك في عقبه الى أرسلان خان بن سليمان بن داود بن بقرخان بن ابراهيم طفاج خان ابن ايلك نصر بن أرسلان بن علي بن موسى بن سبق فخرج عليه قَردَخان وانتزع الملك منه. ثم نصر سِنجِر وقتل قَردَخان، وخرج بعد ذلك خوارِزم ونصره السلطان سِنجِر منهم وأعاده الى ملكه، وكان في جنده نوع من الاتراك يقال لهم القارغليّة، والاتراك الغُزِّية الذين نهبوا خُراسان على ما نذكره بعد. وهم صنفان : صنف يقال لهم جق وأميرهم طوطى بن داديك، وصنف يقال لهم برق وأميرهم برغوث بن عبد الحميد.

وكان لأرسلان نصرخان شريف يصحبه من أهل سَمَرْقَنْد، وهو الاشرف بن محمد بن أبي شجاع العلوي فحمل ابن أرسلان نصرخان، وطلبوا انتزاع الملك منه فاستصرخ السلطان سِنجِر فعبر اليه في عساكره سنة أربع وعشرين وخمسمائة وانتهى الى سَمَرْقَنْد فهرب القارغليّة أمامه، وعاد الى سمرْقَنْد فقبض على ارسلان خان وحبسه ببلخ فمات بها، وولي على سَمَرْقَنْد مكانه قلج طُمغاج أبا المعالي الحسن بن علي بن عبد المؤمن، ويعرف بحسن تكر من أعيان بيت الخانية. إلّا أنّ ارسلان خان اطرحه فولاه سِنجِر، ولم تطل أيامه فولى بعده ابن أرسلان خان، وأبوه هو الذي ملك سمرْقَنْد من يده وهو ابن أخت سِنجِر.

وكان في سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة قد خرج كوهرخان

من الصين الى حدود كاشغر في جموع عظيمة ، وكوهر الاعظم بلسانهم ، وخان السلطان فمعناه أعظم ملك . ولقيه صاحب كاشغر أحمد بن الحسن الخان فهزمه ، وقد كان خرج قبله من الصين اتراك الخطا ، وكانوا في خدمة الخانيّة أصحاب تُرْكستان . وكان أرسلان خان محمد بن سليمان ينزلهم على الدروب بينه وبين الصين مسالح ، ولهم على ذلك جرايات واقطاعات . وسخط عليهم بعض السنين وعاقبهم بما عظم عليهم فطلبوا فسيحاً من البلاد يأمنون فيه من أرسلان خان لكثرة ما كان يغزوهم ، ووصفت لهم بلاد سامسون فساروا اليها .

ولما خرج كوثان من الصين ساروا اليه واجتمعوا عليه . ثم ساروا جميعاً الى بلاد ما وراء النهر ، ولقيهما الخان محمود بن أرسلان خان محمد في حدود بلاده في رمضان سنة احدى وثلاثين فهزموه وعاد الى سَمَرْقَند ، وعظم الخطب على أهلها وأهل بُخارى . واستمدّ محمود السلطان سِنجر ، وذكر ما لقي السلطان من العنت ، واجتمع عنده ملوك خُراسان . وملك سَجِسْتان من بني خلف ، وملك غَزْنَة من الغوريين ، وملك مازَنْدَرا ، وعبر النهر للقاء الترك في أكثر من ألف وذلك لآخر خمس وثلاثين وخمسائة .

وشكا اليه محمود خان من القارغليّة فقصدهم ، واستجاروا بكوخان ملك الصين فكتب الى سِنجر بالشفاعة فيهم فلم يشفعه ، وكتب اليه يدعوه للإسلام ويتهدّده بكثرة العساكر فأهان الرسول

وزحف للقاء سنجر. والتقى الجمعان بموضع يسمّى قُطران خامس صفر سنة ست وثلاثين، وأبلى القارغليّة من الترك وصاحب سَجستان من المسلمين. ثم انهزم المسلمون فقتل كثير منهم، وأسر صاحب سجستان والامير قماج وزوجة السلطان سنجر فأطلقهم كوخان ومضى السلطان سنجر منهزماً. وملك الترك الكفار والخطا بلاد ما وراء النهر الى أن مات كوخان ملكهم سنة سبع وثلاثين، ووليت بعده ابنته. ثم ماتت قريباً وملكت أمّها من بعدها وهي زوجة كوخان وابنة محمد. وسار ما وراء النهر بيد الخطا الى أن غلبهم عليه عماد الدين محمد خوارِزم شاه سنة اثنتي عشرة وستمائة.

أخبار خوارزم شاه بخراسان وصلحه مع سنجر

ولما عاد السلطان منهزماً سار خوارِزم شاه الى سَرَخس في ربيــع سنة ست وثلاثين فأطاعته، ثم الى مرو الشاهجان فشفع فيهم الامام أحمد الباخرزي، ونزل بظاهرها. وبينما هو قد استدعى أبا الفضل الكِرماني وأعيان أهلها للشورى ثار عامّة البــلد وقتلوا من كان عندهم من جنده، وامتنعوا فطاولها ودخلها عَنوَةً، وقتل كثيراً من علمـائها. ثم رجع في شوّال من السنة الى نيسابور، وخرج اليه علماؤها وزهّادها يسألون معافاتهم ممـا نزل بأهل مَرْوَ فأعفاهم، واستصفى أصحاب السلطان، وقطع خطبة سنجر. وبعث عسكراً الى أعمال صُغد فقاتلوهم أياماً، ولم يطق سنجر مقاومته

لمكان الخطا وجوارهم له. ثم سار السلطان سنجر سنة ثمان وثلاثين لقتال خَوَارِزْم، وحاصرها أياماً وكاد يملكها، واقتحمها بعض أمرائه يوماً فدافعه أُتسُز بعد حروب شديدة. ثم أرسل أُتسُز الى سنجر بالطاعة والعود الى ما كان عليه فقبله وعاد سنه ثمان وثلاثين.

صلح زنكي مع السلطان مسعود

ثم وصل السلطان مسعود سنة ثمان وثلاثين الى بغداد (1) عادته فتجهّز لقصد الموصل، وكان يحمل لزُنكي جميع ما وقع من الفتن فبعث اليه زُنكي يستعطفه مع أبي عبد الله بن الأنباري، وحمل معه عشرين ألف دينار، وضمن مائة ألف على ان يرجع عنه فرجع، وانعقد الصلح بينهما. وكان مما رغب السلطان في صلحه أنّ ابنه غازي بن زُنكي هرب من عند السلطان خوفاً من أبيه فردّه الى السلطان، ولم يجتمع به فوقع ذلك من السلطان أحسن موقع والله تعالى أعلم.

انتقاض صاحب فارس وصاحب الري

كان بوزابة صاحب فارس وخَوْزِسْتان كما قدّمنا فاستوحش من السلطان مسعود فانتقض سنة أربعين وخمسمائة، وبايع لمحمد

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٦: وصل السلطان مسعود إلى بغداد على.

ابن محمود، وهو ابن أخي السلطان مسعود، وسار الى مامشون، واجتمع بالامير عبّاس صاحب الريّ ووافقه على شأنه. واتصل به سليمان شاه أخو السلطان مسعود، وتغلبوا على كثير من بلاده فسار اليهم من بغداد في رمضان السنة، ومعه الامير طغابُرك حاجبه، وكان له التحكم في الدولة والميل الى القوم. واستخلفه على بغداد الامير مُهَلهِل ونصير أمير الحاج وجماعة من غلمان بَهروز. وسار فلما تقاربوا للحرب نزع السلطان شاه عنهم الى أخيه مسعود، وسعى عبد الرحمن في الصلح فانعقد بينهما على ما أحبه القوم، وأضيف الى عبد الرحمن ولاية أذْرَبيجان وأرّان الى خِلخَال عوضاً من جاولي الطغرلي، واستوزر أبا الفتح بن دَراست وزير بوزابة. وقد كان السلطان سنة تسع وثلاثين قبض على وزيره اليَزْدَجُرْدي، واستوزر مكانه المَرزُبان بن عبد الله بن نصر الأصفَهاني، وسلم اليه اليزدجردي واستصفى أمواله. فلما كان هذه السنة وفعل بوزابة في صلح القوم ما فعل اعتضد بهم على مقامه عند السلطان وتحكم عليه وعزل وزيره واستوزر له أبا الفتح هذا.

مقتل طغابرك وعباس

قد قدّمنا أن طغابرك وعبد الرحمن تحكّما على السلطان واستبدّا عليه، ثم آل أمره الى أن منعا بك أرسلان المعروف بابن خاص بك بن بنكري من مباشرة السلطان، وكان تُربته وخاصاً به

ونجيّ خلوته. وتجهز طغايرك لبعض الوجوه فحمله في جملته فأسرّ السلطان الى أرسلان الفتك بطغايرك [1] وداخل رجال العسكر في ذلك فأجاب منهم زنكي جاندار ان يباشر قتله بيده، ووافق بك أرسلان جماعة من الامراء، واعترضوا له في موكبه فضربه الجانِدار فصرعه عن فرسه، وأجهز عليه ابن خاص بك، ووقف الامراء الذين واطؤه على ذلك دون الجاندار فمنعوه، وكان ذلك بظاهر صَهْوَة. [2] وبلغ الخبر الى السلطان مسعود ببغداد، ومعه عباس صاحب الريّ في جيش كثيف فامتعض لذلك ونكره فداراه السلطان حتى سكن. وداخل بعض الامراء في قتله فأجابوه وتولى كبر ذلك البقش حروسوس [3] اللحف، وأحضر السلطان عباساً وأدخله في داره وهذان الاميران عنده، وقد أكمنوا له في بعض المخادع رجالًا وعدلوا به الى مكانهم فقتلوه، ونهبت خيامه وأصاخت البلاد لذلك، ثم سكنت. وكان عباس من موالي السلطان محمود، وكان عادلًا حسن السيرة، وله مقامات حسان في جهاد الباطنيّة. وقتل في ذي القعدة سنة احدى وأربعين ثم حبس السلطان أخاه سليمان شاه في قلعة تكريت، وسار عن بغداد الى أصفهان والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق.

---

(١) كذا، وفي الكامل ج ٩ ص ١٥: طغايرك.

(٢) كذا بالأصل، وفي معجم البلدان: صهوة كل شيء أعلاه والصهوة بنواحي المدينة. وفي الكامل: قتله بظاهر جنزة. وجنزة اسم مدينة بأران كما في معجم البلدان واستناداً إلى رواية معجم البلدان تكون مقالة ابن الأثير أصح.

(٣) كذا، وفي الكامل: البقش كون خروتنر، وهو أمير اللحف.

مقتل بوزابة صاحب فارس

قد تقدّم لنا أنّ طغابرك كان مستظهراً على السلطان بعبّاس صاحب الريّ وبوزابة صاحب فارس وخَوْزِستان ، فلما قتل طغابرك وامتعض له عبّاس قتل أثره ، وانتهى الخبر الى بوزابة فجمع العساكر وسار الى أصفهان سنة اثنتين وأربعين فحاصرها ، وبعث عسكراً آخراً لحصار هَمَذان وآخراً الى قلعة الماهكي من بلاد اللِحف من قلاع البَقِشْ كون خر فسار اليها ، ودفعهم عنها . ثم سار بوزابة عن أصفهان لطلب السلطان مسعود فامتنع وتراحفا بمرج مُزاتِكَن، واشتدّ القتال بينهما ، وكبا الفرس ببوزابة وسيق الى السلطان فقتل بين يديه، وقيل أصابه سهم فسقط ميتاً وانهزمت عساكره ، وكان هذا الحرب من أعظم الحروب بين السُلْجُوقيّة .

انتقاض الامراء على السلطان

ولما قتل طغابرك وعباس وبوزابة اختص بالسلطان ابن خاص بك لميله اليه، وأطرح بقية الامراء فاستوحشوا وارتابوا بأنفسهم أن يقع بهم ما وقع بالآخرين ففارقوه ، وساروا نحو العراق أبو ركن المسعودي صاحب كِنجَة وأرّان والبقش كون خر صاحب الجبل ، والحاجب خريطاي المحمودي شحنة واسط ، وابن طغابرك والركن وقرقوب ومعهم ابن أخي السلطان وهو محمد بن محمود ،

وانتهوا الى حرّان فاضطرب الناس ببغداد وغلت الاسعار. وبعث اليهم المقتفي بالرجوع فلم يرجعوا ، ووصلوا الى بغداد في ربيع الآخر من سنة ثلاث وأربعين ونزلوا بالجانب الشرقي ، وهرب أجناد مسعود شِحنَة بغداد الى تَكريت ، ووصل اليهم علي بن دَبيس صاحب الحِلّة ونزل بالجانب الغربي ، وجمع الخليفة العَساكر. ثم قاتل العامّة عسَاكر الامراء فاستطردوا لهم ، ثم كروا عليهم فلؤا الأرض بالقتلى . ثم جاست خيولهم خلال الديار فنهبوا وسبوا . ثم جاؤا مقابل التاج يعتذرون ، وردّدوا الرسل الى الخليفة سائر يومهم . ثم ارتحلوا من الغد الى النهروان فعاثوا فيها . وعاد مسعود من بلاد تكريت الى بغداد . ثم افترق الامراء وفارقوا العراق ، ثم عاد البقش كون خر والطَرنطاي وابن دَبيس سنة أربع وأربعين ، ومعهم ملك شاه بن محمود ، وهو ابن أخي السلطان وطلبوا من الخليفة الخطبة لملك شاه فأبى ، وجمع العساكر وشغل بما كان فيه من أمر عم السلطان سِنجر . وذلك أنّ السلطان سِنجر بعث اليه يلومه في تقديم ابن خاص بك ويأمره بابعاده ، وتهدّده فغالطه ولم يفعل فسار الى الريّ فبادر اليه مسعود وترضّاه فرضي عنه . ولما علم البقش كون خر مراسلة المقتفي لمسعود نهب النهروان ، وقبض على عليّ بن دَبيس . وسار السلطان بعد لقاء عمه الى بغداد فوصلها منتصف شوّال سنة أربع وأربعين فهرب الطرنطاي الى النعمانيّة ، ورحل البقش الى النهروان بعد

أن أطلق علي بن دَبيس فجاء الى السلطان واعتذر فرضي عنه .

وفاة السلطان مسعود وولاية ملك شاه ابن أخيه محمود ثم أخيه محمد من بعده

ثم توفي السلطان مسعود بهَمَذان في رجب منتصف سبع وأربعين لاثنتين وعشرين سنة من طلبه الملك ، وبه كمل استفحال ملك السُلجوقِيَّة ، وركب الخمول دولتهم بعده ، وكان عهد الى ملك شاه ابن أخيه محمود فلما توفي بايع له الامير ابن خاص بك وأطاعه العسكر ، وانتهى خبر موته الى بغداد فهرب الشحنة بلاك الى تكريت ، وأمر المقتفي بالحوطة على داره ودور أصحاب السلطان مسعود . ثم بعث السلطان ملك شاه ، عسكراً الى الحِلّة مع ملاذكرد من أمرائه فملكها ، وسار اليه بلاك الشِحنة فخادعه حتى استمكن منه فقبض عليه وغرّقه ، واستبدّ بلاك الشحنة بالحِلّة . وجهز المقتفي العساكر مع الوزير عون الدين بن هبيرة الى الحِلّة . وبعث عساكر الى الكوفة وواسط فملكها ووصلت عساكر السلطان ملك شاه فملكوها ، وسار اليها الخليفة بنفسه فارتجعها منهم وسار منها الى الحِلّة ثم الى بغداد آخر ذي القعدة من السنة .

ثم إنّ ابن خاص بك طمع في الانفراد بالامر فاستدعى محمد ابن محمود من خَوزِستان فأطمعه في الملك ليقبض عليه وعلى أخيه ملك شاه فقبض على ملك شاه أوّلا لستة أشهر من ولايته ،

ووصل محمد في صفر من سنة ثمان وأربعين فأجلسه على التخت وخطب له بالسلطنة وحمل اليه الهدايا ، وقد سعى للسلطان محمد بما انطوى عليه ابن خاص بك . فلما باكره صبيحة وصوله فتك به وقتله وقتل معه زنكي الجاندار قاتل طغابرك ، وأخذ من أموال ابن خاص بك كثيراً ، وكان صبيًّا كما بينا ، اتصل بالسلطان مسعود وتنصح له فقدّمه على سائر العساكر والامراء . وكان أنوغري التركي المعروف بشَمَلة في جملة ابن خاص بك ومن أصحابه ، ونهاه عن الدخول الى السلطان محمد فلما قتل ابن خاص بك نجا شَمَلة الى خَوْزِستان ، وكان له بها بعد ذلك ملك والله أعلم بغيبه وأحكم .

الغُزّ

تغلب الغز على خراسان وهزيمة السلطان سنجر وأسره

كان هؤلاء الغزّ فيما وراء النهر ، وهم شعب من شعوب الترك ، ومنهم كان السُلجوقِيّة أصحاب هذه الدولة ، وبقوا هنالك بعد عبورهم ، وكانوا مسلمين فلما استولى الخطا على ملك الصين وعلى ما وراء النهر هاجر هؤلاء الغزّ الى خُراسان ، وأقاموا بنواحي بَلْخَ . وكان لهم من الامراء محمود ودينار وبختيار وطوطي

وأرسلان ومعز . وكان صاحب بَلْخ الامير قاج فتقدّم اليهم أن يبعدوا عن بَلْخ فصانعوه فتركهم، وكانوا يعطون الزكاة ويؤمنون السابلة . ثم عاد اليهم في الانتقال فامتنعوا وجمعوا فخرج اليهم في العساكر وبذلوا له مالاً فلم يقبل وقاتلوه فهزموه ، وقتلوا العسكر والرعايا والفقهاء وسبوا العيال ، ونجا قاج الى مرو ، وبها السلطان سِنْجر فبعث اليهم يتهدّدهم ويأمرهم بمفارقة بلاده فلاطفوه وبذلوا له فلم يقبل . وسار اليهم في مائة ألف فهزموه وأثخنوا في عسكره ، وقتل علاء الدين قاج ، وأسروا السلطان سِنْجر ومعه جماعة من الامراء فقتلوا الامراء واستبقوا السلطان سِنْجر وبايعوه ، ودخلوا معه الى مرو فطلب منه بختيار اقطاعها فقال : هي كرسي خُراسان فسخروا منه .

ثم دخل سِنْجر خانقاه فقسط على الناس وأطرهم وعسَفهم ، وعلق في الاسواق ثلاث غرائر وطالبهم بملئها ذهباً فقتله العامّة ، ودخل الغُزّ نيسَابور ودمّروها تدميراً ، وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوها ، وقتلوا القضاة والعلماء في كل بلد . ولم يسلم من خُرَاسان غير هُراة وسَبْسَتان لحصانتها . وقال ابن الاثير عن بعض مؤرّخي العجم : إنّ هؤلاء الغُزّ انتقلوا من نواحي التغرغر من أقاصي الترك الى ما وراء النهر أيام المقتفي وأسلموا ، واستظهر بهم المقنّع الكِنْدِيُّ على مخارقه وشعوذته حتى تمّ أمره فلما سارت اليه العساكر خذلوه وأسلموه ، وفعلوا مثل ذلك مع الملوك

الخانيّة. ثم طردهم الاتراك القارِغلية عن اقطاعهم فاستدعاهم الامير زنكي بن خليفة الشيباني المستولي على حدود طَخارستان، وأنزلهم بلاده واستظهر بهم على قماج صاحب بَلْخ، وسار بهم لمحاربته فخذلوه لانّ قماج كان استمالهم فانهزم زنكي وأسر هو وابنه وقتلهما قماج وأقطع الغز في بلاده.

فلما سار الحسين بن الحسين الغوري الى بَلْخ برز اليه قماج ومعه هؤلاء الغُزّ فخذلوه، ونزعوا عنه الى الغوري حتى ملك بلخ فسَار السلطان سنجر الى بلخ وهزم الغوري واستردّها، وبقي الغُزّ بنواحي طَخَارِسْتان. وفي نفس قماج حقد عليهم فأمرهم بالانتقال عن بلاده فتألفوا وتجمّعُوا في طوائف من الترك، وقدّموا عليهم أرسلان بوقاء التركي، ولقيهم قماج فهزموه وأسروه وابنه أبا بكر وقتلوهما واستولوا على نواحي بَلْخ وعاثوا فيها. وجمع السلطان سِنجر وفي مقدّمته محمد بن أبي بكر بن قماج المقتول والمؤيد ابنه في محرّم سنة ثمان وأربعين. وجاء السلطان سِنجر على أثره وبعثوا اليه بالطاعة والاموال فلم يقبل منهم، وقاتلهم فهزموه الى بَلْخ. ثم عاود قتالهم فهزموه الى مرو واتبعوه فهرب هو وعسكره من مرو رعباً منهم، ودخلوا البلد وأفحشوا فيه قتلاً ونهباً، وقتلوا القضاة والأئمة والعلماء. ولما خرج سِنْجر من مرو وأسروه أجلسوه على التخت على عادته وآتوه طاعتهم. ثم عاودوا الغارة علي مرو فنَهبهم أهلها وقاتلوهم، ثم عجزوا واستسلموا

فاستباحوها أعظم من الأولى . ولما أسر سِنجر فارقه جميع أمراء خُراسان ووزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك ، ووصلوا الى نِيسَابور واستدعوا سليمان شاه بن السلطان محمود ، وخطبوا له بالسلطان في منتصف السنة ، واجتمعت عليه عساكر خُراسان وساروا لطلب الغُزّ فبارزوهم على مرو ، وانهزمت العساكر رعباً منهم ، وقصدوا نيسابور والغُزّ في اتباعهم ، ومرّوا بطوس فاستباحوها وقتلوا حتى العلماء والزهّاد ، وخرّبوا حتى المساجد .

ثم ساروا الى نيسابور في شوّال سنة تسع وأربعين ففعلوا فيها أفحش من طوس ، حتى ملأوا البلاد من القتلى ، وتحصّن طائفة بالجامع الاعظم من العلماء والصالحين فقتلوهم عن آخرهم ، وأحرقوا خزائن الكتب . وفعلوا مثل ذلك في جُويْن واسفراين فحاصروهما واقتحموهما مثل ما فعلوا في البلاد الاخرى . وكانت أفعال الغزّ في هذه البلاد أعظم وأقبح من أفعال الغُزّ في غيرها . ثم انّ السلطان سليمان شاه توفي وزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك في شوّال سنة ثمان وأربعين فاستوزر ابنه نظام الملك وانحلّ أمره وعجز عن القيام بالملك فعاد الى جرجان في صفر سنة تسع وأربعين فاجتمع الامراء وخطبوا للخان محمود بن محمد بن بُقراخان وهو ابن أخت سِنجر ، واستدعوه فملكوه في شوّال من السنة وساروا معه لقتال الغُزّ وهم محاصرون هُراة فكانت حروبه معهم سجالاً ، وأكثر الظفر للغُزّ . ثم رحلوا عن هُراة الى

مرو منتصف خمسين، وأعادوا مصادرة أهلها. وسار الخان محمد الى نيسابور وقد غلب عليها المؤيد كما يذكر فراسل الغز في الصلح فصالحوه في رجب.

استيلاء المؤيد على نيسابور وغيرها

هذا المؤيد من موالي سنجر واسمه ... وكان من أكابر أوليائه ومطاعاً فيهم ولما كانت هذه الفتنة، وافترق أمر الناس بخُراسان تقدم ... فاستولى على نيسابور وطوس ونسا [1] وان ورد وشَهرستان والدامغان وحصنها، ودافع الغز عنها، ودانت له الرعية لحسن سيرته فعظم شأنه وكثرت جموعه. واستبدّ بهذه الناحية وطالبه الخان محمود عندما ملكوه بالحضور عنده وتسليم البلاد فامتنع. وتردّدت الرسل بينهما على مال يحمله للخان محمود فضمنه المؤيد وكف عنه محمود، واستقرّ الحال على ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء ايتاخ على الري

وكان إيتاخ من موالي السلطان سِنْجر، وكانت الريّ أيضاً

(١) كذا بياض بالأصل في ثلاثة أماكن، وفي الكامل ج ٩ ص ٧٤ تقدم المؤيد «أي أبه» بقبض أعيان نيسابور وحبسهم وقال: أنتم الذين أطمعتم الزنود والمفسدين حتى فعلوا هذه الفعال، ولو أردتم منعهم لامتنعوا. وقتل من أهل الفساد جماعة فخربت نيسابور بالكلية.

من أعمال سنجر فلما كانت فتنة الغزّ لحق بالريّ واستولى عليها ، وصانع السلطان محمد شاه بن محمود صاحب هَمَذان وأصفهان وغيرهما وبذل له الطاعة فأقرّه فلما مات السلطان محمد مدّ يده الى أعمال تجاوزته ، وملكها فعظم أمره ، وبلغت عساكره عشرة آلاف فلما ملك سليمان شاه هَمَذان على ما نذكره . وقد كان أنس به عند ولاية سليمان على خُراسان سار اليه ، وقام بخدمته وبقي مستبداً بتلك البلاد ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

الخبر عن سليمان شاه وحبسه بالموصل

كان سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملك شاه عند عمه السلطان سِنجر ، وجعله وليّ عهده ، وخطب له على منابر خُراسان فلما وقعت فتنة الغزّ وأسر سِنجر قدّمه أمراء خُراسان على أنفسهم، ثم عجز ومضى الى خَوارِزم شاه فزوّجه ابنة أخيه ، ثم سعى به عنده فأخرجه من بلده ، وجاء الى أصفهان فمنعه الشِحنة من الدخول فمضى الى قاشان ، فبعث السلطان محمد شاه بن أخيه محمود عسكراً ليدفعه عنها فسار الى خَوزِستان فمنعه ملك شاه منها فقصد اللحف ونزل . وأرسل المقتفي في أثره فطلبه في زوجته رهينة ببغداد فبعث بها مع جواريها وأتباعها فأكرمهم المقتفي ، وأذن له في القدوم وخرج الوزير ابن هُبَيرة وقاضي القضاة والفتيان لتلقيه ، وخلع عليه المقتفي وأقام ببغداد . حتى اذا دخلت سنة

احدى وخمسين أحضر بدار الخلافة، وحضر قاضي القضاة والأعيان واستحلف على الطاعة والتجافي للخليفة عن العراق، وخطب له ببغداد ولقب ألقاب أبيه، وأمدّ بثلاثة آلاف من العسكر، وجعل معه الامير دوران أمير حاجب صاحب الحلّة.

وسار الى بلاد الجبل في ربيع الاوّل من السنة، وسار المقتفي الى حُلوان وبعث الى ملك شاه بن السلطان محمود يدعوه الى موافقة عمه سليمان شاه، وان يكون وليّ عهده فقدم في ألفي فارس وتحالفا وأمدّهما المقتفي بالمال والاسلحة، واجتمع معهم ايلدكز صاحب كِنجَة وأرانية، وساروا لقتال السلطان محمد فلما بلغه خبرهم أرسل الى قطب الدين مودود بن زُنكي ونائبه زين الدين علي كوجك في المساعدة والارتفاق فأجابه، وسارا للقاء عمه سليمان شاه ومن معه، واقتتلوا في جمادى الاولى فهزمهما السلطان محمد وافترقوا، وتوجه سليمان شاه الى بغداد على شهرزور وكانت لصاحب الموصل، وبها الامير بوران من جهة علي كوجك نائب الموصل فاعترضه هنالك كوجك وبوران فاحتمله كوجك الى الموصل فحبسه بها، وبعث الى السلطان محمد بالخبر وانه على الطاعة والمساعدة فقبل منه وشكر له.

فرار سنجر من أسر الغز

قد تقدّم لنا ما كان من أسر السلطان سنجر بيد الغزّ وافتراق

خُراسان ، واجتماع الامراء بنيسابور وما اليها على الخان محمود بن محمد ، وامتنعوا من الغُزّ ، وامتنع أُتْسُزُ بن محمد أنوشَكِين بخوارِزم وانقسمت خُراسان بينهم ، وكانت الحرب بين الغُزّ وبينها سجالاً ثم هرب سنجر من أسر الغُزّ وجماعــة من الامراء كانوا معه في رمضان سنة احدى وخمسين ولحق بترْمِــذ . ثم عبر جَيْحون الى دار ملكه بمرو فكانت مدّة أسره من جمادى سنة ثمان وأربعين ثلاث سنين وأربعــة أشهر . ولم يتفق فراره من الاسر الا بعد موت علي بك مقدّم القارغليّة لانه كان أشدّ شيء عليه . فلمــا توفي انقطعت القارغليّة اليه وغيرهم ووجد فسحة في أمره والله سبحانه وتعالى أعلم .

حصار السلطان محمد بغداد

كان السلطان محمد بن محمود لاوّل ولايته الملك بعد عمه مسعود بعث الى المقتفي في الخطبة له ببغداد والعراق على عادتهم ، فمنعه لما رجا من ذهاب دولتهم استفحالهم واستبدادهم ، فسار السلطان من همَذان في العساكر نحو العراق ، ووعده صاحب الموصل ونائبه بمدد العساكر فقدم آخر احدى وخمسين . وبعث المقتفي في الحشد فجاء خطا وفُرس في عسكر واسط . وخالفهم مُهلهِل الى الحِلّة فملكها ، واهتم المقتفي وابن هبيرة بالحصار ، وقطع الجسر وجمع السفن تحت التاج ، ونودي في الجانب الغربي بالعبور فعبروا

في محرم سنة اثنتين وخمسين . وخرّب المقتفي ما وراء الحرسة صلاحاً في استبداده . وكذلك السلطان محمد من الجهة الاخرى ونصبت المنجنيقات والرعادات ، وفرّق المقتفي السلاح على الجند والعامة .

وجاء زين الدين كُجُك في عسكر الموصل ، ولقي السلطان على أوان ، واتصلت الحرب واشتدّ الحصار وفقدت الاقوات وانقطعت المواد عن أهل بغداد ، وفتر كُجُك وعسكره في القتال أدباً مع المقتفي . وقيل أوصاه بذلك نور الدين محمود بن زُنكي أخو قطب الدين الاكبر . ثم جاء الخبر بأنّ ملك شاه أخا السلطان محمد وايلدكز صاحب أرّان وربيبه أرسلان بن طُغرُل قصدوا هَمَذان فسار عن بغداد مسرعاً الى هَمَذان آخر ربيع الاوّل ، وعاد زين الدين الى الموصل . ولما وصل ملك شاه وايلدكز وربيبه أرسلان الى هَمَذان أقاموا بها قليلًا ، وسمعوا بمجيء السلطان فاجفلوا ، وساروا الى الري فقاتلهم الشِحْنَة انبانج فهزموه وحاصروه . وأمدّه السلطان محمد بعسكر بن سُقْمُس ابن قاز فوجدهم قد أفرجوا عنه ، وقصدوا بغداد فقاتلهم فهزموه ، ونهبوا عسكره فسار السلطان محمد ليسابقهم الى بغداد . فلما انتهى الى حُلوان بلغه أن ايلدكز بالدينَوَر . ثم وافاه رسول انبانج بأنه ملك هَمَذان وخطب له فيها ، وان شِملة صاحب خُراسان

هرب عن ايلدكز وملك شاه الى بلاده فعاد الى أران ، ورجع السلطان الى هَمَذان قاصداً للتجهز الى بلاد ايلدكز بأرّان .

وفاة سنجر

ثم توفي السلطان سِنجِر صاحب خُراسان في ربيع سنة اثنتين وخمسين ، وقد كان ولي خُراسان منذ أيام أخيه بركيارق . وعهد له أخوه محمد فلما مات محمد خوطب بالسلطنة ، وكان الملوك كلهم بعدها في طاعته نحو أربعين سنة . وخطب له قبلها بالملك عشرين سنة ، وأسره الغُزّ ثلاث سنين ونصف ، ومات بعد خلاصه من الاسر ، وقطعت خطبته ببغداد والعراق . ولما احتضر استخلف على خُراسان ابن أخته محمد بن محمود بن بُقراخان فأقام بجرجان ، وملك الغُزّ مرو وخُراسان ، وملك أبه المؤيد نيسابور وناحيته من خُراسان ، وبقي الامر عـلى هذا الخلاف سنة أربع وخمسين ، وبعث الغُزّ الى محمود الخان ليحضر عندهم فيملكوه فخافهم على نفسه ، وبعث ابنه اليهم فأطاعوه مدّة ثم لحق هو بهم كما نذكر بعد .

منازعة ايتاق للمؤيد

كان ايتاق هذا من موالي السلطان سِنجر فلما كانت الفتنة ، وافترق الشمل ، ومات السلطان سِنْجر ، وملك المؤيد نيسابور ،

وحصل له التقدّم بذلك على عساكر خُراسان حسده جماعة من الامراء ، وانحرف عنه ايتاق هذا فتارة يكون معه وتارة يكون في ما زَنْدَران . فلما كان سنة اثنتين وخمسين سار من مازندران في عشرة آلاف فارس من المنحرفين عن المؤيد ، وقصد نَسا وأبيوَرْد ، وأقام بها (١) المؤيد ايتاق فسار اليه وكبسه وغنم معسكره . ومضى إيتاق منهزماً الى مازندران ، وكان بين ملكها رُستُم وبين أخيه علي منازعة فتقرب ايتاق الى رُستُم بقتال أخيه علي فوجد لذلك غلبة ودفعه عنه ، وسار يتردد في نواحي خُراسان بالعيث والفساد . وألحّ على اسفراين فخرّبها . وراسله السلطان محمود الخان والمؤيد في الطاعة والاستقامة فامتنع ، فساروا اليه في العساكر في صفر سنة ثلاث وخمسين فهرب الى طَبَرِسْتَان ، وبعث رُسْتُم شاه مازندران الى محمود والمؤيد بطاعته ، بأموال جليلة وهدية فقبلوا منه ، وبعث ايتاق ابنه رهناً على الطاعة فرجعوا عنه واستقرّ بجرجان ودَسبتان وأعمالها .

منازعة سنقر العزيزي للمؤيد ومقتله

كان سُنقُر العزيّزي من أمراء السلطان سنجر ، وكان في نفسه من المؤيد ما عند الباقين فلما شغل المؤيد بحرب ايتاق سار

(١) بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٥٦ : وأقام بنواحي نسا وأبيورد لا يظهر المخالفة للمؤيد، بل يراسله بالموافقة والمعاضدة له ويبطن ضدها . وانتقل المؤيد من المكاتبة إلى المكافحة وسار إليه جريدة فأغار عليه وأوقع به فتفرق عنه جموعه .

سُنقُر من عسكر السلطان محمود بن محمد الى هُراة فلكها، واشترط عليه أن يستظهر بملك الغوريّة الحسين فأبى وطمع في الاستبداد لما رأى من استبداد الأمراء على السلطان محمود بن محمد فحاصره المؤيد بهراة، واستمال الاتراك الذين كانوا معه فأطاعوه، وقتلوا سُنقُر العزيزي غيلة. وملك السلطان محمد هُراة، ولحق الفلّ من عسكر سُنقُر بايتاق وتسلطوا على طوس وقراها، واستولى الخراب على البلاد والله تعالى أعلم.

فتنة الغز الثانية بخراسان وخراب نيسابور على يد المؤيد

كان الغُز بعد فتنتهم الاولى أوطنوا بَلخ ونزعوا عن النهب والقتل بخُراسان، واتفقت الكلمة بها على طاعة السلطان محمود بن محمد الخان وكان القائم بدولته المؤيد أي أبه. فلما كان سنة ثلاث وخمسين في شعبان سار الغُزّ الى مرو فزحف المؤيد اليهم، وأوقع طائفة منهم وتبعهم الى مرو وعاد الى سَرَخس، وخرج معه الخان محمود لحربهم فالتقوا خامس شوّال وتواقعوا مراراً ثلاثاً انهزم فيها الغُزّ على مرو وأحسنوا السيرة وأكرموا العلماء والائمة. ثم أغاروا على سَرَخس وطوس واستباحوها وخربوها، وعادوا الى مرو. وأمّا الخان محمود بن محمد فسار الى جِرجَان ينتظر مآل أمرهم، وبعث اليه الغُزّ سنة أربع وخمسين يستدعونه ليملكوه فاعتذر لهم خشية على نفسه، فطلبوا منه جلال الدين عمر فتوثق منهم

بالحلف، وبعثه اليهم فعظموه وملكوه في ربيع الآخر من سنة أربع .

ثم سار أبوه محمود الى خُراسان وتخلّف عنه المؤيد أي أبه، وانتهى الى حدود نَسا وأبيوَرْد فولّى عليهم الامير عمر بن حمزة النَسَويّ فقام في حمايتها المقام المحمود بظاهر نسا. ثم سار الغُزّ من نيسَابور الى طوس لامتناع أهلها من طاعتهم فملكوها واستباحوها وعادوا الى نيسابور فساروا مع جلال الدين عمر بن محمود الخان الى حصار سارورا[1] وبها النقيب عماد الدين محمد بن يحيى العلوي الحسيني فحاصروه، وامتنعت عليهم فرجعوا الى نسا وأبيورد للقاء الخان محمود بجرجان كما قدّمناه، فخرج منها سائراً الى خُراسان واعترضه الغُزّ ببعض القرى في طريقه فهرب منه وأسر بعضهم . ثم هرب منه ولحق بنيسابور . فلما جاء الخان محمود اليها مع الغُزّ فارقها منتصف شعبان ودخلها الغزُّ وأحسنوا السيرة، وساروا الى سَرْخَس ومرو فعاد المؤيد في عساكره الى نيسابور، وامتنع أهلها عليه فحاصرها وافتتحها عنوة وخرّبها، ورحل عنها الى سبق في شوّال سنة أربع وخمسين .

---

(١) كذا بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٥٩ : سابزوار. ولم يذكر صاحب معجم البلدان سارورا ولعلها سارية. وقال البلاذري : كور طبرستان ثماني كور، سارية وبها منزل العامل في أيام الطاهرية، وكان العامل قبل ذلك في آمل. وجعلها أيضاً الحسن بن زيد ومحمد بن زيد العلويان دار مقامهما.

استيلاء ملك شاه بن محمود على خوزستان

ولما رجع السلطان ملك شاه محمد بن محمود من حصار بغداد، وامتنع الخليفة من الخطبة له أقام بهَمَذان عليلاً ، وسار أخوه ملك شاه الى قُمّ وقاشان فأفحش في نهبها ومصادرة أهلها، وراسله أخوه السلطان محمد في الكف عن ذلك فلم يفعل ، وسار الى أصفهان وبعث الى ابن الجقري وأعيان البلد في طاعته فاعتذروا بطاعة أخيه فعاث في قراها ونواحيها ، فسار السلطان اليه من هَمَذان ، وفي مقدّمته كِزْجان الخادم فافترقت جموع ملك شاه ولحق ببغداد . فلما انتهى الى قوس لقيه موبران وسُنقُر الهمذاني فأشار عليه بقصد خَوْزِستان من بغداد ، فسار الى واسط ونزل بالجانب الشرقي ، وساء أثر عسكره في النواحي ففتحوا عليهم البثوق وغرق كثير منهم . ورجع ملك شاه الى خَوْزِستان فمنعه شِملة من العبور فطلب الجوار في بلده الى أخيه السُلطان فمنعه فنزل على الاكراد الذين هنالك ، فاجتمعوا عليه من الجبال والبسائط ، وحارب شِملة ، ومع ملك شاه سُنقُر الهمذاني وموبدان وغيرهما من الامراء فانهزم شِملة ، وقتل عامّة أصحابه ، واستولى ملك شاه على البلاد وسار الى فارس ، والله هو المؤيد بنصره .

وفاة السلطان محمد وولاية عمه سليمان شاه

ثم توفي السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملك شاه آخر سنة

أربع وخمسين، وهو الذي حاصر بغداد يطلب الخطبة له من الخليفة ومنعه فتوفي آخر هذه السنة لسبع سنين ونصف من ولايته . وكان له ولد صغير فسلمه الى سُنقُر الاحمديلي وقال : هو وديعة عندك فأوصل به الى بلادك فانّ العساكر لا تطيعه فوصل به الى مَرَاغة ، واتفق معظم الجند على البيعة لعمه سليمان شاه . وبعث أكابر الامراء بهمَذان الى أتابك (١) زين الدين مودود أتابك ووزير مودود وزيره فأطلقه مودود ، وجهزه بما يحتاج اليه في سلطانه وسار معه زين الدين علي كجك في عساكر الموصل . فلما انتهى الى بلاد الجبل ، وأقبلت العساكر للقاء سليمان شاه ذكر معاملتهم مع السلطان ودالتهم عليه فخشي على نفسه ، وعاد الى الموصل ، ودخل سليمان شاه همَذان وبايعوا له والله سبحانه وتعالى أعلم .

وفاة المقتفي وخلافة المستنجد

ثم توفي المقتفي لامر الله في ربيع الاوّل سنة خمس وخمسين لاربع وعشرين سنة من خلافته ، وقد كان استبدّ في خلافته

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٦٨ : سار سليمان شاه من الموصل إلى همذان ليتولى السلطنة، وقد تقدم سبب قبضه وأخذه إلى الموصل. وسبب مسيره إليها أن الملك محمد بن السلطان محمود بن محمد بن ملك شاه لما مات أرسل أكابر الأمراء من همذان إلى أتابك قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل يطلبون منه إرسال الملك سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملك شاه إليهم ليولوه السلطنة فاستقرت القاعدة بينهم أن يكون سليمان شاه سلطاناً وقطب الدين أتابك وجمال الدين وزير قطب وزيراً لسليمان شاه وتحالفوا على هذا.

وخرج من حجر السُلجوقيّة عند افتراق أمرهم بعد السلطان مسعود كما ذكرناه في أخبار الخلفاء ، ولما توفي بويع بعده بالخلافة ابنه المستنجد فجرى على سنن أبيه في الاستبداد ، واستولى على بلاد الماهلي ونزل اللحف ، وولى عليها من قبله كما كانت لابيه ، وقد تقدّم ذكر ذلك في أخبارهما انتهى .

اتفاق المؤيد مع محمود الخان

قد كنا قدّمنا أنّ الغزّ لما تغلبوا استدعوا محمود الخان ليملّكوه فبعث اليهم بابنه عمر فملكوه . ثم سار محمود من جرجان الى نسا وجاء الغزّ فساروا به الى نيسابور فهرب عنها المؤيد ودخلها محمود والغزّ ، ثم ساروا عنها فعاد اليها المؤيد فحاصرها وملكها عنوة وخرّبها في شوّال سنة أربع وخمسين . ورحل عنها الى سَرْخَس فعاد اليها المؤيّد فحاصرها وملكها عنوة ورحل عنها الى بَيهَق . ثم رجع اليها سنة خمس وخمسين وعمّر خرابها وبالغ في الاحسان اليها . ثم سار لاصلاح أعمالها ومحو آثار المفسدين والثوّار من نواحيها ففتح حصن أشقيل ، وقتل الثوار الزيديّة وخرّبه ، وفتح حصن خسروجور من أعمال بَيْهَق وهو من بناء كنجرو ملك الفرس أيام حربه مع جراسياق ، وملكه ورتّب فيه الحامية وعاد الى نيسابور . ثم قصد مدينة كُندُر من أعمال طرسا وفيها متغلب اسمه خَرْسَده يفسد السابلة ويخرب الاعمال ويكثر الفتك ، وكان

البلاء به عظيماً في خُراسان فحاصره . ثم ملك عليه الحصن عنوة وقتله وأراح البلاد منه . ثم قصد في رمضان من السنة مدينة بَيهَق ، وكانوا قد عصوا عليه فراجعوا الطاعة وقبلهم واستفحل أمره فأرسل اليه الخان محمود بن محمد وهو مع الغُزّ بالولاية على نيسابور وطوس وما اليها فاتصلت يده به واستحكم الصلح بينه وبين الغز وذهبت الفتن .

الحرب بين عسكر خوارزم شاه والأتراك البرزية

كان هؤلاء الاتراك البرزيّة من شعوب الترك بخُراسان ، وأميرهم بُقْراخان بن داود فأغار عليهم جمع من عساكر خوارِزم شاه وأوقعوا بهم وفتكوا فيهم ، ونجا بُقْراخان في الفلّ منهم الى السلطان محمود بخُراسان ومن معه من الغُزّ مستصرخاً بهم ، وهو يظن أن ايتاق هو الذي هيَّج عليهم فسَار الغُزّ معه على طريق نَسَا وأبيوَرْد ، وقصدوا إيتاق فلم يكن له بهم قوّة فاستنصر... شاه مازندران فسَار لنصره واحتشد في أعماله من الاكراد والديلم والتركمان وقاتلوا الغُزّ والبرزيّة [1] بنواحي دِهِستّان فهزمهم خمساً . وكان ايتاق في ميمنة شاه مازندران ، وأفحش الغُزّ في

(١) كذا بياضان بالأصل، وعبارة ابن الأثير في الكامل ج ٩ ص ٧٠: فاستنجد شاه مازندران فجاءه ومعه من الأكراد والديلم والأتراك والتركمان الذين يسكنون نواحي أيسكون جمع كثير فاقتتلوا ودامت الحرب بينهم.

قتل عسكرهم ، ولحق شاه مازندران بسَارِيَة وايتاق شهرزور وخوارزم. ثم ساروا الى دَهِسْتان فنهبوها وخرّبوهـا سنة ست وخمسين وخرّبوا جِرجَان كذلك، وافترق أهلها في البلاد. ثم سار ايتاق الى بقراتكن المتغلب على أعمال قُزوين فانهزم من بين يديه ولحق بالمؤيد وصار في جملته واكتسح ايتاق سائر أعماله ونهب أمواله فقوي بها .

وفاة ملك شاه بن محمود

قد قدّمنا أنّ ملك شاه بن محمود سار بعد أخيه السلطان محمد مِنْ خَوْزِستان الى أصفهان ، ومعه شملة التركماني ودكلا صاحب فارس فأطاعه ابن الخُجَندي رئيس أصفهان وسائر أهلها وجمع له الاموال . وأرسل ملك شاه الى أهل الدولة بأصفهان يدعوهم الى طاعته وكان هواهم مع عمه سليمان فلم يجيبوه الى ذلك ، وبعثوا عن سليمان من الموصل وملكوه ، وانفرد ملك شاه بأصفهان واستفحل أمره ، وبعث الى المستنجد في الخطبة له ببغداد مكان عمه سليمان شاه ، وان تعاد الامور الى ما كانت ويتهدّدهم فوعد الوزير عميد الدين بن هُبيرة جارية جاعلها على سمه فسمته في الطعام ، وفطن المطبب بأنه مسموم ، وأخبر بذلك شملة ودكلا فاحضروا الجارية وأقرت . ومات ملك شاه ، وأخرج أهل أصفهان

أصحابه وخطبوا لسُليمان شاه . وعاد شملة الى خُراسان فارتجع ما كان ملك شاه تغلب عليه منها .

قتل سليمان شاه والخطبة لأرسلان

كان سليمان لما ملك أقبل على اللهو ومعاقرة الخمر حتى في نهار رمضان، وكان يعاشر الصفاعين والمساخر، وعكف على ذلك مع ما كان فيه من الخرق والتهور فقعد الامراء عن غشيان بابه، وشكوا الى شرف الدين كودباذه الخادم ، وكان مدبّر مملكته ، وكان حسن التربية والدين فدخل عليه يوماً يعذله على شأنه وهو مع ندمائه بظاهر هَمَذان ، فأشار اليهم أن يعبثوا بكُرْدَبازَة فخرج مغضباً ، واعتذر اليه عندما صحا فأظهر له القبول وقعد عن غشيان مجلسه . وكتب سليمان شاه الى انبانج صاحب الريّ يدعوه الى الحضور فوعده بذلك اذا أفاق من مرضه . وزاد كُرْدُبازَه استيحاشاً فاستحلف الأمراء على خلع سليمان ، وبدأ بقتل جميع الصفاعين الذين كانوا ينادمونه وقال : انما فعلته صوناً للملك . ثم عمل دعوة في داره فحضر سليمان شاه والامراء ، وقبض على سليمان شاه ووزيره أبي القاسم محمود بن عبد العزيز الحاقدي وعلى خواصه ، وذلك في شوّال سنة خمس وخمسين ، وقتل وزيره وخواصه ، وحبس سليمان شاه قليلاً ثم قتله .

ثم أرسل الى ايلدكز صاحب أرّان وأذْرَبيجان يستقدم ربيبه

أرسلان بن طغرل ليبايع له بالسلطنة، وبلغ الخبر الى انبانج صاحب الريّ فسار الى هَمَذان ، ولقيه كُردُبازَه وخطب له بالسلطنة بجميع تلك البلاد ، وكان ايلدكز قد تزوّج بـأم أرسلان ، وولدت له ابنه البهلوان محمد ومزد ارسلان عثمان. فكان ايلدكز أتابك، وابنه البهلوان حاجباً ، وهو أخو أرسلان لأمّه . وايلدكز هذا من موالي السلطان مسعود. ولما ملك أقطعه أرّان وبعض أذرَبيجان، وحدثت الفتن والحروب فاعتصم هو بأرّان ولم يحضر عند أحد من ملوكهم. وجاء اليه أرسلان شاه من تلك الفتن فـأقام عنده الى أن ملك. ولما خطب له بهَمَذان بعث ايلدكز أتابك الى انبانج صاحب الريّ ، ولاطفه وصاهره في ابنته لابنه البهلوان وتحالفـا على الاتفاق .

وبعث الى المستنجد بطلب الخطبة لأرسلان في العراق ، واعادة الامور الى عادتها أيام السلطان مسعود فطرد رسوله بعد الاهانة . ثم أرسل ايلدكز الى أقسنقر الاحمديلي يدعوه الى طاعة السلطان أرسلان فامتنع ، وكان عنده ابن السلطان شاه بن محمود المدني أسلمه اليه عند موته فتهدّده بالبيعة له ، وكان الوزير ابن هُبيرة يكاتبه من بغداد ويقمعه في الخطبة لذلـك الصبيّ قصداً للنصر من بينهم فجهز ايلدكز العساكر مع البهلوان الى أقْسُنقُر. واستمدّ أقْسُنقُر شاهر بن سُقمان القُطبي صاحب خلاط ، وواصله

فدّه بالعساكر. وسار نحو البهلوان وقاتله فظفر به ورجع البَهلوان الى هَمَذان مهزوماً والله تعالى أعلم.

الحرب بين ايلديكز واينانج

لما مات ملك شاه بن محمود بأصفهان كما قلناه لحق طائفة من أصحابه ببلاد فارس، ومعهم ابنه محمود فانتزعه منهم صاحب فارس زُنكي بن دكلا السلقدي[1] وأنزله في قلعة أَصْطَخَر فلما ملك ايلدكز السلطان ارسلان وطلب الخطبة ببغداد، وأخذ الوزير ابن هُبَيرة في استفساد الاطراف عليهم، وبعث لابن أَقْسُنْقُر في الخطبة لابن السلطان محمد شاه الذي عنده، وكاتب صاحب فارس أيضاً يشير عليه بالبيعة للسلطان محمد بن السلطان ملك شاه الذي عنده، ويعده بالخطبة له ان ظفر بايلدكز فبايع له ابن دكلا وخطب له بفارس، وضرب النوب الخمس على بابه وجمع العساكر وبلغ الى ايلدكز فجمع وسار في أربعين ألفاً الى أصفهان يريد فارس فأرسل الى زُنكي في الخطبة لارسلان شاه فأبى فقال له ايلدكز أنّ المستنجد أقطعني بلادك وأنا سائر اليها، وتقدّمت طائفة الى نواحي أرّجان فلقيتها سرية لارسلان بوقا صاحب أرّجان فأوقعوا بطائفته وقتلوا منهم، وبعثوا بالخبر الى انبانج[2] فنزل

---

(١) كذا، وفي الكامل: السلغري.

(٢) كذا، واسمه في الكامل: إينانج. ج ٩ ص ٧٣.

من الري في عشرة آلاف ، وأمدّه أقْسُنْقُر الاحمديلي بخمسة آلاف فقصد [1] وهرب صاحب ابن البازدان وابن طغايرك وغيرهما من أولياء ايلدكز للقاء انبانج ، ورد عسكر المدافعة زُنكي عن شَهيرم وغيرها من البلاد فهزمهم زنكي بن دكلا ، ورجعوا اليه فاستدعى عساكره من أذْرَبيجان . وجاء هُبَيس بن مزد أرسلان واستمدّ انبانج ، وقتل أصحابه ونهب سواده ، ودخل الريّ وتحصن في قلعة طُبْرُك . ثم تردّدت الرسل بينه وبين ايلدكز في الصلح وأقطعه حربادفان[2] وغيرها وعاد ايلدكز الى هَمَذان والله سبحانه وتعالى أعلم .

الفتنة بنيسابور وتخريبها

وفي ربيع سنة ست وخمسين قبض المؤيد على أحياء[3] نيسابور وحبسهم وفيهم نقيب العلويين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسني ، وآخذهم على ما فعله آباؤهم بأهل البلد من النهب والاعتداء على الناس في أموالهم وأعراضهم فأخذ هؤلاء الاعيان ينهونهم كأنهم لم يضربوا على أيديهم[4] وقتل جماعة من أهل الفساد فخرب البلد

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٧٥: فارسل إليه ابن أقسنقر الأحمديلي خمسة الآف فارس، وهرب ابن البازدار صاحب قزوين.

(٢) كذا، ولم يذكر صاحب: معجم البلدان بلدة بهذا الاسم، وفي الكامل ج ٩ ص ٧٥ جرماذقان.

(٣) كذا، وفي الكامل: أعيان نيسابور.

(٤) كذا، وفي الكامل: وحبسهم في ربيع الآخر سنة ست وخمسين، وقال: أنتم الذين أطعتم الزنود والمفسدين حتى فعلوا هذه الفعال، ولو أردتم منعهم لامتنعوا.

وامتدّت الايدي الى المساجد والمدارس وخزائن الكتب ، وأحرق بعضها ونهب بعضها . وانتقل المؤيد الى الشاذياخ فأصلح سوره وسدّ ثلمه وسكنه ، وخرّب نيسابور بالكليّة . وكان الذي اختطّ هذا الشاذياخ عبدالله بن طاهر أيام ولايته على خُراسان ، ينفرد بسكناه هو وحشمه عن البلد تجافياً عن مزاحمتهم . ثم خربت وجدّدها ألب أرسلان . ثم خربت فجدّدها الآن المؤيد ، وخربت نيسابور بالكلية . ثم زحف الغزّ والخان محمود معهم ، وهو ملك خراسان لذلك العهد فحاصروا المؤيد بالشاذياخ شهرين . ثم هرب الخان عنهم الى شَهْرَسْتان كأنه يريد الحمام وأقام بها ، وبقي الغزّ الى آخر شوّال . ثم رجعوا فنهبوا البلاد ونهبوا طوس . ولما دخل الخان الى نيسابور أمهله المؤيد الى رمضان سنة سبع وخمسين ، ثم قبض عليه وسمله وأخذ ما كان معه من الذخائر وحبسه ، وحبس معه جلال محمد فماتا في محبسهما ، وخطب المؤيد لنفسه بعد المستنجد . ثم زحف المؤيد الى شَهْرَسْتان وقرب نيسابور فحاصرها حتى نزلوا على حكمه في شعبان سنة تسع وخمسين ، ونهبها عسكره ، ثم رفع الايدي عنهم واستقامت في ملكه والله أعلم.

فتح المؤيد طوس وغيرها

ثم زحف المؤيد الى قلعة دَسْكَرة من طوس وكان بها أبو بكر جاندار ممتنعاً فحاصره بها شهراً ، وأعانه أهل طوس لسوء

سيرته فيهم . ثم جهده الحصار فاستأمن ونزل فحبسه ، وسار الى كرْمَان فأطاعوه، وبعث عسكراً الى اسفراين فتحصن بها رئيسها عبد الرحمن بن محمد بالقلعة فحاصره واستنزله ، وحمله مقيداً الى الشاذياخ فحبس ، ثم قتل في ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين . ثم ملك المؤيد قهندار ونيسابور واستفحل ملكه وعاد الى ما كان عليه . وعمر الشاذياخ وخرّب المدينه العتيقة . ثم بعث عسكراً الى بوشنج وهُراة وهي في ولاية محمد بن الحسين ملك الغور فحاصرها، وبعث الملك محمد عسكراً لمدافعته فأفرجوا عنها وصفت ولاية هُراة للغورية .

الحرب بين المسلمين والكرج

كان الكرج قد ملكوا مدينة أنى من بلاد أرّان في شعبان سنة ست وخمسين واستباحوها قتلًا وأسراً ، وجمع لهم شاه أرمن ابن ابراهيم بن سُكمان صاحب خلاط جموعاً من الجند والمتطوّعة، وسار اليهم فقاتلوه وهزموه وأسر كثير من المسلمين . ثم جمع الكرج في شعبان سنة سبع وخمسين ثلاثين ألف مقاتل وملكوا دوس من أذَرْبيجان والجبل وأصفهان فسار اليهم ايلدكز . وسار معه شاه أرمن بن ابراهيم بن سُكمان صاحب خِلاط وأقسُنْقُر صاحب مَراغة في خمسين ألفاً ، ودخلوا بلاد الكرج في صفر سنة ثمان وخمسين فاستباحوها وأسروا الرجال وسبوا النساء والولدان ،

وأسلم بعض أمراء الكرج ، ودخل مع المسلمين وكمن بهم في بعض الشعاب حتى زحف الكرج ، وقاتلوا المسلمين شهراً أو نحوه . ثم خرج الكمين من ورائهم فانهزموا ، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون . وعادوا ظافرين .

ملك المؤيد أعمال قومس والخطبة للسلطان ارسلان بخراسان

ثم سار المؤيد أي أبه صاحب نيسابور الى بلاد قُومُس فملك بَسْطام ودامغان ، وولّى بسطام مولاه تنكز فجرى بينه بين شاه مازندران اختلاف أدى الى الحرب واقتتلوا في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين . ولما ملك المؤيد قومس بعث اليه السلطان ارسلان بن طغرل بالخلع والاولية لما كان بين المؤيد ايلدكز من المودّة ، وأذن له في ولاية ما يفتحه من خُراسان ، ويخطب له فيها فخطب له في أعمال قومُس وطوس وسائر أعمال نيسابور ، ويخطب لنفسه بعد أرسلان وكانت الخطب في جرجان ودَهِسْتان لخوارزم شاه أرسلان بن أتْسُز ، وبعده للامير إِتيَاق ، والخطبة في مرو وبَلْخ وسَرْخَس – وهي بيد الغُزّ ، وهراة وهي بيد الامير أتيكين ، وهو مسالم للغزّ – للسلطان سِنجر ، يقولون اللهمّ أغفر للسلطان السعيد سِنْجر ، وبعده لامير تلك المدينة ، والله تعالى وليّ التوفيق .

اجلاء القارغلية من وراء النهر

كان خان خاقان الصيني ولّى على سَمُرْقَنْد وبُخارى الخان جِغْرا بن حسين تَكين وهو من بيت قديم في الملك . ثم بعث اليه سنة سبعة وخمسين باجلاء القارغلّيّة من أعماله الى كاشغر ، ويشتغلون بالمعاش من الزراعة وغيرها فامتنعوا فألحّ عليهم فاجتمعوا وساروا الى بُخارى . فدسّ أهل بُخارى الى جِغراخان وهو بسَمُرْقَنْد ، ووعدوا القارغلّيّة بالمصانعة وطاوعوهم الى أن صبّحهم جغرا في عساكره فأوقع بهم ، وقطع دابرهم والله تعالى أعلم .

استيلاء سنقر على الطالقان وغرستان

وفي سنة تسع وخمسين استولى الامير صلاح الدين سُنقُر من موالي السلطان سِنجِر على بلاد الطالِقان ، وأغار على غَرْشَتان حتى ملكها وصارت في حكمه بحصونها وقلاعها ، وصالح أمراء الغز وحمل لهم الاتاوة .

قتل صاحب هراة

كان صاحب هُراة الامير أتَكِين وبينه وبين الغز مهادنة . فلما قتل الغزّ ملك الغور محمد بن الحسين كما مرّ في أخباره طمع أتَكِين في بلاده فجمع جموعه ، وسار اليها في رمضان سنة تسع

وخمسين وتوغّل في بلاد الغور فقاتله أهلها وهزموه ، وقتل في المعركة. وقصد الغزُّ هُراة وقد اجتمع أهلها على أثير الدين منهم فاتهموه بالميل للغزّ وقتلوه ، واجتمعوا على أبي الفتوح بن علي بن فضل الله الطغرائي . ثم بعثوا الى المؤيد بطاعتهم فبعث اليهم مملوكه سيف الدين تنكز فقام بأمرهم ، وبعث جيشاً الى سَرْخَس ومرو ، وأغاروا على دواب الغزّ فأفرجوا عن هُراة ورجعوا لطاعته والله تعالى أعلم .

ملك شاه مازندران قومس وبسطام ووفاته

قد ذكرنا استيلاء المؤيد على قومُس وبسطام وولاية مولاه تنكز عليها . ثم أنّ شاه مازندران وهو رستم بن علي بن هِرْبار ابن قاروت جهّز اليها عسكراً مع سابق الدين القُزويني من أمرائه فلك دَامِغان ، وسار اليه تُنْكُز فيمن معه من العسكر فكبسهم القُزْويني وهزمهم واستولى على البلاد . وعاد تُنْكُز الى المؤيد بنيسابور ، وجعل يغير على بسطام وقومُس . ثم توفي شاه مازندران في ربيع سنة ستين فكتم ابنه علاء الدين موته حتى استولى على حصونه وبلاده. ثم أظهره وملك مكانه ونازعه إتياق صاحب جرجان ودَهِسْتان ولم يرع ما كان بينه وبين أبيه فلم يظفر بشيء ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

حصر عسكر المؤيد نسا

ثم بعث المؤيد عساكره في جمادى سنة ستين لحصار مدينة نَسا فبعث خوارِزم شاه بك أرسلان بن أتْسُز في عساكره اليها ، فأجفلت عنها عساكر المؤيد ، ورجعوا الى نيسابور وصارت نَسا في طاعة خوارِزْم شاه ، وخطب له فيها . ثم سار عسكر خَوَارِزْم الى دَهِسْتان وغلبوه عليها وأقام فيها بطاعته والله أعلم .

الحرب بين البهلوان وصاحب مراغة

ثم بعث أُقْسُنْقُر الاحمديلي صاحب مَرَاغَة سنة ثلاث وستين الى بغداد في الخطبــة للملك الذي عنده ، وهو ابن السلطان محمد شاه على أن يتجافى عن العراق ، ولا يطلب الخطبة منه الّا اذا أسعف بها فأجيب بالوعد الجميل ، وبلغ الخبر الى ايلدِكز صاحب البلاد فبعث ابنــه البهلوان في العساكر لحرب أُقْسُنْقُر فحاربه وهزمه ، وتحصّن بمَرَاغة فنازله البهلوان وضيّق عليه ، وتردّد بينهما الرسل واصطلحوا ، وعاد البهلوان الى أبيه بهَمَذان .

ملك شملة فارس واخراجه عنها

كان زنكي بن دكلا قد أساء السيرة في جنده فأرسلوا الى شِمْلَة صاحب خَوْزِستان واستدعوه ليملكوه فسار ولقي زنكي

وهزمه ، ونجا الى الاكراد الشوابكار ، وملك شِمْلَة بلاد فارس فأساء السيرة في أهلها ، ونهب ابن أخيه خَرْسَنْكا البلاد فنفر أهل فارس عنه ولحق بزنكي بعض عساكره فزحف الى فارس ، وفارقها شِملة الى بلاده خوزِسْتان وذلك كله سنة أربع وستين وخمسمائة .

ملك ايلدكز الري

كان اينانج قد استولى على الريّ واستقرّ فيها بعد حروبه مع ايلدَكِز على جزية يؤدّيها اليه . ثم منع الضريبة واعتذر بنفقات الجند فسار اليه إيلدكز سنة أربع وستين وحاربه اينانج فهزمه ايلدكز ، وحاصره بقلعة طُبْرُك ، وراسل بعض مماليكه ورغّبهم فغدروا به وقتلوه . واستولى ايلدكز على طُبْرُك وعلى الريّ وولّى عليها علي بن عمر باغ ، ورجع الى همَذان ، وشكر لموالي اينانج الذين قتلوه ولم يف لهم بالوعد فافترقوا عنه . وسار الذي تولى قتله الى خَوارِزم شاه فصلبه لما كان بينه وبين اينانج من الوصلة ، والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق بمنه وكرمه .

وفاة صاحب كرمان والخلف بين أولاده

ثم توفي سنة خمس وستين الملك طُغرُل بن قاروت بك صاحب كِرْمان ، وولي ابنه أرسلان شاه مكانه ، ونازعه أخوه الاصغر

بُهرَام شاه فحاربه أرسلان وهزمه فلحق بالمؤيد في نيسابور فأنجده بالعساكر . وسار الى أخيه أرسلان فهزمه وملك كِرْمان ، ولحق أرسلان بأصفهان مستنجداً بألدكز فأنجده بالعساكر وارتجع كرْمان ولحق بُهرام بالمؤيد وأقام عنده . ثم هلك أرسلان فسار بهرام الى كرمـان وملكها . ثم توفي المستنجد وولي ابنه المستضيء . ولم نترجم لوفاة الخلفاء ههنا لأنها مذكورة في أخبارهم ، وانما ذكرناها قبل هؤلاء لانهم كانوا في كفالة السُلجوقيَّة وبني بُويَه قبلهم فوفاتهم من جملة أخبـار الدولتين . وهؤلاء من لدن المقتفي قد استبدّوا بأمرهم وخلافتهم من بعد ضعف السُلجوقية بوفاة السلطان مسعود ، وافترقت دولتهم في نواحي المشرق والمغرب . واستبدّ بهـا الخلفاء ببغداد ونواحيها ونازعوا من قبلهم أنهم كانوا يخطبون لهم في أعمالهم ، ونازعهم فيها مع ذلـك حرصاً عـلى الملك الذي سلبوه ، وأصبحوا في ملك منفرد عن أولئك المنفردين مضافاً الى الخلافة التي هي شعارهم ، وتداول أمرهم الى أن انقرضوا بهلك المستعصم على يد هلاكو .

وفاة خوارزم شاه وولاية ابنه سلطان شاه ومنازعته مع أخيه الأكبر علاء الدين تكش

لما انهزم خوارِزْم شاه أرسلان امام الخطا رجع الى خوارزم فمات سنة ثمـان وستين ، وولي ابنه سلطان شاه فنـازعه أخوه

الأكبر علاء الدين تُكُش، واستنجد بالخطا وسار الى خوارزم فلكها، ولحق سلطان شاه بالمؤيد صريخاً فسار معه بجيوشه، ولقيهم تُكُش فانهزم المؤيد وجيء به أسيراً الى تكش فقتل بين يديه صبراً. وعاد أصحابه الى نيسابور فولوا ابنه طغان شاه أبو بكر ابن المؤيد، وكان من أخبار طغان شاه وتُكُش ما نذكره في أخبار دولتهم وفي كيفية قتله خبر آخر نذكره هنالك. ثم سار خوارِزم شاه سنة تسع وستين الى نيسابور وحاصرها مرّتين، ثم هزم في الثانية طغان شاه بن المؤيد وأخذه أسيراً، وحمله الى خوارِزم وملك نيسابور وأعمالها وجميع ما كان لبني المؤيد بخراسان، وانقرض أمرهم والبقاء لله وحده والله تعالى أعلم.

وفاة الأتابك شمس الدين ايلدكز وولاية ابنه محمد البهلوان

ثم توفي الاتابك شمس الدين ايلدَكز أتابك أرسلان شاه بن طُغْرُل صاحب هَمَذان وأصفهان والريّ وأذرَبيجان، وكان أصله مملوك الكمال الشهير ابن وزير السلطان محمود. ولما قتل الكمال صار السلطان وترقّى في كتب الولاية. فلما ولي السلطان مسعود ولّاه أرانيّة فاستولى عليها، وبقيت طاعته للملوك على البعد، واستولى على أكثر أذرَبيجان. ثم ملك هَمَذان وأصفَهان والريّ وخطب لربيبه أرسلان بن طُغرل وبقي أتابك. وبلغ عسكره خمسين ألفاً واتسع ملكه من تَفليس الى مِكران، وكان متحكماً

على أرسلان ، وليس له من الدولة إلّا جراية تتصل اليه .

ولما هلك إيلدَكز قام بالامر بعده ابنه محمد البهلوان ، وهو أخو السلطان أرسلان لامّه فسار أوّل ملكه لاصلاح أذَرْبَيجان ، وخالفه ابن سِنكي ، وهو ابن أخي شِمْلَة صاحب خَوْزِستان الى بلد نَهاوَنْد فحاصرها . ثم تأخر ابن سنكي من تُسْتَر ، وصحبهم من ناحية أذَرْبَيجان يوهمهم انه مدد البهلوان ففتحوا له البلد ، ودخل فطلب القاضي والاعيان ونصبهم وتوجه نحو ماسبذان قاصداً العراق ، ورجع الى خَوْزِستان . ثم سار شِمْلَة سنة سبعين ، وقصد بعض التركمان فاستنجدوا البهلوان بن إيلدكز فأنجدهم ، وقاتلوه فهزموه . وأسر شِملة جريحاً وولده وابن أخيه . وتوفي بعد يومين وهو من التركمان الأُتْسزيّة ، وملك ابنه من بعده . وسار البهلوان سنة سبعين الى مدينة تبريز ، وكان صاحبها أقْسُنْقُر الاحمديلي قد هلك ، وعهد بالملك بعده لابنه ملك الدين فسار الى بلاده ، وحاصر مَرَاغة وبعث أخاه فنزل وعاد عن مَرَاغة الى هَمَذان والله سبحانه وتعالى أعلم .

وفاة السلطان ارسلان بن طغرل

ثم توفي السلطان أرسلان بن طُغرُل مكفول البهلوان بن إيلدكز ، وأخوه لامّه بهَمَذان سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وخطب بعده لابنه طُغرُل .

وفاة البهلوان محمد بن ايلدكز وملك أخيه قزل

ثم توفي البهلوان محمد بن ايلدكز أوّل سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، وكانت البلاد والرعايا في غاية الطمأنينة فوقع عقب موته بأصفهان بين الحنفيّة والشافعيّة وبالريّ بين أهل السُنّة والشيعَة فتن وحروب آلت الى الخراب، وملك البلاد بعد البهلوان أخوه قُزُل أرسلان واسمه عثمان، وكان البهلوان كافلاً للسلطان طُغرُل وحاكماً عليه. ولما هلك قُزُل لم يرض طغرل بتحكمه عليه، وفارق هَمَذان، ولحق به جماعة من الامراء والجند، وجرت بينه وبين قُزُل حروب. ثم غلبه طُغرُل الى الخليفة فأمره بعمارة دار السلطان فطرد رسوله، وهدمت دار السلطنة وألحقت بالارض، وبعث الخليفه الناصر لدين الله سنة أربع وثمانين عسكراً مع وزيره جلال الدين عبيدالله بن يونس لانجاده قُزُل على طغرل قبل هَمَذان، وهزمهم ونهب جميع ما معهم وأسر الوزير ابن يونس.

قتل قزل ارسلان قطلغ وولاية أخيه

قد تقدّم لنا ما كان بين السلطان طغرل وبين قُزُل بن ايلدكز من الحروب، ثم ان قُزُل غلبه واعتقله في بعض القلاع، ودانت له البلاد وأطاعه ابن دكلا صاحب فارس وخَوزِسْتان، وعاد الى أصفهان والفتن بها متصلة فأخذ جماعة من أعيان الشافعيّة وصلبهم

وعاد الى هَمَذان، وخطب لنفسه بالسلطنة سنة سبعة وثمانين. ثم قُتل غيلة على فراشه ولم يعرف قاتله. وأخذ جماعة من غلمانه بالظنة، وكان كريماً حليماً يحب العدل ويؤثره. ولما هلك ولي من بعده قُتْلُغ بن أخيه البهلوان واستولى على الممالك التي كانت بيده.

قتل السلطان طغرل وملك خوارزم شاه الري ووفاة أخيه سلطان شاه

ولما توفي قُزُل وولي قُتْلُغ بن أخيه البهلوان كما قلناه أخرج السلطان طُغرُل من محبسه بالقلعة التي كان بها، واجتمع اليه العساكر، وسار الى هَمَذان فلقيه قتلغ بن البهلوان فانهزم بين يديه ولحق بالريّ، وبعث الى خَوَارِزم شاه علاء الدين تُكُش ليستنجده فسار اليه سنة ثمان وثمانين وندم قتلغ على استدعائه فتحصّن ببعض قلاعه، وملك خَوَارِزم شاه الري، وملك قلعة طُبْرُك، وصالح السلطان طغرل وولي على الريّ وعاد الى خَوَارِزم سنة تسعين فأحدث أحدوثة السلطان شاه[1] نذكره في أخبارهم. وسار السلطان طغرل الى الري فأغار عليها، وفرّ منه قُتْلُغ بن

(١) كذا، وفي الكامل ج ٩ ص ٢٣٠ : فشتى خوارزم شاه بخوارزم فلما انقضى الشتاء سار إلى مرو لقصد أخيه سنة تسع وثمانين فترددت الرسل بينهما في الصلح، وإذ قد ورد على خوارزم شاه رسول من مستحفظ قلعة سرخس لأخيه سلطان شاه يدعوه ليسلم إليه القلعة لأنه قد استوحش من صاحبه سلطان شاه، فسار خوارزم شاه إليه مجداً فتسلم القلعة وصار معه. وبلغ ذلك سلطان شاه ففتّ ذلك في عضده، وتزايد كمده فمات سلخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة فلما سمع خوارزم شاه بموته سار من ساعته إلى مرو فتسلمها، وتسلم مملكة أخيه سلطان شاه جميعها وخزائنه.

لبهلوان وبعث الى خوارزم شاه يستنجده ، ووافق ذلك وصول منشور من الخليفة اليه باقطاعه البلاد فسار من نيسابور الى الري ، وأطاعه قتلغ وسار معه الى همذان . وخرج طغرل للقائهم قبل أن يجمع العساكر ، ولقيهم قريباً من الري في ربيع الاول فحمل عليهم ، وتورّط بينهم فصرع عن فرسه وقتل . وملك خوارزم شاه همذان وتلك البلاد جميعاً . وانقرضت مملكة بني ملك شاه ، وولي خوارزم شاه على همذان ، وملك الاعمال فبلغ اينانج بن البهلوان ، وأقطع كثيراً منها مماليكه وقدّم عليهم مساحق منهم . ثم استولى وزير الخليفة ابن العطاف على همذان وأصفهان والريّ من يد مواليه ، وانتزعها منهم خوارزم كما ذكرناه في أخبار الخلفاء . وجاءت العساكر من قبل الخليفة الى همذان مع أبي الهيجاء الشمس من أمراء الايوبيّة ، وكان أميراً على القدس فعزلوه عنها وسار الى بغداد فبعثه الناصر سنة ثلاث وتسعين بالعساكر الى همذان ، ولقي عندها أزبك بن البهلوان مطيعاً فقبض عليه ، وأنكر الخليفة ذلك وبعث باطلاقه ، وخلع عليه وعاد الى بلاد أذربيجان .

ملك الكرج الدويرة

كان أزبك بن البهلوان قد استولى على أذربيجان بعد موته ،

وكان مشغولًا بلذاته فسار الكرج الى مدينة دُوَيْرَة[1] وحاضروها وبعث أهلها اليه بالصَريخ فلم يصرخهم حتى ملكها الكرج عنوة واستباحوها والله تعالى أعلم .

قتل كوجة ببلاد الجبل وملك ايدغمش

كان كوَجة[2] من موالي البهلوان قد تغلّب على الريّ وهَمَذان وبلاد الجبل ، واصطنع صاحبه ايدِغْمش ووثق بـه فنازعه الامر وحاربه فقتله ، واستولى ايدِغْمُش على البلاد وبقي أُزْبُك بن البهلوان مغلباً ليس له من الحكم شيء .

قصد صاحب مراغة وصاحب اربل أذربيجان

قد ذكرنا أن أُزبك كان مشغولًا بلذاته مهملًا لملكه ، ثم حدثت بينه وبين صاحب إرْبِل ، وهو مظفر الدين كوكبري سنة اثنتين وستمائة فتنة حملت مظفر الدين على قصده فسار الى مَرَاغة ، واستنجد صاحبها عـلاء الدين بن قراسُنقُر الاحمد يلي فسار معه لحصار تِبْرِيز ، وبعث أُزْبُك الصريخ الى أيدغمش بمكانه من بلاد الجبل فسار اليه ، وأرسل مظفر الدين بالفتن والتهديد فعـاد الى

(١) كذا بالأصل وفي الكامل ج ٩ ص ٢٦٠ : استولى الكرج على مدينة دوين من أذربيجان ونهبوها واستباحوها وأكثروا القتل في أهلها، وكانت هي وجميع بلاد أذربيجان للأمير أبي بكر بن البهلوان.

(٢) كذا، واسمه في الكامل: كوكجا.

بلده، وعاد علاء الدين بن قراسنقر الى بلاد مراغة فسار ايدغمش وأزبك وحاصروه بمراغة حتى سلم قلعة من قلاعه، ورجعوا عنه، والله تعالى أعلم.

وفاة صاحب مازندران والخلاف بين أولاده

ثم توفي حسام الدين أزدشير صاحب مازندران وولي ابنه الاكبر وأخرج أخاه الاوسط عن البلاد فلحق بجرجان، وبها علي شاه بُرتُكش نائباً عن أخيه خوارزم فاستنجده على شرط الطاعة له، وأمره أخوه تُكش بالمسير معه فساروا من جرجان، وبلغهم في طريقهم مهلك صاحب مازندران المتولي بعد أبيه، وانّ أخاه الاصغر استولى على الكراع والاموال فساروا اليه، وملكوا البلاد ونهبوها مثل سارية وآمد وغيرها، وخطب لخوارزم شاه فيها، وعاد علي شاه الى خُراسان، وأقام ابن صاحب مازندران، وهو الاوسط الذي استصرخ به، وقد امتنع أخوه الاصغر بقلعة كوري، ومعه الاموال والذخائر وأخوه الاوسط فراسله واستعطف، وقد ملك البلاد جميعاً والله ولي التوفيق.

ملك ابن البهلوان مراغة

ثم توفي سنة أربع وستمائة علاء الدين بن قراسنقر الاحمد يلي صاحب مراغة، وأقام بأمرها من بعده خادمه ونصب ابنه طفلاً

صغيراً ، وعصى عليه بعض الامراء . وبعث العسكر لقتاله فانهزموا أوّلا ، ثم استقرّ ملك الطفل . ثم توفي سنة خمس وستمائة وانقرض أهل بيته فسار أزْبُك بن البهلوان من تِبْرِيز الى مراغة ، واستولى على مملكة آل قراسنقر مـا عدا القلعة التي اعتصم بها الخادم ، وعنده الخزائن والذخائر .

استيلاء منكلي على بلاد الجبل وأصفهان وغيرها وهرب ايدغمش وقتله

لما تمكّن ايدغمش في بلاد الجبل بهمذان واصفهان والريّ وما اليها عظم شأنه حتى طلب الامر لنفسه ، وسار لحصار ازبـك بن مولاه الذي نصبـه للامر . وكان باذربيجان فخرج عليـه مولى من موالي البهلوان اسمه مَنْكَلي وكثر جمعه ، واستولى على البلاد . وقدم ايدغمش الى بغداد ، واحتفل الخليفة لقدومه ، وتلقاه وذلك سنة ثمان . وأقام بها [1] كان ايدغمش قد وفد سنة ثمان وستمائة الى بغداد وشرّفه الخليفة بالخلع والالوية ، وولاه على ما كان بيده ورجع الى همذان ، ووعده الخليفة بمسير العساكر فأقام ينتظرها عند سليمان بن مرحم [2] أمير الإيوانيّة من التركمان فدس الى منكلي بخبره . ثم قتل ايدغمش وحمل أصحابه الى منكلي

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٣٠٥: فخرج الناس كافة، وكان يوم وصوله مشهوداً. ثم قدمت زوجته في رمضان في محمل فأكرمت وأنزلت عند زوجها، وأقام ببغداد إلى سنة عشر وستمائة.

(٢) كذا، واسمه في الكامل: ابن ترجم.

وافترق أصحابه، واستولى منكلي، وبعث اليه الخليفة بالنكير فلم يلتفت اليه فبعث الى مولاه ازبك بن البهلوان صاحب اذربيجان يحرّضه عليه، والى جلال الدين الاسماعيلي صاحب قلعة لَموت لمساعدته على أن يكون للخليفة بعض البلاد ولازبك بعضها ولجلال الدين بعضها. وبعث الخليفة العساكر مع مولاه سنقر الملقب بوجه السبع، وأمرهَ بطاعة مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي كُجُك صاحب إربل وشَهْرَزَوْر، وهو مقدّم العساكر جميعاً فسار لذلك، وهرب منكلي وتعلق بالجبل، ونزلوا بسفحه قريباً من كوج فناوشهم الحرب فانهزم أزبك. ثم عاد ثم أسرى من ليلته منهزماً، وأصبحوا فاقتسموا البلاد على الشريطة، وولى أُزبك فيما أخذ منها [(١)] مولى أخيه فاستولى عليها، ومضى منكلي الى ساوة وبها شِحْنَة كان صديقاً له فقتله، وبعث برأسه الى أُزبك واستقر [(٢)] في بلاد الجَبل حتى قتله الباطنيّة سنة أربع عشرة وستمائه، وجاء خوارزم شاه فملكها كما نذكر في أخباره

---

(١) كذا، بياض في الأصل وفي الكامل ج ٩ ص ٣٠٩: واستولى عسكر الخليفة وأوزبك على البلاد فأعطى جلال الدين ملك الإسماعيلية من البلاد ما كان استقر لـه، وأخذ الباقي أوزبك فسلمها إلى أغلمش مملوك أخيه. وكان توجه إلى خوارزمشاه علاء الدين محمد وبقي عنده. ثم عاد عنه وشهد الحرب فأبلى فيها فولاه أوزبك البلاد، وعاد كل طائفة من العسكر إلى بلادهم.

(٢) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل: وأرسل رأسه إلى أوزبك، وأرسله أوزبك إلى بغداد.

وفي صفحة ٣١٣: ومنها أن أغلمش لما ملك بلاد الجبل خطب لخوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش فيها جميعها، فلما قتله الباطنية غضب له وخرج لئلا تخرج البلاد عن طاعته، فسار مجداً في عساكر تطبق الأرض فوصل إلى الري فملكها.

ودخل أُزبك بن البهلوان صاحب أَذربيجــان وأرّان في طاعته ، وخطب له على منابر أعماله ، وانقرض أمر بني ملك شاه ومواليهم من العراقين وخُراسان وفارس وجميع ممالك المشرق ، وبقي اوزبك ببلاد اذربيجان . ثم استولى التتر على أعمال محمد بن تكش فيما وراء النهر وخراسان وعراق العجم سنة ثماني عشرة وستمائة وموالي الهند . وسار جَنْكِزخَان فأطاعه أُزبك بن البهلوان سنة احدى وعشرين ، وأمره بقتل من عنده من الخوارزميّة ففعل ، ورجع عنه الى خراسان . ثم جاء جلال الدين بن محمد بن تكش من الهند سنة اثنتين وعشرين فاستولى على عراق العجم وفارس ، وسار الى أذربيجان فملكها ، ومرّ من أزبك الى كِنْجَة من بلاد أرّان . ثم ملك كنجة وبلاد أرّان ، ومرّ أزبك الى بعض القلاع هنالك . ثم هلك وملك جلال الدين على جميع البلاد ، وانقرض أمر بني أُزبك ، واستولى التتر على البلاد ، وقتلوا جلال الدين سنة ثمان وعشرين كما يأتي في أخبارهم جميعاً . انتهى الكلام في دولة السُلجوقيّة فلنرجع الى أخبار الدول المتشعبة عنها واحدة بعد واحدة ، والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

طغرل بن ارسلان شاه بن طغرل ——— بن محمد ——— بن ملكشاه ——— بن ارسلان ——— بن جعفربك — بن ميكال ——— بن سلجوق

ابراهيم ينال ——— ابن عم طغرلبك وأخوه لامه

محمد ——— بن أوتاش

أحمد

يوسف بن موسى

طغرلبك

قطلمش بن سعيد

قطلمش بن اسرائيل

ارسلان

قاروت بك

ملكشاه بن كاقى

محمد بن مسعود

محمد بن ملكشاه بن محمود

محمد بن سليمانشاه

قتلغ آينانج

ناصر بن ——— بن ازبك بن البهلوان ——— بن ايلدكز

عثمان قزل

ايدغمش

تنكال بغا

قزل

بنو انوشتكين

كان أنوشتكين جدّهم تُركياً مملوكاً لرجل من غَرشِتان ، ولذلك يقال له أنوشتكين غِرشَه . ثم صار لرجل من أمراء السُلْجُوقِيّة وعظمائهم اسمه مِلكَابك ، وكان مقدّماً عنده لنجابته وشجاعته . ونشأ ابنه محمد على مثل حاله من النجابة والشجاعة ، وتحلّى بالأدب والمعارف ، واختلط بأمراء السُلجوقيّة ، وولي لهم الاعمال واشتهر فيهم بالكفاية وحسن التدبير .

ولما ولي بركيارق ابن السلطان ملك شاه ، وانتقض عليه عمُّه أرسلان أرغون ، واستولى على خراسان ، وبعث اليه العساكر سنة تسعين وأربعمائة مع أخيه سِنْجِر ، وسار في اثره ، ولقيهم في طريقهم خبر مقتل أرغون عمهم ، وان بعض مواليه خلفه فعدا عليه فقتله كما مر قبل . فسار بركيارق في نواحي خراسان وما وراء النهر حتى دوّخها وولّى عليها أخاه سِنْجِر ، وانتقض عليه أمير أميران من قرابته اسمه محمد بن سليمان فسار اليه سنجر وظفر به وسمله . وعاد بركيارق الى العراق بعد ان ولى على خوارزم إكِنجِي شاه . ومعنى شاه بلسانهم السلطان فأضيف الى خوارزم على عادتهم في تقديم المضاف اليه على المضاف .

ولما انصرف بركيارق الى العراق تأخر من أمرائه قودِز وبارْقطاش وانتقضا على السلطان ووثبا بالامير إكِنجي صاحب

خوارزم وهو بمرو ذاهباً الى السلطان شاه فقتلاه. وبلغ الخبر الى السلطان وقد انتقض عليه بالعراق الامير أنَز و مؤيد الملك بن نظام الملك فمضى لحربها، وأعاد الامير داود حبشي بن ايتاق في عسكر الى خراسان لقتالها فسار الى هُراة وعاجلاه قبل اجتماع عساكره فعبر جيحون وسبق اليه بارِقطّاش فهزمه داود وأسره. وبلغ الخبر الى قودز فثار به عسكره، وفرّ الى بُخارى فقبض عليه نائبها ثم أطلقه، ولحق بالملك سنجر فقبله. وأقام بارقطاش أسيراً عند الامير داود وصفت خراسان من الفتنة والثوار، واستقام أمرها للامير داود حبشي فاختار لولاية خوارزم محمد بن أنوشتكين فولّاه وظهرت كفايته وكان محباً لاهل الدين والعلم مقرّباً لهم عادلاً في رعيته فحسن ذكره وارتفع محله. ثم استولى الملك سنجر على خراسان فاقر محمد بن أنوشتكين وزاده تقديماً وجمع بعض ملوك الترك وقصد خوارزم وكان محمد غائباً عنها ولحق بالترك محمد بن إكنجي الذي كان أبوه أميراً على خوارزم واسمه طغرل تكين محمد، فحرض الترك على خوارزم وبلغ الخبر الى محمد بن أنوشتكين فبعث الى سنجر بنيسابور يستمدّه وسبق الى خوارزم فافترق الترك وطُغرُل تكين محمد وسار كل منهما الى ناحية ودخل محمد بن أنوشتكين الى خوارزم فازداد عند سنجر ظهوراً والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق لا رب سواه.

وفاة محمد بن أنوشتكين وولاية ابنه اتسز

ثم هلك محمد بن أنوشتكين خوارزم وولي بعده ابنه أُتسز وسار بسيرة أبيه ، وكان قد قاد الجيوش أيام أبيه وحارب الاعداء فلما ولي افتتح أمره بالاستيلاء على مدينة مَقْشَلاع ، وظهرت كفايته في شأنها فاستدعاه السلطان سنجر فاختصَّه ، وكان يصاحبه في أسفاره وحروبه ، وكلما مرّ يزيد تقدّماً عنده ، والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم .

الحرب بين السلطان سنجر واتسز خوارزم شاه

ثم كثرت السِعاية عند السلطان سنجر في أُتسز خوارزم شاه ، وانه يحدّث نفسه بالامتناع فسار سنجر اليه لينتزع خوارزم من يده فتجهَّزَ أُتسز للقائه ، واقتتلوا فانهزم أُتسز وقتل ابنه وخلق كثير من أصحابه ، واستولى سنجر على خوارزم واقطعها غياث الدين سليمان شاه ابن أخيه محمداً ، ورتّب له وزيراً وأتابك وحاجباً ، وعاد الى مرو منتصف ثلاث وثلاثين . وكان أهل خوارزم يستغيثون لأُتسز فعاد اليهم بعد سنجر فأدخلوه البلد ، ورجع سليمان شاه الى عمه سنجر ، واستبدّ أُتسز بخوارزم والله أعلم .

انهزام السلطان سنجر من الأتراك الخطا وملكهم ما وراء النهر

ثم سار سِنجر سنة ست وثلاثين لقتال الخَطا من الترك فيما وراء النهر لما رجعوا لملك تلك البلاد ، فيقال ان أتسز أغراهم بذلك ليشغل السلطان سنجر عن بلده وأعماله . ويقال ان محمود بن محمد بن سليمان بن داود بُغَراخان ملك الخانيّة في كاشغر وتركستان وهو ابن أخت سنجر زحفت اليه أمم الخطا من الترك ليتملكوا بلاده فسار اليهم، وقاتلهم فهزموه وعاد الى سَمَرْقَند، وبعث بالصَريخ الى خاله سنجر فعبر النهر اليه في عساكر المسلمين وملوك خُراسان، والتقوا في أوّل صفر سنة ست وثلاثين فانهزم سنجر والمسلمون وفشا القتل فيهم . يقال كان القتلى مائة ألف رجل وأربعة آلاف امرأة ، وأسرت زوجة السلطان سنجر وعاد منهزماً ، وملك الخطا ما وراء النهر ، وخرجت عن ملك الاسلام ، وقد تقدّم ذكر هذه الواقعة مستوفى في أخبار السلطان سنجر .

ولما انهزم السلطان سنجر قصد أُتْسُز خوارزم شاه خُراسان فملك سَرخس ، ولقي الامام أبا محمد الزيادي ، وكان يجمع بين العلم والزهد فأكرمه وقبل قوله . ثم قصد مرو الشاهِجَان فخرج اليه الامام أحمد الباخوري وشفع في أهل مرو ، وأن لا يدخل لهم أحد من العسكر فشفعه ، وأقام بظاهر البلد فثار عامة مرو وأخرجوا أصحابه وقتلوا بعضهم ، وامتنعوا فقاتلهم أتسز وملكها عليهم غلاباً

أوّل ربيع سنة ست وثلاثين وقتل الكثير من أهلها، وكان فيهم جماعة من أكابر العلماء، وأخرج كثيراً من علمائها الى خوارزم: منهم أبو بكر الكِرْماني. ثم سار في شوّال الى نيسابور، وخرج اليه جماعة من العلماء والفقهاء متطارحين أن يعفيهم مما وقع بأهل مرو فأعفاهم، واستصفى أموال أصحاب السلطان وقطع الخطبة لسِنجر وخطب لنفسه. ولما صرّح باسمه على المنبر همّ اهل نيسابور بالثورة، ثم ردّهم خوف العواقب فاقصروا، وبعث جيشاً الى أعمال بيهق فحاصرها خمساً. ثم ساروا في البلاد ينهبون ويكتسحون والسلطان سنجر خلال ذلك متغافل عنه فيما يفعله في خُراسان لما وراءه من مدد الخطا وقوتهم.

ثم أوقع الغُزّ سنة ثمان وأربعين بالسلطان سنجر واستولوا على خراسان، وكان هؤلاء الغُزّ مقيمين بما وراء النهر منذ فارقهم ملوك السلجوقيّة، وكانوا يدينون بالاسلام فلمّا استولى الخطا على ما وراء النهر أخرجوهم منها فأقامو بنواحي بَلْخ وأكثروا فيها العيث والفساد، وجمع لهم سنجر وقاتلهم فظفروا به وهزموه وأسروه. وانتثر سلك دولته فلم يعد انتظامه وافترقت أعماله على جماعة من مواليه، واستقلّ حينئذ أتسز بملك خوارزم وأعمالها وأورثها بنيه. ثم استولوا على خُراسان والعراق عندما ركدت ريح السُلْجُوقيّة وكانت لهم بعد ذلك دولة عظيمة نذكر أخبارها مفصَّلة عند دول أهلها، والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

وفاة اتسز وملك ولده ارسلان

ثم توفي أتْسُز بن محمد أنوشتَكين في منتصف احدى وخمسين وخمسمائة لستين سنة من ولايته ، وكان عادلاً في رعيته حسن السيرة فيهم . ولما توفي ملك بعده أرسلان بن أتْسُز فقتل جماعة من عماله وسمل أخاه. ثم بعث بطاعته للسلطان سِنجر عندما هرب من أسر الغُزّ فكتب له بولاية خوارِزم . وقصد الخَطا خوارزم ، وجمع أرسلان للقائهم وسار غير بعيد . ثم طرقه المرض فرجع وأرسل الجيوش لنظر أمير من أمرائه فقاتله الخَطا وهزموه وأسروه، ورجع الى ما وراء النهر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وفاة خوارزم شاه ارسلان وملك ولده سلطان شاه وبعده ولده الآخر تكش وملك طغان شاه بن المؤيد ثم موته وملك ابنه سنجر شاه

ثم توفي خوارِزم شاه أرسلان بن أتسز من مرضه الذي قعد به عن لقاء الخطا ، وملك بعده ابنه الاصغر سلطان شاه محمود في تدبير أمه. وكان ابنه الاكبر علاء الدين تُكُش مقيماً في اقطاعه بالجند فاستنكف من ولاية أخيه الأصغر ، وسار الى ملك الخَطا مستنجداً ، ورغبه في أموال خوارِزم وذخائرها فأنجده بجيش كثيف ، وجاء الى خوارزم ولحق سلطان شاه وأمه بالمؤيد أنه صاحب نيسابور ، والمتغلب عليها بعد سنجر وأهدى له، ورغّبه في الاموال

والذخائر فجمع وسار معه حتى اذا كان على عشرين فرسخاً من خوارزم سار اليه تُكُش وهزمه ، وجيء بالمؤيد أسيراً الى تكش فأمر بقتله ، وقتل بين يديه صبراً . ولحق أخوه سلطان شاه بدَهِستان ، وتبعه تُكُش فملكها عنوةً وهرب سلطان شاه وأخذت أمه فقتلها تكش وعاد الى خوارِزْم ، ولحق سلطان شاه بنيسابور وقد ملكوا طُغان شاه أبا بكر بن ملكهم المؤيد .

ثم سار سلطان شاه من عنده الى غياث الدين ملك الغوريّة فأقام عنده ، وعظم تَحكُّم الخطّا على علاء الدين تُكُش صاحب خوارزْم واشتطوا عليه ، وبعثوا يطلبونه في المال فأنزلهم متفرقين على أهل خوارِزْم ودسّ اليهم فبيّتوهم ولم ينج منهم أحد . ونبذ الى ملك الخطا عهده وسمع ذلك أخوه سلطان شاه فسار من غُزْنَة الى ملك الخطّا يستنجده على أخيه تُكُش ، وأدعى أنّ أهل خوارِزْم يميلون اليه فبعث معه جيشاً كثيفاً من الخطا ، وحاصروا خوارزم فامتنعت وأمر تُكُش باجراء ماء النهر عليهم فكادوا يغرقون ، وأفرجوا عن البلاد ، ولاموا سلطان شاه فيما غرّهم فقال لقائدهم : ابعث معي الجيش لمرو لانتزعها من دينار الغزي الذي استولى عليها من حين فتنتهم مع سِنجِر فبعث معه الجيش ، وسار الى سَرْخَس واقتحمها على الغُزّ الذين بها ، وأفحش في قتلهم واستباحهم ، ولجأ دينار الى القلعة فتحصن بها . ثم سار سلطان شاه الى مرو وملكها وأقام بها ، ورجع الخطا الى ما وراء النهر .

وأقام سلطان شاه بخُراسان يقاتل الغزّ فيصيب منهم كثيراً ، وعجز دينار ملِك الغُزّ عن سَرَخس فسلّمها لطُغان شاه بن المؤيد صاحب نيسابور فولّى علَيها مَراموش من أمرائه .

ولحق دينار بنيسابور فحاصر دينار سلطان شاه ، وعاد الى نيسابور ولحق به مَراموش ، وترك قلعة سَرَخس . ثم ملك نُطوش والتم ، وضاقت الامور على طُغان شاه بنيسابور الى أن مات في محرم سنة اثنتين وثمانين ، وملك ابنه سِنجر شاه ، واستبدّ علَيه مَنكَلي تَكين مملوك جدّه المؤيد . وأنف أهل الدولة من استبداده وتحكّمه فلحق أكثرهم بسلطان شاه في سَرَخس . وسار الملِك دينار من نيسابور في جموع الغُزّ الى كِرْمان فملكها . ثم أساء منكلي تكين السيرة بنيسابور في الرعيّة بالظلم ، وفي أهل الدولة بالقتل فسار اليه خوارِزم شاه علاء الدين تُكُش في ربيع سنة اثنتين وثمانين فحاصره بنيسابور شهرين ، فامتنعت علَيه فعاد الى خَوارِزْم ثم رجع سنة ثلاث وثمانين فحاصرها وملكها على الامان ، وقتل منكلي تكين ، وحمل سِنجر شاه الى خوارِزْم فأنزله بها وأكرمه . ثم بلَغه أنه يكاتب أهل نيسابور فسمله وبقي عنده الى أن مات سنة خمس وتسعين .

قال ابن الاثير : ذكر هذا أبو الحسن بن أبي القاسم البيهقيّ في كتاب مسارب التجارب ، وذكر غيره أن تُكُش بن أرسلان لما أخرج أخاه سلطان شاه من خوارِزم ، وقصد سلطان شاه الى

مرو فملكها من يد الغُزّ ثم ارتجعوها منه ونالوا من عساكره فعبر الى الخَطا واستنجَدَهم، وضمن لهم المال، وجاء بجيوشهم فملك مرو وسَرْخَس ونسا وأبيورد من يد الغُزّ، وصرف الخطا فعاد الى بلادهم. ثم كاتب غياث الدين الغوري وله هُراة وبوشَنْج وباذَغِيس وأعمالها من خُراسان يطلب الخطبة له، ويتوعّده فأجابه غياث الدين بطلب الخطبة منه بمرو وسَرْخَس وما ملكه من بلاد خُراسان.

ثم ساءت سيرة سلطان شاه في خُراسان وصادر رعاياها فجهّز غياث الدين العساكر مع صاحب سَجِسْتان، وأمر ابن أخته بهاء الدين صاحب باميان بالمسير معه فساروا الى هُراة، وخاف سلطان شاه من لقائهم فرجع من هُراة الى مرو حتى انصرم فصل الشتاء ثم أعاد مراسلة غياث الدين فامتعض وكتب الى أخيه شهاب الدين بالخبر، وكان بالهند فرجع مسرعاً اليه، وساروا الى خُراسان واجتمعوا بعسكرهم الاوّل على الطالقان. وجمع سلطان شاه جموعه من الغُزّ وأهل الفساد ونزل بجموع الطالِقان، وتواقفوا كذلك شهرين، وتردّدت الرسل بين سلطان شاه وغياث الدين حتى جنح غياث الدين الى النزول عن بوشَنْج وباذَغِيس، وشهاب الدين ابن أخته وصاحب سَجِستان يجنحان الى الحرب، وغياث الدين يكفهم حتى حضر رسول سلطان شاه عند غياث الدين

لاتمام العقد ، والملوك جميعاً حاضرون فقام [1] الدين العلوي الهودي ، وكان غياث الدين يختصه وهو يدلّ عليه فوقف في وسط الجمع، ونادى بفساد الصلح ، وصرخ ومزّق ثيابه، وحثى التراب على رأسه ، وأفحش لرسول سلطان شاه . وأقبل على غياث الدين وقال كيف تعمد الى ما ملكناه بأسيافنا من الغُزّ والاتراك والسنجريّة فتعطيه هذا الطريد إذ لا يقنع منا أخوه ، وهو الملك بخوارزم ولا بُغزنَة والهند فأطرق غياث الدين ساكناً فنادى في عسكره بالحرب والتقدّم الى مرو الروذ ، وتواقع الفريقان فانهزم سلطان شاه وأخذ أكثر أصحابه أسرى ، ودخل الى مرو في عشرين فارساً .

ولحق الفلّ من عسكره ، وبلغ الخبر الى أخيه تُكُش فسار من خوارزم لاعتراضه ، وقدم العساكر الى جَيحون يمنعون [2] الى الخطا ، وسمع أخوه سلطان شاه بذلك فرجع عن جيجون وقصد غياث الدين ، ولما قدم عليه أمر بتلقيه وأنزله معه في بيته، وأنزل أصحابه عند نظرائهم من أهل دولته، وأقام الى انصرام الشتاء . وكتب أخوه علاء الدين خوارزم الى غياث

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ١١٧ : فبينما الناس مجتمعون في تحرير الأمر وإذ قد أقبل مجد الدين العلوي الهروي إليه، وكان خصيصاً بغياث الدين، بحيث يفعل في ملكه ما يختار له فلا يخالف.

(٢) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل: وأرسل إلى جيحون ثلاثة آلاف فارس يقطعون الطريق على أخيه إن أراد الخطا.

الدين في ردّه اليه ويمدّد فعلاته في بلاده ، وكتب مع ذلك الى نائب غياث الدين بهُراة يتهدّده فامتعض غياث الدين لذلك ، وكتب الى خوارِزْم شاه بأنه مجيرله وشفيع في التجافي عن بلاده وانصافه من وراثة أبيه ، ويطلب مع ذلك الخطبه له بخوارِزْم ، والصهر مع أخيه شهاب الدين فامتعض خوارِزْم شاه ، وكتب اليه يتهدّده ببعض بلاده فجهز غياث الدين اليه العساكر مع ابن اخته أبو غازي الى بهاء الدين سامي صاحب سَجِسْتان ، وبعثهما مع سلطان شاه الى خوارِزْم ، وكتب الى المؤيد أبيه صاحب نيسابور يستنجده ، وكانت ابنته تحت غياث الدين فجمع المؤيد عساكره وخيّم بظاهر نيسابور .

وكان خوارِزْم شاه عزم على لقاء أخيه والغورية ، وسار عن خوارزم فلما سمع خبر المؤيد عاد الى خوارزم ، واحتمل أمواله وذخائره وعبر جيحون الى الخطا وترك خوارزم. وسار أعيانها الى أخيه سلطان شاه والبوغازي ابن اخت غياث الدين فآتوا طاعتهم، وطلبوا الوالي عليهم . وتوفي سلطان شاه منسلخ رمضان سنة تسع ، وعاد البوغازي الى خاله غياث الدين ومعه أصحاب سلطان شاه فاستخدمهم غياث الدين وأقطعهم ، وبلغ وفاة سلطان شاه الى أخيه خوارزم تُكُش فعاد الى خوارزم ، وعاد الشحنة الى بلاد سَرْخَس ومرو فجهز اليهم نائب الغوريّة بمرو عمر المرغني عسكراً ومنعهم منها حتى يستأذن غياث الدين . وأرسل خوارزم شاه الى

غياث في الصلح والصهر في وفد من فقهاء خُراسان، والعلوية يعظمونه ويستجيرون به من خوارزمشاه أن يجيز اليهم الخطا، ويستحثّهم ولا يحسم ذلك إلا صلحه أوسكناه بمرو فأجابهم الى الصلح وعقدوه. وردّ على خوارزم تكش بلاد أخيه، وطمع الغُزّ فيها فعاثوا في نواحيها وجاء خوارزمشاه اليها، ودخل مرو وسَرْخَس فسار الى البورد وتطرق الى طوس وهي للمؤيد ابنه فجمع وسار اليها؛ وعاد خوارزم شاه الى بلده، وأفسد الماء في طريقه واتبعه المؤيد فلم يجد ماء. ثم كرّ عليه خوارزمشاه وقد جهد عسكره العطش فأوقع بهم، وجيء اليه بالمؤيد أسيراً فقتله وعاد الى خوارزم وقام بنيسابور بعد المؤيد ابنه [1] طغان شاه، ورجع اليه خوارزم شاه من قابل فحاصره بنيسابور، وبرز اليه فأسره وملك نيسابور. واحتمل طُغان شاه وعياله وقرابته فأنزلهم بخوارزم. قال ابن الأثير: هذه الرواية مخالفة للاولى، وانما أوردتها ليتأمل الناظر ويستكشف أيها أوضح فيعتمدها والله تعالى أعلم.

وفاة ايلدكز وملك ابنه محمد البهلوان

قد تقدّم لنا في أخبار الدولة السلجوقية ولاية أرسلان شاه ابن طُغرُل في كفالة ايلدكز وابنه محمد البهلوان من بعده، ثم

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ١١٨: فلما قتل ملك نيسابور ملك ما كان له ابنه طغان شاه.

أخيه أُزْبُك أرسلان بن ايلدِكز ، وأنه اعتقل السلطان طغرل ، ثم توفي فولّى مكانه قُطْلُغْ ابن اخيه البهلوان ، فخرج السلطان من محبسه وجمع لقتاله سنة ثمان وثمانين فهزمه ولحق قطلغ بالري ، وبعث الى خوارزم شاه علاء الدين تُكُش فسار اليه ، وندم قُطْلُغ على استدعائه فتحصن منه ببعض قلاعه . وملك خوارزم شاه الريّ وقلعة طُبْرُك ، ورتّب فيها الحامية ، وعاد الى خوارزم لما بلغه أن أخاه سلطان شاه خالفه اليها ، ولما كان ببعض الطريق لقيه الخبر بأن أهل خوارزم منعوا سلطان شاه وعاد خائباً فتمادى الى خوارزم وأقام الى انسلاخ فصل الشتاء . ثم سار الى أخيه سلطان شاه بمرو سنة تسع وثمانين ، وتردّدت الرسل بينهما في الصلح . ثم استأمن اليه نائب أخيه بقلعة سَرْخَس فسار اليها وملكها ، ومات أخوه سلطان شاه سنة تسع فسار خوارزم شاه الى مرو وملكها وملك ابيورد ونسا وطوس وسائر مملكة أخيه، واستولى على خزائنه ، وبعث على ابنه علاء الدين محمد فولاه مرو ، وولى ابنه الكبير ملك شاه نيسابور وذلك آخر تسع وثمانين .

ثم بلغه أن السلطان طغرل أغار على أصحابه بالريّ قُطْلُغ اينانج فبعث اليه بابنه يستنجده ، ووصل اليه رسول الخليفة يشكو من طغرل ، وأقطعه أعماله فسار من نيسابور الى الريّ وتلقاه قطلغ اينانج بطاعته، وسار معه ولقيهم السلطان طغرل قبل استكمال تعبيته، وحمل عليهم بنفسه وأحيط به فقتل في ربيع سنة تسعين،

وبعث خوارزم شاه برأسه الى بغداد ، وملك هَمَذان وبلاد الجبل أجمع . وكان الوزير مؤيد الدين بن القصّاب قد بعثه الخليفة الناصر مدداً لخوارزم شاه في أمره . فرحل اليه واستوحش بن القصّاب فامتنع ببعض الجبال هنالك، وعاد خوارزم شاه الى هَمَذان وسلّمها وأعمالها الى قطلغ اينانج ، واقطع كثيراً منها مماليكه . وقدم عليهم مناجي ، وانزل معه ابنه وعاد الى خوارزم . ثم اختلف مناجي وقطلغ اينانج واقتتلوا سنة احدى وتسعين فانهزم قطلغ .

وكان الوزير ابن القصّاب قد سار الى خَوزِستان فملكها وكثيراً من بلاد فارس ، وقبض على بني شِمْلَة وأمرائها وبعث بهم الى بغداد، وأقام هو يمهّد البلاد فلحق به قُطلَغ اينانج هنالك مهزوماً سليباً. واستنجده على الري فأزاح علله، وسار معه الى هَمَذان فخرج مناجي وابن خوارزم شاه الى الريّ وملك ابن القصّاب همذان في سنة احدى وتسعين وسار الى الري فأجفل الخوارِزميّون أمامهم، وبعث الوزير العساكر في اثرهم حتى لحقوهم بالدامِغَان وبِسطَام وجرجَان ورجعوا عنهم، واستولى الوزير على الريّ . ثم انتقض قُطلُغ اينانج على الوزير ، وامتنع بالري فحاصره الوزير وغلبه عليها ، ولحق اينانج بمدينة ساوة . ورحل الوزير في اتباعه حتى لحقه على دِزْبَنكَرْخ فهزمه ، ونجا اينانج بنفسه .

وسار الوزير الى هَمَذان فأقام بظاهرها ثلاثة أشهر وبعث اليه خوارزم شاه بالنكير على ما فعل ، ويطلب اعادة البلاد فلم يجب

الى ذلك. وسار خوارزم اليه، وتوفي قبل وصوله فقاتل العساكر بعده في شعبان سنة اثنتين وتسعين فهزمهم وأثخن فيهم، وأخرج الوزير من قبره فقطع رأسه وبعث به الى خوارزم لانه كان قتل في المعركة، واستولى على هَمَذان وبعث عسكره الى اصفهان فلكها وأنزل بها ابنه وعاد الى خوارزم. وجاءت عساكر الناصر اثر ذلك مع سيف الدين طغرل فقطع بلاد اللحف من العراق فاستدعاه أهل أصفهان فلكوا البلد، ولحق عسكر خوارزم شاه بصاحبهم. ثم اجتمع مماليك البهلوان وهم أصحاب قُطْلُغ، وقدموا على أنفسهم كُرْكَجَة من أعيانهم، وساروا الى الريّ فملكوها ثم الى اصفهان كذلك. وأرسل كركجة الى الديوان ببغداد يطلب أن يكون الري له مع جوار الريّ وساوة وقم وقاشان وما ينضاف اليها، وتكون اصفهان وهَمَذان وزِنجان ومرو من الديوان فكتب له بذلك والله أعلم.

وفاة ملك شاه بن خوارزم شاه تكش

قد تقدّم لنا أن خَوارزْم شاه تُكُش ولّى ابنه ملك شاه على نيسابور سنة تسع وثمانين وأضاف اليه خُرَاسان، وجعله ولي عهده في الملك فأقام بها الى سنة ثلاث وتسعين. ثم هلك في ربيع منها، وخلّف ابناً اسمه هندوخان، وولّى خَوارِزْم شاه على نيسابور ابنه الآخر قطب الدين الذي كان ولاّه بمرو.

الخطا

انهزام الخطا من الغورية

كان خوارِزم شاه تُكُش لما ملك الريّ وهَمَذان وأصْفَهان، وهزم ابن القصاب وعساكر الخليفة بعث الى الناصر يطلب الخطبة ببغداد فامتعض الناصر لذلك، وأرسل الى غياث الدين ملك غُزْنَة والغور فقصد بلاد خوارِزم شاه فكتب اليه غياث الدين يتهدّده بذلك، فبعث خوارِزم شاه الى الخطا يستنجدهم على غياث الدين ويحذِّرهم أن يملك البلاد كما ملك بَلْخ فسار الخَطَا في عساكرهم، ووصلوا بلاد الغور وراسلوا بهاء الدين سام ملك باميان وهو بِبَلْخ يأمرونه بالخروج عنها، وعاثوا في البلاد وخوارِزم شاه قد قصد هُراة وانتهى الى طوس، واجتمع أمراء الغورية بخُراسان مثل محمد بن بك مقطع الطالقان والحسين بن مَرْميل[1] وخُروس، وجمعوا عساكرهم وكبسوا الخَطا وهزموهم وألحقوهم بجيحون فتقسموا بين القتل والغرق. وبعث ملك الخَطَا الى خوارِزم شاه يتجَنّى عليه في ذلك ويطلب الديّة على القتلى

(١) كذا بالأصل وفي الكامل ج ٩ ص ٢٤١: فانتدب الأمير محمد بن جربك الغوري، وهو مقطع الطالقان من قبل غياث الدين وكان شجاعاً، وكاتب الحسين بن حرميل وكان بقلعة كرزيان، واجتمع معهما الأمير حروش الغوري.

من قومه ، ويجعله السبب في قتلهم فراجع غياث الدين واستعطفه ووافقه على طاعة الخليفة ، واعادة ما أخذه الخَطا من بلاد الإسلام. وأجاب ملك الخَطَـا بأن قومه انما جاؤا لانتزاع بَلْخ من يـد الغورية ، ولم يأتوا لنصرتي وأنا قد دخلت في طاعة غياث الدين فجهّز ملـك الخَطَا عساكره اليـه ، وحاصروه فامتنع فرجعوا عنه بعد أن فني أكثرهم بالقتل . وسار في اثرهم وحاصر بُخاري وأخذ بمخنقها حتى ملكهـا سنة أربع وتسعين فأقام بها مدّة وعاد الى خوارِزْم ، والله تعالى ولي التوفيق .

ملك خوارزم شاه تكين الري وبلاد الجبل

ثم سار خوارِزْ شاه تكين لارتجاع الريّ وبلاد الجبل من يد مُناجِق والبهلوانيّة الذين انتقضوا عليه فهرب مُناجق عن البلاد وتركها ، وملكها خوارِزْم شاه واستدعاه فامتنع من الحضور ، واتبعه فاستأمن أكثر أصحابه ووجعوا عنه ، ولحق هو بقلعة من أعمال مازندران فامتنع بها فبعث خوارِزْم شاه الى الخليفة الناصر فبعث بالخلع له ولولده قُطب الدين ، وكتب له تقليداً بالأعمال التي بيده . ثم سار خوارِزْم شاه لقتال المُلاحدة فافتتح قلعة لهم قريبة من قزوين ، وانتقل الى حصار قلعة ألَموت من قلاعهم فقتل عليها رئيس الشافعيّة بالريّ صدر الدين محمد بن الوزان وكان مقدّماً عنده ولازمه ، ثم عاد الى خوارِزْم فوثب الملاحدة عـلى وزيره

نظام الملك مسعود بن علي فقتلوه، فجهز ابنه قُطب الدين لقتالهم فسار الى قلعة تَرشيش من قلاعهم فحاصرها حتى سألوه في الصلح على مائة ألف دينار يعطونها فامتنع أوّلاً . ثم بلغه مرض أبيه فأجابهم وأخذ منهم المال المذكور وعاد والله اعلم .

وفاة خوارزم شاه

ثم توفي خوارزم شاه تُكُش بن ألب أرسلان بن أتسز بن محمد أنوشتَكين صاحب خوارِزْم بعد ان استولى على الكثير من خُراسان وعلى الريّ وهَمَذان وغيرها من بلاد الجبل ، وكان قد سار من خوارِزم الى نيسابور فمات في طريقه اليها في رمضان سنة ست وتسعين وخمسمائة . وكان عندما اشتدّ مرضه بعث لابنه قطب الدين محمد يخبره بحاله ويستدعيه فوصل بعد موته فبايع له أصحابه بالملك ، ولقبوه علاء الدين لقب أبيه ، وحمل شلو أبيه الى خوارِزْم فدفنه بالمدرسة التي بناها هنالك . وكان تُكُش عادلاً عارفاً بالاصول والفقه على مذهب أبي حنيفة . ولما توفي ابنه علاء الدين محمد كان ولده الآخر علي شاه باصبهان فاستدعاه أخوه محمد فسار اليه ، ونهب أهل اصفهان فخلعه ، وولاه أخوه علي خُراسان فقصد نيسابور ، وبها هندوخان ابن أخيهما ملك شاه منذ ولاّه جده تُكُش عليها بعد أبيه ملك شاه . وكان هندوخان يخاف عمه محمداً لعداوة بينه وبين أبيه ملك شاه ، ولما مات جدّه تُكُش

نهب الكثير من خزائنه ولحق بمرو ، وبلغ وفاة تُكش الى غياث الدين ملك غَزْنة فجلس للعزاء على ما بينهما من العداوة اعظاماً لقدره . ثم جمع هندوخان جموعاً وسار الى خراسان فبعث علاء الدين محمد بن تُكُش العساكر لدفاعه مع جُنْقُر التركي فخام[1] هندوخان عن لقائه ، ولحق بغياث الدين مستنجداً فأكرمه ووعده النصر . ودخل جُنْقُر مدينة مرو ، وبعث بام هَندوخان وولده الى خوارِزم مكرمين فأرسل غياث الدين صاحب غُزْنَة الى محمد بن خربك نائبه بالطالِقّان أن ينبذ الى جُنْقُر العهد ففعل . وسار من الطالِقّان الى مروالروذ فلكها ، وبعث الى جُنْقُر يأمره بالخطبة في مرو لغياث الدين أو يفارقها فبعث اليه جُنْقُر يتهدّده ظاهراً ويسأله سراً ان يستأمن له غياث الدين فقوي طمعه في البلاد بذلك ، وأمر أخاه شهاب الدين بالمسير الى خُراسان والله أعلم .

مُلوك الغُوريّة

استيلاء ملوك الغورية أعمال خوارزم شاه محمد تكش بخراسان وارتجاعه اياها منهم ثم حصاره هراة من أعمالهم

ولما استأمن جُنْقُر[2] نائب مرو الى غياث الدين طمع في أعمال

(١) قوله فخام الخ قال المجد وخام عنه يخيم خيماً وخيماناً وخيوماً وخيومة وخيمومة وخياماً نكص وجبن ا هـ.

(٢) اسمه في الكامل ج ٩ ص ٢٥٣ : جقر التركي ، نائب علاء الدين خوارزم شاه بمرو.

خوارزم شاه بخراسان كما قلناه ، واستدعاه أخوه شهاب الدين للمسير اليها فسار الى غزنة. واستشار غياث الدين نائبه بهراة عمر ابن محمد المرغني في المسير الى خراسان فنهاه عن ذلك ، ووصل أخوه شهاب الدين في عساكر غزنة والغور وسجستان ، وساروا منتصف سبع وتسعين. ووصل كتاب جنقر نائب مرو الى شهاب الدين وهو بقرب الطالقان يحثه للوصول ، وأذن له غياث الدين فسار الى مرو وقاتل العساكر الذين بها من الخوارزمية فغلبهم وأحجرهم بالبلد . وسار بالفيلة الى السور فاستأمن أهل البلد وأطاعوا وخرج جنقر الى شهاب الدين . ثم جاء غياث الدين بعد الفتح الى هراة مكرماً ، وسلم مرو الى هندوخان بن ملك شاه كما وعده . ثم سار الى سرخس فملكها صلحاً وولّى عليها زنكي ابن مسعود من بني عمه ، وأقطعه معها نسا وأبيورد .

ثم سار الى طوس وحاصرها ثلاثاً ، واستأمن اليه أهلها فملكها وبعث الى علي شاه علاء الدين محمد بن تكش بنيسابور في الطاعة فامتنع فسار اليه وقاتل نيسابور من جانب وأخوه شهاب الدين من الجانب الآخر (١) اليه سقوطه ودخلوا نيسابور وملكوها ونادوا بالامان . وجيء بعلي شاه من خوارزم الى غياث الدين

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل: فلم يردهم أحد عن السور، حتى اصعدوا علم غياث الدين إليه. فلما رأى شهاب الدين علم أخيه على السور قال لأصحابه: اقصدوا بنا هذه الناحية، واصعدوا السور من ها هنا، وأشار إلى مكان فيه، فسقط السور متهدماً فضج الناس بالتكبير، وذهل الخوارزميون وأهل البلد، ودخل الغورية البلد وملكوه عنوة.

فأمّنه وأكرمه ، وبعثه بالامراء الخوارزميّة الى هُراة ، وولّى على خُراسان ابن عمه وصهره على ابنته ضياء الدين محمد بن علي الغوري ولقبه علاء الدين ، وأنزله نيسابور في جمع من وجوه الغوريّة ، وأحسن الى أهل نيسابور وسلم علي شاه الى أخيه شهاب الدين ، ورحل الى هُراة .

ثم سار شهاب الدين الى قَهِسْتان(١) وقيل له عن قرية من قراها انهم اسماعيليّة فأمر بقتلهم ، وسبى ذراريهم ونهب أموالهم وخرّب القرية . ثم سار الى حِصْن من أعمال قَهستان وهم اسماعيليّة فملكه بالأمان بعد الحصار ، وولّى عليه بعض الغوريّة فأقام بها الصواب وشعار الاسلام . وبعث صاحب قَهِسْتان الى غياث الدين يشكو من أخيه شهاب الدين ويقول : انّ هذا نقض العهد الذي بيني وبينكم. فما راعه إلّا نزول أخيه شهاب الدين على حصن آخر للاسماعيليّة من أعمال دَهِسْتان فحاصره ، فبعث بعض ثقاته الى شهاب الدين يأمره بالرحيل فامتنع فقطع أطناب سُرادقه ورحل مراغماً ، وقصد الهند مغاضباً لاخيه .

ولما اتصل بعلاء الدين محمد بن تُكُش مسيرهما عن خُراسان كتب الى غياث الدين يعاتبه عن أخذه بلاده ويطلب اعادتها ، ويتوعّده باستنجاد الخطا عليه فماطله بالجواب الى خروج أخيه شهاب الدين من الهند لعجزه عن الحركة لاستيلاء مرض النقرس عليه ،

(١) كذا بالأصل، وكذا في الكامل. وفي معجم البلدان: قوهستان.

فكتب خوارِزْم شاه الى علاء الدين الغوريّ نائب غياث الدين بنيسابور يأمره بالخروج عنها فكتب بذلك الى غياث الدين فأجابه يعده بالنصر. وسار اليه خوارِزْم شاه محمد بن تُكُش آخر سنة سبع وتسعين وخمسمائة. فلما قرب أبيوَرْد هرب هندوخان من موالي غياث الدين، وملك محمد بن تُكُش مدينة مرو ونَسا وأبيورد، وسار الى نيسابور وبها علاء الدين الغوري فحاصرها وأطال حصارها حتى استأمنوا اليه واستحلفوه، وخرجوا اليه فأحسن اليهم وسأل من علاء الدين الغوريّ السعي في الاصلاح بينه وبين غياث الدين فضمن ذلك، وسار الى هراة وبها أقطاعه، وغضب على غياث الدين لقعوده عن انجاده فلم يسر اليه.

وبالغ محمد بن تُكُش في الاحسان الى الحسن بن حَرْميل من أمراء الغوريّة. ثم سار الى سَرْخَس وبها الامير زنكي من قرابة غياث الدين فحاصرها أربعين يوماً وضيّق مخنقها بالحرب وقطع الميرة. ثم سأله زنكي الافراج ليخرج عن الامان فأفرج عنه قليلاً. ثم ملأ البلد من الميرة بما احتاج اليه، وأخرج العاجزين عن الحصار وعاد الى شأنه فندم محمد بن تُكُش ورحل عنها، وجهّز عسكراً لحصارها. وجاء نائب الطالقان مدداً لمحمد بن خُرْبُك واحس بعد أن أرسل اليه بأنه [١] عساكر الخوارزميّة

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٢٥٧: فلما أبعد خوارزم شاه سار محمد بن جربك من الطالقان، وهو من أمراء الغورية وأرسل إلى زنكي أمير سرخس يعرفه أنه يريد يكبس الخوارزميين لئلا ينزعج إذا سمع الغلبة. وسمع الخوارزميون الخبر ففارقوا سرخس.

المجمرة عليه، وأشاع ذلك فأفرجوا عنه. وجاء اليه زُنكي من الطالِقان فخرج معه ابن خُرْبُك الى مرو الروذ، وجبى خراجها وما يجاورها. وبعث اليه محمد بن تُكُش عسكراً نحواً من ثلاثة الاف مع خاله فلقيهم محمد بن خُرْبُك في تسعمائة فارس فهزمهم، وأثخن فيهم قتلًا وأسراً، وغنم سوادهم، وعاد خوارِزم شاه محمد ابن تُكُش الى خوارزم.

وأرسل الى غياث الدين في الصلح فأجابه مع الحسن بن محمد المرغني من كبراء الغوريّة، وغالطه في القول. ولما وصل الحسن المرغني الى خوارزم شاه وأطلع على أمره قبض على الحسن، وسار الى هُراة فحاصرها. وكتب الحسن الى أخيه عمر بن محمد المرغني أمير هراة بالخبر فاستعدّ للحصار. وقد كان لحق بغياث الدين أخوان من حاشية سلطان شاه عمّ محمد بن تكش المتوفي في سَرَخس فأكرمهما غياث الدين وأنزلهما بهُراة فكاتبا محمد بن تكش وداخلاه في تمليكه هراة فسار لذلك، وحاصر البلد وأميرها عمر المرغني، مرّ الى الاخوين وعندهما مفاتيح البلد. وأطلع أخوه الحسن في محبسه على شأن الأخوين في مداخلة محمد بن تكش فبعث الى أخيه عمر بذلك فلم يسعفه، فبعث اليه بخط أحدهما فقبض عليهما وعلى أصحابهما واعتقلهم.

وبعث محمد بن تكش عسكراً الى الطالقان للغارة عليها فظفر بهم ابن خُرْبُك، ولم يفلت منهم أحد. ثم بعث غياث الدين ابن

أخته البوغاني في عسكر من الغوريّة فنزلوا قريباً من عسكر خوارزم شاه محمد بن تُكُش وقطع عنهم الميرة. ثم جاء غياث الدين في عسكر قليل لانّ أكثرها مع أخيه شهاب الدين بالهند وغُزْنَة فنزل قريباً من هُراة، ولم يقدم على خوارزم فلما بلغ الحصار أربعين يوماً، وانهزم أصحاب خوارزم شاه بالطالقان، ونزل غياث الدين وابن أخته البوغاني قريباً منه، وبلغه وصول أخيه شهاب الدين من الهند الى غُزْنَة أجمع الرحيل عن هُراة، وصالح عمر المرغني على مال حمله اليه، وارتحل الى مرو منتصف ثمان وتسعين.

وسار شهاب الدين من غُزْنَة الى بَلْخ، ثم الى بامِيان معتزماً على محاربة خوارزم شاه، والتقت طلائعهما فقتل بين الفريقين خلق. ثم ارتحل خوارزم شاه عن مرو فجفلا الى خوارزم، وقتل الامير سِنْجِر صاحب نيسابور لاتهامه بالمخادعة. وسار شهاب الدين الى طوس، وأقام بها الى انسلاخ الشتاء معتزماً على السير لحصار خوارزم فأتاه الخبر بوفاة أخيه غياث الدين فرجع الى هراة، واستخلف بمرو محمد بن خُرْنُبك فسار اليه جماعة من أمراء خوارزم شاه سنة تسع وتسعين (١) ابن خربك، ولم ينج منهم الا القليل فبعث خوارزم شاه الجيوش مع منصور التركي لقتال ابن

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٢٥٩: فخرج إليهم محمد ليلاً وبيتهم فلم منهم إلا القليل.

خُربك ، ولقيهم على عشرة فراسخ من مرو ، وقاتلهم فهزموه ، ودخل مرو منهزماً فحاصروه خمسة عشر يوماً .

ثم استأمن اليهم وخرج فقتلوه . وأسف ذلك شهاب الدين ، وتردّدت الرسل بينه وبين خوارزم شاه في الصلح فلم يتمّ . وأراد العود الى غُزْنَة فاستعمل على هُراة ابن اخته البوغاني ، وملك علاء الدين بن أبي علي الغوري مدينة مرو وزَكُوزَة وبلد الغور وأعمال خُراسان ، وفوّض اليه في مملكته ، وعاد غُزْنَة سنة تسع وتسعين وخمسمائة . ثم عاد خوارزم شاه الى هُراة منتصف سنة ستمائة ، وبها البوغاني ابن أخت شهاب الدين الغوري ، وكان شهاب الدين قد سار عن غُزْنَة الى لهاوون[1] غازياً فحصر خوارزم شاه هراة الى منسلخ شعبان . وهلك في الحصار بين الفريقين خلق . وكان الحسن بن حرميل مقيماً بخَوْزِستان وهي اقطاعه فأرسل الى خوارزم شاه يخادعه ، ويطلب منه عسكراً يستلمون الفيلة وخزانة شهاب الدين فبعث اليه ألف فارس فاعترضهم هو والحسن ابن محمد المرغني فلم ينج منهم الا القليل ، فندم خوارزم شاه على انفاذ العسكر ، وبعث الى البوغاني أن يظهر بعض طاعته ويفرج عنه الحصار فامتنع . ثم أدركه المرض فخشي أن يشغله المرض عن حماية البلد فيملكها عليه خوارزم شاه فرجع الى اجابته ، واستحلفه

(١) كذا ، وهي لهاور كما في الكامل ، أو لاهور اسمها في عصرنا الحاضر .

وأهدى ، وخرج له ليلقاه ويعطيه بعض الخدمة فمات في طريقه . وارتحل خوارزم شاه عن البلد ، وأحرق المجانيق وسار الى سَرْخَس فأقام بها .

حصار شهاب الدين خوارزم شاه وانهزامه أمام الخطا

ولما بلغ شهاب الدين بغُزْنَة ما فعل خوارزم شاه بهُراة وموت نائبه بها البوغاني ابن أخته ، وكان غازياً الى الهند فانثنى عزمه ، وسار الى خوارزم وكان خوارزم شاه قد سار من سَرْخَس ، وأقام بظاهر مرو ، فلما بلغه خبر مسيره أجفل راجعاً الى خوارزم فسبق شهاب الدين اليها وأجرى الماء في السَّبْخَة حواليها ، وجاء شهاب الدين فأقام أربعين يوماً يطرق المسالك حتى أمكنه الوصول . ثم التقوا واقتتلوا ، وقتل بين الفريقين خلق كان منهم الحسن المرغني من الغوريّة ، وأسر جماعة من الخوارزميّة فقتلهم شهاب الدين صبراً . وبعث خوارزم شاه الى الخطا فيما وراء النهر يستنجدهم على شهاب الدين فجمعوا وساروا الى بلاد الغور ، وبلغ ذلك شهاب الدين فسار اليهم فلقيهم بالمفازة فهزموه وحصروه في ايد حوى حتى صالحهم ، وخلص الى الطالقان ، وقد كثر الارجاف بموته فتلقاه الحسن بن حَرْميل صاحب الطالقان وأزاح علله .

ثم سار الى غُزْنَة واحتمل ابن حرميل معه خشيةً من شدّة جزعه أن يلحق بخوارزم شاه ويطيعه فولّاه حجابته ، وسار معه

ووجد الخلاف قد وقع بين أمرائه لما بلغهم من الارجاف بموته حسبما مرّ في أخبار الغوريّة فأصلح من غُزنَة ومن الهند، وتأهب للرجوع لخوارزم شاه، وقد وقع في خبر هزيمته أمام الخطا بالمفازة وجه آخر ذكرناه هنالك، وهو انه فرّق عساكره في المفازة لقلة الماء فأوقع بهم الخَطا منفردين. وجاء في الساقة فقاتلهم أربعة أيام مصابراً. وبعث اليه صاحب سَمُرقند من عسكر الخطا وكان مسلماً، وأشار عليه بالتهويل عليهم فبعث عسكراً من الليل، وجاؤا من الغد متسائلين وخوّفهم صاحب سمرقند بوصول المدد لشهاب الدين فرجعوا الى الصلح، وخلص هو من تلك الواقعة، وذلك سنة احدى وستمائة، ومات شهاب الدين أثر ذلك.

استيلاء خوارزم شاه على بلاد الغورية بخراسان

كان نائب الغورية بهُراة من خُراسان الحسن بن حَرْميل، ولما قتل شهاب الدين الغوري في رمضان سنة اثنتين وستمائة قام بأمرهم غياث الدين محمود ابن أخيه غياث الدين، واستولى على الغور من يد علاء الدين محمد بن أبي علي سرور كاه. ولما بلغ وفاة شهاب الدين الى الحسن بن حرميل نائب هُراة جمع أعيان البلد وقاضيهم واستحلفهم على الامتناع من خوارزم شاه ظاهراً، ودسّ إلى خوارزم شاه بالطاعة، ويطلب عسكراً يمتنع به من الغورية وبعث ابنه رهينة في ذلك فأنفذ اليه عسكراً من نيسابور، وأمرهم بطاعة ابن حَرْميل،

وغياث الدين خلال ذلك يكاتب ابن حرميل ويطلبه في الطاعة فيراوغه بالمواعدة. وبلغه خبره مع خوارزم شاه فاعتزم على النهوض اليه، واستشار ابن حرميل بهراة أعيان البلد يختبر ما عندهم فقال له علي بن عبد الخالق مدرّس أمية وناظر الاوقاف: الرأي صدق الطاعة لغياث الدين. فقال انّ ما أخشاه فسر اليه وتوثق لي منه ففعل. وسار الى غياث الدين فأطلعه عن الجلي من أمر ابن حرميل، ووعده الثورة به.

وكتب غياث الدين الى نائبه بمرو يستدعيه فتوقف، وحمله أهل مرو على المسير فسار فخلع عليه غياث الدين وأقطعه. واستدعى غياث الدين أيضاً نائبه بالطالقان أميران قطر فتوقف فأقطع الطالقان سونج مملوك ابنه المعروف بأمير شكار، وبعث الى ابن حرميل مع ابن زياد بالخلع، ووصل معه رسوله يستنجز خطبته له فمطله أياماً حتى وصل عسكر خوارزم شاه من نيسابور، ووصل في اثرهم خوارزم شاه، وانتهى الى بلخ على اربعة فراسخ فندم ابن حرميل عندما عاين مصدوقة الطاعة. وعرف عسكر خوارزم شاه بأن صاحبهم قد صالح غياث الدين، وترك له البلاد فانصرفوا الى صاحبهم، وبعث اليه معهم بالهدايا.

ولما سمع غياث الدين بوصول عسكر خوارزم شاه الى هراة أخذ اقطاع بن حرميل، وقبض على أصحابه واستصفى أمواله وما كان له من الذخيرة في حروبان. وتبين ابن حرميل في أهل هراة الميل الى غياث الدين والانحراف عنه، وخشي من ثورتهم به فأظهر

طاعة غياث الدين. وجمع أهل البلد على مكاتبته بذلك فكتبوا جميعاً وأخرج الرسول بالكتاب ودسّ اليه بأن يلحق عسكر خوارزم شاه فيردّهم اليه، فوصل الرسول بهم لرابع يومه. ولقيهم ابن حرميل وأدخلهم البلد، وسمل ابن زياد الفقيه، وأخرج صاعداً القاضي وشيع الغورية فلحقوا بغياث الدين، وسلم البلد لعسكر خوارزم شاه. وبعث غياث الدين عسكره مع علي بن أبي علي، وسار معه أميران صاحب الطالقان، وكان منحرفاً عن غياث الدين بسبب عزله فدسّ الى ابن حرميل بأن يكبسه وواعده الهزيمة، وحلف له على ذلك فكبسه ابن حرميل فانهزم عسكر غياث الدين وأسر كثير من أمرائه.

وشن ابن حرميل الغارة على بلاد باذغيس وغيرها من البلاد واعتزم غياث الدين على المسير بنفسه الى هراة، ثم شغل عن ذلك بأمر غُزنَة ومسير صاحب باميان الى الدوس فأقصر، واستظهر خوارزم شاه الى بلخ، وقد كان عند مقتل شهاب الدين أطلق الغورية الذين كان أسرهم في المصاف على خوارزم، وخيرهم في المقام عنده أو اللحاق بقومهم، واستصفى من أكابرهم، محمد بن بشير وأقطعه فلما قصد الآن بلخ قدم اليها أخوه علي شاه في العساكر، وبرز اليه عمر بن الحسن أميرها فدافعه عنها، ونزل على أربعة فراسخ وأرسل الى أخيه خوارزم شاه بذلك فسار اليه في ذي القعدة من السنة، ونزل على بلخ وحاصرها وهم ينتظرون

المدد من صاحبهم باميان بن بهاء الدين، وقد شغلوا بغزنة فحاصرها خوارزم شاه اربعين يوماً ، ولم يظفر فبعث محمد بن بشير الغوري الى عماد الدين عمر بن الحسن نائبها يستنزله فامتنع فاعتزم خوارزم شاه على المسير الى هراة.

ثم بلغه أنّ أولاد بهاء الدين أمراء بامِيان ساروا الى غُزْنَة وأسرهم تاج الدين الذر فأعاد محمد بن بشير الى عمر بن الحسين فأجاب الى طاعة خوارِزم شاه والخطبة له، وخرج اليه فأعاده الى بلده وذلك في ربيع سنة ثلاث وستمائة. ثم سار خوارزم شاه الى جَوْزَجان وبها عليّ بن علي فنزل له عنها، وسلمها خوارزم شاه الى ابن خَرْمِيل لانها كانت من أقطاعه، وبعث الى غياث الدين عمر بن الحسين من بَلخ يستدعيه. ثم قبض عليه وبعث به الى خوارزم شاه، وسار الى بلخ فاستولى عليها واستخلف عليها جَغْرِي التركي وعاد الى بلاده.

استيلاء خوارزم شاه على ترمذ وتسليمها للخطا

ولما أخذ خوارزم شاه بَلْخ سار عنها الى تِرْمِذ، وبها عماد الدين عُمَرُ بن الُحسَيْن الذي كان صاحب بَلْخ، وقدم اليه محمد بن علي ابن بشير بالعذر عن شأن أبيه، وأنه انما بعثه لخوارزم مكرّماً وهو أعظم خواصّه ويمده بالاطلاع فاتهم[1] على صاحبها أمره، واجتمع عليه خوارزم شاه والخطا من جميع جوانبه، وأسر اصحابه ملوك

(١) كذا، ومقتضى السياق: فابهم.

بامِيَان بغُزْنَه فاستأمن الى خوارزم شاه وملك منه البلد، ثم سلمها الى الخطا وهم على كفرهم ليسالموه حتى يملك وينتزعها منهم فكان كما قدّره، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء خوارزم شاه على الطالقان

ولما ملك خوارزم شاه ترمذ سار الى الطالقان وبها سونج، واستناب على الطالقان أمير شكار نائب غياث الدين محمود، وبعث اليه يستميله فامتنع وبرز للحرب حتى تراءى الجمعان فنزل عن فرسه ونبذ سلاحه، وجاء متطارحاً في العفو عنه فأعرض عنه وملك الطالقان واستولى على ما فيها، وبعث اليه سونج واستناب على الطالقان بعض أصحابه، وسار الى قلاع كالومين ويهوار، وبها حسام الدين عليّ بن عليّ فقاتله ودفعه على ناحيته. وسار الى هُراة وخيّم بظاهرها. وجاء رسول غياث الدين بالهدايا والتحف، ثم جاء ابن حرميل في جمع من عساكر خوارزم شاه الى أسفَراين فملكها على الامان في صفر من السنة، وبعث الى صاحب سَجِسْتان وهو حرب بن محمد بن ابراهيم من عقب خلف الذي كان ملكها منذ عهد ابن سَبُكْتَكِين في الطاعة لخوارزم والخطبة له فامتنع، وقصد خوارزم شاه وهو على هراة القاضي صاعد بن الفضل الذي أخرجه ابن حرميل، ولحق بغياث الدين فلما جاء الى خوارزم شاه رماه ابن حرميل بالميل الى الغوريّة فحبسه بقلعة زوزن، وولي

القضاء بهُراة الصفي أبا بكر بن محمد السَرْخَسِي ، وكان ينوب عن صاعد وابنه في القضاء .

استيلاء خوارزم شاه على مازندران وأعمالها

ثم توفي صاحب مازِنْدَران حسام الدين أَرْدَشير ، وولي مكانه ابنه الاكبر ، وطرد أخاه الاوسط فقصد جِرْجان ، وبها الملك علي شاه ينوب عن أخيه خوارزم شاه محمد بن تُكُش واستنجده فاستأذن أخاه وسار معه من جِرْجان سنة ثلاث وستمائة ، ومات الاخ الذي ولي على مازندران ووليَ مكانه أخوهما الأصغر ، ووصل علي شاه ، ومعه أخو صاحب مازندران فعاثوا في البلاد ، وامتنع الملك بالقلاع مثل سارِيَة ، وآمِد فملكوها من يده ، وخطب فيها لخوارزم شاه ، وعاد علي شاه الى جِرْجان ، وترك ابن صاحب مازندران الذي استجار به ملكاً في تلك البلاد وأخوه بقلعة كوره .

استيلاء خوارزم شاه على ما وراء النهر وقتاله من الخطا وأسره وخلاصه

قد تقدّم لنا كيف تغلّب الخَطا على ما وراء النهر منذ هزموا سِنْجِرْ بن ملك شاه ، وكانوا أمّة بادية يسكنون الخيام التي يسمونها الخَرْكاوات ، وهم على دين المجوسيّة كما كانوا . وكانوا موطنين بنواحي أوزكِنده وبلاد ساغون وكاشْغَر ، وكان سلطان

سَمَرْقَنْد وبُخارى من ملوك الخانيَّة الأقدمين عريقا في الاسلام والبيت والملك ، ويلقَّب خان خاقان ، بمعنى سلطان السلاطين . وكان الخطا وضعوا الجِزْية على بلاد المسلمين فيما وراء النهر ، وكثر عيثهم وثقلت وطأتهم فأنف صاحب بُخارى من تحكمهم ، وبعث الى خوارزم شاه يستصرخه لمحاربتهم على أن يحمل اليه ما يحملونه للخَطا ، وتكون له الخطبة والسكة . وبعث في ذلك وجوه بخارى وسَمَرْقَنْد فحلفوا له ووضعوا رهائنهم عنده فتجهَّز لذلك ، وولَّى أخاه علي شاه على طَبَرِسْتان مع جرجان ، وولَّى على نيسابور الامير كزْلُك خان من أخوا له وأعيان دولته ، وندب معه عسكراً . وولَّى على قلعة زُوزَن أمين الدين أبا بكر ، وكان أصله حمّالا فارتفع وترقّى في الرتب الى ملك كِرْمان ، وولّى على مدينة الجام الامير جُلْدُك ، وأقرَّ على هُراة الحسن بن حَرْميل ، وأنزل معه ألفاً من المقاتلة ، واستناب في مرو وسَرْخَس وغيرهما . وصالح غياث الدين محموداً على ما بيده من بلاد الغور وكَرْمَسِين ، وجمع عساكر وسار الى خوارزم فتجهَّز منها ، وعبر جيْحون واجتمع بسلطان بُخارى وسَمَرْقَند ، وزحف اليه الخطا فتواقعوا معه مرّات ، وبقيت الحرب بينهم سجالا .

ثم انهزم المسلمون وأسر خوارزم شاه ، ورجعت العساكر الى خوارزم مفلولة ، وقد أرجف بموت السلطان . وكان كزلك خان نائب نيسابور محاصراً لهُراة ، ومعه صاحب زوزن فرجعا الى بلادهما

وأصلح كُزْلُك خان سور نيسابور، واستكثر من الجند والاقوات وحدّثته نفسه بالاستبداد، وبلغ خبر الارجاف الى أخيه علي شاه بطَبَرِسْتان فدعا لنفسه، وقطع خطبة أخيه. وكان مع خوارزم شاه حين أسر أمير من أمرائه يعرف بابن مسعود فتحيّل للسلطان بأن أظهر نفسه في صورته، واتفقا على دعائه باسم السلطان، وأوهما صاحبهما الذي أسرهما أنّ ابن مسعود هو السلطان، وأنّ خوارزم شاه خديمه فأوجب ذلك الخطائي حقه، وعظمه لاعتقاده انه السلطان. وطلب منه بعد أيام أن يبعث ذلك الخديم لاهله، وهو خوارزم شاه في الحقيقة ليعرف أهله بخبره، ويأتيه بالمال فيدفعه اليه فأذن له الخطائي في ذلك وأطلقه بكتابه، ولحق بخوارزم ودخل اليها في يوم مشهود. وعلم بما فعله أخوه علي شاه بطَبَرستان، وكزلك خان بنيسابور، وبلغهما خبر خلاصه فهرب كزلك خان الى العراق، ولحق علي شاه بغياث الدين محمود فأكرمه وأنزله. وسار خوارزم شاه الى نيسابور فأصلح أمورها وولى عليها، وسار الى هُراة فنزل عليها وعسكره محاصر دونها، وذلك سنة أربع وستمائة والله أعلم.

مقتل ابن حرميل ثم استيلاء خوارزم شاه على هراة

كان ابن حوميل قد تنكر لعسكر خرارزم شاه الذين كانوا عنده بهراة لسوء سيرتهم، فلما عبر خوارزم شاه جَيْحون، واشتغل

بقتال الخطا قبض ابن حرميل على العسكر وحبسهم ، وبعث الى خوارزم شاه يعتذر ويشكو من فعلهم فكتب اليه يستحسن فعله ، ويأمره بانفاذ ذلك العسكر اليه ينتفع بهم في قتال الخطا ، وكتب الى جلدك بن طغرل صاحب الجام أن يسير اليه بهراة ثقة بفعله وحسن سريرته . وأعلم ابن حرميل بذلك ، ودس الى جلدك بالتحيل على ابن حرميل بكل وجه والقبض عليه فسار في الفي مقاتل ، وكان يهوى ولاية هراة لان اباه طغرل كان والياً بها لسنجر ، فلما قارب هراة أمر ابن حرميل الناس بالخروج لتلقيه ، وخرج هو في اثرهم بعد ان اشار عليه وزيره خواجا الصاحب فلم يقبل . فلما التقى جلدك وابن حرميل ترجلا عن فرسيهما للسلام ، وأحاط أصحاب جلدك بابن حرميل وقبضوا عليه ، وانهزم اصحابه الى المدينة فأغلق الوزير خواجا الابواب ، واستعد للحصار ، وأظهر دعوة غياث الدين محمود .

وجاء جُلدُك فناداه من السور وتهدّده بقتل ابن حَرْميل ، وجاء بابن حرميل حتى أمره بتسليم البلد لجلدك فأبى وأساء الردّ عليه وعلى جلدك فقتل ابن حرميل ، وكتب الى خوارزم شاه بالخبر فبعث خوارزم شاه الى كُزْلُك خان نائب نيسابور والى أمين الدين أبي بكر نائب زوزن بالمسير الى جلدك ، وحصار هُراة معه فسار لذلك في عشرة آلاف فارس . وحاصروها فامتنعت وكان خلال ذلك ما قدّمناه من انهزام خوارزم شاه أمام الخطا وأسرهم اياه .

ثم تخلّص ولحق بخوارزم، ثم جاء الى نيسابور ولحق بالعساكر الذين يحاصرون هراة فأحسن الى أمرائهم لصبرهم، وبعث الى الوزير خواجا في تسليم البلد لانه كان يعد عسكره بذلك حين وصوله فامتنع وأساء الردّ، فشد خوارزم في حصاره، وضجر أهل المدينة وجهدهم الحصار وتحدّثوا في الثورة فبعث جماعة من الجند للقبض عليه فثاروا بالبلد، وشعر جماعة العسكر من خارج بذلك فرجعوا الى السور واقتحموه، وملك البلد عَنْوَةً وجيء بالوزير أسيراً الى خوارزم شاه فأمر بقتله فقتل، وكان ذلك سنه خمس وستمائة، وولى على هراة خاله أمير ملك وعاد وقد استقرّ له أمر خراسان.

استيلاء خوارزم شاه على بيروز كوه[1] وسائر بلاد خراسان

لما ملك خوارزم شاه هراة وولى عليها خاله أمير ملك، وعاد الى خوارزم بعث الى أمير ملك يأمره [2] بيروزكوه، وكان بها غياث الدين محمود بن غياث الدين، وقد لحق به أخوه علي شاه، وأقام عنده فسار أمير ملك، وبعث اليه محمود بطاعته، ونزل اليه فقبض عليه أمير ملك وعلى علي شاه أخي خوارزم شاه وقتلهما جميعاً

---

(١) بيروزكوه من المشترك بكسر الباء الموحدة وسكون المثناة التحتية وضم الراء المهملة وواو ثم زاء معجمة وضم الكاف ثم واو وهاء، معناه الجبل الأزرق، وهي قلعة حصينة دار مملكة جبال الغور ا هـ من أبي الفداء.

(٢) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٢٩٣ : وبلغ أخاه علي شاه فخافه وسار على طريق قهستان ملتجئاً إلى غياث الدين محمود الغوري صاحب فيروزكوه فتلقاه وأكرمه وأنزله عنده.

سنة خمس وستمائة. وصارت خُراسان كلها لخوارزم شاه محمد بن تُكُش، وانقرض أمر الغورية، وكانت دولتهم من أعظم الدول وأحسنها، والله تعالى ولي التوفيق.

هزيمة الخطا

ولما استقر أمر خراسان لخوارزم شاه واستنفر وعبر نهر جيحون وسار اليه الخطا وقد احتفلوا للقائه، وملكهم يومئذ طانيكوه ابن مائة سنة ونحوها، وكان مظفراً مجرباً بصيراً بالحرب. واجتمع خوارزم شاه وصاحب سمرقند وبخارى وتراجعوا سنة ست وستمائة ووقعت بينهم حروب لم يعهد مثلها. ثم انهزم الخطا واخذ فيهم القتل كل مأخذ واسر ملكهم طانيكوه فأكرمه خوارزم شاه واجلسه معه على سريره، وبعث به الى خوارزم، وسار هو الى ما وراء النهر، وملكها مدينة مدينة الى اوركند، وانزل نوّابه فيها وعاد الى خوارزم ومعه صاحب سمرقند فأصهر اليه خوارزم شاه بأخته، وردّه الى سمرقند، وبعث معه شحنة يكون بسمرقند على ما كان أيام الخطا، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء.

انتقاض صاحب سمرقند

ولما عاد صاحب سَمَرْقَنْد الى بلده، أقام شِحْنَة خوارزم شاه، وعسكره معه نحواً من سنة. ثم استقبح سيرتهم وتنكّر لهم، وأمر

أهل البلاد فثاروا بهم وقتلوهم في كل مذهب، وهمّ بقتل زوجته اخت خوارزم شاه فغلقت الأبواب دونه، واسترجته فتركها وبعث الى ملك الخطا بالطاعة. وبلغ الخبر الى خوارزم شاه فامتعض، وهمّ بقتل من في بلده من أهل سمرقند. ثم انثني عن ذلك وأمر عساكره بالتوجه الى ما وراء النهر فخرجوا أرسالاً، وهو في أثرهم، وعبر بهم النهر ونزل على سمرقند وحاصرها، ونصب عليها الآلات، وملكها عنوة واستباحها ثلاثاً وقتل فيها نحواً من مائتي ألف، واعتصم صاحبها بالقلعة. ثم حاصرها وملكها عنوةً وقتل صاحبها صبراً في جماعة من اقرانه. ومحا آثار الخانية، وأنزل في سائر البلاد وراء النهر نوّابه، وعاد الى خوارزم، والله تعالى ولي النصر بمنّه وفضله.

استلحام الخطا

قد تقدّم لنا وصول طائفة من أمم الترك الى بلاد تُركِستَان وكاشغر، وانتشارهم فيما وراء النهر، واستخدموا للملوك الخانيّة أصحاب تركستان. وكان أرسلان خان محمد بن سليمان ينزلهم مسالح على الريف فيما بينه وبين الصين، ولهم على ذلك الاقطاعات والجرايات. وكان يعاقبهم على ما يقع منهم من الفساد والعيث في البلاد ويوقع بهم ففرّوا من بلاده، وابتغوا عنه فسيحاً من الارض، ونزلوا بلاد ساغون. ثم خرج كوخان ملك الترك الاعظم من الصين

سنة اثنتين وعشرين ، وخمسمائة فسارت اليه أمم الخطا، ولقيهم الخان محمود بن محمد بن سليمان بن داود بقراخان ، وهو ابن أخت السلطان سنجر فهزموه ، وبعث بالصريخ الى خاله سنجر فاستنفر ملوك خراسان وعساكر المسلمين ، وعبر جَيْحُون للقائهم في صفر سنة ست وثلاثين ، ولقيه أمم الترك والخطا فهزموه وأثخنوا في المسلمين وأسرت زوجة السلطان سنجر . ثم أطلقها كوخان بعد ذلك ، وملك الترك بلاد ما وراء النهر.

ثم مات كوخان ملكهم سنة سبع وثلاثين ، ووليت بعده ابنته وماتت قريباً ، وملكت من بعدها أمها زوجة كوخان وابنه محمد ، ثم انقرض ملكهم. واستولى الخطا على ما وراء النهر الى ان غلبهم عليه خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش كما قدّمنا . وكانت قد خرجت قبل ذلك خارجة عظيمة من الترك يُعرفون بالتتَر ، ونزلوا في حدود الصين وراء تركستان ، وكان ملكهم كِشلي خان ، ووقع بينه وبين الخطا من العداوة والحروب ما يقع بين الأمم المتجاورة فلما بلغهم ما فعله خوارزم شاه بالخطا أرادوا الانتقام منهم ، وزحف كِشلي في أمم التتر الى الخطا لينتهز الفرصة فيهم فبعث الخطا الى خوارزم شاه يتلطفون له ، ويسألونه النصر من عدوّهم قبل أن يستحكم أمرهم وتضيق عنه قدرته وقدرتهم . وبعث اليه كِشلي يغريه بهم ، وأن يتركه واياهم ، ويحلف له على مسالمة بلاده فسار خوارزم شاه يوهم كل واحد من الفريقين انه

له، وأقام منتبذاً عنها حتى تواقعوا. وانهزم الخطا فنال التتر عليهم، واستلحموهم في كل وجه، ولم ينج منهم الا القليل فتحصّنوا بين جبال في نواحي تركستان، وقليل آخرون لحقوا بخوارزم شاه كانوا معه.

وبعث خوارزم شاه الى كشلي خان ملك التتر يعتدّ عليه بهزيمة الخطا، وانها إنما كانت بمظاهرته فأظهر له الاعتراف وشكره، ثم نازعه في بلادهم وأملاكهم، وسار لحربهم. ثم علم انه لا طاقة له بهم فكث يراوغهم على اللقاء، وكشلي خان يعذله في ذلك وهو يغالطه، واستولى كشلي خان خلال ذلك على كاشغر وبلاد تركستان وساغون. ثم عمد خوارزم شاه الى الشاش وفَرْغَانة وإسْحَان وكاشان وما حولها من المدن التي لم يكن فيَ بلاد الله انزه منها، ولا أحسن عمارة فجلا أهلها الى بلاد الاسلام، وخرّب جميعها خوفاً أن يملكها التتر ثم اختلف التتر بعد ذلك، وخرج على كشلي طائفة أخرى منهم يعرفون بالمغل [1] وملكهم جَنْكِزْخان فشغل كشلي خان بحربهم عن خوارزم شاه فعبر النهر الى خراسان وترك خوارزم شاه الى أن كان أمره مانذكره والله تعالى أعلم.

استيلاء خوارزم شاه على كرمان ومكران والسند

قد تقدّم لنا أنه كان من جملة أمراء خوارزم شاه تكش

(١) كذا، وهم المغول.

تاج الدين أبو بكر (١) وانه كان كرّياً للدواب. ثم ترقّت به الاحوال الى ان صار «سروان» لتكش، والسروان مقدّم الجهاد. ثم تقدّم عنده لجلده واستماتته، وصار أميراً وولاه قلعة زوزن. ثم تقدّم عند علاء الدين محمد بن تكش، واختصه فأشار عليه بطلب بلاد كرمان لما كانت مجاورة لوطنه فبعث معه عسكراً، وسار الى كرمان سنة اثنتي عشرة، وصاحبها يومئذ محمد بن حرب أبي الفضل الذي كان صاحب سجستان أيام السلطان سنجر فغلبه على بلاده وملكها. ثم سار الى كرمان وملكها كلها الى السند من نواحي كابُل، وسار الى هُرْمُز من مدن فارس بساحل البحر، واسم صاحبها مَكِيك فأطاعه وخطب لخوارزم شاه، وضمن مالاً يحمله، وخِطب له بقلمات وبعض عمان من وراء النهر لانهم كانوا يتقربون الى صاحب هُرْمُز بالطاعة، وتسير سفنهم بالتجار الى هرمز لانه المرسى العظيم الذي تسافر اليه التجار من الهند والصين. وكان بين صاحب هرمز وصاحب كيش مغاورات وفتن، وكل واحد منهما ينهى مراكب بلاده أن ترسي ببلاد الآخر. وكان خوارزم شاه يطيف بنواحي سمرقند خشية أن يقصد التتر أصحاب كِشلي خان بلاده.

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ص ٣٠٨: وكان من جملة أمراء أبيه أمير اسمه أبو بكر ولقبه تاج الدين، وهو الذي فتح كرمان.

استيلاء خوارزم شاه على غزنة وأعمالها

ولما استولى خوارزم شاه محمد بن تكش على بلاد خراسان، وملك باميان وغيرها، وبعث تاج الدين ألْدُز صاحب غزنة، وقد تغلب عليها بعد ملوك الغورية. وقد تقدّم في أخبار دولتهم فبعث اليه في الخطبة له، وأشار عليه كبير دولته قُطْلُغ تكين مولى شهاب الدين الغوري وسائر أصحابه بالاجابة الى ذلك فخطب له ونقش السكة باسمه. وسار الى قنصيرا، وترك قطلغ تكين بغزنة نائباً عنه فبعث قطلغ تكين لخوارزم شاه يستدعيه فأعدّ له السير، وملك غزنة وقلعتها، وقتل الغورية الذين وجدوا بها خصوصاً الاتراك. وبلغ الخبر المرز فهرب الى أساون. ثم أحضر خوارزم شاه قطلغ ووبّخه على قلّة وفائه لصاحبه، وصادره على ثلاثين حملاً من أصناف الاموال والامتعة، وأربعمائة مملوك. ثم قتله وعاد الى خوارزم وذلك سنة ثلاث عشرة وستمائة، وقيل سنة اثنتي عشرة بعد ان استخلف عليها ابنه جلال الدين منكبرس والله أعلم بغيبه وأحكم.

استيلاء خوارزم شاه على بلاد الجبل

كان خوارزم شاه محمد بن تُكُش قد ملك الرُها وهَمَذان وبلاد الجبل كلها أعوام تسعين وخمسمائة من يد قُطْلُغ أبنايخ بقيَّة أمراء السُلجوقيَّة، ونازعه فيها ابن القصّاب وزير الخليفة الناصر فغلبه

خوارِزْم شاه وقتله كما مرّ في أخباره. ثم شغل عنها تُكُش الى أن توفي، وذلك سنة سبع وتسعين، وصار ملكه لابنه علاء الدين محمد بن تكش. وتغلّب موالي البهلوان على بلاد الجبل واحداً بعد واحد، ونصبوا أزْبُك بن مولاهم البهلوان. ثم انتقضوا عليه وخطبوا لخوارزم شاه، وكان آخر من ولي منهم أغمش، وأقام بها مدّة يخطب لعلاء الدين محمد بن تكش خوارزم شاه. ثم وثب عليه بعض الباطِنيَّة، وطمع أزبك بن محمد البهلوان بقية الدولة السلجوقية بأذْرَبيجان وأرّان في الاستيلاء على أعمال أصفهان والريّ وهمذان وسائر بلاد الجبل. وطمع سعد بن زنكي صاحب فارس ويقال سعد بن دكلا في الاستيلاء عليها أيضاً كذلك. وسار في العساكر فملك أزبك اصفهان بمالأة أهلها، وملك سعد الريّ وقُزوين وسِمْنان. وطار الخبر الى خوارزم شاه بأصفهان وسمرْقند فسار في العساكر سنة أربع عشرة وستمائة في مائة ألف بعد أن جهّز العساكر فيما وراء النهر وبثغور الترك، وانتهى الى قومِس ففارق العساكر، وسار متجرّداً في اثني عشر ألفاً. فلما ظفرت مقدّمته بأهل الريّ، وسَعْدٌ مخيم بظاهرها ركب للقتال يظنّ انه السلطان. ثم تبيّنَ الآلة والمركب، واستيقن انه السلطان فولّت عساكره منهزمة، وحصل في أسر السلطان.

وبلغ الخبر الى أزْبُك بأصفهان فسار الى هَمَذان. ثم عدل عن الطريق في خواصه، وركب الأوعار الى أذربيجان، وبعث

وزيره أبا القاسم بن علي بالاعتذار فبعث اليه في الطاعة فأجابه ، وحمله الضريبة فاعتذر بقتال الكرج . وأما سعد صاحب فارس فبلغ الخبر بأسره الى ابنه نصرة الدين أبي بكر فهاج بخلعان أبيه ، وأطلق السلطان سعداً على أن يعطيه قلعة اصْطَخر ، ويحمل اليه ثلث الخراج ، وزوّجه بعض قرابته ، وبعث معه من رجال الدولة من يقبض اصْطَخر . فلما وصل الى شيراز وجد ابنه منتقضاً فداخله بعض أمراء ابنه ، وفتح له باب شيراز ، ودخل على ابنه واستولى على ملكه ، وخطب لخوارزم شاه . واستولى خوارزم شاه على شاور وقزوين وجرجان وأَبْهَر وهمذان وأصفهان وقُمّ وقاشان وسائر بلاد الجبل . واستولى عليها كلها من أصحابها ، واختص الامير طأيين بهَمَذان ، وولى ابنه ركن الدولة ياورشاه عليهم جميعاً ، وجعل معه جمال الدين محمد بن سابق الشاوي وزيراً .

طلب الخطبة وامتناع الخليفة منها

ثم بعد ذلك بعث خوارزم شاه محمد بن تكش الى بغداد يطلب الخطبة بها من الخليفة كما كانت لبني سُلجوق ، وذلك سنة أربع عشرة . وذلك لما رأى من استفحال أمره ، واتساع ملكه فامتنع الخليفة من ذلك ، وبعث في الاعتذار عنه الشيخ شهاب الدين السَهْرَوَرْدي فأكبر السلطان مقدمه ، وقام لتلقيه . وأول ما بدأ به الكلام على حديث الخطبة ببغداد ، وجلس على ركبتيه

لاستماعه . ثم تكلم وأطال وأجاد ، وعرض بالموعظة في معاملة النبي صلى الله عليه وسلم في بني العباس وغيرهم والتعرّض لاذايتهم فقال السلطان : حاشا لله من ذلك ، وأنا ما آذيت أحداً منهم ، وأمير المؤمنين كان أولى مني بموعظة الشيخ ، فقد بلغني أنّ في محبسه جماعة من بني العباس مخلدين يتناسلون ، فقال الشيخ : الخليفة اذا حبس أحداً للاصلاح لا يعترض عليه فيه فما بويع إلا للنظر في المصالح . ثم ودّعه السلطان ، ورجع الى بغداد[1] . وكان ذلك قبل أن يسير الى العراق[2] . فلما استولى على بلاد الجبل وفرغ من أمرها سار الى بغداد ، وانتهى الى عَقَبة سراباد وأصابه هنالك ثلج عظيم أهلك الحيوانات ، وعفن أيدي الرجال وأرجلهم حتى قطعوها ، ووصله هنالك شهاب الدين السَهْرَوَرْدي ، ووعظه فندم ورجع عن قصده فدخل الى خوارزم سنة خمس عشرة ، والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق .

قسمة السلطان خوارزم شاه الملك بين ولده

ولما استكمل السلطان خوارزم شاه محمد بن تكش ملكه بالاستيلاء على الريّ وبلاد الجبل ، قسّم أعمال ملكه بين ولده فجعل خوارزم وخُراسان ومازِندَران لوليّ عهده قُطب الدين أولاغ

(١) أي رجع الشيخ إلى بغداد.
(٢) أي يسير السلطان إلى العراق.

شاه، وإنما كان وليّ عهده دون ابنه الاكبر جلال الدين مُنْكِبَرِس لانّ أمّ قطب الدين وأمّ السلطان، وهي تركمان خاتون من قبيلة واحدة، وهم: فياروت من شعوب يَمَك احدى بطون الخطا فكانت تُركُمان خاتون متحكمة في ابنها السلطان محمد بن تكش وجعل غزنة وباميان والغور وبُسْت ومُكْسا مادومان من الهند لابنه جلال الدين منكبرس. وكِرْمان وكيش ومَكْرمان لابنه غياث الدين يترشاه. وبلاد الجبل لابنه ركن الدين غورشاه كما قدّمناه. وأذن لهم في ضرب النوب الخمس له، وهي دَبادِب صغار تُقرع عقب الصلوات الخمس. واختصّ هو بنوبة سمّاها نوبة ذي القرنين سبع وعشرين دبدابة كانت مصنوعة من الذهب والفضة مرصّعة بالجواهر. هكذا ذكر الوزير محمد ابن أحمد النسوي المنشىء كاتب جلال الدين منكبرس في أخباره وأخبار أبيه علاء الدين محمد بن تكش، وعلى كتابه اعتمدت دون غيره لانه أعرف بأخبارهما.

وكانتَ كِرْمان ومَكْرِمان وكيش لمؤيد الملك قوام الدين. وهلك متصرف السلطان من العراق فأقطعها لابنه غياث الدين كما قلناه. وكان الملك هذا سوقةً فأصبح ملكاً. وأصل خبره أنّ أمّه كانت داية في دار نصرة الدين محمد بن أتز صاحب زوزن، ونشأ في بيته واستخدمه وسفر عنه للسلطان فسعى به أنه من الباطنيه. ثم رجع فخوّفه من السلطان بذلك فانقطع نصرة الدين

الى الاسماعيلية، وتحصّن ببعض قلاع زوزن، وكتب قوام الدين بذلك الى السلطان فجعل اليه وزارة زوزن، وولاية جبايتها. ولم يزل يخادع صاحبه نصرة الدين الى أن رجع فتمكن من السلطان وسمله. ثم طمع قوام الدين في ملك كرمان، وكان بها أسير من بقية الملك دينار، وأمدّه السلطان بعسكر من خراسان فملك كِرْمان وحسن موقع ذلك من السلطان فلقبه مؤيد الملك وجعلها في أقطاعه. ولما رجع السلطان من العراق وقد نفقت جماله بعث اليه بأربعة آلاف بختي، وتوفي أثر ذلك فردّ السلطان أعماله الى ابنه غياث الدين كما قلناه، وحمل من تركته الى السلطان سبعون حملاً من الذهب خلا الاصناف.

أخبار تركمان خاتون أم السلطان محمد بن تكش

كانت تُركمان خاتون أمّ السلطان محمد بن تكش من قبيلة بَياروت من شعوب الترك يمك من الخطا، وهي بنت خان جَنْكش من ملوكهم، تزوّجها السلطان خوارزم شاه تكش فولدت له السلطان محمداً. فلما ملك لحق بها طوائف يمك ومن جاورهم من الترك، واستظهرت بهم وتحكمت في الدولة فلم يملك السلطان معها أمره.

وكانت تولي في النواحي من جهتها كما يولي السلطان، وتحكم بين الناس وتنصف من الظلامات وتقدم على الفتك والقتل

وتقيم معاهد الخير والصدقة في البلاد، وكان لها سبعة من الموقعين يكتبون عنها، واذا عارض توقيعها لتوقيع السلطان عمل بالمتأخر منها. وكان لقبها : خُداوَندجِهان أي صاحبة العالم، وتوقيعها في الكتاب عصمة الدنيا والدين أولاغ تركان ملك نساء العالمين. وعلامتها اعتصمت بالله وحده، تكتبها بقلم غليظ وتجوّد كتابتها أن تزوّر عليها، واستوزرت للسلطان وزيره نظام الملك، وكان مستخدماً لها فلما عزل السلطان وزيره أشارت عليه بوزارة نظام الملك هذا فوزر له على كره من السلطان، وتحكم في الدولة بتحكمها. ثم تنكر له السلطان لامور بلغته عنه، وعزله فاستمرّ على وزارتها، وكان شأنه في الدولة أكبر. وشكاه اليه بعض الولاة بنواحي خوارزم أنه صادره فأمر بعض خواصه بقتله فمنعته تُركان من ذلك، وبقي على حاله وعجز السلطان عن انفاذ أمره فيه، والله يؤيد بنصره من يشاء.



خروج التتر وغلبهم على ما وراء النهر وفرار السلطان أمامهم من خراسان

ولما عاد السلطان من العراق سنة خمس عشرة كما قدّمناه، واستقرّ بنيسابور وفدت عليه رسل جَنكِزخان بهدية من المعدِنَين،

ونوافج المسك وحجر اليشم والثياب الطائية التي تنسج من وَبَر الإبل البيض، ويخبر أنه ملك الصين وما يليها من بلاد الترك، ويسأل الموادعة والاذن للتجار من الجانبين في التردّد في متاجرهم وكان في خطابه اطراء السلطان بأنه مثل أعزّ أولاده فاستنكف السلطان من ذلك، واستدعى محموداً الخوارزمي من الرسل، واصطنعه ليكون عيناً له على جَنكِزخان، واستخبره على ما قاله في كتابه من ملكه الصين، واستيلائه على مدينة طوغاج فصدق ذلك، وانكر عليه الخطاب بالولد.

وسأله عن مقدار العساكر فغشّه وقلّلها، وصرفهم السلطان بما طلبوه من الموادعة والاذن للتجار فوصل بعض التجار من بلادهم الى إنزار، وبها نيال خان ابن خان السلطان في عشرين ألفاً من العساكر فشره الى أموالهم، وخاطب السلطان بأنهم عيون وليسوا بتجار فأمره بالاحتياط عليهم فقتلهم خفية، وأخذ أموالهم. وفشا الخبر الى جنكزخان فبعث بالنكير الى السلطان في نقض العهد. وان كان فعل نيال افتياتاً فبعث اليه يتهدّده على ذلك فقتل السلطان الرسل، وبلغ الخبر الى جنكزخان فسار في العساكر. واعتزم السلطان أن يحصّن سَمَرْقَنْد بالأسوار فجبى لذلك خراج سنتين، وجبى ثالثة استخدم بها الفرسان. وسار الى أحياء جنكزخان فكبسهم وهو غائب عنها في محاربة كِشلي خان فغنم ورجع، وأتبعهم ابن جَنكِزخان فكانت بينهم واقعة عظيمة هلك

فيها كثير من الفريقين .

ولجأ خوارزم شاه الى جَيْحون فأقام عليه ينتظر شأن التتر . ثم عاجله جنكزخان فأجفل وتركها وفرّق عساكره في مدن ما وراء النهر : إنزار وبُخارى وسَمَرْقَند وتِرمِذ وجَنْد . وأنزل آبنايخ من كبراء أمرائه وحجاب دولته في بخارى . وجاء جنكزخان الى إنزار فحاصرها وملكها غلاباً ، وأسر أميرها نيال خان الذي قتل التجار وأذاب الفِضّة في أذنيه وعينيه . ثم حاصر بخارى وملكها على الامان ، وقاتلوا معه القلعة حتى ملكوها . ثم غدر بهم وقتلهم وسلبهم وخرّبها . ورحل جنكزخان الى سمرقند ففعلوا فيها مثل ذلك سنة تسع عشرة وستمائة . ثم كتب كتباً على لسان الأمراء قرابة أمّ السلطان يستدعون جنكزخان ، ويعدها بزيادة خُراسان الى خوارزم ، وبعث من يستخلفه على ذلك . وبعث الكتب مع من يتعرّض بها السلطان فلما قرأها ارتاب بأمّه وبقرابتها .

أجفال السلطان خوارزم شاه الى خراسان ثم الى طبرستان ومهلكه

ولما بلغ السلطان استيلاء جنكزخان على إنزار وبخارى وسمرقند ، وجاءه نائب بُخارى ناجياً في الفلّ أجفل حينئذ وعبر جَيْحون . ورجع عنه طوائف الخطا الذين كانوا معه ، وعلاء الدين صاحب قيدر ، وتخاذل الناس وسرّح جَنكزخان العساكر في

أثره نحواً من عشرين ألفاً يسميهم التَّتر المغرّبة لسيرهم نحو غرب خُراسان فتوغّلوا في البلاد ، وانتهوا الى بلاد بَيجور واكتسحوا كل ما مرّوا عليه. ووصل السلطان الى نيسابور فلم يثبت بها ، ودخل الى ناحية العراق بعد أن أودع أمواله . قال المنشىء في كتابه حدثني الامير تاج الدين البُسطامي قال : لما انتهى خوارزم شاه في مسيره الى العراق استحضرني وبين يديه عشرة صناديق مملوءةً لآلىء لا تعرف قيمتها ، وقال في اثنين منها فيهما من الجواهر ما يساوي خراج الارض بأسرها ، وأمرني بحملها الى قلعة أَزْدَهْن من أحصن قلاع الارض، وأخذت خط يد الموالي بوصولها ثم أخذها التتر بعد ذلك حين ملكوا العراق انتهى .

ولما ارتحل خوارزم شاه من نيسابور قصد مازَندَران والتتر في أثره ، ثم انتهى الى أعمال هَمَذان فكبسوه هناك ، ونجا الى بلاد الجبل ، وقتل وزيره عماد الملك محمد بن نظام الملك وأقام هو بساحل البحر بقرية عند الفُرَيضَة يصلي ويقرأ ويعاهد الله على حسن السيرة . ثم كبسه التتر أخرى فركب البحر وخاضوا في أثره فغلبهم الماء ، ورجعوا ووصلوا الى جزيرة في بحر طُبَرِسْتان فأقام بها وطرقه المرض فكان جماعة من أهل مازندران يمرضونه ويحمل اليه كثيراً من حاجته فيوقع لحاملها بالولايات والاقطاع ، وأمضى ابنه جلال الدين بعد ذلك جميعها . ثم هلك سنة سبع عشرة وستمائة ودفن بتلك الجزيرة لاحدى وعشرين سنة من ملكه بعد أن عهد

لابنه جلال الدين مُنكبِرس، وخلع ابنه الاصغر قطب الدين أولاغ شاه.

ولما بلغ خبر اجفاله الى أمه تركمان خاتون بخوارزم خرجت هاربة بعد أن قتلت نحواً من عشرين من الملوك والاكابر المحبوسين هنالك، ولحقت بقلعة إيلان من قلاع مازندران فلما رجع التتر المغربة عن السلطان خوارزم شاه بعد ان خاض بحر طَبَرِسْتان الى الجزيرة التي مات بها فقصدوا مازندران، وملكوا قلاعها على ما فيها من الامتناع. ولقد كان فتحها تأخر الى سنة تسعين أيام سليمان بن عبد الملك فملكوها واحدة واحدة، وحاصروا تركمان خاتون في قلعة إيلان الى ان ملكوا القلعة صلحاً وأسروها. وقال ابن الاثير انهم لقوها في طريقها الى مازندران فأحاطوا بها وأسروها ومن كان معها من بنات السلطان، وتزوّجهنّ التتر، وتزوج دوش خان بن جَنكزخان باحداهن، وبقيت تُركمان خاتون أسيرة عندهن في خمول وذل. وكانت تحضر سماط جَنكِزخان كاحداهن، وتحمل قوتها منه. وكان نظام الملك وزير السلطان مع أمّه تركمان خاتون فحصل في قبضة جنكزخان، وكان عندهم معظماً لما بلغهم من تنكر السلطان له. وكانوا يشاورونه في امر الجباية فلما استولى دوش خان على خوارزم، وجاء بحرم السلطان الذين كانوا بها، وفيهن مغنيات فوهب احداهن لبعض خدمه فمنعت نفسها منه، ولجأت للوزير نظام الملك فشكاه ذلك الخادم لجنكزخان ورماه بالجارية فأحضره جنكزخان وعدد عليه خيانة استاذه وقتله.

تاريخ العلامة

ابن خلدون

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر
في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم
من ذوي السلطان الاكبر
وهو تاريخ وحيد عصره
العلامة عبد الرحمن
ابن خلدون المغربي

المجلد الخامس

من تاريخ العلامة ابن خلدون

القسم الثاني

٩

دار الكتاب اللبناني بيروت



بسم الله الرحمن الرحيم

المجلد الخامس

القسم الثاني

من تاريخ العلامة ابن خلدون

مسير التتر بعد مهلك خوارزم شاه من العراق الى أذربيجان وما وراءها من البلاد هناك

ولما وصل التتر الى الري في طلب خوارزم شاه محمد بن تكش سنة سبع عشرة وستمائة ولم يجدوه عادوا الى همذان ، واكتسحوا ما مروا عليه ، وأخرج اليهم أهل همذان ما حضرهم من الاموال والثياب والدواب فأمنوهم . ثم ساروا الى زنجان ففعلوا كذلك ؛ ثم الى قزوين فامتنعوا منهم فحاصروها وملكوها عنوة واستباحوها ويقال ان القتلى بقزوين زادوا على أربعين ألفاً . ثم هجم عليهم

الشتاء فساروا الى أَذَرْبِيجان على شأنهم من القتل والاكتساح، وصاحبها يومئذ أُزْبُك بن البَهْلَوان، مقيم بتَبْرِيز عاكف على لذاته فراسلهم وصانعهم، وانصرفوا الى بوقان ليشتوا بالسواحل. ومرّوا الى بلاد الكرج فجمعوا لقتالهم فهزمهم التَتَر وأثخنوا فيهم فبعثوا الى أُزْبُك صاحب أذَرْبِيجان، وإلى الاشرف بن العادل بن أيوب صاحب خلاط والجزيرة يطلبون اتصال أيديهم على مدافعة التَتَر. وانضاف الى التَتَر أقْوَش من موالي أزْبك، وإليه[1] جموع من التُركُمان والاكراد. وسار مع التَتَر الى الكرج واكتسحوا بلادهم وانتهوا الى بـلقين[2]. وسار اليهم الكرج فلقيهم أقوش أوّلاً. ثم لقيهم التَتَر فانهزم الكرج، وقتل منهم ما لا يحصى وذلك في ذي القعدة من سنة سبع عشرة.

ثم عاد التَتَر الى مَرَاغة ومرّوا بتبريز فصانعهم صاحبها كعادته، وانتهوا الى مَرَاغة فقاتلوها أياماً وبها امرأة تملكها. ثم ملكوها في صفر سنة ثماني عشرة واستباحوها. ثم رحلوا عنها الى مدينة إربل وبها مُظَفَّر الدين [3] فاستمد بدر الدين صاحب الموصل فامدّه بالعساكر. ثم همّ بالخروج لحفظ الدروب على بلاده فجاءت كتب الخليفة الناصر اليهم جميعاً بالمسير الى دَقوقا ليقيموا بها مع

---

(١) أي وانضاف إليه.
(٢) كذا، وهي البليقان كما في معجم البلدان.
(٣) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٣٤١: مظفر الدين صاحب أربل.

عساكره ، ويدافع عن العراق . وبعث معهم بَشْتَمر كبير أمرائه ، وجعل المقدّم على الجميع مظفر الدين صاحب إربل فخاموا عن لقاء التتر وخام التتر عن لقائهم وساروا الى هَمَذان ، وكان لهم بها شِحْنَةٌ منذ ملكوها أوّلاً فطالبوه بفرض المال على أهلها . وكان رئيس هَمَذان شريفاً عَلَوياً قديم الرياسة بها فحضّهم على ذلك فضجروا وأساؤا الردّ عليه ، وأخرجوا الشِحْنَة وقاتلوا التتر ، وغضب العلوي فتسلل عنهم الى قلعة بقربها فامتنع ، وزحف التَتر الى البلد فملكوه عنوةً واستباحوه واستلحموا أهله .

ثم عادوا الى أذَربيجان فملكوا أرْدَبيل واستباحوها وخربوها وساروا الى تبريز وقد فارقها أزْبك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأرّان ، وقصد لقُجوان وبعث بأهله وحرمه الى خَويّ فراراً من التتر لعجزه وانهماكه فقام بأمر تبريز شمس الدين الطُغرائي ، وجمع أهل البلد واستعدّ للحصار فأرسل اليه التتر في المصانعة فصانعهم وساروا الى مدينة سُوى فاستباحوها وخرّبوها ، وساروا الى بَيْلَقان فحاصروها وبعثوا الى أهل البلد رجلاً من أكابرهم يقرّر معهم في المصانعة والصلح فقتلوه فأسرى التتر في حصارهم وملكوا البلد عنوة في رمضان سنة ثمان عشرة واستلحموا أهلها وأفحشوا في القتل والمثلة ، حتى بقروا البطون على الأجنة واستباحوا جميع الضاحية قتلاً ونهباً وتخريباً . ثم ساروا الى قاعدة أرّان وهي كِنْجَة ورأوا امتناعها فطلبوا المصانعة من أهلها فصانعوهم .

ولما فرغوا من أعمال أذربيجان وأران ساروا الى بلاد الكرج وكانوا قد جمعوا لهم واستمدّوا ووقعوا في حدود بلادهم فقاتلهم التتر فهزموهم الى بَلِقين قاعدة ملكهم فجمعوا هنالك؛ ثم خاموا عن لقائهم لما رأوا من اقتحامهم المضائق والجبال فعادوا الى بلقين واستولى التتر على نواحيها فخربوها كيف شاؤا ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة الاوعار والدوسرات فعادوا عنها، ثم قصدوا دربند[1] شروان، وحاصروا مدينة سماهي[2] وفتكوا في أهلها ووصلوا الى السور فعالوه باشلاء القتلى حتى ساموه[3] واقتحموا البلد فأهلكوا كل من فيه. ثم قصدوا الدربند فلم يطيقوا عبوره فأرسلوا الى شروان في الصلح فبعث اليهم رجالا من أصحابه فقتلوا بعضهم، واتخذوا الباقين أذلاء فسلكوا بهم دربند شروانه وخرجوا الى الارض الفسيحة، وبها أمم القُفجاق واللان واللكن وطوائف من الترك مسلمون وكفار فأوقعوا بتلك الطوائف واكتسحوا عامّة البسائط، وقاتلهم قفجاق واللان ودافعوهم.

ولم يطق التَتَر مغالبتهم، ورجعوا وبعثوا الى القُفجاق وهم واثقون بمسالمتهم فأوقعوا بهم، وجرّ من كان بعيداً منهم الى بلاد

(١) كذا، وهي مدينة دربند. كما في الكامل وفي معجم البلدان.

(٢) كذا، وهي مدينة شماخي كما في الكامل وفي معجم البلدان.

(٣) كذا، وفي الكامل ج ٩ ص ٣٤٠: ثم إن التتر صعدوا سورها بالسلاليم، وقيل بل جمعوا كثيراً من الجمال والبقر والغنم وغير ذلك ومن قتلى الناس منهم وممن قتل من غيرهم، وألقوا بعضه فوق بعض فصار مثل الغل وصعدوا عليه.

الروس ، واعتصم آخرون بالجبال والغياض . واستولى التتر على بلادهم وانتهوا الى مدينتهم الكبرى سراي على بحر نيطش المتصل بخليج القسطنطينيّة وهي مادّتهم ، وفيها تجارتهم فملكها التتر وافترق أهلها في الجبال . وركب بعضهم الى بلاد الروم في ايالة بني قليج أرسلان . ثم سار التتر سنة عشر وستمائة من بلاد قفجاق الى بلاد الروس المجاورة لها ، وهي بلاد فسيحة ، وأهلها يدينون بالنصرانية فساروا الى مدافعتهم في تخوم بلادهم ، ومعهم جموع من القفجاق سافروا اليهم فاستطرد لهم التتر مراحل . ثم كرّوا عليهم وهم غارون فطاردهم القفجاق والروم أياماً . ثم انهزموا وأثخن التتر فيهم قتلاً وسبياً ونهباً . وركبوا السفن هاربين الى بلاد المسلمين ، وتركوا بلادهم فاكتسحها التتر . ثم عادوا اليها وقصدوا بلغار أواخر السنة ، واجتمع أهلها وساروا للقائهم بعد أن أكمنوا لهم ثم استطردوا أمامهم ، وخرج عليهم الكمناء من خلفهم فلم ينج منهم الا القليل ، وارتحلوا عائدين الى خنكزخان بأرض الطالقان ورجع القفجاق الى بلادهم واستقرّوا فيها . والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء .

أخبار خراسان بعد مهلك خوارزم شاه

قد كنا قدّمنا مهلك خوارزم شاه ، ومسير هؤلاء التتر المغرّبة في طلبه ، ثم انتهائهم بعد مهلكه الى النواحي التي ذكرناها .

وكان جنكزخان بعد اجفال خوارزم شاه من جَيْحون ، وهو بسَمَرْقند قد بعث عسكراً الى تِرْمِذ ، فساروا منها الى كلات من أحصن القلاع الى جانب جَيْحون فاستولوا عليها وأوسعوها نهباً وسيّر عسكراً آخر الى فَرْغَانة ، وكذلك عسكراً آخر الى خوارزم ، وعسكراً آخر الى خَوْزِستان فعبر عسكر خُراسان الى بَلْخ وملكوها على الأمان سنة سبع وستمائة ، ولم يعرضوا لها بعيث ، وأنزلوا شحنتهم بها . ثم ساروا الى زَوزَن وايدخوى وفاراب فملكوها وولوا عليها ، ولم يعرضوا لاهلها بأذى وانما استنفروهم لقتال البلد معهم .

ثم ساروا الى الطالقان ، وهي ولاية متسعة فقصدوا قلعة صور كوه من أمنع بلادها فحاصروها ستة أشهر ، وامتنعت عليهم فسار اليهم جنكزخان بنفسه ، وحاصرها أربعة أشهر أخرى حتى اذا رأى امتناعها أمر بنقل الخشب والتراب ، حتى اجتمع منه تلّ مشرف على البلد ، واستيقن أهل البلد الهلكة واجتمعوا وفتحوا الباب ، وصدقوا الحملة فنجا الخيّالة وتفرّقوا في الجبال والشعاب وقتل الرجالة ، ودخل التتر البلد فاستَباحوها . ثم بعث جنكزخان صهره قفجاق قوين الى خُراسان وبِرواسا وقاتلوها فامتنعت عليهم ، وقتل قفجاق قوين فأقاموا على حصارها وملكوها عنوة واستَباحوها وخرّبوها . ويقال قتل فيها أزيد من سبعين الفاً وجمع من الجثث عدداً كبيراً فكان كالتلال العظيمة وكان

رؤساؤها بني حمزة بخوارزم منذ ملكها خوارزم شاه تكُش، فعاد اليها اختيار الدين جنكي بن عمر بن حمزة وبنو عمه وضبطوها .

ثم بعثَ جنكزخان ابنه في العساكر الى مدينة مرو، واستَنفر أهل البلاد التي ملكوها من قبل مثل بَلْخ وأخواتها . وكان الناجون من هذه الوقائع كلها قد لحقوا بمرو، واجتمع بها ما يزيد على مائتي ألف، وعسكروا بظاهرها لا يشكون في الغلب . فلما قاتلهم التتر صابروهم فوجدوا في مصابرتهم ما لم يحتسبوه فولوا منهزمين . وأثخن التتر فيهم، ثم حاصروا البلد خمسة أيام، وبعثوا الى أميرها يستميلونه للنزول عنها فاستأمن اليهم وخرج فأكرموه أولا . ثم أمروا باحضار جنده للعرض حتى استكملوا وقبضوا عليهم .

ثم استكتبوا رؤساء البلد وتجاره وصنّاعه على طبقاتهم . وخرج أهل البلد جميعاً، وجلس لهم جنكزخان على كرسي من ذهب[1] فقتل الجند في صعيد واحد، وقسّم العامّة رجالاً وأطفالاً ونساءً بين بين الجند فاقتسموهم، وأخذوا أموالهم . وامتحنوهم في طلب المال ونبشوا القبور في طلبه . ثم أحرقوا البلد وتربة السلطان سِنْجر . ثم استلحم في اليوم الرابع أهل البلد جميعاً . يقال كانوا سبعمائة . ثم ساروا الى نيسابور وحاصروها خمساً . ثم اقتحموها

(١) كذا، وفي الكامل ج ٩ ص ٣٤٢ : وأمر أن يحضر أولئك الأجناد الذين قبض عليهم فاحضروا وضربت رقابهم صبرا، والناس ينتظرون إليهم ويبكون.

عنوةً وفعلوا فيها فعلهم في مرو أو أشدّ . ثم بعثوا عسكراً الى طوس وفعلوا فيها مثل ذلك وخرّبوها ، وخرّبوا مشهد علي بن موسى الرضا . ثم ساروا الى هُراة وهي من أمنع البلاد فحاصروها عشراً وملكوها ، وأمنوا من بقي من أهلها ، وأنزلوا عندهم شِحنة وساروا لقتال جلال الدين بن خوارزم شاه كما يذكر بعد فوثب أهل هُراة على الشحنة وقتلوه . فلما رجع التتر منهزمين اقتحموا البلد واستَباحوه وخرّبوه وأحرقوه ونهبوا نواحيه أجمع ، وعادوا الى جنكزخان بالطالقان وهو يرسل السرايا في نواحي خُراسان حتى أتوا عليها تخريباً ؛ وكان ذلك كله سنة سبع عشرة ، وبقيت خُراسان خراباً . وتراجع أهلها بعض الشيء فكانوا فوضى ، واستَبدّ آخرون في بعض مدنها كما نذكر ذلك في أماكنه، والله أعلم .

أخبار السلطان جلال الدين منكبرس مع التتر بعد مهلك خوارزم شاه واستقراره بغزنة

ولما توفي السلطان خوارِزم شاه محمد بن تُكُش بجزيرة بحر طَبَرِستان ركب ولده البحر الى خوارِزم يقدمهم كبيرهم جلال الدين مَنكبرس ، وقد كان وثب بها بعد منصرف تُرْكُمان خاتون أمّ خوارزم شاه رجل من العيّارين فضبطها وأساء السيرة ، وانطلقت اليها أيدي العيّارين . ووصل بعض نواب الديوان فأشاعوا موت

السلطان ففرّ العيّارون . ثم جاء جلال الدين واخوته واجتمع الناس اليهم فكانوا معهم سبعة آلاف من العساكر ، أكثرهم اليارونيّة قرابة أمّ خوارزم شاه فمالوا الى أولاغ شاه ، وكان ابن أختهم كما مرّ وشاوروا في الوثوب بجلال الدين وخلعه ، ونُمي الخبر اليه فسار الى خُراسان في ثلثمائة فارس ، وسلك المفازة الى بلدِ نسا فلقي هناك رصداً من التتر فهزمهم ولجأ فلّهم الى نَسَا ، وكان بها الامير اختيار زُنكي بن محمد بن عمر بن حمزة قد رجع اليها من خوارزم كما قدّمناه ، وضبطها فاستلحم فلّ التتر وبلغ . وبعث الى جلال الدين بالمدد فسار الى نيسابور . ثم وصلت عساكر التتر الى خوارزم بعد ثلاث من مسير جلال الدين فأجفل أولاغ واخوته وساروا في اتباعه ومرّوا بنَسا فسار معهم اختيار الدين صاحبها ، واتبعتهم عساكر التتر فأدركوهم بنواحي خُراسان وكبسوهم فقتل أولاغ شاه وأخوه انشاه ، واستولى التتر على ما كان معهم من الأموال والذخائر ، وافترقت في أيدي الجند والفلاحين فبيعت بأبخس الاثمان .

ورجع اختيار الدين زُنكي الى نَسَا فاستبدّ بها ، ولم يسم الى مراسم الملك . وكتب له جلال الدين بولايتها فراجع أحوال الملك . ثم بلغ الخبر الى جلال الدين بزحف التتر الى نيسابور ، وأنّ جَنكِزخان بالطالِقان ، فسار الي نيسابور ومن نيسابور الى بست ، واتبعه نائب هراة الامير ملك خان ابن خال السلطان

خوارِزم شاه في عشرة آلاف فارس هارباً امام التتر وقصد سَجِسْتان فامتنعت عليه فرجع ، واستدعاه جلال الدين فسار اليه واجتمعوا فكبسوا التتر ، وهم محاصرون قلعة قَنْدَهار فاستلحموهم ، ولم يفلت منهم أحد فرجع جلال الدين الى غُزنة ، وكانت قد استولى عليها اختيار الدين قَرْنُبوشت صاحب الغور ، عندما ساروا اليها وعندما قدم جلال الدين صريخاً عن أمير ملك خان من سَجِسْتان فخالفه قَرنُبوشت اليها ، وملكها فثار به صلاح الدين النسائي والي قلعتها ، وقتله وملك غُزنَة ، وكان بها رضا الملك شرف الدين بن أمير ملك خان ، ففتك به رضا الملك واستبد بغُزْنَة . فلما ظفر جلال الدين بالتتر على قَنْدَهار رجع الى غُزنَة فقتله وأوطنها وذلك سنة ثمان عشرة .

استيلاء التتر على مدينة خوارزم وتخريبها

قد كنا قدّمنا انّ جنكِزْخان بعدما أجفل خوارِزم شاه من جيحون بعث عساكره الى النواحي ، وبعث الى مدينة خوارِزم عسكراً عظيماً لعظمها لانها كرسي الملك وموضع العساكر فسارت عساكر التتر اليها مع ابنه جُنطاي وأوكطاي فحاصروها خمسة أشهر ، ونصبوا عليها الآلات فامتنعت فاستمدّوا عليها جَنكِزخان فأمدّهم بالعساكر متلاحقة فزحفوا اليها وملكوا جانباً منها . وما زالوا يملكونها ناحية ناحية الى أن استوعبوها ، ثم فتحوا السد

الذي يمنع ماء جَيْحون عنها فسار اليها جيحون ففرّقها . وانقسم أهلها بين السيف والغرق ، هكذا قال ابن الاثير . وقال النسائي الكاتب انّ دَوشَن خان بن جَنْكِزْخان عرض عليهم الامانْ فخرجوا اليه فقتلهم أجمعين، وذلك في محرّم سنة سبع عشرة . ولما فرغ التتر من خُراسان وخوارِزْم رجعوا الى ملكهم جَنْكِزْخان بالطالِقان .

خبر آبنايخ نائب بخارى وتغلبه على خراسان ثم فراره أمام التتر الى الري

كان آبنايخ أمير الامراء والحجاب أيام خوارِزْم شاه وولاه نائباً بُخارى فلما ملكها التتر عليه كما قلناه أجفل الى المفازة ، وخرج منها الى نواحي نَسَا ، وراسله اختيار الدين صاحبها يعرضها عليه للدخول عنده فأبى فوصله وأمدّه . وكان رئيس بشخوان من قرى نَسَا أبو الفتح فداخل التتر فكتب الى شِحنة خوارِزْم بمكان آبنايخ ، فجرّد اليهم عسكراً فهزمه آبنايخ وأثخن فيهم ، وساروا الى بشخوان فحاصروها وملكوها عنوة ، وهلك أبو الفتح أيام الحصار . ثم ارتحل آبنايخ الى أبيوَرْد ، وقد تغلب تاج الدين عمر بن مسعود على أبيوَرد وما بينها وبين مرو فجبى خراجها واجتمع عليه جماعة من أكابر الامراء ، وعاد الى نَسَا وقد توفي نائبها اختيار الدين زُنْكِي ، وملك بعده ابن عمه عمدة الدين حمزة ابن محمد بن حمزة فطلب منه آبنايخ خراج سنة ثمان عشرة ، وسار الى شروان وقد تغلب عليها ايكجي بهلوان فهزمه وانتزعها من

يده . ولحق بهلوان بجلال الدين في الهند ، واستولى آبنايخ خان على عامّة خراسان وكان تكين بن بهلوان متغلباً بمرو فعبر جيحون وكبس شحنة التتر ببخارى فهزموه سنة سبع ، ورجع الى شروان وهم باتباعه ولحقوا بآبنايخ خان على جرجان فهزموه ، ونجا الى غياث الدين يترشاه بن خوارزم شاه بالريّ فأقام عنده الى أن هلك كما نذكر ان شاء الله تعالى .

خبر ركن الدين غورشاه صاحب العراق من ولد خوارزم شاه

قد كان تقدّم لنا أنّ السلطان لما قسّم ممالكه بين أولاده جعل العراق في قسمة غورشاه منهم . ولما أجفل السلطان الى ناحية الريّ لقيه ابنه غورشاه ، ثم سار من الريّ الى كَرْمان فلكها تسعة أشهر . ثم بلغه أنّ جلال الدين محمد بن أبه القزويني ، وكان بهمذان أراد أن يملك العراق ، واجتمع اليه بعض الامراء ، وأن مسعود ابن صاعد قاضي أصفهان مائل اليه فعاجله ركن الدولة ، واستولى على اصفهان . وهرب القاضي الى الأتابك سعد بن زنكي صاحب فارس فأجاره . وبعث ركن الدين العساكر لقتال همذان فتخاذلوا ورجعوا دون قتال . ثم مضى الى الريّ ووجد بها قوماً من الاسماعيلية يحاولون اظهار دعوتهم . ثم زحف التتر الى ركن الدولة فحاصروه بقلعة راوند ، واقتحموها فقاتلوه واستأمن اليهم

ابن أبه صاحب هَمَذان فأمنوه ، ودخلوا هَمَذان فولوا عليها علاء الدين الشريف الحسيني عوضاً من ابن أبه .

خبر غياث الدين يترشاه صاحب كرمان من ولد السلطان خوارزم شاه

قد كنا قدّمنا أنّ السلطان خوارِزْم شاه ولّى ابنه غياث الدين يترشاه كِرْمان وكيش ، ولم ينفذ اليها أيام أبيه . ولمّا كانت الكبسة على قُزوين خلص الى قلعة ماروت من نواحي أصْفهان ، وأقام عند صاحبها . ثم رجع الى اصفهان ومرّ به التتر ذاهبين الى أذَرْبيجان فحاصروه وامتنع عليهم ، وأقام بها الى آخر سنة عشرين وستمائة فلما جاء أخوه ركن الدين غور شاه من كِرْمان الى اصفهان لقيه هنالك . وحرّضه غياث الدين على كِرْمان فنهض اليها وملكها ، فلما قتل ركن الدين كما قلناه سار غياث الدين الى العراق وكان ركن لما ولّاه أبوه العراق جعل معه الامير بقاطا بُستي[1] أتابكاً فاستبدّ عليه فشكاه الى أبيه ، وأذن له في حبسه فحبسه ركن الدين بقلعة سِرجَهان . فلما قتل ركن الدين كما قلناه أطلقه نائب القلعة أسد الدين حولي فاجتمع عليه الناس وكثير من الامراء واستماله غياث الدين وأصهر اليه بأخته، وماطله في الزفاف يستبرىء ذهاب الوحشة بينهما .

وكانت اصفهان بعد مقتل ركن الدين غلب عليها أُزبك خان،

---

(١) كذا، واسمه في الكامل ج ٩ ص ٣٥١ : ايغان طائسي.

واجتمعت عليه العساكر وزحف اليه الامير بقاطابستي فاستنجد أُزْبُك غياث الدين فأنجده بعسكر مع الامير دولة ملك ، وعاجله بقاطابُستي فهزمه بظاهر اصفهان وقتله وملكها . ورجع دولة ملك الى غياث الدين فزحف غياث الـدين الى اصفها ، وأطاعه القاضي والرئيس صدر الدين ، وبادر بقاطابُستي الى طاعته ، ورضي عنه غياث الدين وزفّ اليه أخته . واستولى غياث الدين على العراق ومازندران وخُراسان ، وأقطع مازندران وأعمالها دولة ملك ، وبقاطابستي هَمَذان وأعمالها .

ثم زحف غياث الدين الى أذَرْبَيجان وشنّ الغارة على مَرَاغة، وتردّدت رسل صاحب أذَرْبَيجان أُزْبُك بن البهلوان في المهـادنة فهادنه ، وتزوّج بأخته صاحب بَهْجَوان ، وقويت شوكته وعَظُم فكان بقاطابستي في دولته وتحكّم فيها . ثم حدّثته نفسه بالاستبداد وانتقض وقصد أذَرْبَيجان ، وبها مملوكان منتقضان على أُزْبُك بن البهلوان فاجتمعا معه ، وزحف اليهم غياث الدين فهزمهم ورجعوا مغلوبين الى أذربيجان ويقال انّ [1] الخليفة دسّ بذلك الى بقاطابستي وأغراه بالخلاف على غياث الدين . ثم لحق بغياث الدين آينايخ خان نائب بُخارى مفلتاً من واقعته مع التتر بجرجان فأكرمه وقدّمه ، ونافسه خال السلطان دولة ملك وأخوه وسعوا

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٣٥١: وقيل إن الخليفة الناصر لدين الله أقطعه البلاد سراً.

اليها فزجرها عنه فذهبا مغاضبين . ووقع دولة ملك في عساكر التتر بمرو وزنجان فقتل وهرب ابنه بَرْكَة خان الى أُزْبُك باذَرْبَيْجان ثم أوقع عساكر التتر بقاطابُستي وهزموه ونجا الى الكرم . وخلص الفلّ الى غياث الدين وعاد التتر الى ما وراء جيحون . ثم تذكر [1] صاحب فارس سعد الدين بن زُنكي ، وكاتبته أهل اصفهان حين كانوا منهزمين فسار اليه وحاصره في قلعة أصطُخُر وملكها . ثم سار الى شيراز وملكها عليه عنوة . ثم سار الى قلعة حرة فحاصرها حتى استأمنوا ، وتوفي عليها آبنايخ خان ودفن هنالك بشعب سلمان ، وبعث عسكراً الى كازرون فملكها عنوة واستباحها . ثم سار الى ناحية بغداد . وجمع الناس الجوع من إربل وبلاد الجزيرة . ثم راسل غياث الدين في الصلح فصالحه ورجع الى العراق .

أخبار السلطان جلال الدين منكبرس وهزيمته أمام التتر ثم عوده الى الهند

قد كان تقدّم لنا أن أباه خوارزم شاه لما قسم البلاد بين ولديه جعل في قسمه غُزْنَة وباميان والغور وبُست وهيكاباد وما يليها من الهند ، واستتاب عليها أمير ملك وأنزله غُزْنَة فلما انهزم السلطان خوارزم شاه امام التَتر زحف اليه حرْبُوشَة والي الغور فملكها من

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٣٥٣: ففي آخر سنة عشرين وستمائة سار إلى بلاد فارس، فلم يشعر صاحبها وهو أتابك سعد بن دكلا ألا وقد وصل غياث الدين إلى بلاده.

يده ؛ وكان من أمره ما قدّمناه الى أن استقر بها رضا الملك شرف الدين . ولما أجفل السلطان جلال الدين من نيسابور الى غُزْنَة واستولى التتر على بلاد خراسان ، وهرب أمراؤها فلحقوا بجلال الدين فقتل نائب هُراة أمين الملك خال السلطان . وقد قدّمنا محاصرته بسَجِستان ، ثم مراجعته طاعة السلطان جلال الدين ، ولحق به أيضاً سيف الدين بقراق الخلخي وأعظم ملك من بَلْخ ومظهر ملك والحسن فزحف كل منهم في ثلاثين ألفاً ، ومع جلال الدين من عسكره مثلها فاجتمعوا وكبسوا التتر المملوكة محاصرين قلعة قَنْدَهار كما قلنا . واستلحموهم ولحق فلهم بجَنْكزخان فبعث ابنه طولي خان في العساكر فساروا الى جلال الدين فلقيهمْ بشروان وهزمهم ، وقتل طولي خان بن جَنْكز في المعركة ، وذهب التتر منهزمين .

واختلف عسكر السلطان جلال الدين على الغنائم وتنازع سيف الدين بِقْرَاق مع امين الملك نائب هُراة وتحيّز الى العراق ، وأعظم ملك ومظفر ملك ، وقاتلوا أمين الملك فقتل أخ لبِقْراق وانصرف مغاضباً الى الهند وتبعه أصحابه ، ولاطفهم جلال الدين ووعظهم فلم يرجعوا . وبلغ خبر الهزيمة الى جنْكِزْ خان فسار في أمم التتر ، وسار جلال الدين فلقي مقدّمة عساكره فلم يفلت من التتر الا القليل . ورجع فنزل على نهر السند وبعث بالصريخ الى الامراء المنحرفين عنه ، وعاجله جَنْكِزْ خان قبل رجوعه فهزمه

بعد القتال والمصابرة ثلاثاً ، وقتل أمين الملك قريب أبيه. واعترض المنهزمين نهر السند فغرق أكثرهم ، وأسر ابن جلال الذين فقتل وهو ابن سبع سنين ، ولما وقف جلال الدين على النهر والتتر في اتباعه فقتل أهله وحرمه جميعاً ، واقتحم النهر بفرسه فخلص الى عدوته ، وتخلص من عسكره ثلثمائة فارس وأربعة آلاف راجل وبعض أمرائه ، ولقوه بعد ثلاث . وتخلص بعض خواصه بمركب مشحون بالأقوات والملابس فسدّ من حاجتهم ، وتحصّن أعظم ملك ببعض القلاع . وحاصره جَنكِزْ خان وملكها عنوةً ، وقتله ومن معه. ثم عاد التتر الى غُزْنَة فملكوها واستباحوها وأحرقوها وخربوها واكتسحوا سائر نواحيها ، وكان ذلك كله سنة تسع عشرة . ولما سمع صاحب جبل جَردَى من بلاد الهند بجلال الدين جمع للقائه ، وخام جلال الدين وأصحابه عن اللقاء لما نهكتهم الحرب فرجعوا ادراجهم ، وأدركهم صاحب جلال الدين صُوري فقاتلهم وهزموه وملكوا أمرهم ، وبعث اليهم نائب ملك الهند فلاطفهم وهاداهم والله تعالى ولي التوفيق .

أخبار جلال الدين بالهند

كان جماعة من اصحاب جلال الدين ، وأهل عسكره لما عبروا اليهم ، حصلوا عند قُباجة ملك الهند منهم بنت امين الملك خلصت الى مدينة ارجاء من عمله ، ومنهم شمس الملك وزير جلال الدين

حيــاة أبيه ، ومنهم قُزل خــان بن أمين الملك خلص الى مدينة كلاور فقتله عاملها ، وقتل قُباَجة شمس الملك الوزير لخبر جلال الدين بأموره وبعث أمــين الملك . ولحق بجلال الدين جماعة من أمراء أخيه غياث الدين فقوي بهم ، وحاصر مدينة كلور وافتتحها ، وافتتح مدينة تَرنوخ كذلك فجمع قُباجة للقائه ، وسار اليه جلال الدين فخام عن اللقاء وهرب ، وترك معسكره فغنمه جلال الدين بما فيه ، وسار الى لهاوون[1] وفيها ابن قُباجة ممتنعاً عليه فصالحه على مــال يحمله ، ورحل الى تَشْتَشان وبهــا فخر الدين السَلاوي نائب قُباجة فتلقاه بالطاعة . ثم سار الى اوجا وحاصرها فصالحوه على المال. ثم سار الى جَانِس وهي لشمس الدين اليتمشي من ملوك الهند، ومن موالي شهاب الدين الغوري فأطاعه أهلها وأقام بها ، وزحف اليه ايتُش في ثلاثين ألف فارس ومائة الف راجل وثلثمائة فيل . وزحف جلال الدين في عساكره ، وفي مقدمته جرجان بهلوان أُزبُك ، واختلفت المقدّمتان فلم يمكن اللقاء . وبعث ايتُش في الصلح فجنح اليه جلال الدين، ثم اجتمع قُباجة وايتُش وسائر ملوك الهند فخام عن لقائهم ، ورجع لطلب العراق ، واستخلف جهان بهلوان الملك على ما ملك من الهند ، وعبر النهر الى غزنة فولّى عليها وعلى الغور الامير وفاملك واسمه الحسن فزلف ،وسار الى العراق وذلك سنة احدى وعشرين بعد مقدمه لها بسنتين .

(١) هي مدينة لاهور.

أحوال العراق وخراسان في أيالة غياث الدين

كان غياث الدين بعد مسير جلال الدين الى الهند اجتمع اليه شراد[1] العساكر بكِرْمان ، وسار بهم الى العراق فملك خُراسان ومازندران كما تقدم ، واقام منهمكاً في لذاته . واستبدّ الامراء بالنواحي فاستولى قائم الدين على نيسابور ، وتغلب يقز بن ايلجي بهلوان على شروان ، وتملك ينال خطا بهاتر ، ونظام اسفراين ، ونصرة الدين بن محمد مستبدّ بنسا كما مرّ واستولى تاج الدين عمر ابن مسعود التركماني على أبيوَرْد ، وغياث الدين مع ذلك منهمك في لذاته . وسارت اليه عساكر التَتر فخرج لهم عن العراق الى بلاد الجبل ، واكتسحوا سائر جهاته . واشتطّ عليه الجند وزادهم في الاقطاع والاحسان فلم يشبعهم ، وأظهروا الفساد وعاثوا في الرعايا . وتحكّمت أمّ السلطان غياث الدين في الدولة لاغفاله أمرها ، واقتفت طريقة تركان خاتون أم السلطان خوارزم شاه وتلقبت بلقبها خُداوندِجهان ، الى ان جاء السلطان جلال الدين فغلب عليه كما قلناه .

وصول جلال الدين من الهند الى كرمان وأخباره بفارس والعراق مع أخيه غياث الدين

ولما فارق جلال الدين الهند كما قلناه سنة احدى وعشرين ،

(١) كذا، والصحيح: شرد جمع شرود، أو شرد جمع شارد. أي الخارج عن الطاعة.

وسار الى المفازة وخلص منها الى كِرْمان بعد ان لقي بها من المتاعب والمشاق ما لا يعبر عنه ، وخرج معه أربعة آلاف راكب على الحمير والبقر، ووجد بكِرمان براق الحاجب نائب أخيه غياث الدين. وكان من خبر برّاق هذا أنه كان حاجباً لكوخان ملك الخطا وسفر عنه الى خوارِزْم شاه فأقام عنده. ثم ظفر خوارِزم شاه بالخطا وولّاه حجابته. ثم صار الى خدمة ابنه غياث الدين ترشه بكران فاكرمه.

ولما سار جلال الدين الى الهند ورجع عنه التتر سار غياث الدين لطلب العراق فاستناب بَراق في كرمان ، فلمّا جاء جلال الدين من الهند اتهمه ، وهمّ بالقبض عليه فنهاه عن ذلك وزيره شرف الملك فخر الدين علي بن أبي القاسم الجندي خواجا جهان ان يستوحش الناس لذلك .

ثم سار جلال الدين الى شيراز ، وأطاعه صاحبها برد الأتابك وأهدى له ، وكان أتابك فارس سعد بن زُنكي قد استوحش من غياث الدين فاصطلحه جلال الدين وأصهر اليه في ابنته . ثم سار الى اصفهان فأطاعه القاضي ركن الدين مسعود بن صاعد ، وبلغ خبره الى أخيه غياث الدين وهو بالري فجمع لحربه ، وبعث جلال الدين يستعطفه . وأهدى له سلب طولي خان بن جَنكِزخان الذي قتل في حرب بزوان كما مرّ وفرسه وسيفه ، ودسّ الى الامراء الذين معه بالاستمالة فمالوا اليه ووعدوه بالمظاهرة ونمي الخبر الى غياث الدين فقبض على بعضهم ، ولحق الآخرون بجلال الدين

فجاؤا به الى المخيم فمال اليه اصحاب غياث الدين وعساكره ، واستولى على مخيمه وذخائره وأمه . ولحق غياث الدين بقلعة سُلوقان وعاتب جلال الدين أمه في فراره فاستدعته وأصلحت بينهما ، ووقف غياث الدين موقف الخدمة لاخيه السلطان جلال الدين ، وجاء المتغلبون بخُراسان والعراق واذعنوا الى الطاعة ، وكانوا من قبل مستبدين على غياث الدين فاختبر السلطان طاعتهم وعمل فيها على شاكلتها والله أعلم .

استيلاء ابن آبنايخ على نسا

كان نصرة الدين بن محمد قد استولى على نَسَا بعد ابن عمه اختيار الدين كما مرّ ، واستناب في أموره محمد بن احمد النسائي المنشيء ، صاحب التاريخ المعتمد عليه في نقل أخبار خوارزم شاه وبنيه فأقام فيها تسع عشرة سنة مستبداً على غياث الدين ثم انتقض عليه وقطع الخطبة له، فسرّح اليه غياث الدين العساكر مع طوطي ابن آبنايخ ، وأنجده بأرسلان وكاتب المتغلبين بمساعدته فراجع نصرة الدين محمد بن حمزة نفسه ، وبعث نائبه محمد بن أحمد المنشيء الى غياث الدين بمال صالحه عليه فبلغه الخبر في طريقه بوصول جلال الدين واستيلائه على غياث الدين ، فأقام باصفهان ينتظر صلاح السابلة وزوال الثلج . ثم سار الى همَذان فوجد السلطان غائباً في غزو الاتابك بقُطا بستي . وكان من خبره أنه صهر الى

غياث الدين على أخته كما قدّمنا فهرب بعد خلعه الى أَذَرْبيجان واتفق هو والأتابك سعد وسار اليهما جلال الدين فخالفه الأمير ايغان طائسي الى هَمَذان وسار الى جلال الدين وكبسه هنالك فأخذه ثم أمنه، وعاد الى مخيمه ولقيه وافد نصرة الدين على بلاد نَسَا وما يتاخمها، وبعث الى ابن آبنايخ بالافراج عن نَسَا. ثم بلغ الخبر بعد يومين بهلاك نصرة الدين واستيلاء ابن آبنايخ على نَسَا.

مسير السلطان جلال الدين الى خوزستان ونواحي بغداد

ولما استولى السلطان جلال الدين على أخيه غياث الدين واستقامت أموره، سار الى خَوْزِسْتَان شاتياً وحاصر قاعدتها، وبها مظفر الدين وجه السبع مولى الخليفة الناصر. وانتهت سراياه في الجهات الى بادرايا والى البصرة فأوقع بهم تلكين[1] نائب البصرة، وجاءت عساكر الناصر مع مولاه جلال الدين قُشْتَمُر وخاموا عن اللقاء وأوفد ضياء الملك علاء الدين محمد بن مودود السوي العارض على الخليفة ببغداد عاتباً، وكان في مقدمته جهان بهلوان فلقي في طريقه جمعاً من العرب وعساكر الخليفة فرجع، وأوقع بهم ورجعوا الى بغداد. وجيء بأسرى منهم الى السلطان فأطلقهم، واستعد أهل بغداد للحصار وسار السلطان الى بعقوبا على سبع فراسخ من بغداد. ثم الى دقوقا فملكها عنوة وخربها، وقاتلت بعوثه عسكر تَكريت، وتردّدت الرسل بينه وبين مظفر

(١) كذا، وفي الكامل ج ٩ ص ٣٥٥: شحنة البصرة الأمير ملتكين.

الدين صاحب إربل حتى اصطلحوا ، واضطربت البلد بسبب ذلك، وأفسد العرب السابلة . وأقام ضياء الملك ببغداد الى أن ملك السلطان مَراغة والله تعالى أعلم .

أولية الوزير شرف الملك

هذا الوزير هو فخر الدين علي بن القاسم خواجة جهان ويلقب شرف الملك أصله من اصفهان، وكان اول أمره ينوب عن صاحب الديوان بها ، وكان نجيب الدين الشهرستاني وزير السلطان وابنه بهاء الملك وزير الجند وفخر الدين هذا يخدمه بها . ثم تمكن من منصب الافتاء وطمح الى مغالبة نجيب الدين على الوزارة ، وسعى عند السلطان بأنه تناول من جبايتها مائتي الف دينار فسامحه بها السلطان، ولم يعرض له . ثم سعى بفخر الدين ثانية فولي وزارة الجند وأقام بها أربع سنين حتى عبر السلطان الى بُخارى فكثرت به الشكايات فأمر بالقبض عليه فاختفى ، ولحق بالطالقان الى أن اتصل بجلال الدين حين كان بغُزْنَة بعد مهلك ابنه فرتبه في الحجابة الى أن أجاز بحر السند ، وكان وزيره شهاب الدين الهَرَوي فقتله قُبَاجة ملك الهند كما مرّ ، واستوزر جلال الدين مكانه فخر الدين هذا ولقبه شرف الملك، ورفع رتبته على الوزراء وموقفه وسائر آدابه وأحواله .

عودة التتر الى الري وهمذان وبلاد الجبل

وبعد رجوع التتر المَغَرْبة من أَذَرْبَيْجان وبلاد قُفْجاق وسِروان كما قدّمناه ، وخُراسان يومئذ فوضى ليس بها ولاة الّا متغلّبون من بعض أهلها بعد الخراب الاوّل والنهب فعمّروها ، فبعث جَنْكِزْ خان عسكراً آخراً من التتر اليها فنهبوها ثانياً وخربوها وفعلوا في ساوة وقاشان وقُم مثل ذلك ولم يكن التتر أوّلاً أصابوا منها . ثم ساروا الى هَمَذان فاجفل أهلها وأوسعوها نهباً وتخريباً ، وساروا في اتباع أهلها الى أَذَرْبيجان وكبسوهم في حدودها فأجفلوا ، وبعضهم قصد تِبْرِيز فسار التتر في اتباعهم وراسلوا صاحبها أُزْبَك ابن البهلوان في اسلام من عنده فبعث بهم بعد ان قتل جماعة منهم وبعث برؤوسهم وصانعهم بما ارضاهم فرجعوا عن بلاده والله تعالى أعلم .

وقائع أذربيجان قبل مسير جلال الدين اليها

لما رجع التتر من بلاد قُفْجاق والروس ، وكانت طائفة من قُفْجاق لما افترقوا وفروا أمام التتر ساروا الى دربند شروان ، واسم ملكه يومئذ رشيد ، وسألوه المقام في بلاده وأعطوه الرهن على الطاعة فلم يجبهم ريبةً بهم فسألوه الميرة فأذن لهم فيها فكانوا يأتون اليها زرافات ، وتنصح له بعضهم بأنهم يرومون الغدر به ،

وطلب منه الانجاد بعسكره وسار في أثرهم فأوقع بهم وهم باخلون بالطاعة فرجع ذلك القُفجاقي بالعسكر. ثم بلغه انهم رحلوا عن مواضعهم فاتبعهم ثانياً بالعساكر حتى أوقع بهم، ورجع الى رشيد ومعه جماعة منهم مستأمنين، وقد اختفى فيهم كبير من مقدميهم وتلاحق به جماعة منهم فاعتزموا على الوثوب فهرب خائفاً، ولحق ببلاد شروان واستولت طائفة القُفجَاق على القلعة وعلى مخلف رشيد فيها من المال والسلاح، واستدعوا أصحابهم فلحقوا بهم واعتزموا وقصدوا قلعة الكرج فحاصروها. وخالفهم رشيد الى القلعة فملكها وقتل من وجد بها منهم فعادوا من حصار تلك المدينة الى دربند، وامتنعت عليهم القلعة فرجعوا الى تلك المدينة فاكتسحوا نواحيها وساروا إلى كنجة، من بلاد أرّان وفيها مولى لأزُبك صاحب أذرْبيجان فراسلوه بطاعة أزُبك فلم يجبهم اليها، وعدد عليهم ما بدر منهم في الغدر ونهب البلاد، واعتذروا بأنهم انما غدروا شروان لانه منعهم الجواز الى صاحب أذَرْبيجان. وعرضوا عليه الرهن فجاءهم بنفسه ولقوه في عدد قليل فعدا عن محال التهمة فبعث بطاعتهم الى سلطانه، وبعث بذلك الى أزُبك، وجاء بهم الى كنجة فأفاض فيهم الخلع والاموال وأصهر اليهم وأنزلهم بجبل كَيكَلون.

وجمع لهم الكرج فآواهم الى كِنْجَة. ثم سار اليهم أمير من أمراء قُفجَاق، ونال منهم فرجعوا الى جبل كَيكَلون. وسار

القُفجاق الذين كبسوهم الى بلاد الكرج فاكتسحوها وعادوا فاتبعهم الكرج واستنقذوا الغنائم منهم ، وقتلوا ونهبوا فرحل القُفجاق الى بردعة ، وبعثوا الى أمير كِنجَة في المدد على الكرج فلم يجبهم فطلبوا رهنهم فلم يعطهم فمدّوا أيديهم في المسلمين ، واسترهنوا أضعاف رهنهم . وثار بهم المسلمون من كلّ جانب فلحقوا بشروان وتحفظهم المسلمون والكرج وغيرهم فافنوهم ، وبيع سبيهم وأسراهم بأبخس ثمن ، وذلك كله سنة تسع عشرة ، وكانت مدينة بيلقان من بلاد ارّان فأخربها التتر كما قدّمناه ، وساروا عنها الى بلاد قُفجاق فعاد اليها أهلها وعمّروها ، وسار الكرج في رمضان من هذه السنة اليها فملكوها وقتلوا اهلها وخرّبوها واستفحل الكرج . ثم كانت بينهم وبين صاحب خِلاط غازي بن العادل بن أيوب واقعة هزمهم فيها وأثخن فيهم كما يأتي في دولة بني أيوب . ثم انتقض على شِروان شاه ابنه ، وملك البلاد من يده فسار الى الكرج واستصرخ بهم ، وساروا معه فبرز ابنه اليهم فهزمهم واثخن فيهم فتشاءم الكرج بشِروان شاه فطردوه عن بلادهم . واستقرّ ابنه في الملك واغتبط الناس بولايته وذلك سنة اثنتين وعشرين . ثم سار الكرج من تفليس الى أَذربيجان وأتوها من الأوعار والمضائق يظنون صعوبتها على المسلمين فسار المسلمون وولجو المضائق اليهم فركب بعضهم بعضاً منهزمين ، ونال المسلمون منهم أعظم النيل . وبينما هم يتجهّزون لاخذهم الثار من المسلمين ،

وصلهم الخبر بوصول جلال الدين الى مَرَاغة فرجعوا الى مراسلة أُزْبُك صاحب أذربيجان في الاتفاق على مدافعته ، وعاجلهم جلال الدين عن ذلك كما نذكره ان شاء الله تعالى .

استيلاء جلال الدين على أذربيجان وغزو الكرج

قد تقدم لنا مسير جلال الدين في نواحي بغداد وما ملك منها، وما وقع بينه وبين صاحب إربل من الموافقة والصلح . ولما فرغ من ذلك سار الى أذربيجان سنة اثنتين وعشرين ، وقصد مَراغة أولاً فملكها ، وأقام بها وأخذ في عمارتها . وكان بغان طايش[1] خال أخيه غياث الدين مقيماً بأذربيجان كما مرّ فجمع عساكره ، ونهب البلد وسار الى ساحل أرّان فشتّى هنالك . ولما عاث جلال الدين في نواحي بغداد كما قدّمناه بعث الخليفة الناصر الى بِغان طايِس ، وأغراه بجلال الدين ، وأمره بقصد هَمَذان وأقطعه إياها وما يفتحه من البلاد فعاجله جلال الدين وصبحه بنواحي هَمَذان على غِرّة ، وعاين الجند فسقط في يده ، وأرسل زوجته أخت السلطان جلا الدين فأستأمنت له فآمنه وجرد العساكر عنه . وعاد الى مَرَاغة . وكان أُزْبُك بن البهلوان قد فارق تبريز كرسي ملكه الى كَنجَة فأرسل جلال الدين الى أهل تبريز يأمرهم بميرة عسكره فأجابوا الى ذلك ، وتردّدت عساكره اليها فتجمّع الناس ، وشكا

---

(١) كذا، واسمه في الكامل: ايغان طائسي.

أهل تِبْرِيز الى جلال الدين ذلك فأرسل اليهم شِحْنَة يقيم عندهم للنصفة بين الناس .

وكانت زوجة أُزْبك بنت السلطان طُغرُلبك بن أرسلان ، وقد تقدّم ذكرها في أخبار سلفها مقيمة بتبريز حاكمة في دولة زوجها أُزْبك . ثم ضجر أهل تبريز من الشحنة فسار جلال الدين اليها وحاصرها خمساً ، واشتدّ القتال وعابهم بما كان من اسلام أصحابه الى التَتَر فاعتذروا بأن الامر في ذلك لغيرهم والذنب لهم . ثم استأمنوا فآمنهم ، وأمر ببنت السلطان طُغرُل ، وأبقى لها مدينة طُغرُل الى خَوِيّ كما كانت ، وجمع ما كان لها من المال والاقطاع ، وملك تبريز منتصف رجب سنة اثنتين وعشرين ، وبعث بنت السلطان طُغرُل الى خوي مع خادميه فليح وهلال . وولّى على تبريز ربيبها نظام الدين ابن أخي شمس الدين الطُغرائي ، وكان هو الذي داخله في فتحها ، وأفاض العدل في أهلها وأوصلهم اليها، وبالغ في الاحسان اليهم . ثم بلغه إيثار الكرج في أذربيجان وأرّان وأرمينية ودَرْبند شروان وما فعلوه بالمسلمين فاعتزم على غزوهم . وبلغه اجتماعهم بدون فسار اليهم وعلى مقدمته جهان بهلوان الكنجي ، فلمّا تراءى الجمعان وكان الكرج على جبل لم يستهلوه فتسمنت اليهم العساكر الاوعار فانهزموا وقتل منهم أربعة آلاف أو يزيدون ، وأسر بعض ملوكهم ، واعتصم

ملك آخر منهم ببعض قلاعهم فجَّهز جلال الدين عليها عسكراً لحصارها وبعث عساكره في البلاد فعاثوا فيها واستباحوها .

فتح السلطان مدينة كنجة ونكاحة زوجة أزبك

لمّا فرغ السلطان من أمر الكرج واستولى على بلادهم ، وكان قد ترك وزيره شرف الدين بتبريز للنظر في المصالح وولّى عليها نظام الملك الطُغرَائي فقصد الوزير الوشاية به وكتب الى السلطان بأنه وعمه شمس الدين داخلوا أهل البلد في الانتقاض واعادة أزُبك لشغل السلطان بالكرج فلمّا بلغ ذلك الى السلطان أسرّه حتى فرغ من أمر الكرج . وترك أخاه غياث الدين نائباً على ما ملك منها ، وامره بتدويخ بلادهم وتخريبها ، وعاد الى تبريز فقبض على نظام الملك الطُغرائي وأصحابه فقتلهم ، وصادر شمس الدين على مائة ألف وحبسه بِمَراغة ففرّ منها الى أزُبك . ثم لحق ببغداد وحجّ سنة خمس وعشرين . وبلغ السلطان تنصله في المطاف ودعاؤه على نفسه إن كان فعل شيئاً من ذلك فأعاده الى تبريز وردّ عليه املاكه . ثم بعثت اليه زوجة أزُبك في الخطبة ، وانّ أزُبك حنث فيها بالطلاق فحكم قاضي تبريز عز الدين القُزويني بحلها للنكاح فتزوّجها السلطان جلال الدين ، وسار اليها فدخل في خوي ، ومات أزُبك لما لحقه من الغم بذلك .

ثم عاد السلطان الى تبريز فأقام بها مدة ثم بعث العساكر مع

أزخان الى كَنجة من أعمال نَقْجَوان وكان بها أُزْبَك ففارقها ، وترك بها جلال الدين القُمّي نائباً فملكها عليه أزّخان واستولى على أعمالها مثل وشمكور وبردعة وشنة ، وانطلقت أيدي عساكره في النهب فشكا أُزْبك الى جلال الدين فكتب الى أزَخان بالمنع من ذلك ، وكان مع أزَخان نائب الوزير الى السلطان فعزل أزّخان ، وذهب مغاضباً إلى ان قتلته الاسماعيلية . وفي آخر رمضان من سنة اثنتين وعشرين توفي الخليفة الناصر لسبع وأربعين سنة من خلافته واستخلف بعده ابنه الظاهر أبو نصر محمد بعهده اليه بذلك كما مرّ في أخبار الخلفاء .

استيلاء جلال الدين على تفليس من الكرج بعد هزيمته اياهم

كان هؤلاء الكرج اخوة الأرمن ، وقد تقدّم نسبة الارمن الى ابراهيم عليه السلام ، وكان لهم استطالة بعد الدولة السُلجوقيّة، وكانوا من أهل دين النصرانيّة فكان صاحب أرمن الروم يخشاهم ويدين لهم بعض الشيء حتى ان ملك الكرج كان يخلع عليه فيلبس خلعته . وكان شروان صاحب الدربند يخشاهم ، وكذلك ملكوا مدينة أرجيش من بلاد ارمينية ومدينة فارس وغيرها ، وحاصروا مدينة خِلاط قاعدتها فأسر بها مقدّمهم ايواي ، وفادوه بالرحيل عنهم بعد ان اشترطوا عليه متابعته لهم في قلعة خِلاط فبنوها ، وكذلك هزموا ركن الدولة قليحا أرسلان صاحب بلاد الروم

لما زحف لاخيه طغرل شاه بارزن الروم، استنجدهم طُغرُل فأنجدوه وهزموا ركن الدين أعظم ما كان ملكاً واستفحالاً . وكانوا يجوسون خلال أذربيجان ويعيثون في نواحيها .

وكان ثغر تَفليس من أعظم الثغور طرزاً على من يجاوره منذ عهد الفرس ، وملكه الكرج سنة خمسة عشرة وخمسمائة أيام محمود ابن محمود بن ملك شاه ، ودولة السُلجوقيّة يومئذ أفحل ما كانت وأوسع ايالةً وأعمالاً فلم يطق ارتجاعه من أيديهم ، واستولى ايلدكز بعد ذلك وابنه البهلوان على بلاد الجبل والريّ وأذربيجان وأرّان وارمينية وخِلاط وجاورهم بكرسيه . ومع ذلك لم يطق ارتجاعه منهم . فلما جاء السلطان جلال الدين الى أذربيجان وملكها زحف الى الكرج وهزمهم سنة اثنتين وعشرين . وعاد الى تبريز في مهمه كما قدّمناه . فلما فرغ من مهمه ذلك ، وكان قد ترك العساكر ببلاد الكرج مع أخيه غياث الدين ووزيره شرف الدين فأغذ السير اليه غازياً من تبريز . وقد جمع الكرج واحتشدوا وامدهم القُفجَاق وللكز وساروا للقاء . فلما التقى الفريقان انهزم الكرج وأخذتهم سيوف المسلمين من كلّ جانب ولم يبقوا على أحد حتي استلحموهم وافنوهم .

ثم قصد جلال الدين تفليس في ربيع الاوّل سنة ثلاث وعشرين ، ونزل قريباً منها ، وركب يوماً لاستكشاف أحوالها وترتيب مقاعد القتال عليها وأكمن الكمائن حولها . واطلع عليهم في خف

من العسكر فطمعوا فيه وخرجوا فاستطرد لهم حتى تورّطوا . والتفت عليهم الكمائن فهربوا الى البلد والقوم في اتباعهم . ونادى المسلمون من داخلها بشعار الاسلام ، وهتفوا باسم جلال الدين فالقى الكرج بأيديهم وملك المسلمون البلد ، وقتلوا كل من فيها إلّا من اعتصم بالاسلام ، واستباحوا البلد وامتلأت أيديهم بالغنائم والاسرى والسبايا . وكان ذلك من أعظم الفتوحات . هذه سياقة ابن الاثير في فتح تفليس . وقال النسائي الكاتب : انّ السلطان جلال الدين سار نحو الكرج فلما وصل نهر أرس مرض واشتد الثلج ، ومر بتفليس فبرز أهلها للقتال فهزمهم العساكر وأعجلوهم عن دخولها فملكوها واستباحوها ، وقتلوا من كان فيها من الكرج والأرمن ، واعتصم أهلها بالقلعة حتى صالحوا على أموال عظيمة فحملوها وتركوهم .

انتقاض صاحب كرمان ومسير السلطان اليه

ولما اشتغل السلطان جلال الدين بشأن الكرج وتفليس طمع براق الحاجب في الانتقاض بكرمان والاستيلاء على البلاد ، وقد كنا قدّمنا خبره ، وأن غياث الدين استخلفه على كِرْمان عند مسيره الى العراق ، وان جلال الدين لمّا رجع من الهند ارتاب به وهمّ بالقبض عليه ثم تركه وأقره على كرمان . فلما انتقض الآن ، وبلغ خبره الى السلطان وهو معتزم على قصد خلاط

فتركها ، وأغذ السير اليه ، واستصحب أخاه غياث الدين ووعده بكرمان وترك مخلفه بكَيكَلون ، وترك وزيره شرف الدين بتفليس وأمره باكتساح بلاد الكرج . وقدم الى صاحب كرمان بالخلع والمقاربة والوعد فارتاب بذلك ولم يطمئن . وقصد بعض قلاعه فاعتصم بها ، ورجع الرسول الى جلال الدين فلما علم أن المكيدة لم تتم عليه أقام باصفهان ، وبعث اليه وأقرّه على ولايته وعاد . وكان الوزير شرف الدين بتفليس كما قلناه ، وضاق الحال به من الكرج ، وأرجف عند الامراء بكيكلون أن الكرج حاصروه بتفليس فسار أرخان منهم في العساكر الى تفليس . ثم وصل البشير من نَفَجوان برجوع السلطان من العراق فأعطاه الوزير أربعة آلاف دينار . ثم افترقت العساكر في بلاد الكرج وبها ايواني مقدّمهم مع بعض أعيانهم ، وبعث عسكراً آخر الى مدينة فرس ، واشتدّ عليها الحصار . ثم جر العساكر عليها وعاد الى تفليس .

مسير جلال الدين الى حصار خلاط

كانت خلاط في ولاية الأشرف بن العادل بن أيوب ، وكان نائبه بها حسام الدين علي الموصلي ، وكان الوزير شرف الدين حين أقام بتفليس عند مسير جلال الدين الى كرمان ضاقت على عساكره الميرة فبعث عسكراً منهم الى اعمال أرزُن الروم فاكتسحوا نواحيها ، ورجعوا فروا بخلاط فخرج نائبها حسام الدين واعترضهم

واستنقذ ما معهم من الغنائم . وكتب الوزير شرف الدين بذلك الى جلال الدين وهو بكِرْمان فلما عاد جلال الدين من كرمان ، وحاصر مدينة انى استقر حسام الدين نائب خلاط للامتناع منه فارتحل هو الى بلاد أخلاط ليأتيه على غرّة. ورحل جلال الدين من أخلاز فسار الى خلاط وحاصر مدينة ملاذكرد في ذي القعدة من السنة ، وانتقل منها الى مدينة خلاط وحاصرها وضيّق مخنقها وقاتلها مراراً . واشتدّ أهل البلد في مدافعته لما يعلمون من سيرة الخوارزميّة الالوانيّة ، وكانوا متغلبين عـلى الكثير من بسائط ارمينية وأذربيجـان فبلغه أنهم أفسدوا البلاد وقطعوا السابلة ، وأخذوا الضريبة من أهل خَويّ وخربوا سائر النواحي ، وكتب اليه بذلك نوابه وبنت السلطان طغرل زوجته فلما رحـل عن خلاط قصدهم عـلى غرّة قبل أن يصعدوا الى حصونهم بجبالهم الشاهقة فأحاطت بهم العساكر ، واستباحوهم واقسموهم بين القتل والغنيمة ، وعاد الى تبريز .

دخول الكرج مدينة تفليس واحراقها

ولما عاد السلطان من خلاط وغزو التركمان فرق عساكر للمشتى ، وكان الامراء أساؤا السيرة في تفليس ، وهرب العسكر الذين بها واستلحموا بقيتهم ، وخربوا البلاد وحرقوها لعجزهم عن حمايتها من جلال الدين ، وذلك في ربيع سنة أربع وعشرين وستمائة .

وعند النسائي الكاتب ان استيلاء الفرنج على تفليس واحراقهم اياها كان والسلطان جلال الدين على خلاط ، وانه لمّا بلغه ذلك رجع وأغار على التركمان في طريقه لما بلغه من افسادهم فنهب أموالهم وساق مواشيهم الى موقان وكان خمسها ثلاثين ألفاً . ثم سار الى خوي لملاقاة بنت طغرل . ثم سار الى كنجة فبلغه الخبر بانصراف الكرج عن تفليس بعد احراقها . قال : ولما وصل كنجة قدم عليه هنالك خاموش بن الاتابك أُزبك بن البهلوان مؤدّيا منطقة بَلَخش قدر الكف مصنوعاً عليه منقوشاً اسم كيكاوس وجماعة من ملوك الفرس ، فغير السلطان صناعتها ونقشها على اسمه وكان يلبس تلك المنطقة في الاعياد وأخذها التتر يوم كبسوه ، وحملت الى الخان الاعظم ابن جَنكزخان بقراقدوم . وأقام خاموش في خدمة السلطان الى أن صرعه الفقر ولحق بعلاء الملك ملك الاسماعيلية فتوفي عنده . انتهى كلام النسائي .

أخبار السلطان جلال الدين مع الاسماعيلية

كان السلطان جلال الدين بعد وصوله من الهند ولّى أُرخان على نيسابور واعمالها ، وكان وعده بذلك بالهند فاستخلف عليها وأقام مع السلطان . وكان نائبه بها يتعرّض لبلاد الاسماعيلية المتاخمة له ، بِهُستان وغيرها ، بالنهب والقتل فأوفدوا على السلطان وهو بخوي ــ وقد أمنهم ــ يشكون من نائب أُرخان ، وأساء عليهم أُرْخان في المجاورة . ولما عاد السلطان الى كنجة وكان قد اقطعها

وأعمالها لأرخان . فلما خيّم بظاهرها وثب ثلاثة من الباطنية ، ويسمون الفداويّة ، لانهم يقتلون من امرهم أميرهم بقتله ويأخذون ديتهم منه ، وقد فرغوا عن انفسهم فوثبوا به فقتلوه ، وقتلتهم العامة . وكانت الاسماعيلية قد استولوا على الدامغان أيام الفتنة ، ووصل رسولهم بعد هذه الواقعة الى السلطان وهو بِيَاْقان فطالبهم بالنزول على الدامغان فطلبوا ضمانها بثلاثين ألف دينار وقرّرت عليهم . وكان الرسول الوافد في خدمة الوزير وهم راجعون الى أذربيجان فاستخفّه الطرب ليلة ، وأحضر له خمسة من الفداويّة معه بالعسكر ، وبلغ خبرهم السلطان فأمره باحراقهم . انتهى كلام النسائي . وقال ابن الاثير : انّ السلطان بعد مقتل أُرخان سار في العساكر الى بلاد الاسماعيلية من ألموت الى كُرْدَكُوه فاكتسحها وخرّبها ، وانتقم منهم ، وكانوا بعد واقعته قد طمعوا في بلاد الاسلام فكف عاديتهم وقطع اطماعهم ، وعاد فبلغه انّ طائفة من التّتر بلغوا الدامغان قريباً من الريّ فسار اليهم وهزمهم وأثخن فيهم . ثم جاء الخبر بأن التتر متلاحقة لحربه فأقام في انتظارهم في الريّ انتهى .

استيلاء حسام الدين نائب خلاط على مدينة خوي

قد تقدّم لنا أن بنت السلطان طُغرُل زوجة أُزبك بن البهلوان لما ملك السلطان جلال الدين تبريز من يدها أقطعها مدينة خوي ،

ثم تزوّجها بعد ذلك كما قدّمناه ، وتركها لما هو فيه من أشغال ملكه فوجدت لذلك مـا فقدته من العز والتحكم . قال النسائي الكاتب : وأضاف لها السلطان مدينتي سِلْماس وارمينية ، وعين رجلًا لقبض أقطاعها فتنكّر لها ، وأغرى بها الوزير فكاتب السلطان بأنها تداخل الأتابك أزبك وتكاتبه . ثم وصل الوزير الى خوي فنزل بدارها واستصفى ، وكانت مقيمة بقلعة طلع فحاصرها وسألت المضي الى السلطان فأبى إلا نزولها على حكمه انتهى .

وكان أهل خوي مع ذلك قد ضجروا من ملكة جلال الدين وجوره ، وتسلّط عساكره فاتفقت الملكة معهم وكاتبوا حسام الدين الحاجب النائب عن الاشراف بخلاط فسار اليهم في مغيب السلطان جلال الدين بالعراق ، واستولى على مدينة خوي وأعمالها وما يجاورها من الحصون ، وكاتبه أهل نَقْجَوان وسلموها له ، وعاد الى خلاط واحتمل الملكة بنت طُغرُل زوجة جلال الدين الى خلاط الى ان كان ما نذكره .

واقعة السلطان مع التتر على أصفهان

ثم بلغ الخبر الى السلطان بأن التَتَر زحفوا من بلادهم فيما وراء النهر الى العراق فسار من تبريز للقائهم ، وجَرّد أربعة آلاف فارس الى الريّ والدامِغـان طليعة فرجعوا وأخبروه بوصولهم الى

اصفهان فنهض للقائم ، واستخلف العساكر على الاستماتة . وأمر القاضي باصفهان باستنفار العامّة ، وبعث التتر عسكراً إلى الري فبعث السلطان عسكراً لاعتراضهم فأوقعوا بالتتر فنالوا منهم . ثم التقى الفريقان في رمضان سنة خمس وعشرين لرابعة وصولهم الى اصفهان ، وانتقض عنه أخوه غياث الدين وجهان بهلوان الكجي في طائفة من العسكر . وانهزمت ميسرة التتر والسلطان في اتباعهم وكانوا قد أكنوا له فخرجوا من ورائه وثبت واستشهد جماعة من الامراء ، وأسر آخرون وفيهم علاء الدولة صاحب يزد .

ثم صدق السلطان عليهم الحملة فافرجوا له وسار على وجهه ، وانهزمت العساكر فبلغوا فارس وكِرْمان ورجعت ميمنة السلطان من قاشان فوجدوه قد انهزم فتفرّقوا أشتاتاً وفقد السلطان ثمانية من فرقه . وكان بقاطى بستي مقيماً باصفهان فاعتزم أهل اصفهان على بيعته . ثم وشل السلطان فاقصروا عن ذلك ، وتراجع بعض العسكر ، وسار السلطان فيهم الى الري . وكان التتر قد حاصروا أصفهان بعد الهزيمة فلما وصل السلطان خرج معه أهل أصفهان فقاتلوا التتر وهزموهم ، وسار السلطان في اتباعهم الى الري ، وبعث العساكر وراءهم الى خراسان . وعند ابن الاثير أنّ صاحب بلاد فارس وهو ابن الأتابك سعد الذي ملك بعد أبيه حضر مع السلطان في هذه الواقعة ، وأنّ التتر انهزموا أوّلاً فاتبعهم صاحب فارس ، حتى اذا أبعدوا انفرد عن العسكر . ورجع عنهم فوجد

جلال الدين قد انهزم لانحراف أخيـه غياث الدين وأمرائه عنه ، ومضى الى شهرم تلك الايام ثم عاد الى اصفهان كما ذكرناه .

الوحشة بين السلطان جلال الدين وأخيه غياث الدين

كان ابتداؤها انّ الحسن بن حَرْميل نائب الغورية بهُراة لما قتلته عساكر خَوارِزم شاه محمد بن تُكُش ، وحاصروا وزيره الممتنع بها حتى اقتحموها عليه عنوة وقتلوه ، هرب محمـد بن الحسن بن حرميل الى بـلاد الهند . فلما ملك السلطان جلال الدين وحظي لديه ، أقامه شِحنة بأصفهان . فلما سار السلطان الى اصفهـان للقاء التتر انحرف جماعة من غلمان غياث الدين عنه فصاروا الى نصرة الدين بن حرميل ؛ واسترجعهم منه غياث الدين في بيتـه وطعنه فأشواه ومات لليال . وأحفظ ذلـك السلطان ، وأقام غياث الدين مستوحشاً فلما كان يوم اللقاء انحرف عن أخيـه ، ولحق بخوزستان وخاطب الخليفة فبعث اليه بثلاثين ألف دينار . وسار من هنالك الى قلعة أَلَموتَ عند صلاح الدين شيخ الاسماعيـليّة . فلما رجع السلطان من وقعة التتر الى الري سار الى قلعـة أَلَمُوت وحاصرها فاستأمن علاء الدين الى السلطان غياث الدين فأمنه ، وبعث من يأتيه به فامتنع غياث الدين وفارق القلعة ، واعترضه عساكر السلطان بنواحي هَمَذان وأوقعوا به وأسروا جماعة من أصحابه ، ونجا الى براق الحاجب بكِرْمَان فتزوّج بأمه كرهاً ونمي اليه أنهـا

تحاول سمه فقتلها وقتل معها جِهان بهلوان الكجي ، وحبس غياث الدين ببعض القلاع . ثم قتله بمحبسه ، ويقال بل هرب من محبسه ولحق باصفهان ، وقتل بأمر السلطان . قال النسائي : وقفت على كتاب براق الحاجب الى الوزير شرف الملك والسلطان بتبريز وهو يعدّد سوابقه فعد منها قتله أعدى عدوّ السلطان ، والله تعالى ولي التوفيق .

انتقاض البهلوانية

لمّا ارتحل السلطان والوزير شرف الملك معه ، وانتهى الى هَمَذان بلغه أنّ الامراء البهلوانيّة اجتمعوا بظاهر تبريز يرومون الانتقاض ، واتبعه خاموش بن الاتابك أزُبك من قلعة قوطور ، وكان مقيماً بها فرجع السلطان اليهم وقدّم بين يديه الوزير شرف الملك قريباً من تبريز وهزمهم ، وقبض على الذين تولوا كِبَر الفتنة منهم ودخل تبريز قصبتهم ، وقبض على القاضي المعزول فصادمه قوام الدين الحرادي ابن أخت الطُغرائي وصادره ، وسار السلطان للقاء التتر وأقام الوزير نائباً للبلاد .

ايقاع نائب خلاط بالوزير

ولما كان ما ذكرناه من مسير حسام الدين نائب خلاط الى أذربيجان ، واحتماله زوجة السلطان جلال الدين الى خِلاط امتعض

الوزير لذلك فسار الى موقان من بلاد أرّان ، وجمع التُركمان وفرّق العمال للجباية ، وطلب الحمل من شروان شاه وهو خمسون ألف دينار فتوقف . وأغار على بلاده فلم يظفر بشيء ورجع الى أذربيجان . وكانت بنت الاتابك بهلوان في بقَّجان فارقها مولاها إيدغمِش وجاء الى الوزير فأطمعه فيها ، وصار الوزير مضمراً الغدر بها وامتنعت عليه . ونزل بالمرج فأكرمتـه وقربته ، ورحل الى حورس من أعمالها ، وكانت للاشرف صاحب خلاط أيام أزبك فانتشرت ايدي العسكر في تلك الضياع ، وقاتلها الوزير . وجاء الحاجب صاحب خلاط في عساكره فانهزم الوزير وترك أثقاله وذلك سنة أربع وعشرين . وكان مع الحاجب فخر الـدين سام صاحب حلب وهشام الدين خضر صاحب تبريز بَرَم . وكان الوزير [١] وتكاليفه فظفر الآن بمخلفه وخلص الوزير الى أرّان وسار الحاجب علي في اتباعه . ثم عـاد الى تبريز ، ومرّ بخويّ فنهبها ثم سار الى بقجان فملكها ، ثم تدمُر كذلك . وأقام الوزير بتبريز ، وكان بها الاتابك أزبك متنسكاً منعه أهل تبريز من الدخول ، وحملوا اليه النفقة . ثم جاء الخبر برجوع السلطـان الى اصفهان بعد الهزيمة كما مرّ فسار الوزير الى أذربيجان ، ولقي ثلاثة من الامراء جاؤا مدداً له من عند السلطان ، وأمره بحصار خويّ فتأخر اليها وبها

(١) كذا بياض بالأصل، ويظهر من الفصول التالية أن اسم هذا الوزير، أبو المكارم علي بن أبي القاسم. وإنه كان منبسطاً في العطاء حتى استغرق أموال الديـوان. لذلـك يكون مقتضى سيـاق العبارة هنا: وكان الوزير منبسطاً في عطائه وتكاليفه.

نائب الحاجب حسام الدين صاحب خلاط ، وهو بدر الدين بن صرهنك ، والحاجب حسام الدين علي منوشهر فنهض اليه الوزير من خويّ فتأخر الى ترَكري . والتقيا هنالك فانهزم الحاجب ودخل تركري فاعتصم بها ، وحاصره الوزير ، وطلب الصلح فلم يسعفه . ورجع الذين كانوا معه بعساكرهم الى اذربيجان . وأفرج الوزير عن حصار تركري ومرّ بخويّ ، وقد فارقها ابن صرهنك الى قلعة قوطور . واستأمن للسلطان من بعد ذلك ، ودخل الوزير مدينة خويّ وصادر أهلها ، وسار الى ترِمذ ونقجوان ففعل فيها مثل ذلك ، وانقطعت ايالة الحاجب صاحب خلاط ، والله أعلم .

فتوحات الوزير بأذربيجان واران

ولمّا تخلف الوزير عن السلطان صرف همته الى تمهيد البلاد ومدافعة صاحب خلاط وارتجاع البلاد التي ملك من اذربيجان وأران، وفتح القلاع العاصية فكان بينه وبين الحاجب حسام الدين صاحب خلاط ما ذكرناه ، وهو خلال ذلك يستميل أصحاب القلاع ويفيض فيهم الأموال والخلع حتى أجاب أكثرهم . ثم قبض على ناصر الدين محمد من أمراء البهلوانية ، وكان معتزلاً عند نصرة الدين بن سبكتكين فصادره على مال وتسلم من نائبه قلعة كانت بيده . ثم مات نائب السلطان بكنجة أقسُنقُر الأتابكي فنهض اليها وقبض على نائبه شمس الدين كرشاسف وصادره ، وتسلم منه

قلعة هردوجار برد من أعمال أران . ثم جهَّز العساكر لحصار قلعة زُونِين ، وبها زوجة السلطان خاموش فأطال حصارها وعرضت عليه نكاحها فأبى . ولمَّا رجع السلطان من العراق تزوّجها وولى خادمه سعد الدين على القلعة فأساء اليها ، وانتزع أملاكها فأخرجوه وعادوا الى الانتقاض . ولما خلص الوزير من واقعته مع الحاجب نائب خلاط قصد اران فجبى الاموال ، وجمع واحتشد وقصد قلعة مُردانقين ، وكانت لصهر الوزير ركبة الدين فصانعه بأربعة آلاف دينار حملها اليه .

ثم سار الى قلعة حاجين وبها جلال الدولة ابن أخت أبواني أمير الكرج فصالحه على عشرين ألف دينار وسبعمائة أسير من المسلمين . ثم كانت فتنة البهلوانية فسكنها وسرّح الجند عنها . وشرح الخبر عنها انّ بعض مماليك اتابك أزبك كان قد أفحش في قتل الخوارزميَّة باذربيجان عند زحفهم اليها أيام فرارهم من التتر ، فلما ملك السلطان جلال الدين اذربيجان ومحا ملك البهلوانية منها لحق الامير مُقدي هذا بالاشرف بن العادل بن أيوب صاحب الشام ، وأقام عنده فلمَّا بلغه انهزام الوزير شرف الملك أمام الحاجب حسام الدين نائب الاشرف بخلاط فرّ من الشام الى اذربيجان ليقيم مع الاتابكية ، ومر بالحاجب في خويّ فاتبعه وعبر النهر ، وخاطب من عدوته معتذراً فرجع عنه . ودخل مقدي بلاد قبار ، وفيها قلاع استولى عليها المنتقضون والعصاة فراسلهم في اقامة الدعوة

الاتابكية والبيعة لابن خاموش بن ازبك يستدعونه من قلعة قوطور . واتصل ذلك بالوزير فأقلقه . ثم جاء خبر هزيمة السلطان بأصفهان فازداد قلقاً . وسار الامير مقدي الى نصرة الدين محمد بن سبكتكين يدعوه لذلك فلاطفه في القول . وكتب للوزير بالخبر فأجابه بأن يضمن لمقدي ما أحب في مراجعة الطاعة ففعل ، وجاء به الى الوزير فأكرمه وخلع عليه وعلى من جاء معه ، وعاهده العفو عن دماء الخوارزمية . وجاء الخبر برجوع السلطان من أصفهان فارتحل الوزير للقائه ومعه الامير مقدي وابن سبكتكين واكرمهما السلطان .

أخبار الوزير بخراسان

كان صفي الدين محمد الطغرائي وزيراً بخُراسان . وأصل خبره انه كان من قرية كلاجرد وأبوه رئيسها ، وكان هو حسن الخط ورتبة الاطوار[1] . ثم لحق بالسلطان في الهند وخدم الوزير شرف الملك فلما عادوا الى العراق ولاه الطغراء . ولما ملك السلطان تفليس من يد الكرج ولّى عليها أقسُنقُر مملوك الاتابك أزبك ، وأقام صفي الدين في وزارتها فلما حاصرها الكرج هرب اقسنقر، وأقام صفي الدين فحاصروه أياماً . ثم أفرجوا ووقع ذلك من السلطان أحسن المواقع ، وولاه وزارة خراسان فأقام بها سنة .

---

(١) أي عارف برتب الناس، ويقال له في أيامنا: صاحب التشريفات.

وضجر منه أهلها فلمّا جاء السلطان الى الري وأقام بها كثرت به الشكايات، ونكبه السلطان واستصفى أمواله وقبض على مواليه وحاشيته وقيدت خيله الى مرابط السلطان، وكانت ثلثمائة. وخلص من مواليه علي الكِرْمَاني الى قلعة كان حصّنها فامتنع بها واستوزر السلطان مكانه تاج الدين البلخي المستوفي وسلم اليه الصفي ليستصفيه ويقلع القلعة من مولاه، وشدّد في امتحانه. وكان عدوّه فلم يظفر منه بشيء. وكان لما نكب، طالبه خاتون السلطان باحضار الجواهر، وما ساقه لخدمة الوزير وغيره فأحضر أربعة آلاف دينار وسبعين فصاً من ياقوت وبلخش، واستأثر الخازن بها لظنه أنه مقتول.

ثم كاتب الصفي أرباب الدولة ووعدهم بالاموال فشفعوا فيه وخلصوه، وكتب السلطان بخطه بسراحه فجاء واستخلص ماله من الخازن، إلّا الفصوص فانه تعذّر عليه ردها. وولّى السلطان على وزارة نَسا محمد بن مودود النَسَوي العارض، من بيت رئاسة بها. ورمت به الحادثة الى غُزنة فلمّا جاء السلطان من الهند ولّاه الانشاء والحبس، وعظم امره، وغصّ به الوزير شرف الملك.

فلما ورد أحمد بن محمد المنشيء الكاتب رسولاً عن نصرة الدين محمد ابن حمزة صاحب نسا كما مرّ، ولّاه السلطان الانشاء فارتمض لذلك ضياء الدين، وطلب وزارة نسا فولاه السلطان إياها. وأقطع له عشرة آلاف دينار في السنة زيادة على أرزاق الوزارة. وذهب

إليها لاقامة وظيفته. واستناب في ديوان العرض مجد الملك النيسابوري. ثم قطع الحمل فعزله السلطان، وولّى مكانه الكاتب أحمد ابن محمد المنشي. وتعرّض للسعاية فيه فطرده السلطان وهلك في طرده.

خبر بلبان صاحب خلخال

كان من اتابكية أزبك. ولما كانت فتنة التتر وخلاء خُراسان واستيلاء السلطان جلال الدين على أذربيجان لحق بمدينة خلخال فاستولى عليها وعلى قلاعها، وشغل عنه السلطان بأمر العراق وصاحب خلاط. فلما انصرف المسلمون من واقعة التتر بالعراق حاصروه بقلعة فيروز أباد حتى استأمن، وملكها السلطان وولّى عليها حسام الدين بكتاش مولى سعد أتابك فارس. ثم خلّف السلطان أثقاله بموقان وتجرد لخلاط، وعاقه البرد بارجيش فنهب بعض قلاع. وكان عز الدين الخلخالي في كفرطاب قريباً من أرجيش فلحق بخلاط، وجهزه الحاجب الى أذربيجان يشغلهم بإثارة الفتنة فيها فلم يتمّ قصده من ذلك فلحق بجبال زِنْجان وأقام يخيف السابلة. وكتب له السلطان بالامان. ونزل الى اصفهان فبعث نائبها شرف الدولة برأسه الى السلطان. ثم رجع السلطان من كفرطاب الى خرت برت فنهبها وخرّبها، ووصله خلال ذلك الخبر بوفاة الخليفة الظاهر منتصف ثلاث وعشرين، وولاية ابنه المنتصر وجاء كتابه بأخذ البيعة، وأن يبعث اليه بالخلع، والله تعالى وليّ التوفيق لا رب غيره.

تنكر السلطان للوزير شرف الملك

لمّا رجعت العساكر الى موقان ، وأقام السلطان بخَويّ شكا اليه أهلها بكثرة مصادرة الوزير لهم ، واطلع على اساءته للملكة بنت طغرل واستصفائه مالها مع براءتها مما نسب اليها . ثم جاء الى تبريز فبلغه عنه أكثر من ذلك ، وهو بقرية كورتان من اعمالها فافتقد رئيسها ، وكان يخدمه فقيل ان الوزير صادره على ألف دينار لمملوكين . فلما وصل الى تبريز حبس من أخذها حتى ردّها على صاحبها ، وأسقط عن أهل تبريز خراج ثلاث سنين ، وكتب لهم بذلك . وكثرت الشناعات على الوزير بما فعله في مغيب السلطان ، هذا مع ما كان منه في محاربة الاسماعيليّة بأنّ السلطان كاتبه من بغداد بأن يفتش فلول الشام من أجل رسول من عند التتر بعثوه الى الشام . وقصد بذلك معاتبة الخليفة ان عثر على الرسول فر به فلّ من الاسماعيلية فقتلهم ، واستولى على اموالهم . فلمّا عاد السلطان الى أذربيجان وصله رسول علاء الدين ملك الاسماعيليّة يعاتبه على ذلك ، ويطلب المال فنكر السلطان على الوزير ما فعله ، ووكل به أميرين حتى ردّ ما أخذ من أموالهم ، وكانت ثلاثين ألف دينار وعشرة أفراس فانطوى السلطان للوزير من ذلك كله على سخط ، وأعرض عن خطابه . وكان يكاتب فلا يجاب ، وعجزت تبريز عن علوفة السلطان فأمر بفتح أهراء

الوزير والتصرف فيها . ورجع السلطان الى موقان فلم يغير عليه شيأ ، ووقع له بتناول عشر الخاص فكان يأخذ من عشر العراق سبعين ألف دينار في كلّ سنة والله أعلم .

وصول القفجاق لخدمة السلطان

كان للقُفجاق على قديم العهد هوى مع قوم هذا السلطان وأهل بيته ، وكانوا يصهرون اليهم غالباً بيناتهم . ومن أجل ذلك استأصلهم جَنكِزخان واشتدّ في طلبهم ، فلمّا عاد السلطان من واقعة أصفهان وقد هاله أمر التتر رأى ان يستظهر عليهم بقبائل قُفجَاق ، وكان في جملته سبير جَنكِشْ منهم فبعثه اليهم يدعوهم لذلك ويرغّبهم فيه فاجابوا ، وجاءت قبائلهم ارسالاً . وركب البحر كور كانْ من ملوكهم في ثلثمائة من قرابته ، ووصل الى الوزير بموقان فشتى بها . ثم جاء السلطان فخلع عليه وردّه بوعد جميل في فتح دربند وهو باب الابواب . ثم أرسل السلطان لصاحب دربند ، وكان طفلاً ، وأتابكه يلقب بالاسد يدبّر أمره فقدم على السلطان فخلع عليه ، وأقطع له وملكه العمل على أن يفتح له الدربند . وجهّز عساكر وأمراء فلما فصلوا من عنده قبضوا على الاسد وشنوا الغارة على نواحي الباب ، وأعمل الاسد الحيلة وتخلف من أيديهم وتعذّر عليهم ما أرادوه .

استيلاء السلطان على أعمال كستاسفي

كان علم الوزير يشكر أنّ السلطان أراد أن ينتصح له ببعض مذاهب الخدمة فسار في العساكر ، وعبر نهر أزس فاستولى على أعمال كستاسفي من يد شروان شاه . فلمّا عاد السلطان الى موقان أقطعها لجلال الدين سلطان شاه بن شروان شاه ، وكان أسيراً عند الكرج أسلمه أبوه اليهم ، على أن يزوّجوه بنت الملك رسودان بنت تاماد . فلما فتح السلطان بلاد الكرج استخلصه من الاسر ورباه ، وبقي عنده وأقطعه الآن كستاسفي . وكان ايضاً عند الكرج ابن صاحب أرزن الروم ، وكان تنصّر فزوّجوه رسودان بنت تاماد فأخرجه السلطان لمّا فتح بلاد الكرج ، ثم رجع الى ردّته ولحق بالكرج فوجد رسودان قد تزوّجت .

قدوم شروان شاه

كان السلطان ملك شاه بن ألبأرسلان لما ملك أرّان أطلق الغارة على بلاد شروان فوفد عليه ملكها افريدون بن فرتبريز ، وضمن حمل مائة ألف دينار في السنة . فلما ملك السلطان جلال الدين أرّان سنة اثنتين وعشرين وستمائة طلب شروان شاه افريدون بالحمل فاعتلّ بتغلب الكرج ، وضعف البلاد فأسقط عنه نصف الحمل . فلما عاد الآن قدم عليه شروان شاه وأهدى له خمسمائة

فرس ، وللوزير خمسين فاستقلّها . وأشار على السلطان بحبسه فلم يقبل اشارته ، ورده بالخلع والتشريف ، وأسقط عنه من الحمل عشرين ألفاً فبقي ثلاثون : قال النسائي الكاتب : وأعطاني في التوقيع ألف دينار ، والله تعالى أعلم .

مسير السلطان الى بلاد الكرج وحصاره قلاع بهرام

لمّا كان السلطان مقيما بموفان منصرفه من أذربيجان بعث عساكره مع ايلك خان فأغار على بلاد الكرج واكتسحها ، ومرّ ببحيرة بتاج فكبسه الكرج وأوقعوا به . وفقد أريطاني وامتعض السلطان لما وقع بعسكره وارتحل لوقته ، وقد جمع له الكرج فهزمت مقدّمتهم ، وجيء بالأسرى منهم فقتلهم وسار في اتباعهم . ونازل كوري وطالبهم باطلاق أسرى البحيرة فأطلقوهم. وأخبر أنّ اريطاني خلص تلك الليلة إلى أذربيجان ، ثم وجده السلطان في نَقجوان . ثم سار الى بهران الكرجي وقد كان أغار على نواحي كِنجَة فعاث في أعماله ، وحاصر قلعة سكان ففتحها عنوةً ، وكذلك قلعة كالك . وبعث الوزير لحصار كوزاني ، فحاصرها ثلاثة أشهر حتى طلبوا الصلح على مال حملوه فرحل عنهم الى خلاط والله أعلم .

مسير السلطان الى خلاط وحصارها

ولمّا فرغ السلطان من شأن الكرج قدم أثقاله الى خلاط على

طريق قاقَزْوان، وسار هو الى نَفْجَوان، وصبح الكرج واستاق مواشيهم. ثم أقام أياماً، وقضى أشغال أهل خراسان والعراق ليفرغ لحصار خِلاط. قال النسائي الكاتب: وحصل لي منهم تلك الايام ألف دينار. ثم ارتحل الى خلاط ولحق بعساكره، ولقيه رسول من عز الدين أيبك نائب الاشرف بخلاط، وقد كان الاشرف بعثه وأمره بالقبض على نائبها حسام الدين علي بن حمّاد فقبض عليه ثم قتله غيلة. وبعث الى السلطان يستخدم اليه بذلك وأن سلطانه الاشرف أمره بطاعة السلطان جلال الدين، وبالغ في الملاطفة فأبى السلطان إلا امضاء ما عزم عليه. وقال إن كان هذا حقاً فابعث إليّ بالحاجب فلما سمع هذا الجواب قتله، وسار السلطان الى خلاط، ونزل عليها بعد عيد الفطر من سنة ست وعشرين.

وجاءه ركن جهان بن طُغرُل صاحب أرزن الروم فكان معه، وحاصرها ونصب عليها المجانيق، وأخذ بمخنقها حتى فرّ أهلها عنها من الجوع وتفرقوا في البلاد. ثم داخله بعض أهلها في أن يمكنهم من بقيتها على أن يؤمنوه ويقطعوه في أَذَرْبيجان فأقطعه السلطان سلماس وعدة ضياع هنالك. وأصعد الرجال ليلاً الى الاسوار فقاتلوا الجند بالمدينة وهزموهم وملكوها، وأسروا من كان بها، وأسروا النصارى وأسد بن عبدالله. وتحصن النائب عز الدين ايبك بالقلعة فأمّنه وحبسه بقلعة دِزقان. فلمّا وقعت المراسلة في الصلح

قفل لئلا يشترط . وقـال ابن الاثير ان مولى من موالي حسام الدين كان هرب الى السلطان ، فلمّـا ملك خلاط طلب أن يثأر منه بمولاه فدفعه اليه وقتله ، ونهب البلد ثلاثاً وسرّح السلطان صاحب أرزن وهرب القمهري من محبسه فقتـل أسد بن عبدالله المهراني بجزيرته ، وأقطع السلطان خلاط للأمراء وعاد ، والله تعالى وليّ التوفيق .

واقعة السلطان جلال الدين مع الأشرف وكيقباد وانهزامه أمامهما

ولما استولى السلطان جلال الدين على خلاط تجهز الاشرف من دمشق ، وقد كان ملكها وسار لقتـال السلطان جلال الدين في عساكر الجزيرة والشام ، وذلك في سنة تسع وعشرين ولقيه علاء الدين كيقباد صاحب بلاد الروم على سيراس . وكان كيقباد قد خشي من اتصال جهان شاه ابن عمـه طغرل صاحب ارزن الروم بالسلطان جلال لما بينهما من العداوة ، فسار الاشرف وكيقباد من سيراس ، وفي مقدّمة الاشرف عز الدين عمر بن عـلي من أمراء حلب من الاكراد الهكارية ، وله صيت في الشجاعـة . وجـاء السلطان علاء الدين للقائهم فلما تراءى الجمان حمل عز الدين صاحب المقدّمة عليهم فهزمهم ، وعاد السلطان الى خلاط .

وكان الوزير على ملازكرد يحاصرها فلحق به وارتحلوا جميعاً الى أذربيجان . وأسر ركن الدين جهان شاه بن طغرل . وجيء

به الى ابن عمه علاء الدين كيقباد فجاء به الى ارزن فسلمها وسائر أعمالها. ووصل الاشرف الى خلاط فوجدها خاوية . ولما رجع السلطان الى أذربيجان ترك العساكر مع الوزير سكمان ، وأقام بخَوِيّ ، وخلص الترك في الهزيمة الى موقان . وتردّد شمس الدين التكريتي رسول الاشرف بينه وبين السلطان جلال الدين في الصلح بينهم ، ودخل فيه علاء الدين صاحب الروم ، وانعقد بينهم جميعاً ، وسلم لهم السلطان سرّ من رأى مع خلاط ، والله تعالى أعلم .

الحوادث أيام حصار خلاط

منها وفادة نصر الدين أصبهبد صاحب الجبل مع أرخا من امراء السلطان يصهره على أخيه ، فقبض السلطان عليه إلى أن عاد من بلاد الروم منهزماً فأقطعه وأعاده الى بلاده . ومنها رسالة أخت السلطان وكانت عند دوشي خان أخذها من العيال الذين جاؤا معه ، وتركان خاتون من خوارزم ، وأولدها ، وكانت تكاتب أخاها بالاخبار فبعثت اليه الآن في الصلح مع خاقان والمصاهرة. وأن يسلم له فيما وراء جيحون فلم يجبها . ومنها وفادة ركن الدين شاه ابن طغرل صاحب ارزن الروم ، وكان في طاعة الاشرف ومظاهراً للحاجب نائب خلاط على عداوة السلطان منافرة لابن عمه علاء الدين كيقباد بن كنخسرو صاحب الروم ، وكان قتل رسول

السلطان منقلباً من الروم، ومنع الميرة عن المسكر. فلما طال حصار السلطان بخلاط استأمن وقدم عليه السلطان فاحتفل لقدومه واركب الوزير للقائه. ثم خلع عليه وردّه الى بلاده، واستدعى منه آلات الحصار فبعث بها. ثم حضر بعد ذلك واقعة الاشرف مع السلطان كما مرّ.

ومنها وصول سعد الدين الحاجب برسالة الخليفة الى السلطان بالخطبة في أعمالها، وان لا يتعرض لمظفر الدين كوكبرون صاحب إربل، ولا للولد صاحب الموصل، ولا لشهاب الدين سليمان شاه ملك ولا لعماد الدين بهلوان بن هَزاسِت ملك الجبال ويعدهم في أولياء الديوان فامتثل مراسله. وبعث نائب العراق شرف الدين علي بأنّ ملك العراق لا يتم إلا بطاعة ملك الجبال عماد الدين بهلوان وملك [1] سليمان شاه فبعث اليهما السلطان من لاطفهما حتى كانت طاعتهما اختياراً منهما

وبعث السلطان الحاجب بدر الدين طوطو بن أبنايخ خان فأحسن في تأدية رسالته، وجاء بهدية حافلة من عند الخليفة خلعتان للسلطان احداها جبة وعمامة وسيف هندي مرصّع الحلية؛ والاخرى قنع وكمة وفرجية وسيف محلّى بالذهب، وقلادة مرصعة ثمينة، وفرسان رائعان بعدّتين كاملتين، ونعال لكلّ واحدة من أربعمائة

---

(١) كذا، بياضان بالأصل. وفي الكامل ج ٩ ص ٧٢ يظهر بوضوح أن سليمان شاه كان ملك همذان وأنه قتل بها سنة ست وخمسين وخمسمائة.

دينار ، وترس ذهب مرصّع بالجوهر وفيه أحد وأربعون فصاً من الياقوت وبندخستاني في وسطه فيروزجة كبيرة ، وثلاثون فرساً عربية مجلّلة بالاطلس الرومي المبطن بالاطلس البغداي بمقاود الحرير ونعال الذهب ، لكلّ واحدة منها ستون ديناراً وعشرون مملوكاً بالعدة والمركوب ، وعشرة فهو بجلال الأطلس وقلائد الذهب ، وعشرة صقور بالأكمام المكللة ، ومائة وخمسون بقجة في كل واحدة عشرة ثياب ، وخمس أكرمن العنبر مضلعة بالذهب وشجرة من العود الهندي ، طولها خمسة أذرع وأربع عشرة خلعة نسوانية للخانات من خوالص الذهب ، وكنائس للخيل تفليسية .

وللأمراء ثلثمائة خلعة لكل أمير خلعة قباء وكمة ، للوزير عمامة سوداء وقباء وفرجية وسيف هندي ، واكرتان من العنبر وخمسون ثوباً وبغلة . ولاصحاب الديوان عشرون خلعة في كل خلعة جبة وعمامة وعشرون ثوباً أكثرها أطلس رومي وبغدادي ، وعشرون بغلة شهباء . ورفعت للسلطان خباء فدخلها ولبس الخلعتين ، وشفع الرسول في اهل خلاط فاعتذر له السلطان .

ومنها وصول هدية من صاحب الروم ثلاثون بغلاً مجلّلة بثياب الاطلس الخطائي ، وفرو القندسي والسمور ، وثلاثون مملوكاً والعدة ، ومائة فرس وخمسون بغلاً . ولما مروا باذربيجان اعترضهم ركن الدين جهان شاه بن طغرل صاحب ارزن ، وكان في طاعة

الاشرف فأمسك الهدية عنده الي ان وفد على السلطان بطاعته فأحضرها .

ومنها اسار وزير المورخا ، جاء الى الجبل المطل على قزوين لحصاد الحشيش على عادته ، وكان السلطان قد تغير على علاء الدين صاحبهم بسبب أخيه غياث الدين ، ولحاقه بهم في الموت فسار مقطع سارة الى ذلك الجبل ، وأكمن لهم الوزير . وبعث به الى السلطان وهو يحاصر خلاط فحبسه بقلعة رزمان ، وهلك لاشهر قلائل . ثم بعث السلطان كاتبه محمد بن احمد النسائي الى علاء الدين صاحب قلعة الموت بطلب الخوارج ، وطلب الخطبة فامتنع منها أولا واحتج عليه بأنّ أباه جلال الدين الحسن خطب لخوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش والد السلطان فأنكر والتزم أن يبعث الى الديوان مائة ألف في كل سنة .

وصول جهان بهلوان أزبك من الهند

كان السلطان لما فصل من الهند بقصد العراق ، واستخلف على البلاد التي ملكها هنالك جهان بهلوان أزبك فأقام هنالك الى أن قصده عسكر شمس الدين ايتماش صاحب لهاوون ففارق مكانه ، وسار الى بلاد قشمير فزاحموه وطردوه عن البلاد فقصد العراق ، وتخلف عنه أصحابه ، وعادوا الى ايتماش ، وفيهم الحسن برلق الملقب رجاملك ، وكاتب جهان عليها ملك العراق بوصوله

في سبعمائة فارس ، فأجاب الحسن رأي السلطان فيه . وبعث اليه بعشرة آلاف دينار للنفقة . ووصل توقيع السلطان بأن تحمل اليه عشرون ألفاً ، وأن يشتي بالعراق يستريح بها من التعب فصادف عود السلطان من بلاد الروم ، وزحف السلطان الى اذربيجان فحال قدر الله بينه وبين مرامه ، وقتل هناك سنة ثمان وعشرين .

وصول التتر الى أذربيجان

كان التتر عندما ملكوا ما وراء النهر ، وزحفوا الى خراسان فضعضعوا ملك بني خوارزم شاه ، وانتهوا الى قاصية البلاد وخربوا ما مرّوا عليه ، واكتسحوا ونهبوا وقتلوا . ثم استقر ملكهم بما وراء النهر وعمروا تلك البلاد ، واختطوا قرب خوارزم مدينة عظيمة تعوّض منها . وبقيت خراسان خالية ، واستبدّ بالمدن فيها أمراء شبه الملوك يعطون الطاعة للسلطان جلال الدين لما جاء من الهند ، وانفرد جلال الدين بملك العراق وفارس وكرمان وأذربيجان وأرّان وما وراء ذلك . وبقيت خراسان مجالات لغارات التتر وحروبهم . ثم سارت طائفة منهم سنة خمس وعشرين فكان بينهم وبين جلال الدين لما جاء من الهند ، المواقعة على أصفهان كما مرّ . ثم كان بين جلال الدين وبين الاشرف صاحب الشام وعلاء الدين كيقباد صاحب الروم المواقعة سنة سبع وعشرين كما مرّ وأوهنت من جلال الدين وحلت عرى ملكه .

وكان علاء الدين مقدّم الاسماعيلية في قلعة الموت فعاد جلال الدين لما أثخن في بلاده ، وقرر عليه وظائف الاموال فبعث الى التتر يخبرهم بالهزيمة الكائنة عليه، وأنها أوهنته ، ويحثهم على قصده فساروا الى أذربيجان أوّل سنة ثمان وعشرين وبلغ الخبر الى السلطان بمسيرهم فبعث بوغر من أمرائه طليعة لاستكشاف خبرهم فلقي مقدّمتهم ، فانهزم ولم ينج من أصحابه غيره . وجاء بالخبر فرحل من تبريز الى موقان ، وخلف عياله بتبريز لنظر الوزير وأعجله الحال عن أن يبعثهم الى بعض الحصون .

ثم ورد كتاب من حدود زنجان بأن المقدّمة التي لقيها بوغر باهر أقاموا ببرج الخان ، وأنهم سبعمائة فارس فظنّ السلطان أنهم لا يجاوزونها فسريَّ عنه ، ورحل الى موقان فأقام بها ، وبعث في احشاد الاميرين بُغان شحنة خراسان، وأوسمان بَهْلوان شحنة مازندران ، وشغل بالصيد. وبينما هو كذلك كبسه التتر بمكانه ونهبوا معسكره وخلص الى نهر أُوس .

ثم ورى بقصد كنجة وعطف الى أذربيجان ، فتنكر لماهان . وكان عز الدين صاحب قلعة شاهن غاضباً منذ سنين لاغارة الوزير على بلده . فلما نزل السلطان ماهان كان يخدمه بالميرة وباخبار التتر ثم أنذره آخر الشتاء بمسير التتر اليه من أرّجان ، وأشار عليه بالعود الى أرّان لكثرة ما فيها من العساكر وأجناد التركمان متحصنين بها . فلمّا فارقها وكان الوزير فوق

بيوت السلطان وخزائنه في قلاع حسام الدين منهم : ارسلان كبير أمراء التركمان بأرّان، وكان قد عمر هنالك قلعة سنك سراخ من أحصن القلاع فأنزل عياله بها وكان مستوحشاً من السلطان فجاهر بالعصيان .

وكانت وحشته من السلطان لامور منها : تبذير أمواله في العطاء والنفقة، ومنها أنه ظنّ أنّ السلطان مجفل الى الهند فكاتب الاشرف صاحب الشام وكيقباد صاحب الروم فوعدهم من نفسه الطاعة، وهما عدّوا السلطان . ومنها أنه كاتب قليج ارسلان التركماني فأمره بحفظ حرم السلطان وخزائنه ولا يسلمها اليه . وبعث في الكتاب له، والكباس قبله ليغزو الروم. فلما مرّ السلطان بقلعته بعث اليه يستدعيه فوصل وحمل كفنه في يده، فلاطفه السلطان وكايده فظنها مخالصة فاطمأنّ والله تعالى وليّ التوفيق .

استيلاء التتر على تبريز وكنجة

ولما اجفل السلطان بعد الكبسة من موقان الى أرّان بلغ الخبر الى أهل تبريز فثاروا بالخوارزمية، وأرادوا قتلهم، ووافقهم بهاء الدين محمد بن بشير فاربك الوزير بعد الطغرياني . وكان الطغرياني رئيس البلد كما مر فنعهم من ذلك، وعدوا على واحد من الخوارزمية وقتلوه فقتل به اثنين من العامة . واجتهد في تحصين تبريز وحراستها وشحنها بالرجال، ولم تنقطع كتبه عن السلطان

ثم هلك فسلّمها العوام الى التتر ثم ثار أهل كنجة وسلّموا بلدهم للتتر وكذا أهل ببلغازة والله أعلم .

نكبة الوزير ومقتله

لما وصل السلطان الى قلعة جاربرد بلّغه استيحاش الوزير ، وخشي أن يفرّ الى بعض الجهات فركب الى القلعة موريا بالنظر في أحوالها والوزير معه . وأسرّ الى والي القلعة أن يمسك الوزير ويقيده هنالك ففعل . ونزل السلطان فجمع مماليك الوزير وكبيرهم الناصر قُشْتُمُر ، وضمهم الى أوترخان . ثم نمي الى والي القلعة أنّ السلطان مستبدل منه فاستوحش ، وبعث بخاتم الوزير الى قشتمر كبير المماليك يقول : نحن وصاحبكم متوازرون، فمن أحب خدمته فليأت القلعة فسقط في يد السلطان . وكان ابن الوالي في جملته وحاشيته . فأمره السلطان أن يكاتب أباه ويعاتبه ففعل ، وأجابه بالتنصل من ذلك . فقال له السلطان : فليبعث إليّ برأس الوزير فبعث به . وكان الوزير مكرماً للعلماء والادباء مواصلاً لهم ، كثير الخشية والبكاء متواضعاً منبسطاً في العطاء ، حتى استغرق أموال الديوان . لولا أن السلطان جذب من عنانه . وكان فصيحاً في لغة الترك ، وكانت عمالته على التواقيع السلطانية : « الحمد لله العظيم » وعلى التواقيع الديوانية : « يعتمد ذلك »

وعلى تواقيعه الى بلاده : «أبو المكارم علي ابن أبي القاسم خالصة أمير المؤمنين» .

ارتجاع السلطان كنجة

لمّا ثار أهل كنجة بالخوارزميّة كان القائم بأمرهم رجل منهم اسمه بندار ، وبعث السلطان اليهم رسوله يدعوهم الى الطاعة فوصلوا قريباً منه ، وأقاموا . وخرج اليهم الرئيس جمال الدين القمّي بأولاده ، وامتنع الباقون . ثم وصل السلطان وردّد اليهم فلّم تغن ، وبرزوا بعض الايام للقتال ، ورموا على خيمته فركب ، وحمل عليهم فانهزموا وازدحموا في الباب فمنعهم الزحام من اغلاقه فاقتحم السلطان المدينة ، وقبض على ثلاثين من أهل الفتنة فقتلهم . وجيء ببندار ، وكان بالغاً في الفساد ، وكسر سرير الملك الذي نصبه بها محمد بن ملك شاه فمثل به ، وفصل أعضاءه بين يديه . وأقام السلطان بكنجة نحواً من شهر . ثم سار الى خلاط مستمداً للاشرف فارتحل الاشرف الى مصر ، وعلل بالمواعيد ووصل السلطان في وجهته الى قلعة شمس ، وبها أراك بن ايوان الكرجي فخرج وقبل الارض على البعد . ثم بعث الى السلطان ما امر به وبعث السلطان الى جيرانه من الملوك مثل صاحب حلب وآمد وماردين يستنجدهم بعد يأسه ، من الاشرف . وجرّد عسكراً الى خرت برت وملطية وأذربيجان فأغاروا في تلك

النواحي ، واستافوا نعمها لما بين ملكها كيقباد وبين الاشرف من الموالاة فاستوحش جميعهم من ذلك ، وقعدوا عن نصرته والله تعالى وليّ التوفيق .

كان السلطان بلغه وهو بخلاط أن التتر ساروا اليه ، فبعث السلطان الامير أترخان في أربعة آلاف فارس طليعة فرجع وأخبر أن التتر رجعوا من حدود ملازكرد . وكان الامراء أشاروا على السلطان . (١) الانتقال بديار بكر ويتجرون الى أصفهان . ثم جاءه رسول صاحب آمد وزيّن له قصد بلاد الروم ، وأطمعه في الاستيلاء عليها ليتصل بالقفجاق ويستظهر بهم على التتر ، وأنه يمدّه بنفسه في أربعة آلاف فارس . وكان صاحب آمد يروم الانتقام من صاحب الروم بما ملك من قلاعه فجنح السلطان الى كلامه ، وعدل عن اصفهان الى امد فنزل بها . وبعث اليه التركمان بالنذير وانهم راوا نيران التتر بالمنزل الذي كانوا به أمس فاتهم خبرهم ، وصبحه التتر على آمد ، وأحاطوا بخيمته قبل ان يركب فحمل عليهم اوترخان حتى كشفهم عن الحركات .

وركب السلطان وركض وأسلم زوجته بنت الأتابك سعد الى اميرين يحملانها الى حيث تنتهي الحفلة . ثم ردّ اوترخان

---

(١) كذا بياض بالأصل، ويذكر ابن الأثير هذه الواقعة باختلاف كثير عما هي هنا في حوادث سنة ٦٢٨ في ج ٩ ص ٣٨٤ وما بعدها. وتصويب العبارة: وكان الأمراء أشاروا على السلطان بترك خلاط والانتقال بديار بكر، إلى أن يصل إلى أصفهان.

والعساكر عنه ليتوارى بانفراده عن عين العدوّ وسار أُوترخان في أربعة آلاف فارس فخلص الى أصفهان، واستولى عليها الى أن ملكها التتر عليه سنة تسعة وثلاثين. وذهب السلطان مستخفياً الى باشورة آمد، والناس يظنون أنّ عسكره غدروا به فوقفوا يردّونهم فذهب الى حدود الدربندات، وقد ملئت المضايق بالمفسدين. فأشار عليه أوترخان بالرجوع فرجع، وانتهى الى قرية من قرى ميافارقين فنزل في بيدرها، وفارقه أوترخان، الى شهاب الدين غازي صاحب حلب لمكاتبات كانت بينهما فحبسه.

ثم طلبه الكامل فبعث به اليه محبوساً ثم سقط من سطح فات، وهجم التتر على السلطان بالبيدر فهرب، وقتل الذين كانوا معه، وأخبر التتر أنه السلطان فاتبعوه. وأدركه اثنان منهم فقتلهما ويئس منه الباقون فرجعوا عنه. وصعد جبل الاكراد فوجدهم مترصدين في الطرق للنهب فسلبوه وهموا بقتله. وأسرّ الى بعضهم أنه السلطان فمضى به الى بيته ليخلصه الى بعض النواحي ودخل البيت في غيبة بعض سفلتهم وبيده حربة، وهو يطلب الثأر من الخوارزميّة بأخ له قتل بخلاط فقتله، ولم يغن عنه البيت، وكانت الوقعة منتصف شوّال سنة ثمان وعشرين. هذه سياقة الخبر من كتاب النسائي كاتب السلطان جلال الدين. وأمّا ابن الاثير فذكر الواقعة، وأنه فقد فيها، وبقوا أياماً في انتظار خبره، ولم يذكر مقتله. وانتهى به التأليف ولم يزد على ذلك.

قال النسائي : وكان السلطان جلال الدين أسمر قصيراً تركياً شجاعاً حليماً وقوراً لا يضحك الا تبسماً ، ولا يكثر الكلام مؤثراً للعدل ، إلا أنه مغلوب من أجل الفتنة وكان يكتب للخليفة والوحشة قائمة بينهما كما كان أبوه يكتب خادمه المطواع فلان ، فلما بعث اليه بالخلع عن خلاط كما مر كتب اليه عبده فلان ، والخطاب بعد ذلك سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وإمام المسلمين ، وخليفة رب العالمين ، قدوة المشارق والمغارب المنيف على الذروة العليا ابن لؤي بن غالب . ويكتب للملوك الروم ومصر والشام . السلطان فلان بن فلان ليس معهما أخوة ولا محبة . وعلامته على تواقيعه : النصرة من الله وحده . وعلامته لصاحب الموصل بأحسن خط ، وشق القلم شقين ليغلظ .

ولما وصل من الهند كاتبه الخليفة : الجناب الرفيع الخاقاني فطلب الخطاب بالسلطان فأجيب بأنه لم تجر به عادة مع أكابر الملوك فألح في ذلك حين حملت له الخلع فخوطب بالجناب العالي الشاهنشاهي . ثم انتشر التتر بعد هذه الواقعة في سواد آمد وأرزن وميافارقين وسائر ديار بكر فاكتسحوها وخربوها ، وملكوا مدينة اسعرد عنوة فاستباحوها بعد حصار خمسة أيام ، ومروا بماردين فامتنعت . ثم وصلوا الى نصيبين فاكتسحوا نواحيها ، ثم الى سنجار وجبالها والخابور . ثم ساروا الى تدليس فأحرقوها ، ثم الى أعمال خلاط فاستباحوا أباكري وارجيس .

وجاءت طائفة أخرى من أذربيجان الى أعمال إربل ، ومروا في طريقهم بالتركمان الامواميّة والاكراد الجوزقان فنهبوا وقتلوا وخرج مظفر الدين صاحب إربل بعد ان استمدّ صاحب الموصل فلم يدركهم ، وعادوا وبقيت البلاد قاعاً صفصفاً ؛ والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وافترق عسكر جلال الدين مَنكبرس ، وساروا الى كيقباد ملك الروم فأثبتهم في ديوانه واستخدمهم . ثم هلك سنة اربع وثلاثين ، وولي ابنه غياث الدين كنخسرو فارتاب بهم وقبض على كبيرهم وفرّ الباقون . واكتسحوا ما مروا به ، وأقاموا مستبدين بأطراف البلاد . ثم استمالهم الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل وكان نائباً لابيه بالبلاد الشرقية حرّان وكيفا وآمد . واستأذن أباه في استخدامهم فأذن له كما يأتي في اخباره ، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وفضله .

جلال الدين منكبرس بن علاء الدين محمد بن تكش بن ارسلان بن أحسن بن محمد بن أنوشتكين خوارزم شاه

غياث الدين تيرشاه

مرقشان بن ملكشاه

سلطانشاه محمود

مولى بلكاتكين السلجوقي

الخبر عن دولة بني تتش بن البارسلان ببلاد الشام دمشق وحلب وأعمالهما وكيف تناوبوا فيهما المقام بالدعوة العباسية والدعوة العلوية حين انقراض أمرهم

قد تقدّم لنا استيلاء السلجوقية على الشام لاول دولتهم، وكيف سار أتسز بن أرتق الخوارزمي من أمراء السلطان ملك شاه الى فلسطين، ففتح الرملة وبيت المقدس، وأقام فيها الدعوة العباسية، ومحا الدعوة العلوية. ثم حاصر دمشق وذلك سنة ثلاث وستين وأربعمائة. ثم أقام يردّد الحصار على دمشق حتى ملكها سنة ثمان وستين. وسار الى مصر سنة تسع وستين، وحاصرها وعاد عنها. وولي السلطان ملك شاه بعد أبيه ألبأرسلان سنة خمس وستين، فأقطع أخاه تُتُش بلاد الشام، وما يفتحه من تلك النواحي سنة سبعين وأربعمائة فسار الى حلب وحاصرها. وكان امير الجيوش بدر الجمالي قد بعث العساكر لحصار دمشق، وبها أتسز فبعث بالصريخ الى تاج الدولة تتش فسار لنصرته، وأجفلت عساكر مصر، وخرج أتسز لتلقيه فتعلل عليه ببطئه عن تلقيه، وقتله واستولى على دمشق، وقد تقدّم ذلك كله.

ثم استولى سليمان بن قُطُلمُش على انطاكية، وقتل مسلم بن قريش. وسار الى حلب فملكها، وسمع بذلك تتش فسار اليها واقتتلا سنة تسع وسبعين، وقتل سليمان بن قطلمش في الحرب

وسار السلطان ملك شاه الى حلب فملكها وولى عليها قسيم الدولة أقسنقر جدّ نور الدين العادل. ثم جاء السلطان الى بغداد سنة اربع وثمانين، وسار اليه أخوه تاج الدين تتش من دمشق، وقسيم الدولة اقسنقر صاحب حلب، وبوزان صاحب الرُها، وحضروا معه صنيع المولد النبوي ببغداد، فلما وعدوه العود الى بلادهم أمر قسيم الدولة وبوزان بأن يسيرا بعسكرهما مع تاج الدولة تُتش لفتح البلاد بساحل الشام، وفتح مصر من يد المستنصر العلوي، ومحو الدولة العلوية منها فساروا لذلك.

وملك تتش حمص من يد ابن مُلاعب، وغزة عنوةً، وأماسية من يد خادم العلوي بالامان. وحاصر طرابلس، وبها جلال الدين ابن عمار فداخل قسيم الدولة اقسنقر، وصانعه بالمال في أن يشفع له عند تتش فلَم يشفعه فرحل مغاضباً، وأجفلوا الي جَبْلَة وانتقض أمرهم. وهلك السلطان ملك شاه سنة خمس وثمانين ببغداد، وقد كان سار الى بغداد، وسار تتش أخوه من دمشق للقائه وبلغه في طريقه خبر وفاته، وتنازع ولده محمود وبركيارق الملك فاعتزم على طلب الامر لنفسه، ورجع الي دمشق فجمع العساكر وقسم العطاء. وسار الى حلب فأعطاه أقسنقر الطاعة لصغر أولاد ملك شاه والتنازع الذي بينهم، وحمل صاحب انطاكية وبوزان صاحب الرُها وحرّان على طاعته.

وساروا جميعاً في محرّم سنة ست وثمانين فحاصروا الرَحبة

وملكوها، وخطب فيها تتش لنفسه. ثم ملك نصيبين عَنوَةً واستباحها وأقطعها لمحمد بن مسلم بن قريش. ثم سار الى الموصل وبها ابراهيم بن قريش بن بدران، وبعث اليه في الخطبة على منابره فامتنع وبرز للقائه في ثلاثين ألفاً، وكان تتش في عشرة آلاف والتقوا بالمضيّع من نواحي الموصل فانهزم ابراهيم وقتل، واستبيحت أحياء العرب، وقتل أمراؤهم، وأرسل الى بغداد في طلب الخطبة فلم يسعف الا بالوعد. ثم سار الى ديار بكر فملكها في ربيع الآخر، وسار منها الى اذربيجان. وكان بركيارق بن ملك شاه قد استولى على الريّ وهمذان، وكثير من بلاد الجبل فسار في العساكر لمدافعته. فلما تقاربا نزع اقسنقر وبوزان الى بركيارق.

وعاد تتش منهزماً الى الشام، وجمع العساكر، واستوعب في الحشد. وسار الى أقسنقر في حلب فبرز اليه، ومعه بوزان صاحب الرُها وكَربوقا الذي ملك الموصل فيما بعد، ولقيهم تتش على ستة فراسخ من حلب فانهزموا وجيء بأقسنقر أسيراً فقتله صبراً. ولحق كربوقا وبوزان بحلب فحاصرهما تتش وملكها وأخذهما أسيرين. وبعث الى حَرّان والرُها في الطاعة فامتنعوا فقتل بوزان وملكهما وحبس كربوقا بحمص. ثم سار الى الجزيرة فملكها جميعاً، ثم الى ديار بكر وخلاط ثم أذربيجان ثم همذان. وبعث الى بغداد في الخطبة. وكان بركيارق يومئذ بنصيبين فعبر دجلة الى إربل، ثم منها الى بلد سرخاب بن بدر. وسار الامير يعقوب بن أرتق من

عسكر تتش فكبسه وهزمه ، ونجا الى أصفهان فكان مـن خبره مـا تقدم . وبعث تتش يوسف بن أرتق التركماني شحنة الى بغداد فمنع منها فعاث في نواحيها . ثم بلغه مهلك تتش فعاد الى حلب . وهذه الاخبار كلها قد تقدّمت في أوّل دولة السلجوقية وانما ذكرناها هنا توطئة لدولة بني تتش بدمشق وحلب والله أعلم .

مقتل تتش

ولمّا انهزم بركيارق أمام عمه تتش لحق بأصفهان ، وبها محمود وأهل دولته فأدخلوه وتشاوروا في قتله ؛ ثم أبقوه الى ابلال محمود من مرضه فقدر هلاك محمود . وبايعوا لبركيارق فبادر الى أصفهان ، وقدم أميراً آخر بين يديه لاعداد الزاد والعلوفة ، وسار هـو الى أصفهـان . ورجع تتش الى الري ، وأرسل الى الامراء باصفهـان يدعوهم ويرغّبهم فأجابوه باستبراء أمر بركيارق . ثم ابل بركيارق مـن مرضه ، وسار في العساكر الى الريّ فانهزم تتش وانهزم عسكره ، وثبت هو فقتله بعض أصحاب اقسنقر بثـار صاحبه ، واستقام الامر لبركيارق والله تعالى أعلم .

استيلاء رضوان بن تتش على حلب

كان تتش لما انفصل من حلب استخلف عليها أبا القاسم الحسن ابن علي الخوارزمي وأمكنه من القلعة ، ثم أوصى أصحابه قبـل

المصاف بطاعة ابنه رضوان ، وكتب اليه بالمسير الى بغداد ونزول دار السلطنة فسار لذلك ، وسار معه أبو الغازي بن أرتق . وكان أبوه تتش تركه عنده وسار معه و [1] معه محمد بن صالح بن مرداس وغيرهما . وبلغه مقتل أبيه عند هيت فعاد الى حلب ، ومعه الاميران الصغيران أبو طالب وبهرام وأمه وزوجها جناح الدولة الحسن بن أفتكين ، ولحق بهم من المعركة . فلما انتهوا الى حلب امتنع أبو القاسم بالقلعة ، ومعه جماعة من المغاربة ، وهم أكثر جندها فاستمالهم جناح الدولة فثاروا بالقلعة من الليل ، ونادوا بشعار الملك رضوان واحتاطوا على أبي القاسم ، فبعث اليه رضوان بالامان وخطب له على منابر حلب وأعمالها ، وقام بتدبير دولته جناح الدولة ، وأحسن السيرة .

وخالف عليهم الامير باغيسيان بن محمد بن أبه التركماني صاحب انطاكية ، ثم أطاع وأشار على رضوان بقصد ديار بكر ، وسار معه لذلك . وجاءهم امراء الاطراف الذين كان تتش رأسهم فيها ، وقصدوا سروج فسبقهم اليها سلمان بن أرتُق وملكها فساروا الى الرُها ، وبها الفارقليط من الروم ، كان يضمن البلاد من بوزان فتحصّن بالقلعة ودافعهم ، ثم غلبوه عليها ، وملكها رضوان. وطلبها منه باغيسيان . وخشي جناح الدولة على نفسه فلحق بحلب ، ورجع

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ١٧٦ : الأمير وثاب بن محمود بن صالح بن مرداس.

رضوان والامراء على أثره فسار باغيسيان فأقطعها له. ثم سار الى حرّان وأميرها قراجا فدسّ اليهم بعض أهلها بالطاعة، واتهم قراجا بذلك ابن المعني من أعيانها، كان تتش يعتمد عليه في حفظ البلد فقتله، وقتل بني أخيه. ثم فسد ما بين جناح الدولة وباغيسيان وخشي جناح الدولة على نفسه فلحق بحلب، ورجع رضوان والامراء على أثره فسار باغيسيان الى بلده انطاكية، وسار معه أبو القاسم الخوارزمي، ودخل رضوان الخ حلب دار ملكه وكان من أهل دولته يوسف ابن ارتق الخوارزمي الذي بعثه تتش الى بغداد شحنة. وكان (1) من الفتيان بحلب، وكان متبوعاً، وكان يعادي يوسف بن ارتق فجاء الى جناح الدولة القائم بأمر رضوان ورمى يوسف بن ارتق عنده بأنه يكاتب باغيسيان ويداخله في الثورة، واستأذنه في قتله فأذن له، وأمدّه بجماعة من الجند. وكبس يوسف في داره فقتله ونهب مافيها واستطال على الدولة. وطمع في الاستبدادا على رضوان، ودسّ لجناح الدولة أنّ رضوان أمره بقتله فهرب الى حمص. وكانت اقطاعاً له واستبد على رضوان ثم تنكر له رضوان سنة تسع وثمانين، وأمر بالقبض عليه فاختفى ونهبت دوره وأمواله ودوابه. ثم قبض عليه فامتحن وقتل هو وأولاده.

---

(١) كذا بياض بالأصل وفي الكامل ج ٨ ص ١٧٩، وكان بحلب إنسان يقال له «المجن» وهو رئيس الأحداث بها، وله أتباع كثر.

استيلاء دقاق بن تتش على دمشق

كان تتش قد بعث ابنه دقاقاً الى أخيه السلطان ملك شاه ببغداد فأقام هنالك الى أن توفي ملك شاه، فسار معه ابنه محمود وأمه خاتون الجلالية الى أصفهان. ثم ذهب عنهم سراً الى بركيارق ثم لحق بأبيه وحضر معه الواقعة التي قتل فيها. ولما قتل تتش أبوه سار به مولاه تكين الى حلب فأقام عند أخيه رضوان، وكان بقلعة من قلاعها ساو تكين الخادم من موالي تتش، ولّاه عليها قبل موته فبعث الى دقاق يستدعيه للملك فسار اليه، وبعث رضوان في طلبه فلم يدركه. ووصل دمشق، وكتب اليه باغيسيان صاحب انطاكية يشير عليه بالاستبداد بدمشق على أخيه رضوان. ووصل معتمد الدولة طغتكين مع جماعة من خواص تتش، وكان قد حضر المعركة وأسر فخلص الآن من الاسار. وجاء الى دمشق فلقيه دقاق ومال اليه، وحكمه في أمره وداخله في مثل ساوتكين الخادم فقتلوه. ووفد عليهم باغيسيان من انطاكية، ومعه أبو القاسم الخوارزمي فأكرمها واستوزر الخوارزمي وحكمه في دولته.

الفتنة بين دقاق وأخيه رضوان

ثم سار رضوان الى دمشق سنة تسعين وأربعمائة قاصداً

انتزاعها من يد دقاق فامتنعت عليه فعاد الى مالس، وقصد الورس فامتنعت عليه فعاد الى حلب، وفارقه باغيسيان صاحب انطاكية الى اخيه دقاق، وحضّ على المسير الى أخيه بحلب فسار لذلك. واستنجد رضوان سكمان من سروجَ في أمم من التركمان. ثم كان اللقاء بقنسرين فانهزمت عساكر دقاق ونهب سوادهم، وعاد رضوان الى حلب. ثم سعى بينهما في الصلح على أن يخطب لرضوان بدمشق وأنطاكية قبل دقاق فانعقد ذلك بينهما. ثم لحق جناح الدولة بحمص عندما عظمت فيه سعاية «الجن» كما ذكرناه. وكان باغيسيان منافراً له. فلما فصل من حلب جاء باغيسيان الى رضوان وصالحه. ثم بعث الى رضوان المستعلي خليفة العلويين بمصر يعده بالامداد على أخيه، على أن يخطب له على منابره، وزيّن له بعض أصحابه صحة مذهبهم فخطب له في جميع أعماله سوى أنطاكية والمعرّة وقلعة حلب. ثم وفد عليه بعد شهرين من هذه الخطبة سكمان بن أرتق صاحب سروج وباغيسيان صاحب انطاكية فلم يقم بها غير ثلاث، حتى وصل الفرنج فحاصروه وغلبوه على انطاكية وقتلوه كما مرّ في خبره.

استيلاء دقاق على الرحبة

كانت الرحبة بيد كربوقا صاحب الموصل فلما قتل كما مرّ في خبره استولى عليها قايمار من موالي السلطان ألبأرسلان، فسار

دقاق بن تتش ملك دمشق وأتابكه طغركين اليها سنة خمس وتسعين ، وحاصروها فامتنعت عليهم فعادوا عنها . وتوفي قايمار صاحبها في صفر سنة ست وتسعين ، وقام بأمرها حسن من موالي الاتراك فطمع في الاستبداد ، وقتل جماعة من أعيان البلد ، وحبس آخرين . واستخدم جماعة من الجند ، وطرد آخرين . وخطب لنفسه فسار دقاق اليه وحاصره في القلعة حتى استأمن ، وخرج اليه وأقطعه بالشام اقطاعات كثيرة ، وملك الرحبة وأحسن الى أهلها وولى عليهم ورجع الى دمشق ، والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق لا ربّ غيره .

وفاة دقاق وولاية أخيه تلتاش ثم خلعه

ثم توفي دقاق صاحب دمشق سنة سبع وتسعين واستقلّ أتابكه طغركين بالملك وخطب لنفسه سنة ، ثم قطع خطبته وخطب لتلتاش أخي دقاق صبياً مراهقاً، وخوّفته أمه من طغركين بزواجه أمّ دقاق، وأنه يميل الى ابن دقاق من أجل جدّته فاستوحش وفارق دمشق الى بعلبك في صفر سنة ثمان وتسعين . ولحقه ايتكين الحلبي صاحب بصرى ، وكان ممن حسّن له ذلك فعاث في نواحي خوارزم ، ولحق به أهل الفساد ، وراسلا هدّويل ملك الفرنج فأجابهما بالوعد ، ولم يوف لهما فسار الى الرحبة واستولى عليها تُلتاش . وقيل ان تلتاش لما استوحش منه طغركين من دخول

البلد مضى الى حصون له، وأقام بها. ونصب طغركين الطفل ابن دقاق، وخطب له واستبدّ عليه، وأحسن الى الناس واستقام أمره، والله تعالى وليّ التوفيق وهو نعم الرفيق.

حروب الفرنج

الحرب بين طغركين والفرنج أشهرا

كان قمص من قامصة الفرنج على مرحلتين من دمشق فلجّ بالغارات على دمشق، فجمع طغركين العساكر وسار اليه، وجاء معرون ملك القدس وعكا من الفرنج بانجاد القمص فأظهر الغنية (1) عليه وعاد الى عكا، وقاتل طغركين القمص فهزمه وأحجزه بحصنه. ثم حاصره حتى ملك الحصن عنوةً وقتل أهله وأسر جماعته، وعاد الى دمشق ظافراً غانماً. ثم سار الى حصن رمسة من حصون الشام، وقد ملكه الفرنج، وبه ابن أخت سميل المقيم على طرابلس يحاصرها فحاصر طغركين[2] حصن رمسة، حتى ملكه وقتل أهله من الفرنج وخرّبه، والله أعلم.

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٠: فسار بغدوين ملك القدس وعكا وغيرها إلى هذا القمص ليعاضده ويساعده على المسلمين، فعرّفه القمص غناه عنه، وأنه قادر على مقارعة المسلمين إن قاتلوه فعاد بغدوين إلى عكا.

(٢) كذا، وفي الكامل: طغتكين، بدلاً من طغركين.

مسير رضوان صاحب حلب لحصار نصيبين

ثم أنّ رضوان صاحب حلب اعتزم على غزو الفرنج ، واستدعى الامراء من النواحي لذلك فجاءه أبو الغازي بن أرتق الذي كان شحنة ببغداد وأصفهان وصباوو ، وألبي بن ارسلان ماش صاحب سنجر ، وهو صهر جُكُرمش صاحب الموصل . وأشار أبو الغازي بالمسير الى بلاد جكرمش للاستكثار بعسكرها وأموالها ، ووافقه ألبي وساروا الى نصيبين في رمضان سنة تسع وتسعين وأربعمائة فحاصرها ، وفيها أميران من قبل جكرمش واشتدّ الحصار ، وجرح ألبي بن ارسلان بسهم أصابه فعاد الى سنجر ، وأجفل أهل السواد الى الموصل ، وعسكر جكرمش بظاهرها معتزماً على الحرب . ثم كاتب أعيان العسكر ، وحثهم على رضوان . وأمر أصحابه بنصيبين باظهار طاعته ، وطلب الصلح معه . وبعث الى رضوان بذلك والامداد بما يشاؤه على أن يقبض على أبي الغازي فمال الى ذلك ، واستدعى أبا الغازي فخبره أنّ المصلحة في صلح جكرمش ليستعينوا به في غزو الفرنج وجمع شمل المسلمين فجاوبه أبو الغازي بالمنع من ذلك .

ثم قبض عليه وقيده فانتقض التركمان ولجأوا الى سور المدينة ، وقاتلوا رضوان . وبعث رضوان بأبي الغازي الى نصيبين فخرجت منها العساكر لامداده ، فافترق منها التركمان ، ونهبوا

ما قدروا عليه . ورحل رضوان من وقته الى حلب . وانتهى الخبر الى جكرمش بتلّ أعفر ، وهو قاصد حرب القوم فرحل عند ذلك الى سنجار ، وبعث اليه رضوان في الوفاء بما وعده من النجدة فلم يف له . ونازل صهره ألبي بن ارسلان بسنجر ، وهو جريح من السهم الذي أصابه على نصيبين فخرج اليه ألبي محمولا . واعتذر اليه فأعتبه وأعاده الى بلده فمات وامتنع أصحابه بسنجار ، رمضان وشوّالا . ثم خرج اليه [1] عمّ البي وصالح جكرمش وعاد الى الموصل ، والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق بمنه

استيلاء الفرنج على أفامية

كان خلف بن ملاعب الكلابي في حمص ، وملكها منه تاج الدولة تتش فسار الى مصر وأقام بها . ثم بعث صاحب أفامية من جهة رضوان بن تتش بطاعته الى صاحب مصر العلوي ، فبعث اليها ابن ملاعب وملكها وخلع طاعة العلوية ، وأقام يخيف السبيل كما كان في حمص فلما ملك الافرنج سرمين لحق به قاضيها وكان على مذهب الرافضة فكتب الى ابن الطاهر الصائغ من أكابر الغلاة ، ومن أصحاب رضوان ، وداخلهم في الفتك بابن مُلاعب . ونمي الخبر اليه من أولاده فحلف له القاضي بما اطمأنّ

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٢٣٣ : فجاء تميرك أخو أرسلان تاش عم ألبي فأصلح حاله مع جكرمش.

اليه، وتحيّل مع ابن الصانع في جند من قبلهم يستأمنون الى ابن ملاعب، ويعطونه خيلهم وسلاحهم ويقيمون للجهاد معه ففعلوا، وأنزلهم بربض افامية. ثم بيّته القاضي ليلًا بمن معه من أهل سرمين، ورفع أولئك الجند من الربض بالحبــال، وقتلوا ابن ملاعب في بيته وقتلوا معه ابنه، وفرّ الآخر الى أبي الحسن بن منقذ صاحب شيزر.

وجاء الصانع من حلب الى القاضي فطرده، واستبدّ بافامية. وكان بعض أولاد ابن ملاعب عند طغركين، وولّاه حماية بعض الحصون فعظم ضرره، فطلب طغركين فهرب الى الافرنج وأغراهم بافامية، ودلهم على عورتها، وعدم الاقوات فيها فحاصروها شهراً وملكوها عَنْوَةً، وقتلوا القاضي والصانع، وذلك سنة تسع وتسعين. وقد ذكرنا قبل أنّ الصانع قتله ابن بديع أيام تتش صاحب حلب إثر مهلك رضوان، فالله أعلم ايها الصحيح. ثم ملك صاحب انطاكية من الافرنج حصن الامــارة بعد حصار طويل فملكه عنوة واستلحم أهــله، وفعل في ذريته مثل ذلك. ورحل أهــل منبج وبالس وتركوهما خاويين، وملكوا حيد بالامان. وطلب الفرنج من أهل الحصون الاسلامية الجزية فأعطوهم ذلك عــلى ضريبة فرضوها عليهم، فكان على رضوان في حلب وأعمالها ثلاثون ألف دينــار، وعلى صور سبعة آلاف، وعلي ابن منقذ في شيزر أربعة آلاف، وعلى حماة ألفا دينار وذلك سنة خمس وخمسمائة.

استيلاء طغركين على بصرى

قد تقدّم لنا سنة سبع وتسعين حال تلتاش بن تتش، والخطبة له بعد أخيه دقاق، وخروجه من دمشق واستنجاده الفرنج. وانّ الذي تولّى كِبَر ذلك كله اسكين الحلي صاحب بصرى فسار طغركين آخر المائة الخامسة الى بصرى، وحاصرها حتى أذعنوا وضربوا له أجلًا للفرنج، فعاد الى دمشق حتى انقضى الاجل فأتوه طاعتهم، وملك البلد وأحسن اليهم، والله تعالى وليّ التوفيق لا ربّ غيره.

غزو طغركين وهزيمته

ثم سار طغركين سنة اثنتين وخمسمائة الى طَبَرِيّة، ووصل اليها ابن أخت بغدوين ملك القدس [1] من الفرنج فاقتتلو فانهزم المسلمون أوّلا، فنزل طُغركين ونادى بالمسلمين فكرّوا وانهزم الفرنج وأسر ابن أخت بغدوين. وعرض طغركين عليه الاسلام فامتنع فقتله بيده وبعث بالاسرى الى بغداد. ثم انعقد الصلح بين طغركين وبغدوين بعد أربع سنين. وسار بعدها طغركين الى حصن غزّة في شعبان من السنة. وكان نيدغ مولى القاضي فخر الملك ثم علي ابن عمّار صاحب طرابلس فعصى عليه وحاصره الافرنج، وانقطعت

---

(١) كذا بياض بالأصل، وهو بغدوين الأول، امبراطور اللاتين على القسطنطينية، قائد الحملة الصليبية الرابعة.

عنه الميرة فأرسل الى طغركين صاحب دمشق أن يمكنه من الحصن، فأرسل اليه اسرائيل من أصحابه فلك الحصن، وقتل صاحبه مولى بن عمار غيلة ليستأثر بخلفه، فانتظر طغركين دخول الشتاء وسار الى الحصن لينظر في أمره. وكان السرداني من الافرنج يحاصر طرابلس فلما سمع بوصول طغركين حصن الاكمة أغذ السير اليه فهزمه، وغنم سواده. ولحق طغركين بحمص ونازل السرداني غزة فاستأمنوا اليه وملكها، وقبض على اسرائيل فادى به أسيراً كان لهم بدمشق منذ سبع سنين، ووصل طغركين الى دمشق. ثم قصد ملك الافرنج رمسة من أعمال دمشق فملكها وشحنها بالاقوات والحامية، فقصدها طغركين بعد ان نمي اليه الخبر بضعف الحامية الذين بها فكبسها عنوة، وأسر الافرنج الذين بها والله سبحانه وتعالى أعلم.

انتقاض طغركين على السلطان محمد

كان السلطان محمد بن ملك شاه قد أمر مودود بن بوشكين صاحب الموصل بالمسير لغزو الافرنج، لان ملك القدس تابع الغارات على دمشق سنة ست وخمسمائة، واستصرخ طغركين بمودود فجمع العساكر، وسار سنة تسع. ولقيه طغركين بسهلة وقصدوا القدس وانتهوا الى الاقحوانة على الاردن وجاء بغدوين فنزل قبالتها على النهر، ومعه جوسكين صاحب جيشه، واقتتلوا

منتصف محرّم سنة عشر على بحيرة طَبَرِيّة فانهزم الافرنج، وقتل منهم كثير، وغرق كثير في بحيرة طبرية ونهر الاردن. ولقيتهم عساكر طرابلس وانطاكية فاشتدّوا وأقاموا بجبل قرب طبرية، وحاصرهم المسلمون فيه. ثم يئسوا من الظفر به فساحوا في بلادهم واكتسحوها وخرّبوها، ونزلوا مرج الصفر. وأذن مودود للعساكر في العود والراحة ليتهيأوا للغزو. وسلخ الشتاء ودخل دمشق آخر ربيع من سنة [1] ليقيم عند طغركين تلك المدّة. وصلّى معه أول جمعة، ووثب عليه باطني بعد الصلاة فطعنه، ومات آخر يومه.

واتهم طغركين بقتله، وولى السلطان مكانه على الموصل اقسنقر البرسقي فقبض على اياز بن أبي الغازي وأبيه صاحب حصن كيفا، فسار بنو أرتق الى البرسقي وهزموه، وتخلص اياز من أسره فلحق أبو الغازي أبوه بطغركين صاحب دمشق، وأقام عنده. وكان مستوحشاً من السلطان محمد لاتهامه بقتل مودود فبعث الى صاحب انطاكية من الفرنج، وتحالفوا على المظاهرة، وقصد أبو الغازي ديار بكر فظفر به قيرجان بن قراجا صاحب حمص وأسره. وجاء طغركين لاستنقاذه فحلف قيرجان ليقتلنه

(١) كذا بياض بالأصل، وذكر ابن الأثير هذه الحادثة في حوادث سنة سبع وخمسمائة، وحادث الاقتتال على بحيرة طبرية المذكور هنا قبل بضعة أسطر في منتصف محرم سنة عشر، ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ست وخمسمائة.

ان لم يرجع طغركين الى الى بلاده . وانتظر وصول العساكر من بغداد تحمله فأبطأت فأجاب طغركين الى اطلاقه .

ثم بعث السلطان محمد العساكر لجهاد الافرنج والبداءة بقتال طغركين وأبي الغازي فساروا في رمضان سنة ثمان وخمسمائة ، ومقدّمتهم برسق بن برسق صاحب همذان ، وانتهوا الى حلب ، وبعثوا الى متوليها لؤلؤ الخادم ، ومقدّم عسكرها شمس الخواص يأمرونهما بالنزول عنها . وعرضوا عليهما كتب السلطان بذلك فدافعا بالوعد ، واستحثا طغركين وأبا الغازي في الوصول فوصلا في العساكر ، وامتنعت حلب على العساكر ، وأظهروا العصيان فسار برسق الى حماة ، وهي لطغركين فملكها عنوة ونهبها ثلاثاً .

وسألها الامير قيرجان صاحب حمص الصلح ، وكان جميع ما يفتحه من البلاد له بأمر السلطان فانتقض الامراء من ذلك وكسلوا عن الغزو . وسار أبو الغازي وطغركين وشمس الخواص الى انطاكية يستنجدون صاحبها دجيل من الافرنج . ثم توادعوا الى انصرام الشتاء ، ورجع أبو الغازي الى ماردين وطغركين الى دمشق . ثم كان في اثر ذلك هزيمة المسلمين . واستشهد برسق وأخوه زنكي ، وقد تقدّم خبر هذه الهزيمة في أخبار البرسقي . ثم قدم السلطان محمد بغداد فوفد عليه اتابك طغركين صاحب دمشق في ذي القعدة من سنة تسع مستعيناً فأعانه وأعاده الى بلده ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وفاة رضوان بن تتش صاحب حلب وولاية ابنه البارسلان

ثم توفي رضوان بن تتش صاحب حلب سنة تسع وخمسمائة ، وقد كان قتل أخويه أبا طالب وبهرام ، وكان يستعين بالباطنية في أموره ويداخلهم . ولما توفي بايع مولاه لؤلؤ الخادم لابنه البأرسلان صبياً مغتلماً ، وكانت في لسانه حبسة فكان يلقب الاخرس . وكان لؤلؤ مستبداً عليه ، ولاول ملكه قتل أخويه ، وكل ملك شاه منهما شقيقه . وكانت الباطنية كثيراً في حلب في أيام رضوان حتى خافهم ابن بديع وأعيانها فلمّا توفي أذن لهم ألبارسلان في الايقاع بهم ، فقبضوا على مقدّمهم ابن طاهر الصائغ وجماعة من أصحابهم فقتلوهم وافترق الباقون .

مهلك لؤلؤ الخادم واستيلاء أبي الغازي ثم مقتل البارسلان وولاية أخيه سلطان شاه

كان لؤلؤ الخادم قد استولى على قلعة حلب ، وولي أتابكية البارسلان ابن مولاه رضوان . ثم تنكّر له فقتله لؤلؤ ونصب في الملك اخاه سلطان شاه واستبد عليه . فلمّا كان سنة احدى عشرة سار الى قلعة جعبر للاجتماع بصاحبها سالم بن مالك ، فغدر به مماليكه الاتراك وقتلوه عند خر تبرت واخذوا خزائنه . واعترضهم أهل حلب فأستعادوا منهم ما أخذوه . وولى اتابكية سلطان شاه

ابن رضوان شمس الخواص بارقياس ، وعزل لشهر ، وولي بعده أبو المعالي بن الملحي الدمشقي . ثم عزل وصودر واضطربت الدولة، وخاف أهل حلب من الافرنج فاستدعوا أبا الغازي بن أرتق وحكموه على انفسهم . ولم يجد فيها مالا فصادر جماعة الخدم ، وصانع بالمهم الافرنج حتى صار الى ماردين بنية العود الى حمايتها، واستخلف عليها ابنه حسام الدين تمرتاش ، وانقرض ملك رضوان ابن تتش من حلب والله سبحانه وتعالى أعلم .

هزيمة طغركين أمام الافرنج

كان ملك الافرنج بغدوين صاحب القدس قد توفي سنة اثنتي عشرة ، وقام بملكهم بعده القمص صاحب الرُّها الذي كان أسره جكرمس وأطلقه جاولي كما تقدّم في أخبارهم . وبعث الى طغركين في المهادنة . وكان قد سار من دمشق لغزوهم فأبى من اجابته ، وسار الى طبرية فنهبها ، واجتمع بقواد المصريين في عسقلان ، وقد امرهم صاحبهم بالرجوع الى رأي طغركين . ثم عاد الى دمشق وقصد الافرنج حصناً من أعماله فاستأمن اليهم أهله وملكوه . ثم قصدوا أذرعات فبعث طغركين ابنه بوري لمدافعتهم فتنحوا عن أذرعات الى جبل هناك . وحاصرهم بوري ، وجاء اليه أبو طغركين فراسلوه ليفرج عنهم فأبى طمعاً في اخذهم ، واستماتوا وحملوا على المسلمين حملة صادقة فهزموهم ونالوا منهم . ورجع الفلّ

الى دمشق . وسار طغركين الى أبي الغازي بحلب يستنجده فوعده بالنجدة ، وسار الى ماردين للحشد. ورجع طغركين الى دمشق كذلك، وتواعدوا للجبال ، وسبق الافرنج الى حلب ، وكان بينه وبين أبي الغازي ما نذكره في موضعه من دولة بني ارتق ، والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق لا ربّ غيره .

منازلة الافرنج دمشق

ثم اجتمع الافرنج سنة عشرين وخمسمائة ملوكهم وقامصتهم ، وساروا الى دمشق ونزلوا مرج الصفر . وبعث أتابك طغركين بالصريخ الى تركمان بديار بكر وغيرها ، وخيّم قبالة الافرنج ، واستخلف ابنه بوري على دمشق . ثم ناجزهم الحرب آخر السنة فاشتدّ القتال ، وصرع طغركين عن فرسه فانهزم المسلمون ، وركب طغركين واتبعهم ومضت خيالة الافرنج في اتباعهم ، وبقي رجالة التركمان في المعركة . فلما خلص اليهم رجالة الافرنج اجتمعوا واستماتوا وحملوا على رجالة الافرنج فقتلوهم ، ونهبوا معسكرهم وعادوا غانمين ظافرين الى دمشق . ورجعت خيالة الافرنج من اتباعهم منهزمين فوجدوا معسكرهم منهوباً ورجالتهم قتلى، وكان ذلك من الصنع الغريب .

وفاة طغركين وولاية ابنه بوري

ثم توفي أتابك طغركين صاحب دمشق في صفر سنة اثنتين

وعشرين ، وكان من موالي تاج الدولة تتش ، وكان حسن السيرة مؤثراً للعدل محباً في الجهاد ، ولقبه ظهير الدين . ولما توفي ملك بعده ابنه تاج الدولة بوري أكبر أولاده بعهده اليه بذلك ، واقر وزير أبيه ابي علي طاهر بن سعد المزدغاني على وزارته . وكان المزدغاني يرى رأي الرافضيّة الاسماعيليّة . وكان بهرام ابن أخي ابراهيم الاستراباذي لما قتل عمه ابراهيم ببغداد على هذا المذهب لحق بالشام ، وملك قلعة بانياس ، ثم سار الى دمشق وأقام بها خليفة يدعو الى مذهبه . ثم فارقها وملك القدموس وغيره من حصون الجبال ، وقابل البصرية والدرزة بوادي اليتيم [1] من أعمال بعلبك سنة اثنتين وعشرين . وغلبهم الضحاك وقتل بهرام .

وكان المزدغاني قد أقام له خليفة بدمشق يسمى أبا الوفاء فكثر اتباعه وتحكم في البلد ، وجاء الخبر الى بوري بأنّ وزيره المزدغاني والاسماعيلية قد راسلوا الافرنج بأن يملكوهم دمشق فجاء اليها ، وقتل المزدغاني ونادى بقتل الاسماعيلية . وبلغ الخبر الى الافرنج فاجتمع صاحب القدس وصاحب انطاكية وصاحب طرابلس وسائر ملوك الافرنج ، وساروا لحصار دمشق . واستصرخ تاج الملك بالعرب والتركمان ، وجاء الافرنج في ذي الحجة من السنة وبثوا سراياهم للنهب والاغارة ، ومضت منها سريه الى خوارزم فبعث تاج الدولة بوري سرية من المسلمين مع شمس

(١) كذا بالأصل ، والصحيح : .وقابل النصيرية والدروز بوادي التيم .

الخواص من أمرائه لمدافعتهم فلقوهم وظفروا بهم واستلحموهم وبلغ الخبر الى الافرنج فأجفلوا منهزمين، وأحرقوا مخلفهم واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، والله تعالى وليّ التوفيق.

أسر تاج الملك لدبيس بن صدقة وتمكين عماد الدين زنكي منه

كان بصرخد من أرض الشام [1] أميراً عليهـا فتوفي سنة خمس وعشرين، وخلف سريته واستولت على القلعة، وعلمت أنه لا يتم لها استيلاؤها إلا بتزويج رجل من أهل العصابة، فوصف لها دبيس فكتبت اليه تستدعيه، وهو على البصره منابذاً للسلطان عندما رجع من عند سنجر، فاتخذ الادلاء. وسار الى صرخد فضلّ به الدليل بنواحي دمشق، ونزل على قوم من بني كلاب شرقي الغوطة فحملوه الى تاج الملك فحبسه، وبعث به الى عماد الدين زنكي يستدعيه ويتهدّده على منعه، وأطلق سريج بن تاج الملوك والامراء الذين كانوا مأسورين معه، فبعث تاج الملك بدبيس اليه، وأشفق على نفسه. فلما وصل الى زنكي خالف ظنه وأحسن اليه وسدّ خلته وبسط أمله. وبعث فيه المسترشد أيضاً يطلبه وجاء بابن الانباري، وسمع في طريقه باحسان زنكي اليه فرجع، ثم أرسل المسترشد يشفع فيه فأطلق.

---

(١) كذا بياض بالأصل، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على اسم هذا الأمير.

وفاة تاج الملوك بوري صاحب دمشق وولاية ابنه شمس الملوك إسمعيل

كان تاج الملوك بوري قد ثار به جماعة من الباطنية سنة خمس وعشرين، وطعنوه فأصابته جراحة واندملت. ثم انتقضت عليه في رجب من سنة ست وعشرين لاربع سنين ونصف من امارته وولي بعده ابنه شمس الملوك اسمعيل بعهده اليه بذلك. وكان عهد بمدينة بعلبك وأعمالها لابنه الآخر شمس الدولة، وقام بتدبير أمره الحاجب يوسف ابن فيروز شحنة دمشق، وأحسن الى الرعيّة وبسط العدل فيهم والله سبحانه وتعالى إعلم.

استيلاء شمس الملوك على الحصون

ولما تولى شمس الملوك اسمعيل، وسار أخوه محمد الى بعلبك خرج اليها، وحاصر أخاه محمداً بها، وملك البلد. واعتصم محمد بالحصن وسأل الابقاء فأبقي عليه ورجع الى دمشق. ثم سار الى باشاش، وقد كان الافرنج الذين بها نقضوا الصلح وأخذوا جماعة من تجار دمشق في بيروت فسار اليها طاوياً وجه مذهبه، حتى وصلها في صفر سنة سبع وعشرين وقاتلها ونقب أسوارها، وملكها عنوة، ومثّل بالافرنج الذين بها. واعتصم فلّهم بالقلعة حتى استأمنوا، وملكها ورجع الى دمشق. ثم بلغه ان المسترشد زحف الى الموصل فطمع هو في حماة، وسار آخر رمضان وملكها يوم

الفطر من غده فاستأمنوا اليه ، وملكها واستولى على ما فيها . ثم سار الى قلعة شيزر وبها صاحبها من بني منقذ فحاصرها ، وصانعه صاحبها بمال حمله اليه فأفرج عنه وسار الى دمشق في ذي القعدة من السنة .

ثم سار في محرّم سنة ثمان وعشرين الى حصن شقيق[1] في الجبل المطل على بيروت وصيدا ، وبه الضحّاك بن جندل رئيس وادي التيم قد تغلب عليه وامتنع به . وتحاماه المسلمون والافرنج يحتمي من كل طائفة بالاخرى فسار اليه وملكه من وقته . وعظم ذلك على الافرنج فساروا الى حوران وعاثوا في نواحيها فاحتشد هو واستنجد بالتركمان ، وسار حتى نزل قبالتهم ، وجهّز العسكر هنالك . وخرج في البرّ وأناخ على طَبَرِيّة وعكا فاكتسح نواحيها وامتلأت أيدي عسكره بالغنائم والسبي . وانتهى الخبر الى الافرنج بمكانهم من بلاد حوران فأجفلوا إلى بلادهم ، وعاد هو الى دمشق ، وراسله الافرنج في تجديد الهدنة فهادنهم .

مقتل شمس الملوك وولاية أخيه شهاب الدين محمود

كان شمس الملوك سيء السيرة كثير الظلم والعدوان على رعيته مرهف الحدّ لاهله وأصحابه ، حتى انه وثب عليه بعض مماليك جدّه سنة سبع وعشرين ، وعلاه بالسيف ليقتله فأخذ وضرب فأقرّ على جماعة

(١) كذا ، وهي قلعة الشقيف.

داخلوه فقتلهم ، وقتل معهم أخاه سونج فتنكر الناس له ، وأشيع عنه بأنه كاتب عماد الدين زنكي ليملكه دمشق واستحثه في الوصول لئلّا يسلّم البلد الى الافرنج فسار زنكي فصدق الناس الاشاعة ، وانتقض أصحاب أبيه لذلك ، وشكروا لأُمِّه فأشفقت ثم تقدّمت الى غلمانه بقتله فقتلوه في ربيع الآخر سنة تسع وعشرين ، وقيل انه اتهم أمّه بالحاجب يوسف بن فيروز فاعتزم على قتلها فهرب يوسف ، وقتلته أمّه . ولما قتل ولي أخوه شهاب الدين محمود من بعده ، ووصل أتابك زنكي بعد مقتله فحاصر دمشق من ميدان الحصار ، وجدّوا في مدافعته والامتناع عليه . وقام في ذلك معين الدين أنر مملوك جدّه طغركين مقاماً محموداً وجلّى في المدافعة والحصار . ثم وصل رسول المسترشد أبو بكر بن بهثر الجزري الى أتابك زنكي يأمره بمسالمة صاحب دمشق الملك ألبأرسلان شهاب الدين محمود ، وصلحه معه فرحل عن دمشق منتصف السنة .

استيلاء شهاب الدين محمود على حمص

كانت حمص لقيرجان بن قراجا ولولده من بعده والموالي بها من قبلها ، وطالبهم عماد الدين زنكي في تسليمها ، وضايقهم في نواحيها فراسلوا شهاب الدين صاحب دمشق في أن يملكها ويعوّضهم عنها بتدمر ؛ فأجاب واستولى على حمص ، وسار اليها سنة ثلاثين

وأقطعها لمملوك جدّه معين الدين أنر ، وأنزل معه حامية من عسكره ورجع الى دمشق واستأذنه الحاجب يوسف بن فيروز في العود من تدمر الى دمشق ؛ وقد كان هرب اليها كما قدّمناه . وكان جماعة من الموالي منحرفين عنه بسبب ما تقدّم في مقتل سونج فنكروا ذلك فلاطفهم ابن فيروز واسترضاهم ، وحلف لهم انه لا يتولى شيئاً من الامور . ولما دخل رجع الى حاله فوثبوا عليه وقتلوه ، وخيموا بظاهر دمشق واشتطوا في الطلب فلم يسعفوا بكلمة فالحقوا بشمس الدولة محمد بن تاج الملوك في بعلبك ، وبثوا السرايا الى دمشق فعاثت في نواحيها حتى أسعفهم شهاب الدين بكل ما طلبوه فرجعوا الى ظاهر دمشق ، وخرج لهم شهاب الدين وتحالفوا ودخلوا الى البلد . وولى مرواش كبيرهم على العساكر ، وجعل اليه الحلّ والعقد في دولته والله أعلم .

استيلاء عماد الدين زنكي على حمص وغيرها من أعمال دمشق

ثم سار أتابك زنكي الى حمص في شعبان سنة احدى وثلاثين ، وقدم اليه حاجبه صلاح الدين الباغيسياني وهو أكبر أمرائه مخاطباً واليها معين الدين أنر في تسليمها فلم يفعل . وحاصرها فامتنعت عليه فرحل عنها آخر شوّال من السنة . ثم سار سنة اثنتين وثلاثين الى نواحي بعلبك فملك حصن المجدل على الامان ، وهو لصاحب دمشق . ثم سار الى حمص وحاصرها ، وعاد ملك الروم الى حلب

فاستدعى الفرنج ، وملك كثيراً من الحصون مثل عين زربة وتل حمدون ، وحاصر انطاكية ثم رجع وأفرج أتابك زنكي حلال ذلك عن حمص . ثم عاود منازلتها بعد مسير الروم وبعث الى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب اليه امه مرد خاتون ابنة جاولي طمعاً في الاستيلاء على دمشق فزوّجها له ، ولم يظفر بما أمله من دمشق . وسلموا له حمص وقلعتها ، وحملت اليه خاتون في رمضان من السنة والله أعلم .

مقتل شهاب الدين محمود وولاية أخيه محمد

لما قتل شهاب الدين محمود في شوّال سنة ثلاث وثلاثين ، اغتاله ثلاث من مواليه في مضجعه بخلوته وهربوا فنجا واحد منهم وأصيب الآخران ، كتب معين الدين أنز الى أخيه شمس الدين محمد بن بوري صاحب بعلبك بالخبر فسارع ودخل دمشق ، وتبعه الجند والاعيان وفوّض أمر دولته الى معين الدين أنز مملوك جده وأقطعه بعلبك واستقامت أموره .

استيلاء زنكي على بعلبك وحصاره دمشق

ولما قتل شهاب الدين محمود وبلغ خبره الى أمه خاتون زوجة أتابك زنكي بحلب عظم جزعها عليه ، وأرسلت الى زنكي بالخبر ، وكان بالجزيرة ، وسألت منه الطلب بثأر ابنها فسار الى دمشق ،

واستعدّوا للحصار فعدل الى بعلبك. وكانت لمعين الدين أنز كما قلناه، وكان أتابك زنكي دسّ اليه الاموال ليمكنه من دمشق فلم يفعل فسار الى بلده بعلبك، وجدّ في حربها ونصب عليها المجانيق حتى استأمنوا اليه، وملكها في ذي الحجة آخر سنة ثلاث وثلاثين. واعتصم جماعة من الجند بقلعتها ثم استأمنوا فقتلهم وأرهب الناس بهم. ثم سار الى دمشق وبعث الى صاحبها في تسليمها والنزوك عنها على ان يعوّضه عنها فلم يجب الى ذلك، فزحف اليها ونزل داريا منتصف ربيع الاوّل سنة أربع وثلاثين. وبرزت اليه عساكر دمشق فظفر بهم وهزمهم ونزل المصلى، وقاتلهم فهزمهم ثانياً. ثم امسك عن قتالهم عشرة أيام، وتابع الرسل اليه بأن يعوّضه عن دمشق ببعلبك او حمص او ما يختاره فنمعه أصحابه، فعاد زنكي الى القتال واشتد في الحصار والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

وفاة جمال الدين محمد بن بوري وولاية ابنه مجير الدين أنز

ثم توفي جمال الدين محمد بن بوري صاحب دمشق رابع شعبان سنة أربع وثلاثين وزنكي محاصر بها، وهو معه في مراوضة الصلح وجمع زنكي فيما عساه أن يقع بين الامراء من الخلاف فاشتدّ في الزحف فما وهنوا لذلك، وولوا من بعد جمال الدين محمداً ابنه مجير الدين انز واقام بتربيته وتدبير دولته معين الدين أنز مدبر دولته.

وأرسل الى الافرنج يستنجدهم على مدافعة زنكي على أن يحاصر قاشاش فاذا فتحها أعطاهم اياها فأجابوا الى ذلك حذراً من استطالة زنكي بملك دمشق ، فسار زنكي للقائهم قبل اتصالهم بعسكر دمشق ونزل حوران في رمضان من السنة فخام الافرنج عن لقائه ، وأقاموا ببلادهم فعاد زنكي الى حصار دمشق في شوّال من السنة ، ثم أحرق قرى المرج والغوطة ، ورحل عائداً الى بلده. ثم وصل الافرنج الى دمشق بعد رحيله فسار معهم معين الدين أنز الى قاشاش من ولاية زنكي ليفتحها ويعطيها للافرنج كما عاهدهم عليه ، وقد كان واليها أغار على مدينة صور ، ولقيه في طريقه صاحب أنطاكية وهو قاصد الى دمشق لانجاد صاحبها على زنكي فقتل الوالي ومن معه من العسكر ، ولجأ الباقون الى قاشاش ، وجاء معين الدين أنز أثر ذلك في العساكر فملكها وسلمها للافرنج . وبلغ الخبر الى أتابك زنكي فسار الى دمشق بعد أن فرّق سراياه وبعوثه على حوران وأعمال دمشق ، وسار هو متجرّداً اليها فصبحها وخرج العسكر لقتاله فقاتلهم عامّة يومه . ثم تأخر الى مرج راهط وانتظر بعوثه حتى وصلوا اليه، وقد امتلأت أيديهم بالغنائم ، ورحل عائداً الى بلده .

مسير الافرنج لحصار دمشق

كان الافرنج منذ ملكوا سواحل الشام ومدنه، تسير اليهم

أمم الافرنج من كل ناحية من بلادهم مدداً لهم على المسلمين لما يرونه من تفرّد هؤلاء بالشام بين عدوّهم . وسار في سنة ثلاث وأربعين ملك الالمان من أمراء الافرنج من بلاده في جموع عظيمة قاصداً بلاد الاسلام لا يشك في الغلب والاستيلاء ، لكثرة عساكره وتوفر عدده وأمواله . فلما وصل الشام اجتمع عليه عساكر الافرنج الذين له ممتثلين أمره فأمرهم بالمسير معه الى دمشق ، فساروا لذلك سنة ثلاث وأربعين وحاصروها ، فقام معين الدين أنز في مدافعتهم المقام المحمود . ثم قاتلهم الافرنج سادس ربيع الاوّل من السنة فنالوا من المسلمين بعد الشدّة والمصابرة ، واستشهد ذلك اليوم الفقيه حجة الدين يوسف العندلاوي المغربي ، وكان عالماً زاهداً . وسأله معين الدين يومئذ في الرجوع لضعفه وسنه فقال له : «قد بعت واشترى مني فلا أقيل ولا أستقيل» يشير الى آية الجهاد وتقدّم حتى استشهد عند أسرت على نصف فرسخ من دمشق .

واستشهد معه خلق ، وقوي الافرنج ، ونزل ملك الالمان الميدان الأخضر . وكان عماد الدين زنكي صاحب الموصل قد توفي سنة احدى وأربعين ، وولي ابنه سيف الدين غازي الموصل وابنه نور الدين محمود حلب فبعث معين الدين أنز الى سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده ، فجاء لانجاده ومعه أخوه نور الدين ، وانتهوا الى مدينة حمص . وبعث الى الافرنج يتهدّدهم

فاضطرّوا الى قتاله ، وانقسمت مؤنتهم بين الفريقين ، وأرسل معين الدين الى الالمان يتهدّدهم بتسليم البلد الى ملك المشرق يعني صاحب الموصل ، وأرسل الى فرنج الشام يحذرهم من استيلاء ملك الالمان على دمشق فانه لا يبقى لكم معه مقام في الشام . ووعدهم بحصن قاشاش فاجتمعوا الى ملك الالمان وخوفوه من صاحب الموصل أن يملك دمشق فرحل عن البلد ، وأعطاهم معين الدين قلعة قاشاش ، وعاد ملك الالمان الى بلاده على البحر المحيط في أقصى الشمال والمغرب . ثم توفي معين الدين أنز مدبّر دولة أتق ، والمتغلب عليه سنة أربع وأربعين لسنة من حصار ملك الالمان والله أعلم .

استيلاء نور الدين محمود العادل على دمشق وانقراض بني تتش من الشام

كان سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل قد توفي سنة أربع وأربعين ، وملك أخوه قطب الدين ، وانفرد أخوه الآخر نور الدين محمود بحلب وما يليها . وتجرّد لطلب دمشق ولجهاد الافرنج . واتفق أنّ الافرنج سنة ثمان وأربعين ملكوا عسقلان من يد خلفاء العلوية لضعفهم كما مرّ في أخبار دولتهم . ولم يجد نور الدين سبيلًا الى ارتجاعها منهم لاعتراض دمشق بينه وبينهم . ثم طمعوا في ملك دمشق بعد عسقلان . وكان أهل دمشق يؤدّون اليهم الضريبة فيدخلون لقبضها ويتحكمون فيهم ،

ويطلقون من أسرى الافرنج الذين بها كل من أراد الرجوع الى أهله فخشي نور الدين عليها من الافرنج ، ورأى أنه إن قصدها استنصر صاحبها عليه بالافرنج ، فراسل صاحبها مجير الدين واستماله بالهدايا حتى وثق به ، فكان يغريه بأمرائه الذين يجد بهم القوّة على المدافعة واحداً واحداً ، ويقول له : انّ فلاناً كاتبني بتسليم دمشق فيقتله مجير الدين حتى كان آخرهم عطاء بن حافظ السَلَمي الخادم ، وكان شديداً في مدافعة نور الدين فأرسل الى مجير الدين بمثلها فيه فقبض عليه وقتله . فسار حينئذ نور الدين الى دمشق بعد أن كاتب الاحداث الذين بها واستمالهم فوعدوه ، وأرسل مجير الدين الى الافرنج يستنجده من نور الدين على أن يعطيهم بعلبك فأجابوه وشرعوا في الحشد وسبقهم نور الدين الى دمشق فثار الاحداث الذين كاتبهم وفتحوا له الباب الشرقي فدخل منه وملكها . واعتصم مجير الدين بالقلعة فراسله في النزول عنها ، وعوّضه مدينة حمص فسار اليها ، ثم عوّضه عن حمص بالس فلم يرضها . وسار الى بغداد واختط بها داراً قرب النظامية وتوفي بها . واستولى نور الدين على دمشق وأعمالها ، واستضافها الى ملكه حتى حلب . وانقرض ملك بني تتش من الشام والبلاد الفارسية أجمع والبقاء لله وحده ، والله مالك الملك لا ربّ غيره سبحانه وتعالى .

مجير الدين آبق بن شمس الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن طغركين أتابك دقاق بن تتش بن الب ارسلان

البارسلان بن رضوان

سلطان شاه

شهاب الدين محمود

شمس الملوك إسماعيل

الخبر عن دولة قطلمش وبنيه ملوك قونية وبلاد الروم من السلجوقية ومبادىء أمورهم وتصاريف أحوالهم

كان قُطُلمش هذا من عظماء أهل هذا البيت ونسبه فيهم مختلف ، فقيل قطلمش بن بيقو ، وابن الاثير تارة يقول قطلمش ابن عم طغرلبك ، وتارة يقول قطلمش بن اسرائيل من سُلجوق ، ولعله بيان ذلك الاجمال . ولما انتشر السُلجوقيّة في البلاد طالبين للملك ، دخل قطلمش هذا الى بلاد الروم وملك قونية وأقصرا ونواحيها ، وبعثه السلطان طغرلبك بالعساكر مع قريش بن بدران صاحب الموصل ، في طلب دَبيس بن مَزْيَد عندما أظهر الدولة العلوية في الحلّة وأعمالها ، فهزمهم دبيس والبساسيري كما تقدّم في أخبارهم . ثم عصى على السلطان ألبأرسلان بعد طغرلبك وقصد الريّ ليملكه ، وقاتله البارسلان سنة ست وخمسين فانهزم عسكر قطلمش ، ووجد بين القتلى فتجمع له البارسلان وقعد للعزاء فيه كما تقدّم في أخبارهم . وقام بأمره ابنه سليمان وملك قونية وأقصرا وغيرهما من الولاية التي كانت بيد أبيه ، وافتتح أنطاكية من يد الروم سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، وقد كانوا ملكوها منذ خمس وخمسين وأربعمائة فأخذها منهم وأضافها الى ملكه .

وقد تقدّم خبر ملكه اياها في دولتهم ، وكان لمسلم بن قريش صاحب الموصل ضريبة على الروم بانطاكية ، فطالب بها سليمان بن

قطلمش فامتعض لذلك وأنف منه. فجمع مسلم العرب والتركمان لحصار انطاكية، ومعه جق أمير التركمان، والتقيا سنة ثمان وسبعين. وانحاز جق الى سليمان فانهزم العرب، وسار سليمان بن قطلمش لحصار حلب فامتنعت عليه، وسألوه الامهال حتى يكاتب السلطان ملك شاه. ودسوا الى تاج الدولة تُتُش صاحب دمشق يستدعونه فأغذّ السير، واعترضه سليمان بن قطلمش على غير تعبئة فانهزم، وطعن نفسه بخنجر فمات، وغنم تتش معسكره.

وملك بعده ابنه قليج ارسلان، وأقام في سلطانه. ولما زحف الافرنج الي سواحل الشام سنة تسعين وأربعمائة جعلوا طريقهم على القسطنطينية فنعهم من ذلك ملك الروم، حتى شرط عليهم أن يعطوه أنطاكية اذا ملكوها فأجابوا لذلك، وعبروا خليج القسطنطينية ومروا ببلاد قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش فلقيهم في جوعه قريباً من قونية فهزموه، وانتهوا الى بلاد ابن ليون الارمني فروا منها الى انطاكية، وبها باغيبسيان من أمراء السلجوقية فاستعدّ للحصار، وأمر بحفر الخندق فعمل فيه المسلمون يوماً، ثم عمل فيه النصارى الذين كانوا بالبلد من الغد. فلما جاؤا للدخول منعهم وقال: أنا لكم في مخلفكم حتى ينصرف هؤلاء الافرنج. وزحفوا اليه فحاصروه تسعة أشهر.

ثم عدا بعض الحامية من سور البلد عليهم فادخلوهم من بعض مسارب الوادي، وأصبحوا في البلد فاستباحوه، وركب

باغيسيان للصلح فهرب ، ولقيه حطاب من الارمن فجاء برأسه الى الافرنج ، وولى عليها بيشمند من زعماء الافرنج . وكان صاحب حلب وصاحب دمشق قد عزما على النفير الى انطاكية لمدافعتهم فكاتبهم الافرنج بالمسالمة، وانهم لا يعرضون لغير انطاكية فأوهن ذلك من عزائمهم ، وأقصروا عن انجاد باغيسيان . وكان التركمان قد انتشروا في نواحي العراق ، وكان كمستكين بن طبلق المعروف أبوه بالوانشمند ، ومعناه المعلم عندهم ، قد ملك سيواس من بلاد الروم مما يلي انطاكية .

وكان بملطية مما يجاورها متغلب آخر من التركمان ، وبينه وبين الوانشمند حروب ، فاستنجد صاحب ملطية عليه الافرنج، وجاء بيفل من انطاكية سنة ثلاث وتسعين في خمسة آلاف فلقيه ابن الوانشمند وهزمه وأخذه أسيراً . وجاء الافرنج لتخليصه فنازلوا قلعة أنكورية وهي أنقرة فأخذوها عنوة . ثم ساروا الى أخرى فيها اسمعيل بن الوانشمند وحاصروها فجمع ابن الوانشمند وقاتلهم ، وأكمن لهم وكانوا في عدد كثير . فلمّا قاتلهم استطرد لهم حتى خرج علَيهم الكمين ، وكرّ علَيهم فلَم يفلت منهم أحد . وسار الى ملطيــة فملكها وأسر صاحبها ، وجاءه الافرنج من انطاكية فهزمهم .

استيلاء قليج ارسلان على الموصل

كانت الموصل وديار بكر والجزيرة بيد جكرمش من قواد السلجوقية فمنع الحمل وهمّ بالانتقاض ، فأقطع السلطان الموصل وما معها لجاولي بن سكاوو ، والكل من قوادهم ، وأمرهم بالمسير لقتال الافرنج. فسار جاولي وبلغ الخبر لجكرمش فسار من الموصل الى إربل ، وتعاقد مع ابي الهيجاء بن موشك الكردي الهدباي صاحب اربل ، وانتهى الى البواريج فعبر اليه جكرمش دجلة ، وقاتله فانهزمت عساكر جكرمش ، وبقي جكرمش واقفاً لفالج كان به فأسره جاولي ، ولحق الفلّ بالموصل فنصبوا مكانه ابنه زنكي صبيًّا صغيراً وأقام بأمره غزغلي مولى أبيه ، وكانت القلعة بيده ، وفرّق الاموال والخيول .

واستعدّ لمدافعة جاولي ، وكاتب صدقة بن مزيد والبُرسُقي شحنة بغداد ، وقليج أرسلان صاحب بلاد الروم يستنجدهم ، ويعد كلًّا منهم بملك الموصل اذا دافعوا عنه جاولي فأعرض صدقة عنه ولم يحتفل بذلك . ثم سار جاولي الى الموصل وحاصرها وعرض جكرمش للقتل أو يسلموا اليه البلد فامتنعوا ، وأصبح جكرمش في بعض أيام حصارها (1) وسمع جاولي بأن قليج أرسلان سار

(1) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٣٣٩: فلما اصطفوا للحرب حمل جاولي من القلب على قلب جكرمش فانهزم من فيه، وبقي جكرمش وحده لا يقدر على الهزيمة لفالج كان به.

في عساكره الى نصيبين فأفرج عن الموصل ، وسار الى سنجار وسبق البرسقي اليها بعد رحيل جاولي ، وأرسل الى أهلها فلم يجيبوه بشيء . وعاد الى بغداد، واستدعى رضوان صاحب دمشق جاولي سكاوو لمدافعة الافرنج عنه ، فساروا اليه . وخرج من الموصل عسكر جكرمش الى قليج ارسلان بنصيبين فتحالفوا معه ، وجاؤوا به الى الموصل فملكها آخر رجب من سنة خمسمائة .

وخرج اليه ابن جكرمش وأصحابه وملك القلعة من غزغلي وجلس على التخت وخطب لنفسه بعد الخليفة ، وأحسن الى العسكر ، وسار في الناس بالعدل . وكان في جملته ابراهيم بن نيال التركماني صاحب آمد ، ومحمد بن جق التركماني صاحب حصن زياد ، وهو خرت برت . وكان ابراهيم بن نيال قد ولى تتش على آمد حين ولي ديار بكر ، وكانت بيده . وأما خرت برت فكانت بيد القلادروس ترجمان الروم ، والرُها وانطاكية من أعماله ، فملك سليمان بن قطلمش انطاكية . وملك فخر الدولة بن جهير ديار بكر فضعف القلادروس ، وملك جُق خرت برت من يده . وأسلم القلادروس على يد السلطان ملك شاه وأمره على الرها فأقام بها حتى مات . وملكها جق ، هي وما جاورها من الحصون ، أورثها ابنه محمداً بعد موته ، والله تعالى ولي التوفيق .

الحرب بين قليج ارسلان وبين الافرنج

كان سمند صاحب انطاكية من الافرنج قد وقعت بينه وبين ملك الروم بالقسطنطينية وحشة واستحكمت. وسار سمند فنهب بلاد الروم وعزم على قصد انطاكية، فاستنجد ملك الروم بقُليج ارسلان فأمدّه بعساكره. وسار مع ذلك الروم فهزموا الافرنج وأسروهم، ورجع الفلّ الى بلادهم بالشام فاعتزموا على قصد قُلّيج ارسلان بالجزيرة فأتاهم خبر مقتله فأقصروا، والله تعالى ولي التوفيق.

مقتل قليج ارسلان وولاية ابنه مسعود

وقد تقدّم لنا استيلاء قليج ارسلان على الموصل وديار بكر وأعمالها، وجلوسه على التخت، وان جاولي سكاوو سار الى سنجار ثم سار منها الى الرَّحَبَة. وكان قليج ارسلان خطب له بها صاحبها محمد بن السَّبّاق من بني شيبان بعد مهلك دقاق، وانتقاضه على أبيه. فلما حاصرها جاولي بعث اليه رضوان بن تتش صاحب حلب في النجدة على الافرنج لما ساروا الى بلاده، فوعده لانقضاء الحصار. وجاء رضوان فحضر عنده واشتد الحصار على أهل الرحبة وغدر بعضهم فأدخل أصحاب جاولي ليلًا ونهبوها الى الظهر. وخرج اليه صاحبها محمد الشيباني فأطاعه ورجع عنه.

وبلغ الخبر الى قليج ارسلان فسار من الموصل لحرب جاولي، واستخلف عليها ابنه ملك شاه صبياً صغيراً مع أمير يدبره. فلما انتهى الى الخابور هرب عنه ابراهيم بن ينال صاحب آمد ولحق ببلده. واعتزم قليج ارسلان على المطاولة، واستدعى عسكره الذين أنجدهم ملك الروم على الافرنج فجاؤا اليه، واغتنم جاولي قلة عسكره فلقيه آخر ذي القعدة من السنة، واشتدت الحرب. وحمل قليج ارسلان على جاولي بنفسه. وصرع صاحب الراية وضرب جاولي بسيفه. ثم حمل أصحاب جاولي عليه فهزموه، وألقى نفسه في الخابور فغرق. وسار جاولي الى الموصل فملكها، وأعاد خطبة السلطان محمد. وبعث اليه ملك شاه بن قليج ارسلان وولى مكان قليج ارسلان في قونية وأقصرا وسائر بلاد الروم ابنه مسعود، واستقام له ملكها.

استيلاء مسعود بن قليج ارسلان على ملطية وأعمالها

كانت ملطية وأعمالها وسيواس لابن الوانشمند من التركمان كما مر وكانت بينه وبينهم حروب وهلك كستكين بن الوانشمند وولي مكانه ابنه محمد. واتصلت حروبه مع الافرنج كما كان ابوه معهم. ثم هلك سنة سبع وثلاثين فاستولى مسعود بن قليج ارسلان على الكثير منها وبقي الباقي بيد أخيه باغي ارسلان بن محمد.

وفاة مسعود بن قليج وولاية ابنه قليج ارسلان

ثم توفي مسعود بن قليج ارسلان سنة احدى وخمسين وخمسمائة وملك مكانه ابنه قليج ارسلان فكانت بينه وبين باغي ارسلان ابن الوانشمند وصاحب ملطية وما جاورها من ملك الروم حروب، بسبب انّ قليج ارسلان تزوّج بنت الملك طايق بن علي ابن أبي القاسم فزوّجها اليه بجهاز عظيم، وأغار عليه باغي ارسلان صاحب ملطية فأخذها بما معها وزوّجها بابن أخيه ذي النون بن محمد بن الوانشمند بعد ان أشار عليها بالردّة لينفسخ النكاح. ثم عادت الى الاسلام وزوجها بابن أخيه فجمع قليج ارسلان عساكره، وسار الى باغي ارسلان بن الوانشمند فهزمه باغي ارسلان، واستنجد ملك الروم فأمده بعسكر. وسار باغي ارسلان خلال ذلك .

وولي ابراهيم ابن أخيه محمد، وملك قليج ارسلان بعض بلاده واستولى أخوه ذو النون بن محمد بن الوانشمند على قيسارية . وانفرد شاه بن مسعود أخو قليج ارسلان بمدينة الكورية، وهي انقرة، واستقرت الحال على ذلك . ثم وقعت الفتنه بين قليج ارسلان وبين نور الدين محمود بن زنكي، وتراجعوا للحرب . وكتب الصالح بن رزيك المتغلب على العلوي بمصر الى قليج ارسلان ينهاه عن ذلك . ثم هلك ابراهيم بن محمد بن الوانشمند وملك مكانه

أخوه ذو النون، وانتقض قليج ارسلان عليه، وملك ملطية من يده، والله تعالى أعلم.

مسير نور الدين العادل الى بلاد قليج ارسلان

ثم سار نور الدين محمود بن زنكي سنة ثمان وستين الى ولاية قليج ارسلان بن مسعود ببلاد الروم، وهي ملطية وسيواس وأقصرا، فجاءه قليج ارسلان متنصلاً معتذراً فأكرمه وثنى عزمه عن قصد بلاده. ثم أرسل اليه شفيعاً في ذي النون بن الوانشمند [1] يرد عليه بلاده فلم يشفعه، فسار اليه. وملك مرعش ونهسنا [2] وما بينهما في ذي القعدة من السنة. وبعث عسكراً الى سيواس فملكوها فمال قليج ارسلان الى الصلح. وبعث الى نور الدين يستعطفه، وقد بلغه عن الفرنج ما أزعجه فأجابه على أن يمدّه بالعساكر للغزو، وعلى أن يبقي سيواس، بيد نواب نور الدين، وهي لذي النون بن الوانشمند. ثم جاءه كتاب الخليفة باقطاع البلاد، ومن جملتها بلاد قليج ارسلان وخلاط وديار بكر. ولما مات نور الدين عادت سيواس لقليج ارسلان، وطرد عنها نواب ذي النون.

---

(١) في الكامل ج ٩ ص ١٢٠: ذي النون ابن دانشمند صاحب ملطية وسيواس.

(٢) في الكامل: فسار نور الدين إليه فابتدأ بكيسون وبهنسي ومرعش ومرزبان فملكها وما بينها.

مسير صلاح الدين لحرب قليج ارسلان

كان قليج ارسلان بن مسعود صاحب بلاد الروم ، قد زوّج بنته من نورالدين محمود بن قليج ارسلان بن داود بن سقمان صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر ، وأعطاه عدّة حصون فلم يحسن عشرتها وتزوّج عليها ، وهجر مضجعها ، وامتعض أبوها قليج ارسلان لذلك . واعتزم على غزو نور الدين في ديار بكر وأخذ بلاده فاستجار نور الدين بصلاح الدين بن أيوب ، واستشفع به فلم يشفعه . وتعلل بطلب البلاد التي أعطاه عند المصاهرة فامتعض صلاح الدين لذلك . وكان يحارب الافرنج بالشام فصالحهم ، وسار في عساكره الى بلاد الروم . وكان الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود بالشام فعدل عنه ومرّ على تل بلشر الى زغبان ، ولقي بها نور الدين محمد صاحب كيفا . وبعث اليه قليج ارسلان رسولاً يقرر غدره بابنته فاغتاظ على الرسول ، وتوعّده بأخذ بلادهم فتلطف له الرسول . وخلص معه نجيا فقبح له ما ارتكبه من أجل هذه المرأة من ترك الغزو ، ومصالحة العدو ، وجمع العساكر وخساره ، وان بنت قليج ارسلان لو بعثت اليه بعد وفاة ابيها تسأل منه النصفة بينها وبين زوجها لكان احق ما تقصده فامتنعت . وعلم ان على نفسه الحق فأمر الرسول ان يصلح بينهم ، ويكون هو عوناً له على ذلك فداخلهم ذلك الرسول في الصلح على ان يطلق

هذه المرأة بعد سنة ، ويعقد بينهم ذلك . ورجع كل الى بلده ، ووفى نور الدين بما عقد على نفسه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قسمة قليج ارسلان أعماله بين ولده وتغلبهم عليه

ثم قسم قليج ارسلان سنة سبع وثمانين اعماله بين ولده: فاعطى قونية باعمالها لغياث الدين كسنجر واقصرا وسيواس لقطب الدين، ودوقاط لركن الدين سليمان وانقرة وهي أنكورية لمحيي الدين وملطية لعز الدين قيصر شاه و [1] لمغيث الدين وقيسارية لنور الدين محمود ، وأعطى تكسار واماسا لابني أخيه . وتغلب عليه ابنه قطب الدين وحمله على انتزاع ملطية من يد قيصر شاه فانتزعها ، ولحق قيصر شاه بصلاح الدين بن أيوب مستشفعاً به فأكرمه ، وزوجه ابنة أخيه العادل . وشفع له عند أبيه وأخيه فشفعوه وردوا عليه ملطية . ثم زاد تغلب ركن الدين وحجر عليه وقتل دائبة في مدينته[2] ، وهو اختيار الدين حسن فخرج سائر بنيه عن طاعته ، وأخذ قطب الدين أباه ، وسار به الى قيسارية ليملكها من اخيه فهرب قليج ارسلان ودخل قيسارية . وعاد قطب الدين الى قونية واقصرا فملكها وبقي قليج ارسلان ينتقل بين

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٢٢٢ : وسلم أبلستين إلى ولده مغيث الدين.

(٢) كذا بالأصل وهي عبارة محرفة، وفي الكامل: وحجر عليه قطب الدين، وكان قلج أرسلان قد استناب في مدينة ملكه رجلاً يعرف باختيار الدين حسن. فلما غلب قطب الدين على الأمر قتل حسناً.

ولده من واحد الى آخر ، وهم معرضون عنه حتى استنجد بغياث الدين كسنجر صاحب [(١)] منهم فأنجده ، وسار معه الى قونية فملكها . ثم سار الى اقصرا وحاصرها ، ثم مرض قليج ارسلان ، وعاد الى قونية فتوفي فيها . وقيل انما اختلف ولده عليه لانه ندم على قسمة أعماله بينهم ، وأراد ايثار ابنه قطب الدين بجميعها وانتقضوا عليـه لذلك وخرجوا عن طاعته ، وبقي يتردّد بينهم وقصد كسنجر وصاحب قونية فأطاعه ، وخرج معه بالعساكر لحصار محمود أخيه في قيسارية ، وتوفي قليج ارسلان وهو محاصر لقيسارية ورجع غياث الدين الى قونية .

وفاة قليج ارسلان وولاية ابنه غياث الدين

ثم توفي قليج ارسلان بمدينة قونية أو على قيسارية كما مرّ من الخلاف منتصف ثمان وثمانين لسبع وعشرين سنة من ملكه ، وكان مهيباً عادلا حسن السياسة كثير الجهاد . ولما توفي واستقلّ ابنه غياث الدين كسنجر بقونية وما اليها . وكان قطب الدين أخوه صاحب اقصرا وسيواس . وكان كلما سار من احداهما الى الاخرى يجعل طريقه على قيسارية ، وبها أخوه نور الدين محمود يتلقاه بظاهرها حتى استنام اليه مدة فغدر به وقتله ، وامتنع

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل: ولم يزل قليج إرسلان يتحول من ولد إلى ولد وكل منهم يتبرم به حتى مضى إلى ولده غياث الدين كيخسرو صاحب مدينة برغلوا، فلما رآه فرح به وخدمه.

أصحابه بقيسارية . وكان كبيرهم حسن فقتله مع أخيه ، ثم أطاعوه وأمكنوه من البلد ، ومات قطب الدين اثر ذلك .

استيلاء ركن الدين سليمان على قونية وأكثر بلاد الروم وفرار غياث الدين

ولما توفي قليج ارسلان ، وولي بعده في قونيــة ابنه غياث الدين كسنجر ، وبنوه يومئذ على حالتهم في ولايتهم التي قسمها بينهم أبوهم . وملك قطب الدين منهم قيسارية بعد أن غدر بأخيه محمود صاحبها . ومات قطب الدين اثر ذلك فسار ركن الدين سليمان صاحب دوقاط الى التغلب على أعمــال سلفه ببلاد الروم ، فسار الى سيواس واقصرا وقيسارية أعمال قطب الدين فملكها . ثم سار الى قونية فحاصر بها غياث الدين وملكها ، ولحق غياث الدين بالشام كما يأتي خبره . ثم سار الى نكسار وأماسا فملكها وسار الى ملطية سنة سبع وتسعين فملكهــا من يد معز الدين قيصر شاه ، ولحق معز الدين بالعادل ابي بكر بن أيوب . ثم سار الى أرزن الروم وكانت لولد الملك محمد بن حليق من بيت ملـك قديم ، وخرج اليه صاحبها ليقرر معه صلحاً فقبض عليه ، وملك البلد فاجتمع لركن الدين سائر أعمال اخوته ما عدا انقرة لحصانتها فجمر عليها الكتائب ، وحاصرهـا ثلاثاً . ثم دس من قتل أخاه ، وملك البلـد سنة احدى وستمائة ، وتوفي هو عقب ذلك والله تعالى أعلم .

وفاة ركن الدين وولاية ابنه قليج ارسلان

ثم توفي ركن الدين سليمان بن قليج ارسلان أوائل ذي القعدة من تمام سنة احدى وستمائة ، وولي بعده ابنه قليج ارسلان فلم تطل مدّته. وكان ركن الدين ملكاً حازماً شديداً على الاعداء ، إلا انه ينسب الى التزين بالفلسفة ، والله تعالى أعلم .

استيلاء غياث الدين كسنجر على بلاد الروم من أخيه ركن الدين

كان غياث الدين كسنجر بن قليج ارسلان، لما ملك أخوه ركن الدين قونية من يده لحق بحلب، وفيها الظاهر غازي بن صلاح الدين فلم يجد عنده قبولا، فسار الى القسطنطينيّة وأكرمه ملك الروم، وأصهر اليه بعض البطارقة في ابنته. وكانت له قرية حصينة في أعمال قسطنطينية فلما استولى الافرنج على القسطنطينية سنة ستمائة لحق غياث الدين بقلعة صهره البطريق. وبلغ اليه خبر أخيه تلك السنة، وبعث اليه بعض الامراء من قونية يستدعيه للملك فسار اليه، واجتمعوا على حصار قونية. وخرجت اليهم العساكر منها فهزموه ولحق ببعض البلاد فتحصّن بها. ثم قام أهل اقصرا بدعوته وطردوا واليهم، وبلغ الخبر الى أهل قونية فثاروا بقليج ارسلان بن ركن الدين، وقبضوا عليه واستدعوا غياث الدين فملكوه وأمكنوه من ابن أخيه. وكان أخوه قيصر شاه قد لحق بصهره العادل أبي بكر بن

أيوب فاستنصر به على أخيه ركن الدين عندما ملك ملطية من يده، فأمر له بالرُها. واستفحل ملك غياث الدين، وقصده علي بن يوسف صاحب شميشاط، ونظام الدين بن أرسلان صاحب خرت برت وغيرها. وعظم شأنه الى أن قتله أشكر صاحب قسطنطينية سنة سبع وستمائة، والله تعالى وليّ التوفيق.

مقتل غياث كسنجر وولاية ابنه كيكاوس

ولما قتل غيات الدين كسنجر وولي بعده ابنه كيكاوس، ولقبوه الغالب بالله. وكان عمه طغرل شاه بن قليج ارسلان صاحب ارزن الروم طلب الامر لنفسه، وسار الى قتال كيكاوس ابن أخيه وحاصره في سيواس وقصد أخوه كيقباد بن كسنجر بلد انكورية من أعماله فاستولى عليها. وبعث كيكاوس صريخه الى الملك العادل صاحب دمشق فانفذ اليــه العساكر، وأفرج طغرل عن سيواس قبل وصولهم فسار كيكاوس الى انكورية وملكها من يد أخيه كيقباد وحبسه، وقتل امراءه وسار الى عمه طغرل في ارزن الروم فظفر به سنة عشر، وقتله وملك بلاده.

مسير كيكاوس الى حلب واستيلاؤه على بعض أعمالها ثم هزيمته وارتجاع البلد من يده

كان الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب قــد توفي، وملك

بعده ابنه طفلاً صغيراً ، وكان بعض أهل حلب قد لحق بكيكاوس فراراً من الظاهر ، وأغراه بملك حلب ، وهوّن عليه أمرها وملك ما بعدها . ولما مات الظاهر قوي عزمه وطمعه في ذلك واستدعى الأفضل بن صلاح الدين من شميشاط للسير معه ، على ان تكون الخطبة لكيكاوس ، والولاية للافضل في جميع ما يفتحونه من حلب وأعمالها . فاذا فتحوا بلاد الجزيرة مثل حَرّان والرُها من يد الاشرف تكون ولايتها لكيكاوس ، وتعاقدوا على ذلك . وساروا سنة خمسة عشرة فملكوا قلعة زغبان ، وتسلمها الافضل على الشرط ثم ملكوا قلعة تل باشر فاستأثر بها كيكاوس ، وارتاب الافضل. ثم بعث ابن الظاهر صاحب حلب الى الاشرف بن العادل صاحب الجزيرة وخلاط يستنجده على ان يخطب له بحلب ، وينقش اسمه على السكة فسار لانجاده ، ومعه احياء طيء من العرب فنزل بظاهر حلب . وسار كيكاوس والافضل الى منبج ، ولقيت طليعتهم طليعة الظاهر فاقتتلوا . وعاد عسكر كيكاوس منهزمين اليه فأجفل وسار الاشرف الى زغبان وتل باشر وبها أصحاب كيكاوس فغلبهم عليها . وأطلقهم الى صاحبهم فأحرقهم بالنار وسلم الاشرف الحصنين الى شهاب الدين بن الظاهر صاحب حلب ، وبلغه الخبر بوفاة أبيه الملك العادل بمصر فرجع عن قصد بلاد الروم .

وفاة كيكاوس وملك أخيه كيقباد

كان كيكاوس بعد الواقعة بينه وبين الاشرف قد اعتزم على قصد بلاد الاشرف بالجزيرة، واتفق مع صاحب آمد وصاحب اربل على ذلك، وكانا يخطبان له. ثم سار الى ملطية يشغل الاشرف عن الموصل، حتى ينال منها صاحب اربل. ومرض في طريقه فعاد. ومات سنة ست عشرة وخلف بنيه صغاراً. وكان أخوه كيقباد محبوساً منذ أخذه من انكورية فأخرجه الجند من محبسه وملكوه وقيل بل أخرجه هو من محبسه وعهد اليه. ولما ملك خالف عليه عمه صاحب ارزن الروم فوصل يده بالاشرف، وعقد معه صلحاً.

الفتنة بين كيقباد وصاحب آمد من بني أرتق وفتح عدة من حصونه

كانت الفتنة قد حدثت بين الاشرف صاحب الجزيرة والمعظم صاحب دمشق، وجاء جلال الدين خوارزم من الهند سنة ثلاث وعشرين بعد هروبه أمام التتر فملك أذربيجان واعتضد به المعظم صاحب دمشق على الاشرف، وظاهرها الملك مسعود صاحب آمد من بني ارتق فأرسل الاشرف الى كيقباد ملك الروم يستنجده على صاحب آمد، والاشرف يومئذ محاصر لماردين فسار كيقباد وأقام على ملطية، وجهز العساكر من هناك الى آمد ففتح حصوناً عدّة. وعاد صاحب آمد الى موافقة الاشرف فكتب الى كيقباد

أن يرد عليه ما أخذه فامتنع، فبعث عساكره الى صاحب آمد مدداً على كيقباد. وكان محاصراً لقلعة الكحتا فلقيهم وهزمهم، وأثخن فيهم، وعاد ففتح القلعة والله أعلم.

استيلاء كيقباد على مدينة ارزنكان

كان صاحب ارزنكان هذه بهرام شاه من بني الاحدب بيت قديم في الملك، وملكها ستين سنة، ولم يزل في طاعة قليج ارسلان وولده. وتوفي فملك بعده ابنه علاء الدين داود شاه، وأرسل عنه كيقباد سنة خمس وعشرين ليعسكر معه فسار اليه وقبض عليه، وملك مدينة ارزنكان. وكان من حصونه كماح، فامتنع نائبه فيه، وتهدّد داود شاه فبعث الى نائبه فسلم له الحسن. ثم قصد أرزن الروم، وبها ابن عمر طغرل شاه بن قليج ارسلان فبعث بن طغرك شاه بطاعته للاشراف، واستنجد نائبه بخلاط حسام الدين علي فسار اليه فخام كيقباد عن لقائه، وعاد من ارزنكان الى بلاده فوجد العدوّ من الافرنج قد ملك قلعة منها تسمى صنوبا مطلة على بحر الخزر فحاصرها براً وبحراً، وارتجعها المسلمون والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

فتنة كيقباد مع جلال الدين

كان صاحب أرزن الروم وهو ابن عم كيقباد صار الى طاعة

جلال الدين خوارزم شاه، وحاصر معه خلاط، وفيها إيبك مولى الاشرف فملكها جلال الدين، وقتل ايبك كما يأتي في أخباره. فخافها كيقباد صاحب الروم فاستنجد الملك الكامل، وهو بحرّان فأمدّه بأخيه الاشرف من دمشق فجمع عساكر الجزيرة والشام، وسار الى كيقباد فلقيه بسيواس واجتمعوا في خمسة وعشرين ألفاً. وساروا من سيواس الى خلاط فلقيهم جلال الدين في نواحي أرْزَنْكان فهاله منظرهم، ومضى منهزماً الى خلاط. ثم سار منها الى أذربيجان فنزلوا عند خَويّ. وسار الاشرف الى خلاط فوجد جلال الدين قد خرّبها فعادوا الى بلادهم، وتردّدت الرسل في الصلح فاصطلحوا.

مسير ابن أيوب الى كيقباد وهزيمتهم

كان علاء الدين كيقباد قد استفحل ملكه ببلاد الروم، ومدّ يده الى ما يجاوره من البلاد فملك خلاط، بعد أن دافع عنها مع الاشرف بن العادل جلال الدين خوارزم شاه فنازعه الاشرف في ذلك، واستصرخ بأخيه الكامل فسار في العساكر من مصر سنة احدى وثلاثين. وسار معه الملوك من أهل بيته، وانتهى الى النهر الازرق من تخوم الروم. وبعث في مقدّمته المظفر صاحب حماة من أهل بيته فلقيه كيقباد وهزمه، وحصره في خرت برت وكانت لبني ارتق. ورجع الكامل بالعساكر الى مصر سنة اثنتين

وثلاثين، وكيقباه في اتباعهم. ثم سار الى حَرّان والرُها فملكهما من يد نواب الكامل وولّى عليهما من قبله، وسار الكامل سنة ثلاث وثلاثين فارتجعهما.

وفاة كيقباد وملك ابنه كنخسرو

ثم توفي علاء الدين كيقباد سنة أربع وثلاثين وستمائة، وملك بعده ابنه غياث الدين كنخسرو، وقارن ذلك انقراض الدولة السُلجوقيّة من ممالك الاسلام واختلال دولة بني خوارزم شاه وخرج التتر من مفازة الترك وراء النهر، واستيلاء جَنكِزخان سلطانهم على الممالك وانتزاعها من يد بني خوارزم شاه. وفر جلال الدين آخرهم الى الهند، ثم رجع واستولى على أذربيجان وعراق العجم. وكان بنو أيوب يَومئذ بممالك الشام وأرمينية كما نذكر ذلك كله في أماكنه ان شاء الله تعالى. وانتشر التتر في سائر النواحي وعاثوا فيها وتغلبوا عليها. واستفحل ملكهم فسارت منهم طوائف الى بلاد الروم سنة احدى وأربعين، فبعث غياث الدين كنخسرو بالصريخ الى بني أيوب وغيرهم من الترك في جواره. وجاء المدد من كل جانب فسار للقائهم، ولقيتهم المقدّمة على قشمير زنجان فانهزمت المقدّمة، ووصلوا اليه فانهزم، ونجا بعياله وذخيرته الى مدينة على مسيرة شهر من المعترك ونهبوا سواده ومخلفه وانتشروا في نواحي بلاد الروم وعاثوا فيها، وتحصن غياث الدين بهذه المدينة، واستولى

التتر على خلاط وآمد. ثم استأمن لهم غياث الدين ودخل في طاعتهم واستقامت أموره معهم الى أن مات قريباً من رجوعه. وملك التتر قيسارية والله أعلم.

وفاة غياث الدين وولاية ابنه كيقباد

ثم توفي غياث الدين كنخسرو سنة أربع وخمسين وترك ثلاثاً من الولد، أكبرهم علاء الدين كيقباد وعز الدين كيكاوس وركن الدين قليج ارسلان. وولي علاء الدين كيقباد بعهده اليه، وكان يخطب لهم جميعاً وأمرهم واحد. وكان جنكزخان ملك التتر قد هلك، وكان كرسي سلطانهم بقراقروم، وولي مكانه ابنه طلوخان وجلس على كرسيه. وهو الخان الاعظم عندهم وحكمه ماض في ملوك الشمال والعراق من أهل بيته وسائر عشيرته. ثم هلك طلوخان وولي مكانه في كرسيه ابنه منكوخان فبعث أخاه هلاكو لفتح العراق وبلاد الاسماعيلية سنة خمسين وستمائة، فسار لذلك وملك العراقين وبغداد. ثم جرد الخان الاعظم منكوخان الى بلاد الروم سنة اربع وخمسين أميراً من أمراء المغل اسمه بيكو في العساكر فسار الى أرزن الروم وبها سنان الدين ياقوت مولى السلطان علاء الدين فحاصرها شهرين ونصب عليها المجانيق. ثم ملكها عنوة، وأسر ياقوت، واستلحم الجند بأسرهم واستبقى الباعة والصناع. ثم سار الى

بلاد الروم فملك قيسارية ومسيرة شهر معها ورجع . ثم عاد سنة خمس وخمسين وعاث في البلاد واستولى على أكثر من الاولى والله تعالى اعلم.

وفاة كيقباد وملك أخيه كيكاوس

ولما كثر عيث التتر الذين مع بيكو في مملكة علاء الدين كيقباد، واعتزم على المسير الى الخان الأعظم منكوخان يؤكد الدخول في طاعته ، ويقتضي مراسمه الى بيكو ومن معه من المغل بالكف عن البلاد، سار من قونية سنة خمس وخمسين ومعه سيف الدين طرنطاي من موالي أبيه . واحتمل معه الاموال والهدايا وسار . ووثب أخوه عز الدين كيكاوس على أخيه الآخر قليج ارسلان فاعتقله بقونية ، واستولى على الملك . وكتب في اثر أخيه الى سيف الدين طرنطاي مع بعض الأكابر من أصحابه أن يمكنوه من الهدايا التي معهم يتوجه بها الى الخان ويردوا علاء الدين فلم يدركوه حتي دخل بلاد الخان، ونزل على بعض امرائه .

فسعى ذلك الرسول في علاء الدين وطرنطاي بأنّ معهم سمًّا فكبسهم الامير فوجد شيئاً من المحمودة ، فعرض عليهم أكلها فامتنعوا فتخيل تحقيق السعاية فسألوه إحضار الاطباء فأزالوا عنه الشك، وبعث بهم الى الخان . ومات علاء الدين أثناء طريقة . ولما اجتمعوا عند الخان اتفقوا على ولاية عز الدين كيكاوس وأنه

أكبر ، وعقدوا له الصلح مع الخان فكتب له وخلع عليهم . ثم كتب بيكو الى الخان بأن أهل بلاد الروم قاتلوه ومنعوه العبور فأحضر الرسل ، وعرّفهم الخبر فقالوا اذا بلغناهم كتاب السلطان اذعنوا . فكتب الخان بتشريك الاميرين عز الدين كيكاوس وأخيه ركن الدين قليج ارسلان على أن تكون البلاد قسمة بينهما . فمن سيواس الى القسطنطينية غرباً لعز الدين ، ومن سيواس الى أرزن الروم شرقاً المتصلة ببلاد التتر لركن الدين ، وعلى الطاعة وحمل الاتاوة لمنكوخان ملكهم صاحب الكرسي بقرا قروم ، ورجعوا الى بلاد الروم وحملوا معه شلو قيقباد الى أن دفنوه .

استيلاء التتر على قونية

ثم سار بيكو في عساكر المغل الى بلاد الروم ثالثة فبعث عز الدين كيكاوس العساكر للقائه مع ارسلان ايدغمش من امرائه فهزمه بيكو ، وجاء في اتباعه الى قونية فهرب عز الدين كيكاوس الى العلايا بساحل البحر فنزل بيكو على قونية ، وحاصرها حتى استأمنوا اليه على يد خطيبهم . ولما حضر اليه أكرمه ورفع منزلته ، وأسلمت امرأته على يده ، وأمّن أهل البلد . ثم سار هلاكو الى بغداد سنة خمس وستين ، وبعث عن بيكو وعساكره من بلاد الروم بالحضور معه فاعتذر بالاكراد الذين في طريقه من الغراسلية والياروقية فبعث اليهم هلاكو العساكر فأجفلوا ؛ وانتهت العساكر

الى أذربيجان ، وقد أجفل أهلها أمام الاكراد فاستولوا عليها . ورجعوا صحبة بيكو الى هلاكو فحضر معه فتح بغداد وقد مرّ خبرها في أخبار الخلفاء .

ويأتي في أخبار هلاكو ونيال أن بيكو لما بعث عنه هلاكو لم يحضر معه فتح بغداد ، واستمرّ على غدره فلما انقضى أمر بغداد بعث اليه هلاكو من سقاه السمّ فمات لانه اتهمه بالاستبداد . ثم سار هلاكو بعد فتح بغداد الى الشام سنة ثمان وخمسين وحاصر حلب ، وبعث عن عز الدين كيكاوس وركن الدين قُليج ارسلان ، وعن معين الدين سليمان البرنواه صاحب دولتهم . وكان من خبره أن أباه مهذب الدين علي كان من الديلم ، وطلب العلم ونبغ فيه . ثم تعرّض للوزير سعد الدين المستوفي أيام علاء الدين كيقباد يسأله اجراء رزقه . وكان وصافاً فاستحسنه وزوجه ابنته فولدت سليمان ، ونشأ في الدولة . ومات سعد الدين المستوفي فرقى السلطان مهذب الدين الى الوزارة ، وألقى اليه بالمقاليد . وتوفي مهذب الدين وترقى ابنه سليمان مهذب الدولة وكان يلقب معين الدين وترقى في الرتب الى أن ولي الحجابة وكان يدعى البرنواه ، ومعناه الحاجب بلغتهم . وكان مختصاً بركن الدين فلما حضر معهما عند هلاكو كما قلناه حلا بعينه ، وقال لركن الدين لا يأتيني في اموركم إلّا هذا فرقت حاله الى أن ملك بلاد الروم أجمع .

الفتنة بين عز الدين كيكاوس وأخيه قليج ارسلان واستيلاء قليج ارسلان على الملك

ثم وقعت الفتنة سنة تسع وخمسين بين عز الدين كيكاوس وأخيه ركن الدين قليج ارسلان، وسار ركن الدين ومعه البرنواه الى هلاكو يستمدّه على أخيه فأمدّه بالعساكر، وحارب أخاه فهزمه عز الدين أوّلاً، ثم أمدّه هلاكو فانهزم عز الدين ولحق بالقُسْطَنْطِينِيّة. واستولى ركن الدين على سائر الاعمال. وهرب التركمان الى أطراف الجبال والثغور والسواحل، وبعثوا الى هلاكو يطلبون الولاية منه على أحيائهم فولّاهم، وأذن لهم في اتخاذ الآلة فصاروا ملوكاً من حينئذ. وكان محمد بك أميرهم وأخوه علي بك رديفه فاستدعى هلاكو محمد بك فلم يأته فأمر قليج ارسلان وعساكر التتر الذين معه بقتاله فساروا وقاتلوه فانهزم. ثم استأمن الى السلطان ركن الدين فأمنه وجاء به الى قونية فقتله، واستقرّ علي بك أميراً على التركمان، وأورثها بنيه. واستولى التتر على البلاد الى ان كان ما سنذكره انشاء الله.

خبر عز الدين كيكاوس

ولما انهزم عز الدين كيكاوس، ولحق بالقسطنطينية أحسن اليه مخاييل الشكري صاحب قسطنطينية، وأجرى عليه الرزق.

وكان معه جماعة من الروم أخواله فحدثتهم أنفسهم بالثورة ، وتملك القُسطنطينية . ونمي ذلك عنهم فقبض الشكري عليه ، وعلى من معه ، واعتقله ببعض القلاع . ثم وقعت بين الشكري وبين منكوتمر بن طغان ملك الشمال من بني دوشي خان بن جنكزخان فتنة ، وغزا منكوتمر القسطنطينية وعاث في نواحيها فهرب اليه كيكاوس من محبسه فمضى معه الى كرسيه بصراي فمات هنالك سنة سبع وسبعين . وخلف ابنه مسعوداً وخطب منكوتمر ملك صراي أمّه فمنعها وهرب عنه ، ولحق بابقا بن هلاكو ملك العراق فأحسن اليه ، واقطعه سيواس وارزن الروم وارزنكان فاستقرّ بها .

مقتل ركن الدين قليج ارسلان وولاية ابنه كنخسرو

كان معين الدين سليمان البرنواه قد استبد على ركن الدين قليج ارسلان . ثم تنكر له ركن الدين فخاف سليمان البرنواه على مكان أخيه عز الدين كيكاوس بالقسطنطينية أن يحدث فيه أمراً . فلما بلغه خبر كيكاوس واعتقاله بالقسطنطينية أحكم تدبيره في ركن الدولة فقتله غيلة ، ونصب للملك ابنه غياث الدين في كفالته وتحت حجره ، واستقلّ بملك بلاد الروم ، واستقامت أموره ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

استيلاء الظاهر ملك مصر على قيسارية ومقتل البرنواه

كان هلاكو قد زحف الى الشام سنة ثمان وخمسين مراراً ، وزحف ابنه ابقا كذلك ، وقاتلهم الملك الظاهر صاحب مصر والشام . وكان كثيراً ما يخالفهم الى بلادهم فدخل سنة خمس وسبعين الى بلاد الروم ، وأميرها يومئذ من التتر طغا . وأمده ابقا بأميرين من التتر وهما كداون وترقوا لحماية بلاد الروم من الظاهر فزحفوا الى الشام. وسار اليهم الظاهر من مصر في مقدمته سقر الأسقر فلقيت مقدّمته مقدمتهم على كوكصو فانهزم التتر ، وتبعهم الظاهر ، والتقى الجمان على ابليش فانهزموا ثانية . واثخن فيهم الظاهر بالقتل والاسر الى قيسارية فملكها . وكان البرنواه قد دسّ اليه واستحثه للوصول الى بلاده فأقام الظاهر على قيسارية ينتظره ، وبلغ ملك التتر ابقا خبر الواقعة فزحف في جموع المغل الى قيسارية بعد منصرف الظاهر الى بلاده . فلما وقف على مصارع قومه وجد على البرنواه وصدقت عنه السعاية فيه ، وأنه الذي استحث الظاهر لانه لم ير في المعركة مصرع أحد من بلاد الروم ، ورجع الى معسكره ومعه سليمان البرنواه واستبد بملكه . والله تعالى وليّ التوفيق ، وهو نعم الرفيق ، لا ربّ سواه ولا معبود إلا اياه سبحانه .

خلع كنخسرو ثم مقتله وولاية مسعود ابن عمه كيكاوس

كان قُنطغرطاي بن هلاكو مقيماً ببلاد الروم مع غياث الدين كنخسرو ، ملك بلاد الروم وصار أمير المغل بها منذ عهد ابقا . ولما ولي أحمد تكرار بن هلاكو بعد أخيه ابقو بعث عن أخيه قنطغرطاي فامتنع من الوصول اليه خشية على نفسه . ثم حمله غياث الدين على اجابة أخيه ، وسار معه فقتل تكرار أخاه قنطغرطاي ، واتهم المغل غياث الدين بأنه علم برأي تكرار فيه واعتمد . فلما ولي ارغون بن ابقا بعد تكرار عزل غياث الدين عن بلاد الروم وحبسه بارزنكاي ، وولي مكانه على المغل ببلاد الروم هولاكو وذلك سنة اثنتين وثمانين . وأقام مسعود ملكاً ببلاد الروم سنة ثمان عشرة وسبعمائة ، وأصابه الفقر وانحل أمره ، وبقي الملك بها للتتر . ثم فشل أمرهم واضمحلت دولتهم إلا بقايا بسيواس من بني ارتا مملوك دمرداش بن جومان . واستولى التركمان على تلك البلاد أجمع ، وأصبح ملكها لهم ، والله غالب على أمره يؤتي الملك من يشاء وهو العزيز الحكيم .



ملوك قونية من بلاد الروم وملكها من أيديهم التتر

غياث الدين كيخسرو بن قليج ارسلان بن غياث الدين كيخسرو بن كيقباد بن غياث الدين كيخسرو بن قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان بن سليمان بن قطلمش بن اسرائيل بن سلجوق

مسعود بن كيكاوس

كيكاوس

قليج ارسلان بن ركن الدين سليمان

قطب الدين ملك شاه

معز الدين قيصر شاه



الخبر عن بني سكمان موالي السلجوقية ملوك خلاط وبلاد أرمينية ومصير الملك الى مواليهم من بعدهم ومبادىء أمرهم وتصاريف أحوالهم

كان صاحب مزيد من أذربيجان اسمعيل بن ياقوتي بن داود أخو البأرسلان، وداود أخو طغرلبك كما مرّ ولقب اسمعيل قطب الدولة. وكان له مولى تركي اسمه سكمان بالكاف والقاف. وكان ينسب اليه فيقال سكمان القطبي، وكان شهماً عادلاً في أحكامه. وكانت خلاط وارمينية لبني مروان ملوك ديار بكر، وكانوا في آخر دولتهم قد اشتدّ عسفهم وظلمهم، وساء حال أهل البلد معهم فاجتمع أهل خلاط وكاتبوا سكمان واستدعوه ليملكوه عليهم، فسار اليهم سنة اثنتين وخمسمائة الى ميافارقين من ديار بكر فحاصرها حتى استأمنوا إليه وملكها.

ثم أمر السلطان محمد شاه بن ملك شاه الامير مودود بن مزيد ابن صدقة صاحب الموصل بغزو الافرنج وانتزاع البلاد من أيديهم وأمر أمراء الثغور بالمسير معه فسار معه برسق صاحب همذان، وأحمد بك صاحب مراغة، وأبو الهيجاء صاحب إربل وابو الغازي صاحب ماردين، وسقمان القطبي صاحب ديار بكر. فساروا لذلك وفتحوا عدّة حصون، وحاصروا الرها فامتنعت عليهم، ثم تل

باشر كذلك. واستدعاهم رضوان بن تتش صاحب حلب [1]
فلما ساروا اليه امتنع من لقائهم. ومرض سكمان القطبي هنالك
فرجع عنهم وتوفي في طريقه ببالس. وافترقت العساكر، وملك
خلاط وبلاد ارمينية بعد مهلكه ابنه ظهير الدين ابراهيم، وسار
فيهم بسيرة أبيه الى أن هلك سنة احدى وعشرين. وملك بعده
أخوه أحمد بن سكمان عشرة أشهر. ثم توفي فنصب أصحابه للملك
بارمينية وخلاط شاه أرمن سكمان ابن أخيه ابراهيم بن سكمان
صبياً دارجاً. واستبدّت عليه جدّته أم ابراهيم. ثم أزمعت قتله
فقتلها أهل الدولة.

وعمد سنة ثمان وعشرين، واستَبدّ شاه أرمن، وكانت بينه
وبين الكرج وقائع. وساروا سنة ست وخمسمائة الى مدينة أنى
من أعمال أرّان فاستباحوها. وسار اليهم في العساكر فهزموه ونالوا
منه، وكانت عنده أخت طليق بن علي صاحب أرزن الروم،
ووقعت بينه وبين الكرج حرب فانهزم طليق وأُسر وبعث شاه
أرمن الى ملك الكرج وفادى طليقاً ورده الى ملكه بارزن.

ثم استولى صلاح الدين بن أيوب على مصر والشام واستفحل
ملكه، وكاتبه مظفر الدين كوكبري وأغراه بملك الجزيرة،

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٢٦٣: «ووصلوا إلى حلب فأغلق الملك رضوان أبواب البلد، ومن يجتمع بهم». من هنا يظهر أنه لا شيء مكان البياض في الأصل، وأن العبارة هنا مستقيمة.

ووعده بخمسين ألف دينار . وسار صلاح الدين الى سنجار فحاصرها وهو يجمع المسير الى الموصل ، وبها يومئذ عز الدين مودود بن زنكي فاستنجد بشاه أرمن صاحب خلاط فبعث شاه أرمن مولاه مكتمر[1] الى صلاح الدين شفيعاً في صاحب الموصل ، ووفد عليه وهو محاصر لسنجار ، ولم يشفعه صلاح الدين فرجع عنه مغاضباً . وسار شاه أرمن لقتاله واستدعى قطب الدين نجم الدين الى صاحب ماردين ، وهو ابن أخيه ، وابن خال عز الدين . وحضر معه دولة شاه بن طغرك شاه بن قليج ارسلان صاحب [2]

وسار سنة ثمان وسبعين وقد ملك صلاح الدين سنجار وافترقت العساكر . فلما بلغه مسيرهم بعث عن تقي الدين ابن اخيه شاه من حماة فوافاه سريعاً ، ورحل الى رأس عين وافترقت جموعهم . وسار صلاع الدين الى ماردين فعاث في نواحيها ورجع . ثم سار الى الموصل آخر احدى وثلاثين ، وعبر الى الجزيرة ، وانتهى الى حَرّان . ولقيه مظفر الدين كوكبري بن زين الدين ولم يف له بالخمسين ألفاً التي وعده بها . واخذ منه حران والرها . ثم اطلقه بما نفذه من مكاتبته وأعاد عليه بلدته ، وسار من حران فحضر عنده عساكر الحصن ودارا ، ولقيه سنجر شاه صاحب الجزيرة ابن أخي عز الدين مودود مفارقاً لطاعة عمه ، وسار معه الى الموصل .

---

(١) كذا، وقد وردت في الكامل: بكتمر.

(٢) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ١٥٩ : دولة شاه صاحب بدليس وارزن.

ولما انتهى الى مدينة الأُبلّة بعث اليه عز الدين ابن عمه نور الدين محمود وجماعة من اعيان الدولة راغبين في الصلح فأكرمهم، واستشار أصحابه من أعيان الدولة فأشار علي بن أحمد المشطوب كبير الهكارية بالامتناع من ذلك فردّهم صلاح الدين واعتذر، وسار فنزل على فرسخين من الموصل واشتدّوا في مدافعته فامتنعوا عليه فندم على عدم الصلح. ورجع على علي المشطوب ومن وافقه باللائمة. وخاطبه القاضي الفاضل البيساني من مصر، وعزله في ذلك. وجاء زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب اربل وأخوه مظفر الدين كوكبري فتلقاهما بالتكرمة، وانزلهما مع الحشود الوافدة بالجانب الشرقي. وبعث علي بن أحمد المشطوب الهكاري الى قلعة الجزيرة من بلاد الهكارية فحاصرها، واجتمع عليه الأكراد ولم يزل محاصراً لها حتى عاد صلاح الدين من الموصل. وأقام صلاح الدين على حصارها مدّة. وبلغ عز الدين أن نائبه بالقلعة يكاتبه فمنعه من الصعود اليها، وكان يقتدي برأي مجاهد الدين وبعثه في الصلح فسعى فيه الى ان تحمله ووصل صلاح الدين الى ميافارقين.

وفاة شاه أرمن سكمان وولاية مكتمر مولى أبيه

ثم توفي شاه أرمن سكمان بن ابراهيم بن سكمان صاحب خلاط سنة ست وسبعين، وكان مكتمر مولى أبيه بميافارقين

فأسرع الوصول بمن معه من المماليك ، واستولى على كرسي بني سكمان . وولى على ميافارقين أسد الدين برتقش من موالي شاه ارمن . وكان البهلوان بن ايلدكز صاحب أذربيجان وهَمذان من بقائد ملوك السُلجوقِيّة وقد زوّج ابنتـه من شاه أرمن طمعاً في ملك خلاط . فلما توفي شاه ارمن سار اليها في عساكره فكاتب أهل خلاط صلاح الدين بن أيوب ، ودافعوا كلّا منهما بالآخر . وسار صلاح الدين في مقدّمته ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ومظفر الدين بن زين الدين وغيرهما . ونزلوا قريباً من خلاط فتردّد الرسل من صلاح الدين ، ومن شمس الدين البهلوان الى أهل خلاط وهم يدافعون الفريقين . وكان قد بلغه وفاة صاحبها قطب الدين ، وان برتقش نصب ابنه طفلًا صغيراً واستبد عليه ، فسار صلاح الدين اليها وحاصرها حتى تسلمهـا على الامان ، وأقام مكتمر أميراً بخلاط ، وطالت مدّته ، وجرت بينـه وبين صلاح الدين فتن وحروب الي ان توفي صلاح الدين سنة تسع وثمانين . فاظهر الشماتة به وتسمى عبد العزيز ، وتلقب سيف الدين وتوفي اثر ذلك والله تعالى أعلم .

وفاة مكتمر وولاية أقسنقر

كان مكتمر لاوّل ولايته قد اختص أقْسُنقُر من موالي شاه ارمن وتلقب هزار ديناري وزوّجه ابنته ، وجعله اتابكه فأقام على

ذلك مدّة . ثم استوحش من مكتمر وتربص به حتى إذا توفي صلاح الدين تجهز مكتمر من ميافارقين فامكنته فيه الفرصة فقتله لعشر سنين من ولايته ؛ وذلك بعد وفاة صلاح الدين بشهرين واستبدّ بملك خلاط وارمينية ؛ واعتقل ابن مكتمر وأمه في بعض القلاع ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وفاة أقسنقر وولاية محمد بن مكتمر

ثم هلك اقسنقر صاحب خلاط وارمينية سنة أربع وتسعين ، لخمس سنين من ملكه . وقام بملك خلاط بعده حجراشتد قطلغ الارمني ، ولم يرضه أهل خلاط فوثبوا به لسبعة أيام من ولايته وقتلوه . واستدعوا محمد بن مكتمر من محبسه وملكوه ولقبوه الملك المنصور ، وقام بدولته شجاع الدين قطلغ القفجاقي دوادار شام أرمن ، وأقام تحت استبداده الى سنة ثلاث وستمائه . ثم دبر على الدوادار وقبض عليه ، وكان حسن السيرة فاستوحش لذلك الجند والعامّة . وعكف بعد نكبة الدوأدار على لذاته فاجتمع أهل خلاط والجند ، وكبيرهم بلبان مملوك شاه أرمن . وكتبوا الى ارتق بن ابي الغازي بن البى صاحب ماردين يستدعونه للملك ، بما كان ابن أخت شاه أرمن . وجاهر بليان بالعصيان الى ملازكرد واجتمع الجند عليه

نكبة ابن مكتمر واستيلاء بلبان على خلاط وأعمالها

ولما ملك بلبان مدينة ملازكرد وأعمالها ، واجتمع عليه الجند وسار يريد خلاط ، ووصل ارتق بن أبي الغـازي صاحب ماردين لموعدهم ، ونزل قريباً من خلاط فبعث اليه بلبان ان الجنـد والرعية اتهموني فيك فارجع ، واذا ملكت البلد سلمته اليك فتنحّ قليـلا فبعث اليه يتوعده على مقـالته وبطئه. فعاد الى ماردين ، وكان الاشرف موسى بن العادل بن أيوب صاحب الجزيرة وحران لما سمع بمسير ارتق الى خلاط طمع فيها لنفسه ، وخشي أن يزداد بملكها قوّة عليهم فخالفه الى ماردين ، وأقام بتدليس ، وجبى ديار بـكر حتى استوعبها وعاد الى حران.

ثم جمع بلبان العساكر ، وسار الى خلاط فحاصرها . وبرز ابن مكتمر فيمن عنده فانهزم بلبان وعاد الى ولايته بملازكرد وأرجيش وغيرها . ثم جمع ورجع الى خلاط فحاصرها وضيق عليها ، وابن مكتمر عاكف على لذاته . فلمـا جهدهم الحصار ثاروا بـه وقبضوه ، ومكنوا بلبان منه . ودخل الى خلاط واستولى عليها وعلى سائر أعمـالها ، وحبس ابن مكتمر في قلعة هنـاك واستبد بملكها . وكان الأوحد نجم الدين أيوب بن العادل بن أيوب قد ولي على ميافارقين – من قبل أبيه – الى خلاط سنة أربع وستمائة ، وقصد

مدينة سوس وحاصرها وملك ما يجاورها، وعجز بلبان عنه. ثم ملك سوس وقصد خلاط فبرز له بلبان وهزمه فعاد الى ميافارقين وجمع واستمدّ أباه العادل فأمدّه بالعساكر، ونهض الى خلاط فبرز له بلبان ثانية، وهزمه الأوحد وحاصره في خلاط فبعث بلبان الى طغرل يستنجده فانهزم الأوحد امامهما. وسار بلبان مع طغرل الى مراش فحاصرها وغدر به طغرل وقتله، وسار الى خلاط فمنعه أهلها فسار الى ملازكرد فمنعوه كذلك فعاد الى ارزن.

وأرسل خلاط بطاعتهم الى الاوحد نجم الدين فجاء وملك خلاط، واستولى على أعمالها. وزحف الكرج فأغاروا على خلاط وعاثوا في نواحيها، والأوحد مقيم بخلاط لم يفارقها. وانتقض عليه جماعة من العسكر بحصن رام، وساروا الى مدينة ارجيش فملكوها واجتمع اليهم المفسدون. وبعث نجم الدين الى أبيه العادل يستنجده فأمدّه بابنه الآخر شرف الدين موسى فحاصر حصن رام حتى استأمن اليه من كان به من الجند، ورجع الاشرف الى عمله بحرّان والرُها، واستقرّ نجم الدين بخلاط. ثم سار الى ملازكرد ليطالع أمورها ويمهدها فثار أهل خلاط بعسكره فاخرجوهم، وحصروا أصحاب نجم الدين بالقلعة، ونادوا بشعار شاه أرمن وقومه فرجع الأوحد، ولاقاه عسكر الجزيرة وحاصر خلاط. ثم اختلف أهلها فدخلها عليهم عنوة واستباحها. ونقل جماعة من أعيانها الى

ميافارقين ، وقتل كثيراً منهم هنالك . واستكان أهل خلاط بعدها وانمحى منها حكم المماليك بعد أن كانوا مستحكمين فيها يولون ملوكها ويخلعونهم . وانقرضت دولة بني سكمان من خلاط ، وصارت لبني أيوب والبقاء لله وحده ، والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين واليه المرجع .



آخر دولة السلجوقية بخلاط وأرمينية
وقد ملكها منهم أيوب

ظهير الدين بكتمر مولى شاه أرمن

محمد بن بكتمر مولى

اقسنقر مولى

عز الدين بلبان مولى شاه أرمن بن إبراهيم بن سكمان القطبي مولى قطب الدين إسماعيل بن ياقوتي بن داود بن ميكائيل



أخبار الإفرنج فيما ملكوه من سواحل الشام وثغوره وكيف تغلبوا عليه وبداية أمرهم في ذلك ومصايره

قد تقدم لنا اول الكتاب الكلام في أنساب هذه الامة ، عند ذكر أنساب الامم ، وأنهم من ولد يافث بن نوح ، ثم من ولد ريفات بن كومر بن يافث اخوة الصقالبة والخزر والترك . وقال هروشيوش : انهم من عصر ابن غومر . وأمّا مواطنهم من بلاد المعمور فانه في شمالي البحر الرومي من خليج رومة الى ما وراء النهر غرباً وشمالاً ، وكانوا أوّلا يدينون لليونان والروم بالطاعة عند استفحال أمرهم . فلما انقرضت دولة أولئك استقلّ هؤلاء الافرنج بملكهم وافترقوا دُولا : مثل دولة القوط بالاندلس والجلالقة بعدهم ، وملك اللمانين بالتفخيم من جزيرة انكلطره بالبحر المحيط الغربي الشمالي ، ما يحاذيه ويقابله من المعمور ، ومثل ملوك افرنسة وهو عندهم اسم افرنجة بعينه والجيم ينطقون بها سيناً . وهم ما وراء خليج رومة غرباً الى الثنايا المفضية الى جزيرة الاندلس في الجبل المحيط من شرقيها وتسمى تلك الثنايا البردت . و كانت دولة هؤلاء الافرنس منهم من أعظم دولهم ، واستفحل أمرهم بعد الروم وصدراً من دولة الاسلام العربية فسموا الى ملك بلاد المشرق من ناحيتها . وتغلبوا على جزر البحر الرومي في آخر المائة

الخامسة. وكان ملكهم لذلك العهد بردويل فبعث رجالاً من ملوكهم الى صِقِلّيّة، وملكها من يد المسلمين سنة ثمانين وأربعمائة. ثم سموا الى ملك ما وراء النهر من افريقية دبلاد الشام والاستيلاء على بيت المقدس، وطال ترددهم في ذلك.

ثم استحثهم وحرضهم عليه فيما يقال خلفاء العُبَيْدِيّين بمصر لما استفحل ملك السُّلْجُوقِيّة، وانتزعوا الشام من أيديهم، وحاصروهم في مصر فيقال ان المستنصر منهم دسّ الى الافرنج بالخروج، وتسهيل أمرهم عليه ليحولوا بين السلجوقية وبين مرامهم فتجهز الافرنج لذلك، وجعلوا طريقهم في البر على القسطنطينية. ومنعهم ملك الروم من العبور عليه من الخليج حتى شرط عليهم أن يسلموا له انطاكية، لكون المسلمين كانوا أخذوها من مماليكهم فقبلوا شرطه، وسهل لهم العبور في خليجه فأجازوا سنة تسعين وأربعمائة في العدد والعدّة.

وانتهوا الى بلاد قليج ارسلان وجمع للقائهم فهزموه وفرّ (١) بلاد ابن اليون الارمني ووصلوا انطاكية، وبها باغيسيان من أمراء السلجوقية فحاصروه بها وخذلوا صاحب حلب ودمشق على صريخه بأن لا يقصدوا غير انطاكية فأسلموه حتى ضاق به الحصار

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ١٨٦: فلما وصلوا إليها لقيهم قليج إرسلان في جموعه ومنعهم فقاتلوه فهزموه في رجب سنة تسعين واجتازوا في بلاده إلى بلاد ابن الأرمني فسلكوها وخرجوا إلى إنطاكية فحصروها.

وغدر به بعض الحامية فلك الافرنج البلاد، وهرب باغيسيان فقتل وحمل اليهم رأسه. وكان ملوكهم الحاضرون لذلك خمسة: بردويل وصنجيل وكبريري والقُمص واسمند، وهو مقدّم العساكر فردّوا اليه أمر انطاكية، وبلغ الخبر الى المسلمين فسافروا اليهم شرقاً وغرباً.

وسار قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل، وجمع عساكر الشام، وسار الى دمشق فخرج اليهم دقاق بن تُتُش وطَغْتَكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص وارسلان [1] صاحب سنجر، وسكمان أرْتُق وغيرهم من الامراء، وزحفوا الى انطاكية فحاصروها ثلاثة عشر يوماً. ووهن الافرنج واشتد عليهم الحصار لما جاءهم على غير استعداد، وطلبوا الخروج على الامان فلم يسعفوا. ثم اضطرب أمر عساكر المسلمين، وأساء كربوقا السيرة فيهم، وأزمعوا من استكثاره عليهم [2] فحرج الافرنج اليهم، واستماتوا فتخاذل المسلمون، وانهزموا من غير قتال، حتى ظنها الافرنج مكيدة فتقاعدوا عن اتباعهم، واستشهد من المسلمين ألوف، والله تعالى أعلم.

---

(١) كذا بياض بالأصل: واسمه إرسلان تاش كما في الكامل.
(٢) كذا بالأصل، عبارة مضطربة، وفي الكامل: فاغضبهم ذلك وأضمروا له أنفسهم العذر إذا كان قتال.

استيلاء الافرنج على معرة النعمان
ثم على بيت المقدس

ولما حصلت للافرنج هذه النكاية في المسلمين طمعوا في البلاد وساروا الى معرّة النعمان وحاصروها. واشتدّ القتال في أسوارها حتى داخل أهلها الجزع فتحصّنوا بالدور، وتركوا السور فلكه الافرنج ودخلوا عليهم فاستباحوها ثلاثاً. وأقاموا بها أربعين يوماً. ثم ساروا الى غزة وحاصروها أربعة أشهر، وامتنعت عليهم فصالحهم ابن منقذ عليها. وساروا الى حمص وحاصروها فصالحهم عليها جناح الدولة. وساروا الى عكا فامتنعت عليهم. وكان بيت المقدس قد ملكه السُلْجُوقِيَّة وصار لتاج الدولة تُتُش، وأقطعه لسكمان بن ارتق من التركمان. فلما كانت واقعة الافرنج بانطاكية طمع أهل مصر فيهم، وسار الأفضل بن بدر الجمالي المستولي على العلويين بمصر الى بيت المقدس، وبها سكمان وأبو الغازي ابنا ارتق وابن عمهما سوع، وابن أخيهما ياقوتي فحاصروه نيفاً وأربعين يوماً ونصبوا عليه نيفاً واربعين منجنيقاً، وملكوه بالامان سنة احدى وتسعين وأربعمائة وأحسن الافضل الى سكمان وأبي الغازي وأصحابهما، وسرحهم الى دمشق وعبروا الفرات.

وأقام سكمان بالرُها، وسار ابو الغازي الى العراق، واستناب الافضل عليها افتخار الدولة الذي كان بدمشق فقصده الافرنج

بعد ان حاصروا عكا، وامتنعت عليهم فحاصروه أربعين ليلة، وافترقوا على جوانب البلد فملكوها من الجانب الشمالي آخر شعبان من السنة. واستباحوها وأقاموا فيها أسبوعاً. واعتصم بعض المسلمين بمحراب داود، وقاتلو فيه ثلاثا حتى استأمنوا ولحقوا بعَسْقَلان. وأحصى القتلى من الائمة والعلماء والعباد والزهاد المجاورين بالمسجد فكانوا سبعين ألفاً أو يزيدون، وأخذ من المناور المعلقة عند الصخرة أربعون قنديلا من الفضة: كل واحد منها ثلاثة آلاف وستمائة وستون درهماً من الفضة زنته أربعون رطلا بالشامي ومائة وخمسون قنديلا من الصغار، وما لا يحصى من غير ذلك.

وجاء الصريخ الى بغداد صحبة القاضي أبي سعيد الهروي، ووصف في الديوان صورة الواقعة فكثر البكاء والأسف، ووسم الخليفة بمسير جماعة من الاعيان والعلماء، فيهم القاضي أبو محمد الدامغاني، وأبو بكر الشاشي، وأبو الوفاء بن عُقَيل الى السلطان بركيارق يستصرخونه للاسلام. فساروا الى حُلوان، وبلغهم اضطراب الدولة السلْجُوقيّة، وقتل محمد الملك ألب أرسلان المتحكم في الدولة، واختلاف السلاطين فعادوا. وتمكن الافرنج من البلاد وولوا على بيت المقدس كندفري من ملوكهم.



عساكر مصر وحرب الافرنج

مسير العساكر من مصر لحرب الافرنج

ولما بلغ خبر الواقعة الى مصر جمع الافضل الجيوش والعساكر، واحتشد وسار الى عسقلان. وأرسل الى الافرنج بالنكير والتهديد فاعادوا الجواب، ورحلوا مسرعين فكبسوه بعسقلان على غير أهبة فهزموه. واستلحموا المسلمين ونهبوا سوادهم، ودخل الافضل عسقلان وافترق المنهزمون. واستبدوا بنحر الجير[1]، ووصل الافضل من عسقلان الى مصر، ونازلها الافرنج حتى صانع أهلها الافرنج بعشرين الف دينار، وعادوا الى القدس.

ايقاع ابن الدانشمند بالافرنج

كان كُمُشتكين بن الدانشمند من التركمان، ويعرف بطابلوا. ومعنى الدانشمند المعلم كان أبوه يعلم التركمان، وتقلبت به الاحوال حتى ملك سيواس وغيرها. وكان صاحب ملطية يعاديه فاستنجد عليه اسمند صاحب انطاكية فجاءه في خمسة الاف، وسار اليه ابن

(١) كذا بالأصل، ولا معنى لها. وفي الكامل ج ٨ ص ١٩٠: ومضى جماعة من المنهزمين فاستتروا بشجر الجميز، وكان هناك كثيراً فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من فيه وقتلوا من خرج منه.

الدانشمند وأسره. ثم جاء الافرنج الى قلعة أنكورية فملكوها، وقتلوا من بها من المسلمين. ثم حاصروا اسمعيل بن الدانشمند فلقيهم كمستكين وهزمهم واستلحمهم، وكانوا ثلثمائة الف. ثم ساروا الى ملطية فملكوها وأسروا صاحبها. وزحف اليه اسمند من انطاكية في الافرنج فهمّ بهم ابن الدانشمند. فأتاح الله للمسلمين على يده هذا الظهور في مدد متقاربة، حتى خلص اسمند من الاسر. وجاء الى انطاكية والافرنج بها، وبعث الى قيس والعواصم وما جاورها يطلب الامارة فامتعض المسلمون لذلك، وقلدوه بعد العهد الذي التزمه.

حصار الافرنج قلعة جبلة

كانت جَبَلة من أعمال طرابلس، وكان الروم قد ملكوها، وولوا على المسلمين بها ابن رئيسهم منصور بن صُلَيْحَة يحكم بينهم. فلما صارت للمسلمين رجع أمرها لجمال الملك أبي الحسن علي بن عمّار المستبدّ بطرابلس، وبقي منصور بن صليحة على عادته فيها. ثم توفي منصور فقام اليه أبو محمد عبد الله مقامه وأظهر الشماتة فارتاب به ابن عمار، وأراد القبض عليه فعصى هو في جبلة وأقام بها الخطبة العباسيّة، واستنجد عليه ابن عمار دقّاق بن تُتُش فجاءه، ومعه أتابك طغركين فامتنع عليهم ورجعوا. ثم جاء الافرنج فحاصروها فامتنعت عليهم ايضاً وشاع أن بركيارق جاء الى الشام

فرحلوا . ثم عـادوا واظهروا أنّ المصريين جاؤا لانجاده فرحلوا . ثم عادوا فتقدّم للنصارى الذين عنده أن يداخلوا الافرنج في نقب البلد من بعض أسواره فجهزوا اليهم ثلثمائـة من أعيانهم فرفعهم بالحبال واحداً بعد واحد ، وهو قاعد على السور حتى قتلهم أجمعين فرحلوا عنه .

ثم عادوا اليه فهزمهم وأسر ملهم كبرانيطل ، وفادى نفسه منه بمال عظيم ثم [1] ابن صليحة وجهده الحصار فأرسل الى طغركين صاحب دمشق . وبعث ابن عمار في طلبه الى الملك دقاق على ان يدفعه اليه بنفسه دون ماله ، ويعطيه ثـلاثين الف دينار فلم يفعـل . وسار ابن صليحة الى بغداد فوعده الى وصول رحله من الانبار فبعث الوزير من استولى عليها فوجد فيها ما لا يحصى من الملابس والعمائم والمتاع ، وانتزع ذلك كله . ولما ملك تاج الملوك جبلة أساء فيها السيرة فراسلوا فخر الملك أبا علي بن عمـار صاحب طرابلس ، واستدعوه لملكها فبعث اليهم عسكراً وقاتلوا تاج الملك ومن معه فهزموه ، وأخذوه أسيراً ، وملكوا جبله بدعوة ابن عمار وحملوا تاج الملك الى ابن عمّار فأحسن اليه ، وبعث الى أبيه بدمشق ، واعتذر له بأنه خاف على جبلة من الافرنج .

---

(١) كذا بياض بالأصل، وعبارة مضطربة وأسماء محرفة. وفي الكامل ج ٨ ص ١٩٩ : وأتـوا الفرنج في ظهورهم فولوا منهزمين وأسر مقدمهم المعروف بكند اصطبل فافتدى نفسـه بمال جـزيل. ثم علم أنهم لا يقعدون عن طلبه وليس له ما يمنعهم عنه. فأرسـل إلى طغتكين أتـابك يلتمس منـه إنقاذ من يثق به ليسلم إليه ثغر جبله، ويحميه ليصل هو إلى دمشق بماله وأهله.

استيلاء الافرنج على سروج وقيسارية وغيرهما

ثم سار كبر يري ملك الافرنج من بيت المقدس سنة أربع وتسعين لحصارها فأصابه منهم سهم فقتله، فسار أخوه بقدوين في خمسائة فارس الى القدس. ونهض دقاق صاحب دمشق، ومعه جناح الدولة صاحب حمص لاعتراضه فهزموا الافرنج وأثخنوا فيهم ثم كاتب أهل المدينة الافرنج وكان أكبرهم، ودخل في طاعتهم. وكان سُقمان بن ارتق صاحب سروج جمع جموعه من التركمان، وسار الى الرُها فلقيه الافرنج وهزموه في ربيع سنة أربع وتسعين. وساروا الى سروج فحاصروهم حتى ملكوها عنوة واستباحوها. ثم ملكوا حصن كيفا بقرب عكا عنوة، وملكوا أرسوف بالامان. ثم ساروا في رجب الى قيسارية فملكوها عنوة واستباحوها، والله تعالى ولي التوفيق بمنه كرمه.

حصار الافرنج طرابلس وغيرها

كان صنجيل من ملوك الافرنج المذكورين قبل قد لازم حصار طرابلس، وزحف اليه قليج ارسلان صاحب بلاد الروم فظفر به. وعاد صنجيل مهزوماً فأرسل فخر الدولة بن عمار صاحب طرابلس، الى أمير آخر، نائب جناح الدولة بحمص الى دقاق بن تتش يدعوه الى معالجته. فجاء تاج الدولة بنفسه، وجاء العسكر

مدداً من عند دقاق، واجتمعوا على طرابلس. وفرّق صنجيل الفل الذين معه على قتالهم فانهزموا كلهم، وفتك هو في أهل طرابلس وشد حصارها. وأعانه أهل الجبل والنصارى من أهل سوادها. ثم صالحوه على مال وخيل. ورحل عنهم الى طرطوس من أعمال طرابلس فحاصرها، عنوة واستباحها الى حصن الطومار ومقدمه ابن العريض فامتنع عليهم، وقاتلهم صنجيل فهزموا عسكره، وأسروا زعيماً من زعماء الافرنج بذل صنجيل فيه عشرة آلاف دينار وألف أسير، ولم يعاوده. وذلك كله سنة خمس وتسعين وأربعمائة. ثم سار صنجيل الى حصن الاكراد وحاصره [(1)] جناح الدولة لغزوه فوثب عليه باطني بالمسجد وقتله. ويقال ان رضوان بن تتش وضعه عليه فسار صنجيل الى حمص، وحاصرها وملك أعمالها. ثم نزل القُمص على عكا في جمادي الاخيرة من السنة فنفر المسلمون من جميع السواحل لقتاله، وهزموه وأحرقوا اهله والمنجنيقات التي نصبت للحرب. ثم سار القمص صاحب الرها الى سروج وحاصرها فامتنعت عليه، وزحف عساكر مصر الى عسقلان للمدافعة عن سواحلهم فزحف اليهم بردويل صاحب القدس فهزمه المسلمون، ونجا الى الرملة، وهم في

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٢١١ : وفيها سار صنجيل إلى حصن الأكراد فحاصره، فجمع جناح الدولة عسكره ليسير إليه ويكبسه فقتله باطني بالمسجد الجامع.

اتباعه فحاصروه وخلص الى يافا ، وفشا القتل والاسر في الافرنج والله تعالى ولي التوفيق .

حصار الافرنج عسقلان وحروبهم مع عساكر مصر

لما طمع الافرنج في عسقلان ، واستفحل أمرهم بالشام ، جهز الافضل أمير الجيوش عساكره من مصر لحربهم سنة ست وتسعين مع سعد الدولة القواسي مولى أبيه . وزحف بقدوين ملك الافرنج من القدس فلقيهم بين الرملة ويافا وهزمهم . ومات سعد مترقباً عن فرسه ، واستولى الافرنج على سواده . وبعث الافضل بعده ابنه شرف المعالي فلقيهم في العساكر على بازور قرب الرملة فهزمهم ونال منهم ، ونجا كثير من أعيانهم الى بعض الحصون هنالك فحاصرهم شرف المعالي خمس عشرة ليلة ، وملك الحصن فقتل وأسر . ونجا بقدوين الى يافا ، ثم الى القدس فصادف وصول جمع كثير من الافرنج لزيارة القدس فندبهم للغزو فساروا الى عسقلان وبها شرف المعالي فامتنعت ورجعوا .

وبعث شرف المعالي الى أبيه فبعث العساكر في البر مع تاج العجم مولى أبيه ، والاسطول في البحر لحصار يافا مع القاضي ابن دقاوس . فلما وصل الاسطول الى يافا بعث عن تاج العجم ليأتيه بالعساكر فامتنع ، فأرسل الافضل من قبض عليه ، وولى علي

العساكر وعلى عسقلان جمال الملك من مواليهم فانصرفت السنة، وبيد الافرنج بيت المقدس غير عسقلان، ولهم أيضاً من الشام يافا وارسوف وقيسارية وحيفا وطبرية والاردن واللاذقية وانطاكية، ولهم بالجزيرة الرها وسروج وصنجيل محاصر فخر الملك بن عمار بمدينة طرابلس، وهو يرسل اسطوله للاغارة على بلاد الافرنج في كل ناحية. ثم دخلت سنة سبع وتسعين فخرج الافرنج الذين بالرها فأغاروا على الرقة وقلعة جعبر، واكتسحوا نواحيها. وكانت لسالم ابن مالك بن بدران بن المقلّد منذ ملكه السلطان ملك شاه اياها سنه تسع وسبعين كما مر والله أعلم.

استيلاء الافرنج على جبيل وعكا

وفي سنة سبع وتسعين وصلت مراكب من بلاد الافرنج تحمل خلقاً كثيراً من التجار والحجاج فاستعان بهم صنجيل على حصار طرابلس، فحاصروها حتى يئسوا منها فارتحلوا الى جبيل وملكوها بالامان. ثم غدروا بأهلها وأفحشوا في استباحتها. ثم استنجدهم بقدوين ملك القدس على حصار عكا فحاصروها براً وبحراً وفيها بهاء الدولة الجيوشي من قبل ملك الجيوش الافضل صاحب مصر فدافعهم حتى عجزوا، وهرب عنها الى دمشق وملك الافرنج عكا عنوة وأفحشوا في استباحتها، والله تعالى أعلم.

غزو أمراء السلجوقية بالجزيرة الافرنج

كان المسلمون أيام تغلب الافرنج على الشام في فتنة واختلاف تمكن فيها الافرنج واستطالوا، وكانت حران وحمص لمولى من موالي ملك شاه اسمه قواجا، والموصل لجكرمش[١] وحصن كيفا لسقمان بن أرتق وعصى في حرّان على قراجا بأمته فيها فاغتاله جاولي، مولى من موالي الترك وقتله فطمع الافرنج في حران وحاصروها. وكان بين جكرمش وسقمان فتنة وحرب فوضعوا أوزارها لتلافي حران، واجتمعا على الخابور وتحالفا، ومع سقمان سبعة آلاف من قومه التركمان، ومع جكرمش ثلاثه آلاف من قومه الترك، ومن العرب والاكراد. وسار اليهم الافرنج من حران فاقتتلوا، واستطردهم[٢] المسلمون بعيداً، ثم كروا عليهم فأثخنوا فيهم واستباحوا أموالهم.

وكان اسمند صاحب انطاكية وشكري[٣] صاحب الساحل قد أكمنوا للمسلمين وراء الجبل فلم يظهر لهم انهم أصحابهم، وأقاموا هنالك الى الليل. ثم هربوا وشعر بهم المسلمون فاتبعوهم وأثخنوا

(١) كذا بالأصل واسمه في الكامل: جكرمش.
(٢) استطرد: استطرد له: أظهر له الانهزام مكيدة.
(٣) كذا بالأصل، وفي الكامل: بيمند صاحب إنطاكية وطنكري صاحب الساحل.

فيهم . وأسر في تلك الواقعة القمص بردويل صاحب الرها ، أسره بعض التركمان من أصحاب سقمان فشق ذلك على أصحاب جكرمش لكثرة ما امتاز به التركمان من الغنائم ، وحسنوا له أخذ القمص من [1] سقمان فأخذه وأراد التركمان محاربة جكرمش وأصحابه عليه فنعهم سقمان حذراً من اختلاف المسلمين وسار مفارقاً لهم . وكان يمر بحصون الافرنج فيخرجون اليه ظنا بنصر اصحابهم فلكها عليهم . وسار جكرمش الى حران فلكها وولى عليها من قبله . ثم سار الى الرها وحاصرها أياماً ، وعاد الى الموصل ، وفادى القمص بردويل بخمسة وثلاثين ألف دينار ومائة وستين أسيراً ، والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق بمنه وكرمه .

حرب الافرنج مع رضوان بن تتش صاحب حلب

ثم سار سكري صاحب انطاكية من الافرنج سنة ثمان وتسعين الى حصن أريام من حصون رضوان صاحب حلب فضاقت حالهم واستنجدوا برضوان فسار اليهم ، وخرج الافرنج للقائه . ثم طلب الصلح من رضوان فنعه أصبهبد وصباوو ، من امراء السلجوقية

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٢٢٢ : وحسنوا له أخذ القمص، فانفذ أخذ القمص من خيم سقمان. فلما عاد سقمان شق عليه الأمر وركب أصحابه للقتال فردهم.

كان نزع اليه بعد قتـل صاحبه أياز ، ولقيهم الافرنج فانهزموا أوّلاً ثم استماتوا وكرّوا على المسلمين فهزموهم وأفحشوا في قتلهم، وقتل الرجالة الذين دخلوا عسكرهم في الحملة الاولى . ونجا رضوان وأصحابه الى حلب ، ولحق صباوو بطغركين أتابك دمشق ، ورجع الافرنج الى حصار الحصن فهرب أهله الى حلب وملكه الافرنج، والله تعالى ولي التوفيق .

حرب الافرنج مع عساكر مصر

كان الافضل صاحب مصر قد بعث سنة ثمان وتسعين ابنه شرف المعالي في العساكر الى الرملة فملكها ، وقهر الافرنج . ثم اختلف العسكر في ادعاء الظفر وكادوا يقتتلون ، وأغار عليهم الافرنج فعاد شرف المعالي الى مصر فبعث الافضل ابنه الآخر سناء الملك حسيناً مكانه في العساكر ، وخرج معه جمال الدين صاحب عسقلان ، واستمدّوا طغركين أتابك دمشق فجهز اليهم اصبهبد صباوو من امراء السلجوقية . وقصدهم بغدوين صاحب القدس وعكا فاقتتلوا وكثرت بينهم القتلى ، واستشهد جمال الملك نائب عسقلان وتحاجزوا ، وعاد كل الى بلده . وكان مع الافرنج جماعة من المسلمين منهم بكياش بن تتش ذهب مغاضباً عن دمشق لما عدل عنه طغركين الاتابك بالملك الى ابن أخيه دقّاق ، وأقام عند الافرنج ، والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق بمنه .

حرب الافرنج مع طغركين

كان قص من قامصة الافرنج بالقرب من دمشق، وكان كثيراً ما يغير عليها ويحارب عساكرها فسار اليه طغركين في العساكر ، وجاء بغدوين ملك القدس لانجاده على المسلمين فردّه ذلك القمص ثقة بكفاءته فرجع الى عكا ، وسار طغركين الى الافرنج فقاتلهم وحجزهم في حصنهم . ثم خرّب الحصن وألقى حجارته في الوادي وأسر الحامية الذين به، وقتل من سواهم من أهله وعاد الى دمشق ظاهراً . ثم سار بعد اسبوع الى (١) وبه ابن أخت صنجيل فملكه وقتل حاميته .

استيلاء الافرنج على حصن أفامية

كان خلف بن ملاعِب الكلابي متغلباً على حمص وملكها منه تتش كامر، وانتقلت الاحوال الى مصر . ثم ان رضوان صاحب حلب انتقض عليه واليه بحصن افامية، وكان من الرافضة فبعث بطاعته الى صاحب مصر، واستدعى منهم والياً فبعثوا خلف بن

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٢٣٠ : وعاد طغتكين إلى دمشق منصوراً فزين البلد أربعة أيام وخرج منها إلى ردنية، وهو من حصون الشام، وقد تغلب عليه الفرنج ، وصاحبه ابن اخت صنجيل المقيم على حصار طرابلس فحصره طغتكين وملكه، وقتل به خمسمائة رجل من الفرنج .

ملاعب لايثاره الجهاد وأخذوا رهنه فمي [١] في افامية واستَبدّ بها واجتمع عليه المفسدون. ثم ملك [٢] من اعمال حلب وأهله رافضة، ولحق قاضيها بابن ملاعب في افامية. ثم أعمل التدبير عليه، وبعث الى أبي طاهر الصائغ من اصحاب رضوان وأعيان الرافضة ودعاتهم، وداخله في الفتك بابن ملاعب وتسليم الحصن الى رضوان. وشعر بذلك ابنا ابن ملاعب وحذّرا أباهما من تدبير القاضي عليه.

وجاء القاضي فحلف له على كذبه، وصدّقه وعاد القاضي الى مداخلة أبي طاهر ورضوان في ذلك التدبير، وبعثوا جماعة من أهل سرمين بخيول وسلاح يقصدون الخدمة عند ابن ملاعب فأنزلهم بربض افامية حتى تم التدبير، وأصعدهم القاضي وأصحابه ليلاً الى القلعة فملكوها وقتلوا ابن ملاعب. وهرب ابناه فلحق أحدهما بأبي الحسن بن منقذ صاحب شيزر وقتل الآخر. وجاء أبو طاهر الصائغ الى القاضي يعتقد ان الحصن له فلم يمكنه القاضي وأقام عنده. وكان بعض بني خلف بن ملاعب عند طغركين بدمشق مغاضباً لابيه فولّاه حصناً من حصونه فأظهر الفساد

(١) كذا بالأصل وفي الكامل ج ٨ ص ٢٣٢: وأقام بأفاميه يخيف السبيل ويقطع الطريق، فاجتمع عنده كثير من المفسدين.

(٢) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل: ثم إن الفرنج ملكوا سرمين، وهي من أعمال حلب.

والعيث فطلبه طغركين فهرب الى الافرنج ، واستحثهم لملك افامية فحاصروه حتى جهد أهله الجوع وقتلوا القاضي المتغلب فيه والصائغ، وذلك سنة تسع وتسعين وخمسمائة.

خبر الافرنج في حصار طرابلس

كان صنجيل من ملوك الافرنج ملازماً لحصار طرابلس ، وملك جَبْلَة من يد ابن أبي صُليحة وبنى على طَرابلس حصناً وأقام عليها . ثم هلك وحمل الى القدس ودفن . وأمر ملك الروم أهل اللاذقية أن يحملوا الميرة الى الافرنج المحاصرين طرابلس فحملوها في السفن . وظفر اصحاب ابن عمار ببعضها فقتلوا وأسروا واستمرّ الحصن خمس سنين فعدمت الاقوات . واستنفد أهل الثروة مكسوبهم في الانفاق وضاقت أحوالهم ، وجاءتهم سنة خمسمائة ميرة في البحر من جزيرة قبرص وانطاكية وجزائر البنادقة فحفظت أرماقهم . ثم بلغ ابن عمار انتظام الامر للسلطان محمد بن ملك شاه بعد أخيه بركيارق فارتحل اليه صريخاً ، واستخلف على طرابلس ابن عمه ذا المناقب في طرابلس . وخيم ابن عمار على دمشق وأكرمه طغركين . ثم سار الى بغداد فأكرمه السلطان محمد وأمر بتبليغه والاحتفال لقدومه ووعده بالانجاد .

ولما رحل عن بغداد أحضره عنده بالنهروان ، وأمر الامير حسين بن أتابك قطلغتكين بالمسير معه ، وان يستصحب العساكر

التي بعثها مع الامير مودود الى الموصل لقتال جاولي سكاوو ، وأمره باصلاح جاولي والمسير مع ابن عمار حسبما مرّ في أخبارهم . ثم وقعت الحرب بين السلطان محمد وبين صَدَقَة بن مزيد واصطلحوا وودّعه ابن عمار بعد ان خلع عليه ، وسار معه الامير حسين فلم يصل الى قصده من عساكر الموصل [1] مودود والانتقاض فعاد فخر الدين بن عمار الى دمشق في محرم سنة اثنتين وخمسمائة وسار منها الى . . . فلكها . وبعث أهل طرابلس الى الافضل أمير الجيوش بمصر يستمدّونه ، ويسألون الوالي عليهم فبعث اليهم شرف الدولة ابن ابي الطيب بالمدد والاقوات والسلاح وعدّة الحصار ، واستولى على ذخائر ابن عمار ، وقبض على جماعة من أهله ، وحمل الجميع في البحر الى مصر .

خبر القمص صاحب الرها مع جاولي
ومع صاحب انطاكية

كان جاولي قد ملك الموصل من يد أصحاب جكرمش ، ثم

(١) كذا بياضان بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٢٥٤ : ففعل حسين ذلك، وسار ومعه صاحب جاولي، فلما وصلا إلى العسكر الذي على الموصل وكانوا لم يفتحوها بعد فأمرهم حسين بالرحيل، فكلهم أجاب إلا الأمير مودود فإنه قال: لا أرحل إلا بأمر السلطان. وقبض على صاحب جاولي وأقام على الموصل حتى فتحها كما ذكرناه وعاد حسين بن قطلغتكين إلى السلطان فأحسن النيابة عن جاولي عنده. وسار جاولي إلى مدينة بالس.

انتقض فبعث السلطان اليه مودود في العساكر فسار جاولي عن الموصل، وحمل معه القمص بردويل صاحب الرها الذي كان اسره سقمان واخذه منه جكرمش واصحابه، وترك الموصل . ثم أطلق جاولي هذا القمص في سنه ثلاث وخمسائة بعد خمس سنين من اسره على مال قرّره عليه وأسرى من المسلمين عنده يطلقهم، وعلى ان يمده بنفسه وعساكره وماله متي احتاج الى ذلك .

ولما انبرم العقد بينهما بعث يوالي سالم بن مالك بقلعة جعبر حتى جاءه هناك ابن خاله جوسكين تل باشر [1] فأقام رهينة مكانه . ثم أطلقه جاولي ورهن مكانه أخا زوجته وزوجة القمص. فلما وصل جوسكين الى منبج أغار عليها ونهبها وسبى جماعة من أصحاب جاولي وسئل فاعتذر بأنّ هذه البلاد ليست لكم .

لما أطلق القمص سار الى انطاكية ليسترد الرهامن يد لشكري لانه اخذها بعد أسره فلم يردها، وأعطاه ثلاثين الف دينار . ثم سار القمص الى تل باشر، وقدم عليه أخوه جوسكين الذي وضعه رهينة عند جاولي . وسار لشكري صاحب انطاكية لحربها قبل ان يستفحل أمرهما وينجدهما جاولى فقاتلوه، ورجع الى انطاكية وأطلق القمص مائة وستين من أسرى المسلمين .

---

(١) كذا بالأصل، عبارة مشوّشة، وفي الكامل ج ٨ ص ٢٥٣ : فلما اتفقا على ذلك سير القمص إلى قلعة جعبر، وسلمه إلى صاحبها سالم بن مالك حتى ورد عليه ابن خالته جوسلين، وهو من فرسان الفرنج وشجعانها، وهو صاحب تل باشر وغيرها.

ثم سار القمص وأخوه جوسكين وأغاروا على حصون انطاكية وأمدّهم صاحب زغبان وكيسوم[1] وغيرهما من القلاع شمال حلب، وهو من الارمن، بألف فارس، وألفي راجل وخرج اليهم لشكري وتراجعوا للحرب.

ثم حملهم الترك على الصلح وحكم على لشكري بردّ الرها على القمص صاحبها بعد ان شهد عنده جماعة من البطارقة والاساقفة بأن اسمند خال لشكري لما انصرف الى بلاده، أوصاه بردّ الرها على صاحبها اذا خلص من الاسر فردّها لشكري على القمص في صفر سنة ثلاث، ووفى القمص لجاولي بما كان بينهما. ثم قصد جاولي الشام ليملكه وتنقل في نواحيه كما مر في أخباره. وكتب رضوان صاحب حلب الى لشكري صاحب انطاكية يحذره من جاولي ويستنجده عليه فأجابه وبرز من انطاكية، وبعث اليه رضوان بالعساكر.

واستنجد جاولي القمص صاحب الرها فأنجده بنفسه، ولحق به على منبج، وجاءه الخبر هنالك باستيلاء عسكر السلطان على بلده الموصل، وعلى خزائنه بها وفارقه كثير من أصحابه: منهم

(١) ورد في معجم البلدان: كيسوم: الكثير من الحشيش. وهي قرية مستطيلة من أعمال سميساط، وفيها حصن كبير على تلعة كانت لنصر بن شيت، تحصن فيه من المأمون حتى ظفر به عبد الله بن طاهر فأخرجه، ثم أحدث بعد فيها مياهاً وبساتين.

زنكي بن أقسنقر فنزل جاولي تل باشر، وتزاحف مع لشكري هنالك واشتد القتال. واستمر أصحاب انطاكية فتخاذل أصحاب جاولي وانهزموا، وذهب الافرنج بسوادهم فجاء القمص وجوسكين الى تل باشر والله تعالى أعلم.

حروب الإفرنج مع طغركين

كان طغركين قد سار الى طبرية سنة اثنتين وخمسمائة فسار اليه ابن أخت بغدوين ملك القدس واقتتلوا فانكشف المسلمون. ثم استماتوا وهزموا الافرنج وأسروا ابن أخت الملك فقتله طغركين بيده، بعد ان فادى نفسه بثلاثين ألف دينار وخمسمائة أسير فلم يقبل منه إلا الاسلام أو القتل.

ثم اصطلح طغركين وبغدوين لمدة أربع سنين. وكان حصن غزيّة من أعمال طرابلس بيد مولي ابن عمّار فعصى عليه، وانقطعت عنه الميرة بعيث الافرنج في نواحيه فارسل الى طغركين بطاعته فبعث اسرائيل من أصحابه ليمتلك الحصن، ونزل منه مولى ابن عمار فرماه اسرائيل في الزحام بسهم فقتله حذراً أن يطلع الأتابك على مخلفه.

وقصد طغركين الحصن لمشارفة أحواله فمنعه نزول الثلج، حتى اذا انقشع وانجلى سار في أربعة آلاف فارس وفتح حصوناً للافرنج

منها حصن الاكمة وكان السرداني من الافرنج يحاصر طرابلس فسار للقائه فلما أشرف عليه انهزم طغركين وأصحابه الى حمص ، وملك السرداني حصن غزية بالامان ، ووصل طغركين الى دمشق فبعث اليه بغدوين من القدس بالبقاء على الصلح وذلك في شعبان سنة اثنتين .

استيلاء الافرنج على طرابلس وبيروت وصيدا وجبيل وبانياس

ولما عادت طرابلس الى صاحب مصر من يد ابن عمار وولي عليها نائبه ، والافرنج يحاصرونها وزعيمهم السرداني ابن أخت صنجيل فلما كانت سنة ثلاث وخمسمائة في شعبان ووصل القمص والد صنجيل ، وليس صنجيل الاول وانما هو قمص آخر بمراكب عديدة مشحونة بالرجال والسلاح والميرة ، وجرت بينه وبين السرداني فتنة واقتتلوا .

وجاء لشكري صاحب انطاكية مدداً للسرداني . ثم جاء بغدوين ملك القدس وأصلح بينهم وحاصروا طرابلس ، ونصبوا عليها الابراج فاشتدّ بهم الحصار ، وعدموا القوت لتأخر الاسطول المصري بالميرة ، ثم زحفوا الى قتالها بالابراج وملكوها عنوة ثاني الاضحى واستباحوها وأثخنوا فيها . وكان النائب بها قد استأمن الى الافرنج قبل ذلك بليال وملكها بالامان ، ونزل على مدينة جبيل ، وبها فخر الملك ابن عمار فاستأمنوا الى لشكري وملكها .

ولحق ابن عمار بشيزر فنزل على صاحبها سلطان بن علي بن منقذ الكناني ، ولحق منها بدمشق فأكرمه طغركين وأقطعه الزبداني ، من أعمال دمشق ، في محرّم سنة أربع ، ووصل اسطول مصر بالميرة بعد أخذ طرابلس بثمانيــة أيام فأرسى بساحل صور وفرقت الغلال في جهاتها في صور وصيدا وبيروت .

ثم استولى الافرنج على صيدا في ربيع الآخر سنــة أربع وخمسمائة . وذلك انه وصل اسطول للافرنج من ستين مركباً مشحونة بالرجــال والذخائر ، وبها ملوكهم بقصد الحج والغزو فاجتمعو مع بغدوين صاحب القــدس ، ونازلوا صيدا برّاً وبحراً ، وأسطول مصر يعجز عن انجادهم . ثم زحفوا الى صور في ابراج الخشب المصفحة فضعفت نفوسهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل بيروت فاستأمنوا فأمّنهم الافرنج في جمادى الاولى ، ولحقوا بدمشق بعد سبعة وأربعين يوماً من الحصار . وأقام بالبلد خلق كثير تحت الامان ، وعاد بغدوين الى القدس .

استيلاء أهل مصر على عسقلان

كانت عسقلان لخلفاء العلوية بمصر ، وقد ذكرنا حروب الافرنج مع عساكرهم عليها ، وآخر من استشهد منهم جمــال الملك نائبها كما مرّ آنفاً . وولي عليها شمس الخلافة فراسل بغدوين ملك القدس

وهاداه ليمتنع به من الخليفة بمصر. وبعث الافضل بن أمير الجيوش العساكر اليه سنة أربع وخمسمائة مع قائد من قوادهم موريا بالغزو، وأسرّ اليه بالقبض على شمس الخلافة والولاية مكانه بعسقلان.

وشعر شمس الخلافة بذلك فجاهر بالعصيان فخشي أن يملكها الافرنج فراسله وأقرّه على عمله، وعزل شمس الخلافة جند عسقلان واستنجد جماعة من الارمن فاستوحش منه أهل البلد، ووثبوا به فقتلوه، وبعثوا الى الامير الافضل صاحب مصر المستولي عليها بطاعتهم فجاءهم الوالي من قبله واستقامت أمورهم.

استيلاء الافرنج على حصن الأثارب وغيره

ثم جمع لشكري صاحب انطاكية واحتشد، وسار الى حصن الاقارب[1] على ثلاثة فراسخ من حلب فحاصره وملكه عنوة وأثخن فيهم بالقتل والسبي. ثم سار الى حصن وزدناد[2] ففعل فيه مثل ذلك، وهرب أهله منه، ومارس[3] على بلديها.

---

(١) هو حصن «الأثارب» كما في الكامل ج ٨ ص ٢٦١.

(٢) كذا، وفي الكامل: حصن «زردنا».

(٣) كذا، هنا عبارة سقطت أثناء النسخ أو الطبع. وفي الكامل: فلما سمع أهل منبج بذلك فارقوها خوفاً من الفرنج وكذلك أهل بالس. وقصد الفرنج البلدين فرأوهما وليس بهما أنيس فعادوا عنها.

ثم سار عسكر من الافرنج الى مدينة صيدا فلكوها على الامان، وأشفق المسلمون من استيلاء الافرنج على الشام. وراسلوهم في الهدنة فامتنعوا الا على الضريبة : فصالحهم رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين ألف دينار وعدّة من الخيول والثياب، وصاحب صور على سبعة آلاف دينار، وابن منقذ صاحب شيزر[1] على أربعة آلاف دينار، وعلي الكردي صاحب حماة على ألفي دينار. ومدّة الهدنة الى حصاد الشعير.

ثم اعترضت مراكب الافرنج التجار من مصر فأخذوها وأسروهم.

وسار جماعة من أهل حلب الى بغداد للنفير فدخلوها مستغيثين، ومعهم خلق من الفقهاء والغوغاء، وقصدوا جامع السلطان يوم الجمعة فمنعوا الناس من الصلاة بضجيجهم، وكسروا المنبر فوعدهم السلطان بانفاذ العساكر للجهاد. وبعث من دار الخلافة منبراً للجامع.

ثم قصدوا في الجمعة الثانية جامع القصر في مثل جمعهم، ومنعهم صاحب الباب فدفعوا ودخلوا الجامع وكسروا شبابيك

---

(١) شيزر: قلعة تشمل على كورة بالشام قرب المعرّة، بينها وبين حماة يوم. وهي قديمة ذكرها امرؤ القيس في قوله:

تقطّع أسباب اللبانة والهوى عشيّة جاوزنا حماة وشيزرا

م. ب.

المقصورة والمنبر، وبطلت الجمعة. وأرسل الخليفة الى السلطان في رفع هذا الحزن فأمر الامراء بالتجهز للجهاد، وأرسل ابنه الملك مسعوداً مع الامير مودود صاحب الموصل ليلحق به الامراء ويسيروا جميعاً الى قتال الافرنج .

مسير الامراء السلجوقية الى قتال الافرنج

ولما سار مسعود بن السلطان مع الامير مودود الى الموصل، اجتمع معهم الامراء سُقمان القُطبي صاحب ديار بكر وابنا بُرسُق ابلتكي وزَنكي اصحاب همذان، والامير أحمد بك صاحب مَرَاغة، وأبو الهيجاء صاحب اربل، واياز بن أبي الغازي، بعثه أخوه صاحب ماردين. وساروا جميعاً الى سنجار وفتحوا عدّة حصون للافرنج، ونزلوا على مدينة الرها وحاصروها، واجتمعوا مع الافرنج على الفرات .

وخام[1] الطائفتان عن اللقاء، وتأخر المسلمون الى حَرّان يستطردون للافرنج لعلهم يعبرون الفرات فخالفهم الافرنج الى الرها، وشحنوها أقواتاً وعدة وأخرجوا الضعفاء منها. ثم عبروا الفرات الى نواحي حلب، لان الملك رضوان صاحبها لما عبروا الى

(١) خام عن لقائه: وقف قبالته.

الجزيرة ارتجع بعض الحصون التي كان الافرنج اخذوها بأعمال حلب فطرقوها الآن فاكتسحوا نواحيها .

وجاءت عساكر السلطان الى الرُها ، وقاتلوها فامتنعت عليهم فعبروا الفرات ، وحاصروا قلعة تل باشر شهراً ونصفاً فامتنعت ، فرحلوا الى حلب فقعد الملك رضوان عن لقائهم ، ومرض هنالك سُقمان القُطبي ، ورجعوا فتوفي في بالس ، وحمل شلوه الى بلده ، ونزلت العساكر السلطانية على معرة النعمان فخرج طُغْرَكِين صاحب دمشق الى مودود ، ونزل عليه . ثم ارتاب لما رأى من الامراء في حقه فدسّ للافرنج بالمهادنة .

ثم افترقت العساكر كما ذكرنا في أخبارهم . وبقي مودود مع طغركين على نهر العاصي . وطمع الافرنج بافتراقهم فساروا الى أفامية . وخرج سلطان بن منقذ صاحب شيزر الى مودود وطغركين فرحل بهم الى شيزر ، وهوّن عليهم أمر الافرنج . وضاقت الميرة على الافرنج فرحلوا واتبعهم المسلمون يتخطفون من أعقابهم حتى أبعدوا والله تعالى أعلم .

حصار الافرنج مدينة صور

ولما افترقت العساكر السلطانية خرج بغدوين ملك القدس وجمع الافرنج ، ونزلوا على مدينة صور في جمادى الاولى من سنة

خمس، وهي للامير الافضل صاحب مصر، ونائبه بها عز الملك الأغرّ، ونصبوا عليها الأبراج والمجانيق. وانتدب بعض الشجعان من أهل طرابلس، كان عندهم في ألف رجل، وصدقوا الحملة حتى وصلوا البرج المتصل بالسور فأحرقوه ورموا الآخرين بالنفط فأحرقوهم. واشتد القتال بينهم وبعث أهل صور الى طغركين صاحب دمشق يستنجدونه، على أن يمكنوه من البلد فجاء الى بانياس، وبعث اليهم بمائتي فرس، واشتد القتال، وبعث نائب البلد الى طغركين بالاستحثاث للوصول ليمكنه من البلد. وكان طغركين يغير على أعمال الافرنج في نواحيها، وملك لهم حصناً من أعمال دمشق، وقطع الميرة عنهم فساروا يحملونها في البحر. ثم سار الى صيدا وأغار عليها ونال منها. ثم أزهت الثمرة وخشي الافرنج من طغركين على بلادهم فأفرجوا عن صور الى عكا. وجاء طغركين الى صور فأعطى [1] الاموال واشتغلوا باصلاح سورهم وخندقهم والله أعلم.

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٢٦٤ : وقاتل أهل صور قتال من أيس من الحياة فدام القتال إلى أوان إدراك الغلات فخاف الفرنج أن طغتكين يستولي على غلات بلادهم فساروا عن البلد عاشر شوال إلى عكا، وعاد عسكر طغتكين إليه، وأعطاهم أهلها الأموال وغيرها. ثم أصلحوا ما تشعث من سورها وخندقها، وكان الفرنج قد طموه.

أخبار مودود مع الإفرنج ومقتله
ووفاة صاحب انطاكية

ثم سار الامير مودود صاحب الموصل سنة ست الى سروج ، وعاث في نواحيها فخرج جكرمش صاحب تل باشر وأغار على دوابهم فاستاقها من راعيها ، وقتل كثيراً من العسكر ورجع . ثم توفي الامير الأرمني صاحب الدروب ببلاد ابن كاور فسار لشكري صاحب انطاكية من الافرنج الى بلاده ليملكها فمرض وعاد الى انطاكية ، ومات منتصف سنة ست ، وملكها بعده ابن أخته سرجان واستقام أمره .

ثم جمع الامير مودود صاحب الموصل العساكر واحتشد وجاءه تميرك صاحب سنجار واياز بن أبي الغازي صاحب ماردين ، وطغركين صاحب دمشق ، ودخلوا في محرّم سنة سبع الى بلاد الافرنج .

وخرج بغدوين ملك القدس وجوسكين صاحب القدس يغير على دمشق فعبروا الفرات ، وقصدوا القدس ، ونزلوا على الاردن والافرنج عدوتهم ، واقتتلوا منتصف محرم فانهزم الافرنج ، وهلك منهم كثير في بحيرة طبرية والاردن ، وغنم المسلمون سوادهم . وساروا منهزمين فلقيهم عسكر طرابلس وانطاكية فشردوا معهم

وأقاموا على جبل طبرية ، وحاصرهم المسلمون نحواً من شهر فلم يظفروا بهم فتركوهم وانساحوا[1] في بلاد الافرنج ما بين عكا والقدس واكتسحوها .

ثم انقطعت المواد عنهم للبعد عن بلادهم فعادوا الى مرج الصُفَّر على نية العود للغزاة في فصل الربيع ، وأذنوا للعساكر في الانطلاق . ودخل مودود الى دمشق يقيم بها الى أوان اجتماعهم ، فطعنه باطني في الجامع حين منصرفه من صلاة الجمعة آخر ربيع الاول من السنة ومات من يومه ، واتهم طغركين بقتله ، والله تعالى أعلم :

أخبار البرسقي مع الافرنج

ولما قتل مودود بعث السلطان محمد مكانه اقسنقر البرسقي ، ومعه ابنه السلطان مسعود في العساكر لقتال الافرنج. وبعث الى الامراء بطاعته فجاءه عماد الدين زنكي بن أقسنقر وتميرك صاحب سنجار . وسار الي جزيرة ابن عمر وملكها من يد نائب مودود . ثم سار الى ماردين فحاصرها الى ان إذعن ابو الغازي صاحبها ، وبعث معه ابنه أياز في العساكر فساروا الى الرها وحاصروها في ذي الحجة سنة ثمان مدة سبعين يوماً فامتنعت ، وضاقت الميرة على

---

(١) انساح : اندفع .

المسلمين فرحلوا الى شمشاط وسروج ، وعاثوا في تلك النواحي ، وهلك في خلال ذلك بكواسيل صاحب مَرْعش ، وكيسوم وزغبان من الافرنج ، وملكت زوجته بعده وامتنعت من الافرنج . وأرسلت الى البرسقي على الرها بطاعته ، فبعث اليها صاحب الخابور فردته بالاموال والهدايا وبطاعتها ، فعاد من كان عندها من الافرنج الى انطاكية والله أعلم .

الحرب بين العساكر السلطانية والفرنج

كان السلطان محمد قد تنكر لطغركين صاحب دمشق ، لاتهامه اياه بقتل مودود فعصى وأظهر الخلاف ، وتابعه أبو الغازي صاحب ماردين لما كان بينه وبين البرسقي فأهم السلطان شأنهما وشأن الافرنج وقوتهم ، وجهز العساكر مع الامير برسق صاحب همذان وبعث معه الامير حيوس بك والامير كسكري وعساكر الموصل والجزيرة ، وأمرهم بغزو الافرنج بعد الفراغ من شأن أبي الغازي وطغركين فساروا في رمضان سنة ثمان ، وعبروا الفرات عند الرملة .

وجاؤا الى حلب ، وبها لؤلؤ الخادم بعد رضوان ، ومقدم العساكر شمس الخواص ، وعرضوا عليهما كتب السلطان بتسليم البلد فدافعا بالجواب ، واستنجدا أبا الغازي وطغركين فوصلا اليهما في ألفي فارس ، وامتنعا بها على العسكر فسار الامير برسق الى

حماة من أعمال طغركين فملكها عنوة ونهبها ثلاثاً وسلمها للامير قرجان صاحب حمص، بأمر السلطان بذلك في كل بلد يفتحونه فنفس عليه الامراء ذلك وفسدت ضمائرهم.

وكان أبو الغازي وطغركين وشمس الخواص قد ساروا الى انطاكية مستنجدين بصاحبها روميل على مدافعتهم عن حماة فبلغهم فتحها، ووصل اليهم بانطاكية بغدوين ملك القدس وطرابلس وغيره من شياطين الافرنج، واجتمعوا على افامية واتفقوا على مطاولة المسلمين الى فصل الشتاء ليتفرقوا. فلما أطل الشتاء، والمسلمون مقيمون عاد أبو الغازي الى ماردين وطغركين الى دمشق والافرنج الى بلادهم، وقصد المسلمون كفرطاب، وكانت هي وافامية للافرنج فملكوها عنوة وفتكوا بالافرنج فيها وأسروا صاحبها. ثم ساروا الى قلعة أفامية فاستعصت عليهم فعادوا الى فعادوا الى المعرة وهي للافرنج. وفارقهم الامير حيوس بك الى وادي مَرَاغَة فملكه، وسارت العساكر من المعرة الى حلب، وأثقالهم ودوابهم وهم متلاصقون فوصلت مقدمتهم الى الشام وخربوا الابنية.

وكان روميل صاحب انطاكية قد سار في خمسمائة فارس وألفي راجل للمدافعة عن كفرطاب، وأطل على خيام المسلمين قبل وصولهم فقتل من وجد بها من السوقة والغلمان، وأقام الافرنج

بين الخيام يقتلون كل من لحق بها ، حتى وصل الامير برسق وأخوه زنكي فصعدا ربوة هناك . وأحاط الفل من المسلمين به وعزم برسق على الاستماتة . ثم غلبه أخوه زنكي على النجاة فنجا فيمن معه ، واتبعهم الافرنج فرسخاً ورجعوا عنه ، وافترقت العساكر الاسلامية منهزمة الى بلادها .

وأشفق أهل حلب وغيرها من بلاد الشام من الافرنج بعد هذه الواقعة ، وسار الافرنج الى رُميلة من أعمال دمشق فملكوها ، وبالغوا في تحصينها واعتزم طغركين على تخريب بلاد الافرنج. ثم بلغه الخبر عن خلو رميلة من الحامية فبادر اليها سنة تسع وملكها عنوة ، وقاتل وأسر وغنم وعاد الى دمشق. ولم تزل رميلة بيد المسلمين الى أن حاصرها الافرنج سنة عشرين وخمسمائة وملكوها والله أعلم.

وفاة ملك الإفرنج وأخبارهم بعده مع المسلمين

ثم توفي بغدوين ملك الافرنج بالقدس آخر سنة احدى عشرة وخمسمائة ، وكان قد زحف الى ديار بكر طامعاً في ملكها فانتهى الى تَنّيس ، وشجّ في الليل فانتقض عليه جرحه وعاد الى القدس فمات . وعاد القمص صاحب الرها الذي كان أسره جكرمش وأطلقه جاولي ، وكان حاضراً عنده لزيارة قمامة .

وكان أتابك طغركين قد سار لقتال الافرنج ، ونزل اليرموك

فبعث اليه قمص في المهادنة فاشترط طغركين ترك المناصفة من جبل عردة الى الغور فلم يقبل القمص فسار طغركين الى طَبَرِيَّة. ونهب نواحيها، وسار منها الى عسقلان. ولقي سبعة آلاف من عساكر مصر قد جاؤا في اثر بغدوين عندما ارتحل عن ديار بكر فاعلموا ان صاحبهم تقدم اليهم بالوقوف عند أمر طغركين فشكر لهم ذلك وعاد الى دمشق وأتاه الخبر بأن الافرنج قصدوا أذرعات ونهبوها بعد ان ملكوا حصناً من أعماله فأرسل اليهم تاج الملك بوري في أثرهم فحاصرهم في جبل هناك، حتى يئسوا من أنفسهم. وصدقوا الحملة عليهم فهزموهم وأفحشوا في القتل، وعاد الفل الى دمشق.

وسار طغركين الى حلب يستنجد أبا الغازي فوعده بالمسير معه ثم جاء الخبر بأن الافرنج قصدوا أعمال دمشق فنهبوا حوران واكتسحوها فرجع طغركين الى دمشق، وأبو الغازي الى ماردين الى حشد العساكر وقصدوا الاجتماع على حرب الافرنج. ثم سار الافرنج سنة ثلاثة عشر الى نواحي حلب فملكوا مراغة، ونازلوا المدينة فصانعهم أهلها بمقاسمتهم أملاكهم، وزحف أبو الغازي من ماردين في عشرين ألفاً من العساكر والمتطوعة، ومعه أسامة بن مالك بن شيرز الكناني، والامير طغان ارسلان بن افتكين بن جناح صاحب أرزن.

وسار الافرنج الى صنبيل عرمس[١] قرب الاثارب فنزلوا به في موضع منقطع المسالك ، وعزموا على المطاولة فناجزهم أبو الغازي ، وسار اليهم ودخل عليهم في مجتمعهم ، وقاتلوه أشد القتال فلم يقاوموه وفتك فيهم فتكة شنعاء . وقتل فيهم سرحان صاحب انطاكية وأسر سبعون من زعمائهم ، وذلك منتصف ربيع من السنة . ثم اجتمع فل[٢] الافرنج وعاودوا الحرب فهزمهم ابو الغازي وملك عليهم حصن الاثارب وزردنا ، وجاء الى حلب فأصلح أحوالها وعاد الى ماردين .

ثم سار جوسكين صاحب تل باشر في مائتين من الافرنج ليكبس حلة من احياء طيء يُعرفون ببني خالد فأغار عليهم وغنم أموالهم ، ودلوه على بقية قومهم من بني ربيعة فيما بين دمشق وطبرية فبعث أصحابه اليهم ، وسار هو من طريق آخر فضل عن الطريق ، ووصل أصحابه اليهم ، وأميرهم وعدّة من ربيعة فقاتلهم وغلبهم ، وقتل منهم سبعين ، وأسر اثني عشر ففاداهم بمال جزيل من الاسرى ، وبلغ الى جوسكين في طريقه فعاد الى طرابلس

---

(١) كذا بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٢٨٨ : فنزلوا قريباً من الأثارب بموضع يقال له تل عفرين بين جبال ليس .
(٢) فلّ : جمعها فلّ كالواحد وأفلال وفلول : منهزم ومنهزمون .

وجمع جمعاً وأغار على عسقلان فهزمه المسلمون، وعاد مفلولاً والله أعلم.

ارتجاع الرها من الافرنج

ثم سار بهرام أخو أبي الغازي الى مدينة الرها وحاصرها مدّة فلم يظفر بها فرحل عنها. ولقيه النذير بأن جوسكين صاحب الرها وسروج قد سار لاعتراضه، وقد تفرّق عن مالك أصحابه فاستجاب لما وصل اليه الافرنج، ودفعهم لارض سَبْخَة فوصلت فيهم خيولهم فلم يفلت منهم احد، وأسر جوسكين وخاط عليه جلد جمل وفادى نفسه بأموال جليلة فأبى مالك من فديته إلا أن يُسَلم حصن الرها فلم يفعل، وحبسه في خرت برت، ومعه كلام ابن خالته وكان من شياطينهم وجماعة من زعمائهم، والله تعالى أعلم وبه التوفيق.

استيلاء الافرنج على خرت برت وارتجاعها منهم

كان مالك بن بهرام صاحب خرت برت، وكان في جواره الافرنج في قلعة كوكر فحاصرهم بها، وسار بغدوين اليه في جموعه فلقيه في صفر سنة سبعة عشر فهزم الافرنج، وأسر ملكهم وجماعة من زعمائهم وحبسهم مالك في قلعة خرت برت مع جوسكين صاحب الرها وأصحابه. وسار مالك الى حرّان في ربيع الاول

وملكها ولما غاب من خرت برت تحيّل الافرنج وخرجوا من محبسهم بمداخلة بعض الجند. وسار بغدوين الى بلده، وملك الآخرون القلعة فعاد مالك اليهم وحاصرها وارتجعها من أيديهم، ورتب فيها الحامية، والله تعالى ولي التوفيق.

استيلاء الافرنج على مدينة صور

كانت مدينة صور للخلفاء العلوية بمصر، وكان بها عزّ الملك من قبل الافضل بن أمير الجيوش المستبد على الامر بمصر، وتجهز الافرنج لحصارها سنة ست فاستمدّوا طغركين صاحب دمشق فأمدّهم بعسكر ومال مع والٍ من قبله اسمه مسعود، فجاء اليها ولم يغيّر دعوة العلوية بها في خطبة ولا سكة. وكتب الى الافضل بذلك، وسأله تردّد الاسطول اليه بالمدد فأجابه وشكره. ثم قتل الأفضل، وجاء الاسطول اليها من مصر على عادته، وقد أمر مقدّمه أن يعمل الحيلة في القبض على مسعود الوالي بصور من قبل طغركين لشكوى أهل مصر منه فقبض عليه مقدم الاسطول وحمله الى مصر، وبعثوا به الى دمشق.

وأقام الوالي من قبل أهل مصر في مدينة صور، وكتب الى طغركين بالعذر عن القبض على مسعود واليه وكان ذلك سنة ستة عشر. ولما بلغ الافرنج انصراف مسعود عن صور قوي طمعهم

فيها وتجهزوا لحصارها . وبعث الوالي الامير بذلك وبعجزه عن مقاومة حصارهم لها .

وسار طغركين الى بانياس ليكون قريباً من صريخها[1]، وبعث الى أهل مصر يستنجدهم فراسل الافرنج في تسليم البلد، وخروج من فيها فدخلها الافرنج آخر جمادى الاولى من السنة بعد ان حمل أهلها ما أطاقوا وتركوا ما عجزوا عنه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتح البرسقي كفرطاب وانهزامه من الافرنج

ثم جمع البُرسُقي عساكره وسار سنة تسعة عشر الى كفرطاب[2]، وحاصرها فملكها من الافرنج. ثم سار الى قلعة اعزاز شمالي حلب وبها جوسكين فحاصرها واجتمع الافرنج وساروا لمدافعته فلقيهم وقاتلهم شديداً فمحص الله المسلمين وانهزموا. وفتك النصارى فيهم، ولحق البرسقي بحلب فاستخلف بها ابنه مسعوداً وعبر الفرات الى الموصل ليستمد العساكر ويعود لغزوهم فقضى الله بقتله، وولي ابنه عز الدين بعده قليلاً.

ثم مات سنة احدى وعشرين، وولى السلطان محمود عماد الدين

(١) صريخ: استغاثة.

(٢) كفرطاب: بلدة بين معرّة النعمان ومدينة حلب في بريّة معطشة.

زنكي بن أقسنقر مكانه على الموصل والجزيرة وديار بكر كما مرّ في أخبار دولة السلجوقية . ثم استولى منها على الشام وأورث ملكها بنيه فكانت لهم دولة عظيمة بهذه الاعمال نذكرها ان شاء الله تعالى . ونشأت عن دولتهم دولة بني أيوب وتفرّعت منها كما نذكره .

ونحن الآن نترك من أخبار الافرنج هنا جميع ما يتعلق بدولة بني زنكي وبني ايوب حتى نوردها في أخبار تينك الدولتين لئلا تتكرر الاخبار ، ونذكر في هذا الموضع من أخبار الافرنج ما ليس له تعلق بالدولتين فاذا طالعه المتأمّل علم كيف يردّ كل خبر الى مكانه بجودة قريحته وحسن تأنيه .

الحرب بين طغركين والافرنج

ثم اجتمعت الافرنج سنة عشرين وخمسمائة ، وساروا الى دمشق ونزلوا مرج الصُفّر واستنجد طغركين صاحبها أمراء التركمان من ديار بكر وغيرها فجاؤا اليه ، وكان هو قد سار الى جهة الافرنج آخر سنة عشرين ، وقاتلهم وسقط في المعترك فظنّ أصحابه انه قتل فانهزموا وركب فرسه ، وسار معهم منهزماً والافرنج في اتباعهم ، وقد أثخنوا في رجالة التركمان ، فلما اتبعوا المنهزمين خالف الرجالة الى معسكرهم فنهبوا سوادهم وقتلوا من وجدوا فيه ولحقوا

بدمشق . ورجع الافرنج من المنهزمين فوجدوا خيامهم منهوبة فساروا منهزمين .

ثم كان سنة ثلاث وعشرين واقعة المزدغاني والاسماعيلية بدمشق بعد أن طمع الافرنج في ملكها فأسف ملوك الافرنج على قتله ، وسار صاحب القدس وصاحب انطاكيه وصاحب طرابلس وغيرهم من القُمامِصة ، ومن وصل في البحر للتجارة أو الزيارة ، وساروا الى دمشق في ألفي فارس ، ومن الرجال ما لا يحصى .

وجمع طغركين من العرب والتركمان ثمانية آلاف فارس ، وجاء الافرنج آخر السنة ونازلوا دمشق وبثُّوا سراياهم للاغارة بالنواحي وجمع الميرة ، وسمع تاج الملك بسرية في حوران فبعث شمس الخواص من أمرائه ، ولقوا سرية الافرنج ، وظفروا بهم وغنموا ما معهم وجاؤا الى دمشق . وبلغ الخبر الى الافرنج فأجفلوا عن دمشق بعد أن أحرقوا ما تعذر عليهم حمله وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون . ثم أن اسمند صاحب انطاكية سار الى حصن القدموس وملكه ، والله تعالى يؤيد من يشاء .

هزيمة صاحب طرابلس

ثم اجتمع سنة سبع وعشرين جمع كبير من تركمان الجزيرة ، وأغاروا على بلاد طرابلس وقتلوا وغنموا فخرج اليهم القمص

صاحبها فاستطردوا له . ثم كرّوا عليه فهزموه ونالوا منه . ونجا الى قلعة بقوين[1] فتحصّن بها ، وحاصره التركمان فيها فخرج من القلعة ليلًا في عشرين من أعيان اصحابه ، ونجا الى طرابلس ، واستصرخ الافرنج من كل ناحية . وسار بهم الى بقوين لمدافعة التركمان فقاتلهم حتى أشرف الافرنج على الهزيمة . ثم تحيزوا الى ارمينية ، وتعذر على التركمان اتباعهم فرجعوا عنهم انتهى .

فتح صاحب دمشق بانياس

كان بوري بن طغركين صاحب دمشق لما توفي سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وولي مكانه ابنه شمس الملوك اسمعيل فاستضعفه الافرنج ، وتعرّضوا لنقض الهدنة . ودخل بعض تجار المسلمين الى سروب فأخذوا أموالهم . وراسلهم شمس الملوك في ردّها عليهم فلم يفعلوا فتجهز وسار الى بانياس في صفر سنة سبع وعشرين فنازلها وشدّد حصارها . ونقب المسلمون سورها وملكوها عنوة واستلحموا[2] الافرنج بها . واعتصم فلّهم بالقلعة حتى استأمنوا بعد يومين . وكان الافرنج قد جمعوا لمدافعة شمس الملوك فجاءهم خبر فتحها فأقصروا .

---

(١) كذا بالأصل وفي الكامل ج ٨ ص ٢٤١ : ومضى هو ومن سلم معه إلى قلعة بعرين فتحصنوا فيها وامتنعوا عن التركمان.

(٢) استلحم الرجل: نشب في الحرب فلم يجد مخلصاً.

استيلاء شمس الملوك على الشقيف

ثم سار شمس الملوك اسمعيل صاحب دمشق الى شقيف بيروت وهو في الجبل المطلّ على بيروت وصيدا ، وكان بيد الضحَّاك بن جندل رئيس وادي التيم وهو ممتنع به . وقد تحاماه المسلمون والافرنج وهو يحتمي من كل منهما بالآخر ، فسار اليه شمس الملوك وملكه في المحرّم سنة ثمان وعشرين . وعظم ذلك على الافرنج ، وخافوا شمس الملوك فساروا الى بلد حوران وعاثوا في جهاتها . ونهض شمس الملوك ببعض عساكره ، وجمر الباقي قبالة الافرنج ، وقصد طَبَرِيَّة والناصِرَة وعكا فاكتسح نواحيها . وجاء الخبر الى الافرنج فأجفلوا الى بلادهم ، وعظم عليهم خرابها وراسلوا شمس الملوك في تجديد الهدنة فجددها لهم انتهى والله أعلم .

استيلاء الافرنج على جزيرة جربة من افريقية

كانت جزيرة جربة من أعمال افريقية ما بين طرابلس وقابُس ، وكان أهلها من قبائل البربر قد استبدّوا بجزيرتهم عندما دخل العرب الهلاليون افريقية ، ومزقوا ملك صنهاجة بها . وقارن ذلك استفحال ملك الافرنج برومة وما اليها من البلاد الشمالية . وتطاولوا الى ملك بلاد المسلمين فسار ملكهم بردويل فيمن معه من زعمائهم وأقماصهم الى الشام فملكوا مدنه وحصونه كما ذكرناه

آنفاً. وكان من ملوكهم القُمص رجار بن نيغر بن خميرة، وكان كرسيه مدينة ميلكوا مقابل جزيرة صقلية. ولما ضعف أمر المسلمين بها وانقرضت دولة بني أبي الحسين الكلبي منها سما رجار هذا الى ملكها وأغراه المتغلبون بها على بعض نواحيها فأجاز اليها عساكره في الاسطول في سبيل التضريب بينهم.

ثم ملكها من أيديهم معقلًا معقلًا الى أن كان آخرها فتخاطر ابنُه ومازرعة من يد عبد الله بن الجوّاس أحد الثوار بها فلكها من يده صالحاً سنة أربع وستين وأربعمائة، وانقطعت كلمة الاسلام بها. ثم مات رجار سنة أربع وتسعين فولي ابنه رجار مكانه، وطالت أيامه واستفحل ملكه، وذلك عندما هبت ريح الافرنج بالشام، وجاسوا خلالها، وصاروا يتغلبون على ما يقدرون عليه من بلاد المسلمين. وكان رجّار بن رجار يتعاهد سواحل افريقية بالغزو فبعث سنة ثلاث وخمسين اسطول صقلية الى جزيرة جربة، وقد تقلص عنها ظلّ الدولة الصنهاجية فاحاطوا بها واشتدّ القتال. ثم اقتحموا الجزيرة عليهم عنوة وغنموا وسبوا واستأمن الباقون، وأقرّهم الافرنج في جزيرتهم على جزية، وملكوا عليهم أمرهم والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

فتح صاحب دمشق بعض حصون الافرنج

ثم بعث شمس الملوك اسمعيل صاحب دمشق عساكره مع

الامير خزواش سنة احدى وثلاثين الى طرابلس الشام، ومعه جمع كثير من التركمان والمتطوعة. وسار اليه القمص صاحب طرابلس فقاتلوه وهزموه وأثخنوا في عساكره، وأحجروه بطرابلس وعاثوا في أعماله وفتحوا حصن وادي ابن الأحمر من حصونه عنوة، واستباحوه واستلحموا من فيه من الافرنج. ثم سار الافرنج سنة خمس وثلاثين الى عسقلان[1] وأغاروا في نواحيها، وخرج اليهم عسكر مصر الذين بها فهزموا الافرنج، وظفروا بهم وعادوا منهزمين، وكفى الله شرهم بمنه وكرمه.

استيلاء الافرنج على طرابلس الغرب

كان أهل طرابلس الغرب لما انحل نظام الدولة الصنهاجية بافريقية وتقلص ظلها عنهم قد استبدوا بأنفسهم، وكان بالمهديّة آخر الملوك من بني باديس، وهو الحسن بن علي بن يحيي بن تميم ابن المعزّ فاستبد لعهده في طرابلس أبو يحيى بن مطروح، ورفضوا دعوة الحسن وقومه. وذلك عندما تكالب الافرنج على ابلهات فطمع رجار في ملكها. وبعث اسطوله في البحر فنازلها آخر سنة

---

(١) عسقلان: ورد في معجم البلدان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ويقال لها عروس الشام. وقد نزلها جماعة من الصحابة والتابعين وحدّث بها خلق كثير. ولم تزل عامرة إلى أن استولى عليها الافرنج.

سبع وثلاثين وخمسمائة فنقبوا سورها. واستنجد أهلها بالعرب فأنجدوهم وخرجوا الى الافرنج فهزموهم، وغنموا أسلحتهم ودوابهم. ورجع الافرنج الى صقلية فتجهزوا الى المغرب، وطرقوا جيجيل من سواحل بجاية. وهرب أهلها الى الجبل ودخلوها فنهبوها وخربوا القصر الذي بناه بها يحيى بن العزيز بن حماد ويسمى النزهة، ورجعوا الى بلادهم. ثم بعث رجار اسطوله الى طرابلس سنة احدى وأربعين فأرسى عليها ونزل المقاتلة وأحاطوا بها براً وبحراً وقاتلوها ثلاثاً. وكان أهل البلد قد أختلفوا قبل وصول الافرنج وأخرجوا بني مطروح، وولوا عليهم رجلًا من أمراء لمتونة قام حاجاً في قومه فولوه أمرهم فلما شغل أهل البلد بقتال الافرنج، اجتمعت شيعة بني مطروح وأدخلوهم البلد. ووقع بينهم القتال فلما شعر الافرنج بأمرهم بادروا الى الاسوار فنصبوا عليها السلالم، وتسنموها وفتحوا البلد عنوة، وأفحشوا في القتل والسبي والنهب ونجا كثير من أهلها الى البربر والعرب في نواحيها. ثم رفعوا السيف ونادوا بالامان فتراجع المسلمون الى البلد، وأقروهم على الجزية وأقاموا بها ستة أشهر حتى أصلحوا أسوارها وفنادقها، وولوا عليها ابن مطروح وأخذوا رهنه على الطاعة، ونادوا في صقلِيَّة بالمسير الى طرابلس فسار اليها الناس وحسنت عمارتها.

استيلاء الافرنج على المهدية

كانت قابُس عندما اختل نظام الدولة الصنهاجية واستبد بها (١) ابن كامل بن جامع من قبائل رياح، احدى بطون هلال الذين بعثهم الجرجاني وزير المستنصر بمصر على المعز بن باديس وقومه فأضرعوا الدولة، وأفسدوا نظامها وملكوا بعض أعمالها. واستبد آخرون من أهل البلاد بمواضعهم فكانت قابس هذه في قسمة بني دُهمان هؤلاء. وكان لهذا العهد رشيد أميراً بها كما ذكرنا ذلك في أخبار الدولة الصنهاجية من اخبار البربر. وتوفي رشيد سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، ونصب مولاه يوسف ابنه الصغير محمد بن رشيد، وأخرج ابنه الكبير معمراً، واستبد على محمد وتعرّض لحرمه سراً. وكان فيهن امرأة رشيد، وساروا الى التمحض، بصاحب المهدية يشكون فعله.

وكاتبه الحسن في ذلك فلم يجبه، وتهدّده بادخال الافرنج الى قابس فجهز اليه العساكر. وبعث يوسف الى رجّار صاحب طرابلس بطاعته، وأن يوليه على قابس كما ولى ابن مطروح على طرابلس. وشعر أهل البلد بمداخلته للافرنج فلما وصل عساكر الحسن ثاروا به معهم، وتحصن يوسف بالقصر فملكوه عنوة، وأخذ يوسف

(١) كذا بياض بالأصل ولم نعثر على اسمه في المراجع التي بين أيدينا.

أسيراً وملك معمر قابس مكان أخيه محمد. وامتحن يوسف بانواع العذاب الى أن هلك، وأخذ بنو قرة أختهم، ولحق عيسى أخو يوسف وولد يوسف برجار صاحب صقلية واستجاروا به، وكان الغلاء قد اشتدّ بافريقية سنة سبع وثلاثين.

ولحق أكثر أهلها بصقلية، وأكل بعضهم بعضاً، وكثر الموتان فاغتنم رجار الفرصة ونقض الصلح الذي كان بينه وبين الحسن بن علي صاحب المهدية[1] لسنين. وجهز أسطوله مائتين وخمسين من الشواني وشحنها بالمقاتلة والسلاح، ومقدّم الاسطول جرجي بن ميخاييل أصله من المتنصرة، وقد ذكرنا خبره في اخبار صنهاجة والموحدين فقصد قوصرة، وصادف بها مركباً من المهدية فغنمه ووجد عندهم حمام البطاقة فبعث الخبر الى المهدية على أجنحتها بان اسطول الافرنج اقلع الى القسطنطينية. ثم اقلع فأصبح قريباً من المرسى في ثامن صفر سنة ثلاث وأربعين، وقد بعث الله الريح فعاقتهم عن دخول المرسى ففاته غرضه.

وكتب الى الحسن بانه باق على الصلح، وانما جاء طالباً بثأر محمد بن رشيد، وردّه الى بلده قابس فجمع الحسن الناس، واستشارهم فأشاروا بالقتال فخام عنه واعتذر بقلة الاقوات وارتحل

---

(١) المهديّة: مدينة بإفريقية منسوبة إلى المهدي، وبينها وبين القيروان مرحلتان، القيروان في جنوبيها ـ م. ب.

من البلد ، وقد حمل ما خف حمله ، وخرج الناس بأهاليهم وما خف من اموالهم ، واختفى كثير من المسلمين في الكنائس . ثم ساعد الريح اسطول الافرنج ووصلوا الى المرسى ونزلوا الى البلد من غير مدافع . ودخل جرجي القصر فوجده على حاله مملوءاً بالذخائر النفيسة التي يعزّ وجود مثلها . وبعث بالامان الى كلّ من شرد من اهلها فرجعوا وأقرّهم على الجزية . وسار الحسن باهله وولده الى المُعَلَّقة وبها محرز بن زياد من أمراء الهلاليين ، ولقيه في طريقه حسن بن ثعلب من أمراء الهلاليين بمال انكسر له في ديوانه فأخذ ابنه يحيى رهينة به .

ولما وصل محرز بن زياد أكرم لقاءه وبرّ مقدمه ، جزاءً بما كان يؤثره على العرب ، ويرفع محله وأقام عنده شهراً . ثم عزم على المسير الى مصر ، وبها يومئذ الحافظ فأرصد له جرجي الشواني في البحر فرجع عن ذلك ، واعتزم على قصد عبد المؤمن من ملوك الموحدين بالمغرب ، وفي طريقه يحيى بن عبد العزيز ببجاية من بني عمه حمّاد فأرسل اليه أبناءه يحيى وتميماً وعلياً يستأذنه في الوصول فاذن له . وبعث اليه من أوصله الى جزائر بني مُذغنة ، ووكل به وبولده حتى ملك عبد المؤمن بجاية سنة أربع وأربعين ، وخبرهم مشروح هنالك .

ثم جهّز جرجي اسطولاً آخر الى صفاقس ، وجاء العرب لانجادهم

فلما توافوا للقتال استطرد لهم الافرنج غير بعيد فهزموهم. ومضى العرب عنهم، وملك الافرنج المدينة عنوةً ثالث عشر صفر، وفتكوا فيها. ثم أمنوهم وفادوا أسراهم وأقروهم على الجزية، وكذا أهل سوسة[1]. وكتب رجّار صاحب صقلِيَّة الى أهل سواحل افريقية بالامان والمواعيد. ثم سار جرجي الى اقليبية من سواحل تونس، واجتمع اليها العرب فقاتلوا الافرنج وهزموهم ورجعوا خائبين الى المهدِيَّة. وحدثت الفتنة بين رجّار صاحب صقلية، وبين ملك الروم بالقسطنطينية فشغل رجار بها عن افريقية. وكان متولي كبرها جرجي بن ميخاييل صاحب المهدية. ثم مات سنة ست وأربعين فسكنت تلك الفتنة، ولم يقم لرجار بعده أحد مقامه، والله تعالى أعلم[2].

---

(١) سوسة بلد بالمغرب، وهي مدينة عظيمة بها قوم لونهم لون الحنطة يضرب إلى الصفرة ـ م. ب.

(٢) تلاحظ ولا شك عدم انسجام في سرد الحوادث. لذلك نقلنا ما كتبه ابن الأثير عن هذه الحادثة بالنص الكامل ليتمكن القارىء أن يتوصل إلى الحقائق التاريخية بعد المقارنة. عن كتاب الكامل ج ٩ ص ١٨:

(ذكر ملك الإفرنج مدينة المهدية بإفريقية) قد ذكرنا سنة إحدى وأربعين وخمسمائة مسير أهل يوسف صاحب قابس إلى رجار ملك صقلية واستغاثتهم به فغضب لذلك، وكان بينه وبين الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي صاحب إفريقية صلح وعهود إلى مدة سنتين، وعلم أنه فاته فتح البلاد في هذه الشدة التي أصابتهم، وكانت الشدة دوام الغلاء في جميع المغرب من سنة =

استيلاء الافرنج على بونة ووفاة رجار صاحب صقلية وملك ابنه غليالم

ثم سار اسطول رجار من صقلية سنة ثمان وأربعين الى مدينة بونة؛ وقائد الاسطول بها وقتات المهدوي فحاصرها، واستمان

=سبع وثلاثين إلى هذه السنة. وكان أسد ذلك منه سنة اثنتين وأربعين: فإن الناس فارقوا البلاد والقرى، ودخل أكثرهم إلى مدينة صقلية وأكل الناس بعضهم بعضاً وكثر الموت في الناس فاغتنم رجار هذه السنة فعمر الأسطول وأكثر منه فبلغ نحو مائتين شينياً مملوءة رجالاً وسلاحاً وقوتاً. وسار الأسطول عن صقلية ووصل إلى جزيرة قوصرة وهي ما بين المهدية وصقلية فصدفوا بها مركباً ووصل من المهدية فأخذ أهله، وأحضروا بين يدي جرجي مقدَّم الأسطول فسألهم عن حال إفريقة.

ووجد في المركب قفص حمام فسألهم هل أرسلوا منها فحلفوا بالله أنهم لم يرسلوا شيئاً فأمر الرجل الذي كان الحمام صحبته أن يكتب بخطه أننا لما وصلنا جزيرة قوصرة وجدنا بها مراكب من صقلية فسألناهم عن الأسطول المخذول فذكروا أنه أقلع إلى جزائر القسطنطينية. وأطلق الحمام فوصل إلى المهدية فسر الأمير الحسن والناس، وأراد جرجي بذلك أن يصل بغتة. ثم سار وقدر وصولهم إلى المهدية وقت السحر ليحيط بها قبل أن يخرج أهلها فلو تم له ذلك لم يسلم منهم أحد فقدر الله تعالى أن أرسل عليهم ريحاً هائلاً فلم يقدروا على السير إلا بالمقاذيف، فطلع النهار ثاني صفر في هذه السنة قبل وصولهم فرآهم الناس. فلما رأى جرجي ذلك وأن الخديعة فاتته أرسل إلى الأمير الحسن يقول إنما جئت بهذا الأسطول طالباً بثأر محمد بن رشيد صاحب قابس ورده إليها. أما أنت فبيننا وبينك عهود وميثاق إلى مدة ونريد منك عسكراً يكون معنا فجمع الحسن الناس من الفقهاء والأعيان وشاورهم فقالوا نقاتل عدونا فإن بلدنا حصين فقال: أخاف أن ينزل إلى البر ويحصرنا براً وبحراً ويحول بيننا وبين الميرة وليس عندنا ما يقوتنا شهراً فنؤخذ قهراً. =

عليها بالعرب فلكها واستباحها ، وأغضى عن جماعة من أهل العلم والدين فخرجوا بأموالهم واهاليهم الى القرى . وأقام بها عشراً

= وأنا أرى سلامة المسلمين من الأسر والقتل خيراً من الملك وقد طلب مني عسكراً إلى قابس فإن فعلت فما يحل لي معونة الكفار على المسلمين، وإن امتنعت يقول انتقض ما بيننا من الصلح وليس يريد إلا أن يثبطنا حتى يحول بيننا وبين البر، وليس لنا بقتاله طاقة والرأي أن نخرج بالأهل والولد وننزل عن البلد، فمن أراد أن يفعل كفعلنا فليبادر معنا. وأمر في الحال بالرحيل وأخذ معه من حضره وما خف حمله وخرج الناس على وجوههم بأهليهم وأولادهم وما خف من أموالهم وأثاثهم، ومن الناس من اختفى عند النصارى وفي الكنائس وبقي الأسطول في البحر تمنعه الريح من الوصول إلى المهدية إلى ثلثي النهار فلم يبق في البلد ممن عزم على الخروج أحد فوصل الفرنج ودخلوا البلد بغير مانع ولا دافع. ودخل جرجي القصر فوجده على حاله لم يأخذ الحسن منه إلا ما خف من ذخائر الملوك وفيه جماعة من حظاياه، ورأى الخزائن مملوءة من الذخائر النفيسة وكل شيء غريب يقل وجود مثله فختم عليه وجمع سراري الحسن من قصره.

وكان عدة من ملك منهم من زيري بن مناد إلى الحسن تسعة ملوك ومدة ولايتهم مائة سنة وثمانين سنة من إحدى وستين وثلاثمائة إلى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. وكان بعض القواد قد أرسله الحسن إلى رجار برسالة فأخذ لنفسه وأهله منه أماناً فلم يخرج معهم. ولما ملك المدينة نهبت مقدار ساعتين ونودي بالأمان خرج من كان مستخفياً وأصبح جرجي من الغد فأرسل إلى من قرب من العرب فدخلوا إليه فأحسن إليهم وأعطاهم أموالاً جزيلة، وأرسل من جند المهدية الذين تخلفوا بها جماعة ومعهم أمان لأهل المهدية الذين خرجوا منها ودواب يحملون عليها الأطفال والنساء، وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع، ولهم بالمهدية خبايا وودائع. فلما=

ورجع الى المهدية ، ثم الى صقلية فنكر عليه رجار رفقه بالمسلمين في بونـة وحبسه . ثم اتهم في دينه فاجتمع الاساقفـة والقسوس

=وصـل إليهم الأمان رجعـوا فلم يمض غير جمعـة حتى رجـع أكـثر أهـل البلد . وأمـا الحسن فإنه سار بأهله وأولاده وكانوا اثني عشر ولداً ذكراً غير الإناث وخواص خدمه قاصداً إلى محرز بن زياد وهو بالمعلقة فلقيه في طريقه أمير من العرب يسمى حسن بن ثعلب، فطلب منه مالا انكسر له في ديوانه فلم يمكن الحسن إخـراج مال لئـلا يؤخذ فسلم إليه ولده يحيى رهينة، وسار فوصل في اليوم الثاني إلى محرز، وكان الحسن قـد فضله عـلى جميع العـرب وأحسن إليه ووصله بكثـير من المال فلقيـه محرز لقـاء جميلاً وتوجع لما حل به فأقام عنده شهوراً، والحسن كاره للإقامة فأراد المسـير إلى ديار مصر إلى الخليفة الحافظ العلوي، واشـترى مركبـاً لسفره فسمـع جرجي الفـرنجي فجهز شواني ليأخذه فعاد عن ذلك، وعزم على المسير إلى عبد المؤمن بالمغـرب فأرسـل كبار أولاد يحيى وتميمـاً وعلياً إلى يحيى بن عبـد العـزيـز وهـو من بني حمـاد وهمـا أولاد عم يستأذنه في الوصول إليه وتجديـد العهد بـه والمسير من عنـده إلى عبد المؤمن فـأذن له يحيى فسار إليه، فلما وصل لم يجتمع به يحيى وسيره إلى جزيرة بني مزغنان هو وأولاده ووكل به من يمنعهم من التصرف فبقـوا كذلـك إلى أن ملك عبد المؤمن بجـاية سنـة سبع وأربعين فحضر عنده، وقد ذكرنا حاله هناك.

ولما استقر جرجي بالمهدية سير أسطولاً بعـد أسبوع إلى مـدينة سفـاقس وسير أسطولاً آخر إلى مدينة سوسة، فأما سوسة فـإن أهلها لـما سمعوا خـبر المهديـة وكان واليها علي بن الحسن الأمير فخرج إلى أبيه وخرج الناس لخروجه فدخلها الفرنج بلا قتـال ثاني عشر صفـر. أما سفـاقس فإن أهلهـا أتاهم كثـير من العرب فـامتنعوا بهم فقاتلهم الفرنـج فخرج إليهم أهـل البلد فأظهـر الفرنـج الهزيمـة وتبعهم الناس حتى أبعدوا عن البلد، ثم عطفوا عليهم فانهزم قـوم إلى البلد وقوم إلى الـبرية وقتـل منهم جماعة ودخل الفرنج البلد فملكوه بعـد قتال شـديد وقتـلى كثيرة، وأسر من بقي من الرجال وسبى الحريم وذلك في الثالث والعشرين من صفر. ثم نـودي بالأمـان فعاد=

وأحرقوه. ومات رجار آخر هذه السنة لعشرين سنة من ملكه وولي ابنه غليالم مكانه. وكان حسن السيرة واستوزر مائق البرقياني فاساء التدبير، واختلفت عليه حصون من صقلية وبلاد قِلّورِيّة[1]، وتعدّى الامراء على افريقية على ما سيأتي ان شاء الله تعالى والله تعالى أعلم[2]

=أهلها إليها وافتكوا حرمهم وأولادهم ورفق بهم وبأهل سوسة والمهدية. وبعد ذلك وصلت كتب من رجار لجميع أهل إفريقية بالأمان والمواعيد الحسنة. ولما استقرت أحوال البلاد سار جرجي في أسطول إلى قلعة إقليبية وهي قلعة حصينة فلما وصل إليها سمعته العرب فاجتمعوا إليها، ونزل إليهم الفرنج فاقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل منهم خلق كثير فرجعوا خاسرين إلى المهدية، وصار للفرنج من طرابلس الغربِ إلى قريب تونس ومن المغرب إلى دون القيروان والله أعلم.

(١) قِلّورِيّة: جزيرة في شرقي صقليّة وأهلها افرنج، ولها مدن كثيرة وبلاد واسعة. م. ب.

(٢) ذكرت هذه الحادثة هنا مقتضبة، وفي الكامل ج ٩ ص ٤٧: (ذكر عصيان الجزائر وإفريقية على ملك الفرنج بصقلية وما كان منهم) قد ذكرنا سنة ثمان وأربعين وخمسمائة موت رجّار ملك صقلية وملك ولده غليالم وأنه كان فاسد التدبير فخرج عن حكمه عدة من حصون صقلية، فلما كان هذه السنة قوي طمع الناس فيه فخرج من طاعته جزيرة جربة وجزيرة قرقنة وأظهروا الخلاف عليه. وخالف عليه أهل إفريقية فأول من أظهر الخلاف عليه عمر بن أبي الحسين الفريابي بمدينة سفاكس. وكان رجار قد استعمل عليها لما فتحها أباه أبا الحسين وكان من العلماء الصالحين فأظهر العجز والضعف وقال استعمل ولدي فاستعمله وأخذ أباه رهينة إلى صقلية. فلما أراد المسير إليها قال لولده عمر إنني كبير السن وقد قارب أجلي فمتى=

استيلاء الافرنج على عسقلان

كانت عسقلان في طاعة الظافر العلوي ومن جملة ممالكه، وكان الافرنج يتعاهدونها بالحصار مرّة بعد مرّة. وكان الوزراء يمدونها بالاموال والرجال والاسلحة. وكان لهم التحكم في الدولة

=أمكنتك الفرصة في الخلاف على العدو فافعل ولا تراقبهم ولا تنظر في أنني أقتل وأحسب أني قدمت فلما وجد هذه الفرصة دعا أهل المدينة إلى الخلاف وقال: يطلع جماعة منكم إلى السور وجماعة يقصدون مساكن الفرنج والنصارى جميعهم ويقتلونهم كلهم فقالوا له: إن سيدنا الشيخ والدك نخاف عليه قال هو أمرني بهذا، وإذا قتل بالشيخ ألوف من الأعداء فما مات، فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم وكان ذلك أول سنة إحدى وخمسين وخمسمائة. ثم أتبعه يحيى بن مطروح بطرابلس وبعدهما محمد بن رشيد بقابس وسار عسكر عبد المؤمن إلى بونة فملكها وَخرج جميع إفريقية عن حكم الفرنج ما عدا المهدية وسوسة. وأرسل عمر بن أبي الحسين إلى زويلة وهي مدينة بينها وبين المهدية نحو ميدان يحرضهم على الوثوب على من معهم فيها من النصارى، ففعلوا ذلك وقدم عرب البلاد إلى زويلة فأعانوا أهلها على من بالمهدية من الفرنج وقطعوا الميرة عن المهدية. فلما اتصل الخبر بغليال ملك صقلية أحضر أبا الحسين وعرفه ما عمل ابنه فأمره أن يكتب إليه ينهاه عن ذلك ويأمره بالعود إلى طاعته ويخوفه عاقبة فعله، فقال: من قدم على هذا يرجع بكتاب فأرسل ملك صقلية إليه رسولاً يتهدده ويأمره بترك ما ارتكبه فلم يمكنه عمر من دخول البلد يومه ذلك، فلما كان الغد خرج أهل البلد جميعهم ومعهم جنازة والرسول يشاهدهم فدفنوها وعادوا، وأرسل عمر إلى الرسول يقول له هذا أبي قد دفنته وقد جلست للعزاء به فاصنعوا به ما أردتم فعاد الرسول إلى غليالم فأخبره بما صنع عمر بن أبي الحسين فأخذ أباه وصلبه فلم يزل يذكر الله تعالى حتى مات. وأما أهل زويلة فإنهم كثر جمعهم بالعرب وأهل سفاقس وغيرهم فحصروا المهدية وضيقوا=

على الخلفاء العلوية فلما قتل ابن السلار سنة ثمان وأربعين اضطرب الحال بمصر، حتى ولي عباس الوزارة فسار الافرنج خلال ذلك من بلادهم بالشام وحاصروا عسقلان وامتنعت عليهم. ثم اختلف أهل البلد وآل أمرهم الى القتال فاغتنم الافرنج الفرصة، وملكوا البلد وعاثوا فيها، والله يؤيد بنصره من يشاء من عباده [(١)]

ثورة المسلمين بسواحل افريقية على الافرنج المتغلبين فيها

قد تقدم لنا وفاة رجار وملك ابنه غليالم، وانه ساء تدبير وزيره فاختلف عليه الناس وبلغ ذلك المسلمين الذين تغلبوا عليهم

=عليها وكانت الأقوات بالمهدية قليلة فسير إليهم صاحب صقلية عشرين شينياً فيها الرجال والطعام والسلاح فدخلوا البلد وأرسلوا إلى العرب وبذلوا لهم مالاً لينهزموا، وخرجوا من الغد فاقتتلوا هم وأهل زويلة فانهزمت العرب وبقي أهل زويلة وأهل سفاكس وركبوا في البحر فخرجوا. وبقي أهل زويلة فحمل عليهم الفرنج فانهزموا إلى زويلة فوجدوا أبوابها مغلقة فقاتلوا تحت السور وصبروا حتى قتل أكثرهم ولم ينج إلا القليل فتفرقوا. ومضى بعضهم إلى عبد المؤمن، فلما قتلوا هرب من سلم من الحرم والصبيان والشيوخ في البر ولم يعرّجوا على شيء من أموالهم، ودخل الفرنج زويلة فقتلوا من وجدوا فيها من النساء والأطفال ونهبوا الأموال واستقر الفرنج بالمهدية إلى أن أخذها منهم عبد المؤمن على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

(١) كذلك ذكرت هذه الحادثة هنا مقتضبة، وفي الكامل ج ٩ ص ٤٢: (ذكر ملك الفرنج مدينة عسقلان) في هذه السنة ملك الفرنج بالشام مدينة عسقلان، وكانت من جملة مملكة الظافر بالله العلوي المصري، وكان الفرنج كل سنة يقصدونها=

بافريقية. وكان رجار قد ولى على المسلمين بمدينة صفاقس لما تغلب عليهـا أبو الحسن الفرياني منهم، وكان من أهل العلم والدين. ثم عجز عن ذلك، وطلب ولاية ابنه عمر فولاه رجار، وحمل أبا الحسين الى صقليّة رهينة، وأوصى ابنه عمر وقال: يا بني أنا كبير السنّ، وقد قرب أجلي فمتى امكنتـك الفرصة في انقاذ المسلمين من ملكة العـدوّ فافعل، ولا تخشى عليّ واحسبني قد مِتّ. فلما اختلّ أمر غليالم دعا عمر أهل صفاقس الى الثورة بالافرنج فثاروا بهم، وقتلوهم سنة احدى وخمسين، واتبعه أبو يحيى بن مطروح

= ويحصرونها فلا يجدون إلى ملكها سبيلاً. وكـان الوزراء بمصر لهم الحكم في البـلاد، والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته. وكان الوزراء كل سنة يرسلون إليها من الذخائـر والأسلحـة والأموال والـرجال من يقـوم بحفظهـا. فلما كان في هـذه السنة قتـل ابن السـلار على مـا ذكـرنـاه واختلفت الأهـواء في مصر وولي عبـاس الـوزارة، وإلى أن استقرت قاعـدة اغتنم الفرنـج اشتغالهم عن عسقـلان فاجتمعـوا وحصروها فصـبر أهلهـا وقاتلوهم قتـالاً شديـداً، حتى أنهم بعض الأيام قـاتلوا خـارج السـور وردوا الفرنج إلى خيامهم مقهورين. وتبعهم أهل البلد إليها فيأس حينئذ الفرنج من ملكه فبينا هم على عزم الرحيل إذ قد أتاهم الخبر أن البلد قد وقع بين أهله خلاف، وقتل منهم قتـلى فصبروا. وكـان سبب هذا الاختـلاف أنهم لمـا عـادوا عن قتـال الفـرنـج قـاهرين منصـورين ادعى كل طـائفـة منهم أن النصرة من جهتهم كـانت وأنهم هم الذين ردوا الفرنـج خاسرين فعـظم الخصام بينهم إلى أن قتـل من إحدى الـطائفتين قتيل، واشتد الخطب وعظم حينئـذ وتفاقم الشر، ووقعت الحـرب بينهم فقتل بينهم قتلى فطمع الفونج وزحفوا إليه وقاتلوا عليه فلم يجدوا من يمنعهم فملكوه.

بطرابلس، ومحمد بن رشيد بقابس. وسار عسكر عبد المؤمن الى بونة فملكها، وذهب حكم الافرنج عن افريقية ما عدا المهدية وسوسه.

وارسل عمر الفرياني الى زُوَيْلَة[1] قريباً من المهدية يغريهم بالوثوب على الافرنج الذين معهم فوثبوا، وأعانهم أهل ضاحيتهم وقاتلوا الافرنج بالمهدية، وقطعوا الميرة عنهم. وبلغ الخبر الى غليالم فبعث الى عمر الفرياني بصفاقس، وأعذر اليه في أبيه فأظهر للرسول جنازة ودفنها وقال: هذا قد دفنته فلما رجع الرسول بذلك صلب أبا الحسين، ومات شهيداً رحمه الله تعالى. وسار أهل صفاقس والعرب الى زويلة واجتمعوا مع أهلها على حصار المهدية وأمدّهم غليالم بالاقوات والاسلحة، وصانعوا العرب بالمال على أن يخذلوا أصحابهم. ثم خرجوا للقتال فانهزم العرب وركب أهل صفاقس البحر الى بلدهم أيضاً واتبعهم الافرنج فعاجلوهم عن زويلة وقتلوهم. ثم اقتحموا البلد فقتلوا مخلفهم بها واستباحوهم.

ارتجاع عبد المؤمن المهدية من يد الافرنج

ولما وقع بأهل زويلة من الافرنج ما وقع لحقوا بعبد المؤمن

---

(١) زويله: ورد في معجم البلدان: بهذا الاسم بلدان أحدهما زويلة السودان مقابل أجدابية في البر بين بلاد السودان وإفريقية، والأخرى زويلة المهديّة وهي مدينة بإفريقية بناها المهدي عبيد الله، وهي المذكورة هنا.

ملك المغرب يستصرخونه فأجاب صريخهم ووعدهم، وأقاموا في نزله وكرامته وتجهز للمسير، وتقدّم الى ولاته وعماله بتحصيل الغلّات وحفر الآبار. ثم سار في صفر سنة أربع وخمسين في مائة ألف مقاتل، وفي مقدّمته الحسن بن علي صاحب المهدية، ونازل تونس منتصف السنة وبها صاحبها أحمد بن خراسان من بقية دولة صنهاجة. وجاء اسطول عبد المؤمن فحاصرها من البحر. ثم نزل اليه من سورها عشرة رجال من أعيانها في السلالم مستأمنين لاهل البلد ولانفسهم فأمنهم على مقاسمتهم في اموالهم، وعلى أن يخرج اليه ابن خراسان فتم ذلك كله. وسار عنها الى المهدية وأسطوله محاذيه في البحر فوصلها منتصف رجب من السنة، وبها أولاد الملوك والزعماء من الافرنج وقد أخلوا زويلة وهي على غلوة من المهدية فعمرها عبد المؤمن لوقتها. وامتلأ فضاء المهدية بالعساكر وحاصرها اياماً وضاق موضع القتال من البرّ لاستدارة البحر عليها لانها صورة يد في البحر وذراعها في البر، وأحاط الاسطول بها في البحر.

وركب عبد المؤمن البحر في الشواني[1] ومعه الحسن بن علي فرأى حصانتها في البحر، وأخذ في المطاولة، وجمع الاقوات حتى كانت في ساحة معسكره كالتلال. وبعث اليه أهل صفاقس

(١) الشواني: الشونة المركب المعدّ للجهاد في البحر ج شوانٍ.

وطرابلس وجبال نفوسة بطاعتهم . وبعث عسكراً الى قابس فلكها عنوة وبعث ابنه عبد الله ففتح كثيراً من البلاد . ثم وفد عليه يحيى بن تميم بن المقر بن الرند صاحب قَفْصَة[1] في جماعة من أعيانها فبذل طاعته ، ووصله عبد المؤمن بألف دينار .

ولما كان آخر شعبان وصل اسطول صقلية في مائة وخمسين من الشواني غير الطرائد كان في جزيرة يابسة فاستباحها ، وبعث اليه صاحب صقلية بقصد المهدية . فلما اشرفوا على المرسى قذفت اليهم اساطيل عبد المؤمن ، ووقف عسكره على جانب البرّ وعبد المؤمن ساجد يعفر وجهه بالتراب ويجأر بالدعاء فانهزم اسطول الافرنج ، وأقلعوا الى بلادهم وعاد اسطول المسلمين ظافراً . وايس أهل المهدية من الانجاد ، ثم صابروا الى آخر السنة حتى جهدهم الحصار . ثم استأمنوا الى عبد المؤمن فعرض عليهم الاسلام فأبوا ، ولم يزالوا يخضعون له بالقول حتى أمنهم وأعطاهم السفن فركبوا فيها . وكان فصل شتاء فمال عليهم البحر وغرقوا ولم يفلت منهم الا الاقل .

ودخل عبد المؤمن المهدية في محرم سنة خمس وخمسين لاثنتي عشرة سنة من ملك الافرنج، وأقام بها عشرين يوماً فأصلح امورها

---

(١) قفصة : اسم عجمي ، وهو اسم بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب، مختطة في أرض سبخة لا تنبت إلاّ الأشنان والشيح . م . ب.

وشحنها بالحامية والاقوات ، واستعمل عليهـا بعض أصحابه ، وأنزل معه الحسن بن علي وأقطعه بأرضهـا له ولاولاده ، وأمر الوالي ان يقتدي برأيه ، ورجع الى المغرب ، والله تعالى اعلم .

حصار الافرنج أسد الدين شيركوه في بلبيس

كان أسد الدين شيركوه بن شادي عم صلاح الدين قد بعثه نور الدين العادل سنة تسع وخمسمائة ، منجداً لشاور وزير العاضد صاحب مصر على قريعة الضرغام كما سيأتي في أخبـارهم ان شاء الله تعالى . وسار نور الدين من دمشق في عساكره الى بلاد الافرنج ليشغلهم عن أسد الدين شيركوه ، وخرج ناصر الدين أخو الضرغام في عساكر مصر فهزمه أسد الدين على تنيس [1] واتبعه الى القاهرة ، ونزلها منتصف السنة . وأعاد شاور الى الوزارة ونقض ما بينه وبين أسد الدين ، وتأخر الى تنيس . وخشي منه ودس الى الافرنج يغريهم به ، وبذل لهم المال فطمعوا بذلك في ملك الديار المصرية . وسار ملك القدس في عساكر الافرنج ، واجتمعت معه عساكر المسلمين . وساروا الى أسد الدين فحاصروه في بلبيس ثلاثة ، ولم يظفروا منه بشيء . ثم جاءهم الخبر بأن نور الدين العادل هزم أصحابهم على خارد وفتحها .

---

(١) تِنِّيس : جزيرة في بحر مصر قريبة من البرّ ، ما بين الفرما ودمياط ، والفرما في شرقيها . م . ب .

ثم سار الى بانياس فسقط في أيديهم وطلبوا الصلح من أسد الدين ليعودوا الى بلادهم لذلك ، وخرج من بلبيس [١] سائراً الى الشام . ثم عاد الى مصر سنة اثنتين وستين وعبر النيل من اطفيح ونزل الجزيرة . واستمدّ شاور الافرنج فساروا اليه بجموعهم . وكان أسد الدين قد سار الى الصعيد ، وانتهى الى [٢] فسار الافرنج والعساكر المصرية في أثره فأدركوه منتصف السنة ، واستشار اصحابه فاتفقوا على القتال ، وأدركته عساكر الافرنج ومصر ، وهو على تعبيته ، وقد أقام مقامه في القلب راشد حذراً من حملة الافرنج . وانحاز فيمن يثق به من شجعان أصحابه الى الميمنة فحمل الافرنج على القلب فهزموهم واتبعوهم .

وخالفهم اسد الدين الى من تركوا وراءهم من العساكر فهزمهم وأثخن فيهم ، ورجع الافرنج من اثناء القلب فانهزموا ، وانهزم أصحابهم ، ولحقوا بمصر . ولحق أسد الدين بالاسكندرية فملكها صلحاً ، وأنزل بها صلاح الدين ابن اخيه ، وحاصرته عساكر الافرنج ومصر وزحف اليهم عمه أسد الدين من الصعيد فبعثوا اليه في

---

(١) بلبيس: مدينة بينها وبين فُسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام . م . ب .

(٢) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ٩٥: وكان أسد الدين وعساكره قد ساروا إلى الصعيد، فبلغ مكاناً يعرف بالبابين.

الصلح فأجابهم على خمسين ألف دينار يعطونها اياه، ولا يقيم في البلد أحد من الافرنج، ولا يملكون منها شيئاً فقبلوا ذلك وعادوا الى الشام. وملك أهل مصر الاسكندرية، واستقر بينهم وبين الافرنج أن ينزلوا بالقاهرة شحنة، وأن يكون أبوابها في غلقها وفتحها بأيديهم. وان لهم من خراج مصر مائة ألف دينار في كل سنة، ولم [1] ذلك منه، وعاد الافرنج الى بلادهم بالسواحل الشامية والله تعالى أعلم [2].

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل: هذا كله استقر مع شاور، فإن العاضد لم يكن له معه حكم، لأنه قد حجر عليه وحجبه عن الأمور كلها.

(٢) كذا بالأصل عبارات غير مرتبطة مع بعضها البعض. وقد وردت هذه الحادثة في الكامل ج ٩ ص ٨٤ بعنوان:

(ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى ديار مصر وعودهم عنها) في هذه السنة في جمادى الأولى سير نور الدين محمود بن زنكي عسكراً كثيراً إلى مصر وجعل عليهم الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذي وهو مقدّم عسكره وأكبر أمراء دولته وأشجعهم. وسنذكر سنة أربع وستين سبب اتصاله بنور الدين وعلو شأنه عنده إن شاء الله تعالى. وكان سبب إرسال هذا الجيش أن شاور وزير العاضد لدين الله العلوي صاحب مصر نازعه في الوزارة ضرغام وغلب عليها فهرب شاور منه إلى الشام ملتجئاً إلى نور الدين ومستجيراً به فأكرم مثواه وأحسن إليه وأنعم عليه. وكان وصوله في ربيع الأول من السنة، وطلبه منه إرسال العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر، ويكون شيركوه مقيماً بعساكره في مصر ويتصرف هو بأمر نور الدين، يقدم إلى هذا الغرض رجلاً ويؤخر أخرى، فتارة يحمله رعاية قصد شاور بابه وطلب الزيادة في الملك والتقوى =

حصار الافرنج القاهرة

ثم كان مسير اسد الدين الى مصر وقتله شاور سنة أربع وستين باستدعاء العاضد، لما رأى من تغلب الافرنج كما نذكر

=على الفرنج، وتارة يمنعه خطر الطريق وأن الإفرنج فيه. وتخوف أن شاور إن استقرت قاعدته ربما لا يفي. ثم قوي عزمه على إرسال الجيوش فتقدم بتجهيزها وإزاحة عللها وكان هوى أسد الدين في ذلك وعنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالي بمخافة فتجهز وساروا جميعاً وشاور في صحبتهم في جمادى الأول من سنة تسع وخمسين، وتقدم نور الدين إلى شيركوه أن يعيد شاور إلى منصبه وينتقم له ممن نازعه فيه. وسار نور الدين إلى طرف بلاد الفرنج مما يلي دمشق بعساكره ليمنع الفرنج من التعرض لأسد الدين ومن معه فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين.

ووصل أسد الدين والعساكر معه إلى مدينة بلبيس فخرج إليهم ناصر الدين أخو ضرغام بعسكر المصريين ولقيهم فانهزم، وعاد إلى القاهرة ووصل أسد الدين فنزل على القاهرة أواخر جمادى الآخرة فخرج ضرغام من القاهرة سلخ الشهر فقتل عند مشهد السيدة نفيسة وبقي يومين. ثم حمل ودفن في القرافة وقتل أخوه فارس المسلمين وخلع على شاور مستهل رجب وأعيد إلى الوزارة وتمكن منها، وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، فغدر به شاور، وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضاً، وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام فأعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاور إليه. فلما رأى ذلك أرسل إلى نوابه فتسلموا مدينة بلبيس وحكم على البلاد الشرقية فأرسل شاور إلى الإفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن تم ملكه لها فلما أرسل شاور يطلب منهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه وسارعوا إلى تلبية دعوته ونصرته، وطمعوا في تلك=

في أخبار أسد الدين. وأرسل الى الافرنج أصحابهم الذين بالقاهرة يستدعونهم لملكها ويهونونها عليهم. ومَلِكُ الافرنج يومئذ بالشام مرى، ولم يكن ظهر فيهم مثله شجاعة ورأياً فأشار بأن جبايتها

=الديار المصرية. وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه وتجهزوا وساروا. فلما بلغ نور الدين ذلك سار بعساكره إلى أطراف بلادهم ليمتنعوا عن المسير فلم يمنعهم ذلك لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر أشد فتركوا في بلادهم من يحفظها، وسار ملك القدس في الباقين إلى مصر.

وكان قد وصل إلى الساحل جمع كثير من الفرنج في البحر لزيارة بيت المقدس فاستعان بهم الفرنج الساحلية فأعانوهم فسار بعضهم معهم، وأقام بعضهم في البلاد لحفظها فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس فأقام بها هو وعسكره، وجعلها له ظهراً يتحصن به فاجتمعت العساكر المصرية والفرنج ونازلوا أسد الدين شيركوه بمدينة بلبيس وحصره بها ثلاثة أشهر وهو ممتنع بها مع أن سورها قصير جداً وليس لها خندق ولا فصل يحميها. وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضاً ولا نالوا منه شيئاً. فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج على خارم وملك نور الدين خارم ومسيره إلى بانياس على ما نذكره إن شاء الله تعالى. فحينئذ سقط في أيديهم وأرادوا العودة إلى بلادهم ليحفظوها فراسلوا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم ما فعله نور الدين بالشام بالفرنج ولأن الأقوات والذخائر قلت عليه. وخرج من بلبنيس في ذي الحجة فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج من بلبيس قال: أخرج أصحابه بين يديه وبقي في آخرهم وبيده لت من حديد يحمي ساقتهم والمسلمون والفرنج ينظرون إليه. قال: فأتاه فرنجي من الغرباء الذين خرجوا من البحر فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك ولا يبقى لكم بقية. فقال شيركوه يا ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله، كنت والله أضع السيف فلا يقتل منا رجل=

لنا خير من ملكها. وقد يضطرون فيملكون نور الدين منها ، وان ملكها قبلنا احتاج الى مصانعتنا [1] فأبوا عليه وقالوا : انما نزداد بها قوة فرجع الى رأيهم. وساروا جميعاً الى مصر ، وانتهوا الى تنيس في صفر سنة اربع وستين فملكوها عنوة واستباحوها.

ثم ساروا الى القاهرة وحاصروها وأمر شاور باحراق مصر وانتقال أهلها الى القاهرة ، فنهبت المدينة ، ونهب أموال أهلها وبغتهم قبل نزول الافرنج عليهم بيوم فلم تخمد النار مدة شهرين. وبعث العاضد بالصريخ الى نور الدين واشتد عليه الحصار. وبعث شاور

=حتى يقتل منهم رجال، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفني شجعانهم فنملك بلادهم ونهلك من بقي. والله لو أطاعني هؤلاء لخرجت إليكم من أول يوم ولكنهم امتنعوا فصلب على وجهه وقال: كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك والآن فقد عذرناهم. ثم رجع عنه وسار شيركوه إلى الشام فوصل سالماً وكان الفرنج قد وضعوا له على مضيق في الطريق رصداً ليأخذوه أو ينالوا منه ظفراً فعلم بهم فعاد عن ذلك الطريق ففيه يقول عمارة:

أخذتم عن الافرنج كل ثنية ... وقلت لا يدي الخيل مري على (مرى)
لئن نصبوا في البر جسراً فإنكم ... عبرتم ببحر من حديد على الجسر

ولفظة مري في آخر البيت الأول اسم ملك الفرنج.

(١) صانعه: داهنه، داراه، رشاه. ومنه المثل: من صانع بالمال لم يحتشم من طلب الحاجة.

الى ملك الافرنج يشير بالصلح على ألف ألف دينار مصرية ، ويهدّده بعساكر نور الدين فأجابوا الى ذلك.

ودفع اليهم مائة ألف دينار وتأخروا قريباً حتى يصل اليهم بقية المال ، وعجز عن تحصيله ، والافرنج يستحثونه فبعثوا خلال ذلك الى نور الدين يستنجدونه على الافرنج بأن يرسل اليهم أسد الدين شيركوه في عسكر يقيمون عندهم ، على أن لنور الدين ثلث بلاد مصر ، ولاسد الدين اقطاعه وعطاء العساكر فاستدعى أسد الدين من حمص ، وكانت اقطاعه. وأمره بالتجهز الى مصر وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الدواب والاسلحة ، وحكمه في العساكر والخزائن وما يحتاج اليه.

وسار في ستة آلاف ، وأزاح علل جنده ، وأعانهم أسد الدين بعشرين ديناراً لكل فارس. وبعث معه جماعة من الامراء : منهم خرديك مولاه وعز الدين قليج ، وشرف الدين بن بخش وعين الدولة الباروقي وقطب الدين نيال بن حسّان ، وصلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب. وسار الى مصر فلما قاربها ارتحل الافرنج راجعين الى بلادهم ، ودخل هو اليها منتصف السنة ، وخلع عليه[1] العاضد وأجرى عليه وعلى عسكره الجرايات الوافرة.

---

(١) خلع عليه ثوباً: ألبسه إياه منحة.

ثم شرع شاور في مماطلة أسد الدين بما وقع اتفاقهم معه عليه ، وحدّث نفسه بالقبض عليه واستخدام جنده لمدافعة الافرنج ، ولم يتم له ذلك . وشعر به أسد الدين فاعترضه صلاح الدين ابن أخيه ، وعز الدين خرديك مولاه عند قبر الامام الشافعي رضي الله عنه وقتلاه ، وفوّض العاضد أمور دولته الى أسد الدين ، وتقاصر الافرنج عنها . ومات أسد الدين واستولى صلاح الدين بعد ذلك على البلاد ، وارتجع البلاد الاسلامية من يد الافرنج كما نذكر في أخبار دولته والله أعلم . (١)

(١) ذكرت هذه الحادثة في الكامل ج ٩ ص ٩٩ بعنوان:
(ذكر ملك أسد الدين مصر وقتل شاور) في هذه السنة في ربيع الأول سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى ديار مصر فملكها ومعه العساكر النورية وسبب ذلك ما ذكرناه من تمكن الفرنج من البلاد المصرية وأنهم جعلوا لهم في القاهرة شحنة وتسلموا أبوابها وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم، وحكموا على المسلمين حكماً جائراً وركبوهم بالأذى العظيم. فلما رأوا ذلك وإن البلاد ليس فيها من يردهم أرسلوا إلى ملك الفرنج بالشام وهو مري ولم يكن للفرنج مذ ظهر بالشام مثله شجاعة ومكراً ودهاء يستدعونه ليملكها، وأعلموه خلوها من موانع وهونوا أمرها عليه فلم يجبهم فاجتمع إليه فرسان الفرنج وذو الرأي منهم فأشاروا عليه بقصدها وتملكها فقال لهم: الرأي عندي أننا لا نصدقها ولا طمعة لنا فيها وأموالها تساق إليها نتقوى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لنملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين. ولئن صار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام فلم يقبلوا قوله، وقالوا له: إنها لا مانع فيها ولا حامي وإلى أن يتجهز عسكر نور الدين ويسير إليها نكون نحن قد ملكناها وفرغنا =

حصار الافرنج دمياط

ولما ملك اسد الدين شيركوه مصر خشيه الافرنج على مـا بايديهم من مدن الشام وسواحله، وكاتبوا اهل ملتهم ونسبهم

= من أمـرها، وحينئـذ يتمنى نور الـدين منا السـلامة فسـار معهم عـلى كـره وشرعـوا يتجهزون ويظهرون أنهم يريدون قصد مدينة حمص.

فلما سمع نور الدين شرع أيضاً يجمع عساكـره وأمرهم بـالقدوم عليـه. وجدّ الفرنج في السير إلى مصر فقدموها ونازلوا مدينة بلبيس وملكوها قهـراً مستهل صفـر ونهبـوها وقتلوا فيهـا وأسروا وكان جمـاعة من أعيـان المصريين قـد كـاتبـوا الفـرنـج ووعدهم النصرة عداوة منهم لشـاور بن الخياط وابن فـرجلة، فقوي جنـان الفرنـج وساروا من بلبيس إلى مصر فنزلوا على القاهرة عاشر صفر وحصروها فخاف النـاس منهم أن يفعلوا بهم كـما فعلوا بـأهـل بلبيس، فحملهم الخـوف منهم عـلى الامتنـاع فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه. فلو أن الفرنج أحسنوا السيرة في بلبيس ملكـوا مصر والقـاهــرة، ولكن الله تعـالى حسن لهم ذلــك أي مـا فعلوا ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعـولاً﴾ وأمر شـاور بإحـراق مدينـة مصر تاسـع صفر وأمـر أهلها بالانتقال منها إلى القـاهرة، وأن ينهب البلد فـانتقلوا وبقوا عـلى الطرق ونهبت المدينة وافتقر أهلها وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنج عليهم بيوم خـوفاً أن يملكها الفرنج فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً وأرسل الخليفة العاضد إلى نـور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج وأرسـل في الكتب شعور النساء وقال: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنـج فشرع في تسيير الجيوش.

وأما الفرنج فانهم اشتـدوا في حصار القـاهرة وضيقـوا على أهلهـا وشاور هـو المتولي للأمر والعساكر والقتال فضـاق به الأمـر وضعف عن ردهم فأخلد إلى أعـمال =

بصقلية وافرنسة يستنجدونهم على مصر ليملكوها ، وبعثوا الاقسة والرهبان من بيت المقدس يستنفرونهم لحمايتها وواعدوهم بدمياط طمعاً في ان يملكوها ويتخذوها ركاباً للاستيلاء على مصر فاجتمعوا عليها،

= الحيلة فأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودة ومحبَّة له قديماً، وإن هـواه معه لخـوفه من نور الدين والعاضد، وإنما المسلمون لا يـوافقونـه على التسليم إليـه ويشير بـالصلح وأخذ مالاً لئـلا يتسلم البلاد نـور الدين فـأجابـه إلى ذلك عـلى أن يعطوه ألف ألف دينار مصرية يعجـل البعض ويمهل بـالبعض فاستقـرت القاعـدة على ذلـك. ورأى الفرنج أن البلاد قد امتنعت عليه وربما سلمت إلى نور الدين فأجابوا كارهين وقالـوا نأخذ المال فنتقوى به ونعاود البلاد بقوة لا نبالي معها بنور الدين ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ فعجل لهم شاور مائة ألف دينار وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال فرحلوا قريباً، وجعل شاور يجمع لهم المال من أهل القاهرة ومصر فلم يتحصل له إلا قدر لا يبلغ خمسة آلاف دينار. وسببه أن أهل مصر كـانوا قـد احترقت دورهم وما فيها وما سلم نهب وهم لا يقدرون عـلى الأقوات فضـلاً عن الأقساط. أمـا أهل القاهرة فـالأغلب على أهلهـا الجند وغلمانهم فلهـذا تعذرت عليهم الأمـوال وهم في خلال هذا يراسلون نور الدين بما الناس فيه، وبذلوا لـه ثلث بلاد مصر وأن يكـون أسد الدين مقيماً عندهم في عسكـر وأقطاعهم من البـلاد المصرية أيضـاً خارجـاً عن الثلث الذي هم.

وكان نور الدين لما وصله كتب العاضد بحلب أرسل إلى أسد الدين يستدعيه إليـه فخرج القـاصد في طلبـه فلقيه عـلى باب حلب وقـد قدمهـا من حمص وكـانت أقطاعه. وكان سبب وصوله أن كتب المصريين وصلته أيضاً في المعنى فسـار أيضاً إلى نور الدين واجتمع به وعجب نور الدين من حضوره في الحال وسره ذلك وتفاءل بـه وأمر بالتجهيـز إلى مصر وأعطاه مـائتي ألف دينار سـوى الثياب والـدواب والأسلحة وغير ذلك، وحكمـه في العسكر والخـزائن، واختار من العسكـر ألفي فارس وأخـذ المال وجمع ستة آلاف فارس، وسـار هو ونـور الدين إلى بـاب دمشق فوصلهـا سلخ =

وحاصروها لاول أيام صلاح الدين وأمدّهم صلاح الدين بالعساكر والاموال .وجاء بنفسه،وبعث الى نور الدين يستنجده ويخوّفه على

=صفر ورحل إلى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس ممن مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة غير محسوبة من جامكيته. وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء منهم مملوكه عز الدين جرديك وغرس الدين قليج شرف الدين برغش وعين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال بن حسان المنجبي وصلاح الدين يوسف بن أيوب أخي شيركوه على كره منه **﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾** أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه وسيرد ذلك عند موت شيركوه إن شاء الله تعالى. وسار أسد الدين شيركوه من رأس الماء مجداً منتصف ربيع الأول فلما قارب مصر رحل الفرنج إلى بلادهم بخفي حنين خائبين مما أملوا. وسمع نور الدين بعودهم فسره ذلك وأمر بضرب البشائر في البلاد وبث رسله في الآفاق مبشرين بذلك فإنه كان فتحاً جديداً لمصر وحفظاً لبلاد الشام وغيرها. فأما أسد الدين فإنه وصل إلى القاهرة سابع جمادى الآخرة ودخل إليها واجتمع بالعاضد لدين الله وخلع عليه، وعاد إلى خيامه بالخلفة العاضدية، وفرح به أهل مصر وأجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة والإنعامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع عن ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة مع شيركوه وهوى العاضد معهم فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، وشرع يماطل أسد الدين في تقرير ما بذل لنور الدين من المال وإقطاع الجند وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمينه **﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾** ثم أنه عزم على أن يعمل دعوة يدعو إليها أسد الدين والأمراء الذين معه ويقبض عليهم يستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الفرنج فنهاه ابنه الكامل وقال له: والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن شيركوه فقال له أبوه: والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً. فقال صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك =

مصر فتابع اليه الامداد ، وسار بنفسه الى بلاد الافرنج بالشام .
واكتسحها وخربها فعاد الفرنج الى دمياط بعد حصار خمسين يوماً

=وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركـوه، وحينئذ لـو مشى العاضـد إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ويملكون البلاد فترك ما كان عزم عليه. ولما رأى العسكر النوري مطل شاور خـافوا شره فـاتفق صلاح الـدين يوسف بن أيـوب وعز الدين جرديك وغيرهم عـلى قتل شـاور فنهاهم أسـد الدين فسكنـوا وهم على ذلـك العـزم من قتله، فاتفق أن شـاور قصد عسكـر أسد الـدين على عـادته فلم يجـده في الخيام كان قد مضى يزور قبر الشافعي رضي الله تعالى عنه فلقيه صلاح الدين يوسف وجرديك في جمع من العسكر، وخـدموه وجعلمـوه بأن شـيركوه في زيـارة قبر الإمـام الشافعي فقال: نمضي إليه فساروا جميعاً، فسايره صلاح الـدين وجرديـك وألقوه إلى الأرض عن فرسه فهـرب أصحابـه عنه فـأخذ أسيـراً فلم يمكنهم قتله بغير أمـر أسد الـدين، فتوكلوا بحفـظه وسيروا أعلمـوا أسد الـدين فحضر ولم يمكنـه إلا إتمـام مـا عملوه. وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر فأرسل إلى أسد الدين يـطلب منه رأس شاور وتابع الرسل بذلك فقتل، وأرسل رأسه إلى العاضد في السـابع عشر من ربيع الآخرة، ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع الخلق ما خافهم على نفسه فقال لهم أمير المؤمنين يعني العاضد يأمـركم بنهب دار شاور، فتفـرق الناس عنـه إليها فنهبـوها وقصـد هـو قصر العـاضـد فخلع عليـه الـوزارة ولقب الملك المنصـور أمـير الجيوش، وسار بالخلع إلى دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور فلم ير فيها ما يقعـد عليه واستقر في الأمر وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع. واستعمل على الأعـمال من يثق إليه من أصحابه وأقطع البلاد لعساكره. أما الكـامل بن شـاور فإنـه لما قتـل أبوه دخل القصر هو وأخوته معتصمين به فكان آخر العهد بهم فكان شيركوه يتأسف عليه كيف عدم لأنه بلغه ما كان منه مع أبيه في منعه من قتل شيركوه، وكان يقـول: دودت أنه بقي لأحسن إليه جزاء الصنيعة.

نفس الله عليهم [1] ومن هذه القصة بقية أخبار الافرنج متعلقة بالدولتين : دولة بني زنكي بالشام ودولة بني ايوب بمصر فأخرت بقية اخبارهم الى ان نسردها في الدولتين على مواقعها في مواضعها حسبما تراه . ولم يبق إلا استيلاؤهم على القسطنطينية من يد الروم فأوردناه ههنا .

استيلاء الافرنج على القسطنطينية

كان هؤلاء الافرنج بعد ما ملكوه من بلاد الشام اختلفت احوالهم في الفتنة والمهادنة مع الروم بالقسطنطينية ، لاستيلائهم على الثغور من بلاد المسلمين التي تجاور الروم التي كانت بايديهم من قبل وظاهرهم الروم على المسلمين في بعض المرات ثم غلبوا عليهم آخراً . وملكوا القسطنطينية من أيديهم فأقامت في أيديهم مدة . ثم ارتجعها الروم على يد لشكري من بطارقتهم .

وكيفية الخبر عن ذلك ان ملوك الروم أصهروا الى ملوك الافرنج وتزوّجوا منهم بنتاً لملك الروم فولدت ذكراً خاله الافرنسيس ، وثب عليه أخوه فانتزع الملك من يده وحبسه ، ولحق الولد بملك الافرنج خاله مستصرخاً به فوصل اليه ، وقد تجهّز الافرنج لاستنقاذ

(١) يقال: نفّس فلاناً: أي أمهله أو أزال كربه وغمه.

القدس من يد المسلمين. وكان صلاح الدين قد ارتجعها منهم كما يأتي في أخباره ان شاء الله تعالى.

وانتدب لذلك ثلاثة من ملوكهم دوقص البنادقة وهو صاحب الاسطول الذي ركبوا فيه، وكان شيخاً أعمى لا يركب ولا يمشي الا بقائد. ومقدّم الفرنسيس ويسمى المركيش، والثالث يسمى كيداقليد [1] وهو أكثرهم عدداً فجعل الملك ابن أخته معهم، وأوصاهم بمظاهرته على ملكه بالقسطنطينيّة، ووصلوا اليها في ذي القعده سنة تسع وتسعين وخمسمائة، فخرج عم الصبي وقاتلهم. واضرم شيعة الصبي النار في نواحي البلاد. فاضطرب العسكر ورجعوا، وفتح شيعة الصبي باب المدينة، وأدخلوا الافرنج. وخرج عمه هارباً ونصب الافرنج الصبي في الملك، وأطلقوا أباه من السجن واستبدوا بالحكم وصادروا الناس وأخذوا مال البيع، وما على الصلبان من الذهب، وما على تماثيل المسيح والحواريين، وما على الانجيل فعظم ذلك على الروم ووثبوا

---

(١) كذا بالأصل، وهنا أسماء إفرنجية محرفة كما هي كذلك محرفة في كتب التاريخ القديمة. وفي الكامل ج. ص ٢٦٤: وكانوا ثلاثة ملوك: دوقس البنادقة وهو صاحب المراكب البحرية، وفي مراكبه ركبوا إلى القسطنطينية، وهو شيخ أعمى إذا ركب تقاد فرسه. والآخر يقال له المركيس وهو مقدم الإفرنسيس. والآخر يقال له كندأفلند وهو أكثرهم عدداً.

بالصبي فقتلوه، وأخرجوا الافرنج من البلد، وذلك منتصف سنة ستمائة.

وأقام الافرنج بظاهرها محاصرين لهم. وبعث الروم صريخاً الى صاحب قونية ركن الدين سليمان بن قليج ارسلان، ينهض لذلك وكان بالمدينة متخلفون من الافرنج يناهزون ثلاثين ألفاً فثاروا بالبلد عند شغل الروم بقتال أصحابهم، وأضرموا النار ثانياً فاقتحم الافرنج وأفحشوا في النهب والقتل. ونجا كثير من الروم الى الكنائس وأعظمها كنيسة سوميا فلم تغن عنهم. وخرج القسيسون والاساقفة في ايديهم الانجيل والصلبان فقتلوهم. ثم تنازع الملوك الثلاثة على الملك بها، وتقارعوا فخرجت القرعة على كبداقليد فلكها على أن يكون لدوقس البنادقة الجزائر البحرية اقريطش ورودس وغيرها. ويكون لمركيش الافرنسيس شرقي الخليج، ولم يحصل أحد منهم شيئاً الا ملك القسطنطينية كبداقليد وتغلب على شرقي الخليج بطريق من بطارقة الروم اسمه لشكري فلم يزل بيده الى ان مات. ثم غلب بعد ذلك على القسطنطينية وملكها من يد الافرنج، والله غالب على امره [1].

---

(١) وهنا أيضاً عدم انسجام في العبارات وتحريف في الأسماء. وعن الكامل ج ٩ ص ٢٦٣:

(ذكر ملك القسطنطينية من الروم) في هذه السنة في شعبان ملك الفرنج مدينة القسطنطينية من الروم وأزالوا ملك الروم عنها وكان سبب ذلك أن ملك الروم =:

الخبر عن دولة بني ارتق وملكهم لماردين
وديار بكر ومبادىء أمورهم وتصاريف أحوالهم

كان أرتق بن اكسك ويقال اكست، والاول أصح. كلمة أولها همزة ثم كافان الاولى ساكنة بينهما سين، من مماليك السلطان ملك شاه بن البأرسلان ملك السلجوقية، وله مقام محمود في دولتهم

= بها تزوج أخت ملك إفرنسيس وهو من أكبر ملوك الفرنج فرزق منها ولداً ذكراً ثم وثب على الملك أخ له فقبض عليه وملك البلد منه وسمل عينيه وسجنه فهرب ولده ومضى إلى خاله مستنصراً به على عمه فاتفق ذلك، وقد اجتمع كثير من الفرنج ليخرجوا إلى بلاد الشام، لاستنقاذ البيت المقدس فأخذوا ولد الملك معهم وجعلوا طريقهم على القسطنطينية قصداً لإصلاح الحال بينه وبين عمه ولم يكن له طمع في سوى ذلك فلما وصلوا خرج عمه في عساكر الروم محارباً لهم فوقع القتال بينهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وخمسمائة فانهزمت الروم ودخلوا البلد فدخله الفرنج معهم فهرب ملك الروم إلى أطراف البلاد، وقيل إن ملك الروم لم يقاتل الفرنج بظاهر البلد وإنما حصروه فيها وكان بالقسطنطينية من الروم من يريد الصبي فألقوا النار في البلد فاشتغل الناس بذلك ففتحوا باباً من أبواب المدينة فدخلها الفرنج وخرج ملكها هارباً وجعل الفرنج الملك في ذلك الصبي وليس له من الحكم شيء وأخرجوا أباه من السجن إنما الفرنج هم الحكام في البلد فثقلوا الوطأة على أهله وطلبوا منهم أموالاً عجزوا عنها وأخذوا أموال البيع وما فيها من ذهب ونقرة وغير ذلك حتى ما على الصلبان وهو على صورة المسيح عليه السلام والحواريين وما على الأناجيل من ذلك أيضاً فعظم ذلك على الروم وحملوا منه خطباً عظيماً فعمدوا إلى ذلك الصبي الملك فقتلوه وأخرجوا الفرنج من البلد وأغلقوا الأبواب واستحضروا الملك وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ستمائة فأقام الفرنج بظاهره محاصرين للروم =

وكان على حلوان وما اليها من اعمال العراق. ولما بعث السلطان ملك شاه عساكره الى حصار الموصل مع فخر الدولة بن جهير

= وقاتلوهم ولازموا قتالهم ليلاً ونهاراً وكان الروم قد ضعفوا ضعفاً كثيراً فأرسلوا إلى السلطان ركن الدين سليمان بن قلج إرسلان صاحب قونية وغيرها من البلاد يستنجدونه فلم يجد إلى ذلك سبيلاً وكان بالمدينة كثير من الفرنج مقيمين يقاربون ثلاثين ألفاً ولعظم البلد لا يظهر أمرهم فتواضعوا هم والفرنج الذين بظاهر البلد ووثبوا فيه وألقوا النار مرة ثانية فاحترق نحو ربع البلد وفتحوا الأبواب فدخلوها ووضعوا السيف ثلاثة أيام وفتكوا بالروم قتلاً ونهباً فأصبح الروم كلهم ما بين قتيل أو فقير لا يملك شيئاً ودخل جماعة من أعيان الروم الكنيسة العظمى التي تدعى سوفيا فجاء الفرنج إليها فخرج إليهم جماعة من القسيسين والأساقفة والرهبان بأيديهم الإنجيل والصليب يتوسلون بها إلى الإفرنج ليبقوا عليهم فلم يلتفتوا إليهم وقتلوهم أجمعين ونهبوا الكنيسة وكانوا ثلاثة ملوك دوقس البنادقة وهو صاحب المراكب البحرية وفي مراكبه ركبوا إلى القسطنطينية وهو شيخ أعمى إذا ركب تقاد فرسه والآخر يقال له المركيس وهو مقدم الإفرنسيس والآخر يقال له كندأفلند وهو أكثرهم عدداً، فلما استولى على القسطنطينية اقترعوا على الملك فخرجت القرعة على كند أفلند فأعادوا القرعة ثانية وثالثة فخرجت عليه فملكوه والله يؤتي ملكه من يشاء وينزعه ممن يشاء فلما خرجت القرعة عليه ملكوه عليها وعلى ما يجاوزها وتكون لدوقس البنادقة الجزائر البحرية مثل جزيرة اقريطش وجزيرة رودس وغيرهما ويكون لمركيس الافرنسيس البلاد التي هي شرق الخليج مثل أزنيق ولاذيق فلم يحصل لأحد منهم شيء غير الذي أخذ القسطنطينية وأما الباقي فلم يسلم من به من الروم، وأما البلاد التي كانت لملك القسطنطينية شرقي الخليج المجاورة لبلاد ركن الدين سليمان بن قليج إرسلان ومن جملتها أزنيق ولاذيق فإنها تغلب عليها بطريق الروم، اسمه لشكري وهي بيده إلى أن توفي.

سنة سبع وسبعين وأربعمائة أردفه بعسكر آخر مع أرتق فهزمه مسلم بن قريش فحاصره بآمد. ثم داخله في الخروج من هذا الحصار على مال اشترطه، ونجا الى الرقة. ثم خشي أرتق من فعلته تلك فلحق بتتُش حتى سار الى حلب طامعاً في ملكها فلقيه تتش وهزمه. وكان لارتق في تلك الواقعة المقام المحمود. ثم سار تتش الى حلب وملكها، واستجار مقدمها ابن الحسين بارتق فأجاره من السلطان تتش. ثم هلك ارتق سنة ثلاث وثمانين بالقدس، وملكه من بعد ارتق ابناه أبو الغازي وسقمان. وكان لهما معه الرُها[1] وسروج[2]. ولما ملك الافرنج انطاكية سنة احدى وتسعين وأربعمائة اجتمعت الامراء بالشام والجزيرة وديار بكر[3] وحاصروها. وكان لسقمان في ذلك المقام المحمود. ثم تخاذلوا وافترقوا وطمع أهل مصر

---

(١) الرُها: ورد في معجم البلدان: الرُّهاء مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ، سميت باسم الذي استحدثها، وهو الرها بن البلندي بن مالك بن دعر.

(٢) سروج: بلدة قريبة من حرَّان من ديار مصر، غلب عياض بن غنم على أرضها، فتحها صلحا على مثل صلح الرها في سنة ١٧ في أيام عمر، رضي الله عنه.

(٣) ديار بكر: هي بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل بن قاسط بن هِنْب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان. وحدُّها ما غرّب من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة. ومنه حصن كيفا وآمد وميّافارقين.

في ارتجاع القدس منهم. وسار اليها الملك الافضل المستولي على دولتهم فحاصرها أربعين يوماً وملكها بالامان. وخرج سقمان وأبو الغازي ابنا ارتق وابن أخيها ياقوتي وابن عمها سونج وأحسن اليهم الافضل وولّى على بيت المقدس ورجع الى مصر. وجاء الافرنج فملكوها كما تقدم في أخبار الدولة السلجوقية. ولحق ابو الغازي بالعراق فولي شحنة بغداد وسار سقمان الى الرها فأقام بها وكان بينه وبين كربوقا صاحب الموصل فتن وحروب أسر في بعضها ياقوتي ابن أخيه.

ثم توفي كربوقا سنة خمسة وتسعين وولي الموصل بعده موسى التركماني وكان نائباً بحصن كيفا [1] فزحف اليه جكرمس صاحب جزيرة ابن عمر وحاصره بالموصل واستنجد موسى سقمان على ان يعطيه حصن كيفا فانجده وسار اليه رافرج عنه جكرمس وخرج موسى للقاء سقمان فقتله مواليه غدراً ورجع سقمان الى حصن كيفا فملكه ثم كانت الفتنة بين أبي الغازى وكمستكين القيصري لما بعثه بركيارق شحنة على بغداد وكان هو شحنة من قبل السلطان محمد فمنع القيصري من الدخول واستنجد

---

(١) حصن كيفا: ويقال كيْبا، وأظنها أرمنية، وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة آبن عمر من ديار بكر.

أخاه سقمان فجاء اليه من حصن كيفا في عساكره ونهب تكريت[١] وخرج اليها أبو الغازي ، واجتمع معهم صدقة بن مزيد صاحب الحلّة، وعاثوا في نواحى بغداد وفتكوا بنفر من أهل البلد .

وبعث اليهم الخليفة في الصلح على ان يسير القيصري الى واسط[٢] فسار اليه ودخل أبو الغازي بغداد ، ورجع سقمان الى بلده ، وقد مرّ ذلك في اخبارهم . ثم استولى مالك بن بهرام أخي سقمان على عامّة الخرمية سنة سبع وتسعين ، وكان له مدينة سروج فملكها منه الافرنج ، وسار الى غانة فملكها من بني يعيش بن عيسى ابن خلاط . واستصرخوا بصدقة بن مزيد ، وارتجعها لهم منه، وعاد الى الحلة فعاد مالك فملكها واستقرّت في ملكه . ثم اجتمع سقمان وجكرمش صاحب الموصل على جهاد الافرنج سنة سبع وتسعين ، وهم محاصرون حران[٣] فتركو المنافسة بينهم وقصدوهم وسقمان

---

(١) تكريت : بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى راكبة على دجلة، وهي غربي دجلة.

(٢) واسط : ورد في معجم البلدان : واسط في عدة مواضع نبدأ أولاً بواسط الحجاج لأنه أعظمها وأشهرها. سميت واسطاً لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة، لأن منها إلى كل واحدة منها خمسين فرسخاً. وهذه المذكورة هنا هي واسط الحجاج لأنه هو الذي عمرها.

(٣) حرّان : مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان وهي على طريق الموصل والشام والروم. قيل: سميت بهاران أخي إبراهيم عليه السلام، لأنه أول من بناها فعرّبت فقيل حرّان، وذكر قوم أنها أول مدينة بُنيت على الأرض بعد الطوفان.

في سبعة آلاف من التركمان فهزموا الافرنج، وأسروا القمص بردويل صاحب الرها، أسره أصحاب سقمان فتغلب عليهم أصحاب جكرمش وأخذوه، وافترقوا بسبب ذلك وعادوا الى ما كان بينهم من الفتن، والله أعلم.

استيلاء سقمان بن أرتق على ماردين

كان هذا الحصن ماردين[1] من ديار بكر، وأقطعه السلطان بركيارق بجميع أعماله لمغن كان عنده، وكان في ولاية الموصل، وكان ينجرّ اليه خلق كثير من الاكراد يفسدون السابلة. واتفق ان كربوقا صاحب الموصل سار لحصار آمد[2]، وهي لبعض التركمان، فاستنجد صاحبها بسقمان فسار لانجاده، وقاتل كربوقا قتالاً شديداً. ثم هزمه وأسر ابن أخيه ياقوتي بن ارتق وحبسه بقلعة ماردين عند

---

(١) ماردين: قلعة مشهورة على قنّة جبل الجزيرة مشرفة على دُنيسر ودارا ونصيبين، وذلك الفضاء الواسع، وقدّامها ربض عظيم فيه أسواق كثيرة وخانات، ومدارس وربط وخان قاهات. ودورهم فيها كالدرج.
ومما لا شك فيه أنه ليس في الأرض كلها أحسن من قلعتها ولا أحصن ولا أحكم.

م. ب.

(٢) آمد: أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدراً وأشهرها ذكراً. بلد قديم حصين ركين مبني بالحجارة السُّود على نشز دجلة محيطة بأكثره، مستديرة به كالهلال، وفي وسطه عيون وآبار.

المغني فبقي محبوساً مدة طويلة ، وكثر ضرر الاكراد فبعث ياقوتي الى المغني صاحب الحصن في أن يطلقه ، ويقيم عنده بالربض لدفاع الاكراد ففعل ، وصار يغير عليهم في سائر النواحي الى خلاط . وصار بعض أجناد القلعة يخرجون للاغارة معه فلا يهيجهم .

ثم حدّثته نفسه بالتوثب على القلعة فقبض عليهم بعض الايام مرجعه من الاغـارة ، ودنا من القلعة . وعرضهم على القتل ان لم يفتحوا له ففتحها أهلوهم وملكها . وجمع الجموع وسار الى نصيبين [1]، وأغار على جزيرة ابن عمر ، وهي لجكرمش فكبسه جكرمش وأصحابه في الحرب بينهم فقتـله ، وبكاه جكرمش . وكان تحت ياقوتي ابنة عمه سقمان فمضت الى أبيها وجمعت التركمـان . وجاء سقمان بهم الى نصيبين فترك طلب الثار فبعث اليه جكرمش ما أرضاه من المال في ديته ، ورجع وقدم بماردين بعد ياقوتي أخوه علي بطاعة جكرمش ، وخرج منها لبعض المذاهب . وكتب نائبه بها الى عمه سقمان بأنه يملك ماردين لجكرمش فسار اليها سقمان ، وعوض عليا ابن أخته جبل جور ، وأقامت ماردين في ملكه مع حصن كيفا واستضاف اليها نصيبين ، والله أعلم .

---

(١) نصيبين : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادّة القوافل من الموصل إلى الشام ، وفيها وفي قراها على ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان . م . ب .

وفاة سقمان بن أرتق وولاية أخيه أبي الغازي مكانه بماردين

ثم بعث فخر الدين بن عمار صاحب طرابلس يستنجد سقمان ابن ارتق على الافرنج، وكان استبد بها على الخلفاء العلويين أهل مصر، ونازله الافرنج عندما ملكوا سواحل الشام فبعث بالصريخ الى سقمان بن ارتق سنة ثمان وتسعين. وأجابه وبينما هو يتجهز المسير وافاه كتاب طغركين صاحب دمشق المستبد بها من موالي بني تتش، يستدعيه لحضور وفاته، خوفاً على دمشق من الافرنج فأسرع المسير اليه معتزماً على قصد طرابلس وبعدها دمشق فانتهى الى القريتين[1]، وندم طغركين على استدعائه، وجعل يدير الرأي مع أصحابه في صرفه. ومات هو بالقدس فكفاهم الله أمره، وقد كان أصحابه عندما أشفى على الموت أشاروا عليه بالرجوع الى كيفا فامتنع وقال: هذا جهاد، وان مت كان لي ثواب شهيد. فلما مات حمله ابنه ابراهيم الى حصن كيفا فدفنه به.

وكان أبو الغازي بن ارتق شحنة بغداد كما قدّمناه ولاه السلطان محمد أيام الفتنة بينه وبين أخيه بركيارق. فلما اصطلح بركيارق

---

(١) القريتين: قرية كبيرة من أعمال حمص في طريق البرية بينها وبين سُخنة وأرك. وقال أبو جذيفة في فتوح الشام: وسار خالد بن الوليد من تدمر إلى القريتين، وهي التي تدعى حُوَّارين. م. ب.

وأخوه سنة تسع وتسعين على أن تكون بغداد له، ومالك أخرى من الممالك الاسلامية ومن جملتها حلوان، وهي أقطاع أبي الغازي فبادر وخطب لبركيارق ببغداد، فنكر عليه ذلك صدقة بن مزيد وكان من شيعة السلطان محمد فجاء الى بغداد ليزعج [١] أبا الغازي عنها ففارقها الى يعقوب، وبعث الى صدقة يعتذر بأنه صار في ولاية بركيارق، ويحكم الصلح في اقطاعه وولايته فلم يمكنه غير ذلك.

ومات بركيارق على اثر ذلك فخطب، أبو الغازي لابنه ملك شاه فنكر ذلك السلطان محمد منه، فلما استولى على الامر عزله عن شحنة بغداد فلحق بالشام، وحمل رضوان بن تتش صاحب حلب على حصار نصيبين من بلاد جكرمش فحاصروها. وبعث جكرمش الى رضوان وأغراه بأبي الغازي ففسد ما بينهما، ورحلوا مفترقين على نصيبين. وسار أبو الغازي الى ماردين، وقد مات أخوه سقمان كما قلناه فاستولى عليها والله تعالى أعلم.

---

(١) زعجه وأزعجه: أقلعه وقلعه من مكانه، طرده. أزعجه إلى المعصية: ساقه إليها.

تعليق على بعض الأخبار المهمة

[ان ابن خلدون قد توسع جداً في أخبار المغرب والبربر لانه مغربي ، واما اخبار المشرق فانه اقتضب في بعضها، لذلك رأينا ان نلحق هنا بعض اخبار الحروب الصليبية واخبار الفاتح صلاح الدين الايوبي وهي عن تاريخ ابن الاثير الذي نقلنا عنه كثيراً أثناء التحقيق : عن الكامل ج ٩ ص ٢١٣ :]

ذكر وصول الفرنج من الغرب في البحر الى عكا

وفي هذه السنة وصلت أمداد الفرنج في البحر الى الفرنج الذين على عكا وكان أول من وصل منهم الملك فليب ملك افرنسيس وهو من أشرف ملوكهم نسباً وإن كان ملكه ليس بالكثير. وكان وصوله اليها ثاني عشر ربيع الاول ولم يكن في الكثرة التي ظنوها وإنما كان معه ست بطس كبار عظيمة فقويت به نفوس من على عكا منهم ولحوا في قتال المسلمين الذين فيها وكان صلاح الدين بشفرعم فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد. وأرسل الى الامير أسامة مستحفظ بيروت يأمره بتجهيز ما عنده من الشواني والمراكب وتشحينها بالمقاتلة وتسييرها في البحر ليمنع الفرنج من الخروج الى عكا ففعل ذلك وسير الشواني في البحر فصادفت خمسة مراكب مملوءة

رجالا من أصحاب ملك إنكلترا الفرنج وكان قد سيرهم بين يديه وتأخر هو بجزيرة قبرس ليملكها فاقتتلت شواني المسلمين مع مراكب الفرنج فاستظهر المسلمون عليهم وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال وكتب أيضاً صلاح الدين الى من بالقرب من النواب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا وأما الفرنج الذين على عكا فانهم لازموا قتال من بها ونصبوا عليها سبع منجنيقات رابع جمادى الاولى فلما رأى صلاح الدين ذلك تحول من شفرعم ونزل عليهم لئلا يتعب العسكر كل يوم في المجيء اليهم والعود عنهم فقرب منهم وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خندقهم فكانوا يشتغلون بقتالهم فيخف القتال عمن بالبلد. ثم وصل ملك إنكلترا ثالث عشر جمادى الاولى وكان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرس وأخذها من الروم فانه لما وصل اليها غدر بصاحبها وملكها جميعاً فكان ذلك زيادة في ملكه وقوة للفرنج. فلما فرغ منها سار عنها الى من على عكا من الفرنج فوصل اليهم في خمس وعشرين قطعة كباراً مملوءة رجالا وأموالا فعظم به شر الفرنج واشتدت نكايتهم في المسلمين وكان رجل زمانه شجاعة ومكراً وجلداً وصبراً وبلي المسلمون منه بالداهية التي لا مثل لها. ولما وردت الاخبار بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز بسطة كبيرة مملوءة من الرجال والعدد والاقوات فتجهزت وسيرت من بيروت. وفيها سبعمائة مقاتل:

فلقيها ملك إنكلترا مصادفة : فقاتلها وصبر من فيها على قتالها فلما أيسوا من الخلاص ونزل مقدم من بها الى أسفلها وهو يعقوب الحلبي مقدم الجندارية يعرف بغلام ابن شقتين فخرقها خرقاً واسعاً لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر فغرق جميع ما فيها وكانت عكا محتاجة الى رجال لما ذكرناه من سبب نقصهم ثم إن الفرنج عملوا دبابات وزحفوا بها فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد وأخذوا تلك الكباش فلما رأى الفرنج ان ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلاً كبيراً من التراب مستطيلاً وما زالوا يقربونه الى البلد ويقاتلون من وراءه لاينالهم من البلد أذى حتى صار على نصف علوه فكانوا يستظلون به ويقاتلون من خلفه فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها. فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين فأرسلوا الى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم يقدر لهم على نفع .

ذكر ملك الفرنج عكا

في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الاخرة استولى الفرنج لعنهم الله على مدينة عكا وكان اول وهن دخل على من بالبلد ان الامير سيف الدين علي بن أحمد المكاري المعروف بالمشطوب كان فيها ومعه عدة من الامراء كان هو أمثلهم وأكبرهم فخرج الى ملك افرنسيس وبذل تسليم البلد بما فيه على أن يطلق المسلمين

الدين فيه ويمكنهم من اللحاق بسلطانهم فلم يجبه الى ذلك فعاد علي بن أحمد الى البلد فوهن من فيه وضعفت نفوسهم وتخاذلوا وأهمتهم أنفسهم. ثم إن أمراء ممن كان بعكا لما رأوا ما فعلوا بالمشطوب والفرنج لم يجيبوا الى التسليم، اتخذوا الليل جملاً وركبوا في شيء صغير وخرجوا سراً من أصحابهم ولحقوا بعسكر المسلمين وهم: عز الدين أرسل الاسدى وابن عز الدين جاولي وسنقر الوشاقي ومعهم غيرهم فلما أصبح الناس ورأوا ذلك ازدادوا وهنا الى وهنهم وضعفا الى ضعفهم وأيقنوا بالعطب. ثم إن الفرنج أرسلوا الى صلاح الدين في معنى تسليم البلد فأجابهم الى ذلك والشرط بينهم أن يطلق من أسراهم بعدد من في البلد ليطلقوا هم من بعكا وأن يسلم اليهم صليب الصلبوت فلم يقنعوا بما بذل فأرسل الى من بعكا من المسلمين يأمرهم أن يخرجوا من عكا يداً واحدة ويتركوا البلد بما فيه، ووعدهم أنه يتقدم الى تلك الجهة التي يخرجون منها بعساكره ويقاتل الفرنج فيها ليلحقوا به فشرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح فبطل ما عزموا عليه لظهوره. فلما عجز الناس من حفظ البلد زحف اليهم الفرنج بجدهم وحديدهم فظهروا من البلد على سوره يحركون أعلامهم ليراها المسلمون وكانت هي العلامة اذا اخترمهم أمر. فلما رأى المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء والعويل وحملوا على الفرنج من جميع جهاتهم طلبا

منهم أن الفرنج يشتغلون عن الذين بعكا وصلاح الدين يحرضهم وهو في أولهم. وكان الفرنج قد خفوا عن خنادقهم ومالوا الى جهة البلد فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم فوقع الصوت فعاد الفرنج ومنعوا المسلمين وتركوا في مقابلة من بالبلد من يقاتلهم فلما رأى المشطوب أن صلاح الدين لا يقدر على نفع ولا يدفع عنهم ضراً خرج الى الفرنج وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم وبذل لهم عن ذلك مائتي ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين، وإعادة صليب الصلبوت وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور فأجابوه الى ذلك وحلفوا له عليه، وأن يكون مدة تحصيل المال والاسرى الى شهرين. فلما حلفوا له سلم البلد اليهم ودخلوه سلماً فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم. وأظهروا انهم يفعلون ذلك ليصل اليهم ما بذل لهم، وراسلوا صلاح الدين في إرسال المال والاسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم فشرع في جمع المال وكان هو الامان له إنما يخرج ما يحصل إليه من دخل البلاد أولا بأول. فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار جمع الامراء واستشارهم فأشاروا بأن لا يرسل شيئاً حتى يعاود يستحلفهم على إطلاق أصحابه وان يضمن الداوية ذلك لانهم أهل دين يرون الوفاء فراسلهم صلاح الدين في ذلك فقال الداوية: لا نحلف ولا نضمن لاننا نخاف غدر

من عندنا. وقال ملوكهم: إذا سلمتم إلينا المال والاسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا، فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل إليهم شيئاً واعاد الرسالة اليهم وقال: نحن نسلم إليكم هذا المال والاسرى والصليب ونعطيكم رهنا بالباقي وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء لهم فقالوا لا نحلف. إنما نرسل المائة ألف دينار التي حصلت والاسرى والصليب ونحن نطلق من أصحابكم من نريد ونترك من نريد حتى يجيء باقي المال فعلم الناس حينئذ غدرهم وإنما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والأكراد ومن لا يؤبه له ويمسكون عندهم الأمراء وأرباب الاموال ويطلبون منهم الفداء فلم يجبهم السلطان الى ذلك، فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج وخرجوا إلى ظاهر البلد بالفارس والراجل وركب المسلمون إليهم وقصدوهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن مواقفهم وإذ أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف واستبقوا الامراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم، ومن لا مال له. فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف في المال الذي كان جمعه وسير الاسرى والصليب إلى دمشق .

ذكر رحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان وتخريبها

لما فرغ الفرنج لعنهم الله من اصلاح أمر عكا برزوا منها في

الثامن والعشرين من رجب وساروا مستهل شعبان نحو حيفا مع شاطئ البحر لا يفارقونه فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى في عسكره بالرحيل فساروا وكان على اليزك ذلك اليوم الملك الافضل ولد صلاح الدين ومعه سيف الدين اياز كوش وعز الدين جورديك وعدة من شجعان الامراء فضايقوا الفرنج في مسيرهم، وارسلوا عليهم من السهام ما كان يحجب الشمس ووقعوا على ساقة الفرنج فقتلوا منها جماعة واسروا جماعة. وارسل الافضل الى والده يستمده ويعرفه الحال، فامر العساكر بالمسير اليه فاعتذروا بأنهم ما ركبوا باهبة الحرب وانما كانوا على عزم المسير لا غير. فبطل المدد وعاد ملك الانكلتار الى ساقة الفرنج، فحماها وجمعهم وساروا حتى اتوا حيفا فنزلوا بها ونزل المسلمون بقيمون قرية بالقرب منهم، واحضر الفرنج من عكا عوض من قتل منهم واسر ذلك اليوم وعوض ما هلك من الخيل. ثم ساروا الى قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم من قدروا عليه فيقتلونهم لان صلاح الدين كان قد اقسم انه لا يظفر باحد منهم الا قتلهم بمن قتلوا ممن كان بعكا فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم اشد قتال فنالوا منهم نيلاً كثيراً . ونزل الفرنج بها وبات المسلمون قريباً منهم فلما نزلوا خرج من الفرنج جماعة فابعدوا عن جماعتهم فاوقع بهم المسلمون الذين كانوا في اليزك فقتلوا منهم واسروا منهم. ثم ساروا من قيسارية الى ارسوف وكان المسلمون قد سبقوهم اليها ولم

يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق. فلما وصل الفرنج اليهم حمل المسلمون عليهم حملة منكرة الحقوهم بالبحر ودخله بعضهم فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا وحملت الخيالة على المسلمين حملة رجل واحد فولوا منهزمين لا يلوي احد على احد. وكان كثير من الخيالة والسوقة قد الفوا القيام وقت الحرب قريباً من المعركة فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير والتجأ المنهزمون الى القلب وفيه صلاح الدين فلو علم الفرنج انها هزيمة لتبعتهم واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون. لكن كان بالقرب من المسلمين شعرى كثيرة الشجر فدخلوها وظنها الفرنج مكيدة فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق وقتل من الفرنج كند كبير من طواغيتهم، وقتل من المسلمين مملوك لصلاح الدين اسمه اياز الطويل وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن في زمانه مثله فلما نزل المسلمون واعنة خيلهم بايديهم ثم سار الفرنج الى يافا فنزلوها ولم يكن بها احد من المسلمين فملكوها ولما كان من المسلمين بأرسوف من الهزيمة ما ذكرناه سار صلاح الدين عنهم الى الرملة واجتمع باثقاله بها وجمع الامراء واستشارهم فيما يفعل فاشاروا عليه بتخريب عسقلان وقالوا له: قد رأيت ما منا بالامس، واذا جاء الفرنج الى عسقلان، ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها فهم لا شك يقاتلونا لنتزاح عنها وينزلون عليها فاذا كان ذلك عدنا الى مثل ما كنا عليه على عكا، ويعظم الامر علينا

لان العدو وقد قوي بأخذ عكا وما فيها من الاسلحة وغيرها ونحن قد ضعفنا بما خرج عن ايدينا ولم تطل المدة حتى نستجد غيرها فلم تسمح نفسه بتخريبها وندب الناس الى دخولها وحفظها فلم يجبه احد الى ذلك. وقالوا ان اردت حفظها فادخل انت معنا او بعض اولادك الكبار والا فما يدخلها منا احد لئلا يصيبنا ما اصاب اهل عكا فلما رأى الامر كذلك سار الى عسقلان وامر بتخريبها تاسع عشر شعبان والقيت حجارتها في البحر وهلك فيها من الاموال والذخائر التي للسلطان والرعية ما لا يمكن حصره وعفى اثرها حتى لا يبقى للفرنج في قصدها مطمع. ولما سمع الفرنج بتخريبها اقاموا مكانهم ولم يسيروا اليها. وكان المركيس لعنه الله لما اخذ الفرنج عكا قد احسن من ملك انكلتار بالغدر به فهرب من عنده الى مدينة صور وهي له وبيده وكان رجل الفرنج رأياً وشجاعة. وكل هذه الحروب هو اثارها فلما خربت عسقلان ارسل الى ملك انكلتار يقول له مثلك لا ينبغي ان يكون ملكاً ويتقدم على الجيوش تسمع ان صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل لما بلغك انه قد شرع في تخريبها كنت سرت اليه مجداً فرحلته وملكتها صفواً عفواً بغير قتال ولا حصار فانه ما خربها الا وهو عاجز عن حفظها. وحق المسيح لو انني معك كانت عسقلان اليوم بأيدينا لم يخرب منها غير برج واحد ! فلما خربت عسقلان رحل صلاح الدين عنها ثاني شهر رمضان

ومضى الى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لد. وفي مدة مقامه لتخريب عسقلان كانت العساكر مع الملك العادل ابي بكر بن ايوب تجاه الفرنج ثم سار صلاح الدين الى القدس بعد تخريب الرملة فاعتبره وما فيه من سلاح وذخائر، وقرر قواعده واسبابه وما يحتاج اليه، وعاد الى المخيم ثامن رمضان. وفي هذه الايام خرج ملك انكلتار من يافا ومعه نفر من الفرنج من معسكرهم فوقع به نفر من المسلمين فقاتلوهم قتالاً شديداً وكاد ملك انكلتار يؤسر ففداه بعض اصحابه بنفسه فتخلص الملك واسر ذلك الرجل وفيها ايضاً كانت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج انتصر فيها المسلمون.

تاريخ العلامة

ابن خلدون

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر
في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم
من ذوي السلطان الأكبر
وهو تاريخ وحيد عصره
العلامة عبد الرحمن
ابن خلدون المغربي

المجلد الخامس

من تاريخ العلامة ابن خلدون

القسم الثالث

٩

دار الكتاب اللبناني - بيروت



القسم الثالث

المجلد الخامس

من تاريخ العلامة ابن خلدون

اضطراب أبي الغازي في طاعته وأسره ثم خلاصه

لما ولّى السلطان محمد على الموصل والجزيرة وديار بكر سنة أثنتين وخمسمائة مودود بن أفتكين مكان جاولي سكاوو الذي ملكها من يد جكرمش كما مرّ في أخبارهم فوصل مودود الى الموصل ، وسار جاولي الى نصيبين وهي يومئذ لابي الغازي، وراسله في المظاهرة والانجاد فوصل اليه بماردين على حين غفلة مستنجداً به فلم يسعه الا اسعافه ، وسار معه الي سنجار والرحبة وحاصرها ، وشدّد عليها . فلما نزل الخابور هرب أبو الغازي راجعاً الى نصيبين، ثم الى بلده، وبقي مضطرباً. ثم بعث السلطان محمد سنة خمس وخمسمائة الي الامير مودود بالمسير الى قتال الافرنج ، وأن يسير الامراء معه من كل جهة، مثل سقمان القطبي صاحب ديار بكر ، وأحمد بك صاحب مراغة ، وأبي الهيجاء صاحب إربل ، وأبي الغازي صاحب ماردين فحضروا كلهم إلا أبا الغازي، فأنه بعث ولده أياز في عسكر فسارت العساكر الى الرُها وحاصروها ،

وامتنعت عليهم . ثم ساروا سنة ست وخمسمائة الى سروج كذلك .

ثم ساروا سنة سبع الى بلاد الافرنج فهزموهم على طبرّية ودّوخوا بلادهم وعاد مودود الى دمشق وافترقت العساكر ، ودخل دمشق ليشتي بها عند طغركين صاحبها فقتل غيلة بها واتهم طغركين في أمره وبعث السلطان مكانه على العساكر والموصل أقسنقر البرسقي ، وأمره بقصد الافرنج وقتالهم ، وكتب الى الامراء بطاعته ، وبعث ابنه الملك مسعوداً في عسكر كثيف ليكونوا معه فسار أقسنقر سنة ثمان وخمسمائة، وفرّ أبو الغازي وحاصره بماردين حتى استقام وبعث معه ابنه اياز في عسكر فحاصروا الرها وعاثوا في نواحيها ، ثم سروج وشمشاط ، وأطاعه صاحب مرعش وكيسوم ورجع فقبض على أياز بن أبي الغازي ، ونهب سواد ماردين فسار أبو الغازي من وقته الى ركن الدولة داود ابن اخيه سقمان ، وهو بحصن كيفا مستنجداً به فأنجده وساروا الى البرسقي آخر ثمان وخمسمائة فهزموهم وخلصوا ابنه أيازمن الاسر. وارسل السلطان الى ابي الغازي يتهدّده فلحق بطغركين صاحب دمشق صريخاً وكان طغركين مستوحشاً لاتهامه بأمر مودود فاتفقا على الاستنجاد وبعثا بذلك الى صاحب انطاكية فجاء اليهما قرب حمص ، وتحالفا وعاد الى انطاكية . وسار ابو الغازي الى ديار بكر في خف من اصحابه فأعترضه قيرجان صاحب حمص فظفر به واسره وبعث الى السلطان بخبره ، وابطأ عليه وصول جوابه فيه .وجاء طغركين الى حمص

فدخل على قيرجان والح عليه بقتل ابي الغازي ثم اطلقه قيرجان واخذ عليه .

وسار ابو الغازي الى حلب وبعث السلطان العساكر مع يوسف بن برسق صاحب همذان وغيره من الامراء لقتال ابي الغازي ، وقتال الافرنج بعده فساروا الى حلب وبها لؤلؤ الخادم ، مولى رضوان بن تُتش ، كفل ابنه البأرسلان بعد موته ، ومعه مقدم العساكر شمس الخواص فطالبوهما بتسليم حلب بكتاب السلطان اليهما في ذلك .

وبادر ابو الغازي وطغركين فدخلا اليها فامتنعت عليهما فساروا الى حماة من اعمال طغركين ، وبها ذخائره ففتحوها عنوة ونهبوها ، وسلموها الى الامير قيرجان صاحب حمص فأعطاهم اياز بن ابي الغازي وكان أبو الغازي وطغركين وشمس الخواص ساروا الى روجيل صاحب انطاكية يستنجدونه على حفظ حماة وجاءهم هنالك بغدوين صاحب القدس ، والقمص صاحب طرابلس وغيرهما . واتفقوا على مطاولة العساكر ليتفرّقوا عند هجوم الشتاء ،واجتمعوا عند قلعة أفامِية فلم تبرح العساكر مكانها فأفترقوا وعاد طغركين الى دمشق وأبو الغازي الى ماردين والافرنج الى بلادهم . ثم كان أثر ذلك فتح كفرطاب على المسلمين ، واعتزموا على معاودة حلب فاعترضهم روجيل صاحب انطاكية ، وقد جاء في خمسمائة فارس مدداً للافرنج في كفرطاب فانهزم المسلمونِ ، وكان تمحيصهم،ورجع برسق أمير العساكر وأخوه منهزمين

الى بلادهم . وكان اياز بن ابي الغازي اسيراً عندهم فقتله الموكلون به يوم المعركة سنة تسع وخمسمائة ، والله تعالى أعلم .

استيلاء أبي الغازي على حلب

كان رضوان بن تتش صاحب حلب لما توفي سنة سبع وخمسمائة ، قام بأمر دولته لؤلؤ الخادم . ونصب ابنه البأرسلان في ملكه . ثم استوحش منه ونصب مكانه اخاه سلطان شاه واستبدّ عليه . ثم سار لؤلؤ الخادم الى قلعة جعبر سنة احدى عشرة [1] بينه وبين مالك بن سالم بن بدران فغدر به مماليك الاتراك وقتلوه عند خرت برت ، واستولوا على خزائنه . واعترضهم اهل حلب واستنقذوا منهم ما أخذوه وولي شمس الخواص اتابك مكان لؤلؤ . ثم عُزِلَ لشهر وولي ابو المعالي بن الملحي الدمشقي . ثم عزل وصودر واضطربت الدّولة ، وخشي أهل حلب على بلدهم من الافرنج فاستدعوا أبا الغازي بن ارتق من ماردين وسلموا له البلد . وانقرض ملك آل رضوان ابن تُتش منها فلم يملكها بعد واحد منهم . ولما ملكها لم يجد فيها مالاً فصادر جماعة من الخدم ، وصانع الافرنج بمالهم . ثم سار الى ماردين بغية العودة الى حمايتها واستخلف عليها ابنه حسام الدين تمرتاش

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٢٧٨ : سار منها إلى قلعة جعبر ليجتمع بالأمير سالم بن مالك صاحبها.

واقعة أبي الغازي مع الافرنج

ولما استولى ابو الغازي على حلب وسار عنها طمع فيها الافرنج ، وساروا اليها فملكوا مراغة وغيرها من اعمالها ، وحاصروها فلم يكن لاهلها بدّ من مدافعتهم بقتال او بمال فقاسموهم املاكهم التي بضاحيتها في سبيل المصانعة . وبعثوا الى بغداد يستغيثون فلم يغاثوا . وجمع أبو الغازي من العساكر والمتطوِّعة نحواً من عشرين الفاً . وسار بهم الى الشام سنة ثلاثة عشرة ، ومعه اسامة بن مبارك بن منقذ الكناني ، وطغان أرسلان ابن اسكين بن جناح صاحب ارزن الروم. ونزل الافرنج قريباً من حصون الاماري في ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل ونزلوا في تل عفرين حيث كان مقتل مسلم بن قريش ، وتحصنوا بالجبال من كل جهة الا ثلاث مسارب فقصدهم ابو الغازي ، ودخل عليهم من تلك المسارب ، وهم غارّون فركبوا وصدقوا الحملة فالقوا عساكر المسلمين متتابعة فولوا منهزمين ، واخذهم السيف من كل جهة فلم يفلت ألاّ القليل ، واسر من زعمائهم سبعون فاداهم أهل حلب بثلثمائة الف دينار ، وقتل سرجان صاحب انطاكية .

ونجا فلهم من المعركة فاجتمع جماعة من الافرنج وعاودوا اللقاء فهزمهم ابو الغازي ، وفتح حصن الاثارب وزردنا ، وعاد الى حلب فأصلح امورها وعبر الفرات الى ماردين ، وولى على حلب ابنه سليمان. ثم وصل دبيس بن صدقة الى ابي الغازي مستجيراً به . فكتب اليه

المسترشد مع سرير الدولة عبد ابي الغازي [1] بابعاد دبيس . ثم وقع بينه وبين السلطان محمود الاتفاق ورهن ولده على الطاعة ورجع .وسار ابو الغازي الى الافرنج عقب ذلك سنة اربع عشرة فقاتلهم بأعمال حلب وظفر بهم . ثم سار هو وطغركين صاحب دمشق فحاصروا الافرنج بالمثيرة وخشوا من استماتتهم فأفرج لهم ابو الغازي حتى خرجوا من الحصن، وكان لا يطيل المقام بدار الحرب لان اكثر الغزاة معه التركمان يأتون بجراب دقيق وقديد شاة ، فيستعجل العود إن فنيت ازوادهم والله أعلم

انتقاض سليمان بن أبي الغازي بحلب

كان ابو الغازي قد ولى على حلب ابنه سليمان فحمله بطانته على الخلاف على ابيه . وسار اليه ابوه [2] تلقاه ابنه سليمان بالمعاذير فأمسك عنه ، وقبض على بطانته الذين داخلوه في ذلك . وكان متولي كبرها أمير كان لقيطاً لابيه ونشأ في بيته فسمله وقطع لسانه.وكان منهم آخر من أهل حماه قدمه ابو الغازي على أهل حلب فقطعه وسمله فمات وأراد قتل ابنه . ثم ثنته الشفقة عليه ، وهرب الى دمشق وشفع فيه طغركين فلم يشفعه . ثم استخلف على حلب سليمان ابن أخيه عبد الجبار ولقبه

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٢٤٩ : أرسل المسترشد بالله خلعاً مع سديد الدولة ابن الأنباري لنجم الدين أبلغازي وشكره على ما يفعله من غزو الفرنج ، ويأمره بإبعاد دبيس .

(٢) كذا بياض بالأصل : وفي الكامل ج ٨ ص ٣٠٣ : فسمع والده الخبر فسار مجداً لوقته فلم يشعر به سليمان حتى هجم عليه فخرج إليه معتذراً .

بدر الدولة ، وعاد الى ماردين وذلك سنة خمس عشرة ، ثم ابنه حسام الدين تمرتاش مع القاضي بهاء الدولة ابي الحسن الشهرزوري شافعاً في دبيس وضامناً في طاعته فلم يتمّ ذلك . فلما انصرف تمرتاش الى أبيه اقطع السلطان أباه أبا الغازي مدينة ميافارقين ، وكانت لسقمان القطبي صاحب خلاط فتسلمها أبو الغازي ولم تزل في يده الى أن ملكها صلاح الدين بن أيوب سنة ثمانين وخمسمائة ، والله تعالى أعلم

واقعة مالك بن بهرام مع جوسكين صاحب الرها

قد تقدّم لنا أنّ جوسكين من الافرنج كان صاحب الرُها وسروج ، وأنّ مالك بن بهرام كان قد ملك مدينة عانة فسار سنة خمس عشرة الى الرُها ،وحاصرها اياماً فامتنعت عليه ،وسار جوسكين في اتباعه بعد أن جمع الافرنج ، وقد تفرّق عن مالك أصحابه . ولم يبق معه إلاّ اربعمائة فلحقوه في أرض رخوة قد نضب عنها الماء فوحلت فيها خيولهم ،ولم يقدروا على التخلص فظفر بهم أصحاب مالك وأسروهم وجعل جوسكين في اهاب جمل وخيط عليه ، وطلبوا منه تسليم الرُها فلم يفعل ، وحبسه في خرت برت بعد أن بذل في فديته أموالا فلم يفادوه والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده

وفاة أبي الغازي وملك بنيه من بعده

ثم توفي ابو الغازي بن ارتق صاحب ماردين في رمضان سنة ست

عشرة وخمسمائة فولي بعده بماردين ابنـه حسام الدين تمرتاش ، وملك سليمان ميافارقين . وكان بحلب سليمان ابن اخيه عبـد الجبار فاستولى عليها . ثم سار مالك بن بهرام بن ارتق الى مدينة حرّان فحاصرهـا وملكها . وبلغه أن سليمان ابن عمه عبد الجبار صاحب حلب قـد عجز عن مدافعة الافرنج ، واعطاهم حصن الاماري فطمع في ملك بلاده وسار اليها في ربيع سنة ست عشرة ، وملكها من يده على الامان . ثم سار سنة ثمان عشرة الى مَنبِج وحاصرها وملك المدينة ،وحبس صاحبها حسان التغلبي . وامتنع اهلها بالقلعه فحاصرها ، وسمع الافرنج بذلك فساروا اليه فترك على القلعة من يحاصرها ،ونهض اليهم فهزمهم ،واثخن فيهم ، وعاد الى منبج فحاصرها . واصابه بعض الايام سهم غرب فقتله فاضطرب العسكر وافترقوا ، وخلص حسان من محبسه . وكان تمرتاش ابن ابي الغازي صاحب ماردين معه على منبج فلمـا قتل حمل شلوه الى حلب ودفنه بها واستولى عليها . ثم استخلف عليها ، وعاد الى ماردين وجاء الافرنج الى مدينة صور فملكوها ، وطمعوا في غيرها من بلاد المسلمين . ولحق بهم دبيس بن صدقة ناجيـاً من واقعته مع المسترشد فأطمعهم في ملك حلب ،وساروا معه فحاصروها وبنوا عليها المساكن . وطال الحصار وقلت الاقوات ، واضطرب أهل البلد وظهر لهم العجز من صاحبهم ، ولم يكن في الوقت اظهر من البرسقي صاحب الموصل ، ولا اكثر قوة وجمعاً منه فاستدعوه ليدافع عنهم ويملكوه . وشرط عليهم ان يمكنوه من القلعة قبل وصوله . ونزل فيها بوابه وسار . فلما

اشرف على الافرنج ارتحلوا عائدين الى بلادهم.وخرج أهل حلب فتلقوا البرسقي فدخل واستولى على حلب واعمالها ، ولم تزل بيده الى أن هلك وملكها ابنه عز الدين . ثم هلك فولى السلطان محمود عليها أتابك زنكي حسبما يأتي في اخبار دولته . ورجع تمرتاش الى ماردين واستمر ملكه بها وكان مستولياً على كثير من قلاع ديار بكر . استولى سنة اثنتين وثلاثين على قلعة الساج من ديار بكر ، وكانت بيد بعض بني مروان من بقايا ملوك الاولين . وكان هذا آخرهم بهذه القلعة ، وكان ملك ميافارقين قد سار لحسام الدين تمرتاش ، وملكها من يد أخيه سليمان،ولم يزل تمرتاش ملكاً بماردين الى ان هلك سنة سبع واربعين وخمسمائة لاحدى وثلاثين سنة من ملكه ، والله تعالى وليّ التوفيق

وفاة تمرتاش وولاية ابنه البي بعده

ثم توفي حسام الدين تمرتاش سنة سبع واربعين وخمسمائة كما قلنا فملك بعده ابنه بماردين ألبي بن تمرتاش ، وبقي ملكاً عليها الى ان مات وولي بعده ابنه ابو الغازي بن البي الى ان مات . ولم يذكر ابن الاثير تاريخ وفاتها . وقال مؤرّخ حماة : لم يقع الي تاريخ وفاتها

ولاية حسام الدين بولق ارسلان بن أبي الغازي بن البي

ولما توفي ابو الغازي بن البي قام بأمر ملكه نظام الملك البقش ، ونصب للملك مكانه ابنه بولق ارسلان طفلاً ، واستبدّ عليه ، وكان

البقش غالباً على هواه حيث صار أمر الطفل في يده .ولم تزل حالهم على ذلك إلى ان هلك حسام الدين في سنة خمس وتسعين وخمسمائة على عهد بولق هذا وكناه ابن الاثير حسام الدين ناصراً الملك ، قصد العادل ابو بكر ابن ايوب ماردين ، وخشيت ملوك الجزيرة ، ولم يقدروا على منعه . ثم توفي العزيز بن صلاح الدين صاحب مصر ، وولي اخوه الافضل فاستنفر العادل أهل مصر ودمشق وأهل سنجار ، وبعثهم مع ابنه الكامل ، وحاصروا ماردين فبعث اليه البقش المستولي على بولق بالطاعة ، وتسليم القلعة لاجل معلوم على ان يدخل اليهم الاقوات . ووضع العادل ابنه على بابها ان لا يدخلها زائد على القوت فصانعوا الولد بالمال ، وشحنوها بالاقوات . وبينما هم في ذلك جاء نور الدين صاحب الموصل لانجادهم، وقاتلهم فانهزم عساكر العادل ، وخرج اهل القلعة فأوقعوا بعسكر الكامل ابنه فرحلوا جميعاً منهزمين. ونزل حسام الدين بولق الى نور الدين ، ولقيه وشكر وعاد . ونزل نور الدين على دبيس ، ثم رحل عنها قاصداً حوران كما نذكره في اخبار دولته ان شاء الله تعالى ، والله أعلم

وفاة بولق وولاية أخيه أرتق

ولما هلك بولق أرسلان نصب لؤلؤ الخادم بعده للملك اخاه الاصغر ناصر الدين أرتق ارسلان بن قطب الدين أبي الغازي.ولم يذكر ابن الاثير خبر وفاته ايضاً ، وبقي مملكاً في كفالة البقش الى سنة احدى وستمائة، والله أعلم

مقتل البقش واستبداد أرتق المنصور واتصال الملك في عقبه

ثم استنكف أرتق من الحجر ، ومرض البقش سنة احدى وستمائة فجاء أرتق لعيادته ، وقتل لؤلؤاً خادمه في بعض زوايا بيته ، ورجع الى البقش فقتلة في فراشه ، واستقل بملك ماردين، وتلقب المنصور وتوفي سنة ست وثلاثين وثلثمائة[1] وملك بعده ابنه السعيد نجم الدين غازي بن أرتق وتوفي سنة ثمان أو ثلاث وخمسين ، وملك بعده أخوه المظفر قرا أرسلان ابن أرتق فأقام سنة أو بعضها . ثم هلك سنة ثلاث وسبعين وستمائة، وملك بعده أخوه المنصور نجم الدين غازي بن قرا ارسلان الى ان توفي سنة أثنتي عشرة وسبعمائة لاربع وخمسين سنة من ولايته . وملك بعده ابنه المنصور أحمد الى أن توفي سنة تسع وسنين لثلاث سنين من ولايته . ثم ملك بعده ابنه الصالح محمود أربعة أشهر ، وخلعه عمه المظفر فخر الدين داود المنصور أحمد إلى أن توفي سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وملك بعده ابنه مجد الدين عيسى وهو السلطان بماردين لهذا العهد . والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده

ولما ملك هلاكو بن طلوخان بن جنكز خان مدينة بغداد وأعمالها، أعطاه المظفر قرا ارسلان طاعته ، وخطب له في أعماله ، ولم يزالوا يدينون بطاعة بنيه الى أن هلك أبو سعيد بن خربهر آخر ملوك التتر ببغداد سنة سبع وثلاثين فقطعوا الخطبة لهم ، واستبدّ أحمد المنصور

(١) كذا بالأصل، ويقتضي أن تكون: وستمائة حسب سير الحوادث.

منهم وهو الثاني عشر من لدن أبي الغازي جدّهم الاوّل

وأمّا داود بن سقمان فانه ملك حصن كيفا من بعد سقمان ابيه وابراهيم أخيه ، ولم أقف على خبر وفاته

وملك بعده ابنه فخر الدين قرا أرسلان بن داود ، وملك اكثر ديار بكر مع حصن كيفا . وتوفي سنة اثنتين وستين وخمسمائه

وملك بعده ابنه نور الدين محمد بعهده اليه بذلك ، وكانت بينه وبين صلاح الدين مواصلة ومظاهرة . ظاهر صلاح الدين على الموصل على أن يظاهره على آمد فظاهره صلاح الدين ، وحاصرها من صاحبها إبن سنان سنة تسع وستين ، وصارت من أعمال نور الدين كما نذكر في دولة صلاح الدين . ثم توفي نور الدين محمد سنة احدى وثمانين وخلف ولدين : فملك الأكبر منهما قطب الدين سقمان ، واقام بتدبير دولته العوام ابن سماق الاسعد وزير أبيه ، وكان عماد الدين أخو نور الدين هو المرشح للامارة ، الا أنه سار في العساكر مدداً لصلاح الدين على حصار الموصل . فلما بلغه الخبر بوفاة أخيه سار لملك البلد لصغر أولاد أخيه نور الدين فلم يظفر واستولى على خرت برت فانتزعها منهم وملكها وأورثها بنيه . فلما أفرج صلاح الدين عن الموصل لقيه قطب الدين سقمان ، واقره على ملك أبيه بكيفا ، وأبقى بيده آمد التي كان ملكها لابيه ، وشرط عليه مراجعته في أحواله والوقوف عند أوامره . وأقام أميراً من أصحاب ابنه قرا ارسلان اسمه صلاح الدين فقام بأمور دولته . واستقرّ ملكه بكيفا وآمد وما اليها ، الى أن توفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، تردّى من

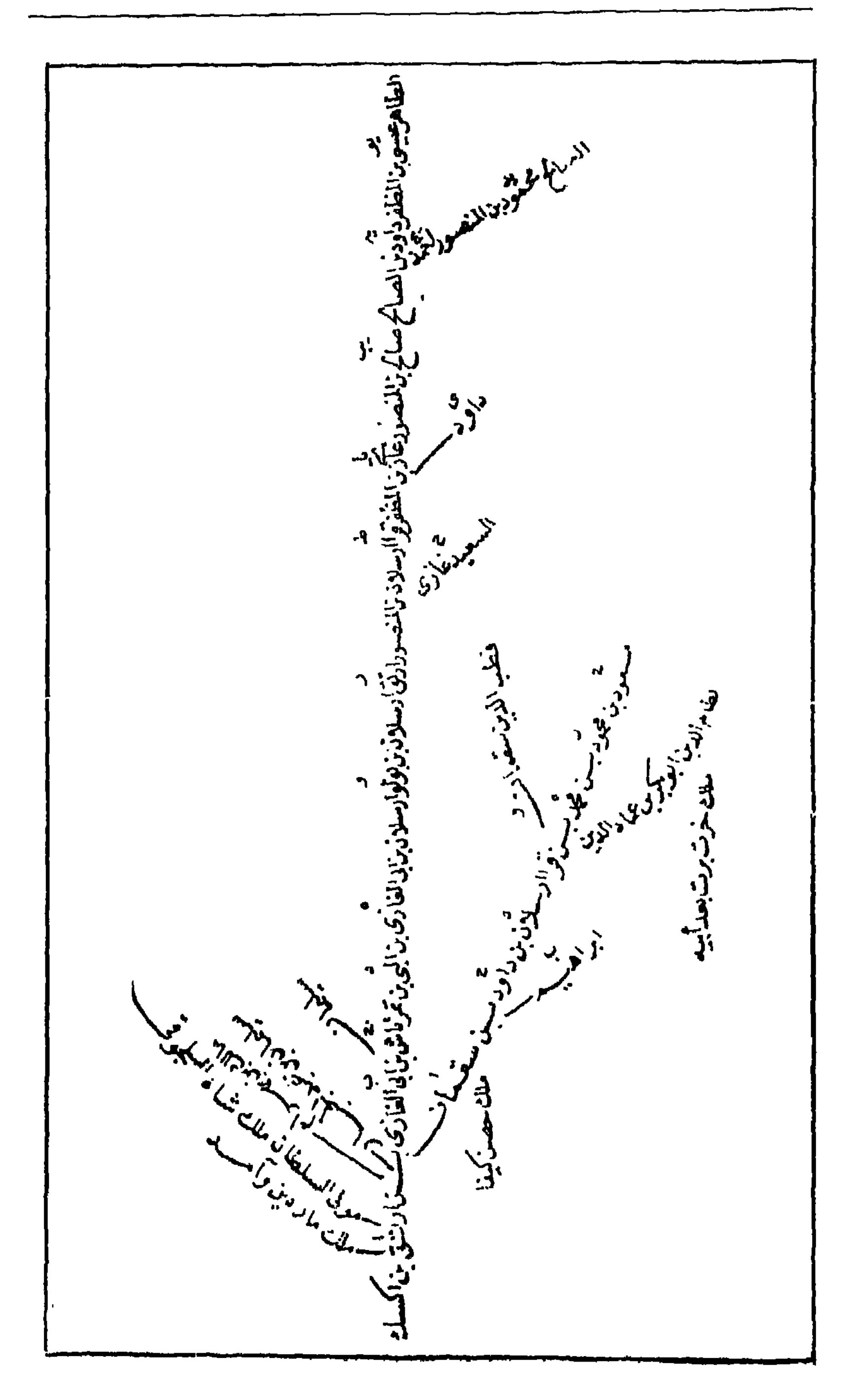
جوسق له بحصن كيفا فمات . وكان أخوه محمود مرشحاً لمكانه ، إلا أن قطب الدين سقمان كان شديد البغضاء له ، واشخصه الى حصن منصور من آخر عملهم ، واصطفى مملوكه اياساً وزوجه باخته وجعله ولي عهده

ولما توفي ملك بعده مملوكه ،وشخص أهل الدولة فدسوا الى محمود فسار الى آمد ، وسبقه اياس اليها ليدافعه فلم يطق ، وملك محمود آمد واستولى على البلد كلها وحبس اياسا الى أن أطلقه بشفاعة صاحب بلاد الروم ولحق به وانتظم في امرائه ، واستقل محمود بملك كيفا وآمد وأعمالهما ولقب ناصر الدين وكان ظالماً قبيح السيرة ،وكان ينتحل العلوم الفلسفية وتوفي سنة تسعة عشر وستمائة وولي مكانه المسعود ، وحدثت بينه وبين الافضل بن عادل فتنة . واستنجد عليه أخاه الكامل فسار في العساكر من مصر ، ومعه داود صاحب الكرك ، والمظفر صاحب حماة فحاصروه بآمد الى أن نزل عنها وجاء الى الكامل فاعتقله فلم يزل عنده حبيساً الى أن مات الكامل فذهب الى التتر فمات عندهم

وأما عماد الدين بن قرا ارسلان الذي ملك خرت برت من يد قطب الدين سقمان ابن أخيه نور الدين فلم تزل في يده الى أن توفي سنة احدى وستمائة لعشرين سنة من ملكه اياها . وملكها بعده ابنه نظام الدين أبو بكر ، وكانت بينه وبين ناصر الدين محمود ابن عمه نور الدين صاحب آمد وكيفا عداوة . ودخل محمود في طاعة العادل بن أيوب وحضر مع ابنه الاشرف في حصار الموصل على أن يسير معه بعدها الى خرت برت فيملكها له ، وكان نظام الدين مستنجداً به .

[1] الدين قليج ارسلان صاحب بلاد الروم فمات وسار الاشرف مع محمود بعساكره وحاصروا خرت برت في شعبان سنة احدى وستين وملكوا ربضها . وبعث غياث الدين صاحب الروم الى نظام الدين المدد بالعساكر مع الافضل بن صلاح الدين صاحب سميساط ، فلما انتهوا الى ملطية أفرج الاشرف ومحمود عن خرت برت الى بعض حصون نظام الدين بالصحراء ببحيرة سهنين، وفتحت في ذي الحجة سنة احدى وستين فلما وصل الافضل بعساكر غياث الدين ووصل الاشرف عن البحيرة راجعاً . جاء نظام الدين بالعساكر الى الحصن فامتنع عليه، وبقي لصاحب آمد . ثم ملك كيقباد صاحب الروم حصن خرت برت من أيديهم سنة احدى وثلاثين ، وانقرض منها ملك بني سقمان ، والله وارث الارض ومن عليها واليه يرجعون

(١) كذا بياض بالأصل، وهو غياث الدين. كما يتضح من العبارة التي تليها.



دولة بني زنكي بن أقسنقر

الخبر عن حملة بني زنكي بن أقسنقر من موالي السلجوقية بالجزيرة والشام ومبادىء أمورهم وتصاريف أحوالهم

قد تقدّم لنا ذكر اقسنقر مولى السلطان ملك شاه ، وأنه كان يلقب قسيم الدولة . وأن السلطان ملك شاه لما بعث الوزير فخر الدولة ابن جهير سنة سبع وسبعين وأربعمائة بفتح ديار بكر من يد بن مروان ، واستنجد ابن مروان صاحب الموصل شرف الدولة مسلم بن عقيل ، وهزمته العساكر ، وانحصر بآمد فبعث السلطان عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير ليخالف شرف الدولة الى السلطان فلقيه في الرَحبة وأهدى له فرضي عنه ورده الى بلده الموصل . واستولى بنو جهير بعد ذلك على ديار بكر كما مرّ في موضعه من دولة بني مروان . ثم كان بعد ذلك شان حلب ، واستبدّ بها أهلها بعد انقراض دولة بني صالح بن مرداس الكلابي ، وطمع فيها شرف الدولة مسلم بن قريش ، وسليمان ابن قطلمش صاحب بلاد الروم ، وتُتش ابن السلطان ألب أرسلان .

وقتل سليمان بن قطلمش مسلم ابن قريش . ثم قتل تتش سليمان بن قطلمش وجاء الى حلب فملكها ، وامتنعت عليه القلعة فحاصرها . وقد كانوا بعثوا الى السلطان ملك شاه واستدعوه لملكها فوصل اليهم سنة تسع وسبعين ورحل تتش عن القلعة ، ودخل البرية . واستولى السلطان

على حلب ، وولّى عليها قسيم الدولة اقسنقر ، وعاد الى العراق فعمرها أقسنقر وأحسن السيرة فيها، وسار معه تتش حين عهد له اخوه السلطان ملك شاه بفتح بلاد العلوِيّة بمصر والشآم ففتح الكثير منها وهو معه كما مرّ . وزحف قبل ذلك سنة ثمانين الى بني منقذ بشيزر ، فحاصره وضيق عليه . ثم رجع عنه عن صلح ، وأقام بحلب ولم يزل والياً عليها الى أن هلك السلطان سنة خمس وثمانين .

واختلف ولده من بعده ، وكان اخوه تتش قد استولى على الشام منذ سنة احدى وسبعين . فلما هلك اخوه طمع في ملك السلجوقية من بعده فجمع العساكر ، وسار لاقتضاء الطاعة من الامراء معه بالشام ، وقصد حلب فأطاعه قسيم الدولة أقسنقر ، وحمل باغيسيان صاحب انطاكية وتيران صاحب الرُها وحرّان على طاعته حتى يظهر مآل الامر في ولد سيدهم ملك شاه . وساروا مع تتش الى الرحبة فملكها وخطب لنفسه فيها، ثم الى نصيبين ففتحها عنوة ، ثم الى الموصل فهزم صاحبها ابراهيم بن قريش بن بدران ، وتولى كبر هزيمته أقسنقر ، وقتل قريش بن ابراهيم وملك الموصل من يده وولى تتش عليها ابن عمته علي بن مسلم بن قريش . وسار الى ديار بكر فملكها ، ثم الى اذربيجان .

وكان بركيارق ابن ملك شاه قد استولى على الريّ وهمذان وكثير من البلاد فسار لمدافعته ، وجنح قسيم الدولة أقسنقر وبوزان

صاحب الرها الى بركيارق ابن سيدهم فلحقوا به وتركوا تتش فانقلب عائداً الى الشام ساخطاً على اقسنقر وبوزان ما فعلاه، فجمع العساكر وسار الى حلب سنة سبع وثمانين لقتال قسيم الدولة. وأمده بركيارق بالامير كربوقا في العساكر فبرزوا الى لقائهم، والتقوا على ست فراسخ من حلب. ونزع بعض عساكر أقسنقر الى تتش فاختل مصافه، وتمت الهزيمة عليه وجيء به أسيراً الى تتش فقتله صبراً.

ولحق كربوقا وبوزان بحلب، وتبعهما فحاصرهما وملكها وأخذهما اسيرين كما مرّ في اخبار الدولة. وكان قسيم الدولة حسن السياسة كثير العدل، وكانت بلاده آمنة. ولما مات نشأ ولده في ظل الدولة السلجوقيّة. وكان أكبرهم زنكي فنشأ مرموقاً بعين التجلة. ولما ولي كربوقا الموصل من قبل بركيارق أيام الفتنة بين بركيارق وأخيه محمد، كان زنكي في جملته، لأنه كان صاحب أبيه. وسار كربوقا أيام ولايته لحصار آمد وصاحبها يومئذ بعض أمراء التركمان. وأنجده سقمان بن ارتق. وكان زنكي بن اقسنقر يومئذ صبياً، وهو في جملة رجال كربوقا ومعه جماعة من أصحاب أبيه فجلا في تلك الحرب.

وانهزم سقمان وظهر كربوقا. وفي هذه الحرب أسر ابن ياقوتي ابن ارتق وسجنه كربوقا بقلعة ماردين فكان ذلك سبباً لملك بني أرتق فيها كما مرّ في اخبار دولتهم. ثم تتابعت الولاة على الموصل فوليها جكرمس بعد كربوقا، وبعده جاولي سكاوو، وبعده مودود بن ايتكين،

وبعده أقسُنْقُر البرسقي كما تقدم في أخبـار السلجوقية . وولاه السلطان محمد بن ملك شاه سنة ثمان وخمسين ، وبعث معه ابنه مسعوداً. وكتب الى سائر الامراء هناك بطاعته ، ومنهم يومئذ عماد الدين زنكي ابن اقسنقر فاختص به.

ولما ملك السلطان محمود بعد أبيه محمد سنة احـدى عشرة ، كان أخوه مسعود بالموصل ، كما تقدّم أتابكه حيوس بك ونقل البرسقي من الموصل الى شحْنَـة بغداد . وانتقض دبيس ابن صدقة صاحب الحلة على المسترشد والسلطان محمود ، وجمع البرسقي العساكر وقصد الحلة فكاتب دبيس السلطان مسعود وأتابكه حيوس بك بالموصل ، وأغراهما بالمسير الى بغداد فسار لذلك مع السلطان مسعود وزيره فخر الملك وأبو علي بن عمار صاحب طرابلس ، وزنكي بن قسيم الدولة اقسنقر وجماعة من امراء الجزيرة . ووصلوا الى بغداد وصالحهم البرسقي وسار معهم .

ودخل مسعود الى بغداد ، وجاء منكبرس الى بغداد ونزع اليه دبيس بن صدقة . ووقعت الحرب بينهما على بغداد كما تقدم في أخبار الدولة . وأقام منكبرس ببغداد . ثم كان له في خدمة السلطان محمود عند حربه مع أخيـه مسعود مقامات جليلة . وغلب السلطان أخاه مسعوداً ، وأخذه عنده ، واستنزل اتابكه حيوس بك من الموصل ، وأعاد اليها البرسقي سنة خمسة عشر فعاد زنكي الى الاختصاص به كما

مرّ . ثم أضاف اليه السلطان محمود شحنة بغداد ، وولاية واسط مضافة الى ولاية الموصل سنة ستة عشر فولى عليها عماد الدين زنكي فحسن أثره في ولايتها .

ولما كانت الحرب بين دبيس بن صدقة وبين الخليفة المسترشد ، وبرز المسترشد لقتاله من بغداد ، وحضر البرسقي من الموصل وعماد زنكي فانهزم دبيس [1] عماد الدين في ذلك المقام . ثم ذهب دبيس الى البصرة ، وجمع المنتفق من بني عقيل فدخلوا البصرة ونهبوها وقتلوا أميرها . وبعث المسترشد الى البرسقي فعذله في اهماله أمر دبيس ، حتى فعل في البصرة ما فعل فبادر الى قصره ، وهرب دبيس واستولى [2] على البصرة وولى عليها عمادالدين زنكي بن اقسنقر فأحسن حمايتها والدفاع عنها . وكبسَ العرب في حللهم بضواحيها ، وأجفلوا . ثم عزل البرسقي سنة ثمان عشرة عن شحنة بغداد ، وعاد الى الموصل فاستدعى عماد الدين زنكي من البصرة فضجر من ذلك ، وقال كلّ يوم للموصل جديد يستنجدنا . وسار الى السلطان ليكون في جملته فلما قدم عليه باصفهان أقطعه البصرة وأعاده عليها من قبله .

ثم ملك البرسقي مدينة حلب سنة ثمان عشرة وقتل بها سنة تسع عشرة . وكان ابنه عز الدين مسعود بحلب فبادر الى الموصل ، وأقام

---

(١) كذا بياض بالأصل، ويتضح من وقائع هذه المعركة كما ذكرها ابن الأثير في الكامل ج ٨ ص ٣١٠، ٣١١ أن تصويب العبارة ينبغي أن يكون : فانهزم دبيس وأبلى عماد الدين في ذلك المقام .

(٢) أي : واستولى المسترشد على البصرة كما يتضح من العبارة التي بعدها .

ملك أبيه بها ووقع الخلاف بين المسترشد والسلطان محمود ، وبعث الخليفة عفيفاً الخادم الى واسط ليمنع عنها نواب السلطان محمود فسار اليه عماد الدين زنكي من البصره ، وقاتله فهزمه ونمى عفيف الى المسترشد [1] وأقام عماد الدين في واسط وأمره أن يحضر بالعساكر في السفن ، وفي البر فجمع السفن من البصره وشحنها بالمقاتله شاكي السلاح ، وأصعد في البرّ وقدم على السلطان ، وقد تسلحت العساكر فهاله منظرهم ، ووهن المسترشد لما رأى فأجابه الى الصلح .

ولاية زنكي شحنة بغداد والعراق

ولما ظهر من عماد الدين زنكي من الكفاءة والغناء في ولاية البصرد وواسط ماظهر ، ثمّ كان له المقام المحمود مع السلطان محمود على بغداد كما مرّ ولاّه شحنة بغداد والعراق ، لما رأى انه يستقيم اليه في أمور الخليفة ، بعد أن شاور أصحابه فاشاروا به وذلك سنة احدى وعشرين وسار عن بغداد بعد ان ولاّه على كرسي ملكه باصفهان والله تعالى أعلم

---

(١) كذا بالأصل، ويظهر أن هنا عبارة سقطت أثناء النسخ أو الطبع، وفي الكامل ج ٨ ص ٣٢١ وأقام الخليفة بالجانب الغربي، فلما حضر عيد الأضحى خطب الناس وصلى بهم، فبكر الناس لخطبته. وأرسل عفيفاً الخادم وهو من خواصه في عسكر إلى واسط ليمنع عنها نواب السلطان فأرسل السلطان إليه عماد الدين زنكي بن أقسنقر، وكان له حينئذ البصرة. وقد فارق البرسقي واتصل بالسلطان فاقطعه البصرة. فلما وصل عفيف إلى واسط سار إليه عماد الدين فنزل بالجانب الشرقي، وكان عفيف بالجانب الغربي فأرسل إليه عماد الدين يحذره القتال ويأمره بالانتزاح عنها فأبى ولم يفعل، فعبر إليه عماد الدين واقتتلوا فانهزم عسكر عفيف، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر فلهم، وتغافل عن عفيف حتى نجا لمودة كانت بينهما.

ولاية عماد الدين زنكي على الموصل وأعمالها

قد قدّمنا ان عز الدين مسعود بن البرسقي لما قتل الباطنية أباه بالموصل، وكان نائبه بحلب فبادر الى الموصل وضبط أمورها، وخاطب السلطان محموداً فولاه مكان أبيه وكان شجاعاً قرماً فطمع في ملك الشام فسار وبدأ بالرحبة فحاصرها ، حتى استأمن اليه أهل القلعة . وطرقه مرض فمات ، وتفرّقت عساكره ونهب بعضهم بعضاً ، حتى شغلوا عن دفنه . وكان جاولي مولى أبيه مقدّم العساكر عنده فنصب مكانه أخاه الاصغر ، وكاتب السلطان في تقرير ولايته . وارسل في ذلك الحاجب صلاح الدين محمد الباغيسياني ، والقاضي أبا الحسن علي ابن القاسم الشهرزوري فأوصى صلاح الدين صهره جقري فيما جاء فيه . وكان شيعة لعماد الدين زنكي فخوّف الحاجب وحذره مغبة حاله معه

وأشار عليه وعلى القاضي بطلب عماد الدين زنكي، وضمن لهما عنده الولايات والاقطاع . وركب القاضي مع الحاجب الى الوزير شرف الدين أنوشروان ابن خالد . وذكر له حال الجزيرة والشام واستيلاء الافرنج على أكثرها من ماردين الى العريش . وأنها تحتاج الى من يكف طغيانهم ، وابن البرسقي المنصوب بالموصل صغير لا يقوى على مدافعتهم، وحماية البلاد منهم. ونحن قد خرجنا عن العهدة وأنهينا الأمر اليكم فرفع الوزير قولهما الى السلطان فشكرهما، واستدعاهما واستشارهما فيمن يصلح للولاية فذكرا جماعة ، وأدرجا فيهم عماد الدين زنكي ،

وبذلا عنه مالاً جزيلًا لخزانة السلطان فأجابها اليه لما يعلم من كفايته وولاه البلاد كلها وكتب منشوره بها وشافهه بالولاية . وسار الى ولايته فبدأ بالفوارع وملكها . ثم سار الى الموصل ، وخرج جاولي والعساكر للقائه .

ودخل الموصل في رمضان سنة احدى وعشرين وبعث جاولي والياً على الرحبة ، وولى على القلعة نصير الدين جقري . وولى على حجابته صلاح الدين الباغيسياني . وعلى القضاء ببلاده جميعاً بهاء الدين الشهرزوري . وزاد في اقطاعه . وكان لا يصدر إلا عن رأيه. ثم خرج الى جزيرة ابن عمر وبها موالي البرسقي فامتنعوا عليه وحاصرهم. وكان بينه وبين البلد دجلة فعبرها . وبين دجلة والبلد فسيح من الارض فعبر دجلة . وقاتلهم في ذلك الفسيح . وهزمهم فتحصنوا بالأسوار

ثم استأمنوا فدخل البلد وملكه وسار لنصيبين . وكانت لحسام الدين تمرتاش بن أبي الغازي صاحب ماردين فأستنجد عليه ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان صاحب كيفا فوعده بالنجده وبعث حسام الدين بذلك الى أهل نصيبين ، يأمرهم بالمصابرة عشرين يوماً إلى حين وصوله فسقط في أيديهم لعجزهم عن ذلك . واستأمنوا لعماد الدين فأمنهم وملكها وسار عنها لسنجار فامتنعوا عليه أولاً . ثم استأمنوا وملكها . وبعث منها الى الخابور فملك جميعه . ثم سار الي حرّان . وكانت الرُها وسروج والبيرة في جوارها للافرنج وكانوا معهم في

ضيقة فبادر أهل حران الى طاعته . وأرسل الى جوسكين وهادنه حتى يتفرغ له فاستقر بينهما الصلح . والله تعالى أعلم

استيلاء الأتابك زنكي على مدينة حلب

كان البرسقي قد ملك حلب وقلعتها سنة ثماني عشرة . واستخلف عليها ابنه مسعود . ثم قتل الباطنيه البرسقي بالموصل فبادر ابنه مسعود الى الموصل. واستحلف على حلب الامير قرمان . ثم عزله وبعث بولايتها الى الامير قطلغ أبه فنعه قرمان وقال : بيني وبينه علامة لم أرها في التوقيع فرجع الى مسعود فوجده قد [1] الرحبة فعاد الى حلب مسرعاً ومال اليه أهل البلد ورئيسها مضال بن ربيع ، وأدخلوه وملكوه واستنزلوا قرمان من القلعة وأعطوه ألف دينار وبلغوه مامنه

وملك قطلغ القلعة والبلد منتصف احدى وعشرين . ثم ساءت سيرته وفحش ظلمه ، واشتمل عليه اشرار فاستوحش الناس منه ، وثاروا به في عيد الفطر من السنة وقبضوا على أصحابه . وولوا عليهم بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن ارتق الذي كان ملكها من قبل ، وحاصروا قطلغ بالقلعة.ووصل حسان صاحب منبج ، وحسن صاحب مراغة لاصلاح الامر فلم يتمّ . وزحف جوسكين صاحب الرها من الافرنج الى حلب فصانعوه بالمال ، ورجع فزحف صاحب انطاكية

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٣٢٦ : فعاد قطلغ أبه إلى مسعود وهو يحاصر الرحبة فوجده قد مات فعاد إلى حلب مسرعاً.

وحاصر البلد، وهم يحاصرون القلعة الى منتصف ذي القعدة من آخر السنة

وانتهى عماد الدين زنكي الى صاحب حران كما ذكرناه فبعث الى أهل حلب أميرين من أصحابه بتوقيع السلطان له بالموصل والجزيرة والشام فبادروا الى الطاعة . وسار اليه بدر الدولة ابن عبد الجبار وقطلغ أبه . واقام أحد الاميرين بحلب . ولما وصلا الى عماد الدين أصلح بينهما وأقاما عنده . وبعث الحاجب صلاح الدين محمد الباغيسياني في عسكر اليها فملك القلعة ورتب الامور وولى. ثم وصل عماد الدين بعده في محرّم سنة أثنتين وعشرين ، وملك في طريقه منبج من يد حسان ومرَاغة من يد حسن. وتلقاه أهل حلب فاستولى وأقطع أعمالها للأمراء والاجناد ثم قبض على قطلغ أبه وأسلمه الى ابن بديع فكحله ومات واستوحش ابن بديع فلحق بقلعة جعبر مستنجداً بصاحبها ، وأقام عماد الدين مكانه في رياسة حلب علي بن عبد الرزّاق ، وعاد الى الموصل والله أعلم

استيلاء الأتابك زنكي على مدينة حماة

ثم سار عماد الدين زنكي لجهاد الافرنج وعبر الفرات الى الشام . واستنجد تاج الملوك بوري بن طغر كين صاحب دمشق فأنجده بعد التوثق باستحلافه . وبعث عسكره من دمشق الى ابنه سونج وأمره بالمسير الى زنكي فلما وصلوا اليه أكرمهم. ثم غدر بهم بعد أيام، وقبض على سونج والامراء الذين معه فاعتقلهم بحلب ونهب خيامهم ، وبادر الى

حماة وهي خلو من الحامية فملكها ، وسار عنها الى حمص ، وصاحبها قيرجان بن قراجا معه في عساكره وهو الذي أشار بحبس سونج وأصحابه فقبض عليه يظن أن أهل حمص يسلمون بلادهم اليه فامتنعوا وبعث اليهم قيرجان بذلك فلحق اليها فحاصرها مدّة ، وامتنعت عليه ، فعاد الى الموصل ومعه سونج بن بوري والله أعلم

فتح عماد الدين حصن الأثارب وهزيمة الافرنج[1]

ولما عاد عماد الدين الى الموصل أراح عساكره أياماً ثم تجهز سنة أربع وعشرين الى الغزو وعاد الى الشام وقصد حلب ، واعتزم على قصد حصن الاثاب ، وهو على ثلاثة فراسخ من حلب . وكان الافرنج الذين به قد ضيقوا على حلب فسار اليه وحاصره وجاء الافرنج من انطاكية لدفاعه . واستفرغوا فتعهم وترك الحصن وسار اليهم ، واستمات المسلمون فانهزم الافرنج وأسر كثير من زعمائهم ، وقتل كثير حتى بقيت عظامهم ماثلة بذلك الموضع أكثر من ستين سنة . ثم عاد الى حصن الاثارب فملكه عنوةً وخربه ، وتقسم جميع من فيه بين القتل والاسر وسار الى قلعة حارم[2] قرب انطاكية ، وهي للافرنج

---

(١) قال أبو الفداء: ومن الأماكن المشهورة بالشام: الأثارب بالهمزة المفتوحة والثاء المثلثة وألف وراء مهملة موحدة ا هـ.

(٢) حارم بالحاء وبراء مكسورة مهملتين بينهما ألف وميم آخرها، من أعمال حلب، وهي بلدة صغيرة ذات قلعة وأشجار وأعين ونهر صغير. قال ابن سعيد: هو حصن كثير الأرزاق، وقد خص بالرمان الذي يظهر باطنه من ظاهره مع عدم العجم وكثرة المياه ا هـ من أبي الفداء.

فحاصرها حتى صالحوه على نصف خراجها فرجع عنها . وملىء الافرنج رعباً منه ومن استبداد المسلمين به وذهب ما كان عندهم من الطمع .

واقعة عماد الدين مع بني أرتق

ولما فرغ عماد الدين من غزو الافرنج وفتح الاثارب وقلعة حارم عاد الى الجزيرة ، وحاصر مدينة سَرْخَس ، وهي لصاحب ماردين ، بينها وبين نَصيبين فاجتمع حسام الدين صاحب ماردين وركن الدولة صاحب آمد ، وهما لأبي الغازي صاحب ماردين بن حسام الدين تمرتاش بن أبي الغازي وصاحب كيفا ركن الدولة داود بن سُقمان وتمرتاش بن أرْتق . وجمعوا من التركمان نحواً من عشرين ألفاً . وساروا لمدافعة زنكي فهزمهم وملك سرخس وسار ركن الدولة الى جزيرة ابن عمر لينهبها فاتبعه عماد الدين فرجع الى بلده فعاد عنه لضيق مسالكه . وملك من قلاعه هَمْرَد ، ورجع الى الموصل الى آخره

حصول دبيس بن صدقة في أسر الأتابك زنكي

قد تقدم لنا أن دبيس بن صدقة لما فارق البصرة سار الى سرخد من قلاع الشام سنة خمس وعشرين ، باستدعاء الجارية التي خلفها الحسن هنالك ليتزوج بها ، وأنه مر في الغوطة بحي من أحياء كلب فأسروه وحملوه الى تاج الملوك صاحب دمشق . وبلغ الخبر الى الأتابك زنكي . وكان عدواً له فبعث فيه الى تاج الملوك بوري . وفادى من ابنه سونج

والامراء الذين معه عنده فأطلقهم. وبعث بوري اليه بدبيس وهو مستيقن الهلاك فلما وصله أكرمه، وأحسن اليه وأزاح علله. وبعث المسترشد فيه الى بوري ابن طغركين صاحب دمشق فوجده قد فات بتسلمه الى زنكي. فقدّم الرسل زنكي فيما فعله فأرصد لهم في طريقهم وسيقوا اليه وهم: سديد الدولة بن الانباري. وأبو بكر ابن بشر الجزري فحبسهما حتى شفع فيهما المسترشد. وبقي دبيس عنده حتى انحدر معه الى العراق

مسير الأتابك زنكي إلى العراق لمظاهرة السلطان مسعود وانهزامه

ولما توفي السلطان محمود سنة خمس وعشرين. واختلف ولده داود وأخوه مسعود. وسار داود الى مسعود وحاصره بتبريز في محرّم سنة ست وعشرين. ثم صالحه وخرج مسعود من تبريز، واجتمعت عليه العساكر وسار الى همذان، وبعث يطلب الخطبة من المسترشد فمنعه وكتب الأتابك عماد الدين زنكي يستنجده. وسار الى بغداد فحاصرها وكان قد سبق اليها أخوه سلجوق شاه صاحب فارس وخوزستان، مع أتابك قراجا الساقي في عسكر كثير. وأنزله المسترشد بدار السلطان، فلما جاء مسعود ونزل عباسة. وبرز عسكر المسترشد وعسكر سلجوق شاه وقراجا الساقي لمحاربة مسعود أتاهم الخبر بوصول عماد الدين زنكي من ورائهم. وأنه وصل الى المعشوب، فرجع قراجا الساقي الى محاربته، وسار سلجوق شاه بالعساكر الى محاربة أخيه مسعود وأعد قراجا السير. وصبح عماد الدين بعد يوم وليلة على المعشوب وقاتله

وهزمه . واسر كثيراً من اصحابه. وسار زنكي منهزماً الى[1] والنائب بها نجم الدين ايوب بن شادي والد السلطان صلاح الدين فتأخر . ثم اصطلح مع الخليفة على ان يكون العراق له ، والسلطنة لمسعود . وولاية العهد لسلجوق شاه . وذلك منتصف سنة ست وعشرين

مسير الأتابك عماد الدين إلى بغداد بابنه وانهزامه

قد قدمنا ما كان بعد وفاة السلطان محمود من الخلاف بين ابنه داود واخويه مسعود وسلجوق شاه . ثم استقرار مسعود في السلطنة وصلحه مع اخيه سلجوق . على ان يكون ولي عهده . ثم ان السلطان سنجر سار من خراسان يطلب السلطنة لطغرل ابن أخيه السلطان محمود وكان عنده مقيماً فبلغ همذان . وخرج السلطان مسعود وسلجوق شاه للقائه وساروا متباطئين ينتظرون لحاق المسترشد بهم وخرج المسترشد الى[2] فجاءته الاخبار بوصول الأتابك زنكي ودبيس بن صدقة الى بغداد فذكر دبيس ان السلطان سنجر اقطعه الحلة وبعث يسترضي ، فلم يشفعه ، وذكر الأتابك زنكي ان السلطان سنجر ولاه شحنة بغداد . واستمر السلطان مسعود واخوه سلجوق على المسير للقاء سنجر وكانت الهزيمة على مسعود كما مر فعاد المسترشد الى بغداد . ونزل العباسة من الجانب الغربي ولقي الأتابك .

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٢٣٦ : وسار زنكي منهزماً إلى تكريت فعبر فيها دجلة وكان الدوادار بها حينئذ نجم الدين أيوب .

(٢) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل : فلما علم الخليفة بذلك أسرع العود إليها وعبر إلى الجانب الغربي، وسار فنزل بالعباسية ونزل عماد الدين بالمنارية من دجيل والتقيا بحصن البرامكة . سابع عشر رجب .

زنكي ودبيس على حصن البرامكة فهزمهما آخر رجب سنة ست وعشرين ولحق الأتابك بالموصل

واقعة الافرنج على أهل حلب

وفي غيبة الأتابك زنكي سار ملك الافرنج من القدس الى حلب فخرج نائبها عن الاتابك زنكي، وهو الامير اسوار . وجمع التركمان مع عساكره . وقاتل الافرنج عند قنسرين وصابرهم ومحص الله المسلمين وانهزموا الى حلب وسار ملك الافرنج في أعمال حلب ظافراً ثم سار بعض الافرنج من الرُها للغارة في أعمال حلب فخرج اليهم الامير اسوار ، ومعه حسّان التغلبي الذي كان صاحب منبج فأوقعوا بهم ، واستلحموهم وأسروا من بقي منهم وعادوا ظافرين

حصار المسترشد الموصل

ولما وقع ما قدّمناه من وصول زنكي . الي بغداد ، وانهزامه أمام المسترشد حقد عليه المسترشد ذلك وأقام يتربص . ثم كثر الخلاف بين سلاطين السُلجوقية ، واعتزلهم جماعة من أمرائهم فراراً من الفتنة ولحقوا بالخليفة وأقاموا في ظله فأراد الخليفة المسترشد أن ينتصف بهم من الأتابك زنكي ، فقدّم اليه بهاء الدين أبا الفتوح الاسفرايني الواعظ وحمله عتاباً أغلظ فيه ، وزاده الواعظ غلظة حفظاً على ناموس الخلافة في معتقده ، فامتعض الأتابك لما شافهه به وأهانه وحبسه .

وأرسل المسترشد الى السلطان مسعود [١] على قصد الموصل وحاصرها لما وقع من زنكي . ثم سار في شعبان سنة سبع وعشرين الى الموصل في ثلاثين ألف مقاتل . فلما قارب الموصل فارقها الأتابك زنكي الى سنجار ، وترك نائبه بها نصر الدين جقري ، وجاء المسترشد فحاصرها والأتابك زنكي قد قطع الميرة عن معسكره فتعذرت الأقوات ، وضاقت عليهم الأحوال ، وأرادت جماعة من أهل البلد الوثوب بها . وسعى بهم فأخذوا وصلبوا وذام الحصار ثلاثة أشهر ، وامتنعت عليه فأفرج عنها وعاد الى بغداد . وقيل ان مطراً الخادم جاءه من بغداد وأخبره أنّ السلطان مسعودا عازم على قصد العراق ، فعاد مسرعاً

ارتجاع صاحب دمشق مدينة حماة

قد كنا قدّمنا أن الاتابك زنكي تغلب على حماة من يد تاج الملوك بوري بن طغركين صاحب دمشق سنة ثلاث وعشرين ، وأقامت في ملكه أربع سنين . وتوفي تاج الملوك بوري في رجب سنة ست وعشرين ، وولي بعده ابنه شمس الملوك اسمعيل ، وملك بانياس من الافرنج في صفر سنة سبع وعشرين ، ثم بلغه أنّ المسترشد بالله حاصر الموصل فسار هو الى حماة وحاصرها ، وقاتلها يوم الفطر ويومين بعده فملكها عنوةً واستأمنوا فأمنهم . ثم حصر الوالي ومن معه بالقلعه فاستأمنوا أيضا ،

---

(١) كذا بياض، بالأصل وفي الكامل ج ٨ ص ٣٤٠ : فأرسل المسترشد بالله إلى السلطان مسعود يعرفه الحال الذي جرى من زنكي ويعرفه أنه على قصد الموصل وحصرها.

واستولى على ما فيها من الذخائر والسلاح ، وسار منها الى قلعة شيزر فحاصرها ابن منقذ فحمل اليه مالاً صانعه به ، وعاد الى دمشق في ذي الحجة من السنة .

حصار الاتابك زنكي قلعة امد واستيلاؤه على قلعة النسور ثم حصار قلاع الحميدية

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة اجتمع الاتابك زنكي صاحب الموصل وصاحب ماردين على حصار آمد . واستنجد صاحبها بداود بن سقمان صاحب كيفا فجمع العساكر وسار اليها ليدافعها عنه ، وقاتلاه فهزماه ، وقتل كثير من عسكره . وأطالا حصار آمد وقطعا شجرها وكرومها ، وامتنعت عليهما فرحلا عنها. وسار زنكي الى قلعة النسور من ديار بكر فحاصرها وملكها منتصف رجب من السنة . ووفد عليه ضياء الدين أبو سعيد ابن الكفرتوثي فاستوزره الأتابك، وكان حسن الطريقة عظيم الرئاسة والكفاية محبباً في الجند ، وتوفي سنة ست وثلاثين بعدها .

ثم استولى الأتابك على سائر قلاع الاكراد الحميدية ، مثل قلعة العقر ، وقلعة سوس وغيرهما . وكان لما ملك الموصل أمر صاحب هذه القلاع الامير عيسى الحميري على ولايتها . فلما حاصر المسترشد الموصل

قام في خدمته أحسن القيام ، وجمع له الاكراد . فلما عاد المسترشد الى بغداد من قتال الأتابك زنكي حاصر قلاعهم وحاصرتها العساكر وقاتلوها قتالاً شديداً حتى ملكوها في هذه السنة ، ورفع الله شرهم عن أهل السواد المحاربين لهم ، فقد كانوا منهم في ضيقة من كثرة عيثهم في البلاد وتخريبهم ، والله تعالى اعلم .

استيلاء الأتابك على قلاع الهكارية وقلعة كواشي

حدّث ابن الاثير عن الجنيبي أنّ الأتابك زنكي لما ملك قلاع الحميدية وأجلاهم عنها ، خاف أبو الهيجاء بن عبد الله على قلعة أشب والجزيرة وكواشي فاستأمن الاتابك واستحلفه ، وحمل له مالاً . ثم وفد عليه بالموصل بعد أن اخرج ابنه أحمد من أشب خشية أن يغلب عليها ، وأعطاه قلعة كواشي وولى على أشب رجلًا من الكرد ، واسمه باد الارمني . وابنه أحمد هذا هو أبو علي بن أحمد المشطوب من أمراء السلطان صلاح الدين . ولما مات ابو الهيجاء واسمه موسى ، وسار احمد الي اشب ليملكها فأمتنع عليه باد واراد حفظها لعليّ الصغير من بني ابي الهيجاء فسار الاتابك زنكى في عساكره ، ونزل على اشب ، وبرز اهلها لقتاله . واستجر هم حتى ابعدوا ، ثم كرّ عليهم فأفناهم قتلًا واسراً ، وملك القلعة في الحال .

وسيق اليه باد في جماعة من مقدّمي الاكراد ، وقتلهم ، وعاد الى

الموصل . ثم سار غازيا في بعض مذاهبه فبعث نائبه نصر الدين جقري عسكراً ، وخلى كنجا، ورسى في قلعة العمادية ، وحاصروا قلعة الشغبان وفرح و كواشي والزعفراني والغي ّ وسرف وسفروه ، وهي حصون الهكارية فحاربها وملكها جميعاً . واستقام امر الجبل والزورن .

وأمنت الرعية من الاكراد . وأمّا باقي قلاع الهكاريّة وهي حلا وصورا وهزور والملايسي وياسرما ومانزحا وباكرا ونسر ، فانّ قراجا صاحب العمادية فتحها بعد قتل زنكي بمّدة طويلة . كان أميراً على تلك الحصون الهكارية من قبل زين الدين علي ّ ، على ما قال ابن الاثير . ولم أعلم تاريخ فتح هـذه القلاع فلهذا ذكرته هنا .

قال وحدّثني بخلاف هـذا الحديث بعض فضلاء الاكراد . أنّ أبا بكر زنكي ، لما فتح قلعة أسب وحرساني وقلعة العمادية ، ولم يبق في الهكارية الا صاحب جبل صورا وصاحب هزوز ، ولم يكن لهما شوكة يخشى منهما . ثم عاد الى الموصل وخافه اهل القلاع الجبلية . ثم توفي عبد الله بن عيسى بن ابراهيم صاحب الربية والغي ، وفرح وملكها بعده ابنه علي وكانت أمّه خديجة ابنة الحسن أخت ابراهيم وعيسى ، وهما من الامراء مع زنكي بالموصل فأرسلها ابنها علي الى أخويها المذكورين ، وهما خالاه ليستأمنا له من الأتابك فاستحلفاه ، وقدم عليه فأقرّه على قلاعه ، واستقلّ بفتح قلاع الهكارية .

وكان الشغبان هذا الأمير من المهرانية اسمه الحسن بن عمر فأخذه

منه ، وخربّه لكبره وقلة أعماله . وكان نصر الدين جقري يكره علياً صاحب الريبة والغي وفرح فسعى عند الاتابك في حبسه فأمره بحبسه ثم ندم وكتب اليه أن يطلقه فوجده قد مات فاتهم نصر الدين بقتله . ثم بعث العساكر الى قلعة الرحبية فنازلوها بغتةً وملكوها عنوةً وأسروا ولد علي واخوته ، ونجت أمّه خديجة لمغيبها . وجاء البشير الى الأتابك بفتح الريبة فسره ذلك . وبعث العساكر الى ما بقي من قلاع علي فأبى الا أن يزيدوه قلعة كواشي ، فمضت خديجة أم علي الى صاحب كواشي من المهرانية ، واسمه جرك راهروا وسألته النزول عن كواشي لاطلاق اسراهم ففعل ذلك ، وتسلم زنكي القلاع ، وأطلق الاسرى ، واستقامت له جبال الاكراد ، والله تعالى أعلم .

حصار الأتابك زنكي مدينة دمشق

كان شمس الملوك اسمعيل بن بوري قد انحلّ أمره وضعفت دولته، واستطال عليه الافرنج ، وخشي عاقبة أمرهم فأستدعى الاتابك زنكي سراً ليملكه دمشق ويريح نفسه . وشعر بذلك أهل دولته فشكوا الى أمّه فوعدتهم الراحة منه ، ثم اغتالته فقتلته . وجاء الاتابك زنكي فقدم رسله من الفرات فألفوا شمس الملوك قد مات ، وولي مكانه أخوه محمود ، واشتمل أهل الدولة عليه ورجعوا الخبر الى الاتابك فلم يحفل به . وسار حتى نزل بظاهر دمشق واشتدّ أهل الدولة على مدافعته ومقدمهم معين الدين أبربوه أتابك طغركين . ثم

بعث المسترشد أبا بكر بن بشر الجزري الى الأتابك زنكي فامره بصلح صاحب دمشق فصالحه ، ورحل عنه منتصف السنة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

فتنة الراشد مع السلطان مسعود ومسيره الى الموصل وخلعه

كان كثير من أمراء السلجوقية قد اجتمعوا على الانتقاض على السلطان مسعود والخروج عليه . ولحق داود ابن السلطان محمود من أذربيجان ببغداد في صفر سنة اثنين وثلاثين ، فأنزل بدار السلطنة ، وراسله أولئك الامراء . وقدم عليه بعضهم مثل صاحب قزوين ، وصاحب أصفهان ، وصاحب الأهواز وصاحب الأيلة وصاحب الموصل الأتابك زنكي . وخرجت اليهم العساكر من بغداد ، وولي داود شحنية بغداد وخرج موكب الخليفة مع الوزير جلال الدين الرضي ، وكان الخليفة قد تغير عليه وعلى قاضي القضاة الزينبي ، فسمع بهم الاتابك . ثم وقعت العزيمة من الراشد والسلطان داود والأتابك زنكي ، وحلف كل منهم لصاحبه وبعث الراشد الى الاتابك بمائتي ألف دينار . ووصل سلجوق شاه الي واسط وقبض على الأمير بك أبه ، ونهب ماله فانحدر الأتابك زنكي لمدافعته فاصطلحا ، وعاد زنكي الي بغداد ، ومر على جميع العساكر لقتال السلطان مسعود .

وخرج علي طريق خراسان ، وبلغهم أن السلطان مسعوداً سار

الى بغداد فعاد اليها ثم عاد الملك داود ، وجاء السلطان مسعود فنزل على بغداد وحاصرهم نيفاً وخمسين يوماً ، وارتحل الى النهروان . ثم قدم عليه طرنطاي صاحب واسط بالسفن فرجع الى بغداد، وعبر الى الجانب الغربي . ثم اختلف العسكر ببغداد ، ورجع الملك داود الى ولايته باذربيجان . وافترق الأمراء الذين معه ، ولحق الراشد بالاتابك زنكي في نفر من أصحابه ، وهو بالجانب الغربي . وسار معه الى الموصل ، ودخل السلطان مسعود الى بغداد منتصف ذي القعدة سنة ثلاثين ، واستقرّ بها وسكن الناس . وجمع القضاة والفقهاء ، وعرض عليهم يمين الراشد بخطه ، بأنه متى جمع أو خرج لحرب السلطان فقد خلع نفسه فأفتوا بخلعه .

ثم وقعت الشهادات من أهل الدولة وغيرهم الى الراشد بموجبات العزل وكتبت ، وأفتى الفقهاء عقبها باستحقاق العزل، وحكم به القاضي المعين حينئذ لغيبة قاضي القضاة بالموصل مع الراشد ، ونصب للخلافة [(١)] ابن المستظهر. وجاء رسول الاتابك زنكي الى بغداد، وهو القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري وبايع [(٢)] بعد أن ثبت

---

(١) كذا بياض، وهو الأمير أبو عبد الله بن المستظهر ـ قبل الخلافة ـ ولقب بعد الخلافة المقتفي لأمر الله، الكامل ج ٨ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

(٢) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٨ ص ٣٥٤: وبلغني أن السلطان مسعوداً أرسل الخليفة المقتفي لأمر الله في تقرير إقطاع يكون لخاصته فكان جوابه: إن في الدار ثمانين بغلاً تنقل الماء من دجلة فلينظر السلطان ما يحتاج إليه من يشرب هذا الماء ويقوم به فتقررت القاعدة على أن يحمل له ما كان للمستظهر بالله فأجاب إلى ذلك. وقال السلطان لما بلغه قوله: لقد جعلنا في الخلافة رجلاً عظيماً.

عنده الخلع ، وانصرف الى الأتابك باقطاع من خاص الخليفة ، ولم يكن ذلك لاحد قبله . وعاد كمال الدين الى الأتابك ، وحمل كتب الخلع فحكم بها قاضي القضاة بالموصل ، وانصرف الراشد عن الموصل الى اذربيجان كما مرّ في أخبار الخلفاء والسلجوقية ، والله تعالى وليّ التوفيق .

غزاة عساكر حلب الى الافرنج

ثم اجتمعت عساكر حلب [1] مع الامير اسوار نائب الاتابك زنكي بحلب في شعبان سنة ثلاثين ، وساروا غازين الى بلاد الافرنج وقصدوا اللاذقية على غرة فنالوا منها ، وانساحوا في بسائطها واكتسحوها ، وامتلأت أيديهم من الغنائم ، وخربوا بلاد اللاذقية وما جاورها وخرجوا على شيزر وملؤا الشام بالاتراك والظهر ووهن الافرنج لذلك . والله سبحانه وتعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده .

حصار الاتابك زنكي مدينة حمص واستيلاؤه على بغدوين وهزيمة الافرنج واستيلاؤه على حمص

ثم سار الاتابك في العساكر في شعبان سنة احدى وثلاثين الى مدينة حمص ، وبها يومئذ معين الدين بن القائم بدولة صاحب دمشق

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل: في هذه السنة في شعبان اجتمعت عساكر أتابك زنكي صاحب حلب وحماة مع الأمير أسوار نائبه بحلب وقصدوا بلاد الفرنج على حين غفلة .

وحمص من أقطاعـه ، فقـدم اليـه صاحبه صلاح الدين الباغيسياني في تسليمها فاعتذر بأنّ ذلـك ليس من الاصابة فحاصرها والرسل تردّد بينهما ، وامتنعت عليه فرحل عنها الى بغدوين من حصون الافرنج في شوّال من السنة فجمع الافرنج ، وأوعبوا وزحفوا اليـه واشتدّ القتال بينهم . ثم هزم الله العدوّ ونجا المسلمين منهم ، ودخل ملوكهم الى حصن بغدوين فامتنعوا بـه ، وشـدّ الاتابك حصاره . وذهب القسوس والرهبـان الى بـلاد النصرانيـة من الروم ، والافرنج يستنجدونهم على المسلمين ، ويخوّفونهم استيـلاء الاتابك على قلعـة بغدوين ، وما يخشى بعد ذلك من ارتجاعهم بيت المقدس .

وجدّ الأتابك بعد ذلك في حصارها والتضييق عليها حتى جهدهم الحصار ومنع عنهم الاخبار . ثم استأمنوا على أن يحملوا اليـه خمسين ألف دينـار فأجابهم وملـك القلعة . ثم سمعوا بمسير الروم والافرنج لانجادهم ، وكان الاتابك خلال الحصار قـد فتح المعـرّة وكفر طاب [(١)] في الولايات التي بين حلب وحماة ووهن الافرنج . ثم سار الأتابك زنـكي في محرّم سنة اثنين وثلاثين الى بعلبك وملك حصن المعدل من أعمال صاحب دمشق . وبعث اليه نائب بانياس بالطاعـة كذلـك . ثم كانت حادثة ملك الروم ومنازلته حلب كما نذكره فسار الى سلمية ولما انجلت حادثة الروم رجع الى حصار حمص وبعث الى محمود صاحب

(١) كذا بياض بالأصل، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على التصويب.

دمشق في خطبة أمه مردخان بنت جاولي التي قتلت ابنها فتزوجها ، وملك حمص وقلعتها . وحملت الخاتون اليه في رمضان ، وظن أنه يملك دمشق بزواجها فلم يحصل على شيء من ذلك . والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده .

مسير الروم الى الشام وملكهم مراغة

ولما استنجد الافرنج ببغدوين ملك أمم النصرانية كما مرّ ، جمع ملك الروم بالقسطنطينية ، وركب البحر سنة احدى وثلاثين ولحقته أساطيله وسار الى مدينة قيليقية فحاصرها ، وصالحوه بالمال وسار عنها الى أدنة والمصيصة ، وهما لابن ليون الأرمني صاحب قلاع الدروب فحاصرهما وملكهما . وسار الى عين زربة فملكها عنوة ، وملك تل حمدون ، ونقل أهله الى جزيرة قبرص . ثم ملك مدينة انطاقية في ذي القعدة من السنة ، وبها ريمند من ملوك الافرنج فصالحه ، ورجع الى بغراس ودخل منها بلاد بن ليون فصالحه بالاموال ودخل في طاعته . ثم خرج الى الشام أول سنة أثنتين وثلاثين ، وحاصر مراغة على ستة فراسخ من حلب ، وبعثوا بالصريخ الى الاتابك زنكي فبعث بالعساكر الى حلب لحمايتها ، وقاتل ملك الروم مراغة فملكها بالامان منتصف السنة .

ثم غدر بهم واستباحهم ، ورحل الى حلب فنزل بدابق ومعه

الافرنج [1] ورجعوا من الغد الى حلب وحاصروها ثلاثاً فامتنعت عليهم وقتل عليها بطريق كبير منهم. ورحل عنها الى قلعة الأثارب في شعبان من السنة فهرب عنها أهلها ، ووضع الروم بها الأسرى والسّبي ، وأنزلوا بها حامية. وبعث اليهم أسوار نائب حلب عسكراً فقتلوا الحامية ، وخلصوا الاسرى والسبي ورحل الأتابك من حصن الاثارب بعد فتحه الى سلمية وقطع الفرات الى الرقة. واتبع الروم فقطع عنهم الميرة وقصد الروم قلعة شيزر ، وبها سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن مُنقذ الكناني فحاصروها ، ونصبوا المجانيق عليها. واستصرخ صاحبها بالاتابك زنكي فسار اليه ، ونزل نهر العاصي بين شيزر وحماة. وبعث السرايا تختطف من حول معسكر الروم.

وبعث الى الروم يدعوهم الى المناجزة والنزول الى البسيط فخاموا عن ذلك ، فرجع الى التضريب بين الروم والافرنج يحذر أحد الفريقين من الآخر ، حتى استراب كل بصاحبه فرحل ملك الروم في رمضان من السنة بعد حصار شيزر أربعين يوماً واتبعه الاتابك فلحقهم واستلحمهم واستباحهم. ثم أرسل القاضي كمال الدين محمد بن عبدالله الشهرزوري الى السلطان مسعود يستنجده على العدوّ ويحذره الروم واستيلاءهم على حلب ، وينحدرون من الفرات الى بغداد فوضع القاضي كمال الدين في جامع القصر من ينادي بصريخ المسلمين والخطيب

---

(١) كذا بالأصل، عبارة مرتبكة. وفي الكامل ج ٨ ص ٣٥٩: ثم رحلوا إلى حلب من الغد في خيلهم ورجلهم فخرج إليهم أحداث حلب فقاتلوهم قتالاً شديداً.

على المنبر، وكذا في جامع السلطان فعظم الصراخ والبكاء، وتسايلت العوام من كلّ جانب، وجاؤا الى دار السلطان في تلك الحالة، وقد وقع العويل والصراخ فعظم الهول على السلطان مسعود وجهز عسكراً عظيما. وخاف القاضي كمال الدين غائلته ثم وصل الخبر برحيل ملك الروم فاخبر القاضي السلطان مسعود بذلك و (١) من مسير العسكر والله تعالى أعلم.

استيلاء الأتابك زنكي على بعلبك

ثم قتل محمود صاحب دمشق سنة ثلاث وثلاثين في شوّال كما مرّ في أخبار دولتهم، وكانت أمّه زمردخان متزوّجة بالاتابك كما مرّ فبعثت اليه وهو بالجزيرة تعرفه بالخبر، وتطلب منه أن يسير الى دمشق ويثأر بولدها من أهل دولته فسار لذلك. واستعدّ أهل دمشق للحصار ثم قصد الاتابك مدينة بعلبك ونزلها. وكان بن القائم بالدولة قد نصب كمال الدين محمد بن بوري بدمشق وتروّج أمّه، وبعث بجاريته الى بعلبك. فلما سار الاتابك الى دمشق قدم رسله الى أنز في تسليم البلد على أن يبذل له ما يريد فأبى من ذلك وسار الاتابك الى بعلبك فنازلها آخر ذي الحجة من السنة، ونصب عليها المجانيق. وشدّد حصارها حتى

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل: وإذا قد وصلني كتاب أتابك زنكي من الشام يخبر جيل ملك الروم ويأمرني بأن لا أستصحب من العسكر أحداً فعرفت السلطان ذلك فقال العسكر تجهزت ولا بد من الغزاة إلى الشام، فأعد الجهد وبذل الحزم له ولأصحابه حتى عاد العسكر.

استأمنوا فلكها.واعتصم الحامية بالقلعة حتي يئسوا من أنز فاستأمنوا الى الاتابك . فلما ملكها قبض عليهم وصلبهم وتزوّج جارية أنز ونقلها الى حلب ، الى أن بعثها ابنه نور الدين محمود الى صاحبها بعد موت الأتابك والله تعالى أعلم .

حصار الأتابك زنكي مدينة دمشق

ثم سار الاتابك زنكي الى حصار دمشق في ربيع الاول من سنة أربع وثلاثين بعد الفراغ من بعلبك فنزل بالبقاع ، وأرسل الى جمال الدين محمد صاحبها في أن يسلمها اليه ، ويعوضه عنها بما شاء فلم يجب الى ذلك فزحف اليه ، ونزل داريا ، والتقت الطلائع فكان الظفر لأصحاب الاتابك . ثم تقدّم الى المصلىّ فنزل بها ، وقاتله أهل دمشق بالغوطة فظفر بهم وأثخن فيهم . ثم أمسك عن القتال عشراً يراود فيها صاحب دمشق . وبذل له بعلبك وحمص وما يختاره من البلاد فجنح الى ذلك ولم يوافقه أصحابه فعادت الحرب . ثم توفي صاحب دمشق جمال الدين محمد في شعبان من السنة ، ونصب معين الدين أنز مكانه ابنه محي الدين أنز وقام بأمره

وطمع زنكي في ملك البلد فامتنعت عليه . وبعث معز الدين أنز إلى الافرنج يستدعيهم الى النصر على الاتابك ، ويبذل لهم ويخوّفهم غائلته ، ويشترط لهم اعانتهم على بانياس حتى يملكوها

فأجاب الافرنج لذلك ، وأجفل زنكي الى حوران خامس رمضان من السنة معتزماً على لقائهم فلم يصلوا فعاد الى حصار دمشق ، وأحرق قراها وارتحل الى بلاده . ثم وصل الافرنج ، وارتحل معين الدين أنز في عساكر دمشق الى بانياس ، وهي للاتابك زنكي ليوفي للافرنج بشرطه لهم فيها . وقد كان نائبها سار للاغارة على مدينة صور ، ولقيه في طريقه صاحب انطاكية ذاهباً الى دمشق منجداً فهزم عسكر بانياس ، وقتلوا ولحق فلهم بالبلد ، وقد وهنوا ، وحاصرهم معين الدين أنز والافرنج وملكها عنوة ، وسلمها للافرنج ، وأحفظه ذلك . وفرّق العسكر في حوران وأعمال دمشق ، وسار هو فصابح دمشق ولم يعلموا بمكانه فبرزوا اليه وقاتلوه ، وقتل منهم جماعة . ثم أحجم عنهم لقلة من معه ، وارتحل الى مرج راهط في انتظار عساكره فلما توافوا عنده عاد الى بلاده

استيلاء الأتابك على شهرزور وأعمالها

كان شهرزور بيد قفجاق بن ارسلان شاه أمير التركمان وصالحهم ، وكانت الملوك تتجافى عن أعماله لامتناعها ومضايقها فعظم شأنه ، واشتمل عليه التركمان وسار اليه الأتابك زنكي سنة أربع وثلاثين فجمع ولقيه فظفر به الاتابك واستباح معسكره ، وسار في اتباعه فحاصر قلاعه وحصونه وملك جميعها . واستأمن اليه قفجاق فأمنه وسار في خدمته وخدمة بنيه بعده الى آخر المائة .

ثم كان في سنة خمس وثلاثين بين الاتابك زنكي وبين داود بن سقمان صاحب كيفا فتنة وحروب . وانهزم داود وملك الاتابك من بلاده قلعة همرد وأدركه [1] فعاد الى الموصل ثم سار الاتابك الى مدينة الحرمية فملكها سنة ست وثلاثين ونقل آل مهارش الذين كانوا بها الى الموصل ، ورتب أصحابه مكانهم . ثم خطب له صاحب آمد، وصار في طاعته بعد أن كان مع داود عليه . ثم بعث الاتابك لسنة سبع وثلاثين عسكراً الى قلعة أشهب ، وهي من أعظم حصون الاكراد الهكارية وأمنعها . وفيها أهلوهم وذخائرهم فحاصرها وملكها ، وأمره الأتابك بتخريبها وبني قلعة العمادية عوضاً عنها ، وكانت خربت قبل ذلك لا تساعها وعجزهم عن حمايها فأعيدت الان . وكان نصير الدين نائب الموصل قد فتح أكثر القلاع الحربية والله تعالى أعلم .

صلح الأتابك مع السلطان مسعود واستيلاؤه على أكثر ديار بكر

كان السلطان مسعود ملك السلجوقية قد حقد على الاتابك زنكي شأن الخارجين على طاعته من أهل الاطراف، وينسب ذلك اليه ، وكان يفعل ذلك مشغلة للسلطان عنه. فلما فرغ السلطان مسعود من شواغله سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، سار الى بغداد عازماً على قصد الاتابك وحصار الموصل فأرسل الاتابك يستعطفه ويستميله، على ان يدفع اليه

(١) هنا بياض بالأصل، ولم نعثر بالمصادر التي بين أيدينا على اسم المكان الذي أدركه به .

مائة الف دينار ويعود عنه فشرع في ذلك ، وحمل منها عشرين الفاً . ثم حدثت الفتنة على السلطان فاحتاج الى مداراته وترك له الباقي ، وبالغ هو في مخالصة السلطان بحيث ان ابنه غازي كان عند السلطان فهرب الى الموصل ، فبعث الى نائبه نصير الدين جقري يمنعه من دخولها وبعث الى ابنه بالرجوع الى خدمة السلطان .

وكتب الى السلطان بان ابني هرب للخوف من تغير السلطان عليه وقد اعدته الى الخدمة ولم ألقه ، وانا مملوكك والبلاد لك فوقع ذلك من السلطان احسن المواقع .ثم سار الأتابك الى ديار بكر ففتح طره واسعرد وحران وحصن الرزق وحصن تطليت وحصن ياسنه وحصن ذي القرنين وغير هذه ، وملك ايضاً من بلاد ماردين [1] الافرنج حملين والمودن وتل موزر وغيرها من بلاد حصون سجستان وانزل بها الحامية وقصد آمد فحاصرها ، وسير عسكراً الى مدينة عانة من اعمال الفرات فملكها والله تعالى اعلم .

فتح الرها وغيرها من أعمال الافرنج

كان الافرنج بالرها وسروج والبيرة قد أضروا بالمسلمين جوارهم ، مثل آمد و نصيبين ورأس العين والرقة وكان زعيمهم ومقدمهم بتلك البلاد جوسكين الزعيم ورأى الاتابك انه يوري عن قصدهم بغيره

(١) هنا بياض بالأصل، ولم نعثر بالمصادر التي بين أيدينا على التصويب.

لئلا يجمعوا له فوري بغزو ديار بكر كما قلناه و [1] جوسكين وعبر الفرات من الرها الى غزنة. وجاء الخبر بذلك الى الاتابك فارتحل منتصف جمادى الاخيرة سنة تسع وثلاثين، وحرّض المسلمين وحثّهم على عدوّهم، ووصل الى الرُها، وجوسكين غائب عنها فانحجز الافرنج بالبلد، وحاصرهم شهراً وشدّ في حصارهم وقتالهم، ولج في ذلك قبل اجتماع الافرنج ومسيرهم اليه. ثم ضعف سورها فسقطت ثلمة منه، وملك البلد عنوة. ثم حاصر القلعة وملكها كذلك. ثم ردّ على أهل البلد ما أخذ منهم وأنزل فيه حامية. وسار الى سروج وجميع البلاد التي بيد الافرنج شرقياً فملكها جميعا إلا البيرة لامتناعها فأقام يحاصرها حتى امتنعت ورحل عنها، والله سبحانه وتعالى أعلم

مقتل نصير الدين جقري نائب الموصل وولاية زين الدين علي كجك مكانه بالقلعة

كان استقرّ عند الاتابك زنكي بالموصل الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمد، ويلقب الخفاجي، وكان شبيهاً به وتوهم [2] السلطان ان البلاد له وأنه نائبه وينتظر وفاة السلطان مسعود فيخطب له ويملك البلد باسمه. وكان يتردّد له ويسعى في خدمته فداخله بعض المفسدين

(١) كذا بياض بالأصل في جميع النسخ ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على تصويب هذه العبارة ومقتضى السياق: فوري بغزو ديار بكر كما قلناه، وخدع جوسكين وعبر الفرات.

(٢) هنا بياض بالأصل، ومقتضى السياق: وتوهم أن يخدع السلطان أن البلاد له.

في غيبة الاتابك ، وزين له قتل نصير الدين النائب ، والاستيلاء على الموصل . فلما دخل اليه أغرى به أجناد الاتابك ومواليه فوثبوا به ، وقتلوه في ذي القعدة سنة تسع وثلاثين . ثم ألقوا برأسه الى أصحابه يحسبون أنهم يفترقون فاعصَوْصَبُوا واقتحموا عليه الدار . ودخل عليه القاضي تاج الدين يحيى ابن الشهرزوري فأوهمه بطاعته ، وأشار عليه بالصعود الى القلعة ليستولي على المال والسلاح فركب وصعد معه ، وتقدم الى حافظ القلعة وأشار عليه بأن يمكنه من الدخول . ثم يقبض عليه فدخل ودخل معه الذين قتلوا نصيرالدين فحبسهم والي القلعة ، وعاد القاضي الى البلد . وطار الخبر الى الاتابك زنكي بحصار البيرة فخشي اختلاف البلد وعاد الى الموصل ، وقدم زين الدين علي ابن كجك ، وولاه القلعة مكان نصيرالدين ، وأقام ينتظر الخبر . وخاف الافرنج الذين بالبيرة من عودته اليهم فبعثوا الى نجم الدين صاحب ماردين ، وسلموها له فملكها المسلمون

حصار زنكي حصن جعبر وفنك

ثم سار الاتابك زنكي سنة احدى وأربعين في المحرّم الى حصن جعبر ، ويسمى دوس وهو مطل على الفرات ، وكان لسالم ابن مالك العقيلي ، أقطعه السلطان ملك شاه لابيه حين أخذ منه حلب وبعث جيشاً إلى قلعة فنك على فرسخين من جزيرة ابن عمر فحاصروها ، وصاحبها يومئذٍ حسام الدين الكردي فحاصر قلعة جعبر حتى توسط

الحال بينهما حسان المنبجي ورغبه ورهبه . وقال في كلامه من يمنعك منه؟ فقال الذي منعك أنت من مالك بن بهرام ، وقد حاصر حسّان منبج فأصابه في بعض الايام سهم فقتله ، وأفرج عن حسان وقدر قتل الاتابك كذلك والله تعالى أعلم

مقتل الأتابك عماد الدين زنكي

كان الاتابك عماد الدين زنكي بن أقسُنقر صاحب الموصل والشام محاصراً لقلعة جعبر كما ذكرنا ، واجتمع جماعة من مواليه واغتالوه ليلًا وقتلوه على فراشه ، ولحقوا بجعبر وأخبروا اهلها فنادوا من السور بقتله . فدخل أصحابه اليه وألفوه يجود بنفسه . وكان قتله لخمس من ربيع الاخر سنة احدى واربعين ، عن ستين سنة من عمره ودفن بالرقة ، وكان يوم قتل ابوه ابن سبع سنين . ولما قتل دفن بالرقة وكان حسن السياسة كثير العدل مهيباً عند جنده . عمر البلاد وأمّنها ، وأنصف المظلوم من الظالم . وكان شجاعاً شديد الغيرة كثير الجهاد . ولما قتل رحل العسكر عن قلعة فنك ، وصاحبها غفار . قال ابن الاثير : سمعتهم يزعمون أن لهم فيها نحو ثلثمائة سنة ، وفيهم رفادة وعصبية ويجيرون كل من يلجأ اليهم والله أعلم .

استيلاء ابنه غازي على الموصل وابنه الآخر محمود على حلب

ولما قتل الاتابك زنكي نزع ابنه نور الدين محمود خاتمه من يده ، وسار به الى حلب فاستولى عليها . وخرج الملك البأرسلان ابن

السلطان محمود ، واجتمعت عليه العساكر ، وطمع في الاستقلال بملك الموصل . وحضر ابنه جمال الدين محمد بن علي بن متولي الديوان ، وصلاح الدين بن محمد الباغيسياني الحاجب ، وقد اتفقا فيما بينهما على حفظ الدولة لاصحابها ، وحسّنا لالب أرسلان ما هو فيه من الاشتغال بلذاته ، وأدخلاه الرقة فانغمس بها . وهما يأخذان العهود على الامراء لسيف الدين غازي ، ويبعثانهم الي الموصل

وكان سيف الدين غازي في مدينة شهرزور ، وهي أقطاعه ، وبعث اليه زين الدين علي كوجك نائب القلعة بالموصل يستدعيه ليحضر عنده . وسار ألب أرسلان الي سنجار ، والحاجب وصاحبه معه ، ودسوا إلى نائبها بأن يعتذر للملك ألب أرسلان بتأخره حتى يملك الموصل ، فساروا الى الموصل ومرّوا بمدينة سنجار وقد وقف العسكر فأشاروا على البأرسلان بعبور دجلة الى الشرق وبعثوا الى سيف الدين غازي بخبره وقلة عسكره ، فأرسل اليه عسكراً فقبضوه وجاؤا به فحبسه بقلعة الموصل . واستولى سيف الدين غازي على الموصل والجزيرة ، واخوه نور الدين محمود على حلب ولحق به صلاح الدين الباغيسياني فقام بدولته ، والله سبحانه وتعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده .

عصيان الرها

ولما قتل الأتابك زنكي ملك الرها جوسكين ، كان جوسكين

مقيماً في ولايته بتل باشر وما جاورها فراسل أهل الرُها ، وعامّتهم من الأرمن ، وحملهم على العصيان على المسلمين ، وتسليم البلد له فأجابوه ، وواعدوه ليوم عينوه فسار في عساكره وملك البلد وامتنعت القلعة . وبلغ الخبر الى نور الدين محمود ، وهو بحلب فأغذّ السير اليها ، وأجفل جوسكين الى بلده . ونهب نور الدين المدينة وسبا اهلها ، وارتحلوا عنها وبعث سيف الدين غازي العساكر اليها فبلغهم في طريقهم ما فعله نور الدين فعادوا ، وذلك سنة احدى واربعين

ثم قصد صاحب دمشق بعد قتل الاتابك حصن بعلبك ، وبه نجم الدين أيوب بن شادي نائب الأتابك فابطأ عليه انجاد بنيه ، فصالح صاحب دمشق ، وسلم له بعلبك على اقطاع ومال اعطاه إياه وعشر قرى من بلاد دمشق وانتقل معه الى دمشق فسكنها وأقام بها ثم سار نور الدين محمود سنه اثنتين وأربعين من حلب الى الافرنج ففتح مدينة أرتاج عنوة وحاصر حُصوناً أخرى . وكان الافرنج بعد قتل الاتابك يظنون أنهم يستردّون ما أخذه منهم فبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون ولما قتل الاتابك زنكي طمع صاحب ماردين وصاحب كيفا أن يستردوا ما أخذ من بلادهم ، فلما تمكن سيف الدين غازي سار الى اعمال ديار بكر فملك دارا وغيرها ، وتقدم الى ماردين وحاصرها وعاث في نواحيها ، حتى ترحم صاحبها حسام الدين تمرتاش على الأتابك مع عداوته . ثم أرسل الى سيف الدين غازي وصالحه ، وزوّجه بنته

فعاد الى الموصل ، وزفت اليه وهو مريض فهلك قبل زفافها ، وتزوجها أخوه قطب الدين من بعده ، والله اعلم

مصاهرة سيف الدين غازي لصاحب دمشق وهزيمة نور الدين محمود للافرنج

كان تقدّم لنا في دولة بني طغركين موالي دقاق بن تُتُش أنّ ملك اللمان من الافرنج سار سنة ثلاث وأربعين ، وحاصر دمشق بجموع الافرنج ، وبها مجير الدين أرتق بن بوري بن محمد بن طغركين في كفالة معين الدين أنزمولى [1]

فبعث معين الدين الى سيف الدين غازي بن أتابك زنكي بالموصل يدعوه الى نصرة المسلمين ، فجمع عساكره وسار الى الشام ، واستدعى أخاه نور الدين من حلب ، ونزلوا على حمص فأخذوا بحجز الافرنج عن الحصار ، وقوي المسلمون بدمشق عليهم . وبعث معين الدين الى طائفتي الافرنج من سكان الشام واللمان الواردين ، فلم يزل يضرب بينهم . وجعل لافرنج الشام حصن بانياس طعمة على أن يرحلوا بملك اللمانيين ففتلوا له في الذروة والغارب ، حتى رحل عن دمشق ، ورجع الى بلاده وراء قسطنطينية بالشمال .

وحسن أمر سيف الدين غازي وأخيه في الدفاع عن المسلمين ، وكان مع ملك اللمان حين خرج الى الشام ابن ادفونش ملك الجلالقة

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٢٠: مملوك جده طغركين، وهو الذي أقام مجير الدين.

بالاندلس ، وكان جدّه هو الذي ملك طرابلس الشام من المسلمين حين خروج الافرنج الى الشام فلما جاء الان مع ملك اللمان ملك حصن العريمة، وأخذ في منازلة طرابلس ليملكها من القمص، فأرسل القمص الى نور الدين محمود ومعين الدين انز وهما مجتمعان ببعلبك بعد رحيل ملك اللمانيين عن دمشق ، واغراهما بابن ادفونش ملك الجلالقة واستخلاص حصن العريمة من يده ، فسارا لذلك سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة .

وبعث الى سيف الدين وهو بحمص فأمدّهما بعسكر مع الامير عز الدين أبي بكر الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر ، وحاصروا حصن العريمة أياماً ، ثم نقضوا سوره وملكوه على الافرنج ، وأسروا من كان به من الافرنج ومعهم ابن ادفونش ، وعاد الى سيف الدين عسكره . ثم بلغ نور الدين ان الافرنج تجمعوا في بيقو من ارض الشام للاغارة على أعمال حلب ، فسار اليهم وقتلهم وهزمهم ، واثخن فيهم قتلا وأسراً ، وبعث من غنائمهم وأسراهم الى أخيه سيف الدين غازي والى المقتفي الخليفة انتهى . والله سبحانه وتعالى أعلم .

وفاة سيف الدين غازي وملك أخيه قطب الدين مودود

ثم توفي سيف الدين غازي بن الأتابك زنكي صاحب الموصل منتصف أربع وأربعين وخمسمائة ، لثلاث سنين وشهرين من ولايته ، وخلّف ولداً صغيراً ربي عند عمه نور الدين محمود . وهلك صغيرا

فانقرض عقبه. وكان كريماً شجاعاً متسع المائدة يطعم بكرة وعشية مائة رأس من الغنم في كل نوبة، وهو أول من حمل الصنجق [1] على رأسه، وأمر بتعليق السيوف بالمناطق، وترك التوشح بها، وحمل الدبوس في حلقة السرج. وبنى المدارس للفقهاء، والربط للفقراء. ولما أنشده حيص بيص الشاعر يمدحه:

إلامَ يراكَ المجد في زيّ شاعرٍ وقد نحلت شوقاً إليك المنابرُ

فوصله بألف مثقال سوى الخلع وغيرها. ولما توفي سيف الدين غازي انتقض الوزير جمال الدين وأمير الجيوش زين الدين علي، وجاؤا بقطب الدين مودود، بادروا الى تمليكه واستخلفوه وخلفوا له. وركب الى دار السلطنة، وزين الدين في ركابه فبايعوا له وأطاعه جميع من في أعمال أخيه بالموصل والجزيرة. وتزوج الخاتون بنت حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين التي هلك أخوه قبل زفافها، فكان ولده كلهم منها والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء السلطان محمود على سنجار

ولما ملك قطب الدين مودود الموصل، وكان أخوه نور الدين محمود بالشام، وكان أكبر منه، وله حلب وحماة، كاتبه جماعة من الامراء بعد اخيه غازي. وفيمن كاتبه نائب سنجار المقدّم

(١) كلمة تركية بمعنى: العلم.

عبد الملك فبادر اليه في سبعين فارساً من أمرائه ، وسبق أصحابه في يوم مطير الى مساكن . ودخل البلد ، ولم يعرفوا منه إلا أنه أمير من جند التركمان . ثم دخل على الشحنة بيته فقبل يده وأطاعه ، ولحق به أصحابه ، وساروا جميعا الى سنجار ، وأغذّ السير فقطع عنه أصحابه ووصل الى سنجار في فارسين ، ونزل بظاهر البلد . وبعث الى المقدّم فوصله ، وكان قد سار الى الموصل . وترك ابنه شمس الدين محمداً بالقلعة فبعث في أثر ابيه وعاد من طريقه ، وسلم سنجار الى نور الدين محمود فملكها .

واستدعى فخر الدين قرى أرسلان صاحب كيفا لمودة بينهما فوصل في عساكره ، وبلغ الخبر الى قطب الدين صاحب الموصل ، ووزيره جمال الدين ، وأمير جيشه زين الدين فساروا الى سنجار للقاء نور الدين محمود ، وانتهوا الى تل اعفر ، ثم خاموا عن لقائه . وأشار الوزير جمال الدين بمصالحته وسار اليه بنفسه فعقد معه الصلح ، وأعاد سنجار على أخيه قطب الدين . وسلم له أخوه مدينة حمص والرَحبَة والشام فانفرد بملك الشام ، وانفرد أخوه قطب الدين بالجزيرة واتفقا . وعاد نور الدين الى حلب ، وحمل ما كان لابيهم الاتابك زنكي من الذخيرة لسنجار ، وكانت لا يعبر عنها ، والله تعالى أعلم

غزو نور الدين الى انطاكية وقتل صاحبها وفتح فاميا

ثم غزا نور الدين سنة أربع وأربعين الى انطاكية فعاث فيها، وخرّب كثيراً من حصونها وبينما هو يحاصر بعض الحصون اجتمع الافرنج وزحفو اليه فلقيهم وحاربهم ، وأبلى في ذلك الموقف فهزم الافرنج وقتل البرنس صاحب انطاكية ، وكان من عتاة الافرنج. وملك بعده ابنه سمند طفلًا ، وتزوجت امه برنس آخر يكفل ولدها ويدبر ملكها فغزاه نور الدين ، ولقوه فهزمهم ، وأسر ذلك البرنس الثاني . وتمكن الطفل سمند من ملكه بانطاكية . ثم سار نور الدين سنة خمس وأربعين الى حصن افاميا بين شيزر وحماة وهو من احسن القلاع فحاصره وملكه ، وشحنه حامية وسلاحاً وأقواتا . ولم يفرغ من امره الا والافرنج الذين بالشام جمعوا وزحفوا اليه . وبلغهم الخبر فخاموا عن اللقاء وصالحوه في المهادنة فعقد لهم انتهى .

هزيمة نور الدين جوسكين وأسر جوسكين

ثم جمع نور الدين بعد ذلك وسار غازيا الى بلاد زعيم الافرنج ، وهي تل باشر وعنتاب وعذار وغيرها من حصون شمالي حلب فجمع جوسكين لمدافعته عنها، ولقيه فاقتتلوا ومحص الله المسلمين ، واستشهد كثير منهم وأسر آخرون ، وفيهم صاحب صلاح نور الدين فبعثه جوسكين الى الملك مسعود بن قليج ارسلان يعيره به ، لمكان صهره

نور الدين على ابنته فعظم ذلك عليه ، وأعمل الحيلة في جوسكين . وبذل المال لاحياء التركمان البادين بضواحيه أن يحتالوا في القبض عليه ففعلوا ، وظفر به بعضهم فشاركهم في اطلاقه على مال ، وبعث من يأتي به . وشعر بذلك والي حلب أبو بكر بن الرامة فبعث عسكراً ليسوا من ذلك الحي جاؤا بجوسكين أسيراً الى حلب وسار نور الدين الى القلاع فملكها ، وهي : تل باشر وعنتاب وعذار وتل خالد وقورص وداوندار ومرج الرصاص وحصن النادة وكفرشود وكفرلات ودلوكا ومرعش ونهر الجود ، وشحنها بالاقوات . وزحف اليه الافرنج ليدافعوه فلقيهم على حصن جلدك . وانهزم الافرنج واثخن المسلمون فيهم بالقتل والاسر ، ورجع نور الدين الى دلوكا ففتحها ، وتأخر فتح تل باشر منها الى أن ملك نور الدين دمشق ، واستأمنوا اليه وبعث اليهم حسّان المنبجي فتسلمها منهم وحصنها ، وذلك في سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، والله سبحانه وتعالى أعلم

استيلاء نور الدين على دمشق

كان الافرنج سنة ثمان وأربعين قد ملكوا عسقلان من يد العلويّة خلفاء مصر ، واعترضت دمشق بين نور الدين وبينها فلم يجد سبيلًا الى المدافعة عنها ، واستطال الافرنج على دمشق بعد ملكهم عسقلان ، ووضعوا عليها الجزية ، واشترطوا عليهم تخيير الاسرى

الذين بأيديهم في الرجوع الى وطنهم ، وكان بها يومئذ مجير الدين أزبن محمد بن بوري بن طغركين الاتابك واهن القوى ، مستضعف القوة . فخشي نور الدين عليها من الافرنج ، وربما ضايق مجير الدين بعض الملوك من جيرانه فيفزع الى الافرنج فيغلبون عليه . وأمعن النظر في ذلك ، وبدأ أمره بمواصلة مجير الدين وملاطفته حتى استحكمت المودة بينهما حتى صار يداخله في اهل دولته ويرميهم عنده أنهم كاتبوه فيوقع الاخر بهم ، حتى هدم أركان دولته ، ولم يبق من امرائه إلا الخادم عطاء بن حفاظ وكان هو القائم بدولته فغص به نور الدين وحال بينه وبين دمشق فأغرى به صاحبه مجير الدين حتى نكبه وقتله .

وخلت دمشق من الحامية فسار حينئذ نور الدين مجاهراً بعداوة مجيرالدولة ومتجنياً عليه . واستنجد بالافرنج على ان يعطيهم الاموال ويسلم لهم بعلبك فجمعوا واحتشدوا . وفي خلال ذلك عمد نور الدين الى دمشق سنة سبع وأربعين ، وكاتب جماعة من احداثها ووعدهم من أنفسهم ، فلما وصل ثاروا بمجير الدين ولجأ الى القلعة . وملك نور الدين المدينة وحاصره بالقلعة ، وبذل له اقطاعاً منها مدينة حمص . فسار اليها مجير الدين ، وملك نور الدين القلعة . ثم عوضه عن حمص ببالس فلم يرضها ، ولحق ببغداد وابتنى بها داراً وأقام بها الى أن توفي ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

استيلاء نور الدين على تل باشر وحصاره قلعة حارم

ولما فرغ نور الدين من أمر دمشق بعث اليه الافرنج الذين في تل باشر في شمالي حلب ، واستأمنوا اليه ومكنوه من حصنهم فتسلمه حسان المنبجي من كبراء امراء نور الدين سنة تسع واربعين . ثم سار سنة احدى وخمسين الى قلعة بهرام بالقرب من انطاكية وهي لسمند أمير انطاكية من الافرنج فحاصرها ، واجتمع الافرنج لمدافعته ، ثم خاموا عن لقائه وصالحوه على نصف أعمال حارم فقبل صلحهم ورحل عنها ، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه

استيلاء نور الدين على شيزر

شيزر هذه حصن قريب من حماة على نصف مرحلة منها على جبل منيع عال لا يسلك اليه الا من طريق واحدة ، وكانت لبني منقذ الكنانيين يتوارثون ذلك من ايام صالح بن مرداس صاحب حلب من أعوام عشرين واربعمائة ، الى أن انتهى ملكه الى المرهف نصر بن علي ابن نصير بن منقذ بعد أبيه أبي الحسن علي . فلما حضره الموت سنة تسعين وأربعمائة عهد لاخيه أبي سلمة بن مرشد ، وكان عالماً بالقراآت والأدب ، وولى مرشداً أخاه الاصغر سلطان بن علي ، وكان بينهما من الاتفاق والملاءمة ما لم يكن بين اثنين . ونشأ لمرشد بنون كثيرون[1]

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٥٤ : فأولد مرشد عدة أولاد ذكور وكبروا وسادوا .

في السؤدد، منهم عز الدولة أبو الحسن علي، ومؤيد الدولة أسامة وولده علي وتعدّد ولده ونافسوا بني عمهم، وفشت بينهم السعايات فتماسكوا لمكان مرشد والتئامه بأخيه. فلما مات مرشد سنة احدى وثلاثين وخمسمائة تنكر اخوه سلطان لولده، وأخرجهم من شيزر فتفرقوا وقصد بعضهم نور الدين فامتعض لهم وكان مشتغلاً عنهم بالافرنج

ثم توفي سلطان وقام بامر شيزر أولاده، وراسلوا الافرنج فحنق نور الدين عليهم لذلك.

ثم وقعت الزلازل بالشام وخرب أكثر مدنه مثل: حماة وحمص وكفرطاب والمعرّة وأفامية وحصن الاكراد وعرقة ولاذقية وطرابلس وانطاكية. هذه سقطت جميعها وتهدمت سنة اثنتين وخمسين، وما سقط بعضه وتهدّمت أسواره فأكثر بلاد الشام. وخشي نور الدين عليها من الافرنج فوقف بعساكره في أطراف البلاد حتى رمّ ما تثلم من أسوارها.

وكان بنو منقذ أمراء شيزر قد اجتمعوا عند صاحبها منهم في دعوة فأصابتهم الزلزلة مجتمعين فسقطت عليهم القلعة، ولم ينج منهم أحد. وكان بالقرب منها بعض أمراء نور الدين فبادر وصعد اليها، وملكها منه نور الدين ورمّ ما تثلّم من أسوارها، وجدد بناءها فعادت كما كانت، هكذا قال ابن الاثير.

وقال ابن خلكان: وفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة استولى بنو

منقذ على شيزر من يد الروم ، والذي تولى فتحها منهم علي بن منقذ بن نصر بن سعد ، وكتب الى بغداد بشرح الحال ما نصه :

كتابي من حصن شيزر حماه الله ، وقد رزقني الله من الاستيلاء على هذا المعقل العظيم ما لم يتأت لمخلوق في هذا الزمان . واذا عرف الامر على حقيقته علم اني هِزَبْرُ هذه الامة ، وسليمان الجن والمردة ، وانا أفرق بين المرء وزوجه ، واستنزل القمر من محله . انا ابو النجم وشعري شعري نظرت الى هذا الحصن فرأيت أمراً يذهل الألباب ، يسع ثلاثة آلاف رجل بالأهل والمال ، وتمسكه خمس نسوة فعمدت الى تل بينه وبين حصن الروم يعرف بالجوّاص ، ويسمى هذا التل بالحصن فعمرته حصناً ، وجمعت فيه أهلي وعشيرتي ونفرت نفرة على حصن الجواص فأخذته بالسيف من الروم ومع ذلك فلما أخذت من به من الروم أحسنت اليهم وأكرمتهم ومزجتهم بأهلي وعشيرتي ، وخلطت خنازيرهم بغنمي ، ونواقيسهم بصوت الأذان . ورأى اهل شيزر فعلي ذلك فأنسوا بي ، ووصل اليّ منهم قريب من نصفهم فبالغت في اكرامهم . ووصل اليهم مسلم بن قريش العقيلي فقتل من أهل شيزر نحو عشرين رجلاً . فلما انصرف مسلم عنهم سلموا اليّ الحصن .

انتهى كتاب علي بن منقذ . وبين هذا الذي ذكره ابن خلكان والذي ذكره ابن الاثير نحو خمسين سنة . وما ذكره ابن الاثير أولى

لأن الافرنج لم يملكوا من الشام شيئا في أوائل المائة الخامسة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

استيلاء نور الدين على بعلبك

كانت بعلبك في يد الضحاك البقاعي ، نسبة الى بقاعة[1]. والان عليها صاحب دمشق . فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك ببعلبك ، وشغل نور الدين عنه بالافرنج . فلما كانت سنة اثنتين وخمسين استنزله نور الدين عنها وملكها ، والله أعلم

استيلاء أخي نور الدين على حران ثم ارتجاعها

كان نور الدين سنة أربع وخمسين وخمسمائة بحلب ، ومعه اخوه الأصغر أمير أميران ، فمرض نور الدين بالقلعة ، واشتد مرضه فجمع أخوه وحاصر قلعة حلب . وكان شيركوه ابن شادي أكبر أمرائه بحمص ، فلما بلغه الازحاف[2] سار الى دمشق ليملكها ، وغليها أخوه نجم الدين ايوب فنكر عليه ، وامره بالمسير الى حلب حتى يتبين حياة نور الدين من موته . فأغذ السير الى حلب ، وصعد القلعة ، واظهر نور الدين للناس من سطح مشرف فافترقوا عن اخيه امير اميران . فسار الي حرّان فملكها . فلما افاق نور الدين سلمها الى زين

(١) كذا بالأصل، وهي : البقاع . وفي الكامل : بقاع بعلبك .
(٢) كذا بالأصل، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على التصويب . والأصح : الزحف .

الدين علي كجك نائب اخيه قطب الدين بالموصل ، وسار الى الرقة فحاصرها ، والله تعالى وليّ التوفيق .

خبر سليمان شاه وحبسه بالموصل ثم مسيره منها الى السلطنة بهمذان

كان الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملك شاه عند عمه السلطان سنجر بخراسان ، وقد عهد له بملكه وخطب باسمه على منابر خراسان . فلما حصل سنجر في أسر العدوّ سنة ثمان وأربعين وخمسمائة كما مرّ في أخبار دولتهم ، واجتمعت العساكر على سليمان شاه هذا ، وقدموه فلم يطق مقاومة العدوّ فمضى الى خوارزم شاه وزوّجه ابنة أخيه . ثم بلغه عنه ما ارتاب له فأخرجه من خوارزم ، وقصد أصفهان فمنعه الشحنة من الدخول فقصد قاشان ، فبعث اليه محمد شاه ابن أخيه محمود عسكراً دافعوه عنها فسار الى خراسان ، فمنعه ملك شاه منها فقصد النجف ، ونزل[1] وأرسل للخليفة المستنصر ، وبعث أهله وولده رهناً بالطاعة واستأذن في دخول بغداد ، فأكرمهم الخليفة[2] وأذن له وخرج ابن الوزير ابن هبيرة لتلقيه في الموكب ، وفيه قاضي القضاة . والتقيا ودخل بغداد ، وخلع عليه آخر سنة خمسين .

وبعد أيام أحضر بالقصر واستخلف بحضرة قاضي القضاة والاعيان ،

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٤٨ : ونزل البندنجين، وأرسل رسولاً إلى الخليفة المقتفي يعلمه بوصوله.

(٢) كذا بالأصل، عبارة مرتكبة . وفي الكامل: فأكرم الخليفة زوجته ومن معها، وأذن له في القدوم فقدم ومعه عسكر خفيف يبلغون ثلاثمائة رجل.

وخطب له ببغداد ، ولقب ألقاب أبيه . وأمر بثلاثة آلاف فارس ، وسار نحو بلاد الجبل في ربيع سنة احدى وخمسين . ونزل الخليفة حُلوان واستنفر له ابن اخيه ملك شاه صاحب همذان ، فقدم اليه في الني فارس ، وجعله سليمان شاه وليّ عهده ، وامدّهما الخليفة بالمال والسلاح ولحق بهما ايلدكز صاحب الريّ فكثرت جموعهم . وبعث السلطان محمد الى قطب الدين مودود صاحب الموصل ، وزين الدين علي كجك نائبه في المظاهرة والانجاد ، وسار الى لقاء سليمان شاه فانهزم وتمزق عسكره . وفارقه ايلدكز فذهب الى بغداد على طريق شهرزور . وبلغ خبر الهزيمة الى زين الدين علي كجك فخرج في جماعة من عسكر الموصل ، وقعد له بشهرزور ، ومعه الامير ايراق حتى مرّ بهم سليمان شاه فقبض عليه زين الدين ، وحمله الى الموصل فحبسه بها مكرماً ، وطير الى السلطان محمود بالخبر .

فلما هلك السلطان محمود بن محمد سنة خمس وخمسين ، ارسل اكابر الامراء من همذان الى قطب الدين اتابك يطلبون تولية الملك سليمان شاه ، ويكون جمال الدين وزير قطب الدين وزيراً له ، وتعاهدوا على ذلك . وجهزه قطب الدين جهاز الملك ، وسار معه زين الدين علي كجك في عسكر الموصل الى همذان . فلما قاربوا بلاد الجبل تتابعت العساكر والامداد للقائهم ارسالاً ، واجتمعوا على سليمان شاه وجروا معه على مذاهب الدولة ، فخشيهم زين الدين على نفسه ، وفارقهم الى الموصل . وسار سليمان شاه الى همذان فكان من أمرهم ما تقدّم في اخبار الدولة السلجوقية .

حصار قلعة حارم وانهزام نور الدين أمام الإفرنج ثم هزيمتهم وفتحها

ثم جمع نور الدين محمود عساكر حلب ، وحاصر الافرنج بقلعة حارم ، وجمعوا لمدافعته ثم خاموا عن لقائه ولم يناجزوه ، وطال عليه أمرها فعاد عنها . ثم جمع عساكره وسار سنة ثمان وخمسين معتزماً على غزو طرابلس ، وانتهى الى البقيعة تحت حصن الاكراد فكبسهم الافرنج هنالك وأثخنوا فيهم . ونجا نور الدين في الفلّ الى بحيرة قطينة قريباً من حمص ، ولحق به المنهزمون . وبعث الى دمشق وحلب في الاموال والخيام والظهر ، وأزاح علل العسكر . وعلم الافرنج بمكان نور الدين من حمص فنكبوا عن قصدها . وسألوه الصلح فامتنع فأنزلوا حاميتهم بحصن الاكراد ورجعوا . وفي هذه الغزاة عزل نور الدين رجلاً يعرف بابن نصري ، تنصح له بكثرة خرجه بصلاته وصدقاته على الفقراء والفقهاء والصوفية والقراء الى مصارف الجهاد فغضب وقال : والله لا أرجو النصر الا بأولئك فانهم يقاتلون عني بسهام الدعاء في الليل . وكيف أصرفها عنهم ، وهي من حقوقهم في بيت المال ذلك شيء لا يحل لي .

ثم أخذ في الاستعداد للاخذ بثأره من الافرنج ، وسار بعضهم الى ملك مصر فأراد أن يخالفهم الى بلادهم ، فبعث الى اخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل ، والى فخر الدين قرا ارسلان صاحب كيفا ، والى نجم الدين ولي صاحب ماردين بالنجدة ، فسار من بينهم

أخوه قطب الدين. وفي مقدمته زين الدين علي كجك صاحب جيشه ثم تبعه صاحب كيفا. وبعث نجم الدين عسكره، فلما توافت الامداد سار نور الدين نحو حارم سنة تسع وخمسين فحاصرها ونصب عليها المجانيق، واجتمع من بقي بالساحل من ملوك الافرنج، ومقدمهم البرنس سمند صاحب انطاكية، والقمص صاحب طرابلس وابن جوسكين، واستنفر لهم أمم النصرانية وقصدوه فأفرج عن حارم الى ارتاج.

ثم خاموا عن لقائه وعادوا الى حصن حارم، وسار في اتباعهم وناوشهم الحرب فحملوا على عساكر حلب، وصاحب كيفا في ميمنة المسلمين فهزموها ومرّوا في اتباعهم. وحمل زين الدين في عساكر الموصل على الصف فلقيه الرجل فأثخن فيهم واستلحمهم، وعاد الافرنج من اتباع الميمنة فسقط في ايديهم. ودارت رحا الحرب على الافرنج فانهزموا، ورجع المسلمون من القتل الى الاسر فأسروا منهم أمماً فيهم سمند صاحب انطاكية والقمص صاحب طرابلس. وبعث السرايا في تلك الاعمال بقصد انطاكية لخلوها من الحامية فأبى وقال: اخشى أن يسلمها أصحابها لملك الروم فان سمند ابن أخته ومجاورته أحق اليّ من من مجاورة ملك الروم. ثم عاج على قلعة حارم فحاصرها وافتتحها ورجع مظفراً، والله يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

فتح نور الدين قلعة بانياس

ولما افتتح نور الدين قلعة حارم أذن لعسكر الموصل وحصن

كيفا بالانطلاق الى بلادهم ، وعزم على منازلة بانياس وكانت بيد الافرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة . ثم ورى عنها بقصد طبرية فصرف الافرنج همتهم الى حمايتها، وخالف هو الى بانياس لقلة حاميتها فحاصرها ، وضيّق عليها في ذي الحجة من سنة تسع وخمسين . وكان معه أخوه نصير الدين أمير أميران فأصيب بسهم في احدى عينيه وأخذ الافرنج في الجمع لمدافعته فلم يستكملوا أمرهم حتى فتحها وشحن قلعتها بالمقاتلة والسلاح . وخافه الافرنج فشاطروه في أعمال طبريّة وضرب عليهم الجزية في الباقي ووصل الخبر بفتح حارم وبانياس الى ملوكهم الذين ساروا الى مصر فسبقهم بالفتح وعاد الى دمشق . ثم سار سنة احدى وستين متجردا إلى حصن المنيطرة فنازلهم على غرّة وملكه عنوة ،ولم يجتمع الافرنج الا وقد ملكه فافترقوا ويئسوا من ارتجاعه ، والله تعالى أعلم .

وفادة شاور وزير العاضد بمصر على نور الدين العادل

صريخا وانجاده بالعسكر مع أسد الدين شيركوه

كانت دولة العلويين بمصر قد أخذت في التلاشي وصارت الى استبداد وزرائها على خلفائها . وكان من آخر المسلمين بها شاور السعدي استعمله الصالح بن زربك [1] على قوص وندم . فلما هلك الصالح بن

(١) كذا بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٧٥ : الصالح بن رزيك.

رزيك وكان مستبداً على الدولة قام ابنه رزيك مقامه فعزل شاور عن قوص فلم يرض بعزله . وجمع وزحف الى القاهرة فلكها ، وقتل رزيك واستبد على العاضد ولقبه أمير الجيوش . وكانت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، ثم نازعه الضرغام ، وكان صاحب الباب ومقدم البرقية فثار عليه لسبعة أشهر من وزارته ، وأخرجه من القاهرة فلحق بالشام ، وقصد نور الدين محمود بن زنكي مستنجداً به على أن يكون له ثلث الجباية بمصر . ويقيم عسكر نور الدين بها مددا له فاختار من أمرائه لذلك أسد الدين شيركوه بن شادي الكردي ، وكان بحمص ، وجهزه بالعساكر فسار لذلك في جمادى سنة تسع وخمسين ، واتبعه نور الدين الى أطراف بلاد الافرنج فشغلهم عن التعرّض للعساكر .

وسار أسد الدين مع شاور ، وسار معه صلاح الدين ابن أخيه نجم الدين أيوب ، وانتهوا الى بلبيس فلقيهم ناصر الدين أخو الضرغام في عساكر مصر فانهزم ورجع الى القاهرة . واتبعه أسد الدين فقتله عند مشهد السيدة نفيسه رضى الله تعالى عنها . وقتل أخوه وعاد شاور الى وزارته . وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ينتظر الوفاء بالعهد من شاور بما عاهد عليه نور الدين فنكث شاور العهد ، وبعث اليه بالرجوع الى بلده فلجّ في طلب ضريبته ، ورحل الى بلبيس والبلاد الشرقية فاستولى عليها . واستمدّ شاور عليه بالافرنج فبادروا الى ذلك لما كان في نفوسهم من تخوّف غائلته ، وطمعوا في ملك مصر .

وسار نور الدين من دمشق ليأخذ بحجزتهم عن المسير فلم يثنهم ذلك ، وتركوا ببلادهم حامية فلما قاربوا مصر فارقها أسد الدين ، واجتمع الافرنج وعساكر مصر فحاصروه ثلاثة أشهر ، يغاديهم القتال ويراوحهم . وجاءهم الخبر بهزيمة الافرنج على حارم ، وما هيأ الله لنور الدين في ذلك فراسلوا أسد الدين شيركوه في الصلح ، وطووا عنه الخبر فصالحهم وخرج ولحق بالشام . ووضع له الافرنج المراصد بالطريق فعدل عنها . ثم أعاده نور الدين الى مصر سنة اثنتين وستين فسار بالعساكر في ربيع ، ونزل اطفيح ، وعبر النيل .

وجاء الى القاهرة من جانبها الغربي ونزل الجيزة في عدوة النيل ، وحاصرها خمسين يوماً . واستمد شاور بالافرنج وعبر الى أسد الدين فتأخر الى الصعيد ، ولقيهم منتصف السنة فهزمهم . وسار الى ثغر الاسكندرية فملكها ، وولى عليها صلاح الدين ابن أخيه ورجع فدوّخ بلاد الصعيد . وسارت عساكر مصر والافرنج الى الاسكندرية ، وحاصروا بها صلاح الدين فسار اليه أسد الدين فتلقوه بطلب الصلح فتمّ ذلك بينهم ، وعاد الى الشام وترك لهم الاسكندرية .

وكاتب شجاع بن شاور نور الدين بالطاعة عنه وعن طائفة من الامراء . ثم استطال الافرنج على أهل مصر وفرضوا عليهم الجزية وانزلوا بالقاهرة الشحنة ، وتسلموا أبوابها واستدعوا ملكهم بالشام الى الاستيلاء عليها فبادر نور الدين ، وأعاد أسد الدين في العساكر

اليها في ربيع سنة أربع وستين فلكها وقتل شاور ، وطرد الافرنج عنها . وقدّمه العاضد لوزارته والاستبداد عليه كما كان من قبله .

ثم هلك أسد الدين وقام صلاح الدين ابن أخيه مكانه ، وهو مع ذلك في طاعة نور الدين محمود . وهلك العاضد فكتب نور الدين الى صلاح الدين يأمره باقامة الدعوة العباسيه بمصر ، والخطبة للمستضيء . ويقال انه كتب له بذلك في حياة العاضد ، وبين يدي وفاته . وهلك لخمسين يوما أو نحوها فخطب للمستضيء العباسي ، وانقرضت الدولة العلوية بمصر ، وذلك سنة سبع وستين كما نأتي على شرحه وتفصيله في دولة بني أيوب ان شاء الله تعالى. ووقعت خلال ذلك فتنة بين نور الدين محمود وبين صاحب الروم قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان سنة ستين وخمسمائة ، وكتب الصالح بن رزيك الى قليج ارسلان ينهاه عن الفتنة ، والله تعالى ولي التوفيق

فتح نور الدين صافيتا وعريمة ومنبج وجعبر

ثم جمع نور الدين عساكره سنة اثنتين وستين ، واستدعى أخاه قطب الدين من الموصل فقدم عليه بحمص ، ودخلوا جميعاً بلاد الافرنج ، ومرّوا بحصن الاكراد واكتسحوا نواحيه . ثم حاصروا عرقة وخربوا جكة [1] وفتحوا العريمه وصافيتا ، وبعثوا سراياهم فعاثت في البلاد .

---

(١) كذا، وفي الكامل ج ٩ ص ٩٦: وحصروا حلبة وأخذوها وخربوها.

ورجعوا الى حمص فأقاموا بها الى رمضان ، وانتقلوا الى بانياس ، وقصدوا حصن حموص [1] فهرب عنه الافرنج فهدم نور الدين سوره وأحرقه. واعتزم على بيروت فرجع عنه اخوه قطب الدين الى الموصل وأعطاه نور الدين من عمله الرَقّة على الفرات .

ثم انتقض بمدينة مَنْبِج غازي بن حسّان. وبعث اليها العساكر فملكها عَنْوَةً ، وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان وبقيت بيده الى أن أخذها منه صلاح الدين بن أيوب . ثم قبض بنو كلاب على شهاب الدين ملك بن علي بن مالك العقيلي صاحب قلعة جعبر ، وكانت تسمى دوس ، ثم سميت باسم جعبر بانيها .

وكان السلطان ملك شاه أعطاها لجدّه عندما ملك حلب كما مرّ في أخباره. ولم تزل بيده ويد عقبه الى أن هلك هذا فخرج يتصيد سنة ثلاث وستين ، وقد أرصد له بنو كلاب فأسروه ، وحملوه الى نور الدين محمود صاحب دمشق فاعتقله مكرماً . وحاوله في النزول عن جعبر بالترغيب تارة وبالترهيب اخرى فأبى [2] وبعث بالعساكر مع الامير فخر الدين محمود بن أبي علي الزعفراني وحاصرها مدة فامتنعت ، فبعث عسكراً آخراً . وقدّم على الجميع الامير فخر الدين أبا بكر

(١) كذا، وفي الكامل: وقصدوا حصن هونين، وهو للفرنج أيضاً من أمنع حصونهم ومعاقلهم.

(٢) كذا بالأصل، العبارة مرتبكة والأسماء محرفة، وفي الكامل: فاعتقله وأحسن لمواليه ورغبة في الإقطاع والمال ليسلم إليه القلعة فلم يفعل فعدل إلى الشدة والعنف، وتهدده فلم يفعل فسير إليها نور الدين عسكراً مقدمه الأمير فخر الدين مسعود بن علي الزعفراني، فحصرها مدة فلم يظفر منها بشيء.

ابن الداية رضيعه وأكبر أمرائه فحاصرها فامتنعت ورجع الى ملاطفة صاحبها فأجاب، وعوّضه نور الدين عنها سروج وأعمالها، وساحة حلب ومَراغة وعشرين ألف دينار. وملك قلعة جعبر سنة أربع وستين، وانقرض أمر بني مالك منها، والبقاء لله وحده.

رحلة زين الدين نائب الموصل الى اربل واستبداد قطب الدين بملكه

قد كان تقدم لنا أن نصير الدين جقري كان نائب الاتابك زنكي بالموصل، وقتل ألب أرسلان ابن السلطان محمود آخر سنة تسع وثلاثين وخمسمائة طمعاً في الملك لغيبه الاتابك فرجع من غيبته في حصار البيرة وقدم مكانه زين الدين علي بن كمستكين بقلعة الموصل فلم يزل بها بقية أيام الاتابك، وأيام ابنه غازي، وابنه الاخر قطب الدين سنة ثمان وخمسين على وزيرهم جمال الدين محمد بن علي بن منصور الأصفهاني فاعتقله، وهلك لسنة من الاعتقال. وحمل الى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتمّ التسليم فدفن بها في رباط هناك أعدّه لذلك. وكانت وفاته أيام سيف الدين غازي بن قطب الدين فولى مكانه جلال الدين أبا الحسن ابنه. وكان زين الدين علي بن كمستكين ويعرف بكجك قد استبدّ في دولة قطب الدين واستقل بحكم الدولة.

وصارت بيده أكثر البلاد اقطاعا مثل: اربل وشهرزور والقلاع التي في تلك البلاد الهكارية. منها: العمادية وغيرها، والحميدية

وتكريت وسنجار . وقد كان نقل أهله وولده وذخائره الى إربل ، وأقام بمحل نيابته من قلعة الموصل فأصابه الكبر ، وطرقه العمى والصمم فعزم على مفارقة الموصل الى كسربيته باربل ، فسلم جميع البلاد التي بيده الى قطب الدين ما عدا اربل . وسار اليها سنة أربع وستين ، وأقام قطب الدين مكانه فخر الدين عبد المسيح خصياً من موالي جدّه الاتابك زنكي ، وحكمه في دولته فنزل بالقلعة وعمرها ، وكان الخراب قد لحقها باهمال زين الدين أمر البناء ، والله تعالى أعلم .

حصار نور الدين قلعة الكرك

ثم بعث صلاح الدين سنة خمس وستين الى نور الدين محمود يطلب انفاذ أبيه نجم الدين أيوب إليه فبعثه في عسكر ، واجتمع اليه خلق من التجار ومن أصحاب صلاح الدين ، وخشي عليهم نور الدين في طريقهم من الافرنج فسارت العساكر الى الكرك ، وهو حصن اختطه من الافرنج البرنس أرقاط واختط له قلعة فحاصره نور الدين ، وجمع له الافرنج فرحل الى مقدمتهم قبل أن يتلاحقوا فخاموا عن لقائه ونكصوا على أعقابهم . وسار في بلادهم فاكتسحها ، وخرب ما مرّ به من القلاع ، وانتهى الى بلاد المسلمين حتى نزل حوشب . وبعث نجم الدين من هنالك الى مصر فوصلها منتصف خمس وستين ، وركب العاضد للقائه .

ولما كان نور الدين بعشير اسار للقاء شهاب الدين محمد بن الياس ابن أبي الغازي بن ارتق صاحب قلعة أكبره . فلما انتهى الى نواحي بعلبك لقي سرية من الافرنج فقاتلهم وهزمهم واستلحمهم ، وجاء بالاسرى ورؤس القتلى الى نور الدين ، وعرف الرؤس مقدم الاستبان[1] صاحب حصن الاكراد ، وكان شجىً في قلوب المسلمين . وبلغه وهو بهذا المنزل خبر الزلازل التي عمت البلاد بالشام والموصل والجزيرة والعراق ، وخربت أكثر البلاد بعمله فسار اليها وشغل في اصلاحها من واحدة الى أخرى حتى أكملها بمبلغ جهده . واشتغل الافرنج بعمارة بلادهم أيضاً خوفاً من غائلته ، والله تعالى أعلم .

وفاة قطب الدين صاحب الموصل وملك ابنه سيف الدين غازي

ثم توفي قطب الدين مودود بن الاتابك زنكي صاحب الموصل في ذي الحجة سنة خمس وستين لاحدى وعشرين سنة ونصف من ملكه ، وعهد لابنه الاكبر عماد الدين بالملك . وكان القائم بدولته فخر الدين عبد المسيح ، وكان شديد الطواعية لنور الدين محمود ، ويعلم ميله عن عماد الدين زنكي بن مودود فعدل عنه الى أخيه سيف الدين غازي ابن مودود بموافقة أمه خاتون بنت حسام الدين تمرتاش بن ابي الغازي ، ولحق عماد الدين بعمه نور الدين منتصراً به . وقام فخر الدين عبد المسيح بتدبير الدولة بالموصل واستبد بها ، والله تعالى اعلم .

---

(١) كذا بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ١٠٦ : فرأى نور الدين في الرؤوس رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الأكراد.

استيلاء نور الدين على الموصل واقراره ابن أخيه سيف الدين عليها

ولما ولي سيف الدين غازي بالموصل بعد ابيه قطب الدين ، واستبدّ عليه فخر الدين عبد المسيح كما تقدّم ، وبلغ الخبر الى نور الدين باستبداده انف من ذلك ، وسار في خف من العسكر ، وعبر الفرات عند جعبر اول سنة ست وستين . وقصد الرقّة فملكها ، ثم الخابور فملك جميعه ، ثم نصيبين وكلاهما من اعمال الموصل . وجاءه هناك نور الدين محمد بن قرا ارسلان ابن داود بن سقمان صاحب كيفا مدداً. ثم سار الى سنجار فحاصرها وملكها وسلمها لعماد الدين ابن اخيه قطب الدين . ثم جاءته كتب الامراء بالموصل فاستحثوه فأغذ السير الى مدينة كلك. ثم عبر الدجلة ونزل شرقي الموصل على حصن نينوى ودِجلة بينه وبين الموصل . وسقطت ذلك اليوم ثلمة كبيرة من سور الموصل .

وكان سيف الدين غازي قد بعث اخاه عز الدين مسعود الى الاتابك شمس الدين صاحب هَمَذان وبلاد الجبل واذربيجان واصفهان والري يستنجده على عمه نور الدين ، فأرسل ايلدكز الى نور الدين ينهاه عن الموصل فأساء جوابه وتوعده ، واقام يحاصر الموصل . ثم اجتمع امراؤها على طاعة نور الدين . ولما استحث فخر الدين عبد المسيح استأمن الى نور الدين على ان يبقي سيف الدين ابن اخيه على ملكها ، فأجابه على ان يخرج هو عنه ، ويكون معه

بالشام . وتم ذلك بينهما ، وملك نور الدين منتصف جمادى الاولى من سنة ست وستين.ودخل المدينة واستناب بالقلعة خصياً اسمه كستكين ولقبه سعد الدين . فأقرّ سيف الدين ابن اخيه على ملكه ، وخلع عليه خلعة ، وردت عليه من الخليفة المستضيء وهو يحاصرها ، وامر ببنا جامع بالموصل فبني وشهر باسمه. وامر سيف الدين ان يشاور كستكين في جميع اموره، واقطع مدينة سنجار لعماد الدين ابن اخيه قطب الدين وعاد الى الشام ، والله تعالى اعلم .

الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين

ثم سار صلاح الدين في صفر سنة تسع وستين من مصر الى بلاد الافرنج غازياً ونازل حصن الشوبك من اعمال [1] واستأمن اليه اهله على ان يمهلهم عشرة ايام ، فأجابهم وسمع نور الدين بذلك فسار من دمشق غازياً أيضاً بلاد الافرنج من جانب آخر ، وتنصح لصلاح الدين اصحابه بأنك ان ظاهرته على الافرنج اضمحلّ امرهم فاستطال عليك نور الدين ، ولا تقدر على الامتناع منه فترك الشوبك وكرّ راجعاً الى مصر . وكتب لنور الدين يعتذر له بأنه بلغه عن بعض سفلة العلويين بمصر انهم معتزمون على الوثوب ، فلم يقبل نور الدين عذره في ذلك ، واعتزم على عزله عن مصر . فاستشار صلاح الدين اباه وخاله

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ١١٢ : ونازل حصن الشوبك، وبينه وبين الكرك يوم، وحصره وضيق على من به من الفرنج .

شهاب الدين الحارمي وقرابتهم ، فأشار عليه تقي الدين عمر بن اخيه بالامتناع والعصيان فنكر عليه نجم الدين ابوه وقال له : ليس منا من يقوم بعصيان نور الدين لو حضر او بعث واشار عليه بان يكاتبه بالطاعة ، وانه ان عزم على اخذ البلاد منك فسلمها ويصل بنفسه .

وافترق المجلس فخلا به ابوه وقال : مالك توجد بهذا الكلام السبيل للامراء في استطالتهم عليك . ولو فعلتم ما فعلتم كنت أول الممتنعين عليه ، ولكن ملاطفته اولى . وكتب صلاح الدين الى نور الدين بما اشار به ابوه من الملاطفة فتركهم نور الدين واعرض عن قصدهم . ثم توفي ، واشتغل صلاح الدين بملك البلاد . ثم جمع نور الدين العساكر وسار لغزو الافرنج بسبب ما اخذوه لاهل البلاد من مراكب التجار ، ونكثوا فيها العهد مغالطين بأنها تكسرت فلم يقبل مغالطتهم. وسار اليهم وبث السرايا في بلادهم نحو انطاكية وطرابلس ، وحاصر هو حِصْنَ عَرْقَة ، وخرّب رَبْضَه ، وارسل عسكراً الى حصن صافيتا وعريمة ففتحهما عنوة وخربهما . ثم سار من عرقة الى طرابلس واكتسح كل ما مرّ عليه ، حتى رجع الافرنج الى الانصاف من انفسهم ، وردّوا ما اخذوا من المكرمين الأعزين ، وسألوا تجديد لهدنة فأجابهم بعد ان خربت بلادهم وقتلت رجالهم وغنمت اموالهم

ثم اتخذ نور الدين في هذه السنة الحمام ... بالشام تطيراً إلى اوعارها

من[1] لاتساع بلاده، ووصول الاخبار بسرعة فبادر الى القيام بواجبه، وأجرى الجرايات على المرتبين لحفظها لتصل الكتب في أجنحتها. ثم أغار الافرنج على حوران من أعمال دمشق، وكان نور الدين ينزل الكسوة فرحل اليهم ورحلوا أمامه الى السواد، وتبعهم المسلمون ونالوا منهم. ونزل نور الدين على عشير وبعث منها سرية إلى أعمال طبرية فاكتسحها، وسار الافرنج لمدافعتهم فرجعوا عنها واتبعهم الافرنج فعبروا النهر، وطمعوا في استنقاذ غنائمهم فقاتلهم المسلمون دونها اشد قتال إلى أن استنقذت، وتحاجزوا ورجع الافرنج خائبين، والله تعالى ينصر المسلمين على الكافرين بمنه وكرمه.

واقعة ابن ليون ملك الأرمن بالروم

كان مليح بن ليون صاحب دروب حلب أطاع نور الدين محمود ابن زنكي، وأمّره على الجمالة وأقطعه ببلاد الشام، وكان يسير في خدمته ويشهد حروبه مع الافرنج أهل ملته. وكان الأرمني أيضاً يستظهر به على اعدائه، وكانت أذنة والمصيصة وطرسوس مجاورة لابن ليون، وهي بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية فتغلب عليها ابن ليون وملكها. وبعث صاحب القُسْطَنْطِينِيَّة منتصف سنة

(١) هنا بياضان بالأصل في جمع النسخ ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على تصويب هذه العبارة. ويدل السياق العبارة بحسب رأينا أن المقصود: ثم اتخذ نور الدين في هذه السنة الحمام الزاجل بالشام لإرسال الأخبار بسرعة ضمن بلاده الواسعة.

ثمان وستين وخمسمائة جيشاً كثيفاً . مع عظيم من بطارقته ، فلقيه ابن ليون بعد أن استنجد نور الدين فأنجده بالعساكر ، وقاتلهم فهزمهم ، وبعث بغنائمهم وأسراهم الى نور الدين ، وقويت شوكة ابن ليون ، ويئس الروم من تلك البلاد ، والله تعالى أعلم .

مسير نور الدين الى بلاد الروم

كان ذو النون بن محمد بن الدانشمند صاحب ملطية وسيواس وأخصرى وقيسارية ملكها بعد عمه باغي أرسلان ، وأخيه ابراهيم بن محمد فلم يزل قليج أرسلان بن محمد بن قليج ارسلان يتخيف بلاده الى أن استولى عليها . ولحق ذو النون بنور الدين صريخا . وأرسل الى قليج ارسلان بالشفاعة في رد بلاده فلم يشفعه ، فسار اليه وملك مـن بلاده بكسور ومهنسا ومرعش ومرزبان وما بينهما في ذي القعدة سنة ثمان وستين . ثم بعث عسكراً إلى سيواس فملكوها . ثم أرسل قليج ارسلان الى نور الدين يستعطفه ، وقد كان يجيز امامه الى قاصية بلاده فأجابه نور الدين الى الصلح على أن ينجده بعسكر الافرنج ، ويبقي سيواس بيـد ذي النون وعسكر نور الدين الذي معه فيها . ورجع نور الدين الى بلاده وبقيب سيواس بيد ذي النون حتى مات نور الدين ، وعاد قليج أرسلان . ثم وصل رسول نور الدين من بغـداد كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري ، ومعه منشور من

الخليفة المستضيء لنور الدين بالموصل والجزيرة وإربل وخلاط والشام وبلاد الروم وديار مضر والله سبحانه وتعالى أعلم .

مسير صلاح الدين الى الكرك ورجوعه

ولما كانت الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين كما قدّمنا ، واعتزم نور الدين على عزله عن مصر ، واستعطفه صلاح الدين كان فيما تقرّر بينهما أنهما يجتمعان على الكرك ، وأيهما سبق انتظر صاحبه فسار صلاح الدين من مصر في شوال سنة ثمان وستين ، وسبق الى الكرك وحاصره . وخرج نور الدين بعد أن بلغه مسير صلاح من مصر ، وأزاح علل العساكر وانتهى الى الرقيم على مرحلتين من الكرك فخافه صلاح الدين على نفسه ، وخشي أن يعذله عند لقائه . وكان استخلف أباه نجم الدين أيوب على مصر فبلغه أنه طرقه مرض شديد فوجد فيه عذراً لنور الدين ، وكرّ راجعاً الى مصر . وبعث الفقيه عيسى بذلك العذر وانّ حفظه مصر أهمّ عليه . فلما وصل مصر وجد أباه قد توفي من سقطة سقطها عن مركوبه ، هزه المرح فرماه ، وحمل الى بيته وقيذاً ومات لأيام قريبة آخر ذي الحجة من السنة .

ورجع نور الدين الى دمشق ، وكان قد بعث رسوله كمال الدين الشهرزوري القاضي ببلاده ، وصاحب الوقوف والديوان لطلب التقليد للبلاد التي بيده مثل مصر والشام والجزيرة والموصل ، والتي

دخلت في طاعته كديار بكر وخلاط وبلاد الروم، وأن يعاد له ما كان لابيه زنكي من الاقطاع بالعراق وهي : صريفين ودرب هرون ، وأن يسوّغ قطعة أرض على شاطىء دجلة بظاهر الموصل يبني فيها مدرسة للشافعية فأسعف بذلك كله .

وفاة نور الدين محمود وولاية ابنه اسماعيل الصالح

ثم توفي نور الدين محمود بن الأتابك زنكي حادي عشر شوّال سنة تسع وستين وخمسمائة لسبع عشرة سنة من ولايته ، وكان قد شرع في التجهز لأخذ مصر من صلاح الدين بن أيوب ، واستنفر سيف الدين ابن أخيه في العساكر مورياً بغزو الافرنج . وكان قد اتسع ملكه وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما ملكها سيف الدولة بن أيوب . وكان معتنياً بمصالح المسلمين مواظباً على الصلاة والجهاد ، وكان عارفاً بمذهب أبي حنيفة ومتحرّياً للعدل ومتجافياً عن أخذ المكوس في جميع أعماله ، وهو الذي حصن قلاع الشام وبنى الأسوار على مدنها مثل : دمشق وحمص وحماة وشيزر وبعلبك وحلب ، وبنى مدارس كثيرة للحنفيّة والشافعيّة وبنى الجامع النوري بالموصل ، والمارستانات والخانات في الطريق ، والجواسق للصوفية في البلاد . واستكثر من الاوقاف عليها . يقال بلغ ريع أوقافه في كل شهر تسعة آلاف دينار صوري .

وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويتمثل لهم قائماً ، ويؤنسهم في المجالسة ، ولا يردّ لهم قولاً. وكان متواضعاً مهيباً وقوراً. ولما توفي اجتمع الأمراء والمقدّمون وأهل الدولة بدمشق ، وبايعوا ابنه الملك الصالح اسمعيل وهو ابن احدى عشرة سنة . وحلفوا له وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر ، وخطب له هنالك وضرب السكة باسمه ، وقام بكفالته وتدبير دولته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدّم ، واشار عليه القاضي كمال الدين الشهرزوري بأن يرجعوا في جميع أمورهم الى صلاح الدين لئلا ينبذ طاعتهم فأعرضوا عن ذلك ، والله تعالى وليّ التوفيق .

استيلاء سيف الدين غازي على بلاد الجزيرة

قد كنا قدمنا أن نور الدين استولى على بلاد الجزيرة ، وأقر سيف الدين ابن اخيه قطب الدين على الموصل ، واحتمل معه فخر الدين عبد المسيح الذي ولّي سيف الدين واستبدّ عليه بأمره . وولى على قلعة الموصل سعد الدين كمستكين . ولما استنفرهم نور الدين بين يدي موته سار اليه سيف الدين غازي وكمستكين الخادم في العساكر ، وبلغهم في طريقهم خبر وفاته . وكان كمستكين في المقدّمة فهرب الى حلب ، واستولى سيف الدين على مخلفه وسواده ، وعاد الى نصيبين فملكها ، وبعث العساكر الى الخابور فاستولى عليها وعلى أقطاعها . ثم

سار الى حرّان ، وبها قايماز الحراني مولى نور الدين فحاصرها أياماً ، ثم استنزله على ان يقطعه حَرّان . فلما نزل قبض عليه وملكها . ثم سار الى الرها وبها خادم لنور الدين فتسلمها وعوّضه عنها قلعة الزعفراني من جزيرة ابن عمر ، وانتزعها منه بعد ذلك .

ثم سار الى الرقّة وسروج فملكها ، واستوعب بلاد الجزيرة سوى قلعة جعبر لامتناعها ، وسوى رأس عين كانت لقطب الدين صاحب ماردين ، وهو ابن خاله . وكان شمس الدين علي بن الداية بحلب ، وهو من أكبر أمراء نور الدين ، ومعه العساكر ، ولم يقدر على مدافعة سيف الدين فخر الدين عبد المسيح. وكان نور الدين تركه قبل موته بسيواس مع ذي النون بن الدانشمند . فلما مات نور الدين رجع الى صاحبه سيف الدين غازي ، وهو الذي كان ملكه فوجده بالجزيرة وقد ملكها فأشار عليه بالعبور الى الشام . وعارضه آخر من أكبر الامراء في ذلك فرجع سيف الدين الى قوله ، وعاد الى الموصل وأرشد صلاح الدين الى الملك الصالح وأهل دولته يعاتبهم حيث لم يستدعوه لمدافعة سيف الدين عن الجزيرة ، ويتهدّد ابن المقدّم وأهل الدولة على انفرادهم بأمر الملك الصالح دونه ، وعلى قعودهم عن مدافعة سيف الدين غازي. ثم أرسل شمس الدين بن الداية الى الملك الصالح يستدعيه من دمشق الى حلب ليدافع شمس الدين ابن عمه قطب الدين عن الجزيرة فمنعه أمراؤه عن ذلك ، مخافة أن يستولي عليه ابن الداية ، والله سبحانه وتعالى اعلم بغيبه .

حصار الافرنج بانياس

ولما مات نور الدين محمود اجتمع الافرنج وحاصروا قلعة بانياس من أعمال دمشق . وجمع شمس الدين بن المقدّم العساكر ، وسار عن دمشق ، وراسل الافرنج وتهدّدهم بسيف الدين صاحب الموصل ، وصلاح الدين صاحب مصر فصالحوه على مال يبعثه اليهم . واشترى من الافرنج وأطلعهم ، وتقررت الهدنة . وبلغ ذلك صلاح الدين فنكره واستعظمه ، وكتب الى الصالح وأهل دولته بقبح مرتكبهم ويعدهم بغزوة الافرنج ، وقصده انما هو طريقه الى الشام ليتملك البلاد ، وانما صالح ابن المقدّم الافرنج خوفاً منه ومن سيف الدين ، والله تعالى أعلم .

استيلاء صلاح الدين على دمشق

ولما كان ما ذكرناه من استيلاء سيف الدين غازي على بلاد الجزيرة ، خاف شمس الدين ابن الداية منه على حلب . وكان سعد الدين كمستكين قد هرب من سيف الدين غازي اليه فأرسله الى دمشق ليستدعي الملك الصالح للمدافعة . فلما قارب دمشق أنفذ ابن المقدّم اليه عسكراً . فنهبوه وعاد الى حلب . ثم رأى ابن المقدّم وأهل الدولة بدمشق ان مسير الصالح الى حلب أصلح فبعثوا الى كمستكين

وبعثوا معه الملك الصالح . فلما وصل الى حلب قبض كمستكين على ابن الداية واخوته ، وعلى رئيس حلب ابن الخشّاب ، وعلى مقدم الاحداث بها . واستبدّ بأمر الصالح .

وخشي ابن المقدم وأمراؤه بدمشق غائلته فكاتبوا سيف الدين غازي صاحب الموصل أن يملكوه فأحجم عن المسير اليهم ، وظنها مكيدة . وبعث بخبرهم الى كمستكين ، وصالحه على مال أخذه من البلاد فكثر ارتياب القوم في دمشق ، فكاتبوا صلاح الدين بن أيوب فسار اليهم ونكب عن الافرنج في طريقه ، وقصد بصرى وأطاعه صاحبها. ثم سار صلاح الدين الى دمشق فخرج اليه أهل الدولة بمقدمهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم ، وهو الذي كان أبوه سلّم سنجار لنور الدين سنة أربع وأربعين كما مرّ ، ودخل صلاح الدين دمشق آخر ربيع سنة سبعين ونزل دار أبيه المعروفة بدار العفيفي . وكان في القلعة ريحان خديم نور الدين فبعث اليه صلاح الدين القاضي كمال الدين الشهروزي بأنه على طاعة الصالح ، والخطبة له في بلاده ، وانه انما جاء ليرتجع البلاد التي أخذت له فسلم اليه ريحان القلعة واستولى على ما فيها من الاموال ، وهو في ذلك كله يظهر طاعة الملك الصالح ، ويخطب له وينقش السكة باسمه انتهى والله أعلم .

استيلاء صلاح الدين على حمص وحماة ثم حصارة حلب ثم ملكه بعلبك

ولما ملك صلاح الدين دمشق من ايالة الملك الصالح استخلف

عليها أخاه سيف الاسلام طغركين بن أيوب ، وكانت حمص وحماة وقلعة مَرْعش وسلمية وتل خالد والرُها من بلاد الجزيرة في اقطاع فخر الدين مسعود الزعفراني من أمراء نور الدين ، ماعدا القلاع منها. ولما مات نور الدين أجفل الزعفراني عنها لسوء سيرته. ولما ملك صلاح الدين دمشق سار الى حمص فملك البلد ، وامتنعت القلعة بالوالي الذي بها فجهز عسكراً لحصارها ، وسار الى حماة فنازلها منتصف شعبان ، وبقلعتها الأمير خرديك فبعث اليه صلاح الدين بأنه في طاعة الملك الصالح ، وانما جاء لمدافعة الافرنج عنه ، وارتجاع بلاده بالجزيرة من ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل ، واستخلفه على ذلك عز الدين . ثم بعثه صلاح الدين الى الملك الصالح بحلب في الاتفاق ، واطلاق شمس الدين علي حسن وعثمان تقي الدين من الاعتقال فسار عز الدين لذلك ، واستخلف بالقلعة أخاه . ولما وصل الى حلب قبض عليه كمستكين وحبسه فسلم اخوه قلعة حماة لصلاح الدين وملكها .

ثم سار صلاح الدين من وقته الى حلب وحاصرها ، وركب الملك الصالح وهو صبي مناهز فسار في البلد واستعان بالناس ، وذكر حقوق أبيه فبكى الناس رحمة له واستماتوا دونه ، وخرجوا فدافعوا عسكر صلاح الدين . ودس كمستكين الى مقدم الاسماعيلية في الفتك بصلاح الدين فبعث لذلك فداوية منهم . وشعر بذلك بعض أصحاب صلاح الدين وجماعة منهم معه ، وقتلوا عن آخرهم .

وأقام صلاح الدين محاصراً لحلب، وبعث كمستكين الى الافرنج يستنجدهم على منازلة بلاد صلاح الدين ليرحل عنهم. وكان القُمْص عند السنجيلي صاحب طرابلس أسره نور الدين في حارم سنة تسع وخمسين ، وبقي معتقلاً بحلب أطلقه الان كمستكين بمائة وخمسين ألف دينار صورية وألف أسير ، وكان متغلباً على ابن مري ملك الافرنج لكونه مجذوماً لا يصدر إلاّ عن رأيه فسار بجموع الافرنج الى حصن الرستن سابع رجب وصالحهم صلاح الدين من الغد فأجفلوا ، وحاصر هو القلعة وملكها آخر شعبان ، واستولى على اكثر الشام . ثم سار الى بعلبك ، وبها يمن الخادم من موالي نور الدين فحاصرها ، حتى استأمنوا إليه فلكها منتصف رمضان من السنة ، وأقطعها شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم بما تولى له من اظهار طاعته بدمشق وتسليمها له ، والله تعالى أعلم .

حروب صلاح الدين مع سيف الدين غازي صاحب الموصل وغلبة اياه واستيلاؤه على بغدوين وغيرها من أعمال الملك الصالح ثم مصالحته على حلب

لما ملك صلاح الدين حمص وحماة ، وحاصر حلب ، كاتب الملك الصالح اسمعيل من حلب الى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده فجمع عساكره ، واستنجد أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار فلم يجبه لما كان بينه وبين صلاح الدين ، وأنه ولاّه سنجار ،

ويطمعه في الملك فبعث سيف الدين غازي بالعساكر لمدافعة صلاح الدين عن الشام في رمضان سنة سبعين وخمسمائة ، مع أخيه عزالدين مسعود وأمير جيوش عزالدين القنذار ، وجعل التدبير اليه ، وسار هو الى سنجار فحاصر بها أخاه عماد الدين ، وامتنع عليه . وبينما هو يحاصره جاءه الخبر بأن صلاح الدين هزم أخاه عزالدين وعساكره فصالح عماد الدين على سنجار ، وعاد الى الموصل .

ثم جهز أخاه عزالدين في العساكر ثانية ومعه القنذار . وساروا الى حلب فانضمت اليهم عساكره ، وساروا جميعا الى صلاح الدين فأرسل الى عماد الدين بالموصل في الصلح بينه وبين الملك الصالح على أن يرد عليه حمص وحماة ، ويسوغه الصالح دمشق فأبى إلا ارتجاع جميع بلاد الشام واقتصاره على مصر ، فسار صلاح الدين الى عساكرهم ولقيها قريباً من حماة ، فانهزمت وثبت عز الدين قليلا . ثم صدق عليه صلاح الدين الحملة فانهزم وغنم سوادهم ومخلفهم ، واتبع عساكر حلب حتى أخرجهم منها وحاصرها ، وقطع خطبة الملك الصالح ، وبعث بالخطبة للسلطان في جميع بلاده . ولما طال عليهم الحصار صالحوه على اقراره على جميع ما ملك من الشام .

ورحل عن حلب عاشر شوّال من السنة ، وعاد الى حماة . ثم سار منها الى بغدوين ، وكانت لفخر الدين مسعود بن الزعفراني من أمراء نور الدين ، وكان قد اتصل بالسلطان صلاح الدين واستخدم له . ثم

فارقه حيث لم يحصل على غرضه عنده فلحق ببغدوين ، وبها نائب الزعفراني فحاصرها حتى استأمنوا اليه . وأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي ، واقطع حمص ناصر الدين بن عمه شيركوه ، وعاد الى دمشق آخر سنة سبعين . وكان سيف الدين غازي صاحب الموصل بعد هزيمة أخيه وعساكره عاد من حصار أخيه بسنجار كما قلناه الى الموصل ، فجمع العساكر وفرّق الأموال . واستنجد صاحب كيفا وصاحب ماردين ، وسار في ستة آلاف فارس ، وانتهى الى نصيبين في ربيع سنة احدى وسبعين فأقام الى انسلاخ فصل الشتاء وسار الى حلب فبرز اليه سعد الدين كمستكين الخادم مدبر الصالح في عساكر حلب .

وبعث صلاح الدين عن عساكره من مصر ، وقد كان أذن لهم في الانطلاق فجاؤا اليه . وسار من دمشق الى سيف الدين وكمستكين فلقيهم بتل الفحول وانهزموا راجعين الى حلب وترك سيف الدين أخاه عز الدين بها في جمع من العساكر ، وعبر الفرات الى الموصل يظن أنّ صلاح الدين في اتباعه . وشاور الصالح وزيره جلال الدين ومجاهد الدين قايماز في مفارقة الموصل الى قلعة الحميديّة فعارضاه في ذلك . ثم عزل القنذار عن امارة الجيوش لانه كان جرّ الهزيمة برأيه ومفارقته ، وولى مكانه مجاهد الدين قايماز .

ولما انهزمت العساكر أمام صلاح الدين وغنم مخلفها سار الى مراغه وملكها وولى عليها . ثم سار الى مَنبج وبها صاحبها قطب الدين نيال بن حسّان المنبجي ، وكان شديد العداوة لصلاح الدين فملك المدينة ، وحاصره بالقلعة وضيق مخنقه . ثم نقب اسوارها وملكها عليه عنوة وأسره . ثم أطلقه سليباً فلحق بالموصل ، وأقطعه سيف الدين الرقة . ولما فرغ صلاح الدين من منبج سار الى قلعة إعزاز وهي في غاية المنعة فحاصرها اربعين يوماً حتى استأمنوا اليه فتسلمها في الاضحى . ثم رحل الى حلب فحاصرها ، وبها الملك الصالح ، واشتدّ أهلها في قتاله فعدل الى المطاولة . ثم سعى بينهما في الصلح ، وعلى أن يدخل فيه سيف الدين صاحب الموصل وصاحب كيفا وصاحب ماردين فاستقرّ الامر على ذلك ، وخرجت أخت الملك الصالح الى صلاح الدين فأكرمها ، وأفاض عليها العطاء وطلبت منه قلعة اعزاز فأعطاها إياها ، ورحل الى بلاد الاسماعيليّة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين صاحب الموصل ورجوعه

كان مجاهد الدين قايماز متولي مدينة إربل ، وكان بينه وبين شهاب الدين محمد بن بدران صاحب شهرزور عداوة . فلما ولّى سيف الدين مجاهد الدين قايماز نيابة الموصل خاف شهاب الدين غائلته عن

تعاهد الخدمة بالموصل ، وأظهر الامتناع ، وذلك سنة اثنتين وسبعين فخاطبه جلال الدين الوزير في ذلك مخاطبة بليغة ، وحذره ورغبه فعاود الطاعة وبادر الى الحضور بالموصل ، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده .

نكبة كمستكين الخادم ومقتله

كان سعد الدين كمستكين الخادم قائماً بدولة الملك الصالح في حلب وكان يناهضه فيها أبو صالح العجمي فقدم عند نور الدين وعند ابن الملك الصالح ، وتجاوز مراتب الوزير فعدا عليه بعض الباطنية فقتله ، وخلا الجو لكمستكين ، وانفرد بالاستبداد على الصالح وكثرت السعاية فيه بحجر السلطان والاستبداد عليه وانه قتل وزيره فقبض عليه وامتحنه . وكان قد أقطعه قلعة حارم فامتنع بها أصحابه ، وأرادهم الصالح على تسليمها فامتنعوا ، وهلك كمستكين في المحنة . وطمع فيها وساروا اليها وحاصروها . وصانعهم الصالح بالمال فرجعوا عنها ، وبعث هو عساكره اليها وقد جهدهم الحصار فسلموها له ، وولي عليها ، والله تعالى أعلم .

وفاة الصالح اسماعيل واستيلاء ابن عمه عز الدين مسعود على حلب

ثم توفي الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب في منتصف سنة سبع وسبعين لثمان سنين من ولايته ، وعهد بملكه لابن

عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل . واستحلف أهل دولته على ذلك بعضهم بعماد الدين صاحب سنجار أخي عز الدين الاكبر لمكان صهره على أخت الصالح ، وأن أباه نور الدين كان يميل اليه فأبى . وقال عز الدين : انا أقدر على مدافعة صلاح الدين عن حلب . فلما قضى نحبه أرسل الامراء بحلب الى عز الدين مسعود يستدعونه [1] هو ومجاهد الدين قايماز الى الفرات ، ولقي هنالك امراء حلب ، وجاؤا معه فدخلها آخر شعبان من السنة ، وصلاح الدين يومئذ بمصر بعيداً عنهم وتقي الدين عمر ابن اخيه في منبج ، فلما أحس بهم فارقها الى حماة ، وثار به أهل حماة ونادوا بشعار عز الدين، وأشار أهل حلب عليه بقصد دمشق وبلاد الشام وأطمعوه فيها فابى من أجل العهد الذي بينه وبين صلاح الدين ثم أقام بحلب شهوراً وسار عنها الى الرقة ، والله تعالى أعلم .

استيلاء عماد الدين على حلب ونزوله عن سنجار لأخيه عز الدين

ولما انتهى عز الدين الى الرقة منقلباً من حلب ، وافقه هنالك رسل أخيه عماد الدين صاحب سنجار يطلب منه أن يملكه مدينة سنجار ، وينزل هو له عن حلب فلم يجبه الى ذلك . فبعث عماد الدين اليه بأنه يسلم سنجار الى صلاح الدين فحمل الامراء حينئذ على معارضته على سنجار وتحمسهم له . ولم يكن لعز الدين مخالفاً لتمكنه في الدولة

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ١٥٤ : إلى أتابك عز الدين يستدعونه إلى حلب فسار هو ومجاهد الدين قيماز إلى الفرات .

وكثرة بلاده وعساكره فأخذ سنجار من أخيه عماد الدين ، وأعطاه حلب ، وسار اليها عماد الدين وملكها . وسهل أمره على صلاح الدين بعد ان كان متخوّفاً من عز الدين على دمشق ، والله سبحانه وتعالى أعلم

مسير صلاح الدين الى بلاد الجزيرة وحصاره الموصل واستيلاؤه على كثير من بلادها ثم على سنجار

كان عزالدين صاحب الموصل قد أقطع مظفر الدين كرجكري زين الدين كجك مدينة حرّان وقلعتها . ولما سار صلاح الدين لحصار البيرة جنح اليه مظفر الدين ، ووعده النصر ، واستحثه للقدوم على الجزيرة فسار الى الفرات موريا بقصد [1] وعبر اليه مظفر الدين فلقيه ، وجاء معه الى البيرة ، وهي قلعة منيعة على الفرات من عدوة الجزيرة . وكان صاحبها من بني ارتُق أهل ماردين قد أطاع صلاح الدين فعبر من جسرها وعزالدين صاحب الموصل يومئذ قد سار ومعه مجاهد الدين الى نصيبين لمدافعة صلاح الدين عن حلب . فلما بلغهما عبوره الفرات عادا الى الموصل ، وبعثا حامية الى الرُها .

وكاتب صلاح الدين ملوك النواحي بالنجدة والوعد على ذلك . وكان تقدّم العهد بينه وبين نور الدين محمد بن قرى أرسلان صاحب كيفا على أن صلاح الدين يفتح آمد ويسلمها اليه .فلما كاتبهم الآن كان

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ١٥٧ : فجد صلاح الدين في السير مظهراً أنه يريد حصر حلب تستراً للحال.

صاحب كيفا أول مجيب، وسار صلاح الدين الى الرها فحاصرها في جمادى سنة ثمان وسبعين، وبها يومئذ فخرالدين مسعود الزعفراني فلما اشتد به الحصار استأمن الى صلاح الدين، وحاصر معه القلعة حتى سلمها نائبها على مال أخذه، وأقطعها صلاح الدين مظفر الدين كوكبري صاحب حران. وسار عنها الى الرقة، وبها نائبها قطب الدين نيال بن حسّان المنبجي فاجفل عنها الى الموصل، وملكها صلاح الدين وسار الى الخابور وهو قرقيسيا وماكسين وعرمان فاستولى على جميعها.

وسار الى نصيبين فلكها لوقتها، وحاصر القلعه أياماً وملكها، وأقطعها أبا الهيجاء السمين من أكبر أمرائه. وسار عنها وملكها، ومعه صاحب كيفا. وجاءه الخبر بأن الافرنج أغاروا على أعمال دمشق ووصلوا داريا فلم يحفل بخبرهم، واستمر على شأنه واغراه مظهر الدين كوكبري وناصر الدين محمد بن شيركوه بالموصل، ورجحا قصدها على سنجار وجزيرة ابن عمر كما أشار عليهما فسار صلاح الدين وصاحبها عزالدين، ونائبه مجاهد الدين، وقد جمعوا العساكر وأفاضوا العطاء وشحنوا البلاد التي بأيديهم كالجزيرة وسنجار والموصل واربل، وسار صلاح الدين حتى قاربها وسار هو ومظفر الدين وابن شيركوه في أعيان دولته الى السور فأراه مخايل الامتناع. وقال لمظفر الدين ولناصر الدين ابن عمه قد أغررتماني. ثم صبح البلد وناشبه وركب أصحابه في المقاعد للقتال. ونصب منجنيقاً فلم يغن ونصب اليه من البلد تسعة.

ثم خرج اليه جماعة من البلد وأخذوه وكانوا يخرجون ليلا من البلد بالمشاعل يوهمون الحركة. فخشي صلاح الدين من البيات وتأخر عن القصد، وكان صدر الدين شيخ الشيوخ قد وصل من قبل الخليفة الناصر مع بشير الخادم من خواصة، في الصلح بين الفريقين على اعادة صلاح الدين بلاد الجزيرة فاجاب على اعادة الاخرين حلب فامتنعوا. ثم رجع عن شرط حلب الى ترك مظاهرة صاحبها فاعتذروا عن ذلك، ووصلت رسل صاحب أذربيجان قرا ارسلان. وأرسل صاحب خلاط شاهرين فلم ينتظم بينهما أمر، ورحل صلاح الدين عن الموصل الى سنجار فحاصرها، وبها أمير أميران [1] وأخوه عز الدين صاحب الموصل في عسكر، ولقيه شرف الدين وجاءها المدد من الموصل فحال بينهم وبينها، وداخله بعض أمراء الاكراد من الدوادية من داخلها فكبسها صلاح الدين ولحق بالموصل.

وملك صلاح الدين سنجار وصارت سياجاً على جميع ما ملكه بالجزيرة. وولّى عليها سعد الدين ابن معين الدين أنز الذي كان متغلبا بدمشق على آخر [2] طغركين وعاد فرّ بنصبين وشكا اليه أهلها من أبي الهيجاء السمين فعزله وسار الى حران بلدة مظفر الدين كوكبري

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ١٥٨: وبها أمير أميران هندوا أخو عز الدين صاحب الموصل.

(٢) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل: واستناب بها سعد الدين بن معين الدين أنز، وكان من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ومعنى.

فوصلها في القلعة من سنة سبع وثمانين فأراح بها ، وأذن لعساكره في الانطلاق وكان عزالدين قد بعث الى شاهرين صاحب خلاط يستنجده . وأرسل شاهرين الى صلاح الدين بالشفاعة في ذلك رسلا عديدة آخرهم مولاه سكرجاه ،وهو على سنجار ، فلم يشفعه [١] أخاه من ذلك وفارقه مغاضباً . وسار شاهرين [٢] الى قطب الدين صاحب ماردين وهو ابن أخته وابن خال عز الدين وصهره على بنته فاستنجده ، وسار معه ، وجاءهم عزالدين من الموصل في عساكره ، واعتزموا على قصد صلاح الدين وبلغه الخبر وهو مريح بحران فبعث عن تقي الدين ابن أخيه صاحب حمص وحماة ، وارتحل للقائهم ونزل رأس عين ، فخاموا عن لقائه ، ولحق كل ببلده ،وسار صلاح الدين الى ماردين فأقام عليها اياماً ورجع ، والله تعالى أعلم

استيلاء صلاح الدين على حلب وأعمالها

ولما ارتحل صلاح الدين عن ماردين قصد آمد فحاصرها سنة تسع وسبعين ، وملكها وسلمها لنور الدين محمد بن قرا أرسلان كما كان العهد بينهما ، وقد أشرنا اليه . ثم سار الى الشام فحاصر تل خالد من أعمال

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل: فأرسل إليه أخيراً مملوكه سيف الدين بكتمر الذي ملك خلاط بعد شاه أرمن فأتاه وهو يحاصر سنجار يطلب إليه أن يتركها ويرحل عنها. وقال له، إن رحل عنها وإلا فتهدده بقصده ومحاربته فأبلغه بكتمر الشفاعة فسوفه في الجواب رجاء أن يفتحها فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة بالتهديد وفارقه غضبان.

(٢) كذا واسمه في الكامل شاه أرمن.

حلب حتى استأمنوا اليه ، وملكها في محرم ستة تسع وسبعين وسار منها الى عينتاب ، وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ اسمعيل خازن نور الدين محمود وصاحبه ، ولاه عليها نور الدين فلم يزل بها فاستأمن الى صلاح الدين على أن يقره على الحصن ، ويكون في خدمته فأقرّه وأعلمه .

ورحل صلاح الدين الى حلب وبها عماد الدين زنكي بن مودود ، ونزل عليها بالميلان الأخضر أياماً . ثم انتقل الى جبل حوشن أياماً أخرى ، وأظهر أنه أبنى عليها ، وعجز عماد الدين عن عطاء الجند فراسل صلاح الدين أن يعوضه عنها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج فأجاب الى ذلك ، وأعطاه عنها تلك البلاد وملكها ، وكان في شرط صلاح الدين عليه انه يبادر الى الخدمة متى دعاه اليها. وسار عماد الدين إلى بلاده تلك ، ودخل صلاح الدين حلب في آخر سنة تسع وسبعين . ومات عليها اخوه الأصغر تاج الملوك يوري بضربة في ركبته تصدعت لها ، ومات بعد فتح حلب .

ثم ارتحل صلاح الدين الي قلعة حارم وبها سرجك من موالي نور الدين ، ولاّه عليها عماد الدين . فلما سلم حلب لصلاح الدين امتنع سرجك في قلعة حارم فحاصره صلاح الدين وتردّدت الرسل بينهما ، وقد دس الى الافرنج ودعاهم . وخشي الجند الذين معه أن يسلمها اليهم فحبسوه ، واستأمنوا الى صلاح الدين فملكها وولى عليها بعض

خواصه ، وعلي تل خالد الأمير داروم الباروقي صاحب تل باشر ، وأقطع قلعة اعزاز الأمير سليمان بن جندر فعمرها بعد ان كان عمادالدين خربها ، وأقطع صلاح الدين أعمال حلب لامرائه وعساكره ، والله تعالى أعلم .

نكبة مجاهد الدين قايماز

كان مجاهد الدين قايماز قائما بدولة الموصل ومتحكما فيها كما قلناه وكان عزالدين محمود الملقب بالقنداز صاحب الجيش ، وشرف الدين أحمد بن أبي الخير الذي كان صاحب العراق، كانا من أكابر الامراء عند السلطان عزالدين مسعود صاحب الموصل ، وكانا يغريانه بمجاهد الدين ويكثران السعاية عنده فيه ، حتى اعتزم على نكبته ، ولم يقدر على ذلك في مجلسه لاستبداد مجاهد الدين وقوة شوكته . فانقطع في بيته لعارض مرض ، وكان مجاهد الدين خصياً لا يحتجب منه النساء فدخل عليه يعوده فقبض عليه ، وركب الى القلعة فاحتوى على أمواله وذخائره . وولى بها القنداز نائباً ، وجعل ابن صاحب العراق أميراً حاجباً ، وحكمهما في دولته .

وكان في يد مجاهد الدين إربل وأعمالها فيها زين الدين يوسف ابن زين الدين علي كجك صبياً صغيراً تحت استبداده وبيده أيضاً جزيرة ابن عمر لمعز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي ، وهو صبي

تحت استبداده . وبيده أيضاً شهرزور وأعمالها ودقوقا وقلعة عقر الحميدية ، ونوابه في جميعها ولم يكن لعز الدين مسعود بعد استيلاء صلاح الدين على الجزيرة سوى الموصل وقلعتها لمجاهد الدين ، وهو الملك في الحقيقة فلما قبض عز الدين عليه امتنع صاحب اربل ، واستبدّ بنفسه ، وكان صاحب جزيرة ابن عمر ، وبعث بطاعته الى صلاح الدين .

وبعث الخليفة الناصر شيخ الشيوخ ، وبشير الخادم بالصلح بين عزالدين وصلاح الدين على أن تكون الجزيرة واربل من أعماله ، وامتنع عزالدين وقال : هما من أعمالي . وطمع صلاح الدين في الموصل فتنكر عز الدين لزلقنداز ولابن صاحب العراق ، لما حملاه عليه من الفساد لنكبة مجاهد الدين فبدأ اولاً بعزل صاحب أذرَبيجان فقال : له أنا أكفله وجهز له عسكراً نحو ثلاثة آلاف فارس . وساروا نحو اربل فاكتسحوا البلد وخربوها ، وسار اليهم زين الدين يوسف باربل فوجدهم مفترقين في النهب فهزمهم ومن كان معهم وعاد مظفراً ، ولحق العجم ببلادهم . وعاد مجاهدالدين الى الموصل ، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق

حصار صلاح الدين الموصل وصلحه مع عز الدين صاحبها

ثم سار صلاح الدين من دمشق في ذي القعدة سنة احدى وثمانين، فلما انتهى الى حرّان قبض على صاحبها مظفر الدين كوكبري

لانه كان لذلك وعده بخمسين ألف دينار ، حتى اذا وصل لم يف له بها فقبض عليه لانحراف أهل الجزيرة عنه ، فأطلقه ورد عليه عمله بحرّان والرُها . وسار عن حران ، وجاء معه عساكر كيفاوداري ، وعساكر جزيرة ابن عمر مع صاحبها معز الدين سنجر شاه ابن أخي معزالدين صاحب الموصل ، وقد استبدّ بأمره ، وفارق طاعة عمه بعد نكبة مجاهد الدين كما قلنا ، فساروا مع صلاح الدين الى الموصل ولما انتهوا الى مدينة الأبله وفدت عليه أم عز الدين ، وابن عمه نور الدين محمود وجماعة من أعيان الدولة ظناً بانه لا يردهم وأشار عليه الفقيه عيسى وعلي بن أحمد المشطوب بردهم ، ورحل الى الموصل فقاتلها وامتنعت عليه ، وندم على ردّ الوفد ، وجاءه كتاب القاضي الفاضل باللائمة .

ثم قدم عليه زين الدين يوسف صاحب اربل فأنزله مع أخيه مظفر الدين كوكبري وغيره من الامراء . ثم بعث الامير علي بن احمد المشطوب الى قلعة الجزيرة من بلاد الهكارية فاجتمع عليه الاكراد الهكارية وأقام يحاصرها ، وكاتب نائب القلعة القنداز . ونمي خبر مكاتبته الى عز الدين فمنعه واطرحه من المشورة ، وعدل الى مجاهد الدين قايماز ، وكان يقتدي برأيه فضبط الامور وأصلحها . ثم بلغه في آخر ربيع من سنة اثنين وثمانين ، وقد ضجر من حصار الموصل ان شاهرين صاحب خلاط توفي تاسع ربيع ، واستولى عليها مولاه بكتمر فرحل عن الموصل ، وملك ميافارقين كما يأتي في أخبار دولته

ولما فرغ منها عاد الى الموصل ، ومر بنصيبين ، ونزل الموصل في رمضان سنة اثنتين وثمانين ، وترددت الرسل بينها في الصلح ، على أن يسلم اليه عزالدين شهرزور وأعمالها وولاية القرائلي وما وراء الزاب ، ويخطب له على منابرها ، وينقش اسمه على سكته . ومرض صلاح الدين اثناء ذلك ووصل الي حران ولحقته الرسل بالاجابة الى الصلح وتحالفا عليه ، وبعث من يسلم البلاد وأقام ممرضاً بحران ، عند أخوه العادل وناصر الدولة ابن عمه شيركوه ، وامنت بلاد الموصل .

ثم حدثت بعد ذلك فتنة بين التركمان والاكراد بالجزيرة والموصل وديار بكر وخلاط والشام وشهرزور وأذربيجان ، وقتل فيها مـا لا يحصى من الامم ، واتصلت أعواماً وسببها أن عروساً من التركمان أهديت الى زوجها ، ومروا بقلعة الزوزان والاكراد ، وطلبوا منهم الوليمة علي عادة الفتيان فأغلظوا في الرد فقتل صاحب القلعة الزوج ، وثار التركمان بجماعة من الاكراد فقتلوهم . ثم أصلح مجاهد الدين بينهم وأفاض فيهم العطاء فعادوا الى الوفاق ، وذهبت بينهم الفتنـة ، والله تعالى أعلم .

وفاة زين الدين يوسف صاحب أربل وولاية أخيه مظفر الدين

كان زين الدين يوسف بن علي كجك قد صار في طاعة صلاح الدين كما ذكرناه قبل ، واربل من أعماله . ووقع الصلح على ذلك بينه

وبين عزالدين صاحب الموصل سنة ست وثمانين [1] للعسكر معه فمات عنده أخريات رمضان من السنة واستولى أخوه علي موجوده وقبض على جماعة من أمرائه مثل بلداجي صاحب قلعة حقبيركان وغيره ، وطلب من صلاح الدين أن يقطعه اربل مكان أخيه ،وينزل عن حرّان والرها فأقطعه اربل،وأضاف إليها شهرزور وأعمالها ودوقبر قرابلي وبني قفجاق وراسل أهل اربل مجاهد الدين قايماز واستدعوه ليملكوه ، وهو بالموصل فلم يتطاول لذلك خوفاً من صلاح الدين . ولأن عز الدين لما كان ولاه نيابته بعد ان أطلقه من الاعتقال لم يمكنه كما كان أول مرة ، وجعل معه رديفاً في الحكم كان من بعض غلمانه ، فكان أسفاً لذلك . فلما راسله أهل اربل قال : والله لا أفعل لئلا يحكم معي فيها فلان ، وسار مظفر الدين اليها وملكها .

حصار عز الدين صاحب الموصل جزيرة ابن عمر

كان سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود قد ملك جزيرة ابن عمر بوصية أبيه ، وخرج عن طاعة عمه عزالدين عند نكبة مجاهد الدين كما قلناه ، وصار عيناً على عمه يكاتب صلاح الدين بأخباره ويغريه به ويسعى في القطيعة بينهما . ثم حاصر صلاح الدين قلعة عكا سنة ست وثمانين ، واستنفر لها أصحاب الاطراف المتشبثين بدعوته مثل عز

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٢١٠ كان زين الدين يوسف صاحب أربل قد حضر عند صلاح الدين بعساكره فمرض ومات.

الدين صاحب الموصل ، وأخيه عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين وسنجار شاه هذا ابن عمه وصاحب كيفا وغيرهم . واجتمعوا عنده على عكا ، وجاء جماعة من جزيرة ابن عمر يتظلمون من سنجر شاه فخاف واستأذن في الانطلاق ، فاعتذر صلاح الدين بأن في ذلك افتراق هذه العساكر فالح عليه في ذلك ، وغدا عليه يوم الفطر مسلماً فوعده وانصرف وكان تقي الدين عمر بن شاه أخي صلاح الدين مقبلاً من حماة في عسكر فأرسل اليه صلاح الدين باعتراضه ، ورده طوعاً أو كرهاً فلقيه بقلعة فنك ورده كرهاً وكتب صلاح الدين الى عز الدين صاحب الموصل بحصار جزيرة ابن عمر يظنها مكيدة فتلقاها بالمراجعة ، وطلب اقطاع الجزيرة فأسعفه ، وسار اليها وحاصرها أربعة أشهر فامتنعت عليه . ثم صالحه على نصف أعماله ، ورجع إلى الموصل ، والله تعالى أعلم

مسيرة عز الدين صاحب الموصل الى بلاد العادل بالجزيرة ورجوعه عنها

كان صلاح الدين قد ملك من بلاد الجزيرة حرّان والرها وسميساط وميافارقين ، وكانت بيد ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاه . ثم توفي تقيّ الدين فأقطعها أخاه العادل أبا بكر بن أيوب . ثم توفي صلاح الدين سنة تسع وثمانين فطمع عز الدين صاحب الموصل في ارتجاعها ، واستشار أصحابه فأشار عليه بعضهم بمعاجلتها وأن يستنفر أصحاب الاطراف لها مثل : صاحب اربل ، وصاحب جزيرة ابن عمر ،

وصاحب سنجار ونصيبين . ومن امتنع يعاجله حرباً ويعاجل البلدقبل أن يستعدّ اهلها للمدافعة .

وأشار مجاهد الدين قايماز بمشاورة هؤلاء الملوك والعمل باشارتهم فقبل من مجاهد الدين وكاتبهم فأشاروا بانتظار أولاد صلاح الدين ، وأن البلد في طاعته ، وأنه القائم بدولته ،وأنه بلغه أنّ صاحب ماردين تعرّض لبعض بلاده فجهز جيشاً كثيفاً لقصد ماردين فوجوا الكتابة وتركوا الحركة . ثم بلغهم أنه بظاهر حران في خف من العسكر فتجهز للحركة عليه . ولما وقع الاتفاق مع سنجار جاءت عساكر الشام الى العادل من الافضل ، فامتنع وسار عزالدين في عساكره من الموصل الى نصيبين ، واجتمع بأخيه عماد الدين ،وساروا الى الرها ، وقد عسكر العادل قريباً منهم بمرج الريحان ، وخافهم فأقاموا أياماً كذلك . ثم طرق عزالدين المرض فترك العساكر مع أخيه عماد الدين وساروا الى الموصل ، والله أعلم

وفاة عز الدين صاحب الموصل وولاية ابنه نور الدين

ولما رجع عز الدين الى الموصل أقام بها مدّة شهرين ، واشتدّ مرضه فتوفي آخر شعبان سنة تسع وثمانين ، وولي ابنه نور الدين ارسلان شاه بن عزالدين مسعود بن مودود بن الأتابك زنكي ، وقام

بتدبير دولته مجاهد الدين قايماز مدبر دولة أبيه ، والله سبحانه وتعالى أعلم

وفاة عماد الدين صاحب سنجار وولاية قطب الدين

ثم توفي عماد الدين زنكي بن مودود بن الاتابك زنكي ، صاحب سنجار والخابور ونصيبين والرقة وسروج ، وهي التي عوضه صلاح الدين عن حلب لما أخذها منه . توفي في محرّم سنة أربع وتسعين ، وملك بعده أبنه قطب الدين ، وتولى تدبير دولته مجاهد برتقش مولى أبيه . وكان ديناً خيراً عادلاً متواضعاً محباً لاهل العلم والدين معظماً لهم ، وكان متعصباً على الشافعية حتى انه بنى مدرسة للحنفية بسنجار ، وكان حسن السيرة ، والله تعالى أعلم

استيلاء نور الدين صاحب الموصل على نصيبين

كان عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين ، قد امتدّت أيدي نوابه بنصيبين الى قرى من اعمال الموصل تجاورهم ، وبعث اليه في ذلك مجاهد الدين قايماز صاحب دولة الموصل يشكو اليه نوابه سرّاً من سلطانه نور الدين ، فلجّ عماد الدين في ادعاء انها من أعماله ، وأساء الردّ فاعاد نور الدين الرسالة اليه مع بعض مشايخ دولته ، وقد طرقه المرض فأجاب مثل الاوّل فنصح الرسول ، وكان من بقية

الاتابك زنكي . وعاد الى [1] فأغلظ له في القول ، واعتزم نور الدين على المسير الى نصيبين ، ووصل الخبر اثر ذلك بوفاة عماد الدين ، وولاية ابنه قطب الدين فقوي طمع نور الدين في نصيبين ، وتجهز لها في جمادي سنة أربع وتسعين . وسار قطب الدين بن سنجر في عسكره فسبقه نور الدين الى نصيبين . فلما وصل لقيه فهزمه نور الدين ، ودخل الى قلعة نصيبين مهزوماً . ثم أسرى منها الى حرّان ، ومعه نائبه مجاهد الدين برتقش ، وكاتبوا العادل أبا بكر بن ايوب يستحثونه من دمشق. وأقام نور الدين بنصيبين حتى وصل العادل الى الجزيرة ففارقها الى الموصل في رمضان من السنة . وعاد قطب الدين اليها . وكان الموتان قد وقع في عسكر نور الدين فمات كثير من امراء الموصل . ومات مجاهد الدين قايماز القائم بالدولة . ولما عاد نور الدين الى الموصل ، وعاد قطب الدين الى نصيبين سار العادل الى ماردين فحاصرها أياماً وضيق عليها ثم انصرف ، والله تعالى أعلم .

هزيمة الكامل بن العادل على ماردين أمام نور الدين صاحب الموصل وبني عمه ملوك الجزيرة

لما رحل العادل عن ماردين كما قدّمناه جمر العساكر عليها للحصار

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٢٤٠ : فلما سمع الرسالة لم يلتفت وقال: لا أعيد ملكي، فأشار الرسول من عنده حيث هو من مشايخ دولتهم بترك وتسليم ما أخذه، وحذره عاقبة ذلك فأغلظ عليه عماد الدين القول، وعرض بذم نور الدين واحتقاره فعاد الرسول وحكى لنور الدين جلية الحال، فغضب نور الدين وعزم على المسير إلى نصيبين.

مع ابنه الكامل ، وعظم ذلك على ملوك الجزيرة وديار بكر ، وخافوا ان ملكها يغلبهم على امرهم ، ولم يكن سار من سار معه منهم عند اشتغاله بحرب نور الدين إلاّ تقية لكثرة عساكره . فلما رجع الى دمشق ، وبقي الكامل على ماردين استهانوا بأمره ، وطمعوا في مدافعته.

وأغراهم بذلك الظاهر والافضل ابنا صلاح الدين لفتنتهم مع عمهم العادل . فتجهز نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل ، وسار أوّل شعبان سنة خمس وتسعين ، وانتهى الى دبيس فأقام بها ، ولحق به ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي صاحب سنجار ، وابن عمه الآخر سنجار شاه ابن غازي صاحب جزيرة ابن عمر ، حتى اذا انقضى عيد الفطر ارتحلوا وتقدموا الى مزاحمة الكامل على ماردين .

وكان أهل ماردين خلال ذلك قد ضاق مخنقهم وجهدهم الحصار وبعث النظام المستولي على دولة صاحبها الى الكامل يراوده في الصلح، وتسليم القلعة له الى أجل سماه على أن يبيح لهم بقوتهم من الميرة فأسعفهم بذلك وبينما هم في ذلك جاءهم خبر العساكر فامتنعوا ، وزحف الكامل مهزوماً الى معسكره بالربض فخرج أهل القلعة اليهم وقاتلوهم الى المساء ثم أجفل الكامل من ليلته منتصف شوال ، وعاد الى بلاده ونهب أهل القلعة مخلفه ، وخرج صاحب ماردين وهو بولو أرسلان ابن أبي الغازي فلقي نور الدين وشكره ، وعاد الى حصنه ، ورجع نور الدين وأصحابه الى تُستَر . ثم سار منها الى رأس عين فقدم

عليها هنالك رسول الظاهر بن صلاح الدين من حلب يطلب له منه السكة والخطبة، فوجم لذلك وثنى عزمه عن مظاهرتهم. ثم طرقه المرض فبعث اليهم بالعذر، وعاد الى الموصل في ذي الحجة آخر السنة، والله تعالى أعلم

مسير نور الدين صاحب الموصل الى بلاد العادل بالجزيرة

ثم ان الملك العادل مَلَكَ مصر سنة ست وتسعين من يد الأفضل ابن أخيه، فخشيه الظاهر صاحب حلب وصاحب ماردين، وراسلوا نور الدين صاحب الموصل في الاتفاق، وأن يسير الى بلاد العادل بالجزيرة: حرّان والرُها والرقّة وسنجار، فسار نور الدين لملكها في شعبان سنة سبع وتسعين. وسار معه ابن عمه قطب الدين سنجار، وحسام الدين صاحب ماردين، وانتهوا الى رأس العين، وكان بحران الفائز بن العادل في عسكر فأرسل الى نور الدين في الصلح فبادر الى الاجابة لما وقع في عسكره من الموتان، واستحلفهم وحلف لهم. وبعثوا إلى العادل فحلف وعاد نور الدين الى الموصل في ذي القعدة من السنة، والله تعالى أعلم

هزيمة نور الدين صاحب الموصل أمام عسكر العادل

لم يزل الملك العادل يراسل قطب الدين صاحب سنجار، ويستميله الى أن خطب له في أعماله سنة ستمائة فسار نور الدين صاحب الموصل

الى نصيبين من أعمال قطب الدين فحاصرها وملك المدينة . وأقام يحاصر القلعة فبينما هو قد قارب فتحها بلغه الخبر من نائبه بالموصل بأن مظفر الدين كوكبري صاحب اربل (١) من أعمال الموصل فرحل عن نصيبين معتزماً على قصد إربل فلم يجد كل الخبر صحيحاً فسار الى تل أعفر من أعمال سنجار فحاصرها وملكها. وكان الأشرف موسى بن العادل قد سار من حران الى رأس العين نجدة لصاحب سنجار. وقد اتفق معه على ذلك مظفر الدين صاحب اربل وصاحب كيفا وآمد وصاحب جزيرة ابن عمر ، وتراسلوا وتواعدوا للاجتماع . فلما ارتحل نور الدين عن نصيبين اجتمعوا عليها ، وجاءهم اخو الاشرف نجم الدين صاحب ميافارقين وساروا الى البقعا من تل أعفر الى كفر رقان . وقصده المطاولة حتى (٢) جاءه بعض عيونه فقللهم في عينه وأطمعه فيهم ، وكان من مواليه فوثق بقوله ورحل الى نوشري قريباً منهم . وتراءى الجمعان فالتقوا ، وانهزم نور الدين ونجا في فل قليل ، ونزلت العساكر كفررقان ونهبوا مدينة فيد ، وما اليها ، وأقاموا هنالك . وترددت الرسل في الصلح على ان يعيد نور الدين تل اعفر

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٢٦٤ : «إن مظفر الدين بوكبري زين الدين علي صاحب أربل قد قصد أعمال الموصل فنهب نينوى وأخرق غلالها». وترى أن اسم صاحب إربل هنا عند ابن خلدون «كوكبري» وفي الكامل عند ابن الأثير «بوكبري». وكثيراً ما تختلف هذه الأسماء الأعجمية بين كتاب وآخر.

(٢) كذا بياض بالأصل، مع اختلاف في الأسماء؛ وفي الكامل ج ٩ ص ٢٦٤ : وسار نور الدين من تل أعفر إلى كفر زما، وعزم على المطاولة ليتفرقوا فأتاه كتاب من بعض مماليكه يسمى جرديك، وقد أرسله يتجسس أخباره فيقللهم في عينه ويطعمه فيهم ويقول: إن أذنت لي لقيتهم بمفردي .

لقطب الدين صاحب سنجار فأعادها ، واصطلحوا سنة احدى وستماية ، ورجع كل الى بلده . والله تعالى ولي التوفيق .

مقتل سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر وولاية ابنه محمود بعده

كان سنجر شاه بن غازي بن مودود ابن الأتابك زنكي صاحب جزيرة ابن عمر وأعمالها أوصى له بها أبوه عند وفاته كما مر وكان سيء السيرة غشوماً ظلوماً مرهف الحد على رعيته وجنده وحرمه وولده ، كثير القهر لهم والانتقام منهم فاقد الشفقة على بنيه حتى غرب ابنيه محمودا ومودودا الى قلعة فرج من بلاد الزوزان ، لتوهم توهمه فيهما . وأخرج ابنه غازي الى دار بالمدينة ووكل به فساءت حاله . وكانت الدار كثيرة الخشاش فضجر من حاله وتناول حية وبعثها الى أبيه فلم يعطف عليه ، فتسلل من الدار واستخفى في المدينة وبعث الى نور الدين صاحب الموصل من أوهمه بوصوله اليه فبعث اليه بنفقة وردة خوفا من أبيه وترك أبوه طلبه لما شاع انه بالشام فلم يزل غازي يعمل الحيلة حتى دخل دار ابيه ، واختفى عند بعض حظاياه ، وطرق عليه الخلاء في بعض الليالي وهو سكران فطعنه أربع عشرة طعنة . ثم ذبحه وأقام مع الحرم . وعلم استاذ الدولة من خارج بالخبر فأحضر أعيان الدولة ، وأغلق أبواب القصر ، وبايع الناس لمحمود بن سنجر شاه واستدعاه وأخاه مودوداً من قلعة فرج . ثم دخلوا الى غازي وقتلوه .

ووصل محمود فملكوه ولقبوه معن الدين لقب أبيه ،وعمد الى الجواري التى واطأت على قتل ابيه فغرّقهن في الدجلة ، والله تعالى أعلم .

استيلاء العادل على الخابور ونصيبين من أعمال صاحب سنجار وحصاره اياه

كان بين قطب الدين محمود بن زنكي بن مودود ، وبين ابن عمه نور الدين ارسلان شاه ، بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عداوة مستحكمة ، قد مرّ كثير من أخبارها . ولما كانت سنة خمس وستمائة أصهر العادل بن أيوب صاحب مصر والشام الى نور الدين في ابنته ، فزوّجها نور الدين من ابنه واستكثر به ، وطمح الى الاستيلاء على جزيرة ابن عمر فأغرى العادل بأن يظاهره على ولاية ابن عمه قطب الدين سنجر ، وتكون ولاية قطب الدين وهي : سنجار ونصيبين والخابور للعادل . وتكون ولاية غازي بن سنجر شاه لنور الدين صاحب الموصل فأجاب الى ذلك العادل ، وأطمع نور الدين في أنه يقطع ولاية قطب الدين اذا ملكها لابنه الذي هو صهره على ابنته ، وتحالفا على ذلك . وسار العادل سنة ست وستمائة من دمشق لملك الخابور .

وراجع نور الدين رأيه فاذا هو قد تورط ، وانه يملك البلاد كما يحب دونه إن وفى له . وسار نور الدين الى الجزيرة فربما حال بنو العادل بينه وبين الموصل ، وان انتقض نور الدين عليه سار اليه فاضطرب في أمره ، وملك العادل الخابور ونصيبين . واعتزم قطب الدين على أن

يعتاض منه عن سنجار ببعض البلاد فمنعه من ذلك احمد بن برتقش مولى ابيه ، وجهز نور الدين عسكراً مع ابنه القاهر مدداً للعادل كما اتفقا عليه. وفي خلال ذلك بعث قطب الدين سنجر ابنه الى مظفر الدين صاحب اربل يستنجده فأرسل الى العادل شافعاً في امره ، فلم يشفعه لمظاهرة نور الدين اياه فغضب مظفر الدين وأرسل الى نور الدين في المساعدة على دفاع العدوّ فأجاب نور الدين الى ذلك ، ورجع عن مظاهرة العادل.

وأرسل هو ومظفر الدين الى الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب والي كسنجر بن قليج أرسلان صاحب الروم يستجدانهما فأجاباهما وتداعوا الى قصد بلاد العادل ان لم يرحل عن سنجار . وبعث الخليفة الناصر أستاذ الدار أبا نصر هبة الله بن المبارك بن الضحاك ، والامير اقناش من خواص مواليه في الافراج عن سنجار ، وتخاذل أصحابه عن مضايقة سنجار معه ، وسيما أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة فانه جاهر بخلافه في ذلك فاجاب العادل في الصلح ، على ان تكون نصيبين والخابور اللذان ملكهما له، وتبقى سنجار لقطب الدين، وتحالفوا على ذلك ، ورجع العادل الى حرّان ، ومظفر الدين الى إربل، والله تعالى أعلم.

وفاة نور الدين صاحب الموصل وولاية ابنه القاهر

ثم توفي نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن مودود بن الاتابك زنكي منتصف سنة سبع وستمائة لثمان عشرة سنة من ولايته ، وكان

شهماً شجاعاً مهيباً عند أصحابه حسن السياسة لرعيته . وجدّد ملك آبائه بعد أن أشفى على الذهاب . ولما احتضر عهد بالملك لابنه عز الدين مسعود ، وهو ابن عشرين سنة ، وأوصاه أن يتولى تدبير ملكه مولاه بدر الدين لؤلؤ لما فيه من حسن السياسة . وكان قائماً بأمره منذ توفي مجاهد الدين قايماز وأوصى لولده الأصغر عماد الدين بقلعة عقر الحميدية ، وقلعة شوش وولايتها ، ولفته الى العقر . فلما توفي نور الدين بايع الناس ابنه عز الدين مسعوداً ولقبوه القاهر ، واستقرّ ملك الموصل . وأعمالها له ، وقام بدر الدين لؤلؤ بتدبير دولته ، والبقاء لله وحده .

وفاة القاهر وولاية ابنه نور الدين ارسلان شاه في كفالة بدر الدين لؤلؤ

لما توفي الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود ابن مودود بن الاتابك زنكي صاحب الموصل ، آخر ربيع الاوّل سنة خمس عشرة وخمسمائة[1] لثمان سنين من ولايته بعد أن عهد بالملك لابنه الاكبر نور الدين ارسلان شاه ، وعمره عشرون سنة ، وجعل الوصي عليه والمدبر لدولته لؤلؤا كما كان في دولة القاهر ، وابنه نور الدين فبايع له وقام بملكه . وأرسل الى الخليفة في التقليد والخلع على العادة فوصلت ، وبعث الى الملوك في الأطراف في تجديد العهد كما كان بينهم وبين سلفه وضبط اموره . وكان عمه نور الدين زنكي أرسلان شاه بقلعة

(١) كذا بالأصل، وأن تاريخ وفاته كما في الكامل ج ٩ ص ٣٩ : سنة خمس عشرة وستمائة .

عقر الحميدية لا يشك في مصير السلطان له فدفعه عن ذلك، واستقامت أموره وأحسن السيرة، وسمع شكوى المتظلمين وأنصفهم، ووصل في تقليد الخليفة لنور الدين اسناد التتر في أموره لبدر الدين لؤلؤ [1] والله أعلم.

استيلاء عماد الدين صاحب عقر على قلاع الهكارية والزوزان

كان عماد الدين زنكي قد ولاه أبوه قلعتي العقر والشوش قريباً من الموصل، وأوصى له بهما وعهد بالملك لابنه الاكبر القاهر. فلما توفي القاهر كما ذكرنا طمح زنكي الى الملك، وكان يحدّث به نفسه فلم يحصل له. وكان بالعمادية نائب من موالي جدّه مسعود فداخله في الطاعة له. وشعر بذلك بدر الدين لؤلؤ فعزل ذلك النائب، وبعث اليها أميراً أنزله بها وجعل فيها نائباً من قبله. واستبد بالنواب في غيرها. وكان نور الدين بن القاهر لا يزال عليلا لضعف مزاجه وتوالي الامراض عليه فبقي محتجباً طول المدة. فأرسل زنكي الى نور الدين بالعمادية يشيع موته، ويقول: أنا أحق بملك سلفي فتوهموا صدقه، وقبضوا على نائب لؤلؤ ومن معه، وسلموا البلد لعماد الدين زنكي منتصف رمضان سنة خمس عشرة.

---

(١) كذا بالأصل، هنا عبارة ساقطة وفي الكامل: وبعد أيام وصل التقليد من الخليفة لنور الدين بالولاية ولبدر الدين بالنظر في أمر دولته والتشريفات لهما أيضاً. وأتتهم رسل الملوك بالتعزية وبذل ما طلب منهم من العهود، واستقرت القواعد لهما.

وجهز لؤلؤ العساكر وحاصروه بالعمادية في فصل الشتاء وكلب البرد وتراكم الثلج ، ولم يتمكنوا من قتاله . وظاهره مظفر الدين صاحب إربل على شأنه، وذكر لؤلؤاً بالعهد الذي بينهما ان لا يتعرّض لاعمال الموصل ، والنص فيها على قلاع الهكارية والزوزان وأنه مظاهر لهم على من يتعرض لها فلج في مظاهرته ، واعتمد نقض العهد وأقام العسكر محاصراً لزنكي بالعمادية . وتقدموا بعض الليالي وركبوا الاوعار اليه فبرز اليهم أهل العمادية ، وهزموهم في المضايق والشعاب فعادوا الى الموصل ، وارسل عماد الدين قلاع الهكارية والزوزان في الطاعة له فأجابوه ، وملكها وولّى عليها ، والله أعلم .

مظاهرة الأشرف بن العادل للؤلؤ صاحب الموصل

ولما استولى عماد الدين زنكي على قلاع الهكارية والزوزان ، وظاهره مظفر الدين صاحب إربل خاف لؤلؤ غائلته فبعث بطاعته الى الاشرف موسى بن العادل ، وقد ملك أكثر بلاد الجزيرة وخلاط وأعمالها ، ويسأله المعاضدة فاجابه . وكان يومئذ بحلب في مدافعة كيكاوس صاحب بلاد الروم من أعمالها فأرسل الى مظفر الدين بالنكير عليه فيما فعل من نقضه العهد الذي كان بينهم جميعاً كما مرّ ، ويعزم عليه في اعادة ما اخذ من بلاد الموصل ، ويتوعده إن أصر على مظاهرة زنكي بقصد بلاده فلم يجب مظفر الدين الى ذلك ، واستألف على أمره

صاحب ماردين وناصر الدين محموداً صاحب كيفا وآمد فوافقوه ، وفارقوا طاعة الأشرف في ذلك فبعث الأشرف عساكره الى نصيبين لانجاد لؤلؤ متى احتاج اليه ، والله تعالى أعلم .

واقعة عساكر لؤلؤ بعماد الدين

ولما عاد عسكر الموصل عن حصار العمادية ، خرج زنكي الى قلعة العقر ليتمكن من أعمال الموصل الصحراوية اذ كان قد فرغ من أعمالها الجبليّة ، وأمده مظفر الدين صاحب إربل بالعساكر، وعسكر جند الموصل على أربع فراسخ من البلد من ناحية العقر . ثم اتفقوا على المسير الى زنكي وصبحوه آخر المحرم سنة ست عشرة وستمائة وهزموه فلحق بإربل ، وعاد الرسل الى مكانهم . ووصل رسل الخليفة الناصر والاشرف ابن العادل في الصلح بينهما فاصطلحوا وتحالفوا والله تعالى أعلم .

وفاة نور الدين صاحب الموصل وولاية أخيه ناصر الدين

لما توفي نور الدين ارسلان شاه بن الملك القاهر كما قدّمنا من سوء مزاجه واختلاف الأسقام عليه ، فتوفي قبل كمال الحول . ونصب لؤلؤ مكانه أخاه ناصر الدين محمد بن القاهر في سن الثلاث ، واستحلف له الجند وأركبه في الموكب فرضي به الناس لما أبلوا من عجز أخيه عن الركوب لمرضه ، والله تعالى وليّ التوفيق .

هزيمة لؤلؤ صاحب الموصل من مظفر الدين صاحب أربل

ولما توفي نور الدين، ونصب لؤلؤ أخاه ناصر الدين محمداً على صغر سنه، تجدّد الطمع لعماد الدين عمه ولمظفر الدين صاحب اربل في الاستيلاء على الموصل، وتجهزوا لذلك. وعاثت سراياه في نواحي الموصل. وكذا لؤلؤ قد بعث ابنه الاكبر في العساكر نجدة للملك الأشرف، وهو يقصد بلاد الافرنج بالسواحل ليأخذ بحجزتهم عن امداد إخوانهم بدمياط عن أبيه الكامل بمصر، فبادر لؤلؤ الى عسكر الاشرف الذين بنصيبين واستدعاهم فجاءوا الى الموصل منتصف سنة عشر وستمائة، وعليهم ايبك مولى الاشرف فاستقلهم لؤلؤ ورآهم مثل عسكره الذين بالشام ودونهم.

وألحّ ايبك على عبور دجلة الى إدبل فمنعه اياماً فلما أصرّ عبر لؤلؤ معه، ونزلوا على فرسخين من الموصل شرقي دجلة وجمع مظفر الدين زنكي وعبروا [1] الزاب وتقدّم اليهم ايبك في عسكره وأصحاب لؤلؤ وسار منتصف الليل من رجب، وأشار عليه لؤلؤ بانتظار الصباح فلم يفعل ولقيهم بالليل. وحمل ايبك على زنكي في الميسرة فهزمه. وانهزمت ميسرة لؤلؤ فبقي في نفر قليل فتقدّم اليه مظفر الدين فهزمه، وعبر دجلة الى الموصل. وظهر مظهر الدين على تبرير

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٣٢٣: فلما سمع مظفر الدين ذلك جمع عسكره وسار إليهم، ومعه زنكي فعبر الزاب، وسبق خبره فسمع بدر الدين فعبى أصحابه.

ثلاثاً . لؤلؤاً يريد تبييته فأجفل راجعاً ، وترددت الرسل بينهما فاصطلحا على أن يبقى لكل ما بيده ، والله أعلم

وفاة صاحب سنجار وولاية ابنه ثم مقتله وولاية أخيه

ثم توفي قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود بن الاتابك زنكي صاحب سنجار في ثامن صفر سنة ست عشرة وستمائة ، وكان حسن السيرة مسلماً الى نوابه . وملك بعده ابنه عماد الدين شاهين شاه ، واشتمل الناس عليه شهوراً . ثم سار الى تل اعفر فاغتاله أخوه عمر ، دخل اليه في جماعة فقتلوه وملك بعده . وبقي مدة الى أن تسلم الاشرف بن العادل مدينة سنجار في جمادي سنة سبع عشر وستمائة ، والله أعلم .

استيلاء عماد الدين على قلعة كواشي ولؤلؤ على تل أعفر والأشرف على سنجار

كانت كواشي من أحسن قلاع الموصل وآمنعه وأعلاه ، ولما رأى الجند الذين بها بعد أهل العمادية واستبدادهم بأنفسهم طمعوا في مثل ذلك ، وأخرجوا نواب لؤلؤ عنهم وتمسكوا باظهار الطاعة على البعد خوفاً على رهائنهم بالموصل . ثم استدعوا عماد الدين زنكي وسلموا له القلعة ، وأقام عندهم وبعث لؤلؤ الى مظفر الدين يذكره العهود التي لم يجز ثلمها بعد ، فأعرض وأرسل الى الاشرف بحلب يستنجده فسار وعبر الفرات الى حران . وكان مظفر الدين صاحب

اربل يراسل الملوك بالاطراف ويغريهم بالاشرف ويخوّفهم غائلته . ولما كان بين كيكاوس بن كنخسرو صاحب الروم من الفتنة ما نذكره في أخباره ، وسار كيكاوس الى حلب دعا مظفر الدين الملوك بناحيته الى وفاق كيكاوس مثل صاحب كيفا وآمد وصاحب ماردين فأطاعوه وخطبوا له في أعمالهم .

ومات كيكاوس وفي نفس الاشرف منه ومن مظفر الدين ما في نفسه . ولما سار الاشرف الى حران لمظاهرة لؤلؤ وارسل مظفر الدين جماعة من أمرائه مثل أحمد بن علي المشطوب وعزالدين محمد بن بدر الحيدي وغيرهما ، واستمالهم ففارقوا الأشرف ونازلوا دبيس تحت ماردين ليجتمعوا مع ملوك الاطراف لمدافعة الاشرف . واستمال الاشرف صاحب آمد وأعطاه مدينة حالى وجبل حودي ، ووعده بدارا اذا ملكها فأجاب وفارقهم اليه . واضطرّ آخرون منهم الى طاعته فانحلّ أمرهم . وانفرد ابن المشطوب بمشاقة الاشرف فقصد اربل ومر بنصيبين فقاتله شيخ بها فانهزم الى سنجار فأسره صاحبها . وأطلقه فجمع المفسدين ، وقصد البقعا من أعمال الموصل فاكتسح نواحيها وعاد .

ثم سار من سنجار ثانية الى الموصل ، وأرصد له لؤلؤ عسكراً فاعترضوه فهزمه . واجتاز بتل أعفر من أعمال سنجار فأقاموا عليها وبعثوا الى لؤلؤ فسار وحاصرها وملكها في ربيع سنة سبع عشرة

وستمائه ، وأسر ابن المشطوب وجاء به الى الموصل . ثم بعث به الى الاشرف فحبسه بحران سنين ، وهلك في محبسه . ولما أطاع صاحب آمد الاشرف رحل من حران الى ماردين ، ونزل دبيس وحاصر ماردين ، ومعه صاحب آمد . وترددت الرسل بينه وبين صاحب ماردين على أن يرد عليه رأس العين . وكان الأشرف قد أقطعها له على أن يحمل اليه ثلاثين الف دينار ، وأن يعطي لصاحب آمد الورزني بلد [1] وانعقد الصلح بينهما ، وارتحل الاشرف من دبيس الى نصيبين يريد الموصل ، فلقيه رسل صاحب سنجار يطلب من يتسلمها منه على أن يعوّضه الأشرف منها بالرقّة بما أدركه من الخوف عند استيلاء لؤلؤ على تل أعفر ونفرة أهل دولته عنه لقتله أخاه كما ذكرناه . فأجابه الاشرف وأعطاه الرقة ، وملك سنجار في جمادى سنة سبع عشرة وستمائة ، ورحل عنها باهله وعشيرته وانقراض امر بني زنكي منها بعد اربع وتسعين سنة ، والبقاء لله وحده

صلح الأشرف مع مظفر الدين

ولما ملك الاشرف سنجار سار الى الموصل ، ووافاه بها رسل الخليفة الناصر ومظفر الدين صاحب اربل في الصلح ، وردّ القلاع المأخوذة من ايالة الموصل على صاحبها لؤلؤ ما عدا العمادية فتبقى بيد زنكي . وتردد الحديث في ذلك شهرين ، ولم يتم فرحل الأشرف بقصد

(١) كذا بياض بالأصل، وأخطاء في الأسماء، وفي الكامل ج ٩ ص ٣٢٣: ويأخذ منه صاحب آمد الموزر من بلد شختان، فلما تم الصلح سار الأشرف من دنيسر إلى نصيبين يريد الموصل.

إربل حتى قارب نهر الزاب .وكان العسكر قد ضجروا سوء صاحب آمد مع مظفر الدين فأشار باجابته الي ما سأل ، ووافق على ذلك . أصحاب الاشرف فانعقد الصلح ، وساق زنكي الي الاشرف رهينة على ذلك . وسلمت قلعة العقر وشوش لنواب الاشرف وهما لزنكي رهناً أيضا . وعاد الاشرف الى سنجار في رمضان سنة سبع عشرة . وبعثوا الى القلاع فلم يسلمها جندها وامتنعوا بها . واستجار عمادالدين زنكي بشهاب ابن العادل فاستعطف له أخاه الاشرف فأطلقه ، ورد عليه قلعتي العقروشوش . وصرف نوابه عنهما . وسمع لؤلؤ الاشرف يميل الى قلعة تل اعفر ، وانها لم تزل لسنجار قديما فبعث اليه بتسليمها ، والله تعالى أعلم

رجوع قلاع الهكارية والزوزان الى طاعة صاحب الموصل

لما رأى زنكي أنه ملك قلاع الهكارية والزوزان وساوة ،فلم يروا عنده ما ظنوه من حسن السيرة كما يفعله لؤلؤ ، وطلبوه في الاقطاع فأجابهم . واستأذن الاشرف فلم يأذن له ، وجاء زنكي من عند الأشرف فحاصر العمادية ، ولم يبلغ منها غرضاً فأعادوا مراسلة لؤلؤ فاستأذن الأشرف ، وأعطاه قلعة جديدة ونصيبين وولايةمابين النهرين وأذن له في تملك القلاع ، وأرسل نوابه اليها ، ووفى لهم بما عاهدهم عليه . وتبعهم بقية القلاع من أعمال الموصل فدخلوا كلهم في طاعة لؤلؤ وانتظم له ملكها ، والله تعالى أعلم

استيلاء صاحب الموصل على قلعة سوس

كانت قلعة سوس وقلعة العقر متجاورتين على اثني عشر فرسخاً من الموصل ، وكانتا لعماد الدين زنكي بن نور الدين أرسلان شاه بوصية أبيه كما مر . وملك معها قلاع الهكارية والزوزان ، ورجعت الى الموصل وسار هو سنة تسعة عشر الى ازبك بن البهلوان صاحب أذربيجان من بقية السلجوقية فسار معه ، وأقطع له الاقطاعات وأقام عنده فسار لؤلؤ من الموصل الى قلعة سوس فحاصرها وضيق عليها . وامتنعت عليه فجمر العساكر لحصارها وعاد الى الموصل . ثم اشتد الحصار بأهلها ، وانقطعت عنهم الاسباب فاستأمنوا الى لؤلؤ ونزلوا له عنها على شروط اشترطوها وقبلها ، وبعث نوابه عليها ، والله تعالى أعلم

حصار مظفر الدين الموصل

كان الاشرف بن العادل بن أيوب قد استولى على الموصل ، ودخل لؤلؤ في طاعته واستولى على خلاط وسائر ارمينية ، وأقطعها أخاه شهاب الدين غازي ، ثم جعله ولي عهده في سائر أعماله . ثم نشأت الفتنة بينهما فاستظهر غازي بأخيه المعظم صاحب دمشق وبمظهر الدين كوكبري . وتداعوا لحصار الموصل فجمع أخوهما الكامل عساكره ،

وسار الى خلاط فحاصرها بعد ان بعث الى المعظم صاحب دمشق وتهدّده فأقصر عن مظاهرة أخيه . واستنجد غازي مظفر الدين كوكبري صاحب اربل فسار الى الموصل وحاصرها ليأخذ بحجزة الأشرف عن خلاط . ونهض المعظّم صاحب دمشق لانجاد أخيه غازي وكان لؤلؤ صاحب الموصل قد استعدّ للحصار فأقام عليها مظفر الدين عشراً . ثم رحل منتصف احدى وعشرين لامتناعها عليه ، ولقيه الخبر بأن الاشرف قد ملك خلاط من يد أخيه فندم على ما كان منه .

انتقاض أهل العمادية على لؤلؤ ثم استيلاؤه عليها

قد تقدم لنا انتقاض أهل قلعة العمادية من أعمال الموصل سنة خمس عشرة ، ورجوعه الى عماد الدين زنكي ، ثم عودهم الى طاعة لؤلؤ فأقاموا على ذلك مدة . ثم عادوا الى ديدنهم من التمريض في الطاعة وتجنوا على لؤ لؤ بعزل نوابه فعزلهم مرّة بعد أخرى . ثم استبدّ بها أولاد خواجا ابراهيم وأخوه فيمن تبعهم ، وأخرجوا من خالفهم وأظهروا العصيان على لؤلؤ فسار اليهم سنة اثنتين وعشرين ، وحاصرهم وقطع الميرة عنهم . وبعث عسكراً الى قلعة هزوران وقد كانوا اتبعوا اهل العمادية في العصيان فحاصرهم حتى استأمنوا وملكها . ثم جهز العساكر الى العمادية مع نائبه أمين الدين ، وعاد الى الموصل واستمرّ الحصار الى ذي القعدة من السنة . ثم راسلوا أمين الدين في الصلح على مال وأقطاع وعوض عن القلعة ، وأجاب لؤلؤ الى ذلك . وكان أمين الدين

قد وليها قبل ذلك فكان له فيها بطانة مستمدون على عهده ومكاتبته، وسخط كثير من أهل البلد فعل أولاد خواجا ابراهيم واستئثارهم بالصلح دونهم فوجد أولئك البطانة سبيلاً الى التسلط عليهم، ودسوا لأمين الدين أن يبيت البلد ويصالحها فصالحهم فوثبوا بأولاد خواجا، ونادوا بشعار لؤلؤ فصعد العسكر القلعة وملكها أمين الدين وبعث بالخبر الى لؤلؤ قبل أن ينعقد اليمين مع وفد أولاد خواجا . والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق .

مسير مظفر الدين صاحب أربل الى أعمال الموصل وعوده منها

كان جلال الدين شكري بن خوارزم شاه قد غلبه التتر أول خروجهم سنه سبع عشرة وستمائة على خوارزم وخراسان وغزنه، وفرّ أمامهم الي الهند، ثم رجع عنها سنة اثنتين وعشرين، واستولى على العراق، ثم على اذربيجان وجاور الاشرف بن العادل في ولايته بخلاط والجزيرة، وحدثت بينهما الفتنة . وراسله اعيان الاشرف في الاغراء به مثل : مظفر الدين صاحب اربل، ومسعود صاحب آمد وأخيه المعظم صاحب دمشق . واتفقوا على ذلك، وسار جلال الدين الى خلاط وسار مظفر الدين الى الموصل، وانتهى الى الزاب ينتظر الخبر عن جلال الدين، وسار المعظم صاحب دمشق الى حمص وحماة . وبعث لؤلؤ من الموصل يستنجد الاشرف فسار الي حرّان، ثم الى

دبيس فاكتسح أعمال ماردين . وكان جلال الدين قد بلغه انتقاض نائبه بِكرمان فاغذ السير اليه ، وترك خلاط بعد ان عاث في أعمالها ، وفت ذلك في أعضاد الآخرين ، وعظمت سطوة الاشرف بهم . وبعث اليه أخوه المعظم وقد نازل حمص وحماة يتوعده بمحاصرتها ومحاصرة مظفر الدين الموصل ، فرجع إلى ماردين ، ورجع الاخران عن حمص وحماة والموصل ولحق كل ببلده ، والله تعالى أعلم .

مسير التتر في بلاد الموصل وأربل

ولما أوقع بجلال الدين خوارزم شاه على آمد سنة ثمان وعشرين وقتلوه ، ولم يبق لهم مدافع من الملوك ولا مانع انساحوا في البلاد طولاً وعرضاً ، ودخلوا ديار بكر ، واكتسحوا سواد آمد وارزن وميافارقين وحاصروا [1] وملكوها بالامان . ثم استباحوها وساروا الى ماردين فعاثوا في نواحيها . ثم دخلوا الجزيرة واكتسحوا اعمال نصيبين . ثم مرّوا الى سنجار فنهبوها ، ودخلوا الخابور واستباحوه . وسارت طائفة منهم الى الموصل فاستباحوا أعمالها ، ثم أعمال اربل وأفحشوا فيها . وبرز مظفر الدين في عساكره ، واستمد عساكر الموصل فبعث بها لو لو اليه ، ثم عاد التتر عنهم الى اذربيجان فعاد كل الى بلاده ، والله أعلم

(١) هنا بياض بالأصل، ولم نعثر بالمصادر التي بين أيدينا على اسم المكان الذي حاصروه وملكوه.

وفاة مظفر الدين صاحب أربل وعودها الى الخليفة

ثم توفي مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كجك صاحب اربل سنة تسع وعشرين لاربع وأربعين سنة من ولايته عليها ؛ أيام صلاح الدين بعد أخيه يوسف ؛ ولم يكن له ولد فأوصى باربل للخليفة المستنصر فبعث اليها نوابه ، واستولى عليها وصارت من أعماله والله تعالى أعلم

بقية أخبار لؤلؤ صاحب الموصل

كان عسكر خوارزم شاه بعد مهلكه سنة ثمان وعشرين على آمد لحقوا بصاحب الروم كيقباد فاستنجدهم وهلك سنة أربع وثلاثين وستمائة ، وولي ابنه كنخسرو فقبض على أميرهم ومرّ الباقون وانتبذوا بأطراف البلاد . وكان الصالح نجم الدين أيوب في حران ، وكيفا وآمد نائباً عن أبيه الملك العادل ، فرأى المصلحة في استضافتهم اليه فاستمالهم ، وأستخدمهم بعد ان اذن أبوه له في ذلك . فلما مات أبوه سنة خمس انتقضوا ولحقوا بالموصل ، واشتمل عليهم لوءلوء وسار معهم فحاصر الصالح بسنجار الى الخوارزمية واستمالهم فرجعوا الى طاعته ، على أن يعطيهم حرّان والرُها ينزلون بها فاعطاهما إياهم وملكوهما ، ثم ملكوا نصيبين من أعمال لوءلوء ، وبنو أيوب يومئذ

متفرقون علـى كراسي الشام ، وبينهم من الانفة والفرقة مـا نتلو عليك قصصه في دولتهم . ثم استقر ملك سنجار للجواد يونس منهم ، وهو ابن مودود بن العادل أخذها من الصالح نجم الدين أيوب عوضاً عن دمشق ، واستولى لؤلؤ على سنجار من يده سنة سبع وثلاثين. ثم حدثت بين صاحب حلب وبين الخوارزمية فتنة ولجأوا يومئذ لصفيّتهم خاتون بنت العادل فبعثت العساكر اليهم مع المعظم بوران شاه بن صلاح الدين فهزموا عساكره ، وأسروا ابن أخيه الأفضل ؛ ودخلوا حلب واستباحوها . ثم فتحوا منبج وعاثوا فيها ، وقطعوا الفرات من الرقة وهم يذهبون . وتبعهم عسكر دمشق وحمص فهزموهم وأثخنوا فيهم ، ولحقوا ببلدهم حران فسارت اليهم عساكر حلب ، واستولوا على حران . ولحق الخوارزمية بغانة وبادر لؤلؤ صاحب الموصل الى نصيبين فملكها من أيديهم .

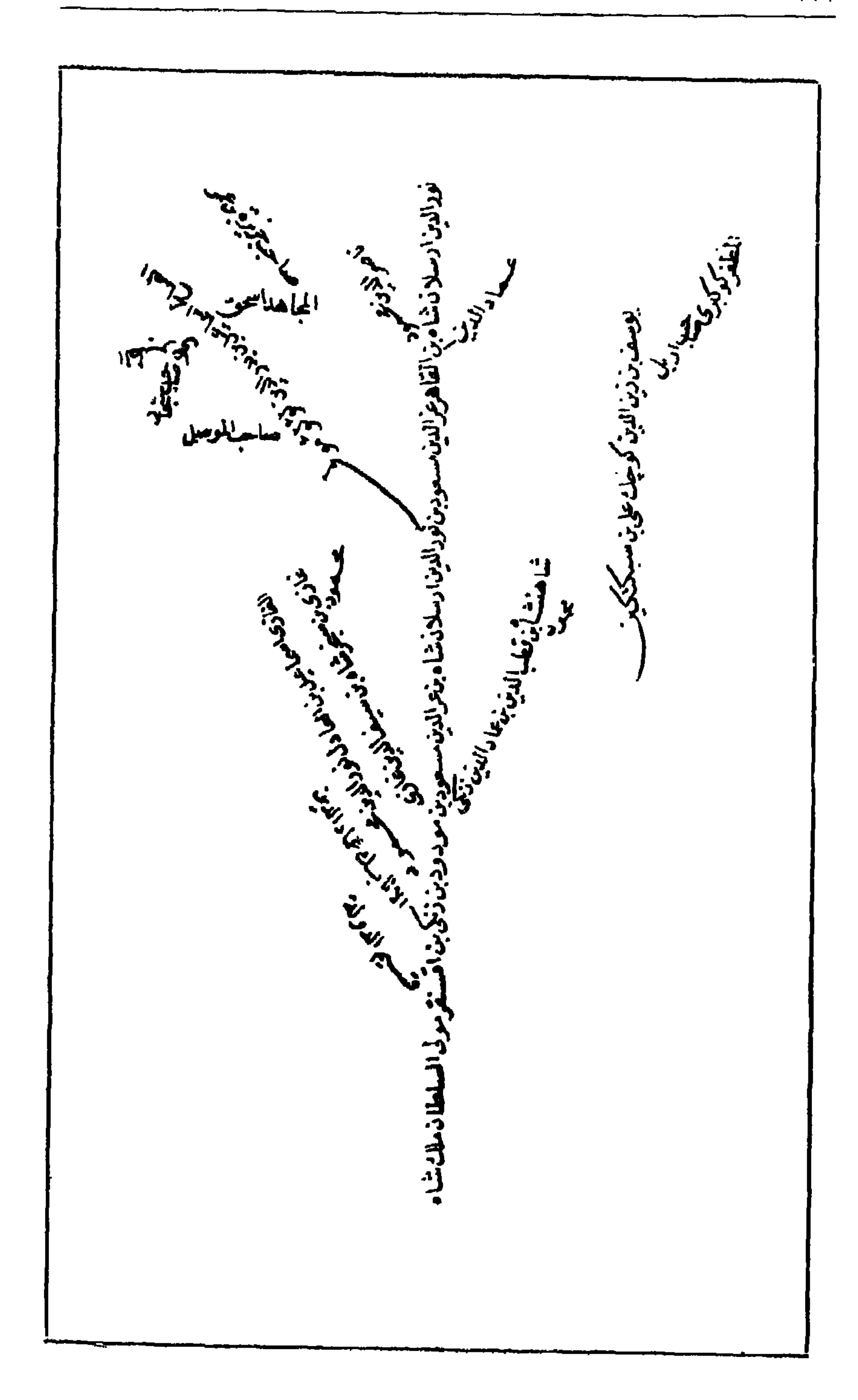
ثم توفيت صفية بنت العـادل سنة أربعـين في حلب ، وكانت ولايتها بعد وفاة أبيها العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين فولي بعدهـا ابنه الناصر يوسف ابن العزيز في كفالة مولاه جيـال الخاتوني . فلما كانت سنة ثمان وأربعين ، وستمائة وقع بـين عسكره وبين بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل حرب انهزم فيها لؤلؤ ، وملـك الناصر نصيبين وقرقيسيا ولحق لؤلؤ بحلب. ثم زحف هلاكو ملك التتر

الى بغداد سنة [1] وملكها ، وقتل الخليفة المستعصم واستلحم العلية من بغداد كما مرّ في أخبار الخلفاء . ويأتي في أخبار التتر ، وتخطى منها الى اذربيجان فبادر لؤلؤ ووصل اليه باذربيجان وآتاه طاعته وعاد الى الموصل ، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده

وفاة صاحب الموصل وولاية ابنه الصالح

ثم توفي بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل سنة سبع وخمسين وستمائة، وكان يلقب الملك الرحيم وملك بعده على الموصل ابنه الصالح اسمعيل ، وعلى سنجار ابنه المظفر علاء الدين علي ، وعلى جزيرة ابن عمر ابنه المجاهد اسحق ، وأبقاهم هلاكو عليها مدة ؛ ثم أخذها منهم ولحقوا بمصر فنزلوا على الملك الظاهر بيبرس كما نذكر في أخباره . وسار هلاكو إلى الشام فملكها وانقرضت دولة الأتابك زنكي وبنيه ومواليه من الشام والجزيرة أجمع كأن لم تكن ، والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ، والبقاء لله تعالى وحده ، والله تعالى أعلم

(١) كذا بياض بالأصل، وقد ذكر أبو الفداء في أخبار البشر هذا الحدث في العشرين من المحرم سنة ست وخمسين وستمائة .



دولة بني أيوب

الخبر عن دولة بني أيوب القائمين بالدولة العباسية وما كان لهم من الملك بمصر والشام واليمن والمغرب وأولية ذلك ومصايره

هذه الدولة من فروع دولة بني زنكي كما نراه ، وجدهم هو أيوب بن شادي بن مروان بن علي بن علي بن عشرة بن الحسن بن علي بن أحمد ابن علي عبد العزيز بن هدبة بن الحصين بن الحرث بن سنان بن عمر مرة بن عوف الحميري الدوسي : هكذا نسبه بعض المؤرخين لدولتهم قال ابن الاثير : انهم من الأكراد الروادية . وقال ابن خلكان : شادي أبوهم من أعيان درين ، وكان صاحبه بها بهروز فأصابه خصي من بعض امرائه وفر حياء من المثلة ، فلحق بدولة السلطان مسعود بن محمد بن ملك الشاه ، وتعلق بخدمة داية بنيه حتى اذا هلك الداية أقامه السلطان لبنيه مقامه فظهرت كفايته ، وعلا في الدولة محله فبعث عن شادي بن مروان صاحبه لما بينهما من الالفة وأكيد الصحبة فقدم عليه.

ثم ولي السلطان بهروز شحنة بغداد فسار اليها ، واستصحب شادي معه . ثم أقطعه السلطان قلعة تكريت فولى عليها شادي فهلك وهو وال عليها . وولى بهروز مكانه ابنه نجم الدين أيوب وهو اكبر من أسد الدين شيركوه ، فلم يزل والياً عليها . ولما زحف عماد الدين

زنكي صاحب الموصل لمظاهرة مسعود على الخليفة المسترشد سنة عشرين وخمسمائة ، وانهزم الاتابك وانكفأ راجعاً الى الموصل ، ومرّ بتكريت قام نجم الدين بعلوفته وازواده ، وعقد له الجسور على دجلة ، وسهل له عبورها . ثم ان شيركوه أصاب دماً في تكريت ولم يفده منه أخوه أيوب فعزله بهروز ، وأخرجها من تكريت فلحقا بعماد الدين بالموصل فأحسن اليهما واقطعهما .

ثم ملك بعلبك سنة اثنتين وثلاثين جعله نائباً بها ، ولم يزل بها أيوب . ولما مات عماد الدين زنكي سنة احدى وأربعين زحف صاحب دمشق فخر الدين طغركين الى بعلبك وحاصرها ، واستنزل أيوب منها على ما شرط لنفسه من الاقطاع ، وأقام معه بدمشق . وبقي شيركوه مع نور الدين محمود بن زنكي ، وأقطعه حمص والرحبة لاستطلاعه وكفايته ، وجعله مقدّم عساكره . ولما صرف نظره الى الاستيلاء على دمشق ، واعتزم على مداخلة اهلها ، وكان ذلك على يد شيركوه وبمكاتبته لأخيه أيوب ، وهو بدمشق فتم ذلك على أيديهما وبمحاولتهما ، وملكها سنة تسع وأربعين وخمسمائة . وكانت دولة العلويين بمصر قد أخلقت جدّتها ، وذهب استفحالها واستبد وزراؤها على خلفائها . فلم يكن الخلفاء يملكون معهم . وطمع الافرنج في سواحلهم وامصارهم لما نالهم من الهرم والوهن ، فالوا عليهم وانتزعوا البلاد من أيديهم ، وكانوا يردون عليهم كرسي خلافتهم بالقاهرة ، ووضعوا عليهم الجزية

وهم يتجرعون المصاب من ذلك، ويتحملونه مع بقاء أمرهم. كاد الاتابك زنكي وقومه السلجوقية من قبله أن يمحوا دعوتهم، ويذهبوا بدولتهم. واقاموا من ذلك على مضض وقلق وجاء الله بدعوة العاضد آخرهم.

وتغلب عليه بعد الصالح بن رزّيك شاور السعدي، وقتل رزّيك ابن صالح سنة ثمان وخمسين، واستبد على العاضد. ثم نازعه الضرغام لتسعة اشهر من ولايته وغلبه واخرجه من القاهرة فلحق بالشام، ولحق بنور الدين صريخاً سنة تسع وخمسين، وشرط له على نفسه ثلث الجباية بأعمال مصر، على ان يبعث معه عسكراً يقيمون بها فأجابه الى ذلك، وبعث اسد الدين شيركوه في العساكر فقتل الضرغام، ورد شاور الى رتبته وآل امرهم الى محو الدولة العلوية، وانتظام مصر واعمالها في ملكة ابن ايوب بدعوة نور الدين محمود بن زنكي، ويخطب للخلفاء العباسيين لما هلك نورالدين محمود واستبد صلاح الدين بأمره في مصر. ثم غلب على بني نور الدين محمود، وملك الشام من ايديهم وكثر عيث ابن عمهم مودود واستفحل ملكه، وعظمت دولة بنيه من بعده الى ان انقرضوا والبقاء لله وحده.

مسير أسد الدين شيركوه الى مصر واعادة شاور الى وزارته

لما اعتزم نور الدين محمود صاحب الشام على صريخ شاور، وارسال العساكر معه واختار لذلك أسد الدين شيركوه بن شادي،

وكان من أكبر أمرائه فاستدعاه من حمص وكان أميرا عليها وهي أقطاعه ، وجمع له العساكر وأزاح عللهم . وفصل بهم شيركوه من دمشق في جمادى سنة تسع وخمسين . وسار نورالدين بالعساكر الى بلاد الافرنج ليأخذ بحجزتهم عن اعتراضه أو صده ، لما كان بينهم وبين صاحب مصر من الإلفة والتظاهر ، ولما وصل أسد الدين بلبيس لقيه هنالك ناصر الدين أخو الضرغام وقاتله فانهزم ، وعاد الى القاهرة مهزوماً . وخرج الضرغام منسلخ جمادى الاخيرة فقتل عند مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها ، وقتل أخوه ، وأعاد شاور الى وزارته وتمكن فيها . وصرف أسد الدين الى بلده وأعرض عما كان بينهما فطالبه أسد الدين بالوفاء ، فلم يجب اليه فتغلب أسد الدين على بلبيس والبلاد الشرقية . وبعث شاور الى الافرنج يستنجدهم ، ويعدهم فبادروا الى اجابته ، وسار بهم ملكهم مرى لخوفهم أن يملك أسدالدين مصر ، واستعانوا بجمع من الافرنج جاءوا لزيارة القدس .

وسار نور الدين اليهم ليشغلهم فلم يثنهم ذلك وطمعوا لعزمهم ورزأ أسد الدين الى بلبيس ، واجتمعت العساكر المصرية والافرنج عليه ، وحاصروه ثلاثة أشهر وهو يغاديهم القتال ويراوحهم ، وامتنع عليهم ، وقصاراهم منع الاخبار عنه . واستنفر نور الدين ملوك الجزيرة وديار بكر وقصر حارم . وسار الافرنج لمدافعته فهزمهم وأثخن فيهم .

وأسر صاحب انطاكية وطرابلس وفتح حارم قريباً من حلب. ثم سار الى بانياس قريباً من دمشق ففتحها كما مرّ في أخبار نور الدين. وبلغ الخبر بذلك الى الافرنج وهم محاصرون أسد الدين في بلبيس ففت في عزائمهم، وطووا الخبر عنه وراسلوه في الصلح على أن يعود الى الشام فصالحهم، وعاد الى الشام في ذي الحجة من السنة، والله تعالى أعلم

مسير أسد الدين ثانيا الى مصر وملكه الاسكندرية ثم صلحه عليها وعوده

ولما رجع أسد الدين الى الشام لم يزل في نفسه ما كان من غدر شاور، وبقي يشحن لغزوهم الى سنة اثنتين وستين فجمع العساكر وبعث معه نور الدين جماعة من الامراء، وأكثف له العسكر خوفاً على حامية الاسلام، وسار أسد الدين الى مصر، وانتهى الى اطفيح وعبر منها الى العدوة الغربية، ونزل الجيزة وأقام نحواً من خمسين يوماً. وبعث شاور الى الافرنج يستمدّهم على العادة، وعلى ما لهم من التخوف من استفحال ملك نور الدين وشيركوه فسارعوا الى مصر، وعبروا مع عساكرها الى الجيزة، وقد ارتحل عنها أسدالدين الى الصعيد، وانتهى منها الى [1] واتبعوه وأدركوه بها منتصف اثنتين وستين

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٩٥: وكان أسد الدين وعساكره قد ساروا إلى الصعيد فبلغ مكاناً يعرف بالبابين.

ولما رأى كثرة عددهم واستعدادهم مع تخاذل اصحابه فاستشارهم فاشار بعضهم بعبور النيل الى العدوة الشرقية والعود الى الشام وابى زعماؤهم إلاّ الاستماتة سيما مع خشية العتب من نور الدين ، وتقدّم صلاح الدين بذلك ؛ وأدركهم القوم على تعبية وجعل صلاح الدين في القلب ، واوصاه ان يندفع امامهم ، ووقف هو في الميمنة مع من وثق باستماتته. وحمل القوم على صلاح الدين فسار بين ايديهم على تعبيته وخالفهم اسد الدين الى مخلفهم فوضع السيف فيهم واثخن قتلًا واسراً. ورجعوا عن صلاح الدين يظنون انهم ساروا منهزمين فوجدوا اسد الدين قد استولى على مخلفهم واستباحه فانهزموا الى مصر .

وسار أسد الدين الى الاسكندرية فتلقاه أهلها بالطاعة ، واستخلف بها صلاح الدين ابن أخيه . وعاد الى الصعيد فاستولى عليه، وفرّق العمال على جباية أمواله . ووصلت عساكر مصر والافرنج الى القاهرة ، وازاحوا عللهم وساروا الى الاسكندرية فحاصروا بها صلاح الدين ، وجهده الحصار . وسار أسد الدين من الصعيد لامداده ، وقد انتقض عليه طائفة من التركمان من عسكره . وبينما هو في ذلك جاءته رسل القوم في الصلح على أن يرد عليهم الاسكندرية ، ويعطوه خمسين ألف دينار سوى ما جباه من أموال الصعيد فأجابهم الى ذلك ، على أن يرجع الافرنج الى بلادهم ، ولا يملكوا من البلاد قرية فانعقد ذلك بينهم منتصف شوّال .

وعاد أسد الدين وأصحابه الى الشام منتصف ذي القعدة . ثم شرط الافرنج على شاور ان ينزلوا بالقاهرة شحنة ، وتكون أبوابها بأيديهم ليتمكنوا من مدافعة نور الدين ، فضربوا عليه مائة ألف دينار في كل سنة جزية فقبل ذلك ، وعاد الافرنج الى بلادهم بسواحل الشام وتركوا بمصر جماعة من زعمائهم . وبعث الكامل أبا شجاع شاور الى نور الدين بطاعته ، وأن يبث بمصر دعوته . وقرر على نفسه مالاً يحمل كل سنة الى نور الدين فأجابه الى ذلك وبقي شيعة له بمصر ، والله تعالى أعلم .

استيلاء أسد الدين على مصر ومقتل شاور

ولما ضرب الافرنج الجزية على القاهرة ومصر ، وأنزلوا بها الشحنة وملكوا أبوابها تمكنوا من البلاد ، وأقاموا فيها جماعة من زعمائهم فتحكموا واطلعوا على عورات الدولة ، فطمعوا فيما وراء ذلك من الاستيلاء وراسلوا بذلك ملكهم بالشام ، واسمه مرى ، ولم يكن ظهر بالشام من الافرنج مثله فاستدعوه لذلك وأغروه فلم يجبهم ، واستحثه أصحابه لملكها . وما زالوا يفتلون له في الذروة والغارب ، ويوهمونه القوة بتملكها على نور الدين ، ويريهم هو أن ذلك يؤل الى خروج اصحابها عنها لنور الدين فيبقى بها الى ان غلبوا عليه . فرجع الى رأيهم . وتجهز وبلغ الخبر نور الدين فجمع عساكره ، واستنفر من في

ثغوره . وسار الافرنج الى مصر مفتتح اربع وستين فملكوا بلبيس عنوة في صفر واستباحوها وكاتبهم جماعة من أعداء شاور فأنسوا مكاتبتهم ، وساروا الى مصر ونازلوا القاهرة .

وأمر شاور باحراق مدينة مصر لينتقل أهلها الى القاهرة فيصبط الحصار فانتقلوا وأخذهم الحريق ، وامتدت الأيدي وانتهبت أموالهم واتصل الحريق فيها شهرين . وبعث العاضد الى نور الدين يستغيث به فأجاب وأخذ في تجهيز العساكر فاشتدّ الحصار على القاهرة ، وضاق الامر بشاور فبعث الى ملك الافرنج يذكره بقديمه ، وانّ هواه معه دون العاضد ونور الدين ، ويسأل في الصلح على المال لنفور المسلمين مما سوى ذلك فأجابه ملك الافرنج على ألف ألف دينار لما رأى من امتناع القاهره ، وبعث اليهم شاور بمائة الف منها ، وسألهم في الافراج فارتحلوا .

وشرع في جمع المال فعجز الناس عنه ورسل العاضد خلال ذلك تردّد الى نور الدين في أن يكون أسد الدين وعساكره حامية عنده وعطاؤهم عليه ، وثلث الجباية خالصة لنور الدين فاستدعى نور الدين أسد الدين من حمص وأعطاه مائتي ألف دينار ، وجهزه بما يحتاجه من الثياب والدواب والاسلحة ، وحكمه في العساكر والخزائن ونقل العسكر عشرين ديناراً لكل فارس ، وبعث معه من أمرائه مولاه عزالدين خردك ، وعز الدين قليج ، وشرف الدين برغش وعز الدولة

الباروقي وقطب الدين نيال بن حسان المنبجي . وأمد صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عمه أسد الدين فتعلل عليه ، واعتزم عليه فأجاب . وسار أسد الدين منتصف ربيع . فلما قارب مصر رجع الافرنج الى بلادهم فسر بذلك نور الدين ، وأقام عليه البشائر في الشام .

ووصل أسد الدين القاهرة ودخلها منتصف جمادى الاخيرة ونزل بظاهرها ، ولقي العاضد وخلع عليه وأجرى عليه وعلى عساكره الجرايات والاتاوات . وأقام أسد الدين ينتظر شرطهم ، وشاور يماطله ويعلله بالمواعيد . ثم فاوض أصحابه في القبض على أسد الدين واستخدام جنده فمنعه ابنه الكامل من ذلك فأقصر . ثم أشرف أصحاب أسد الدين على اليأس من شاور ، وتفاوض أمراؤه في ذلك فاتفق صلاح الدين ابن أخيه وعز الدين خردك على قتل شاور وأسد الدين ينهاهم . وغدا شاور يوماً على أسد الدين في خيامه فألفاه قد ركب لزيارة تربة الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه ،فتلقاه صلاح الدين وخردك ، وركبوا معه لقصد أسد الدين فقبضوا عليه في طريقهم ، وطيروا بالخبر الى أسد الدين . وبعث العاضد لوقته يحرضهم على قتله فبعثوا اليه برأسه ، وامر العاضد بنهب دوره فنهبها العامة .

وجاء أسد الدين لقصر العاضد فخلع عليه الوزارة ، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش . وخرج له من القصر منشور من انشاء القاضي

الفاضل البيساني ، وعليه مكتوب بخط الخليفة ما نصه : هذا عهد لا عهد لوزير بمثله ، فتقلد ما رآك الله وأمير المؤمنين أهلاً لحمله ، وعليك الحجة من الله فيما أوضح لك من مراشد سبله ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك الى بنوة النبوة ، واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلاً ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا

ثم ركب أسد الدين الى دار الوزارة التي كان فيها شاور ، وجلس مجلس الامر والنهي وولى على الاعمال، وأقطع البلاد للعساكر، وأمن أهل مصر بالرجوع الى بلادهم ورمّها وعمارتها.وكاتب نورالدين بالواقع مفصلاً وانتصب للامور . ثم دخل للعاضد ، وخطب الاستاذ جوهر الخصي عنه وهو يومئذ أكبر الاساتيذ فقال : يقول لك مولانا نؤثر مقامك عندنا من أول قدومك ، وأنت تعلم الواقع من ذلك ، وقد تيقنا أن الله عز وجل ادّخرك لنا نصرة على أعدائنا فحلف له اسد الدين على النصيحة واظهار الدولة . فقال الاستاذ عن العاضد الامر بيدك هذا وأكثر . ثم جددت الخلع واستخلص أسد الدين الجليس عبد القوي . وكان قاضي القضاة وداعي الدعاة واستحسنه واختصه . واما الكامل بن شاور فدخل القصر مع اخوته معتصمين به ، وكان آخر العهد به وأسف أسد الدين عليه لما كان منه في ردّ ابيه ، وذهب كل بما كسب ، والله تعالى اعلم

وفاة أسد الدين وولاية ابن اخيه صلاح الدين

ثم توفي اسد الدين شيركوه آخر جمادى الاخيرة من سنة أربع وستين لشهرين من وزارته. ولما احتضر أوصى احد حواشيه بهاء الدين قراقوش فقال له: «الحمد لله الذي بلغنا من هذه الديار ما اردنا، وصار أهلها راضين عنا فلا تفارقوا سور القاهرة، ولا تفرّطوا في الاسطول» ولما توفي تشوّف الامراء الذين معه الى رتبة الوزارة مكانه مثل عز الدولة الباروقي، وشرف الدين المشطوب الهكاري، وقطب الدين نيال بن حسّان المنبجي وشهاب الدين الحارمي، وهو خال صلاح الدين، وجمع كل لمغالبة صاحبه. وكان أهل القصر وخواص الدولة قد تشاوروا فأشار جوهر باخلاء رتبة الوزارة، واصطفاء ثلاثة آلاف من عسكر الغز يقودهم قراقوش، ويعطي لهم الشرقية اقطاعا ينزلون بها حشداً دون الافرنج[1] من يستبدّ على الخليفة بل يقيم واسطه بينه وبين الناس على العادة. وأشار آخرون باقامة صلاح الدين مقام عمه والناس تبع له، ومال القاضي لذلك حياء من صلاح الدين وجنوحاً الى صغر سنه، وأنه لا يتوهّم فيه من الاستبداد ما يتوهم في غيره من أصحابه، وأنهم في سعة من رأيهم مع ولايته فاستدعاه وخلع عليه، ولقبه الملك الناصر.

واختلف عليه أصحابه فلم يطيعوه وكان عيسى الهكاري شيعة له،

(١) كذا بياض بالأصل، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على تصويب هذه العبارة.

واستمالهم اليه إلا الباروقي فانه امتنع وعاد الى نور الدين بالشام وثبتت قدم صلاح الدين في مصر ، وكان نائباً عن نور الدين ونور الدين يكاتبه بالامير الاسفهسار ، ويجمعه في الخطاب مع كافة الامراء بالديار المصرية . ومازال صلاح الدين يحسن المباشرة ويستميل الناس ، ويفيض العطاء حتى غلب على أفئدة الناس ، وضعف امر العاضد . ثم أرسل يطلب اخوته وأهله من نور الدين فبعث بهم اليه من الشام . واستقامت أموره واطردت سعادته ، والله تعالى ولي التوفيق .

واقعة السودان بمصر

كان بقصر العاضد خصيّ حاكم على أهل القصر يدعى مؤتمن الخلافة ، فلما غصّ أهل الدولة بوزارة صلاح الدين داخل جماعة منهم ، وكاتب الافرنج يستدعيهم ليبرز صلاح الدين لمدافعتهم فيثوروا بخلفه . ثم يتبعونه وقد ناشب الافرنج فيأتون عليه . وبعثوا الكتاب مع ذي طمرين حمله في [(1)] نعاله فاعترضه بعض التركمان واستلبه ، ورأوا النعال جديدة فاسترابوا بها فجاؤا به الى صلاح الدين فقرأ الكتاب ، ودخل على كاتبه فأخبره بحقيقة الامر فطوى ذلك . وانتظر مؤتمن الخلافة حتى خرج الى بعض قراه متنزهاً وبعث من جاء برأسه ،

(١) كذا بياض بالأصل وفي الكامل ج ٩ ص ١٠٣ : وسيروا الكتب مع إنسان يثقون إليه وأقاموا ينتظرون جوابه ، وسار ذلك إلى العاضد إلى البئر البيضاء فلقيه إنسان تركماني فرأى معه نعلين جديدين فأخذهما منه ، وارتاب به وبهما فأتى به صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتاب فيهما فقرأه وسكت عليه .

ومنع الخصيان بالقصر عن ولاية أموره ، وقدّم عليهم بهاء الدين قراقوش خصياً أبيض من خدمه ، وجعل اليه جميع الامور بالقصر وامتعض السودان بمصر لمؤتمن الخلافة . واجتمعوا لحرب صلاح الدين. وبلغوا خمسة آلاف وناجزوا عسكره من القصر في ذي القعدة من السنة. وبعث الى محلتهم بالمنصورة من أحرقها ، على أهليهم واولادهم. فلما سمعوا بذلك انهزموا واخذهم السيف في السكك فاستأمنوا وعبروا الى الجيزة فسار اليهم شمس الدولة اخو صلاح الدين في طائفة من العسكر فاستلحمهم وأبادهم ، والله اعلم .

منازلة الافرنج دمياط وفتح ايلة

ولما استولى صلاح الدين على دولة مصر ، وقد كان الافرنج أسفوا على ما فاتهم من صدّه وصدّ عمه عن مصر ، وتوقعوا الهلاك من استطالة نور الدين عليهم بملك مصر فبعثوا الرهبان والأقسّة الى بلاد القرآنية يدعونهم الى المدافعة عن بيت المقدس ، وكاتبوا الافرنج بصقلية والاندلس يستنجدونهم فنفروا واستعدّوا لامدادهم. واجتمع الذين بسواحل الشام في فاتح خمس وستين وثلثمائة ، وركبوا في ألف من الاساطيل ، وأرسلوا لدمياط ليملكوها ويقربوا من مصر . وكان صلاح الدين قد ولاها شمس الخواص منكبرس فبعث اليه بالخبر فجهز اليها بهاء الدين قراقوش ، وأمراء الغز في البر

متتابعين ، وواصل المراكب بالاسلحة والاتاوات ، وخاطب نورالدين يستمده لدمياط لانه لا يقدر على المسير اليها خشية من أهل الدولة بمصر ، فبعث نور الدين اليها العساكر أرسالاً . ثم سار بنفسه وخالف الافرنج الى بلادهم بسواحل الشام فاستباحها وخربها .

وبلغهم الخبر بذلك على دمياط ، وقد امتنعت عليهم ، ووقع فيهم الموتان فأقلعوا عنها لخمسين يوماً من حصارها . ورجع أهل سواحل الشام لبلادهم فوجدوها خراباً . وكان جملة ما بعثه نور الدين في المدد لصلاح الدين في شأن دمياط هذه ألف ألف دينار سوى الثياب والاسلحة وغيرها . ثم أرسل صلاح الدين الى نور الدين في منتصف السنة يستدعي منه أباه نجم الدين أيوب فجهزه اليه مع عسكر ، واجتمع معهم من التجار جماعة . وخشي عليهم نور الدين في طريقهم من الافرنج الذين بالكرك فسار الى الكرك وحاصرهم بها .

وجمع الافرنج الاخرون فصمد للقائهم فخاموا عنه ، وسار في وسط بلادهم ، وسار الى عشيرا ، ووصل نجم الدين أيوب الى مصر ، وركب العاضد لتلقيه . ثم سار صلاح الدين سنة ست وستين لغزو بلاد الافرنج ، وأغار على أعمال عسقلان والرملة . ونهب ربط غزة ولقي ملك الافرنج فهزمه ، وعاد الى مصر . ثم أنشأ مراكب وحملها مفصّلة على الجمال الى أيله فألفها وألقاها في البحر ، وحاصر أيله براً وبحراً ،

وفتحها عنوة في شهر ربيع من السنة ، واستباحها وعاد الى مصر فعزل قضاة الشيعة، وأقام قاضياً شافعياً فيها . وولى في جميع البلاد كذلك. ثم بعث أخاه شمس الدولة توران شاه الى الصعيد فأغار على العرب وكانوا قد عاثوا وأفسدوا فكفهم عن ذلك ، والله تعالى أعلم

الخطبة العباسية بمصر

اقامة الخطبة العباسية بمصر

ثم كتب نور الدين باقامة الخطبة للمستضيء العباسي ، وترك الخطبة للعاضد بمصر فاعتذر عن ذلك بميل أهل مصر للعلويين ، وفي باطن الأمر خشي من نور الدين فلم يقبل نور الدين عذره في ذلك ، ولم تسعه مخالفته ، وأحجم عن القيام بذلك . ورد على صلاح الدين شخص من علماء الأعاجم يعرف بالخبشاني ، ويلقب بالامير العالم فلما رآهم محجمين عن ذلك صعد المنبر يوم الجمعة قبل الخطيب ودعا للمستضيء . فلما كانت الجمعة القابلة أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد والخطبة للمستضيء ، فتراسلوا بذلك ثاني جمعة من المحرّم سنة سبع وستين وخمسمائة

وكان المستضيء قد ولي الخلافة بعد أبيه المستنجد في ربيع من السنة قبلها . ولما خطب له بمصر كان العاضد مريضاً فلم يشعروه بذلك .

وتوفي يوم عاشوراء من السنة. ولما خطب له على منابر مصر جلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على قصره ووكل به بهاء الدين قراقوش ، وكان فيه من الذخائر ما يعز وجوده مثل حبل الياقوت الذي وزن كل حصاة منه سبعة عشر مثقالاً ، ومصاف الزمرد الذي طوله أربعة أصابع طولاً في عرض ، ومثل طبل القولنج الذي يضربه ضاربه فيعافى بذلك من داء القولنج ، وكسروه لما وجدوا ذلك منه فلما ذكرت لهم منفعته ندموا عليه ، ووجدوا من الكتب النفيسة ما لا يعدّ .

ونقل أهل العاضد الى بعض حجر القصر ووكل بهم ، واخرج الاماء والعبيد وقسمهم بين البيع والهبة والعتق . وكان العاضد لما اشتدّ مرضه استدعاه فلم يجب داعيه ، وظنها خديعة فلما توفي ندم ، وكان يصفه بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه والانقياد . ولما وصل الخبر الى بغداد بالخطبة للمستضيء ضربت البشائر وزينت بغداد أياماً وبعثت الخلع لنور الدين وصلاح الدين مع صندل الخادم من خواص المقتفي ، فوصل الى نور الدين وبعث بخلعة صلاح الدين وخلع الخطباء بمصر والاعلام السود ، والله تعالى أعلم

الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين

قد كان تقدّم لنا ذكر هذه الوحشة في أخبار نور الدين مستوفاة ،

وأن صلاح الدين غزا بلاد الافرنج سنة سبع وستين ، وحاصر حصن الشوبك على مرحلة من الكرك حتى استأمنوا اليه ، فبلغ ذلك نور الدين فاعتزم على قصد بلاد الافرنج من ناحية أخرى فارتاب صلاح الدين في أمره وفي لقاء نور الدين واظهار طاعته ، وما ينشأ عن ذلك من تحكمه فيه فأسرع العود الى مصر ، واعتذر لنور الدين بشيء بلغه عن شيعة العلويين ليعتزله نور الدين ، وأخذ في الاستعداد لعزله . وبلغ ذلك صلاح الدين وأصحابه فتفاوضوا في مدافعته ونهاهم أبوه نجم الدين ايوب وأشار بمكاتبته والتلطف له مخافة أن يبلغه غير ذلك فيقوى عزمه على العمل به ، ففعل ذلك صلاح الدين فسالمه نور الدين . وعادت المخالطة بينهما كما كانت ، واتفقا على اجتماعهما لحصار الكرك فسار صلاح الدين لذلك سنة ثمان وستين ، وخرج نور الدين من دمشق بعد ان تجهز. فلما انتهى الى الرقيم على مرحلتين من الكرك، وبلغ صلاح الدين خبره ارتابه ثانياً . وجاءه الخبر بمرض نجم الدين أبيه بمصر فكرّ راجعاً . وأرسل الى نور الدين الفقيه عيسى الهكاري بما وقع من حديث المرض بأبيه ، وانه رجع من أجله فأظهر نور الدين القبول ، وعاد الى دمشق ، والله تعالى أعلم

وفاة نجم الدين أيوب

كان نجم الدين أيوب بعد انصراف ابنه صلاح الدين الى مصر أقام بدمشق عند نور الدين ، ثم بعث عنه ابنه صلاح الدين عندما

استوثق له ملك مصر فجهزه نور الدين سنة خمس وستين في عسكره، وسار لحصار الكرك ليشغل الافرنج عن اعتراضه كما مرّ ذكره. ووصل الى مصر وخرج العاضد لتلقيه، وأقام مكرماً. ثم سار صلاح الدين الى الكرك سنة ثمان وستين المرة الثانية في مواعدة نور الدين وأقام نجم الدين بمصر، وركب يوماً في مركب وسار ظاهر البلد، والفرس في غلواء مراحه وملاعبة ظله فسقط عنه، وحمل وقيذا إلى بيته فهلك لايام منها آخر ذي الحجة من السنة. وكان خيراً جواداً محسنا للعلماء والفقراء، وقد تقدّم ذكر أوليته، والله وليّ التوفيق

استيلاء قراقوش على طرابلس الغرب

كان قراقوش من موالي تقي الدين عمر بن شاه بن نجم الدين أيوب، وهو ابن أخي صلاح الدين فغضب مولاه في بعض النزعات، وذهب مغاضباً الى المغرب ولحق بجبل نفوسه من ضواحي طرابلس الغرب. وأقام هنالك دعوة مواليه، وكان في بسائط تلك الجبال مسعود ابن زمام المعروف بالبلط في احيائه من رياح من عرب هلال ابن عامر، وكان منحرفاً عن طاعة عبد المؤمن شيخ الموحدين، وخليفة المهدي فيهم فانتبذ مسعود بقومه عن المغرب وافريقية الى تلك القاصية، فدعاه قراقوش الى اظهار دعوة مواليه بني أيوب فأجابه ونزل معه باحيائه على طرابلس فحاصرها قراقوش وافتتحها، ونزل بأهله وعياله في قصرها

ثم استولى على قابس من ورائها ، وعلى توزر ونفطة وبلاد نفزاوة من افريقية ، وجمع أموالاً جمة ، وجعل ذخيرته بمدينة قابس ، وخربت تلك البلاد أثناء ذلك باستيلاء العرب عليها . ولم يكن لهم قدرة على منعهم . ثم طمع في الاستيلاء على جميع افريقية ووصل يده بيحيى بن غانية اللمتوني الثائر بتلك الناحية بدعوة لمتونة ، من بقية الامراء في دولتهم . فكانت لهما بتلك الناحية آثار مذكوره في أخبار دولة الموحدين الى أن غلبه ابن غانية على ما ملك من تلك البلاد ، وقتله كما هو مذكور في أخبارهم ، والله أعلم

استيلاء نور الدين توران شاه بن أيوب على بلاد النوبة ثم على بلاد اليمن

كان صلاح الدين وقومه على كثرة ارتيابهم من نور الدين ، وظنهم به الظنون يحاولون ملك القاصية عن مصر ليمتنعوا بها ان طرقهم منه حادث ، أو عزم على المسير اليهم في مصر فصرفوا عزمهم في ذلك الى بلاد النوبة أو بلاد اليمن . وتجهز شمس الدولة توران شاه ابن أيوب ، وهو اخو صلاح الدين الأكبر الى ملك النوبة . وسار اليها في العساكر سنة ثمان وستين ، وحاصر قلعة من ثغورهم ففتحها واختبرها فلم يجد فيها خرجاً ولا في البلاد بأسرها جباية . وأقواتهم الذرة وهم في شظف من العيش ومعاناة للفتن . فاقتصر على ما فتحه من ثغورهم ، وعاد في غنيته بالعبدى والجواري . فلما وصل الى مصر أقام بها قليلاً ، وبعثه صلاح الدين الى اليمن ، وقد كان غلب عليه على بن مهدي

الخارجي سنة أربع وخمسين، وصار أمره الى ابنه عبد النبي ، وكرسي ملكه زبيد منها . وفي عدد ياسر بن بلال بقية ملوك بني الربيع .

وكان عُمارَة اليمني الشاعر العبيدي وصاحب بني رزيك من أمرائهم ، وكان أصله من اليمن . وكان في خدمة شمس الدولة ويغريه به فسار اليه شمس الدولة بعد ان تجهز ، وأزاح العلل ، واستعد للمال والعيال . وسار من مصر منتصف سنة تسع وستين ، ومرّ بمكة وانتهى الى زُبَيد . وبها ملك اليمن عبد النبي بن علي بن مهدي فبرز اليه وقاتله فانهزم وانحجر بالبلد. وزحفت عساكر شمس الدولة فتسنموا أسوارها وملكوها عَنوَةً واستباحوها، وأسروا عبد النبي وزوجته. وولّى شمس الدولة على زبيد مبارك بن كامل ابن منقذ من أمراء شيزر، كان في جملته ، ودفع اليه عبد النبي ليستخلص منه الاموال فاستخرج من قربته دفائن كانت فيها أموال جليلة . ودلتهم زوجتهُ الحرّة على ودائع استولوا منها على أموال جمة .

وأقيمت الخطبة العباسية في زبيد ، وسار شمس الدولة توران شاه الى عدن وبها ياسر بن بلال ، كان ابوه بلال بن جرير مستبداً بها على مواليه بني الزريع ، وورثها عنه ابنه ياسر ، فسار ياسر للقائه فهزمه شمس الدولة ، وسارت عساكره الى البلد فملكوها ، وجاؤا بياسر أسيراً الى شمس الدولة فدخل عدن وعبد النبي معه في الاعتقال ، واستولى على نواحيها ، وعاد الى زبيد . ثم سار الى حصون الجبال فملك تعز ،

وهي من أحصن القلاع ، وحصن التعكر والجند وغيرها من المعاقل والحصون. وولّى على عدن عز الدولة عثمان بن الزنجبيلي ، واتخذ زبيد سبباً لملكه. ثم استوخمها ، وسار في الجبال ومعه الاطباء يتخير مكاناً صحيح الهواء للسكنى فوقع اختيارهم على تعز ، فاختط هنالك مدينة واتخذها كرسياً لملكه. وبقيت لبنيه ومواليهم بني رسول كما نذكره في أخبارهم والله تعالى وليّ التوفيق.

واقعة عمارة ومقتله

كان جماعة من شيعة العَلَوِيّين بمصر منهم : عُمارة بن أبي الحسن اليمني الشاعر ، وعبد الصمد الكاتب ، والقاضي العويدس ، وابن كامل ، وداعي الدعاة ، وجماعة من الجند وحاشية القصر ، اتفقوا على استدعاء الافرنج من صقليّة وسواحل الشام ، وبذلوا لهم الاموال على ان يقصدوا مصر. فان خرج صلاح الدين للقائهم بالعساكر ثار هؤلاء بالقاهرة ، وأعادوا الدولة العُبَيْدِيّة. وإلا فلا بدّ له إن أقام من بعث عساكره لمدافعة الافرنج فينفردون به ويقبضون عليه. وواطأهم على ذلك جماعة من أمراء صلاح الدين ، وتحينوا لذلك غيبة أخيه توران شاه باليمن ، وثقوا بأنفسهم وصدقوا توهماتهم ورتبوا وظائف الدولة وخططها. وتنازع في الوزارة بنو رزيك وبنو شاور. وكان علي بن نجي الواعظ ممن داخلهم في ذلك فأطلع صلاح الدين هو في الباطن اليهم. ونمي الخبر الى صلاح الدين من عيونه ببلاد الافرنج فوضع على

الرسول عنده عيوناً جاؤه بجليّة خبره ، فقبض حينئذ عليهم . وقيل إنّ علي بن نجي أنمى خبرهم الى القاضي فأوصله الى صلاح الدين . ولما قبض عليهم صلاح الدين أمر بصلبهم ، ومرّ عمارة ببيت القاضي وطلب لقاءه فلم يسعفه ، وأنشد البيت المشهور :

عبد الرحيم قد احتجب ان الخلاص هو العجب

ثم صلبوا جميعاً ، ونودي في شيعة العلويين بالخروج من ديار مصر الى الصعيد ، واحتيط على سلالة العاضد بالقصر ، وجاء الافرنج بعد ذلك من صقليّة الى الاسكندرية كما يأتي خبره ان شاء الله تعالى ، والله أعلم

وصول الافرنج من صقلية الى الاسكندرية

لما وصلت رسل هؤلاء الشيعة الى الافرنج بصقلية تجهزوا ، وبعثوا مراكبهم مائتي اسطول للمقاتلة فيها : خمسون ألف رجل ، وألفان وخمسمائة فارس ، وثلاثون مركبا للخيول ، وستة مراكب لآلة الحرب ، وأربعون للازواد . وتقدم عليهم ابن عم الملك صاحب صقلية ، ووصلوا الى ساحل الاسكندرية سنة سبعين . وركب أهل البلد الأسوار ، وقاتلهم الافرنج ، ونصبوا الآلات عليها . وطار الخبر الى صلاح الدين بمصر ، ووصلت الامراء الى الاسكندرية من كل جانب من نواحيها . وخرجوا في اليوم الثالث فقاتلوا الافرنج فظفروا عليهم . ثم جاءهم البشير آخر النهار بمجيء صلاح الدين فاهتاجوا للحرب

وخرجوا عند اختلاط الظلام فكبسوا الافرنج في خيامهم بالسواحل وتبادروا إلى ركوب البحر فتقسموا بين القتل والغرق ولم ينج إلا القليل. واعتصم منهم نحو من ثلثمائة برأس رابية هنالك الى أن أصبحوا فقتل بعضهم وأسر الباقون ، واقلعوا بأساطيلهم راجعين ، والله تعالى أعلم .

واقعة كنز الدولة بالصعيد

كان أمير العرب بنواحي اسوان يلقب كنز الدولة ، وكان شيعة للعلوية بمصر ، وطالت أيامه واشتهر . ولما ملك صلاح الدين قسم الصعيد اقطاعا بين أمرائه . وكان أخو أبي الهيجاء السمين من أمرائه ، واقطاعه في نواحيهم فعصى كنز الدولة سنة سبعين ، واجتمع اليه العرب والسودان . وهجم على أخي أبي الهيجاء السمين في اقطاعه فقتله . وكان أبو الهيجاء من أكبر الامراء فبعثه صلاح الدين لقتال الكنز ، وبعث معه جماعة من الامراء ، والتف له الجند فساروا الى اسوان ، ومرّوا بالصعيد فحاصروا بها جماعة وظفروا بهم فاستلحموهم. ثم ساروا الى الكنز فقاتلوه وهزموه ، وقتل واستلحم جميع أصحابه ، وأمنت بلاد اسوان والصعيد ، والله تعالى وليّ التوفيق .

استيلاء صلاح الدين على قواعد الشام بعد وفاة العادل نور الدين

كان صلاح الدين كما قدّمناه قائماً في مصر بطاعة العادل نور الدين

محمود بن زنكي . ولما توفي سنة تسع وستين ، ونصب ابنه الصالح اسمعيل في كفالة شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم ، وبعث اليه صلاح الدين بطاعتهِ ، ونقم عليهم انهم لم يردوا الأمر اليه . وسار غازي صاحب الموصل بن قطب الدين مودود بن زنكي الى بلاد نور الدين التي بالجزيرة وهي : نَصيبين والخابور وحَرّان والرُها والرَقّة فملكها . ونقم عليه صلاح الدين أنهم لم يخبروه حتى يدافعه عن بلادهم . وكان الخادم سعد الدين كمستكين الذي ولاه نور الدين قلعة الموصل ، وأمر سيف الدين غازي بمطالعته بأموره قد لحق عند وفاة نور الدين بحلب ، وأقام بها عند شمس الدين علي بن الداية المستبد بها بعد نور الدين فبعثه ابن الداية الى دمشق في عسكر ليجيء بالملك الصالح الى حلب لمدافعة سيف الدين غازي فنكروه أولا وطردوه .

ثم رجعوا الى هذا الرأي ، وبعثوا عنه فسار مع الملك الصالح الى حلب ولحين دخوله قبض على ابن الداية وعلى مقدمي حلب ، واستبد بكفالة الصالح ، وخاف الامراء بدمشق ، وبعثوا الى سيف الدين غازي ليملكوه فظنها مكيدة من ابن عمه . وامتنع عليهم وصالح ابن عمه على ما أخذ من البلاد فبعث أمراء دمشق الى صلاح الدين ، وتولى كبر ذلك ابن المقدّم فبادر الى الشام وملك بصرى . ثم سار الى دمشق فدخلها في منسلخ ربيع سنة سبعين وخمسمائة . ونزل دار أبيه المعروفة بالعفيفي وبعث القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري الى

ريحان الخادم بالقلعة انه على طاعة الملك الصالح وفي خدمته ، وما جاء الا لنصرته فسلم اليه القلعة وملكها .

واستخلف على دمشق اخاه سيف الاسلام طغركين ، وسار الى حمص ، وبها وال من قبل الامير مسعود الزعفراني . وكانت من أعماله فقاتلها وملكها ، وجمر عسكراً لقتال قلعتها . وسار الى حماة مظهراً لطاعة الملك الصالح ، وارتجاع ما أخذ من بلاده بالجزيرة . وبعث بذلك الى صاحب قلعتها خرديك واستخلفه . وسار الى الملك الصالح ليجمع الكلمة ، ويطلق أولاد الداية . واستخلف على قلعة حماة أخاه .

ولما وصل الى حلب حبسه كمستكين الخادم ، ووصل الخبر الى أخيه بقلعة حماة فسلمها لصلاح الدين . وسار الى حلب فحاصرها ثالث جمادى الاخيرة ، واستمات اهلها في المدافعة عن الصالح . وكان بحلب سمند صاحب طرابلس من الافرنج محبوساً منذ أسره نور الدين على حارم سنة تسع وخمسين فأطلقه كمستكين على مال وأسرى ببلده . وتوفي نور الدين أول السنة وخلف ابنا مجذوماً فكفله سمند واستولى على ملكهم . فلما حاصر صلاح الدين حلب بعث كمستكين الى سمند يستنجده ، فسار الى حمص ونازلها فسار اليه صلاح الدين ، وترك حلب .

وسمع الافرنج بمسيره فرحلوا عن حمص ووصل هو اليها وعاشر رجب فحاصر قلعتها ، وملكها آخر شعبان من السنة . ثم سار الى

بعلبك وبها يمن الخادم من أيام نور الدين فحاصره حتى استأمن اليه ، وملكها رابع رمضان من السنة ، وصار بيده من الشام : دمشق وحماة وبعلبك . ولما استولى صلاح الدين على هذه البلاد من أعمال الملك الصالح ، كتب الصالح الى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين فأنجده بعساكره مع أخيه عز الدين مسعود ، وصاحب جيشه عز الدين زلقندار . وسارت معهم عساكر حلب ، وساروا جميعا لمحاربة صلاح الدين .

وبعث صلاح الدين الى سيف الدين غازي أن يسلم لهم حمص وحماة ، ويبقى بدمشق نائباً عن الصالح فأبى إلاّ رد جميعها ، فسار صلاح الدين الى العساكر ولقيهم آخر رمضان بنواحي حماة فهزمهم وغنم ما معهم . واتبعهم الى حلب وحاصرها ، وقطع خطبة الصالح . ثم صالحوه على ما بيده من الشام فأجابهم ، ورحل عن حلب لعشرين من شوال . وعاد الى حماة ، وكان فخر الدين مسعود بن الزعفراني من الأمراء النورية ، وكانت ماردين من أعماله مع حمص وحماة وسلميّة وتل خالد والرها . فلما ملك أقطاعة هذه اتصل به فلم ير نفسه عنده كما ظن ففارقه . فلما عاد صلاح الدين من حصار حلب الى حماة سار الى بعلبك ، واستأمن اليه واليها فملكها ، وعاد الى حماة فأقطعها خاله شهاب الدين محمود ، وأقطع حمص ناصر الدولة بن شيركوه ، وأقطع بعلبك شمس الدين ابن المقدّم ودمشق الى عماد ، والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه .

واقعة صلاح الدين مع الملك الصالح وصاحب الموصل وما ملك من الشام بعد انهزامهما

ثم سار سيف الدين غازي صاحب الموصل في سنة احدى وسبعين بعد انهزام أخيه وعساكره، واستقدم صاحب كيفا وصاحب ماردين، وسار في ستة آلاف فارس وانتهى الى نصيبين في ربيع من السنة فشتى بها حتى ضجرت العساكر من طول المقام. وسار الى حلب فخرجت اليه عساكر الملك الصالح مع كمستكين الخادم، وسار صلاح الدين من دمشق للقائهم فلقيهم قبل السلطان فهزمهم واتبعهم الى حلب. وعبر سيف الدين الفرات منهزماً إلى الموصل، وترك أخاه عزالدين بحلب. واستولى صلاح الدين على مخلفهم، وسار الى مراغة فلكها وولى عليها. ثم الى منبج وبها قطب الدين نبال بن حسّان المنبجي وكان حنقاً عليه لقبح آثاره في عداوته فلحق بالموصل، وولاه غازي مدينة الرقة

ثم سار صلاح الدين الى قلعة اعزاز فحاصرها أوائل ذي القعدة من السنة اربعين يوماً وشدّ حصارها فاستأمنوا اليه فملكها ثاني الاضحى من السنة. وثب عليه في بعض أيام حصارها باطني من الفداوية فضربه، وكان مسلحاً فأمسك يد الفداوي حتى قتل وقتل جماعة كانوا معه لذلك ورحل صلاح الدين بعد الاستيلاء على قلعة اعزاز الى حلب

فحاصرها وبها الملك الصالح . واعصوصب عليه أهل البلد واستماتوا في المدافعة عنه . ثم ترددت الرسل في الصلح بينها وبين صاحب الموصل وكيفا وصاحب ماردين فانعقد بينهم في محرم سنة اثنتين وتسعين ، وعاد صلاح الدين الى دمشق بعد أن رد قلعة إعزاز الى الملك الصالح بوسيلة أخته الصغيرة ، خرجت الى صلاح الدين ثائرة فاستوهبته قلعة إعزاز فوهبها لها ، والله تعالى أعلم

مسير صلاح الدين الى بلاد الاسماعيلية

ولما رحل صلاح الدين عن حلب ، وقد وقع من الاسماعيلية على حصن إعزاز ما وقع ، قصد بلادهم في محرم سنة اثنتين وتسعين ونهبها وخرّبها ، وحاصر قلعة مصياف ، ونصب عليها المجانيق . وبعث سنان مقدّم الاسماعيلية بالشام الى شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين بحماة يسأله الشفاعة فيهم ، ويتوعده بالقتل فشفع فيهم وأرحل العساكر عنهم . وقدم عليه أخوه توران شاه من اليمن بعد فتحه واظهار دعوتهم فيه ، وولى على مدنه وامصاره فاستخلفه صلاح الدين على دمشق ، وسار الى مصر لطول عهده بها أبو الحسن ابن سنان بن سقمان بن محمد . ولما وصل اليها أمر بادارة سور على مصر القاهرة والقلعة التي بالجبل دورة تسعة وعشرون ألف ذراع بالهاشمي .واتصل العمل فيه الى أن مات صلاح الدين ، وكان متولي النظر فيه مولاه

قراقوش ، والله تعالى ولي التوفيق بمنه

غزوات بين المسلمين والافرنج

كان شمس الدين محمد بن المقدم صاحب بعلبك ، وأغار جمع من الافرنج على البقاع من أعمال حلب فسار اليهم وأكمن لهم في الغياض ، حتى نال منهم وفتك فيهم.وبعث الى صلاح الدين بمائتى أسير منهم وقارن ذلك وصول شمس الدولة توران شاه بن أيوب من اليمن فبلغه أن جمعاً من الافرنج أغاروا على أعمال دمشق فسار اليهم ولقيهم بالمروج فلم يثبت وهزموه ، وأسر سيف الدين أبو بكر بن السلار من أعيان الجند بدمشق ، وتجاسر الافرنج على تلك الولاية . ثم اعتزم صلاح الدين على غزو بلاد الافرنج فبعثوا في الهدنة وأجابهم اليها وعقد لهم، والله تعالى ولي التوفيق .

هزيمة صلاح الدين بالرملة امام الافرنج

ثم سار صلاح الدين من مصر في جمادى الاولى سنة ثلاث وسبعين الى ساحل الشام لغزو بلاد الافرنج ، وانتهى الى عسقلان فاكتسح أعمالها ولم يروا للافرنج خبراً فانساحوا في البلاد وانقلبوا الى الرملة فما راعهم الا الافرنج مقبلين في جموعهم وأبطالهم ، وقد افترق أصحاب صلاح الدين في السرايا فثبت في موقفه واشتد القتال . وأبلى

يومئذ محمد ابن أخيه في المدافعة عنه وقتل من أصحابه جماعة . وكان لتقي الدين بن شاه ابن اسمه أحمد متكامل الخلال لم يطر شاربه . فأبلى يومئذ واستشهد ، وتمت الهزيمة على المسلمين . وكان بعض الافرنج تخلصوا الى صلاح الدين فقتل بين يديه وعاد منهزماً ، واسر الفقيه عيسى الهكاري بعد ان أبلى يومئذ بلاءً شديداً .

وسار صلاح الدين حتى غشيه الليل . ثم دخل البرية في فلّ قليل الى مصر ، ولحقهم الجهد والعطش ، ودخل الى القاهرة منتصف جمادى الاخيرة . قال ابن الاثير : ورأيت كتابه الى اخيه توران شاه بدمشق يذكر الواقعة :

ذكرتك والخطيّ يخطر بيننا وقد فتكت فينا المثقفة السمر

ومن فصوله : لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الله سبحانه منه إلا لأمر يريده ، وما ثبتت إلاّ وفي نفسها أمر انتهى . وأما السرايا التي دخلت بلاد الافرنج فتقسمهم القتل والاسر وأما الفقيه عيسى الهكاري فلما ولّى منهزما ، ومعه أخوه الظهير ضل عن الطريق ، ومعهما جماعة من اصحابهما فأسروا . وفداه صلاح الدين بعد ذلك بستين ألف دينار ، والله تعالى أعلم .

حصار الافرنج مدينة حماة

ثم وصل في جمادى الاولى الى ساحل الشام زعيم من طواغيت

الافرنج ، وقارن وصوله هزيمة صلاح الدين . وعاد الى دمشق يومئذ توران شاه بن أيوب في قلة من العسكر ، وهو مع ذلك منهمك في ملذاته فسار ذلك الزعيم بعد ان جمع فرنج الشام ، وبذل لهم العطاء فحاصر مدينة حماة ، وبها شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين مريضاً . وشدّ حصارها وقتالها حتى أشرف على أخذها . وهجموا يوماً على البلد وملكوا ناحية منه فدافعهم المسلمون وأخرجوهم ، ومنعوا حماة منهم فأفرجوا عنها بعد أربعة ايام ، وساروا الى حارم فحاصروها . ولما رحلوا عن حماة مات شهاب الدين الحارمي ، ولم يزل الافرنج على حارم يحاصرونها ، وأطمعهم فيها ما كان من نكبة الصالح صاحب حلب لكمستكين الخادم كافل دولته . ثم صانعهم بالمال فرحلوا عنها . ثم عاد الافرنج الى مدينة حماه في ربيع سنة أربع وسبعين فعاثوا في نواحيها واكتسحوا أعمالها ، وخرج العسكر حامية البلد اليهم فهزموهم ، واستردوا ما اخذوا من السواد ، وبعثوا بالرؤس والاسرى الى صلاح الدين وهو بظاهر حمص منقلباً من الشام ، فأمر بقتل الاسرى ، والله تعالى ولي التوفيق .

انتقاض ابن المقدم ببعلبك وفتحها

كان صلاح الدين لما ملك بعلبك استخلف فيها شمس الدين محمد ابن عبد الملك المقدم جزاء بما فعله في تسليم دمشق ، وكان شمس الدولة محمد أخو صلاح الدين ناشئا في ظل أخيه وكفالته فكان يميل اليه ،

وطلب منه أقطاع بعلبك فأمر ابن المقدم بتمكينه منها فأبى . وذكره عهده في أمر دمشق فسار ابن المقدم الى بعلبك وامتنع فيها ، ونازلته العساكر فامتنع ، وطاولوه حتى بعث الى صلاح الدين يطلب العوض فعوّضه عنها . وسار أخوه شمس الدين اليها فملكها ، والله تعالى ولي التوفيق .

وقائع مع الافرنج

وفي سنة أربع وسبعين سار ملك الافرنج في عسكر عظيم فاغار على أعمال دمشق ، واكتسحها وأثخن فيها قتلًا وسبياً . وأرسل صلاح الدين فرخشاه ابن اخيه في العساكر لمدافعته فسار يطلبهم ، ولقيهم على غير استعداد فقاتل أشد القتال . ونصر الله المسلمين ، وقتل جماعة مَن زعماء الافرنج منهم هنفري ، وكان يضرب به المثل . ثم أغار البرنس صاحب انطاكية واللاذقية على صرح المسلمين بشيزر ، وكان صلاح الدين على بانيــاس لتخريب حصن الافرنج بمخاضــة الاضرار فبعث تقي الدين عمر ابن اخيه شاهنشاه ، وناصر الدين محمد الى حمص لحماية البلد من العدو ، كما نذكره ان شاء الله تعالى .

تخريب حصن الافرنج

كان الافرنج قد اتخذوا حصناً منيعا بقرب بانياس ، عند بيت يعقوب عليه السلام ، ويسمى مكانه مخاضة الاضرار فسار صلاح

الدين من دمشق الى بانياس سنة خمس وسبعين ، وأقام بها ، وبث فيها الغارات على بلادهم . ثم سار الى الحصن فحاصره ليختبره ، وعاد عنه الى اجتماع العساكر وبث السرايا في بلاد الافرنج للغارة . وجاء ملك الافرنج للغارة على سريته ، ومعه جماعة من عساكره فبعثوا الى صلاح الدين بالخبر فوافاهم وهم يقتتلون ، فهزم الافرنج وأثخن فيهم . ونجا ملكهم في فلّ وأسر صاحب الرملة ونابلس منهم ، وكان رديف ملكهم . وأسر أخوه صاحب جبيل وطَبَرية ، ومقدّم الفداوية ، ومقدم الاسبتاريّة وغيرهم من طواغيتهم . وفادى صاحب الرملة نفسه وهو أرتيرزان بمائة وخمسين ألف دينار صوريّة وألف أسير من المسلمين .

وأبلى في هذا اليوم عز الدين فرخشاه ابن أخي صلاح الدين بلاء حسنا . ثم عاد صلاح الدين الى بانياس وبث السرايا في بلاد الافرنج ، وسار لحصار الحصن فقاتله قتالاً شديداً . وتسنم المسلمون سوره حتى ملكوا برجاً منه . وكان مدد الافرنج بطبرية ، والمسلمون يرتقبون وصولهم فأصبحوا من الغد ونقبوا السور ، وأضرموا فيه النار فسقط . وملك المسلمون الحِصْنَ عَنْوَةً آخر ربيع سنة خمس وسبعين ، وأسروا كل من فيه . وأمر صلاح الدين بهدم الحصن فالحق بالأرض ، وبلغ الخبر الى الافرنج ، وهم مجتمعون بطبرية لامداده فافترقوا وانهزم الافرنج ، والله سبحانه وتعالى أعلم

الفتنة بين صلاح الدين وقليج ارسلان صاحب الروم

كان حصن زغبان من شمالي حلب قد ملكه نور الدين العادل بن قليج ارسلان صاحب بلاد الروم ، وهو بيد شمس الدين ابن المقدم . فلما انقطع حصن زغبان عن ايالة صلاح الدين وراء حلب ، طمع قليج ارسلان في استرجاعه فبعث اليه عسكراً يحاصرونه . وبعث صلاح الدين تقي الدين ابن اخيه في عسكر لمدافعتهم فلقيهم وهزمهم ، وعاد الى عمه صلاح الدين . ولم يحضر معه تخريب حصن الاضرار . وكان نور الدين محمود بن قليج أرسلان بن داود ، صاحب حصن كيفا وآمد وغيرهما من ديار بكر قد فسد ما بينه وبين قليج ارسلان صاحب بلاد الروم بسبب اضراره ببنته وزواجه عليها . واعتزم قليج أرسلان على حربه وأخذ بلاده فاستنجد نور الدين بصلاح الدين ، وبعث الى قليج أرسلان يشفع في شأنه فطلب استرجاع حصونه التي اعطاها لنور الدين عند المصاهرة . ولج في ذلك صلاح الذين على قليج ، وسار الى زغبان ومر بحلب فتركها ذات الشمال ، وسلك على تل باشر .

ولما انتهى إلى زغبان جاءه نور الدين محمود واقام عنده . وارسل اليه قليج ارسلان يصف فعل نور الدين واضراره ببنته . فلما أدى الرسول رسالته امتعض صلاح الدين ، وتوعدهم بالمسير الى بلده فتركه الرسول حتى سكن . وعدا عليه فطلب الخلوة وتلطف له في

فسخ ما هو فيه من ترك الغزو ونفقة الأموال في هذا الغرض الحقير، وان بنت قليج أرسلان يجب على مثلك من الملوك الامتعاض لها، ولا تترك المضارة من دونها فعلم صلاح الدين الحق فيما قاله. وقال للرسول انّ نور الدين استند الى فعلك فاصلح الامر بينهما، وأنا معين على ما تحبونه جميعا ففعل الرسول ذلك وأصلح بينهما. وعاد صلاح الدين الى الشام، ونور الدين محمود الى ديار بكر، وطلق ضرة بنت قليج ارسلان بالأجل الذي أجله للرسول، والله تعالى أعلم

مسير صلاح الدين الى بلاد ابن اليون

كان قليج بن اليون من ملوك الأرض صاحب الدروب المجاورة لحلب، وكان نور الدين محمود قد استخدمه وأقطع له في الشام. وكان يعسكره معه، وكان جريئاً على صاحب القسطنطينية. وملك وادقة والمصيصة وطرطوس من يد الروم، وكانت بينهما من أجل ذلك حروب. ولما توفي نور الدين وانتقضت دولته أقام ابن اليون في بلاده، وكان التركمان يحتاجون الى رعي مواشيهم بارضه على حصانتها وصعوبة مضايقها. وكان يأذن لهم فيدخلونها. وغدر بهم في بعض السنين واستباحهم واستاق مواشيهم. وبلغ الخبر الى صلاح الدين منصرفه من زغبان فقصد بلده، ونزل النهر الاسود. وبث الغارات في بلادهم واكتسحها، وكان لابن إليون حِصْن، وفيه ذخيرته فخشي عليه

فقصد تخريبه . وسابقه اليه صلاح الدين فغنم ما فيه ، وبعث اليه ابن اليون برد ما أخذ من التركمان واطلاق أسراهم على الصلح والرجوع عنه . فاجابه الى ذلك وعاد عنه في منتصف سنة خمس وسبعين ، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده

غزوة صلاح الدين الى الكرك

كان البرنس أرناط صاحب الكرك من مردة الافرنج وشياطينهم ، وهو الذي اختط مدينة الكرك وقلعتها ، ولم تكن هنالك . واعتزم على غزو المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام . وسمع عزالدين فرخشاه بذلك وهو بدمشق فجمع وسار الى الكرك سنة سبع وسبعين ، واكتسح نواحيه ، وأقام ليشغله عن ذلك الغرض حتى انقطع أمله ، وعاد الى الكرك . فعاد فرخشاه الى دمشق ؛ والله تعالى أعلم بغيبه

مسير سيف الاسلام طغركين بن أيوب إلى اليمن واستيلاؤه عليها

قد كان تقدم لنا فتح شمس الدولة توران شاه لليمن ، واستيلاؤه عليه سنة ثمان وستين . وأنه ولى على زبيد مبارك بن كامل بن منقذ من أمراء شيزر ، وعلى عدن عز الدولة عثمان الزنجيلي ، واختط مدينة تعز في بلاد اليمن واتخذها كرسياً لملكه . ثم عاد الى أخيه سنة اثنتين

وسبعين وأدركه منصرفاً من حصار حلب فولاه على دمشق ، وسار الى مصر . ثم ولاه أخوه صلاح الدين بعد ذلك مدينة الإسكندرية ، وأقطعه اياها مضافة الى أعمال اليمن . وكانت الاموال تحمل اليه من زبيد وعدن وسائر ولايات اليمن . ومع ذلك فكان عليه دين قريب من مائتي ألف دينار مصرية ، وتوفي سنة ست وسبعين فقضاها عنه صلاح الدين . ولما بلغه خبر وفاته سار الى مصر ، واستخلف على دمشق عزالدين فرخشاه ابن شاهنشاه . وكان سيف الدين مبارك بن كامل بن منقذ الكناني نائبه بزبيد قد تغلب في ولايته وتحكم في الاموال فنزع الى وطنه ، وأستأذن شمس الدوله قبل موته فأذن له في المجيء

واستأذن أخاه عطاف بن زبيد وأقام مع شمس الدولة حتى اذا مات بقي في خدمة صلاح الدين. وكان محشدا فسعى فيه عنده أنه احتجز أموال اليمن ، ولم يعرض له فتحيل اعداؤه عليه . وكان ينزل بالعدوية قرب مصر ، فصنع في بعض الايام صنيعاً دعي اليه أعيان الدولة ، واختلف مواليه وخدامه الى مصر في شراء حاجتهم فتحيلوا لصلاح الدين انه هارب الى اليمن . فتمت حيلتهم فقبض عليه . ثم ضاق عليه الحال وصابره على ثمانين ألف دينار مصرية سوى ما أعطى لاهل الدولة فأطلقه ، وأعاده الى منزلته فلما بلغ شمس الدين الى اليمن اختلف نوابه بها : حطان بن منقذ ، وعثمان بن الزنجبيلي .

وخشي صلاح الدين أن تخرج اليمن عن طاعته فجهز جماعة من

امرائه الى اليمن مع صارم الدين قطلغ أبيـه والي مصر من أمرائه . فساروا لذلك سنة سبع وسبعين ، واستولى قطلغ أبيه على زبيد من حطان بن منقذ . ثم مات قريباً فعاد حطان الى زبيد وأطاعه الناس ، وقوي على عثمان الزنجبيلي فكتب عثمان الى صلاح الدين أن يبعث قرابته فجهز صلاح الدين أخاه سيف الاسلام طغركين ، فسار الى اليمن وخرج حطان بن منقذ من زبيد وتحصن في بعض القلاع ونزل سيف الاسلام زبيد ، وبعث الى حطان بالأمان فنزل اليه وأولاه الاحسان . ثم طلب اللحاق بالشام فمنعه . ثم الح عليه فأذن له حتى اذا خرج واحتمل رواحله ، وجاء ليودّعه قبض عليه واستولى على ما معه . ثم حبسه في بعض القلاع فكان آخر العهد به . ويقال كان فيما أخذه سبعون حملًا من الذهب . ولما سمع عثمان الزنجبيلي خبر حطان خشي على نفسه ، وحمل أمواله في البحر ولحق بالشام . وبقيت مراكبه مراكب لسيف الاسلام فاستولى عليها . ولم يخلص إلاّ بما كان معه في طريقه ، وصفا اليمن لسيف الاسلام ، والله تعالى أعلم

دخول قلعة البيرة في أيالة صلاح الدين وغزوه الافرنج وفتح بعض حصونهم مثل الشقيف والغور وبيروت

كانت قلعة البيرة من قلاع العراق لشهاب الدين بن ارتق ، وهو ابن عمّ قطب الدين أبي الغازي بن ارتق صاحب ماردين ، وكان في طاعة نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام . ثم مات وملك البيرة

بعده ابنه . ومات نور الدين فصار الى طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل ثم وقع بين صاحب ماردين وصاحب الموصل من المخالصة والاتفاق ما وقع، وطلب من عز الدين أن يأذن له في أخذ البيرة فأذن له، فسار قطب الدين في عسكره الى قلعة شميشاط وأقام بها وبعث العسكر الى البيرة وحاصرها . وبعث صاحبها يستنجد صلاح الدين ويكون له كما كان أبوه لنور الدين فشفع صلاح الدين الى قطب الدين صاحب ماردين ولم يشفعه ، وشغل عنه بأمر الافرنج

ورحلت عساكر قطب الدين عنها فرجع صاحبها الى صلاح الدين وأعطاه طاعته ، وعاد في ايالته . ثم خرج صلاح الدين من مصر في محرّم سنة ثمان وسبعين قاصداً الشام ومرّ بايله وجمع الافرنج لاعتراضه فبعث أثقاله مع أخيه تاج الملوك الى دمشق ، ومال عن بلادهم فاكتسح نواحي الكرك والشوبك ، وعاد الى دمشق منتصف صفر . وكان الافرنج لما اجتمعوا على الكرك دخلوا بلادهم من نواحي الشام فخالفهم عز الدين فرخشاه نائب دمشق إليها ، واكتسح نواحيها وخرب قراها وأثخن فيهم قتلاً وسبياً وفتح الشقيف من حصونهم عنوة وكان له نكاية في المسلمين فبعث الى صلاح الدين بفتحه فسرّ بذلك

ثم أراح صلاح بدمشق أياماً وسار في ربيع الاوّل من السنة ، وقصد طبرية وخيم بالاردن . واجتمعت الافرنج على طبرية فسير

صلاح الدين فرخشاه ابن أخيه الى بيسان فملكها عنوة واستباحها . وأغار على الغور فأثخن فيها قتلًا وسبياً . وسار الافرنج من طَبَرية الى جبل كوكب ، وتقدّم صلاح الدين اليهم بعساكره فتحصنوا بالجبل فأمر ابني أخيه تقيّ الدين عمر وعز الدين فرخشاه ابني شاهنشاه فقاتلوا الافرنج قتالاً شديداً . ثم تحاجزوا وعاد صلاح الدين الى دمشق . ثم سار إلى بيروت فاكتسح نواحيها ، وكان قد استدعى الاسطول من مصر لحصارها فوافاه بها وحاصرها أياما . ثم بلغه انّ البحر قد قذف بدمياط مركباً للافرنج فيه جماعة منهم جاؤا لزيارة القدس فالقتهم الريح بدمياط ، وأسر منهم ألف وستمائة أسير ، ثم ارتحل عن بيروت الى الجزيرة كما نذكره ان شاء الله تعالى

مسير صلاح الدين الى الجزيرة واستيلاؤه على حران والرها والرقة والخابور ونصيبين وسنجار وحصار الموصل

كان مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كجك الذي كان أبوه نائب القلعة بالموصل مستولياً في دولة مودود وبنيه ، وانتقل آخراً إلى إربل ومات بها . وأقطعه عز الدين صاحب الموصل ابنه مظفر الدين ، وكان هواه مع صلاح الدين يؤمله ملكه بلاد الجزيرة فراسله وهو محاصر لبيروت ، وأطمعه في البلاد ، واستحثه للوصول فسار صلاح الدين عن بيروت مورياً بحلب ، وقصد الفرات ، ولقيه مظفر الدين وساروا الى البيرة ، وقددخل طاعة عز الدين. وكان عز الدين صاحب

الموصل ومجاهد الدين لما بلغهما مسير صلاح الدين الى الشام ظنوا أنه يريد حلب فساروا لمدافعته . فلما عبر الفرات عادوا الى الموصل ، وبعثوا حامية الى الرُها . وكاتب صلاح الدين ملوك الأطراف بديار بكر وغيرها بالوعد والمقاربة

ووعد نور الدين محموداً صاحب كيفا أنه يملكه آمد . ووصل اليه فساروا الى مدينة الرها فحاصروها ، وبها يومئذ الامير فخر الدين بن مسعود الزعفراني . واشتدّ عليه القتال فأستأمن الى صلاح الدين وملكه المدينة ، وحاصر معه القلعة حتى سلمها النائب الذي بها على مال شرطه فأضافها صلاح الدين الى مظفر الدين مع حرّان وساروا الى الرقة ، وبها نائبها قطب الدين نيال بن حسّان المنبجي ففارقها الى الموصل ، وملكها صلاح الدين . ثم سار الى قرقيسيا وماسكين وعربان ، وهي بلاد الخابور فاستولى على جميعها . وسار الى نصيبين فملك المدينة لوقتها ، وحاصر القلعة أياماً ثم ملكها وأقطعها للامير أبي الهيجاء السمين . ثم رحل عنها ونور الدين صاحب كيفا معه معتزماً على قصد الموصل . وجاءه الخبر بأنّ الافرنج أغاروا على نواحي دمشق ، واكتسحوا قراها وأرادوا تخريب جامع داريا فتوعدهم نائب دمشق بتخريب بيعهم وكنائسهم فتركوه فلم يثن ذلك من عزمه وقصد الموصل ، وقد جمع صاحبها العساكر واستعد للحصار . وخلى نائبه في الاستعداد .

وبعث الى سنجار واربل وجزيرة ابن عمر فشحنها بالامداد من الرجال والسلاح والاموال ، وأنزل صاحب الدار عساكره بقربها ، وتقدّم هو ومظفر الدين وابن شيركوه فهالهم استعداد صاحب البلد ، وأيقنوا بامتناعه وعذل صاحبيه هذين فانهما كانا أشارا بالبداءة بالموصل . ثم اصبح صلاح الدين من الغد في عسكره ، ونزل عليه أول رجب على باب كندة ، وأنزل صاحب الحصن باب الجسر وأخاه تاج الملوك بالباب العمادي ، وقاتلهم فلم يظفر . وخرج بعض الرجال فنالوا منه . ونصب منجنيقاً فنصبوا عليه من البلد تسعة . ثم خرجوا اليه من البلد فأخذوه بعد قتال كثير . وخشي صلاح الدين من البيات فتأخر لانه رآهم في بعض الليالي يخرجون من باب الجسر بالمشاعل ويرجعون .

وكان صدر الدين شيخ الشيوخ ومشير الخادم وقد وصلا من عند الخليفة الناصر في الصلح . وتردّدت الرسل بينهم فطلب عز الدين من صلاح الدين ردّ ما أخذه من بلادهم فأجاب على أن يمكنوه من حلب فامتنع ، فرجع الى ترك مظاهرة صاحبها فامتنع ايضا . ثم وصلت أيضا رسل صاحب أذْرَبيجان ورسل شاهرين صاحب خلاط في الصلح فلم يتم ، وسار أهل سنجار يعترضون من يقصده من عساكره واصحابه فأفرج عن الموصل ، وسار اليها ، وبها شرف الدين أمير أميران هند وأخوه عز الدين صاحب الموصل في عسكر . وبعث اليه

مجاهد الدين النائب بعسكر آخر مدداً وحاصرها صلاح الدين وضيق عليها ، واستمال بعض امراء الاكراد الذين بها من الزواوية فواعده من ناحيته .

وطرقه صلاح الدين فملكه البرج الذي في ناحيته فاستأمن أمير أميران وخرج عسكره معه الى الموصل . وملك صلاح الدين سنجار ، وولى عليها سعد الدين بن معين الدين الذي كان أبوه عند كامل بن طغركين بدمشق . وصارت سنجار من سائر البلاد التي ملكها من الجزيرة . وسار صلاح الدين الى نصيبين فشكا اليه اهلها من أبي الهيجاء السمين فعزله عنهم ، واستصحبه معه ، وسار الى حران في ذي القعدة من سنة ثمان وسبعين . وفرق عساكره ليستريحوا وأقام في خواصه وكبار أصحابه ، والله أعلم .

مسير شاهين صاحب خلاط لنجدة صاحب الموصل

كان عز الدين قد أرسل الى شاهرين يستنجده على صلاح الدين فبعث اليه عدة رسل شافعاً في أمره فلم يشفعه ، وغالطه فبعث اليه مولاه آخراً سيف الدين بكتمر ، وهو على سنجار يسأله في الافراج عنها فلم يجبه الى ذلك . وسوفه رجاء ان يفوتها فأبلغه بكتمر الوعيد عن مولاه ، وفارقه مغاضباً ولم يقبل صلته ، وأغراه بصلاح الدين فسار شاهرين من مخيمه بظاهر خلاط الى ماردين ، وصاحبها يومئذ

ابن اخته وابن خال عز الدين وصهره على بنته ، وهو قطب الدين نجم الدين . وسار اليهم أتابك عز الدين صاحب الموصل . وكان صلاح الدين في حران منصرفه من سنجار . وفرق عساكره فلما سمع باجتماعهم استدعى تقي الدين ابن اخيه شاهنشاه من حماة ، ورحل الى رأس عين فافترق القوم ، وعاد كل الى بلده . وقصد صلاح الدين ماردين فأقام عليها عدة أيام ورجع ، والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه .

واقعة الإفرنج في بحر السويس

كان البرنس أرناط صاحب الكرك قد أنشأ اسطولاً مفصلاً ، وحمل أجزاءه الى صاحب ايلة وركبه على ما تقتضيه صناعة النشابة ، وقذفه في السويس ، وشحنه بالمقاتله ، وأقلعوا في البحر . ففرقة أقاموا على حصن أيلة يحاصرونه ، وفرقة ساروا نحو عيذاب وأغاروا على سواحل الحجاز ، وأخذوا ما وجدوا بها من مراكب التجار . وطرق الناس منهم بلية لم يعرفونها لانه لم يعهد ببحر السويس افرنجي محارب ولا تاجر وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب نائباً عن اخيه صلاح الدين فعمر اسطولاً وشحنه بالمقاتلة ، وسار به حسام الدين لؤلؤ الحاجب قائد الاساطيل بديار مصر ، فبدأ باسطول الافرنج الذي يحاصر ايلة فمزقهم كل ممزق .

وبعد الظفر بهم اقلع في طلب الآخرين وانتهى الى عيذاب فلم

يجدهم فرجع الى رابغ وأدركهم بساحل الحوراء، وكانوا عازمين على طروق الحرمين واليمن والاغارة على الحاج. فلما أظلّ عليهم لؤلؤ بالاسطول أيقنوا بالتغلب وتراموا على الحوراء وأسنموا اليها، واعتصموا بشعابها. ونزل لؤلؤ من مراكبه وجمع خيل الأعراب هنالك وقاتلهم فظفر بهم، وقتل أكثرهم وأسر الباقين فأرسل بعضهم الى منى فقتلوا بها أيام النحر وعاد بالباقين الى مصر، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء.

وفاة فرخشاه

ثم توفي عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه أخو صلاح الدين النائب عنه بدمشق، وكان خليفته في أهله ووثوقه به أكثر من جميع أصحابه. وخرج من دمشق غازياً الافرنج وطرقه المرض. وعاد فتوفي في جمادى سنة ثمان وسبعين. وبلغ خبره صلاح الدين وقد عبر الفرات الى الجزيرة والموصل، فأعاد شمس الدين محمد بن المقدم الى دمشق وجعله نائبا فيها واستمر لشأنه، والله تعالى يورث الملك لمن يشاء من عباده.

استيلاء صلاح الدين على امد وتسليمها لصاحب كيفا

قد تقدّم لنا مسير صلاح الدين الى ماردين واقامته عليها أياما [1]

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ١٦١: قد ذكرنا نزول صلاح الدين بجوزم، تحت ماردين، فلم ير لطمعه وجهاً. وسار عنها إلى آمد عن طريق البارعية.

من نواحيها ، ثم ارتحل عنها الى آمد كما كان العهد بينه وبين نور الدين صاحب كيفا فنازلها منتصف ذي الحجة ، وبها بهاء الدين بن بيسان فحاصرها ، وكانت غاية في المنعة وأساء ابن بيسان التدبير وقبض يده عن العطاء ، وكان أهلها قد ضجروا منه لسوء سيرته وتضييقه عليهم في مكاسبهم . وكتب اليهم صلاح الدين بالترغيب والترهيب فتخاذلوا عن ابن بيسان وتركوا القتال معه ، ونقب السور من خارج بيت ابن بيسان، وأخرج نساءه مع القاضي الفاضل يستميل اليه صلاح الدين ويؤجله ثلاثة أيام للرحلة ، فأجابه صلاح الدين وملك البلد في عاشوراء سنة تسع وسبعين.

وبنى خيمة بظاهر البلد ينقل اليها ذخيرته فلم يلتفت الناس اليه ، وتعذر عليه أمره فبعث الى صلاح الدين يسأله الاعانة فأمر له بالدواب والرجال ، فنقل في الايام الثلاثة كثيراً من موجوده . ومنع بعد انقضاء الاجل عن نقل ما بقي . ولما ملكها صلاح الدين سلمها لنور الدين صاحب كيفا وأخبر صلاح الدين بما فيها من الذخائر لينقلها لنفسه فأبى . وقال : ما كنت لاعطي الأصل وأبخل بالفرع ، ودخل نور الدين البلد ، ودعا صلاح الدين وأمراءه الى صنيع صنعه لهم ، وقدم لهم من التحف والهدايا ما يليق بهم ، وعاد صلاح الدين ، والله تعالى أعلم .

استيلاء صلاح الدين على تل خالد وعنتاب

ولما فرغ صلاح الدين من آمد سار الى أعمال حلب فحاصر تل خالد ، ونصب عليه المجانيق حتى تسلمه بالامان في محرم سنة تسع وسبعين . ثم سار الى عنتاب فحاصرها وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ اسمعيل الذي كان خازن نور الدين العادل وصاحبه . وهو الذي ولاّه عليها فطلب من صلاح الدين أن يقرّها بيده ، ويكون في طاعته فأجابه الى ذلك وحلف له . وسار في خدمته ، وغنم المسلمون خلال ذلك مغانم : فنها في البحر سار اسطول مصر ، فلقي في البحر مركباً فيه نحو ستمائة من الافرنج بالسلاح والاموال قاصدون الافرنج بالشام فظفروا بهم ، وغنموا ما معهم ، وعادوا الى مصر سالمين . ومنها في البرّ أغار بالدارون جماعة من الافرنج ، ولحقهم المسلمون بأيلة واتبعوهم الى العسيلة ، وعطش المسلمون فانزل الله تعالى عليهم المطر حتى رووا . وقاتلوا الافرنج فظفروا بهم هنالك واستلحموهم ، واستاقوا معهم وعادوا سالمين الى مصر ، والله أعلم .

استيلاء صلاح الدين على حلب وقلعة حارم

كان الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين العادل صاحب حلب ، لم يبق له من الشام غيرها ، وهو يدافع صلاح الدين عنها فتوفي منتصف سنة سبع وسبعين ، وعهد لابن عمه عز الدين صاحب الموصل.

وسار عز الدين صاحب الموصل مع نائبه مجاهد الدين قايماز اليها فملكها. طلبها منه أخوه عماد الدين صاحب سنجار على أن يأخذ عنها سنجار فأجابه الى ذلك ، وأخذ عز الدين سنجار ، وعاد الى الموصل . وسار عماد الدين الى حلب فملكها ، وعظم ذلك على صلاح الدين ، وخشي ان يسير منها الى دمشق . وكان بمصر فسار الى الشام ، وسار منها الى الجزيرة ، وملك ما ملك منها وحاصر الموصل ، ثم حاصر آمد وملكها . ثم سار الى أعمال حلب كما ذكرناه فملك تل خالد وعنتاب .

ثم سار الى حلب وحاصرها في محرّم سنة تسع وسبعين ، ونزل الميدان الأخضر أياماً . ثم انتقل الى جبل جوشق وأظهر البقاء عليها وهو يغاديها القتال ويراوحها ، وطلب عماد الدين جنده في العطاء ، وضايقوه في تسليم حلب لصلاح الدين . وأرسل اليه في ذلك الأمير طومان الباروقي ، وكان يميل الى صلاح الدين فشارطه على سنجار ونَصيبَين والرقة والخابور ، وينزل له عن حلب . وتحالفوا على ذلك وخرج عنها عماد الدين ثامن عشر صفر من السنة الى هذه البلاد . ودخل صلاح الدين حلب بعد ان شرط على عماد الدين أن يعسكر معه متى عاد .

ولما خرج عماد الدين الى صلاح الدين صنع له دعوة احتفل فيها وانصرف ، وكان فيمن هلك في حصار حلب تاج الملوك نور الدين أخو صلاح الدين الأصغر ، اصابته جراحة فمات منها بعد

الصلح ، وقبل أن يدخل صلاح الدين البلد . ولما ملك صلاح الدين حلب سار الي قلعة حارم ، وبها الامير طرخك من موالي نور الدين العادل ، وكان عليها ابنه الملك الصالح فحاصره صلاح الدين ووعده ، وترددت الرسل بينهم وهو يمتنع ، وقد ارسل الى الافرنج يدعوهم للانجاد، وسمع بذلك الجند الذين معه فوثبوا به وحبسوه . واستأمنوا الى صلاح الدين فملك الحصن ، وولى عليه بعض خواصه . وقطع تل خالد [1] الباروقي صاحب تل باشر . وأمّا قلعة اعزاز فان عماد الدين اسمعيل كان خربها فأقطعها صلاح الدين سليمان بن جسار [2] وأقام بحلب الى أن قضى جميع أشغالها وأقطع أعمالها ، وسار الي دمشق والله تعالى أعلم .

غزوة بيسان

ولما فرغ صلاح الدين من أمر حلب ولّى عليها ابنه الظاهر غازي، ومعه الامير سيف الدين تاوكج كافلًا له لصغره ، وهو أكبر الامراء الأسدية . وسار الي دمشق فتجهز للغزو ، وجمع عساكر الشام والجزيرة وديار بكر ، وقصد بلاد الافرنج فعبر الأردن منتصف سبع وسبعين ، وأجفل أهل تلك الاعمال أمامه فقصد بيسان وخربها وأحرقها ، واغار على نواحيها واجتمع الافرنج له . فلما رأوه

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ١٦٣ : وأقطع تل خالد لأمير يقال له داروم الباروقي وهو صاحب تل باشر.

(٢) كذا، واسمه في الكامل: سليمان بن جندر.

خاموا عن لقائه واستندوا الى جبل وخندقوا عليهم، وأقام يحاصرهم خمسة ايام ويستدرجهم للنزول فلم يفعلوا فرجع المسلمون عنهم، وأغاروا على تلك النواحي وامتلأت ايديهم بالغنائم وعادوا الى بلادهم، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده .

غزو الكرك وولاية العادل على حلب

ولما عاد صلاح الدين من غزوة بيسان تجهز لغزو الكرك وسار في العساكر، واستدعى اخاه العادل ابا بكر بن ايوب من مصر وهو نائبها ليلحق به على الكرك، وكان قد سأله في ولاية حلب وقلعتها فأجابه الى ذلك، وامره ان يجيء بأهله وماله فوافاه على الكرك، وحاصروه اياماً وملكوا ارباضه، ونصبوا عليها المجانيق، ولم يكن بالغ في الاستعداد لحصاره لظنه ان الافرنج يدافعون عنه، فأفرج عنه منتصف شعبان وبعث تقي الدين ابن اخيه شاه على نيابة مصر مكان اخيه العادل واستصحب العادل معه الى دمشق فولاه مدينة حلب ومدينة مَنْبِج وما اليها، وبعثه بذلك في شهر رمضان من السنة . واستدعى ولده الظاهر غازي من حلب الى دمشق .

ثم سار في ربيع الآخر من سنة ثمانين لحصار الكرك بعد ان جمع العساكر، واستدعى نور الدين صاحب كيفا وعساكر مصر واستعدّ لحصاره، ونصب المجانيق على ربضه فلكه المسلمون، وبقي الحصن

وراء خندق بينه وبين الربض عمقه ستون ذراعاً . ورامـوا طمّـه فنضحوهم بالسهام ، ورموهم بالحـجارة فأمر برفـع السقف ليمشي المقاتلة تحتها الى الخندق. وارسل اهل الحصن الى ملكهم يستمدّونه ويخبرونه بما نزل بهم فاجتمع الافرنج واوعبوا وساروا إليهم فرحـل صلاح الدين للقائهم ، حـتى انتهى الى حزونة الارض فأقـام ينتظر خروجهم الى البسيط فخاموا عن ذلك فتأخر عنهم فراسخ ، ومرّوا الى الكرك . وعلم صلاح الدين أن الكرك قد امتنع بهؤلاء فتركه وسار الى نابلس فخربها وحرقها وسار الى سنطية[1] وبها مشهد زكرياء عليه السلام فاستنقذ من وجد بها من اسارى المسلمين ، ورحـل الى جينين[2] فنهبها وخربها .وسار الى دمشق بعد ان بث السرايا في كل ناحية ، ونهب كل ما مرّ به ، وامتلأت الأيدي من الغـنائم وعاد الى دمشق مظفراً والله تعالى اعلم .

حصار صلاح الدين الموصل

ثم سار صلاح الدين من دمشق الى الجزيرة في ذي القعدة من سنة ثمان ، وعبر الفرات . وكان مظفر الدين كوكبري علي كجك يستحثه للمسير الى الموصل في كل وقت ، وربما وعده بخمسين ألف دينار اذا

---

(١) كذا، وهي : سبسطية.
(٢) كذا، وهي جنين.

وصل . فلما وصل الى حرّان لم يف له فقبض عليه ، ثم خشي معيرة [١] أهل الجزيرة فأطلقه وأعاد عليهم حرّان والرُها . وسار في ربيع الاول ، ولقيه نور الدين صاحب كيفا ، ومعز الدين سنجار شاه صاحب جزيرة ابن عمر ، وقد انحرف عن عمه عز الدين صاحب الموصل بعد نكبة مجاهد الدين نائبه . وساروا كلهم مع صلاح الدين الى الموصل ، وانتهوا الى مدينة بلد فلقيه هنالك أمّ عز الدين ، وابنة عمه نور الدين وجماعة من أهل بيته يسألونه الصلح ظناً بأنه لا يردهنّ ، وسيّما بنت نور الدين .

واستشار صلاح الدين اصحابه فأشار الفقيه عيسى وعلي بن أحمد المشطوب بردّهنّ وساروا إلى الموصل وقاتلوها ، واستمات أهلها وامتعضوا لردّ النساء فامتنعت عليهم وعاد على أصحابه باللوم في اشارتهم . وجاء زين الدين يوسف صاحب إربل وأخوه مظفر الدين كوكبري فانزلهما بالجانب الشرقي . وبعث علي بن أحمد المشطوب الهكاري الى قلعة الجزيرة ليحاصرها فاجتمع عليه الاكراد الهكارية الى ان عاد صلاح الدين عن الموصل ، وبلغ عز الدين أن نائبه بالقلعة زلقندار يكاتب صلاح الدين فمنعه منها ، وانحرف عنه الى الاقتداء برأي مجاهد الدين وتصدر عنه .

ثم بلغه خبر وفاة شاهرين صاحب خلاط فطمع صلاح الدين في

(١) كذا بالأصل، وهي تصحيف عن معرة: بمعنى الأذى، الغرم، الجناية ومعرة الجيش: أن ينزلوا بقوم فيأكلوا من زرعهم شيئاً بغير علم ـ قاموس.

ملكها ، وأنه يستعين بها على أموره . ثم جاءته كتب أهلها يستدعونه فسار عن الموصل اليها ، وكان أهل خلاط انما كاتبوه مكراً لان شمس الدين البهلوان بن ايلدكز صاحب اذربيجان وهمذان قصده تملكهم ، بعد ان كان زوّج ابنته من شاهرين على كبره ، وجعل ذلك ذريعة الى ملك خلاط . فلما سار اليهم كاتبوا صلاح الدين ودافعوا كلا منهما بالآخر فسار صلاح الدين وفي مقدمته ناصر الدين محمد بن شيركوه ، ومظفر الدين صاحب اربل وغيرهما . وتقدموا إلى خلاط وتقدم صاحب اذربيجان فنزل قريباً من خلاط . وترددت رسل أهل خلاط بينه وبين البهلوان ، ثم خطبوا للبهلوان ، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده .

استيلاء صلاح الدين على ميافارقين

ولما خطب أهل خلاط للبهلوان ، وصلاح الدين على ميافارقين ، وكانت لقطب الدين صاحب ماردين فتوفي ، وملك ابنه طفلًا صغيراً بعده ، وردّ أمرها الى شاهرين صاحب خلاط . وأنزل بها عسكره فطمع فيها صلاح الدين بعد وفاة شاهرين ، وحاصرها من اول جمادى سنة احدى وثمانين ، وعلى اجنادها الأمير أسد الدين برنيقش فأحسن الدفاع ، وكان بالبلد زوجة قطب الدين المتوفى ومعها بناتها منه ، وهي أخت نور الدين صاحب كيفا فراسلها صلاح الدين بأن برنيقش قد مال إليها في تسليم البلد ، ونحن ندعي حق اخيك نور الدين فأزوّج

بناتك من ابنائي ، وتكون البلد لنا . ووضع على برنيقش من أخبره بأن الخاتون مالت الى صلاح الدين ، وأن اهل خلاط كاتبوه .

وكان خبر أهل خلاط صحيحاً فسقط في يده ، وبعث في التسليم على شروط اشترطها من إقطاع ومال . وسلم البلد فملكها صلاح الدين وعقد النكاح لبعض ولده على بعض بنات خاتون . وأنزلها وبناتها بقلعة هقناج وعاد الى الموصل ، ومر بنصيبين ، وانتهى الى كفر أرمان ، وأعتزم على أن يشتو به ، ويقطع جميع ضياع الموصل ويجبي أعمالها ، ويكتسح غلاتها . وجنح مجاهد الدين الى مصالحته وترددت الرسل في ذلك على أن يسلم اليه عز الدين شهرزور وأعمالها وولاية الغرابلي ، وما وراء الزاب من الاعمال .

ثم طرقه المرض فعاد الى حرّان وأدركه الرسل بالاجابة الى ما طلب فانعقد هنالك ، وتحالفوا وتسلم البلاد وطال مرضه بحران ، وكان عنده أخوه العادل ، وبيده حلب ، وبها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين . واشتد به المرض فقسم البلاد بين أولاده ، وأوصى أخاه العادل على الجميع . وعاد الى دمشق في محرم سنة اثنتين وثمانين ، وكان عنده بحران ناصر الدين محمد بن عمه شيركوه ، ومن اقطاعه حمص والرَحَبَة فعاد قبله الى حمص ، ومر بحلب ، وصانع جماعة من امرائها على أن يقوموا بدعوته ان حدث بصلاح الدين أمر . وبلغ الى حمص فبعث الى أهل دمشق بمثل ذلك ، وأفاق صلاح الدين من مرضه ،

ومات ناصر الدين ليلة الاضحى ، ويقال دسّ عليه من سمّه وورث أعماله ابنه شير كوه ، وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، والله تعالى أعلم.

قسمة صلاح الدين الاعمال بين ولده وأخيه

كان ابنه العزيز عثمان بحلب في كفالة أخيه العادل ، وابنه الاكبر الأفضل علي بمصر في كفالة تقيّ الدين عمر ابن اخيه شاهنشاه ، بعثه اليها عندما استدعى العادل منها كما مرّ. فلما مرض بحرّان أسف على كونه لم يول أحداً من ولده استقلالاً ، وسعى اليه بذلك بعض بطانته. فبعث ابنه عثمان العزيز الى مصر في كفالة اخيه العادل كما كان بحلب. ثم اقطع العادل حران والرُها وميافارقين من بلاد الجزيرة ، وترك عثمان ابنه بمصر . ثم بعث عن ابنه الافضل وتقي الدين ابن أخيه فامتنع تقي الدين من الحضور ، واعتزم على المسير الى المغرب واللحاق بمولاه قراقوش في ولايته التي حصلت له بطرابلس ، والجريد من افريقيه فراسله صلاح الدين ولاطفه . ولما وصل اقطعه حماة ومَنبج والمعَرّة وكفرطاب وجبل جوز وسائر اعمالها . وقيل إن تقي الدين لما أرجف بمرض صلاح الدين وموته تحرّك في طلب الامر لنفسه ، وبلغ ذلك صلاح الدين فأرسل الفقيه عيسى الهكاري ، وكان مطاعاً فيهم وأمره باخراج تقي الدين من مصر والمقام بها فسار ودخلها على حين غفلة . وأمر تقي الدين بالخروج فأقام خارج البلد ، وتجهز للمغرب فراسله صلاح الدين الى آخر الخبر ، والله تعالى أعلم .

اتفاق القمص صاحب طرابلس مع صلاح الدين ومنابذة البرنس صاحب الكرك له وحصاره اياه والاغارة على عكا

كان القُمص صاحب طرابلس، وهو ريمند بن ريمند بن صنجيل تزوّج بالقومصة صاحبة طَبَرية ، وانتقل اليها فأقام عندها ، ومات ملك الافرنج بالشام وكان مجذوما كما مر ، وأوصى بالملك لابن اخيه صغيراً فكفله هذا القمص ، وقام بتدبير ملكِهِ لعظمه فيهم، وطمع أن تكون كفالته ذريعة الى الملك . ثم مات الصغير فانتقل الملك الى ابيه ، ويئس القمص عندها مما كان يحدث به نفسه . ثم ان الملكة تزوجت ابن غتم من الافرنج القادمين من المغرب ، وتوّجته وأحضرت البطرك والقسوس والرهبان والاسبتارية والداوية والبارونية ، وأشهدتهم خروجها له عن الملك .

ثم طولب القمص بالجباية أيام كفالته الصبيّ فأنف وغضب ، وجاهر بالشقاق لهم . وراسل صلاح الدين وسار الى ولايته وخلّف له على مصره من أهل ملته . وأطلق له صلاح الدين جماعة من زعماء النصارى كانوا أسارى عنده فازداد غبطة بمظاهرته . وكان ذلك ذريعة لفتح بلادهم وارتجاع القدس منهم . وبث صلاح الدين السرايا من ناحية طَبَرِيّة في سائر بلاد الافرنج فاكتسحوها وعادوا غانمين ، وذلك كله سنة اثنتين وثمانين . وكان البرنس أرناط صاحب الكرك

من اعظم الافرنج مكراً وأشدّهم ضرراً . وكان صلاح الدين قد سلط الغارة والحصار على بلده حتى سأل في الصلح فصالحه فصلحت السابلة بين الامتين

ثم مرّت في هذه السنة قافلة كثيرة التجار والجند فغدر بهم وأسر وأخذ ما معهم ، وبعث اليه صلاح الدين فأصرّ على غدرته فنذر أنه يقتله إن ظفر به ، واستنفر الناس للجهاد من سائر الاعمال من الموصل والجزيرة وإربل ومصر والشام . وخرج من دمشق في محرّم سنة ثلاث وثمانين وانتهى الى رأس الماء . وبلغه انّ البرنس أرناط صاحب الكرك يريد أن يتعرّض للحاج من الشام ، وكان معهم ابن أخيه محمد بن لاجين وغيره فترك من العساكر مع ابنه الافضل عليّ ، وسار الى بصرى . وسمع البرنس بمسيره فأحجم عن الخروج ، ووصل الحاج سالمين

وسار صلاح الدين الى الكرك ، وبث السرايا في أعمالها وأعمال الشوبك فاكتسحوها . والبرنس محصور بالكرك ، وقد عجز الافرنج عن امداده لمكان العساكر مع الافضل بن صلاح الدين . ثم بعث صلاح الدين الى ابنه الافضل فامره بارسال بعث الى عكا ليكتسحوا نواحيها ، فبعث مظفر الدين كوكبري صاحب حرّان والرها وقايماز النجمي وداروم الياروقي ، وساروا في آخر صفر فصبحوا صفوريّة وبها جمع من الفداوية والاسبتارية فبرزوا اليهم . وكانت بينهم حروب

شديدة تولى الله النصر فيها للمسلمين، وانهزم الافرنج، وقتل مقدّمهم، وامتلأت أيدي المسلمين من الغنائم وانقلبوا ظافرين. ومرّوا بطبرية، وبها القمص فلم يهجهم لما تقدّم بينه وبين صلاح الدين من الولاية، وعظم هذا الفتح وسار البشير به في البلاد، والله تعالى أعلم

هزيمة الافرنج وفتح طبرية ثم عكا

ولما انهزم الفداوية والاسبتارية بصفوريّة، ومرّ المسلمون بالغنائم على القُمص ريمند بطبرية، ووصلت البشائر بذلك الى صلاح الدين عاد الى معسكره الذي مع ابنه، ومرّ بالكرك، واعتزم على غزو بلاد الافرنج فاعترض عساكره وبلغه انّ القمص ريمند قد راجع أهل ملته ونقض عهده معه. وانّ البطرك والقسيس والرهبان أنكروا عليه مظاهرته للمسلمين، ومرور عساكرهم به باسرى النصارى وغنائمهم. ولم يعترضهم مع ايقاعهم بالفداوية والاسبتارية أعيان الملة، وتهدّدوه بالحاق كلمة الكفر به فتنصل وراجع رأيه، واعتذر اليهم فقبلوا عذره، وخلص لكفره وطواغيته فجدّدوا الحلف والاجتماع. وساروا من عكا الى صفوريّة، وبلغ الخبر الى صلاح الدين. وشاور أصحابه فمنهم من أشار بترك اللقاء وشن الغارات عليهم حتى يضعفوا. ومنهم من أشار باللقاء لنزول عكا واستيفاء ما فعلوه في المسلمين بالجزيرة فاستصوبه صلاح الدين واستعجل لقاءهم.

ثم رحل من الأقحوانة أواخر رمضان فسار حتى خلف طبرية، وتقدّم الى معسكر الافرنج فلم يفارقوا خيامهم. فلما كان الليل أقام طائفة من العسكر فسار الى طبريّة فملكها من ليلته عنوةً ونهبها وأحرقها. وامتنع أهلها بالقلعة، ومعهم الملكة وأولادها فبلغ الخبر الى الافرنج فضج القمص، وعمد الى الصلح.

وأطال القول في تعظيم الخطب وكثرة المسلمين، فنكر عليه البرنس صاحب الكرك واتهمه ببقائه على ولاية صلاح الدين. واعتزموا على اللقاء ووصلوا من مكانهم لقصد المعسكر، وعاد صلاح الدين الى معسكره، وبعدت المياه من حوالي الافرنج وعطشوا ولم يتمكنوا من الرجوع فركبهم صلاح الدين دون قصدهم. واشتدت الحرب وصلاح الدين يجول بين الصفوف يتفقد أحوال المسلمين

ثم حمل القمص على ناحية تقيّ الدين عمر بن شاه حملة استمات فيها هو وأصحابه فأفرج له الصف، وخلص من تلك الناحية الى منجاته، واختل مصاف الافرنج، وتابعوا الحملات. وكان بالارض هشيم أصابه شرر فاضطرم ناراً فجهدهم لفحها، ومات جلّهم من العطش فوهنوا، وأحاط بهم المسلمون من كل ناحية فارتفعوا الى تل بناحية حطين لينصبوا خيامهم به فلم يتمكنوا إلاّ من خيمة الملك فقط، والسيف يجول فيهم مجاله حتى فني اكثرهم، ولم يبق الا نحو المائة والخمسين من خلاصة زعمائهم مع ملكهم. والمسلمون يكرّون عليهم

مرة بعد أخرى حتى ألقوا ما بأيديهم وأسروا الملك وأخاه البرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل ، وابن هنفرى ، ومقدم الفداوية ، وجماعة من الفداوية والاسبتارية ، ولم يصابوا منذ ملكوا هذه البلاد أعوام التسعين والاربعمائة بمثل هذه الوقعة .

ثم جلس صلاح الدين في خيمته وأحضر هؤلاء الاسرى فقرّع الملك ووبخه بعد أن أجلسه الى جانبه وفاء بمنصب الملك ، وقام الى البرنس فتولى قتله بيده حرصاً على الوفاء بنذره بعد ان عرّفه بغدرته ، وبجسارته على ما كان يرومه في الحرمين ، وحبس الباقين . وأمّا القمص صاحب طرابلس فنجا كما ذكرناه الى بلده ، ثم مات لأيام قلائل أسفاً . ولما فرغ صلاح الدين من هزيمتهم نهض الى طبرية فنازلها واستأمنت اليه الملكة بها فأمنها في ولدها وأصحابها ومالها ، وخرجت اليه فوفى لها وبعث الملك وأعيان الاسرى الى دمشق فحبسوا بها . وجمع اسرى الفداوية والاسبتارية بعد ان بذل لمن يجده منهم من المقاتلة خمسين ديناراً مصرية لكل واحد وقتلهم أجمعين .

قال ابن الاثير : ولقد اجتزت بمكان الواقعة بعد سنة فرأيت عظامهم ماثلة على البعد أجحفتها السيول ومزقتها السباع . ولما فرغ صلاح الدين من طبرية سار عنها الى عكا فنازلها ، واعتصم الافرنج الذين بها بالأسوار ، وشادوا بالاستئمان فأمنهم وخيرهم فاختاروا

الرحيل، فحملوا ما أقلته رحالهم ودخلها صلاح الدين غرّة جمادى سنة ثلاث وثمانين. وصلوا في جامعها القديم الجمعة يوم دخلوهم، فكانت أول جمعة أقيمت بساحل الشام بعد استيلاء الافرنج عليه. وأقطع صلاح الدين بلد عكا لابنه الافضل، وجميع ما كان فيه للفداوية من أقطاع وضياع. ووهب للفقيه عيسى الهكاري كثيراً مما عجز الافرنج عن حمله، وقسم الباقي على أصحابه. ثم قسم الافضل ما بقي في أصحابه بعد مسير صلاح الدين. ثم أقام صلاح الدين أياماً حتى أصلح أحوالها ورحل عنها، والله تعالى أعلم

فتح يافا وصيدا وجبيل وبيروت وحصون عكا

لما هزم صلاح الدين الافرنج كتب الى أخيه العادل بمصر يسيره ويأمره بالمسير الى جهات الافرنج من جهات مصر، فنازل حصن مجدل وفتحه وغنم ما فيه، ثم سار الى مدينة يافا ففتحها عنوة واستباحها وكان صلاح الدين ايام مقامه بعكا بعث بعوثه الى قيسارية وحيفا واسطورية وبعلبك وشقيف [1] وغيرها في نواحي عكا، فملكوها واستباحوها وامتلأت أيديهم من غنائمها وبعث حسام الدين عمر بن الاصعن في عسكر الى نابلس فملك سسطية مدينة الاسباط، وبها قبر زكريا عليه السلام. ثم سار الى مدينة نابلس فملكها واعتصم الافرنج

(١) كذا، وفي الكامل ج ٩ ص ١٧٩: في مدة مقام صلاح الدين بعكا تفرق عسكره إلى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا.

الذين بها بالقلعة فأقرهم على أموالهم .

وبعث تقيّ الدين عمر ابن شاهنشاه الى تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور فوصل اليها وحاصرها وضيق عليها، حتى استأمنوا فأمنهم وملكها. ومرّ الى صيدا ومرّ في طريقه بصرخد فملكها بعد قتال. وجاء الخبر بفرار صاحب صيدا فسار وملكها آخر جمادى الاولى من السنة . ثم سار من يومه الى بيروت وقاتلها من احد جوانبها فتوهموا أنّ المسلمين دخلوا عليهم من الجانب الآخر فاهتاجوا لذلك ، فلم يستقرّوا ولا قدروا على تسكين الهيمة لكثرة ما معهم من أخلاط السواد فاستأمنوا اليه . وملكها آخر يوم من جمادى لثمانية أيام من حصارها . وكان صاحب جبيل أسيراً بدمشق فضمن لنائبها تسليم جبيل لصلاح الدين على أن يطلقه فاستدعاه وهو محاصر لبيروت ، وسلم الحصن وأطلقه ، وكان من أعيان الافرنج وأولي الرأي منهم ، والله تعالى أعلم .

وصول المركيش الى صور وامتناعه بها

كان القمص صاحب طرابلس لما نجا من هزيمة [1] لحق بمدينة صور وأقام بها يريد حمايتها ومنعها من المسلمين . فلما ملك صلاح الدين نسيس وصيدا وبيروت ضعف عزمه عن ذلك ، ولحق ببلده طرابلس . وبقيت صيدا وصور بدون حامية . وجاء المركيش من تجار الافرنج

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ١٨١ : لما انهزم القمص صاحب طرابلس من حطين إلى مدينة صور فأقام بها، وهي أعظم بلاد الشام حصانة، وأشد امتناعاً على من رامها.

من المغرب في كثرة وقوة فأرسى بعكا ولم يشعر بفتحها . وخرج اليه الرائد فأخبره بمكان الأفضل بن صلاح الدين فيها ، وان صور وعسقلان باقية للافرنج فلم يطق الاقلاع اليها لركود الريح فشغلهم بطلب الامان ليدخل المرسى . ثم طابت ريحه وجرت به الى صور ، وامر الافضل بخروج الشواني في طلبه فلم يدركوه حتى دخل مرسى صور فوجد بها اخلاطاً كثيرة من فلّ الحصون المفتتحة ، فجاؤا اليه وضمن لهم حفظ المدينة ، وبذل أمواله في الانفاق عليها على أن تكون هي وأعمالها له دون غيره واستحلفهم على ذلك . ثم قام بتدبير أحوالها وشرع في تحصينها فحفر الخنادق ورمّ الأسوار واستبدّبها ، والله سبحانه وتعالى أعلم

فتح عسقلان وما جاورها

ولما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وتلك الحصون صرف همته الى عسقلان والقدس لعظم شأن القدس ، ولانّ عسقلان مقطع بين الشام ومصر فسار عن بيروت إلى عسقلان ، ولحق به أخوه العادل في عساكر مصر . ونازلها أوائل جمادى الاخيرة . استدعى ملك الافرنج ومقدم الراية، وكانا أسيرين بدمشق فأحضرهما وأمرهما بالاذن للافرنج بعسقلان في تسليمها فلم يجيبوا إلى ذلك ، أساؤا الردّ عليهما فاشتد في قتالهم ونصب المجانيق عليهم ، وملكهم

يردد الرسائل اليهم في التسليم عساه ينطلق ويأخـذ بالثأر من المسلمين فلم يجيبوه .

ثم جهدهم الحصار وبعد عليهم الصريخ فاستأمنوا الى صلاح الدين على شروط اشترطوها ، كان أهمها عندهم أن يمنعهم من المهرانية بما قتلوا أميرهم في الحصار فأجابهم الى جميع ما اشترطوه . وملك المدينة منتصف السنة لاربعة عشر يوماً من حصارهـا ، وخرجوا بأهليهم وأموالهم وأولادهم الى القدس ثم بعث السرايا في تلك الاعمال ففتحوا الرملة والداروم وغزّة ومدن الخليل وبيت لحم والنطرون ، وكل ما كان للفداوية . وكان أيام حصار عسقلان قد بعث عن اسطول مصر فجاء به حسام الدين لؤلؤ الحاجب ، وأقام يغير على مرسى عسقلان والقدس ، ويغنم جميع ما يقصده من النواحي ، والله سبحانه وتعالى يؤيد من يشاء بنصره

فتح القدس

ولما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها سار الى بيت المقدس ، وبها البطرك الاعظم وبليان بن نيزران [١] صاحب الرملة ؛ وربيسة قريبة الملك ، ومن نجا من زعمائهم من حطين ، وأهـل البلد المفتتحة عليهم ، وقد اجتمعوا كلهم بالقدس واستماتوا للدين . وبعـد

---

(١) كذا، واسمه في الكامل: باليان بن بيرزان.

الصريخ وأكثروا الاستعداد ونصبوا المجانيق من داخله، وتقدّم اليه أمير من المسلمين فخرج اليه الافرنج فأوقعوا به وقتلوه في جماعة ممّن معه، وفجع المسلمون بقتله. وساروا فنزلوا على القدس منتصف رجب، وهالهم كثرة حاميته، وطاف بهم صلاح الدين خمسة أيام فتحيز متبوّأ عليه للقتال، حتى اختار جهة الشمال نحو باب العمود وكنيسة صهيون فتحوّل اليه. ونصب المجانيق عليها، واشتدّ القتال، وكان كل يوم يقتل بين الفريقين خلق.

وكان ممن استشهد عزالدين عيسى بن مالك من أكابر أمراء بني بدران، وأبوه صاحب قلعة جعبر فأسف المسلمون لقتله، وحملوا عليهم حتى أزالوهم عن مواقفهم وأحجروهم بالبلد، وملكوا عليهم الخندق ونقبوا السور فوهن الافرنج واستأمنوا لصلاح الدين فأبى إلا العنوة كما ملكه الافرنج أول الامر سنة احدى وسبعين وأربعمائة فأستأمن له بالباب ابن نيزران صاحب الرملة، وخرج اليه وشافهه بالاستئمان. واستعطفه فأصرّ على الامتناع فتهدّده بالاستماتة، وقتل النساء والابناء وحرق الامتعة وتخريب المشاعر المعظمة، واستلحام أسرى المسلمين، وكانوا خمسة آلاف أسير، واستهلاك جميع الحيوانات الداجنة بالقدس من الظهر وغيره

فحينئذ استشار صلاح الدين أصحابه فجنحوا الى تأمينهم فشارطهم على عشرة دنانير للرجل، وخمسة للمرأة، وديناران للولد

صبيّ أو صبية ، وعلى أجل أربعين يوماً فمن تأخر أداؤه عنها فهو أسير ، وبذل بليان بن نيزران عن فقراء أهل ملته ثلاثين ألف دينار . وملك صلاح الدين المدينة يوم الجمعة لتسع وعشرين من رجب سنة ثلاث وثمانين ، ورفعت الاعلام الاسلامية على أسواره، وكان يوماً مشهودا .

ورتب على أبواب القدس الامناء لقبض هذا المال ، ولم يبن الامر فيه على المشاحة فذهب أكثرهم دون شيء وعجز آخر الامر ستة عشر ألف نسمة فأخذوا أسارى ، وكان فيه على التحقيق ستون ألف مقاتل غير النساء والولدان فان الافرنج أرزوا اليه من كل جانب لما افتتحت عليهم حصونهم وقلاعهم

ومن الدليل على مقاربة هذا العدد ان بليان صاحب الرملة أعطى ثلاثين ألف دينار على ثمانية عشر ألفاً ، وعجز منهم ستة عشر ألفاً ، وأخرج جميع الامراء خلقا لا تحصى في زي المسلمين بعد ان يشارطوهم على بعض القطيعة . واستوهب آخرون جموعاً منهم يأخذون قطيعتهم فوهبهم اياهم . وأطلق بعض نساء الملوك من الروم كانوا مترهبات فأطلقهم بعبيدهم وحشمهم وأموالهم . وكذا ملكة القدس التي أسر صلاح الدين زوجها ملك الافرنج بسببها ، وكان محبوساً بقلعة نابلس فأطلقها بجميع ما معها ، ولم يحصل من القطيعة على خراج .

وخرج البطرك الاعظم بما معه من ماله وأموال البيع ،ولم يتعرض له . وجاءته امرأة البرنس صاحب الكرك الذي قتله يوم حطين تشفع

في ولدها ، وكان أسيراً فبعثها الى الكرك لتأذن الافرنج في النزول عنه للمسلمين وكان على رأسه قبة خضراء لها صليب عظيم مذهب ، وتسلق جماعة من المسلمين اليه واقتلعوه، وارتجت الارض بالتكبير والعويل . ولما خلا القدس من العدو أمر صلاح الدين برد مشاعره إلى أوضاعها القديمة ، وكانوا قد غيروها فأعيدت الى حالها الاول . وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الاقذار فطهرا . ثم صلى المسلمون الجمعة الاخرى في قبة الصخرة ، وخطب محيي الدين بن زنكي قاضي دمشق بأمر صلاح الدين ، وأتى في خطبته بعجائب من البلاغة في وصف الحال وعظمة الاسلام اقشعرت لها الجلود ، وتناقلها الرواة وتحدثت بها السمار أحوالا

ثم أقام صلاح الدين بالمسجد الصلوات الخمس إماماً وخطيبا ، وأمر بعمل المنبر له فتحدثوا عنده بأن نور الدين محمود اتخذ له منبراً منذ عشرين سنة ، وجمع الصناع بحلب فأحسنوا صنعته في عدد سنين فأمر بحمله ونصبه بالمسجد الاقصى . ثم أمره بعمارة المسجد واقتلاع الرخام الذي فوق الصخرة ، لان القسيسين كانوا يبيعون الحجر من الصخرة ينحتونها نحتاً ويبيعونها بالذهب وزناً بوزن. فتنافس الافرنج فيها التماس البركة منها ويدعونها في الكنائس فخشي ملوكهم ان

تفنى الصخرة فعالوا عليها بفرش الرخام فأمر صلاح الدين بقلعه[1]

ثم استكثر في المسجد من المصاحف ورتب فيه القراء ، ووفر لهم الجرايات . وتقدّم ببناء الربط والمدارس فكانت من مكارمه رحمه الله تعالى . وارتحل الافرنج بعد ان باعوا جميع ما يملكونه من العقار بأرخص ثمن ، واشتراه أهل العسكر ونصارى القدس الأقدمون بعد أن ضربت عليهم الجزية كما كانوا ، والله تعالى أعلم .

حصار صور ثم صفد وكوكب والكرك

لما فتح صلاح الدين القدس أقام بظاهره الى آخر شعبان من السنة حتى فرغ من جميع أشغاله ، ثم رحل الى مدينة صور ، وقد اجتمع فيها من الافرنج عوالم وقد نزل بها المركيش وضبطها . ولما أنتهى صلاح الدين الى عكا أقام بها اياماً فبالغ المركيش في الاستعداد وتعميق الخنادق واصلاح الاسوار ، وكان البحر يحيط بها من ثلاث جهاتها فوصل جانب اليمين بالسمال وصارت كالجزيرة . وسار اليها فنزل عليها لتسع بقين من رمضان على تل يشرف منه على مكان القتال ، وجعل القتال على أقيال عسكره نوباً بين ابنه الافضل

---

(١) كذا بالأصل، والعبارة مرتبكة. وفي الكامل ج ٩ ص ١٨٥ : وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها فأمر بكشفها: وكان سبب تغطيتها بالفرش: أن القسيسين باعوا كثيراً منها للفرنج، الواردين إليهم من داخل البحر للزيارة يشترونه بوزنه ذهباً رجاء بركتها، وكان أحدهم إذا دخل إلى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة، ويجعل في مذبحها، فخاف بعض ملوكهم أن تفنى فأمر بها ففرش فوقها حفظاً لها.

وابنه الظاهر وأخيه العادل وابن أخيه تقي الدين ، ونصب عليها المجانيق والعرادات .

وكان الافرنج يركبون في الشواني والحراقات ويأتون المسلمين من ورائهم فيرمون عليهم من البحر ، ويقاتلونهم ويمنعونهم من الدنو الى السور فبعث صلاح الدين عن أسطول مصر من مرسى عكا ، فجاء ودافع الافرنج . وتمكن المسلمون من قتال الاسوار وحاصروها براً وبحراً . ثم كبس اسطول الافرنج خمسة من اساطيل المسلمين ففتكوا بهم وردّ صلاح الدين الباقي الى بيروت لقلتها فاتبعها اساطيل الافرنج ، فلما ارهقوهم في الطلب القوا بأنفسهم الى الساحل وتركوها فحكمها صلاح الدين ونقضها ، وجد في حصار صور فلم يفد وامتنعت عليه لما كان فيها من كثرة الافرنج الذين أمنهم بعكا وعسقلان والقدس فنزلوا اليها بأموالهم وأمدوا صاحبها ، واستدعوا الافرنج وراء البحر فوعدوهم بالنصر ، وأقاموا في انتظارهم .

ولما رأى صلاح الدين امتناعها شاور أصحابه في الرحيل فترددوا ، وتخاذلوا في القتال فرحل آخر شوال الى عكا وأذن للعساكر في المشي الى أوطانهم الى فصل الربيع . وعادت عساكر الشرق والشام ومصر ، وأقام بقلعة عكا في خواصه ، وردّ أحكام البلد الى خرديك من أمراء نور الدين . وكان صلاح الدين عندما اشتغل بحصار عسقلان

بعث عسكراً لحصار صور فشدّدوا حصارها وقطعوا عنها الميرة ، وبعثوا إلى صلاح الدين وهو يحاصر صور فاستأمنوا له ونزلوا عنها فملكها .

وكان أيضاً صلاح الدين لما سار الى عسقلان جهز عسكراً لحصار قلعة كوكب يحرسون السابلة في طريقها من الافرنج الذين فيها ،وهي مطلة على الاردن ، وهي للاسبتارية . وجهز عسكراً لحصار صفد ، وهي للفداوية مطلة على طبرية . ولجأ الى هذين الحصنين من سلم من وقعة حطين ، وامتنعوا بها . فلما جهز العساكر اليهما صلحت الطريق وارتفع منها الفساد . فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الموكلون بالحصار على قلعة كوكب ، وكانت ليلة شاتية باردة فكبسهم الافرنج ، ونهبوا ما عندهم من طعام وسلاح وعادوا الى قلعتهم . وبلغ ذلك صلاح الدين ، وهو يعتزم على الرحيل عن صور فشحذ من عزيمته . ثم جهز عسكراً على صور مع الامير قايماز النجمي ، وارتحل الى عكا فلما انصرم فصل الشتاء سار من عكا في محرّم سنة أربع وثمانين الى قلعة كوكب فحاصرها ، وامتنعت عليه ولم يكن بقي في البلاد الساحلية من عكا الى الجنوب غيرها وغير صفد والكرك . فلما امتنعت عليه جهز العساكر لحصارها مع قايماز النجمي ، ورحل عنها في ربيع الاوّل الى دمشق ووافته رسل أرسلان [1] وفرح الناس

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ١٩٠ : وأتاه رسل الملك قليج أرسلان وقزل أرسلان وغيرهما يهنئونه بالفتح والظفر، وسار من كوكب إلى دمشق ففرح الناس بقدومه وكتب إلى البلاد جميعاً باجتماع العساكر بها. وأقام بها إلى أن سار إلى الساحل بالبلاد الشامية.

بقدومه ، والله تعالى ولي التوفيق

غزو صلاح الدين الى سواحل الشام وما فتحه من حصونها وصلحه اخرا مع صاحب انطاكية

لما رجع صلاح الدين من فتح القدس وحاصر صور وصفد وكوكب عاد الى دمشق ، ثم تجهز للغزو الى سواحل الشام وأعمال انطاكية ، وسار عن دمشق في ربيع سنة أربع وثمانين فنزل على حمص واستدعى عساكر الجزيرة وملوك الاطراف فاجتمعوا اليه . وسار الى حصن الاكراد فضرب عسكره هنالك ، ودخل متجرداً الى القلاع بنواحي انطاكية فنقص طرفها وأغار على ولايتها الى طرابلس حتى شفى نفسه من ارتيادها . وعاد الى معسكره فجرت الارض بالغنائم فأقام عند حصن الاكراد ، ووفد عليه هنالك منصور بن نبيل صاحب جبلة .

وكان من يوم استيلاء الافرنج على جبلة عند صاحب انطاكية حاكماً على جميع المسلمين فيها ، ومتولياً أمور سمند فلما هبت ريح الاسلام بصلاح الدين وظهوره نزل اليه ليكشف الغماء ، ودله على عورة جبلة واللاذقية ، واستحثه لهما فسار أول جمادى ونزل بطرطوس ، وقد اعتصم الافرنج منها ببرجين حصينين واخلوا المدينة فخربوها واستباحوها . وكان أحد الحصنين للفداوية وفيه مقدمتهم الذي أسره صلاح الدين يوم المصاف ، وأطلقه عند فتح القدس .

وأستأمن اليه أهل البرج الاخر ونزلوا له عنه فخربه صلاح الدين ، والقى حجارته في البحر ، وامتنع عليه برج الفداوية فسار الى المرقب وهو للاسبتارية ولا يرام لعلوه وارتفاعه وامتناعه، والطريق في الجبل الى جبلة عليه فهو عن يمين الطريق والبحر عن يساره في مسلك ضيق انما يمر به الواحد تلو الواحد

فتح جبلة

وكان وصل اسطول من صاحب صقلية مدداً للافرنج في تلك السواحل في ستين قطعة فأرسوا بطرابلس ، فلما سمعوا بصلاح الدين أقلعوا الى المغرب ووقفوا قبالتها ينضحون بسهامهم المارة بتلك الطريق فضرب صلاح الدين على ذلك الطريق سوراً من جهة البحر من المتارس ، ووقف وراءه الرماة حتى سلك العسكر المضيق الى جبلة . ووصلها آخر جمادى وسبق اليها القاضي ، وملكها صلاح الدين لحينه ، ورفع أعلام الاسلام على سورها ونفى حاميتها الى القلعة فاستنزلهم القاضي على الامان . واستمر منهم جماعة في رهن القاضي والمسلمين عند صاحب انطاكية حتى أطلقهم . وجاء رؤساء أهل البلد الى طاعة صلاح الدين ، وهو بجبل ما بين جبلة وحماة . وكان الطريق عليه بينهم صعبا ففتحه صلاح الدين من ذلك الوقت ، واستناب بجبلة

سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر ، وسار عنها للاذقية ، والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم .

فتح اللاذقية

ولما فرغ صلاح الدين من أمر جبلة سار الى اللاذقية فوصلها آخر جمادى الاولى وامتنع حاميتها بحصنين لها في أعلى الجبل ، وملك المسلمون المدينة وحصروا الافرنج في القلعتين وحفروا تحت الاسوار. وأيقن الافرنج بالهلكة،ودخل اليهم قاضي جبلة ثالث نزولها فأستأمنوا معه . وأمنهم صلاح الدين ورفعوا أعلام الاسلام في الحصنين، وخرب المسلمون المدينة . وكانت مبانيها في غاية الوثاقة والضخامة ، واقطعها لتقي الدين ابن أخيه فأعادها الى أحسن ما كانت من العمارة والتحصين وكان عظيم الهمة في ذلك . وكان اسطول صقلية في مرسى اللاذقية وسخطوا ما فعله أهلها ومنعوهم من الخروج منها . وجاء مقدّمهم الى صلاح الدين فرغب منه اقامتهم على الجزية . وعرض في كلامه بالتهديد بامداد الافرنج من وراء البحر فاجابه صلاح الدين باستهانة أمر الافرنج ، وهدده فانصرف الى أصحابه ، ورحل صلاح الدين الى صهيون ، والله تعالى أعلم .

فتح صهيون

ولما فرغ صلاح الدين من فتح اللاذقية سار الي قلعة صهيون وهي

على جبل صعبة المرتقى بعيدة المهوى يحيط بجبلها واد عميق ضيق ، ويتصل بالجبل من جهة الشمال ، وعليها خمسة أسوار وخندق عميق فنزل صلاح الدين على الجبل لضيقها ، وقدّم ولده الظاهر صاحب حلب فنزل مضيق الوادي . ونصب المنجنيقات هنالك، فرمى بها على الحصن ، ونضحهم بالسهام من سائر أصناف القسي وصابروا قليلا .

ثم زحف المسلمون ثاني جمادى الاخرى ، وسلكوا بين الصخور حتى ملكوا أحد اسوارها وقاتلوهم منه فملكوا عليهم سورين آخرين، وغنموا جميع ماكان في البلد من الدواب والبقر والذخائر . ولجأ الحامية الى القلعة ، وقاتلهم المسلمون عليها فنادوا بالامان فشرط عليهم مثل قطيعة القدس ،وملك المسلمون الحصن . وولى عليه ناصرالدين بن كورس صاحب قلعة بوفلس فحصنه ، وافترق المسلمون في تلك النواحي فوجدوا الافرنج قد فروا من حصونها فملكوها جميعاً.وهيؤا اليها طريقاً على عقبة صعبة لعفاء طريقها السهلة بالافرنج والاسماعيلية ، والله تعالى أعلم

فتح بكاس والشغر

ثم سار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادى الى قلعة بكاس ،وقد فارقها الافرنج وتحصنوا بقلعة شغر فملك بكاس ، وحاصر قلعة الشغر والطريق منها مسلوك الى اللاذقية وجبلة وصهيون فقاتلهم . ونصب

المنجنيقات عليها فقصرت حجارتها عن الوصول. وكانوا تمنعوا وبعثوا خلال ذلك الى صاحب انطاكية، وكان الحصن من ايالته فاستمدّوه وإلا اعطوا الحصن بما قذف الله في قلوبهم من الرعب. فلما قعد عن نصرهم استأمنوا الى صلاح الدين وسألوه انظار ثلاث للفتح فأنظرهم وأخذ رهنهم. ثم سلموه بعد الثلاث في منصتف جمادى من السنة، والله تعالى أعلم.

فتح سرمين

كان صلاح الدين عند اشتغاله بفتح هذه الحصون بعث ابنه الظاهر غازيا صاحب حلب الى سرمين وحاصرها، واستنزل الافرنج الذين بها على قطيعة اعطوها وهدم الحصن، وكان فتحه آخر جمادى الاخيرة فانطلق جماعة من الاسارى كانوا بهذا الحصن، وكانت هذه الفتوحات كلها في مقدار شهر، وجميعها من أعمال انطاكية، والله تعالى أعلم.

فتح برزية

ولما فرغ صلاح الدين من قلعة الشغر سار الى قلعة برزية قبالة أفامية وتقاسمها في اعمالها. وبينهما بحيرة من ماء العاصي والعيون التي تجري، وكانوا أشدّ شيء في الاذى للمسلمين فنازلها في الرابع والعشرين من جمادى الاخيرة، وهي متعذرة المصعد من الشمال والجنوب، وصعبته من الشرق وبجهة الغرب مسلك اليها فنزل هنالك

صلاح الدين ، ونصب المجانيق فلم تصل حجارتها لبعد القلعة وعلوها فرجع الى المزاحفة ، وقسم عساكره على أمرائها ، وجعل القتال بينهم نوباً فقاتلهم أولاً عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار ،واصعدهم الى قلعتهم حتى صعب المرتقى على المسلمين ، وبلغوا مواقع سهامهم وحجارتهم من الحصن . وكانوا يدحرجون الحجارة على المقاتلة فلا يقوم لها شيء . فلما تعب أهل هذه النوبة عادوا وصعد خاصة صلاح الدين فقاتلوا قتالاً شديدا ،.وصلاح الدين وتقي الدين ابن أخيه يحرضانهم حتى أعيوا وهموا بالرجوع ، فصاح فيهم صلاح الدين وفي أهل النوبة الثانية فتلاحقوا بهم ، وجاء أهل نوبة عماد الدين على اثرهم وحمي الوطيس وردّ الافرنج على أعقابهم الى حصنهم فدخلوه ودخل المسلمون معهم .

وكان بقية المسلمين في الخيام شرقي الحصن ، وقد أهمله الافرنج فعمد اهل الخيام من تلك الناحية ، واجتمعوا مع المسلمين في أعقاب الافرنج عند الحصن فملكوه عَنْوَةً وجاء الافرنج الى قبة الحصن ومعهم جماعة من أسارى المسلمين في القيود .فلما سمعوا تكبير اخوانهم خارج القبة كبروا فدهش الافرنج ، وظنوا أن المسلمين خالطوهم فألقوا باليد ، واسرهم المسلمون واستباحوهم واحرقوا البلد ،وأسروا صاحبها وأهله وولده ، وافترقوا في أسراهم فجمعهم صلاح الدين حتى اذا قارب انطاكية بعثهم اليها ، لان زوجة صاحب انطاكية

كانت تراسل صلاح الدين بالاخبار وتهاديه فرعي لها ذلك، والله تعالى ولي التوفيق.

فتح دربساك

ولما فرغ صلاح الدين من حصن برزية دخل من الغد الى الجسر الجديد على نهر العاصي قرب انطاكية فاقام عليه فلحق به فخلف العسكر، ثم سار الى قلعة دربساك ونزل عليها في رجب من السنة وهي معاقل الفداوية التي يلجأون الى الاعتصام بها ونصب عليها المجانيق حتى هدم من سورها. ثم هجمها بالمزاحفة وكشف المقاتلة عن سورها ونقبوا منها برجا من أسفله فسقط. ثم باكروا الزحف من الغد، وصابرهم الافرنج ينتظرون المدد من صاحبهم سمند صاحب انطاكية. فلما تبينوا عجزه استأمنوا صلاح الدين فأمنهم في أنفسهم فقط وخرجوا الى انطاكية. وملك الحصن في عشرين من رجب من السنة والله تعالى أعلم

فتح بغراس

ثم سار عماد الدين عن دربساك الى قلعة بغراس على تعدّدها وقربها من انطاكية فيحتاج مع قتالها الى رد، من العسكر بينه وبين انطاكية فحاصرها ونصب عليها المجانيق فقصرت عنها لعلوها، وشق عليهم حمل الماء الى أعلى الجبل. وبينما هم في ذلك اذ جاء رسولهم يستأمن لهم فأمنهم في أنفسهم فقط كما أمن أهل دربساك. وتسلم القلعة بما

فيها وخربها . فجددها ابن اليون صاحب الارمن ، وحصنها وصارت في ايالته ، والله أعلم

صلح انطاكية

ولما فتح حصن بغراس خاف سمند صاحب انطاكية ، وأرسل الى صلاح الدين في الصلح على أن يطلق أسرى المسلمين الذين عنده . وتحامل عليه أصحابه في ذلك ليريح الناس ويستمدّوا فأجابه صلاح الدين الى ذلك لثمانية أشهر من يوم عقد الهدنة . وبعث اليه من استحلفه وأطلق الاسرى . وكان سمند في هذا الوقت عظيم الافرنج متسع المملكة ، وطرابلس وأعمالها قد صارت اليه بعد القمص ، واستخلف فيها ابنه الأكبر . وعاد صلاح الدين الى حلب فدخلها ثالث شعبان من السنة ، وانطلق ملوك الاطراف بالجزيرة وغيرها الى بلادهم . ثم رحل إلى دمشق وكان معه أبو فليتة قاسم بن مهنا أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم قد عسكر معه ، وشهد فتوحه . وكان يتيمن بصحبته ويتبرك برؤيته ، ويجتهد في تأنيسه وتكرمته ، ويرجع الى مشورته . ودخل دمشق أوّل رمضان من السنة ، وأشير عليه بتفريق العساكر فأبى وقال : هذه الحصون كوكب وصفد والكرك في وسط بلاد الاسلام فلا بدّ من البدار الى فتحها ، والله سبحانه وتعالى أعلم

فتح الكرك

كان صلاح الدين قد جهز العساكر على الكرك مع أخيه العادل حتى سار الى دربساك وبغراس ، وأبعد في تلك الناحية فشدّ العادل حصارها حتى جهدوا وفنيت أقواتهم فراسلوه في الامان فأجابهم . وسلموا القلعة فملكها ، وملك الحصون التي حواليها وأعظمها الشوبك ، وأمنت تلك الناحية ، واتصلت ايالة المسلمين من مصر الى القدس والله تعالى أعلم .

فتح صفد

لما عاد صلاح الدين الى دمشق أقام بها نصف رمضان ، ثم تجهز لحصار صفد فنزل عليها ونصب المجانيق ، وكانت أقواتهم قد تسلط عليها الحصار الأوّل فخافوا من نفادها فاستأمنوا فأمنهم وملكها ، ولحقوا بمدينة صور ، والله تعالى أعلم .

فتح كوكب

لما كان صلاح الدين على صفد خافه الافرنج على حصن كوكب فبعثوا اليه نجدة وكان قايماز النجمي يحاصره فشعر بتلك النجدة ، وركب اليهم وهم مختفون ببعض الشعاب فكبسهم ، ولم يفلت منهم أحد . وكان فيهم مقدّمان من

الاسبتارية فحملها الى صلاح الدين على صفد ، فاحضرهما للقتل على عادته في الفداوية والاسبتارية فاستعطفه واحد منهما فعفا عنهما وحبسهما . ولما فتح صفد سار الى كوكب وحاصره وارسل اليهم بالامان فاصرّوا على الامتناع عليه فنصب عليهم المجانيق ، وتابع المزاحفة . ثم عاقه المطر عن القتال وطال مقامه . فلما انقضى المطر عاود المزاحفة وضايقهم بالسور ونقب منه برجا فسقط فارتاعوا واستأمنوا . وملك الحصن منتصف ذي القعدة من السنة ، ولحق الافرنج بصور واجتمع الزعماء وتابعوا الرسل الى اخوانهم وراء البحر في حوزة يستصرخونهم فتابعوا اليهم المدد ، واتصل المسلمون في الساحل من ايلة الى بيروت لا يفصل بينهم إلا مدينة صور . ولما فرغ صلاح الدين من صفد وكوكب سار الى القدس فقضى فيه نسك الأضحى. ثم سار الي عكا قام بها الى انسلاخ الشتاء ، والله تعالى أعلم

فتح الشقيف

ثم سار صلاح الدين في ربيع سنة خمس وثمانين الى محاصرة الشقيف ، وكان لأرناط صاحب صيدا ، وهو من أعظم الناس مكراً ودهاء . فلما نزل صلاح الدين بمرج العيون جاء اليه وأظهر له المحبة والميل ، وطلب المهلة الى جمادى الأخيرة ليتخلص أهله وولده من المركيش بصور ، ويسلم له حصن الشقيف فأقام صلاح الدين هنالك لوعده . وانقضت مدّة الهدنة بينه وبين سمند صاحب انطاكية فبعث

تقي الدين ابن أخيه مسلحة في العساكر إلى البلاد التي قرب انطاكية. ثم بلغه اجتماع الافرنج بصور عند المركيش، وأن الامداد وافتهم من أهل ملتهم وراء البحر. وأن ملك الافرنج بالشام الذي أطلقه صلاح الدين بعد فتح القدس قد اتفق مع المركيش ووصل يده به. واجتمعوا في أمم لا تحصى وخشي أن يتقدّم إليهم ويترك الشقيف وراءه فتنقطع عنه الميرة، فأقام بمكانه.

فلما انقضى الأجل تقدم الى الشقيف واستدعى ارناط فجاء واعتذر بأن المركيش لم يمكنه من أهله وولده، وطلب الامهال مرّة أخرى فتبين صلاح الدين مكره فحبسه، وأمره أن يبعث الى أهل الشقيف بالتسليم فلم يجب فبعث به الى دمشق فحبس بها. وتقدم الى الشقيف فحاصره بعد أن أقام مسلحة قبالة الافرنج الذين بظاهر صور، فجاءه الخبر بأنهم فارقوا صور لحصار صيدا فلقيتهم المسلحة وقاتلوهم فغلبوهم، وأسروا سبعة من فرسانهم، وقتلوا آخرين. وقتل مولى لصلاح الدين من أشجع الناس وردوهم على أعقابهم الى معسكرهم بظاهر صور. وجاء صلاح الدين بعد انقضاء الوقعة فأقام في المسلحة رجاء أن يصادف أحداً من الأفرنج فينتقم منهم. وركب في بعض الايام ليشارف معسكر الافرنج فظن عسكره أنه يريد القتال فنجعوا وأوغلوا الى العدو.

وبعث صلاح الدين الامراء في أثرهم يردونهم فلم يرجعوا، ورآهم

الافرنج فظنوا أن وراءهم كميناً فارسلوا من يكشف خبرهم فوجدوهم منقطعين فحملوا عليهم وأناموهم جميعاً ، وذلك تاسع جمادى الاولى من السنة . ثم انحدر اليهم صلاح الدين في عساكره من الجبل فهزمهم الى الجسر ، وغرق منهم في البحر نحو من مائة دارع سوى من قتل . وعزم السلطان على حصارهم ، واجتمع اليه الناس . ثم عاد الافرنج الى صور ، وعاد السلطان الى بليس ليشارف عكا ويرجع الى مخيمه .

ولما وصل الى المعسكر جاء الخبر بأن الافرنج يتعدّون عن صدور مذاهبهم لحاجاتهم فكتب الى المعسكر بعكا ، ووعدهم ثامن جمادى الاخيرة يوافونه من ناحيتهم للاغارة عليهم . وأكمن لهم في الاودية والشعاب من سائر النواحي ، واختار جماعة من فرسان عسكره ، وتقدّم اليهم بأن يتعرّضوا للافرنج ، ثم يستطردوا لهم الى مواضع الكمناء ففعلوا ، وناشبوا الافرنج وانفوا من الاستطراد . وطال على الكمناء الانتظار فخرجوا خشية على أصحابهم فوافوهم في شدّة الحرب فانهزم المسلمون ، ووقع التمحيص . وكان أربعة في الكمين من امراء طي فعدلوا عن طريق أصحابهم ، وسلكوا الوادي ، وتبعهم بعض العسكر من موالي صلاح الدين . ورآهم الافرنج في الوادي فعلموا أنهم أضلوا الطريق فاتبعوهم وقتلوهم ، والله تعالى أعلم

محاصرة الافرنج أهل صور لعكا والحروب عليها

كانت صور كما قدّمنا ضبطها المركيش من الافرنج الواصل من وراء البحر، وقام بها وكان كلما فتح صلاح الدين مدينــة أو حصناً على الأمان لحق أهلها بصور فاجتمع بها عدد عظيم من الافرنــج وأموال جمة. ولما فتح القدس لبس كثير من رهبانهم وقسيسيهم وزعمائهم السواد حزناً على البيت المقدّس. وارتحل بطرك من القدس، وهم معه يستصرخون أهل الملة النصرانيــة من وراء البحر للاخذ بثأر القدس فخرجوا للجهاد من كل بلد، حتى النساء اللواتي يجدن القوة على الحرب. ومن لم يستطع الخروج استأجر مكانــه، وبذلوا الاموال لهم. وجاء الافرنج من كل مكان ونزلوا بصور، ومــدد الرجال والاقوات والاسلحة متداركة لهم في كل وقت. واتفقوا على الرحيل الى عــكا ومحاصرتها فخرجوا ثامن رجب من سنة خمس وثمانين، وسلكوا على طريق الساحل وأساطيلهم تحاذيهم في البحر. ومسلحة المسلمين تتخطفهم من جوانبهم حتى وصلوا الى عكا منتصف رجب. وكان رأي صلاح الدين أن يحاذيهم في مسيرهم لينال منهم فخالفه أصحابه واعتذروا بضيق الطريق ووعره فسلك طريقاً آخر، ووافاهم على عكا وقد نزلوا عليها، وأحاطوا بهـا من البحر الى البحر فليس للمسلمين اليها طريق.

ونزل صلاح الدين قبالتهم ، وبعث الى الاطراف يستنفر الناس فجاءت عساكر الموصل وديار بكر وسنجار وسائر بلاد الجزيرة . وجاء تقي الدين ابن أخيه من حماة ، ومظفر الدين كوكبري عن حَرّان والرُها ، وكانت أمداد المسلمين تصل في البر ، وامداد الافرنج في البحر وهم محصورون في صور . وكانت بينهم أيام مذكورة ووقائع مشهورة وأقام السلطان بقية رجب لم يقاتلهم ، فلما استهل شعبان قاتلهم يوماً بكماله ، وبات الناس على تعبية . ثم صبحهم بالقتال ونزل الصبر وحمل عليهم تقي الدين ابن أخيه منتصف النهار من الميمنة حملة أزالتهم عن مواقفهم وملك مكانهم واتصل بالبلد فدخلها المسلمون، وشحنها صلاح الدين بالمدد من كل شيء . وبعث اليهم الامير حسام الدين أبا الهيجاء السمين من أكابر امرائه من الاكراد الحطية من اربل . ثم نهض المسلمون من الغد فوجدوا الافرنج قد أداروا عليهم خندقاً يمتنعون به ، ومنعوهم القتال يومهم ، وأقاموا كذلك . ومع السلطان أحياء من العرب فكمنوا في معاطف النهر من ناحية الافرنج على الساحل للخطف منهم ، وكبسوهم منتصف شعبان وقتلوهم ، وجاؤا برؤسهم الى صلاح الدين فأحسن اليهم ، والله تعالى أعلم .

الوقعة على عكا

كان صلاح الدين قد بعث عن عسكر مصر ، وبلغ الخبر الافرنج فارادوا معاجلته قبل وصولهم . وكانت عساكره متفرقة في المسالح

على الجهات فمسلحة تقابل انطاكية وملكها ممتد في البلاد التي من أعمال حلب، ومسلحة بحمص تحفظها من أهل طرابلس، ومسلحة تقابل صور، ومسلحة بدمياط والاسكندرية. واعتزم الافرنج على مهاجمتهم بالقتال، ولم يشعروا بهم وصبحوهم لعشرين من شعبان، وركب صلاح الدين وعبى عساكره، وقصدوا الميمنة وعليها تقي الدين ابن أخيه فتزحزح بعض الشيء، وأمده صلاح الدين بالرجال من عنده. فحطوا على صلاح الدين في القلب فتضعضع، واستشهد جماعة منهم الامير علي ابن مردان، والظهير أخو الفقيه عيسى والي القدس، والحاجب خليل الهكاري وغيرهم.

وقصدوا خيمة صلاح الدين فقتلوا من وزرائه ونهبوا، واستشهد جمال الدين بن رواحة من العلماء، ووضعوا السيف في المسلمين، وانهزم الذين كانوا حوالي الخيمة، ولم تسقط، وانقطع الذين ولوها من الافرنج عن أصحابهم وراءهم، وحملت ميسرة المسلمين عليهم فاحجموا الي وراء الخنادق، وعادوا الى خيمة صلاح الدين فقتلوا كل من وجدوا عندها من الافرنج. وصلاح الدين قد عاد من اتباع أصحابه يردّهم للقتال. وقد اجتمعوا عليهم فلم يفلت منهم أحد، وأسروا مقدّم الفداوية فأمر بقتله، وكان أطلقه مرة أخرى. وبلغت عدّة القتلى عشرة آلاف فألقوا في النهر، واما المنهزمون من المسلمين فمنهم من رجع من طبرية، ومنهم من جاوز الأردن ورجع، ومنهم من

بلغ دمشق . واتصل قتال المسلمين للافرنج وكادوا يلجون عليهم معسكرهم . ثم جاءهم الصريخ بنهب أموالهم ، وكان المنهزمون قد حملوا اثقالهم فامتدت اليها أيدي الاوباش ونهبوها فكان ذلك مما شغل المسلمين عن استئصال الافرنج ، وأقاموا في ذلك يوماً وليلة يستردون النهب من أيدي المسلمين ، ونفس بذلك عن الافرنج بعض الشيء ، والله تعالى أعلم .

رحيل صلاح الدين عن الافرنج بعكا

ولما انقضت هذه الوقعة وامتلأت الأرض من جيف الافرنج تغير الهواء وأنتن ، وحدث بصلاح الدين قولنج كان يعاوده فأشار عليه أصحابه بالانتقال عسى الافرنج ينتقلون . وان أقاموا عدنا اليهم وحمله الاطباء على ذلك فرحل رابع رمضان من السنة وتقدم الى عكا بحياطتها ، وأعلمهم سبب رحيله . فلما ارتحل أشتد الافرنج في حصار عكا وأحاطوا بها دائرة مع اسطولهم في البحر، وحفروا خندقاً على معسكرهم وأداروا عليهم سوراً من ترابه حصناً من صلاح الدين أن يعود اليهم، ومسلحة المسلمين قبالتهم يناوشوهم القتال فلايقاتلونهم. وبلغ ذلك صلاح الدين ، وأشار أصحابه بارسال العساكر ليمنع من التحصين فامتنع من ذلك لمرضه . فتم للافرنج ما أرادوه ،وأهل عكا يخرجون اليهم في كل يوم ويقاتلونهم ، والله تعالى أعلم .

معاودة صلاح الدين حصار الافرنج على عكا

ثم وصل العادل أبو بكر بن أيوب منتصف شوّال في عساكر مصر، ومعه الجم الغفير من المقاتلة والاصناف الكثيرة من آلات الحصار. ووصل على إثره اسطول مصر مع الامير لؤلؤ وكبس مركبا فغنم ما فيه ودخل به الى عكا، وبرىء صلاح الدين من مرضه وأقام بمكانه بالجزيرة الى انسلاخ الشتاء. وسمع الافرنج أن صلاح الدين سار اليهم واستقلوا مسلحة المسلمين عندهم فزحفوا اليهم في صفر سنة ست وثمانين، واستمات المسلمون، وقتل بين الفريقين خلق. وبلغ الخبر بذلك صلاح الدين وجاءته العساكر من دمشق وحمص وحماه فتقدّم من الجزيرة الى تل كيسان، وتابع القتال على الافرنج يشغلهم عن المسلمين فكانوا يقاتلون الفريقين.

وكان الافرنج مدّة مقامهم على عكا قد صنعوا ثلاثة أبراج من الخشب ارتفاع كل برج ستون ذراعاً، وفيه خمس طبقات، وغشوها بالجلود وطلوها بالأدوية التي لا تعلق النار بها. وشحنوها بالمقاتلة وأدنوها الى البلد من ثلاث جهات في العشرين من ربيع الاوّل سنة ست وثمانين. وأشرفوا بها على السور فكشف من عليه من المقاتلة، وشرع الافرنج في طمّ الخندق. وبعث أهل عكا سابحاً في البحر يصف لهم حالهم فركب في عساكره، واشتد في قتال الافرنج فخفف على أهل

البلد ما كانوا فيه ، وأقاموا كذلك ثلاثة أيام يقاتلون الجهتين ، وعجزوا عن دفع الابراج ورموها بالنفط فلم يؤثر فيها . وكان عندهم رجل من أهل دمشق يعاني أحوال النفط فأخذ عقاقير وصنعها ، وحضر عند قراقوش حاكم البلد ، وأعطاه دواء وقال : ارم بهذا في المنجنيق المقابل لاحدى الابراج فيحترق فجرد عليه ، ثم وافق ورمى به في قدر . ثم رمى بعده بقدر أخرى مملوءة ناراً فاضطرمت النار واحترق البرج بمن فيه ، ثم فعل بالثاني والثالث كذلك .

وفرح أهل البلد وتخلصوا من تلك الورطة فأمر صلاح الدين بالاحسان الى ذلك الرجل فلم يقبل ، وقال : إنما فعلته لله ، ولا أريد الجزاء إلاّ منه . ثم بعث صلاح الدين الى ملوك الاطراف ليستنفرهم فجاء عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار ، ثم علاء الدين بن طالب صاحب الموصل ، ثم عز الدين مسعود بن مودود ، وبعثه أبوه بالعساكر ثم زين الدين صاحب اربل ، وكان كلّ واحد منهم اذا وصل يتقدّم بعسكره فيقاتلون الافرنج ، ثم يضربون أبنيتهم . وجاء الخبر بوصول الاسطول من مصر فجهز الافرنج اسطولاً لقتاله ، وشغلهم صلاح الدين بالقتال ليتمكن الاسطول من دخول عكا فلم يشغلوا عنه ، وقاتلوا الفريقين براً وبحراً ، ودخل الاسطول الى مرسى عكا سالماً ، والله تعالى أعلم بغيبه .

وصول ملك الالمان الى الشام ومهلكه

هؤلاء الالمان شعب من شعوب الأفرنج كثير العدد موصوف بالبأس والشدّة، وهم موطنون بجزيرة انكلطيرة [1] في الجهة الشمالية الغربية من البحر المحيط، وهم حديثو عهد بالنصرانية. ولما سار القسس والرهبان بخبر بيت المقدس واستنفار النصرانية لها قام ملكهم لها وقعد، وجمع عساكره، وسار للجهاد بزعمه وفسح النصارى له الطريق. وقصد القسطنطينية فعجز ملك الروم عن منعه بعد ان كان يعد بذلك نفسه، وكتب بها الى صلاح الدين، لكنه منع عنهم الميرة فضاقت عليهم الاقوات. وعبروا خليج القسطنطينية، ومروا بمملكة قليج أرسلان، وتبعهم التركمان يحفون بهم ويتخطفون منهم، وكان الفصل شتاء والبلاد باردة فهلك أكثرهم من البرد والجوع.

ومرّوا بقونية وبها قطب الدين ملك شاه بن قليج أرسلان قد غلب عليه أولاده وافترقوا في النواحي فخرج ليصدّهم فلم يطق ذلك، ورجع فساروا في أثره الى قونية وبعثوا اليه بهدية على أن يأذن لهم في الميرة فاذن لهم. واسترهنوا عشرين من أمرائه، وتكاثر عليهم اللصوص فقيدوا أولئك الأمراء وحبسوهم وساروا الى بلاد الأرمن، وصاحبها كاقولي بن خطفاي بن اليون [2] فأمدهم بالازواد

(١) كذا، وهي: إنكلترة.
(٢) كذا، وفي الكامل ج ٩ ص ٢٠٧: وصاحبها لافون بن اصطفانة بن ليون.

والعلوفات ، وأظهر طاعتهم ، وسار الى انطاكية . ودخل ملكهم ليغتسل في نهر هنالك فغرق ، وملك بعده ابنه . ولما بلغوا انطاكية اختلفوا فبعضهم مال الى تمليك أخيه ، وبعضهم مال الى العود فعادوا كلهم .

وسار ابن الملك فيمن ثبت معه يزيدون على أربعين ألفاً ، وأصابهم الموتان وحسن اليهم صاحب انطاكية المسير الى الافرنج على عكا فساروا على جبلة واللاذقية ، ومرّوا بحلب وتخطف أهلها منهم خلقاً ، وبلغوا طرابلس ، وقد أفناهم الموتان ، ولم يبق منهم إلا نحو ألف رجل فركبوا البحر الى عكا . ثم رأوا ما هم فيه من الوهن والخلاف فركبوا البحر الى بلدهم ، وغرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد . وكان الملك قليج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم ، ويعده بمنعهم من العبور عليه فلما عبروا اعتذر بالعجز عنهم ، وافتراق أولاده واستبدادهم عليه . وأما صلاح الدين فانه استشار أصحابه عند وصول خبرهم فأشار بعضهم الى لقائهم في طريقهم ومحاربتهم ، وأشار آخرون بالمقام لئلا يأخذ الافرنج عكا . ومال صلاح الدين إلى هذا الرأي ، وبعث العساكر من جبلة واللاذقية وشيزر الى حلب ليحفظوها من عاديتهم ، والله تعالى وليّ التوفيق

واقعة المسلمين مع الإفرنج على عكا

ثم زحف الافرنج على عكا في عشر من جمادى الاخيرة من سنة

ست وثمانين ، وخرجوا من خنادقهم الى عساكر صلاح الدين وقصد العادل أبو بكر بن أيوب في عساكر مصر فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كشفهم الافرنج عن الخيام وملكوها. ثم كرّ عليهم المصريون فكشفوهم عن خيامهم ، وخالفهم بعض عساكر مصر الى الخنادق فقطعوا عنهم بعض مدد أصحابهم فأخذتهم السيوف ، وقتل منهم ما يزيد على عشرين ألفاً . وكانت عساكر الموصل قريباً من عسكر مصر ، ومقدمهم علاء الدين خوارزم شاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل فعدمت ميرتهم وأمر صلاح الدين بمناجزتهم على هذا الحال . وبلغه الخبر بموت ملك الالمان وما أصاب قومه من الشتات فسر المسلمون بذلك ، وظنوا وهن الافرنج به .

ثم بعد يومين لحقت بالافرنج امداد فى البحر مع كند من الكنود يقال له الكندهري ابن أخي الافرسيس (١) لأبيه ، وابن أخي ملك انكلطيرة لأمه ففرّق في الافرنج أموالا ، وجند لهم أجناداً ، ووعدهم بوصول الامداد على أثره فاعتزموا على الخروج لقتال المسلمين . فانتقل صلاح الدين من مكانه الى الخرّونة لثلاث بقين من جمادى الاخيرة لضيق المجال ، ونتن المكان من جيف القتلى . ثم نصب الكندهري على عكا مجانيق وذبابات فاخذها أهل عكا ، وقتلوا عندها جموعاً من الافرنج ، فلم يتمكن من متابعة ذلك ولا من اقامة الستائر عليها ،

(١) كذا بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٢٠٩ : أتت الفرنج أمداد في البحر مع كند من الكنود البحرية يقال له الكندهري ابن أخي ملك إفرنسيس لأبيه وابن أخي ملك انكلتار لأمه.

لانّ أهل البلاد كانوا يصيبونها فعمل تلاً عالياً من التراب ونصب المجانيق من ورائه وضاقت الاحوال ، وقلت الميرة .

وأرسل صلاح الدين الى الاسكندرية ببعث الاقوات في المراكب الى عكا ، وبعث الى بيروت بمثل ذلك فبعثوا مركباً ونصبوا فيها الصلبان يوهمون أنه للافرنج ، حتى دخلوا الى المرسى . وجاءت بعد الميرة من الاسكندرية . ثم جاءت ملكة من الافرنج من وراء البحر في نحو ألف مقاتل للجهاد بزعمها ، فأخذت ببحر الاسكندرية هي وجميع ما معها . ثم كتب البابا كبير الملة النصرانية من كنيسة برومة يأمرهم بالصبر والجهاد ، ويخبرهم بوصول الامداد ، وأنه راسل ملوك الافرنج يحثهم على امدادهم فازدادوا بذلك قوة ، واعتزموا على مناجزة المسلمين وجروا عسكراً لحصار عكا ، وارتحلوا حادي عشر شوّال من السنة فنقل صلاح الدين اثقال العسكر الى [1] على ثلاثة فراسخ من عكا ، ولقي الافرنج على التعبية .

وكان أولاده الافضل علي والظاهر غازي والظافر خضر في القلب وأخوه العادل أبو بكر في الميمنة بعساكر مصر ومن انضمّ اليهم ، وعماد الدين صاحب سنجار وتقي الدين صاحب حماة ، ومعز الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر في الميسرة ، وصلاح الدين في خيمة

---

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٢٠٩ : فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل أثقال المسلمين إلى ميمون، وهو على ثلاثة فراسخ من عكا.

صغيرة على تل مشرف نصب له من أجل موضعه. فلما وصل الافرنج وعاينوا كثرة المسلمين ندموا على مفارقة خنادقهم، وباتوا ليلتهم وعادوا من الغد إلى معسكرهم فأتبعوهم أهل المقدمة وتخطفوهم من كل ناحية، وأحجروهم وراء خنادقهم.

ثم ناوشوهم القتال في الثالث والعشرين من شوال بعد أن أكمنوا لهم عسكراً فخرج لهم الافرنج في نحو أربعمائة فارس، واستطرد لهم المسلمون الى أن وصلوا كمينهم فخرجوا عليهم فلم يفلت منهم أحد. واشتد الغلاء على الافرنج، وبلغت الغرارة مائة دينار صوري، مع ما كان يحمل اليهم من البلدان من بيروت على يد صاحبها أسامة، ومن صيدا على يد نائبها سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، ومن عسقلان وغيرها. ثم اشتد عليهم الحال عند هيجان البحر وانقطاع المراكب في فصل الشتاء

ثم هجم الشتاء وأرسى الافرنج مراكبهم بصور خوفاً عليها على عادتهم في صور في فصل الشتاء. ووجد الطريق الى عكا في البحر فأرسل أهلها الى صلاح الدين يشكون ما نزل بهم، وكان بها الامير حسام الدين أبو الهيجاء السمين فشكى من ضجره بطول المقام والحرب فأمر صلاح الدين بانفاذ نائب وعسكر اليها بدلا منهم، وأمر أخاه العادل بمباشرة ذلك فانتقل الى جانب البحر عند جبل حيفا، وجمع المراكب والشواني، وبعث العساكر اليها شيأ فشيأ، كلما

دخلت طائفة خرج بدلها فدخل عشرون أميراً بدلا من ستين كانوا. وأهملوا أهل الرجل، وتعينت دواوين صاحب صلاح الدين ــ وكانوا نصارى ــ على الجند في اثباتهم واطلاق نفقاتهم فبلغ الحامية بعكا، وضعفت وعادت مراكب الافرنج بعد انحسار الشتاء فانقطت الاخبار عن عكا وعنها. وكان من الامراء الذين دخلوا عكا: سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وعزالدين ارسلان مقدّم الاسدية وابن جاولي وغيرهم. وكان دخولهم عكا أول سنة سبع وثمانين، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة زين الدين صاحب اربل وولاية أخيه كوكبري

كان زين الدين يوسف بن زين الدين قد دخل في طاعة صلاح الدين، وكانت له إربل كما مرّ لأيام أبيه، وحرّان والرُها لاخيه مظفر الدين كوكبري، وكان يعسكر مع صلاح الدين في غزواته وحضر عنده على عكا فأصابه المرض. وتوفي في ثامن عشر رمضان سنة أربع وثمانين فقبض أخوه مظفر الدين كوكبري على بلد أمير من أمرائه. وبعث الى صلاح الدين يطلب اربل وينزل عن حران والرها فأجابه وأقطعه اياهما، وأضاف اليها شهرزور وأعمالها ودار بند العرابلي، وهي قفجاق. وكاتب أهل اربل مجاهد الدين صاحب الموصل خوفاً من صلاح الدين مع أن مجاهد الدين كان عزالدين قد حبسه كما مرّ ثم اطلقه، وولاه نائبه وجعل بعض غلمانه عيناً عليه فكان يناقضه في كثير من الاحوال

فقصد مجاهد الدين أن يفعل معه مثل ذلك في اربل فامتنع منها، وولاها مظفر الدين واستفحل أمره فيها

ولما نزل مظفر الدين عن حرّان والرُها ولاها صلاح الدين لابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه مضافة الى ميافارقين بديار بكر، وحماة وأعمالها بالشام. وتقدم له أن يقطع أعمالها للجند فيتقوّى بهم على الافرنج فسار تقي الدين اليها وقرّر أمورها. ثم انتهى الى ميافارقين، وتجدّد له طمع فيما يجاورها من البلاد فقصد مدينة حال من ديار بكر. وسار اليه سيف الدين بكتمر صاحب خلاط في عساكره وقاتله فهزمه تقي الدين ووطئ بلاده. وكان بكتمر قد قبض على مجد الدين بن رستق وزير سلطان شاكرين وحبسه في قلعة هنالك. فلما انهزم كتب الى والي القلعة بقتله فوافاه الكتاب وتقي الدين محاصر له. فلما ملك القلعة أطلق ابن رستق وسار الى خلاط وحاصرها فامتنعت عليه، فعاد عنها الى ملازكرد فضيق عليها حتى استأمنوا له، وضرب لهم أجلا في تسليم البلد. ثم مرض ومات قبل ذلك الاجل بيومين، وحمله ابنه الى ميافارقين فدفنه بها، واستفحلت دولة بكتمر في خلاط، والله تعالى أعلم.

وصول أمداد الافرنج من الغرب الى عكا

ثم تتابعت امداد الافرنج من وراء البحر لاخوانهم المحاصرين

فقصد مجاهد الدين أن يفعل معه مثل ذلك في اربل فامتنع منها ، وولاها مظفر الدين واستفحل أمره فيها

ولما نزل مظفر الدين عن حرّان والرُها ولاها صلاح الدين لابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه مضافة الى ميافارقين بديار بكر ، وحماة وأعمالها بالشام . وتقدم له أن يقطع أعمالها للجند فيتقوّى بهم على الافرنج فسار تقي الدين اليها وقرّر أمورها . ثم انتهى الى ميافارقين ، وتجدّد له طمع فيما يجاورها من البلاد فقصد مدينة حال من ديار بكر . وسار اليه سيف الدين بكتمر صاحب خلاط في عساكره وقاتله فهزمه تقي الدين ووطيء بلاده . وكان بكتمر قد قبض على مجد الدين بن رستق وزير سلطان شاكرين وحبسه في قلعة هنالك . فلما انهزم كتب الى والي القلعة بقتله فوافاه الكتاب وتقي الدين محاصر له . فلما ملك القلعة أطلق ابن رستق وسار الى خلاط وحاصرها فامتنعت عليه ، فعاد عنها الى ملاز كرد فضيق عليها حتى استأمنوا له ، وضرب لهم أجلا في تسليم البلد . ثم مرض ومات قبل ذلك الاجل بيومين ، وحمله ابنه الى ميافارقين فدفنه بها ، واستفحلت دولة بكتمر في خلاط ، والله تعالى أعلم .

وصول أمداد الافرنج من الغرب الى عكا

ثم تتابعت امداد الافرنج من وراء البحر لاخوانهم المحاصرين

يئس المسلمون الذين به من الخلاص نزل مقدّمهم وهو يعقوب الحلبي غلام ابن شفنين [1] فحرق المركب خوفاً من أن يظفر الافرنج برجاله وذخائره فغرق. ثم عمل الافرنج دبابات وكباشاً وزحفوا بها فأحرق المسلمون بعضها، وأخذوا بعضها فرجع الافرنج الى نصب التلال من التراب يقاتلون من ورائها فامتنعت من نفوذ الحيلة فيها وضاق حال أهل عكا.

استيلاء الافرنج على عكا

ولما جهد المسلمين بعكا الحصار خرج الامير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المشطوب من اكبر أمرائها الى ملك افرنسة يستأمنه لاهل عكا فلم يجبه، وضعفت نفوس اهل البلد لذلك ووهنوا. ثم هرب من الامراء عزالدين ارسل الأسدي وابن عزالدين جاولي وسنقر الأرجاني في جماعة منهم. ولحقوا بالعسكر فازداد اهل عكا وهناً. وبعث الافرنج الى صلاح الدين فى تسليمها فأجاب على ان يؤمنوا أهل البلد، ويطلق لهم من أسراهم بعدد أهل البلد، ويعطيهم الصليب الذى أخذه من القدس فلم يرضوا بما فعل فبعث الى المسلمين بعكا ان يخرجوا بجمعهم، ويتركوا البلد ويسيروا مع البحر ويحملوا على العدو حملة مستميتين، ويجيء المسلمون من وراء العدوّ فعساهم يخلصون بذلك فلما أصبحوا زحف الافرنج الى البلد، ورفع المسلمون اعلامهم،

---

(١) كذا بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٢١٣: وهو يعقوب الحلبي مقدّم الجندارية، يعرف بغلام ابن شفنين.

وارسل المشطوب من البلد الى الافرنج فصالحهم على الامان على أن يعطيهم مائتي الف دينار ، ويطلق لهم خمسمائة أسير ويعيد لهم الصليب . ويعطي للمركيش صاحب صور أربعة عشر الف دينار فأجابوا الى ذلك وضربوا المدة للمال والاسرى شهرين . وسلموا لهم البلد فلما ملكوها غدروا بهم وحبسوهم رهناً بزعمهم في المال والاسرى والصليب .

ولم يكن لصلاح الدين ذخيرة من المال لكثرة انفاقه في المصالح فشرع في جمع المال حتى اجتمع مائة الف دينار ، وبعث نائباً يستحلفهم على أن يضمن الفداوية من الحلف والضمان خوفاً من غدر أصحابه . وقال ملوكهم : اذا سلمتم المال والاسرى والصليب تعطونا رهناً في بقية المال ، ونطلق أصحابكم . وطلب صلاح الدين أن يضمن الفداوية الرهن ويحلفوا فامتنعوا ايضاً ، وقالوا : ترسلون المائة الف دينار والاسرى والصليب فنطلق من نراه ونبقي الباقي الى مجيء بقية المال فتبين المسلمون غدرهم ، وانهم يطلقون من لا يعبأ به ويمسكون الامراء والاعيان حتى يفادوهم فلم يجبهم صلاح الدين الى شيء . ولما كان آخر رجب ركب الافرنج الى ظاهر البلد في احتفال ، وركب المسلمون فشدّوا عليهم وكشفوهم عن مواقفهم فاذا المسلمون الذين كانوا عندهم قتلى بين الصفين قد استلحموا ضعفاءهم ، وتمسكوا بالاعيان للمفاداة فسقط في يد صلاح الدين ، وتمسك بالمال الذي جمعه لغيرها من المصالح ، والله تعالى أعلم .

تخريب صلاح الدين عسقلان

ولما استولى الافرنج على عكا استوحش المركيش صاحب صور من ملك انكلطيرة ، وأحس منه بالغدر فلحق ببلده صور . ثم سار الافرنج مستهل شعبان لقصد عسقلان ، وساروا مع ساحل البحر لا يفارقونه . ونادى صلاح الدين باتباعهم مع ابنه الافضل وسيف الدين ابي زكوش ، وعزالدين خرديك فاتبعوهم يقاتلونهم ويتخطفونهم من كل ناحية . ففتكوا فيهم بالقتل والاسر ، وبعث الافضل الى أبيه يستمده فلم يجد العساكر مستعدة . وسار ملك أنكلطيرة في ساقة الافرنج فحملهم وانتهوا الى يافا فأقاموا بها والمسلمون قبالتهم مقيمون . ولحق بهم من عكا من احتاجوا اليه . ثم ساروا الى قيسارية والمسلمون يتبعونهم ، ويقتلون من ظفروا به منهم ، وزاحموهم عند قيسارية فنالوا منهم وباتوا بها مشاورين . واختطف المسلمون منهم بالليل فقتلوا وأسروا .

وساروا من الغد الى أرسوف ، وسبقهم المسلمون اليها لضيق الطريق فحملوا عليهم عندها حتى اختطوهم الى البحر . فحينئذ استمات الافرنج وحملوا على المسلمين فهزموهم واثخنوا في تابعهم ، وألحقوهم بالقلب ، وفيه صلاح الدين . وتستر المسلمون المنهزمون بخمر الشعراء فرجع الافرنج عنهم ، وانفرج ما كانوا فيه من الضيق

المذكور ، وساروا الى يافا فوجدوها خالية وملكوها وكان صلاح الدين قد سار من مكان الهزيمة الى الرملة ، وجمع مخلفه وأثقاله ، واعتزم على مسابقة الافرنج الى عسقلان فمنعه أصحابه وقالوا : نخشى أن يزاحمنا الافرنج عليها ، ويغلبونا على حصارها كما غلبونا على حصار عكا . ويملكوها آخراً ويقووا بما فيها من الذخائر والاسلحة فندبهم الى المسير اليها وحمايتها من الافرنج ، فلحّوا في الامتناع من ذلك فسار وترك العساكر مع أخيه العادل قبالة الافرنج ، ووصل الى عسقلان وخربها تاسع عشر شعبان ، والقيت حجارتها في البحر وبقي أثرها ، وهلك فيها من الاموال والذخائر ما لا يحصى.فلما بلغ الافرنج ذلك أقاموا بيافا .

وبعث المركيش الى ملك انكلطرة يعذله حيث لم يناجز صلاح الدين على عسقلان ثاني رمضان الى الرملة فخرب حصنها . ثم سار الى القدس من شدّة البرد والمطر لينظر في مصالح القدس وترتبهم في الاستعداد للحصار . وأذن للعساكر في العود الى بلادهم للاراحة . وعاد الى مخيمه ثامن رمضان . وأقام الافرنج بيافا وشرعوا في عمارتها فرحل صلاح الدين الى نطرون ، وخيم به منتصف رمضان . وتردد الرسل بين ملك انكلطيرة وبين العادل على أن يزوّجه ملك انكلطرة أخته ، ويكون القدس وبلاد المسلمين بالساحل للعادل ، وعكا وبلاد الافرنج بالساحل لها الى مملكتها وراء البحر بشرط رضا الفداوية .

وأجاب صلاح الدين إلى ذلك ، ومنع الاقسة والرهبان أخت ملك انكلطرة من ذلك ونكروا عليها فلم يتم ، وانما كان ملك انكلطرة يخادع بذلك . ثم اعتزم الافرنج على القدس ورحلوا من يافا إلى الرملة ثالث ذي القعدة، وسار صلاح الدين الى القدس وقد ترك عليه عساكر مصر مع أبي الهيجاء فقويت به نفوس المسلمين . وسار الافرنج من الرملة الى النطرون ثالث ذي الحجة والمسلمون يحاذونهم . وكانت بينهم وقعات اسروا في واحدة منها نيفاً وخمسين من مقاتلة الافرنج ، واهتم صلاح الدين بعمارة اسوار القدس ،ورمّ ما ثلم وضبط المكان الذي ملك القدس منه وسدّ فروجه . وامر بحفر الخندق خارج الفصيل .

وقسم ولاية هذه الاعمال بين ولده وأصحابه ، وقلت الحجارة للبنيان . وكان صلاح الدين يركب الى الاماكن البعيدة وينقلها على مركوبه فيقتدي به العسكر . ثم ان الافرنج ضاقت أحوالهم بالنطرون ،وقطع المسلمون عنهم الميرة من ساحلهم فلم يكن كما عهدوه بالرملة ، وسأل ملك انكلطرة عن صورة القدس ليعلم كيفية ترتيب حصارها فصوّرت له . ورأى الوادي محيطاً بها إلا قليلا من جهة الشمال مع عمقه ووعرة مسالكه فقال : هذه لا يمكن حصارها لانا اذا اجتمعنا عليها من جانب بقيت الجوانب الاخرى ، وان افترقنا على جانبه الوادي والجانب الاخر كبس المسلمون احدى الطائفتين .

ولم تصل الاخرى لانجادهم خوفاً من المسلمين على معسكرهم ، وان تركوه من أصحابه حامية المعسكر فالمدى بعيد لا يصلون للانجاد الا بعد الوفاة ، هذا الى ما يلحقنا من تعذر القوت بانقطاع الميرة فعلموا صدقه ، وارتحلوا عائدين الى الرمله . ثم ارتحلوا في محرّم سنة ثمان وثمانين الى عسقلان وشرعوا في عمارتها ، وسار ملك انكلطرة الى مسلحة المسلمين فواقعوهم ، وجرت بينهم حروب شديدة وصلاح الدين يبعث سراياه من القدس الى الافرنج للاغارة وقطع الميرة فيغنمون ويعودون ، والله تعالى أعلم .

مقتل المركيش وملك الكندهري مكانه

ثم ارتحل صلاح الدين الى سنان مقدم الاسماعيلية بالشام في قتل ملك انكلطرة والمركيش ، وجعل له على ذلك عشرة آلاف دينار فلم يمكنهم قتل ملك انكلطرة لما رأوه من المصلحة لئلا يتفرّغ لهم صلاح الدين . وبعث رجلين لقتل المركيش في زي الرهبان فاتصلا بصاحب صيدا وابن بازران صاحب [1] واقاما عندهما بصور ستة أشهر مقبلين على رهبانيتهما ، حتى أنس بهما المركيش . ثم دعاه الأسقف بصور دعوى فوثبا عليه فجرحاه ولجأ أحدهما الى كنيسة واختفى فيها ، وحمل اليها المركيش لشدّة جراحه فأجهز عليه ذلك الباطني وقتله . ونسب

(١) كذا بياض بالأصل، وفي الكامل ج ٩ ص ٢٠٩ : واتصل بصاحب صيدا وابن بارزان صاحب رمله، وكانا مع المركيس بصور. راجع ما نقلناه عن تاريخ ابن الأثير مفصلاً بخصوص هذه الوقائع، في آخر القسم الثاني من هذا المجلد ص ٤٧٠ وما بعدها.

ذلك الى ملك انكلطيرة رجاء ان ينفرد بملك الافرنج بالشام . ولما قتل المركيش ملك المدينة زعيم من الافرنج الواردين من وراء البحر يعرف بالكندهري ابن أخت ملك افرنسة، وابن أخي ملك انكلطيرة من أبيه وتزوّج بالملكة في ليلته وبنى بها . وملك عكا وسائر البلاد بعد عود ملك انكلطيرة ، وعاش الى سنة أربع وتسعين وسقط من سطح. ولما رحل ملك انكلطيرة الى بلاده أرسل هذا الكندهرى الى صلاح الدين واستماله للصلح ، والتمس منه الخلعة فبعث اليه بها ولبسها بعكا ، والله تعالى أعلم .

مسير الافرنج الى القدس

ولما قدم صلاح الدين الى القدس ، وكان قد بلغه مهلك تقيّ الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه ، وان ابنه ناصر الدين استولى على اعماله بالجزيرة وهي: حَرّان والرُّها وسميساط وميافارقين وأرّجان، وبعث الى صلاح الدين يسأل ابقاءها في يده مضافة الى ما كان لابيه من الاعمال بالشام فاستقصره صلاح الدين لصغره . وطلب منه ابنه الافضل ان يعطيها له، وينزل عن دمشق فأجابه الى ذلك ، وأمره أن يسير اليها . وكاتب ملوك البلاد الشرقية بالموصل وسنجار والجزيرة واربل، وسار لانجاده بالعساكر . وعلم ناصر الدين انه لا قبل له بذلك فبعث للملك العادل يستشفع له عند صلاح الدين على ان يبقى بيده له ما كان لابيه بالشام فقط ، وينزل عن بلاد الجزيرة فأقطعها صلاح الدين أخاه الملك العادل

وبعثه يتسلمها ويرد ابنه الافضل فلحق بالافضل بحلب وأعاده ، وعبر الفرات وتسلم البلاد من ناصر الدين بن تقيّ الدين ، وانزل بها عماله . واستصحبه وساير العساكر الجزرية الى صلاح الدين بالقدس .

ولما بلغ الافرنج أن صلاح الدين بعث ابنه الافضل وأخاه العادل وفرّق العساكر عليها ، ولم يبق معه بالقدس الا بعض الخاصة طمعوا فيه وأغاروا على عسكر مصر وهو قاصد اليه ، ومقدمهم سليمان أخو العادل لأمّه فأخذوه بنواحي الخليل ، وقتلوا وغنموا ونجا فلّهم الى جبل الخليل .وساروا الى الداروم فخربوه .ثم ساروا الى القدس وانتهوا الى بيت فوجة على فرسخين من القدس تاسع جمادى الاولى من سنة ثمان وثمانين . واستعدّ صلاح الدين للحصار ، وفرّق ابراج السور على أمرائه ،وسلط السرايا والبعوث عليهم فرأوا ما لا قبل لهم به فتأخروا عن منازلتهم بيافا . وأصبحت بقولهم وميرتهم غنائم للمسلمين . وبلغهم أن العساكر الشرقية التي مع العادل والافضل عادت الى دمشق فعادوا الى عكا ، وعزموا على محاصرة بيروت فأمر صلاح الدين ابنه الافضل أن يسير في العساكر الشرقية اليها فسار وانتهى الى مرج العيون ، فلم يبرح الافرنج من عكا .

واجتمع عند صلاح الدين خلال ذلك العساكر من حلب وغيرها فسار الى يافا فحاصرها ، وملكها عنوةً في العاشر من رجب من السنة. ثم حاصر القلعة بقية يومه ، وأشرفوا على فتحها . وكانوا ينتظرون المدد

من عكا فشغلوا المسلمين بطلب الأمان الى الغد فأجابوهم اليه. وجاءهم ملك انكلطيرة ليلًا وتبعه مدد عكا. وبرز من الغد فلم يتقدم اليه أحد من المسلمين. ثم نزل بين السماطين وجلس للأكل، وأمر صلاح الدين بالحملة عليهم فتقدّم أخ المشطوب، وكان يلقب بالجناح، وقال لصلاح الدين: نحن نتقدم للقتال ومماليكك للغنيمة فغضب صلاح الدين، وعاد عن الافرنج الى خيامه حتى جاء ابنه الافضل وأخوه العادل فرحل الى الرملة ينتظر ما آل أمره مع الافرنج، وأقاموا بيافا، والله تعالى أعلم.

الصلح بين صلاح الدين والافرنج ومسير ملك انكلطيرة الى بلاده

كان ملك انكلطيرة الى هذه المدّة قد طال مغيبه عن بلاده، ويئس من بلاد الساحل لانّ المسلمين استولوا عليه فأرسل الى صلاح الدين يسأله في الصلح. وظن صلاح الدين أن ذلك مكر فلم يجبه. وطلب الحرب فألح ملك انكلطيرة في السؤال وظهر صدق ذلك منه فترك ما كان فيه من عمارة عسقلان وغزة والداروم والرملة. وبعث الى الملك العادل بأن يتوسط في ذلك فأشار على صلاح الدين بالاجابة هو وسائر الامراء لما حدث عند العسكر من الضجر ونفاد النفقات، وهلاك الدواب والاسلحة، وما بلغهم أن ملك انكلطيرة عائد الى بلاده. وان لم تقع الاجابة آخر فصل الشتاء امتنع ركوب البحر فيقيم الى قابل. فلما وعى ذلك صلاح الدين، وعلم صحته أجاب الى

الصلح ، وعقد الهدنة مع رسل الافرنــج في عشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين لمدّة أربعة وأربعين شهرا ، فتحالفوا على ذلك وأذن صلاح الدين للافرنج في زيارة القدس .

وارتحــل ملك انكلطيرة في البحر عائــداً إلى بلده ، وأقــام الكندهري صاحب صور بعد المركيش ملكاً على الافرنج بسواحل الشام ، وتزوّج الملكة التي كانت تملكهم قبله ، وقبل صلاح الدين كما مرّ . وسار صلاح الدين الى القدس فأصلح أسواره ، وأدخــل كنيسة صهيون في البلد ، وكانت خارج السور . واختط المــدارس والربط والمارستان ، ووقف عليها الاوقاف ، واعتزم على الاحرام منه للحج فاعترضته القواطع دون ذلــك فسار الى دمشق خامس شوّال ، واستخلف عليها الامير جرديك من موالي نور الدين . ومر بكفور المسلمين نابلس وطبرية وصفد وبيروت . ولما انتهى الى بيروت أتاه بهاسمند صاحب انطاكيــة وطرابلس وأعمالها فالتزم طاعــة صلاح الدين ، وعاد ودخل صلاح الــدين دمشق في الخامس والعشرين من شوّال ، وسرّ الناس بقدومه ووهن العدوّ ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وفاة صلاح الدين وحال ولده وأخيه من بعده

ولما وصل صلاح الدين الى دمشق ، وقد خف من شواغل الافرنج بوهنهم ، وما عقد من الهدنة فأراح قليلًا . ثم اعتزم على احداث الغزو

فاستشار ابنه الأفضل ، وأخاه العادل في مذهبه فأشار العادل بخلاط لانه كان وعده أن يقطعه إياها اذا ملكها . وأشار الافضل ببلاد الروم ايالة بني قليج أرسلان لسهولة أمرها ، واعتراض الافرنج فيها اذا قصدوا الشام لانها طريقهم . فقال لاخيه تذهب أنت لخلاط في بعض ولدي وبعض العساكر . وأذهب أنا الى بلاد الروم . فاذا فرغت منها لحقت بكم فسرنا الى أذرَبيجان ، ثم الي بلاد العجم . وأمره بالمسير الي الكرك وهي من أقطاعه ليتجهز منها ويعود لشأنه . فسار الى الكرك ومرض صلاح الدين بعده ومات في صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة لخمس وعشرين سنة من ملكه مصر رحمه الله تعالى .

وكان معه بدمشق ابنه الافضل نور الدين ، والعساكر عنده فملك دمشق والساحل وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وشوش وجميع الاعمال الي الداروم . وكان بمصر ابنه العزيز عثمان فاستولى عليها . وكان بحلب ابنه الظاهر غازي فاستولى عليها وعلي أعمالها مثل : حارم وتل باشر واعزاز وبرزية ودربساك وغيرها . وأطاعه صاحب حماة ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شيركوه . وله مع حماة سلمية والمعرة ومنبج . وابن محمد بن شيركوه ، وله مع الرحبة حمص وتدمر . وببعلبك بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه ، ولقبه الامجد . وببصرى الظافر بن صلاح الدين ، ولقبه الأمجد مع أخيه الافضل . وفي شيزر سابق الدين عثمان بن الداية ، وبالكرك والشوبك الملك العادل . وبلغ الخبر

الى العادل فأقام بالكرك . واستدعاه الافضل من دمشق فلم يجبه فخوفه ابن أخيه العزيز صاحب مصر من عز الدين صاحب الموصل . وقد كان سار من الموصل الى بلاد العادل بالجزيرة فوعده بالنصر منه . وأوهمه الرسول ان يسر الى الأفضل بدمشق أنه متوجه الى العزيز بمصر ليحالفه عليه . فحينئذ ارتاب العادل وسار الى الافضل بدمشق فتلقاه بالمبرة وجهز العساكر لمدافعة عزالدين صاحب الموصل عن بلاد الجزيرة .

وأرسل الى صاحب حمص وصاحب حماة يحضهم على انفاذ العساكر معه ، وعبر بها الفرات . وأقام بنواحي الرها . وكان عزالدين مسعود ابن مودود صاحب الموصل لما بلغه وفاة صلاح الدين اعتزم على المسير الى بلاد العادل بالجزيرة وحران والرها وسائرها ليرتجعها من يده ، ومجاهد الدين قايماز أتابك دولته يثنيه عن ذلك ، ويعذله فيه فتبين حال العادل مع ابن أخيه . وبينما هو في ذلك اذ جاءت الاخبار بأن العادل بحرّان . ثم وافاهم كتابه بأن الأفضل ملك بعد أبيه صلاح الدين ، وأطاعه الناس فكاتب عزالدين جيرانه من الملوك مثل صاحب سنجار وصاحب ماردين يستنجدهم . وجاء اليه أخوه على نصيبين وسار معه الى الرها فأصابه المرض في طريقه ورجع الى الموصل فمات أوّل رجب من السنة ، واستقرّت ايالة العادل في ملكه من الجزيرة فلم يهجه منها أحد ، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده .

مسير العزيز من مصر الى حصار الافضل بدمشق وما استقر بينهم في الولايات

كان العزيز عثمان بن صلاح الدين قد استقرّ بمصر كما ذكرناه، وكان موالي أبيه منحرفين عن الأفضل ورؤساؤهم يومئذ جهاركس وقراجا، وقد استقر بهم عدوّ الافضل والاكراد وموالي شيركوه شيعة له، فكان العدوّ يعدون العزيز بهؤلاء الشيع ويخوفونه من أخيه الافضل ويغرونه بانتزاع دمشق من يده فسار لذلك سنة تسعين وخمسمائة ونزل على دمشق واستنزل الافضل، وهو باعماله بالجزيرة، وسار لعمه العادل بنفسه، وسار معه الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب، وناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه صاحب حماة، وشيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص، وعساكر الموصل من قبل عزالدين مسعود بن مودود. وساروا كلهم إلى الافضل بدمشق لانجاده فامتنع على العزيز مرامه، وتراسلوا في الصلح على أن يكون القدس وأعمال فلسطين للعزيز، وجبلة واللاذقية للظاهر صاحب حلب، وتبقى دمشق وطبرية والغور للأفضل، وأن يستقر العادل بمصر مدبّراً دولة العزيز على اقطاعه الاول، وانعقد الصلح على ذلك، ورجع العزيز الى مصر، وعاد كل الى بلده والله تعالى أعلم.